

نيال فرغسون

بروفسور التاريخ الأبرز في جامعة هارفرد

الحضارة

كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الحضارة

كيف هيمنت حضارة الغرب
على الشرق والغرب؟

نيال فرغسون

الحضارة

كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟


شركة المطبوعات للتوزيع والنشر





الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الثانية ٢٠١٤

ISBN: 978-9953-88-737-1

Originally published as: **Civilization: The West and the Rest.**

ترجمة: سعيد محمد الحسنيَة
تدقيق لغوي: محمد زينو شومان
تصميم الغلاف: داني عوّاد
الإخراج الفني: فدوى قطيش

المحتويات

قائمة الرسومات

١٤- الرد على مكيافيلي، فردريك الكبير، مع تذييلات بقلم فولتير ***(ديوالد أوكيما)***

١٥- صفحات من النسخة الألمانية لكتاب بنيامين روبين، ***مبادئ جديدة في المدفعية*** ***(ديوالد أوكيما)***

١٦- ماشو بيكو، بيرو ***(ديوالد أوكيما)***

١٧- بونيارد بيتش، كارولينا الجنوبية (ديوالد أوكيما)

١٨- وثيقة عقد عمل ميليسنت هاو ***(الأرشيف الوطني في كيو)***

١٩- هبة أرض آبراهام سميث ***(الأرشيف الوطني في كيو)***

٢٠- خريطة تشارلستون ***(الجمعية التاريخية في كارولينا الجنوبية)***

٢١- جيرونيمو دي آلياجا ***(ديوالد أوكيما)***

٢٢- جدارية سيمون بوليفار في كاراكاس هذه الأيام ***(ديوالد أوكيما)***

٢٣- ندوب على ظهر عبد ***(غاليري اللوحات الوطنية، واشنطن، العاصمة؛ فوتو سكالا، فلورنسا)***

٢٤- سانت لويس، السنغال ***(ديوالد أوكيما)***

٢٥- بلايز ديان ***(جيتي)***

٢٦- لويس فايدهيرب ***(كوربيس)***

٢٧- المجندون السنغاليون ***(معهد باستور)***

٢٨- الأطباء الفرنسيون في المناطق الاستوائية

٢٩- ثلاث صور لنساء «مولودات بطريقة غير شرعية» ***(أدريان بينيك)***

٣٠- مجنّد سنغالي في الجبهة الغربية (***وزارة الدفاع الفرنسية حقّ نشر*** ECPAD)

قائمة الخرائط

قائمة الرسومات البيانية

مقدمة الطبعة البريطانية

أحاول في هذه اللحظة تحديد الوقت الذي خطرت فيه هذه الفكرة على ذهني، وزمانها. هل حدث ذلك في أثناء جولتي الأولى بمحاذاة السدّ المائي في شنغهاي، التي قمت بها في العام ٢٠٠٥؟ أم هل حدث ذلك عندما كنت وسط سحابة الدخان والضباب والغبار التي تغطي مدينة شونغ كينغ، أي عندما كنت أصغي إلى أحد المسؤولين المحليين في الحزب الشيوعي وهو يصف لي كومةً من الأحجار على أنها المركز المالي المستقبلي لمنطقة جنوب ـ غرب الصين؟ كان ذلك في العام ٢٠٠٨، وأذكر أن إعجابي بالمجسّم فاق إعجابي بذلك العرض المدهش الذي أُقيم بمناسبة افتتاح الألعاب الأوليمبية في بيجينغ. أم هل خطرت لي هذه الفكرة عندما كنت جالساً في قاعة كارنيجي في العام ٢٠٠٩، مصغياً بذهول في ذلك الوقت إلى ذلك المؤلف الموسيقي الصيني الشاب والموهوب، آنجيل لام، الذي يجسّد تشريق الموسيقى الكلاسيكية؟ أعتقد أنني شعرت حينئذ، وحينئذ فقط، بأنني فهمت أن نهاية العقد الأول من القرن الواحد والعشرين تؤشر إلى أننا نعيش نهاية ٥٠٠ عام من صعود الغرب.

أما السؤال الرئيس الذي يحاول هذا الكتاب معالجته، فيلوح لي، بشكلٍ متزايد، أنه أكثر الأسئلة المثيرة للاهتمام التي يُمكن أن يطرحها مؤرِّخ الحقبة الحديثة. أما

السؤال فهو: لماذا تمكّنت حفنة من الدول الصغيرة الواقعة عند الطرف الغربي من أوراسيا [كتلة أوروبا وآسيا]، بدءاً من العام ١٥٠٠، من السيطرة على بقية أنحاء العالم، وهي مساحة تضم بعض أكثر المناطق كثافة سكانية، وبعض أكثر المجتمعات تقدماً في شرق أوراسيا؟ أما سؤالي الفرعي فقد كان على هذا النحو: إذا تمكنا من الحصول على تفسير مقنع عن صعود الغرب في الماضي، فهل سنستطيع تقديم توقعات لمستقبل ذلك الصعود؟ هل يعني ذلك حقاً نهاية عالم الغرب، وقدوم الحقبة الشرقية الجديدة؟ هل يعني ذلك، وبكلمات أخرى، أننا نشهد انحسار العصر الذي رزحت فيه الغالبية الساحقة من البشرية، بشكلٍ أو بآخر، تحت نير الحضارة التي نشأت في أوروبا الغربية غداة عصر النهضة والإصلاح، وهي الحضارة التي عزّزها التنوير والثورة العلمية، والتي انتشرت عبر المحيط الأطلسي ووصلت حتى أقاصي العالم، وأن هذه الحضارة قد وصلت أخيراً إلى أوجها في خلال أعصر الثورة، والصناعة، والحكم الأمبراطوري؟

إن مجرد طرحي لأسئلة كهذه يوحي بأمرٍ ما بشأن العقد الأول من القرن الواحد والعشرين. افترضت عندما كنت في العشرينيات والثلاثينيات من عمري أنني سوف أمضي حياتي المهنية إما في أكسفورد وإما في كامبريدج، وأنا الذي ولدت في اسكتلندا ونشأت فيها، كما تلقيت تعليمي في أكاديمية غلاسكو وفي جامعة أكسفورد. بدأت أولاً بالتفكير في الانتقال إلى الولايات المتحدة، وذلك عندما طرح عليّ هنري كوفمان، وهو أحد أبرز الداعمين الماليين لمعهد شتيرن للتجارة التابع لجامعة نيويورك، وأحد المخضرمين في وال ستريت، سؤالاً عن العوامل التي تمنع شخصاً ما يهتم بتاريخ المال والسلطة من القدوم إلى حيث يتركز المال والسلطة في حقيقة الأمر. وأين يُمكن أن يكون ذلك في مكانٍ غير وسط مانهاتن؟ وما إن أطلت الألفية الجديدة حتى ترسّخت صورة بورصة نيويورك بوصفها مركزاً لشبكة اقتصادية عالمية هائلة، أميركية في تصميمها، وهي الشبكة التي يمتلك الأميركيون معظمها. أما فقاعة شركات الدوت كوم فقد أخذت بالتضاؤل على ما ظهر في ذلك الوقت، كما

أن ركوداً صغيراً، لكنه سيئ بطبيعته، أدى إلى خسارة الديمقراطيين للبيت الأبيض، وذلك في وقتٍ بدا فيه أن التزامهم تسديد الدين القومي [العام] هو التزام معقول غالباً. واجه جورج دبليو بوش في غضون الأشهر الثمانية الأولى من توليه منصب الرئيس حادثة أدت إلى تعزيز مركزية مانهاتن بالنسبة إلى العالم الذي يهيمن عليه الغرب. إن قيام إرهابيين تابعين للقاعدة بتدمير مركز التجارة العالمي كان ثناءً مريعاً على دور مدينة نيويورك. كانت هذه المدينة الهدف الرقم واحد لأي شخص يريد تحدي الهيمنة الغربية بشكلٍ جدي.

كانت الأحداث التي أعقبت هذا التدمير مثقلة بالتحديات: قلبُ نظام طالبان في أفغانستان، وتحديد أن الوقت مناسبٌ لتغيير أنظمة الحكم في دول «محور الشر»، وقلبُ نظام صدّام حسين في العراق. استمر ذلك الفارس التكساسي [بوش] في تصدّر استطلاعات الرأي وهو الأمر الذي مهّد لإعادة انتخابه. أظهر الاقتصاد الأميركي تعافياً ملحوظاً في ذلك الوقت بفضل التخفيضات الضريبية. أما «أوروبا العجوز»، هذ إذا لم نذكر أميركا المتحررة، فقد كانت تغلي من دون طائل. دُهشت شخصياً لذلك الوضع، وما لبثت أن انكببت على القراءة والكتابة عن الأمبراطوريات بشكلٍ متزايد، وعلى الخصوص دروس بريطانيا التي تصلح لأميركا. كانت نتيجة تلك الفترة ظهور كتابي **الأمبراطورية: كيف صنعت بريطانيا العالم الحديث** (٢٠٠٣). تبيّن لي وأنا أتأمل في صعود الأمبراطورية الأميركية، وحكمها، وسقوطها المحتمل، أن القوة الأميركية تعاني في أعماقها ثلاث نقائص مميتة: عجزٌ في القوة البشرية (عدم وجود ما يكفي من الجنود في أفغانستان والعراق)، وعجزٌ في الانتباه (عدم وجود ما يكفي من الحماسة الجماهيرية للاحتلال طويل الأمد للبلدان المحتلة) وفوق ذلك كله فهي تعاني عجزاً مالياً (عدم وجود ما يكفي من المدّخرات بالنسبة إلى الاستثمارات، وعدم فرض ضرائب كافية بالنسبة إلى الإنفاق العام).

سبق لي أن حذّرت في كتابي **العملاق: صعود الأمبراطورية الأميركية وهبوطها** (٢٠٠٤)، بأن الولايات المتحدة انتهت إلى الاعتماد تدريجاً على رأسمال شرق آسيا

لتمويل حساباتها المالية الجارية وغير المتوازنة. إن صعود الأمبراطورية الأميركية غير المعلنة وسقوطها يُمكن، لهذا السبب، أن لا يرجع إلى الإرهابيين الرابضين على أبواب هذه الأمبراطورية، ولا إلى الأنظمة الشرّيرة التي ترعاها، لكنه يرجع إلى الأزمة المالية الكامنة في عمق الأمبراطورية ذاتها. قمت أنا وموريتز شولاريك في أواخر العام ٢٠٠٦ بصوغ كلمة «**صيميركا**» [كلمة منحوتة من كلمتَي **صين** و**أميركا**] وذلك للتعبير عما رأينا فيه علاقة غير قابلة للبقاء. تمثّل تلك الكلمة تلاعباً بالألفاظ مع كلمة chimera التي تعني الوهم، وكنا نشير إلى العلاقة القائمة ما بين الصين المقتّرة وأميركا المسرفة. أردنا بهذا أن نحدد أحد عوامل الأزمة المالية العالمية القادمة. إننا نرى أنه لولا توافر العمالة الصينية الرخيصة، والرأسمال الصيني الرخيص للمستهلك الأميركي، لكانت فقاعة [الازدهار الاقتصادي] التي برزت ما بين العامين ٢٠٠٢ - ٢٠٠٧ أقل تألقاً.

تعرّض وهم القوة الأميركية المفرطة للانكسار ليس مرةً واحدةً وحسب بل مرتين في خلال فترة رئاسة جورج دبليو بوش. ظهرت النُذُر أولاً في الشوارع الخلفية لمدينة الصدر، وفي ساحات هيلمند، وهي التي أظهرت ليس حدود القوة العسكرية الأميركية، بل، والأهم من ذلك، سذاجة تصورات المحافظين الجدد لحدوث موجة الديمقراطية في الشرق الأوسط الكبير. ظهرت النُذُر ثانيةً في تفاقم أزمة الرهونات العقارية في العام ٢٠٠٧، وهي الأزمة التي أدت إلى أزمة الديون الساحقة في العام ٢٠٠٨، والتي انتهت أخيراً «بالركود الاقتصادي الكبير» في العام ٢٠٠٩. أما بعد إفلاس مصرف ليمان براذرز، وظهور زيف وقائع «إجماع واشنطن» و«الاعتدال الكبير»، وهو تعبير المصارف المركزية الرديف «لنهاية التاريخ» فقد انتهت جميعها إلى الضياع في غياهب النسيان. برزت بشكلٍ مريع في هذه الفترة إمكانية حدوث كسادٍ كبيرٍ ثانٍ. ما هي العوامل المسؤولة عما حدث؟ جادلت في سلسلةٍ من المقالات والمحاضرات التي كتبتها وألقيتها بدءاً من منتصف العام ٢٠٠٦ ـ وكانت ذروتها في نشر كتاب **صعود الأموال** الذي صدر في شهر تشرين الثاني من العام ٢٠٠٨، أي

عندما وصلت الأزمة المالية إلى أسوأ مراحلها ـ بأن جميع المكوّنات الرئيسة للنظام المالي الدولي قد ضعُفت، بشكلٍ كارثي، نتيجة الاستدانة المفرطة لآجالٍ قصيرة الأمد حسبما ظهرت في ميزانيات المصارف، وهي الديون التي سُعِّرت جميعها بشكلٍ خاطئ، والرهونات التي كانت مقيمةً على أساس ضماناتٍ مالية [سندات] بشكلٍ مبالغٍ فيه عملياً، وكذلك كل الإجراءات [المنتجات] الأخرى المصممة مالياً، وكذلك السياسات المالية التي تتميز بالتساهل الشديد من قبل المصرف المركزي الأميركي. يُضاف إلى ذلك فقاعة الإسكان التي صُمّمت بدوافع سياسية، وأخيراً البيع غير المشروط لعقود تأميناتٍ زائفة (وهي التي تُعرف باسم المشتقات derivatives)، وكذلك تقديم حماية مزيفة ضد عوامل غير مؤكدة وغير معروفة، وذلك في مقابل مخاطر قابلة للتحديد والتقييم. كان من المفترض أن تؤدي سياسة عولمة المؤسسات المالية، التي كانت غربية في أساسها، إلى تهيئة أساسٍ لحقبةٍ جديدة تتسم بتقلباتٍ اقتصادية أقل. يستدعي الأمر معرفة تاريخية من أجل استشراف كيفية تمكّن أزمة سيولة من النوع المعهود قديماً من التسبب بانهيار صرحٍ متقلقلٍ ومصممٍ مالياً.

تراجع خطر بروز ركودٍ اقتصادي ثانٍ بعد صيف العام ٢٠٠٩ وإن لم يتلاشَ تماماً، لكن العالم تغيّر مع ذلك. إن الانهيار المثير للتجارة العالمية الذي نتج من الأزمة المالية، والذي جاء بعد التلاشي المفاجئ للقروض المخصصة لتمويل الواردات والصادرات، كان يُمكن أن يؤدي إلى الإضرار بالاقتصادات الآسيوية الكبيرة وهي التي يُفترض أنها تعتمد في صادراتها على الغرب. عانت الصين تباطؤاً طفيفاً في معدل النمو فقط، ويعود الفضل في ذلك إلى برنامج التحفيز الحكومي الذي كان شديد الفاعلية. كان ذلك إنجازاً مدهشاً لم يتوقعه سوى عدد قليل من الخبراء. يبقى احتمال أن تستمر الصين في المضي قُدُماً بثورتها الصناعية وارداً في وقت تأليف هذا الكتاب (كانون الأول من العام ٢٠١٠)، وذلك بالرغم من الصعوبات الجمّة في إدارة اقتصادٍ بحجم قارة لنحو مليار وثلاثمئة مليون نسمة، وكأنه اقتصاد لسنغافورة عملاقة، كما يتوقع أنها في غضون عقدٍ من الزمن سوف تتجاوز الولايات المتحدة

من ناحية الناتج الإجمالي المحلي، أي كما فعلت اليابان عندما تجاوزت المملكة المتحدة في العام ١٩٦٣.

حافظ الغرب على تفوقٍ حقيقي ومستمر على بقية أنحاء العالم في معظم فترة السنوات الخمسمئة المنصرمة. بدأت الفجوة ما بين مداخيل الغربيين والصينيين بالاتساع منذ زمنٍ طويل، أي منذ القرن السابع عشر، واستمرت بالاتساع إلى زمنٍ قريب، أي إلى أواخر السبعينيات من القرن المنصرم، هذا إذا لم يكن إلى وقتٍ أقرب من ذلك. بدأت الفجوة تضيق منذ ذلك الوقت وهي فعلت ذلك بسرعةٍ مدهشة. بلورت الأزمة المالية السؤال التاريخي الثاني الذي أردت طرحه. هل انتهى التفوق الغربي؟ أما الإجابة عن هذا السؤال فهي غير ممكنة، على ما أعتقد، إلا بعد تحديد مكوّنات ذلك التفوّق.

يتعلق ما سوف أعرضه في الصفحات التالية بالمنهجية التاريخية، وهكذا يستطيع القراء الذين لا يتمتعون بالصبر الانتقال مباشرة إلى المقدمة. إن ما دفعني إلى تأليف هذا الكتاب هو الانطباع القوي الذي تكوّن عندي بأن الأشخاص الذين هم على قيد الحياة حالياً لا يعيرون انتباهاً كافياً للأشخاص الذين ماتوا. كوّنت لدى مراقبتي أولادي الثلاثة وهم يكبرون شعوراً مزعجاً بأنهم يتعلمون قدراً أقل من مادة التاريخ عما تعلمته أنا عندما كنت في مثل أعمارهم. لا يعود السبب إلى عدم كفاية أساتذتهم، بل إلى كتب التاريخ السيئة، وإلى امتحانات هذه المادة التي هي أسوأ منها. أدركت بعد ظهور الأزمة المالية أنهم ليسوا نسيج وحدهم في ذلك الاتجاه، كما بدا لي وكأن حفنة قليلة فقط من المسؤولين في المصارف ووزارات المالية في العالم الغربي يمتلكون ما يتعدى المعلومات القليلة عن الركود الاقتصادي السابق. تلقى الشبّان في المدارس والجامعات الغربية، على مدى الأعوام الثلاثين المنصرمة، تعليمهم على أساس التعليم الحر، أي من دون أن يتلقوا معرفة أساسية في التاريخ. تلقى هؤلاء الشبّان «فصولاً» معزولة أبعد ما تكون عن القصص، ومن دون أي تحديد زمني لها. تدرّب هؤلاء كذلك على التحليل السطحي لمختارات محددة من الوثائق، وليس على المهارة الأساسية للقراءة الواسعة والسريعة، كما تلقوا تشجيعاً

على الشعور بالتعاطف مع قادة رومانيين وهميين، أو مع ضحايا الهولوكوست، لكن لم يتلقوا أي تشجيع على كتابة مقالات عن كيفية نشوء محن هؤلاء وأسبابها. وضع الكاتب المسرحي **آلان بينيت** ثلاثة خيارات في مسرحيته **شبان التاريخ**: «هل ينبغي تعليم التاريخ بأسلوب الجدال بين النقائض، أم على أساس التشارك بين **الحقيقة والجمال** الماضيين، أم بأسلوب سرد حادثةٍ تلو أخرى؟» لا يبدو أن الكاتب على علم أن طلاب الصفوف النهائية هذه الأيام لا يتلقون أياً من تلك الأساليب الثلاثة. أما أفضل ما يتلقونه فهو حفنة من تلك الحوادث التي ترد الواحدة في إثر الأخرى، علماً أنها لا ترد إليهم بترتيبٍ محدد.

اعترف لي ذات مرة الرئيس السابق للجامعة التي أدرّس فيها أنه عندما كان طالباً في **معهد ماساشوستس للتقانة**، ناشدته والدته كي يأخذ مقرراً واحداً على الأقل في مادة التاريخ. أجاب ذلك الشاب اللامع بلهجةٍ لا تخلو من الغرور بأنه يهتم بالمستقبل أكثر مما يهتم بالماضي. أدرك الرئيس الآن أن خياره ذاك كان مجرد وهم. لا يوجد، في حقيقة الأمر، مستقبل بصيغة المفرد، بل مستقبل بصيغة الجمع [مستقبلات]. ثمة تفسيرات متعددة للتاريخ، لكن المؤكد أنه لا توجد له صيغة قاطعة واحدة، لكننا نمتلك ماضياً واحداً فقط. بالرغم من أن الماضي قد انتهى لكنه ضرورة لا غنى عنها لفهم ما نواجهه في الحاضر، وما يُمكن أن يستجلبه لنا الغد وما بعده، وذلك لسببين: **أولهما**، يمثّل سكان العالم الذين هم على قيد الحياة حالياً ما يقرب من ٧ بالمئة من كل أعداد البشر الذين عاشوا فوق هذه البسيطة. يعني ذلك، وبكلماتٍ أخرى أن أعداد الموتى تفوق كثيراً أعداد الأحياء، وذلك بنسب ١٤ إلى واحد، لكننا مع ذلك نتجاهل، في أوقات أزماتنا، الخبرات المتراكمة لهذا العدد الكبير من البشر. **ثانيهما**، يمثّل الماضي في واقع الأمر المصدر الوحيد الموثوق به لمعرفتنا بشأن الحاضر العابر، وكذلك بشأن الصيَغ المتعددة للمستقبل الذي ينتظرنا، التي ستتحقق منها صيغة واحدة فقط. لا يتعلق التاريخ بكيفية دراستنا للماضي وحسب بل بكيفية دراستنا للزمن ذاته.

دعونا أولاً نعترف بحدود دراستنا للمادة. إن المؤرّخين ليسوا بعلماء، وهكذا فإنهم لا يستطيعون، ولا يُفترض أن يحاولوا، وضع قوانين شاملة «للطبيعيات [الفيزياء]» المجتمعية أو السياسية، وتكون مترافقة مع قدرات توقعية موثوق بها. لماذا؟ يعود السبب إلى عدم إمكانية تكرار تلك التجربة [البشرية] الممتدة على مدى عدة آلاف من السنين والتي تُكوّن ما نسميه الماضي. يمثّل حجم هذا النموذج من التاريخ البشري هذا الماضي. يُضاف إلى ذلك أن «جزيئات» هذه التجربة الهائلة تمتلك وعياً، وإن كان معرضاً للانحراف بسبب كل أنواع الانحيازات المعرفية. يستدعي ذلك صعوبة توقع سلوكاتها بشكل أكبر مما لو كانت هذه «الجزيئات» عديمة الحس، وطائشة، والتفافية. إن ميل الناس الفطري إلى التعلّم من أخطائهم الشخصية هو إحدى غرائب الحالة الإنسانية. يعني ذلك أن سلوكهم قابل للتكيّف، وهو يتغيّر مع الزمن. إننا لا نطوف عشوائياً بل نسير في مسارات، وهكذا تقرّر الأمور التي سبق لها أن واجهتنا الاتجاه الذي نختاره عندما تتفرع أمامنا السُبُل، وهذا ما يحدث على الدوام.

إذاً، ما الذي يستطيع المؤرّخون فعله؟ أولاً، يستطيع المؤرخون إذا ما قلّدوا علماء الاجتماع، وبالاستناد إلى معطيات كمية، استنباط «قوانين شاملة covering» بمعنى إصدار أحكام عامة، على نحو ما قصده كارل هيمبل، بشأن الماضي أحكام تبدو أنها تغطي معظم الحالات (مثال ذلك عندما يتسلم أحد الطغاة السلطة بدلاً من رئيس منتخبٍ ديمقراطياً، تتزايد فرص اتجاه بلاده إلى الحرب). يستطيع المؤرّخ بدلاً من ذلك، وبالرغم من أن النهجين ليسا منعزلين، مناجاة [أو الاتصال] من ماتوا عندما يعيد بناء تجاربهم [أو خبراتهم] بصورةٍ تخيلية، وبالطريقة التي وصفها فيلسوف أكسفورد العظيم آر. جي. **كولينغوود** في كتابه الذي صدر في العام ١٩٣٩ وعنوانه **سيرة ذاتية**. يسمح لنا هذان النمطان من البحث التاريخي بالالتفات إلى آثار الماضي الباقية في التاريخ، وهي التي تمثّل مجموعة من المعارف والتفسيرات تؤدي إلى ترتيب الأزمات البشرية والإضاءة عليها بطريقةٍ استرجاعية. يعني ذلك ضرورة

أن تكون كل عبارة توقعية جدية حول الصيغ المستقبلية المحتملة والمتعددة التي نواجهها مستندةً، إما بصورة ضمنية وإما صريحة، إلى أحد هذين النهجين التاريخيين أو كليهما. أما إذا لم تكن الحال كذلك فيعني ذلك أن تلك العبارة التوقعية تنتمي إلى فئة الأبراج التي تظهر في صحيفة هذا الصباح.

إن طموح **كولينغوود**، الذي جاء عقب خيبة الأمل من التاريخ الطبيعي وعلم النفس بعد مذبحة الحرب العالمية الأولى، نقل التاريخ إلى العصر الحديث ونبذ ما عدّه «تاريخ الملصقات [المقتطفات] المختارة»، الذي يكتفي الكاتب حياله «بترديد ما قاله غيره من قبل فقط، وذلك بعد إعادة ترتيبها وتغيير أسلوب صياغتها». تستأهل العملية الفكرية التي ينتهجها إعادة صوغها على النحو الآتي:

«إن الماضي الذي يدرسه مؤرّخٌ ما ليس ماضياً ميتاً، لكنه ماضٍ مستمر بالعيش في الحاضر بمفهومٍ ما» عبر شكل الآثار التي بقيت (وثائق ومصنوعات يدوية).

«كل التاريخ هو تاريخ فكر»، بمعنى أن أي دليل تاريخي يكون خالياً من المعنى إذا عجزنا عن استنباط هدفه المقصود.

تتطلب عملية الاستنباط قفزة من خلال الزمن تكون واسعة الخيال: «إن المعرفة التاريخية هي إعادة إحياء تجري في عقل المؤرخ للفكرة التي يدرس تاريخها».

لكن المعنى الحقيقي للتاريخ يتولد من تراصف الماضي والحاضر: «إن المعرفة التاريخية هي إعادة إحياء فكرة ماضية بعد تضمينها في سياق أفكارٍ حاضرة وبعد حصرها في مستوى مختلف، وذلك عن طريق مناقضتها [مقابلتها بالأفكار الماضية]».

وهكذا يُمكن للمؤرّخ «أن **يرتبط بصورة وثيقة بغير المؤرخ بمثل ما يرتبط رجل الغابات بالمسافر الجاهل**. يعتقد المؤرخ أنه «لا يوجد شيء هنا غير الأشجار والأعشاب» وذلك قبل أن يمضي في سيره. لكن ساكن الغابة يقول له: «إسمع، هناك نمر بين الأعشاب». يجادل كولينغوود، بكلمات أخرى، بأن التاريخ يقدم لنا «شيئاً مختلفاً تماماً عن القوانين [العلمية]، وبالتحديد التبصر insight».

إن الوظيفة الحقيقية للتبصّر التاريخي هي «إعلام [الناس] بشأن الحاضر، وذلك مادام الماضي، وموضوعه المزعوم، محصورين في الحاضر [ويمثلان] جزءاً منه، وإن لم يكن ذلك ظاهراً أمام الأعين غير المتخصصة».

أما بالنسبة إلى اختيارنا مادة الموضوع من أجل إخضاعها للبحث [التدقيق] التاريخي، فإن كولينغوود يوضح بأنه لا شيء يشوب ما عدّه نظيره في كامبريدج، **هيربرت بترفيلد** «عقلية الحاضر»: **تبرز المشاكل التاريخية الحقيقية من بين مشاكل عملية.** إننا ندرس التاريخ من أجل الحصول على رؤية أوضح للوضع الذي نجد فيه أنفسنا. يعني ذلك في آخر الأمر أن المستوى الذي تبرز منه كل المشاكل هو مستوى الحياة «الواقعية»: «لأنها تعود جميعها إلى التاريخ من أجل حلّها».

بقي **كولينغوود** مرشدي لسنواتٍ عديدة، وهو الرجل متعدد المعارف، أي إنه خبير بعلم الآثار مثلما كان خبيراً بالفلسفة، والخصم القوي للتملق، والرجل الذي كره صحيفة **الديلي مايل** (*) منذ زمنٍ طويل، وهكذا كان هو الرجل الذي لا يمكنني الاستغناء عنه عند تأليفي هذا الكتاب. يعود ذلك إلى أن مشكلة أسباب سقوط الحضارات هي أشد أهمية بكثير من أن تُترك بين أيدي الذين يروّجون التاريخ بوصفه ملصقاتٍ مختارة. إنها بالفعل مشكلة عملية لزمننا، وهكذا فإن المقصود من هذا الكتاب أن يكون دليل رجل الغابة إليها. يعود ذلك إلى وجود أكثر من نمرٍ واحد مختبئٍ بين أعشاب هذه المشكلة.

حرصت» في أثناء إعادتي تشكيل فكرة الماضي على محاولة أن أتذكر على الدوام حقيقةً بسيطة، وهي التي يجد الرجل الذي يفتقد خبرة في التاريخ نفسه عرضةً لنسيانها. مات معظم الناس الذين عاشوا في الماضي إما في عمر الشباب، وإما كان من المتوقع أن يموتوا في ذلك العمر. أما الذين لم يموتوا في سنٍ مبكرة

(*) التي سماها أوّل صحيفة إنكليزية فقدت من خلالها كلمة «أخبار» معناها القديم، أي الحقائق التي ينبغي أن يعرفها... واكتسبت المعنى الجديد الذي هو: الحقائق، أو الخيال، اللذين قد يروق للقارئ قراءتها.

فقد كانوا تكراراً عرضةً للحزن على أحباء لهم ماتوا في عمر الشباب. أريد هنا ذكرَ الشاعر المفضّل عندي، **جون دون**، وهو من اليعاقبة [من عصر الملك جايمس الأول] وقد عاش حتى سن التاسعة والخمسين، حيث كان يكبرني بثلاثة عشر عاماً في أثناء تأليفي هذا الكتاب. كان **جون** محامياً، وعضواً في البرلمان، وهو كان قساً أنجليكانياً بعد تخليه عن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. تزوج جون من أجل الحب، وخسر لهذا السبب وظيفته بوصفه مساعداً لعم عروسه، السير توماس إيغرتون الذي كان يشغل وظيفة حامل الختم الملكي (*). أمضى جون ستة عشر عاماً في الفقر، لكن زوجته أنجبت له في خلالها اثني عشر ولداً. مات ثلاثة من الأولاد، وهم فرنسيس، ونيكولاس، وماري، قبل بلوغهم سن العاشرة. أما آن فقد ماتت بعد إنجابها طفلها الثاني عشر الذي مات بعد الولادة مباشرة. خسر **جون دون** بعد ذلك ابنته **لوسي، التي كانت المفضلة لديه، وكاد يلحق بها إلى القبر عندما كتب كتابات من وحي المناسبات الطارئة** Devotions upon Emergent Occassions (١٦٢٤)، وهي المقطوعة التي تحتوي على أعظم ما كتب عن التعاطف مع الموتى: «أشعر عند موت أي رجل بأنه أخذ شيئاً مني ، لأنني جزء من الجنس البشري، وهكذا لا حاجة لك أن تعرف لمن تُقرع الأجراس، لأن الجرس يدق لأجلك». دفعه موت أحد أصدقائه بعد مضي ثلاث سنوات إلى كتابة «مسائية بمناسبة يوم **القديسة لوسي**، لكونه **اليوم الأقصر**»:

تأمليني هناك في العالم الآخر
حيث سيوجد أحباؤك، في الربيع القادم
لأنني موجود في كل ما مات،
أنا الذي أعطاني حبك كيمياء جديدة

(*) بعد اعتقاله لفترة وجيزة لتحديه والدها، قالت ساخرة: «جون دون - آن دون - قُضي علينا (وهي لعبة كلامية باللغة الإنكليزية: John Done - Anne Donne - Un Done): لا عجب أنه أحبها.

وعبّرت عنه بفني

إنه الجوهر الآتي حتى مع العدم،

ومن الحرمان القاسي ومن الفراغ الخالص،

دمرني هذا الحب، وها أنا أولد من جديد

بسبب الغياب، والظلمة، والموت، وهي أشياء من العدم.

يجب على أي شخصٍ يريد الحصول على فهم أفضل لأوضاع الإنسان في أيام كان فيها العمر المتوقع للشخص أقل من نصف ماً هو عليه هذه الأيام، أن يقرأ هذهً الأسطر.

أدت قدرة الموت العظيمة على قطف أعمار الناس في عزّ شبابهم ليس إلى جعل الحياة قلقة، بل إلى ملئها بالحزن. يعني ذلك أيضاً أن معظم الأشخاص الذين بنوا الحضارات في الماضي كانوا شباناً عندما ساهموا فيها. أما الفيلسوف الهولندي اليهودي الكبير باروخ، أو بينيديكت، سبينوزا، وهو الذي افترض وجود كونٍ مادي فقط يتكون من المادة والسببية الحتمية، وأن **الله هو النظام الطبيعي لذلك الكون كما نفهمه وليس أكثر**، فقد مات في العام ١٦٧٧ وهو في الرابعة والأربعين من العمر. ولعل موته كان بسبب ذرّات الزجاج التي كان يتنفسها في أثناء عمله نهاراً في صقل العدسات. أما **بلايز باسكال**، وهو رائد نظرية الاحتمالات وديناميكا السوائل، وكاتب Pensees، والذي يعدّ أكبر مدافع عن الدِّين المسيحي، فقد عاش حتى التاسعة والثلاثين فقط، وكان من الممكن أن يموت في عمرٍ أبكر لو كان حادث الطريق الذي تعرّض له أكثر خطورة، وهو الحادث الذي أيقظ فيه الجانب الروحي. كيف لنا أن نعلم كم من الأعمال العظيمة الأخرى التي كان يُمكن للعباقرة تقديمها لو أنهم عاشوا عمراً أطول، نعني بذلك أمثال الأعلام إيراسيموس الذي مات في التاسعة والستين، ومونتان الذي مات في التاسعة والخمسين، وموزار الذي ألّف أكثر مقطوعات الأوبرا كمالاً على الإطلاق، وهي أوبرا **دون جيوفاني**، وهو الذي لم

يتجاوز عمره عندما مات الخامسة والثلاثين. أما فرانز شوبيرت، وهو مؤلف الخماسية الوترية الرائعة في **(سي دي ٩٥٦)**، فقد مات لربما بسبب إصابته بداء السفلس بينما كان في عمر الحادية والثلاثين فقط. كان إنتاج كل هؤلاء غزيراً جداً، لكن من يعرف المقطوعات الأخرى التي كان يُمكن لكل هؤلاء تأليفها لو أنهم تمكنوا من العيش حتى الثالثة والستين، أي كما عاش جوهانس برامز ذو الطباع الهادئة، أو حتى العمر الذي عاشه **أنطون بروكنر** الأكثر هدوءاً، والذي أسعده الحظ بأن عاش حتى الثانية والسبعين؟ أما الشاعر الأسكتلندي **روبرت بيرنز**، الذي كتب أروع مقطوعة عن المساواة تحت عنوان «A Man's a Man's for A'That» ، فقد كان في السابعة والثلاثين عندما مات في العام ١٧٩٦. أليس من غير العدل أن يموت الشاعر الذي كان يحتقر الألقاب الموروثة أكثر من أي شيء آخر (لا تعدو الألقاب أن تكون ختماً لا قيمة له، / الرجل هو الجوهر) في حين يعيش الشاعر الذي كانت الألقاب أهم شيء بالنسبة إليه، وهو **ألفرد لورد تينيسون** وقد مات حاملاً أوسمة الشرف وهو في عمر الثالثة والثمانين. أما مقطوعة بيلغرايف **الخزنة الذهبية** فهي تنطبق على بيرنز أكثر مما تنطبق على تينيسون. وكيف كانت ستبدو المعارض الفنية في العالم هذه الأيام فيما لو عاش جان فيرمير، الذي يمتاز بالجدية، حتى الواحدة والتسعين، ولو مات بابلو بيكاسو، الذي امتاز بغزارة الإنتاج، في التاسعة والثلاثين، بدلاً أن يكون العكس هو الصحيح كما هو واقع الحال؟

السياسة هي فنٌّ بدورها، وهي جزء من حضارتنا كما هي الفلسفة، والأوبرا، والشعر أو الرسم. لكن أعظم فنانٍ سياسي في التاريخ الأميركي، أي أبراهام لينكولن، لم يتبوأ منصبه في البيت الأبيض سوى فترة رئاسية واحدة قبل أن يسقط صريعاً على يد أحد القتلة الحاقدين، وذلك بعد ستة أسابيع فقط على خطابه الرئاسي في فترة ولايته الثانية. كان لينكولن آنذاك في السادسة والخمسين. كيف كانت فترة إعادة البناء سوف تبدو ـ لو أن هذا العملاق الذي بنى نفسه بنفسه، والذي وُلد في حجرةٍ خشبية، والذي كتب **خطاب غيتسبيرغ** الرائع، وهو الخطاب الذي أعاد فيه

تعريف الولايات المتّحدة بوصفها «أمة ولدت في أحضان الحرية، ومكرسة للنظرية التي تقول إن كل الناس ولدوا متساوين» ولديها «حكومة من الشعب، ومنتخبة من الشعب، وتعمل لأجل الشعب» - ولو أنه عاش إلى العمر الذي وصل إليه ذلك النبيل الذي كان يمارس لعبة البولو، والذي كان مصاباً بمرض شلل الأطفال، أي **فرنكلين ديلانو روزفلت**، والذي استطاعت العلوم الطبية إبقاءه حياً لفترة مكّنته من البقاء في منصبه لأربع فترات رئاسية تقريباً، قبل أن يموت في الثالثة والستين؟

كتب رجل الاقتصاد والمنظّر الاجتماعي اللامع، آدم سميث **نظرية المشاعر الأخلاقية** قبل قرن ونصف قرن من **مذكّرات كولينغوود**، وهي المقالة التي حدّد فيها سبب كون المجتمع المتحضّر ليس بذلك المجتمع الذي يخوض فيه الجميع حرباً ضد كل الآخرين، وذلك لأنه مجتمع يستند إلى التعاطف:

بسبب عدم امتلاكنا خبرة مباشرة حول طبيعة مشاعر الآخرين، لا يمكننا تكوين أي فكرة عن كيفية تأثرهم [بالعوامل الخارجية] إلا عن طريق تصورنا لطبيعة شعورنا في ظروف مماثلةٍ لظروفهم. وبالرغم من أن أخاً لنا قد يمر في فترةٍ ارتباك ذهني، إلا أن حواسنا لن تعلمنا بمدى عذاباته إذا كنا نمر بفترة استرخاء. لم يسبق لحواسنا أن نقلتنا إلى أبعد من أنفسنا نحن، وهي لا تستطيع ذلك، وهكذا تتوقف قدرتنا على امتلاك فكرة ما يحسّه هذا الأخ على مخيلتنا فقط. إلا أن هذه القدرة [المخيلة] لا تستطيع مساعدتنا على تكوين تلك الفكرة بأي طريقة أخرى بغير تصوير ما ستكون عليه أحاسيسنا نحن فيما لو كنا نمرّ بحالته ذاتها. يعني ذلك أن مخيلتنا تتمكّن من نقل انطباعات حواسنا فقط، وليس انطباعات حواسه هو، وهكذا نستطيع وضع أنفسنا مكان ذلك الأخ عن طريق المخيلة فقط.

يقول كولينغوود، بطبيعة الحال، إن هذا هو بالضبط ما يجب على المؤرّخ أن يفعله، وهذا هو ما أريد أن يفعله القارئ لدى اطلاعه على أفكار الذين ماتوا، وهي الأفكار التي بُعثت من جديد. إن الغاية الرئيسة من وراء هذا الكتاب هي أن يفهم القارئ العوامل التي أدّت إلى توسّع حضاراتهم بشكلٍ مدهش، وعلى الخصوص

من ناحية ثرواتها، ونفوذها، وقوتها. لكننا نعجز عن الحصول على ذلك الفهم من دون التعاطف الذي ينقلنا إلى أوضاعهم، وهو الأمر الذي يحدث عن طريق المخيلة. تترافق هذه العملية مع صعوبة أكبر عندما نصل إلى بعث أفكار سكّان الحضارات الأخرى، أي تلك الحضارات التي أخضعها الغرب، أو أقلّه تلك التي أخضعت نفسها. إن تلك الحضارات عناصر مهمة هي الأخرى في مسرحية الحياة. لا يحاول الكتاب هنا تفسير تاريخ الغرب، بل تفسير تاريخ العالم من خلال ظاهرة الهيمنة الغربية.

عرّف المؤرّخ الفرنسي فرنون بروديل الحضارة في مداخلته التي كتبها لإحدى الموسوعات في العام ١٩٥٩ كما يأتي:

[نتحدث] أولاً عن مجال، عن «مساحة ثقافية»... وعن مكان. يجب عليك أن تتصور مع المكان أنواعاً كبيرة من «السلع [أو الأشياء]»، وخصائص ثقافية، تراوح ما بين أشكال البيوت، والمواد التي شُيّدت بها، وسقوفها، وبين مهارات مثل تريش السهام، وبين لهجة أو مجموعةٍ من اللهجات، وبين أذواق الطبخ، وكذلك تقانة معينة، ومجموعة من المعتقدات، وطريقة تبادل الحب، حتى البوصلة، والورق، والمطبعة. [إننا نتحدث هنا] عن التجميع المنتظم، وعن تواتر حدوث خصائص محدّدة، وعن شمولية وجود هذه الأشياء ضمن مساحةٍ محددة [بالترافق مع]... نوعٍ من أنواع الديمومة الموقّتة...

كان بروديل، مع ذلك، أقدر على تحديد البُنى منه على تفسير التغيّر. لكن تشيع هذه الأيام مقولة أنه يجب على المؤرّخين رواية القصص، وهكذا فإن هذا الكتاب يقدّم قصة كبيرة، لكنه يقدم ما يتجاوز رواية عادية عن كيفية تمكّن حضارة واحدة من تعدي كل الضوابط التي قيّدت كل الحضارات السابقة لها – بالإضافة إلى عددٍ كبيرٍ من القصص الصغرى، أو التواريخ الصغيرة التي تتضمّنها. أقول مع ذلك إن انبعاث فنّ الرواية هو جزءٌ فقط مما نحتاج إليه في هذا السياق، فبالإضافة إلى القصص تبرز أهميّة طرح الأسئلة. إن سؤالاً مثل، «لماذا تمكّن الغرب من الهيمنة على بقية أنحاء العالم؟» هو سؤال تتطلب الإجابة عنه شيئاً يتعدى قصة عادية. يينبغي للإجابة أن

تكون تحليلية، وينبغي لها أن تكون مدعومة بدليل، وأن تكون قابلة للاختبار عن طريق سؤالٍ ينافي الوقائع: لو كانت الابتكارات الهامة التي حدّدتها هنا لم تحدث، فهل كان الغرب سيتمكّن على أي حال من السيطرة على بقية أنحاء العالم، وذلك لسببٍ آخر غفلت عنه، أو قللت من أهمّيته؟ أم هل العالم كان سيأخذ شكلاً مختلفاً مع وجود الصين، أو ربما حضارة أخرى، في قمّته؟ يجب علينا هنا أن لا نضلّل أنفسنا بأن روايتنا التاريخية، بشكلها الشائع، هي أكثر من رواية معدّلة. سنرى لاحقاً أنه بالنسبة إلى المعاصرين فإن إمكانية هيمنة الغرب لا تبدو هي الأكثر احتمالاً من بين الصيغ المستقبلية التي يتخيلونها. يبرز هنا احتمال هزم عقل اللاعب التاريخي الكارثي أكثر بكثير من احتمال النهايات السعيدة التي تُعطى للقارئ المعاصر. إن حقيقة التاريخ كتجربة معيشة هي أقرب إلى مباراة في الشطرنج من أن تكون رواية، أي إنها أقرب بكثير إلى مباراة في كرة القدم مما هي إلى مسرحية.

لم تكن الحضارة الغربية جيدةً كلها، لأنه ما من كاتبٍ جاد يزعم أن حكم هذه الحضارة لم يترافق مع شوائب كثيرة. لكننا نجد مع ذلك آخرين يصرّون على أن هذه الحضارة لم تحمل معها شيئاً من الخير. يبدو هذا الموقف سخيفاً. كانت حضارة الغرب ذات وجهين، أي كما كانت عليه كل الحضارات العظيمة الأخرى: كانت قادرة على أن تكون نبيلة، وقادرة مع ذلك على أن تكون دنيئة. قد يكون أفضل تشبيه للغرب هو أنه يشبه الشقيقين المتصارعين في رواية جايمس هوغ **مذكّرات واعترافات خاصة لمذنب له ما يبرره** (١٨٢٤)، أو لربما في رواية روبرت لويس ستيفنسون Master of Ballantrae (١٨٨٩). حملت الحضارة الغربية معها المنافسة والاحتكار، والعلم والخرافة، والحُريّة والعبودية، والعلاجات والقتل، والعمل الشاق والتكاسل. كان الغرب في كل حالة من هذه الحالات مصدر الخير والشرّ في آنٍ واحد. تمكّن أفضل الشقيقين من الوصول إلى القمة في آخر الأمر، سواء في رواية هوغ، أو في رواية ستيفنسون. يجب علينا كذلك مقاومة إغراء الشعور بالأسى تجاه الخاسرين في

التاريخ. لم تكن الحضارات الأخرى التي هيمن عليها الغرب، أو تلك التي غيّرها بوسائل سلمية عن طريق الاستعارة، وكذلك عن طريق الفرض، خالية من الشوائب هي الأخرى، حيث كان الأبرز من بينها هو عجزها عن تقديم أي تحسينات مستمرة في نوعية حياة مواطنيها. تبرز أمامنا هنا إحدى الصعوبات المتمثلة في عجزنا عن إعادة تركيب الأفكار الماضية العائدة إلى أولئك الأشخاص غير الغربيين. يعود ذلك بشكلٍ خاص إلى أن معظم الأشخاص [الذين ماتوا] لم يوجدوا في حضارات تمتلك وسائل التدوين وحفظ الأفكار. يتعلق التاريخ، في نهاية الأمر، بدراسة الحضارات، لأنه من دون وجود سجلات مكتوبة لا يجد المؤرخ أمامه سوى رؤوس حراب وقطع متناثرة من الأوعية الفخارية، التي لا يستطيع أن يستنتج منها سوى أمورٍ قليلة.

قال المؤرّخ ورجل الدولة الفرنسي **فرنسوا غيزو** إن تاريخ الحضارة هو «الأكبر من بينها جميعاً... ويشتمل عليها كلها [العوامل الأخرى]». يجب على هذه الدراسة أن تتجاوز الحدود المنهجية المتعددة التي يقوّمها الآكاديميون، وإصرارهم على التفريق بين ما هو اقتصادي، واجتماعي، وثقافي، وفكري، وسياسي، وعسكري، وما هو التاريخ العالمي. يُنتظر من دراسة كهذه أيضاً تناول قدرٍ كبير من الزمن والمجالات، وذلك لأن الحضارات ليست صغيرة أو عابرة. لكن لا يستطيع كتاب كهذا أن يكون موسوعة. أما بالنسبة إلى الذين يشتكون مما حُذف فإنني لا أستطيع إلا الاستشهاد بقول لعازف موسيقى الجاز على البيانو المميز **ثيلونيوس مونك**: «لا تعزف كل شيء (أو في كل الأوقات)، تجاهل بعض الأشياء... إن ما لا تعزفه يمكن أن يكون أكثر أهمّية مما تعزفه». إنني أتفق مع ذلك الرأي. أعترف بأنني حذفت بعض النغمات والأوتار فيما يلي، لكنني حذفتها لسببٍ محدد. هل هذا الاختيار يعكس الانحياز الذي يميّز الرجل الأسكتلندي النموذجي الذي هو في منتصف العمر [المؤلف نفسه]، والذي استفاد كثيراً من الهيمنة الغربية؟ يحتمل ذلك كثيراً، لكنني أحتفظ بأمل أن لا يلقى هذا الاختيار استياء معظم المدافعين المتحمسين والفصحاء عن

القيم الغربية هذه الأيام، الذين تختلف جذورهم العرقية عني، أي سواء من آمارتيا سين إلى ليو زياوبو، أو من هيرناندو دي سوتو إلى المهتمّين بهذا الكتاب.

إن الكتاب الذي يهدف إلى تناول ٦٠٠ سنة من تاريخ العالم هو مشروع تعاوني بالضرورة، وهكذا فإني مدين بالشكر الجزيل لأناسٍ كثيرين. أريد التعبير عن تقديري للموظفين في مراكز الأرشيف والمكتبات والمؤسسات الآتية: أرشيف AGI، متحف ألبرت خان، مكتبة بريدجمان آرت، المكتبة البريطانية، جمعية مكتبة تشارلستون، مكتبة الصين الوطنية في بيجينغ، كوربيس، معهد باستور في داكار، متحف التاريخ الألماني في برلين، وGeheimes Staatsarchiv Preussischer Kulturbesitz في برلين – داليم، صور جيتي، غرينيتش أوبزرفاتوري، متحف Heereschichtliches في فيينا، والمكتبة الوطنية الإيرلندية، ومكتبة الكونغرس، ومتحف ميسوري للتاريخ، وuseo de Oro في ليما، والأرشيف الوطني في لندن، والمتحف البحري الوطني، والأرشيف العثماني في إسطنبول، وصور بي آي، ومتحف بيبودي للآثار وعلم الأجناس في هارفرد، والأرشيف القومي للسنغال في داكار، والجمعية التاريخية في كارولينا الجنوبية، معهد الدراسات الشرقية والأفريقية، ومكتبة المخطوطات في السُّليمانية، وبالطبع مكتبة وايدنر في هارفرد التي لا تضاهى. سيكون من الخطأ الجسيم عدم تقديم الشكر إلى غوغل التي أصبحت الآن وسيلة فريدة لتسريع البحث التاريخي، وكذلك إلى كويستيا وويكيبيديا اللتين تسهلان عمل المؤرّخ.

تلقيت كذلك مساعدة لا تقدّر بثمن في أبحاثي من سارة والينغتون، وكذلك من دانييل لانزبيرغ ـ رودريغز، وماني رينكون – كروز، وجايسون روكيت وجاك صن.

يصدر هذا الكتاب عن دار بنغوين كالمعتاد ويصدر من جانبَي المحيط الأطلسي، وحرّره بمهارة معتادة كذلك سايمون ويندر في لندن وآن غودوف في نيويورك. أما بيتر جايمس الذي لا نظير له فقد قام بما يتعدى تنقيح النص. أريد توجيه شكري كذلك إلى ريتشارد دوغود، وروزي غلايشر، وستيفان ماك غراث، وجون ماكينسون وبين فوغلر، وإلى أعداد أخرى من الناس هي أكثر من أن تُذكر.

كان كتاب **الحضارة** منذ بدايته الأولى مسلسلاً تلفزيونياً وكتاباً في الوقت ذاته، أي مثلما كانت الحال مع كتبي الخمسة الأخيرة. أبعدني **رالف لي** الذي يعمل في القناة الرابعة عن الغموض أو عدم فهم ما أكتبه، وذلك بمساعدة سايمون بيرثون. أعتقد أنه كان من المستحيل ظهور المسلسل التلفزيوني والكتاب من دون ذلك الفريق الاستثنائي من الأشخاص الذي جمعته **صيميركا [أو شيميركا]** للإعلام: ديوالد أوكيما، وهو علم بارز من أعلام رجال السينما، وجايمس إيفانز، وهو المنتج المساعد للفيلمين الثاني والخامس، وكذلك آليسون ماك آلان وهو باحث الأرشيف عندنا، وسوزانا برايس التي أنتجت الفيلم الرابع، وجايمس رونسي الذي أخرج الفيلمين الثاني والخامس، وفيفيان ستيل مديرة الإنتاج، وشارلوت ويلكنز التي عملت مساعدة منتج للفيلمين الثالث والرابع. أدت جوانا بوتس دوراً أساسياً في المراحل الأولى من المشروع. أما كريس أوبنشو، وماكس هوغ وليامز، وغرانت لاوسون وهاريك موري فقد تكفلوا بالتصوير في إنكلترا وفرنسا. أما زميلاي في **صيميركا**، أي ميلاني فال وأدريان بينيك فقد حرصا بصبرهما وكرمهما تجاه المؤلف على أن نبدو نحن الثلاثة على أفضل صورة بالنسبة إلى الإدارة. حرص صديقي كريس ولسون كذلك على أن لا أتخلف عن أي رحلة لي بالطائرة.

أذكر من بين الأشخاص الكثر الذين ساعدونا على تصوير السلسلة عدداً من العاملين الذين ساعدوا على الأبحاث التي ظهرت في الكتاب. أريد توجيه الشكر كذلك إلى مانفريد أندرسون، وخاديدياتو با، وليليان تشين، وتيريزا هورسكا، وبيتر جاندا، وولفغانج نوفلر، وديبورا ماك لاكلان، وماتياس دي سا موريرا، وديزي نيوتن- دون، وخوسيه كوتو نوغويرا، وليفنت أوزتكين وإرنست فوغل.

أريد كذلك توجيه الشكر إلى الأشخاص العديدين الذين قابلتهم في أثناء تجوالنا في أنحاء العالم، وعلى الخصوص غونزالو دي آلياجا، ونهال بينغيسو كاراكا، والقس جون ليندل، وميك راوسون، وريان سكويب، وإيفان توسكا، وستيفان وول، وهانبينج

شانغ، وأخيراً وليس آخراً أريد توجيه الشكر إلى الطلاب في معهد روبرت كلاك في دايجنهام.

أعتقد أنني محظوظ جداً لأنني تلقيت مساعدة من آندرو وايلي، وهو أفضل وكيل أدبي في العالم، وكذلك مساعدة نظيرته سو آيتون في عالم التلفزيون البريطاني. أريد توجيه الشكر كذلك إلى سكوت مويرز، وجايمس بولين وكل العاملين الآخرين في مكاتب وكالة وايلي في لندن ونيويورك.

تكرم عدد من المؤرّخين بقراءة مسوّدة النص كلياً أو جزئياً، وكذلك فعل عدد من الأصدقاء بالإضافة إلى طلاب قدماء وحاليين: راوي عبد العال، آيان هيرسي علي، بريان آفربوخ، بيار باولو بربييري، وجيريمي كاتو، وجي. سي. دي كلارك، وجايمس إيسدايل، وكامبل فرغسون، ومارتن جاك، وهارولد جايمس، ومايا جاسانوف، وجوانا لويس، وتشارلز مائير، وحسن مالك، ونويل مورير، وإيان موريس، وتشارلز موراي، وآلدو موساشيو، وغلين أوهارا، وستيفن بينكر، وكين روغوف، وإيما روث تشايلد، وأليكس واتسون، وآرني وستاد، وجون ونغ، وجيريمي يلين. أريد توجيه الشكر كذلك إلى فيليب هوفمان، وآندرو روبرتس وروبرت ولكنسون. أريد كذلك الاعتذار عن كل الأخطاء الباقية فهي من مسؤوليتي وحدي.

أما بالنسبة إلى جامعة أوكسفورد فإنني أريد توجيه الشكر إلى المدير والزملاء في كلية يسوع، وإلى نظرائهم في كلية أوريل وكذلك إلى أمناء المكتبة في بودلاين. أما بالنسبة إلى معهد هوفر في ستانفورد فإنني أدين بالكثير إلى المدير جون رايزيان وفريقه الممتاز. أنهيت هذا الكتاب في مركز IDEAS التابع لمعهد لندن للاقتصاد، وحيث تلقيت عناية جيدة بصفتي أستاذ فيليبي رومان للعام الدراسي ٢٠١٠-٢٠١١. أدين بالقسط الأكبر مع ذلك إلى زملائي في هارفرد. إنني سأستغرق وقتاً كثيراً إذا أردت شكر كل العاملين في قسم التاريخ في جامعة هارفرد فرداً فرداً، لذلك دعوني أوجه شكراً جماعياً بالقول إنه كان يستحيل علي كتابة هذا الكتاب من دون المساندة، والتشجيع، والإلهام الفكري الذي تلقيته منهم. ينطبق الأمر ذاته

على زملائي في معهد هارفرد للتجارة، وعلى الخصوص العاملين في فرع التجارة والشؤون الحكومية في قسم الاقتصاد الدولي، وكذلك على أفراد الهيئة التعليمية والموظفين في مركز الدراسات الأوروبية. أدين بالشكر كذلك إلى أصدقائي في مركز وثرهيد للشؤون الدولية، ومركز بيلفر للعلوم والشؤون الدولية، وإلى ورشة التاريخ الاقتصادي ولويل هاوس. أريد قبل كل شيء أن أشكر جميع طلابي على جهتي **نهر تشارلز** (تشارلز ريفر)، وعلى الخصوص أولئك في صف الثقافة العامة الذي أدرّسه، **ومجتمعات العالم ١٩**. أقول لهم إن هذا الكتاب أبصر النور بحضوركم، كما أفاد كثيراً من أبحاثكم ومعلوماتكم.

أريد أخيراً تقديم جزيل شكري إلى أسرتي، ووالدي على الخصوص، وإلى أبنائي الذين كثيراً ما أهملتهم، فيليكس، وفريا، ولاكلان، وذلك من دون أن أنسى والدتهم سوزان وبقية أقاربنا. أريد أن أقول إنني كتبت هذا الكتاب لأجلكم أيها الأبناء.

أهدي هذا الكتاب إلى أحد الأشخاص الذي يفهم أكثر من غيره ما تعنيه الحضارة الغربية فعلاً، وكذلك ما تستمر هذه الحضارة في تقديمه إلى العالم.

لندن

كانون الأول ٢٠١٠

مقدّمة: سؤال رسيلاس

لم يكن مستعداً لإدخال كلمة **حضارة** civilization [حتى الطبعة الرابعة من قاموسه]، بل اكتفى بكلمة **تهذيب** civility. أعتقد، ومع كل احترامي له، أن كلمة civilization المشتقة من كلمة to civilize تناسب المعنى المناقض للهمجية barbarity أكثر من كلمة civility.

جايمس بوسويل

تعود كل تعريفات كلمة حضارة civilization... إلى تصريف فحواه: «أنا متحضّر، وأنت تنتمي إلى ثقافة، وهو بربري».

فيليب فرنانديز – آرميستو

عندما وضع كينيث كلارك تعريفاً للحضارة في سلسلته التلفزيونية التي حملت ذلك العنوان، لم يترك أي مجالٍ للمشاهدين للشك بأنه يقصد حضارة الغرب، وعلى الخصوص ما يتعلق منها بالفن والهندسة المعمارية لأوروبا الغربية بدءاً بالقرون الوسطى، حتى منتصف القرن التاسع عشر. استبعد أول فيلم من أفلامه الثلاثة عشر التي أعدها لمحطة بي. بي. سي مدينة رافينا البيزنطية، وجزر الهيبريد السلتية [الكيلتية]، والفايكنغ في النروج، حتى الآخيين في عهد شارلمان. لم يعترف كلارك، ببساطة، بأن العصور المظلمة الواقعة ما بين سقوط روما **والنهضة** التي شهدها القرن الثاني

عشر تستأهل كلمة حضارة بحسب تعريفه. استمر ذلك إلى حين تشييد كاتدرائية شارتر، التي صُمّمت في العام ١٢٦٠، لكن لم ينتهِ تشييدها في ذلك العام، وهي التي لم تظهر عليها علامات الإجهاد [أو التداعي] حتى إلى حين تشييد ناطحات سحاب مانهاتن في زمانه.

عرّفت سلسلة أفلام كلارك ـ التي لاقت نجاحاً منقطع النظير، والتي أذيعت لأول مرة في بريطانيا عندما كنت في الخامسة من عمري – الحضارة على مدى جيلٍ من الزمن في دول العالم الناطقة بالإنكليزية. كانت الحضارة قلعة لوار، وقصور فلورنسا، ودير سيستاين، وقصر فرساي. وضع كلارك كل قوته بوصفه مؤرّخاً للفن في أرياف الجمهورية الهولندية الرزينة، وفي واجهات الباروك baroque، كما ظهرت الموسيقى والأدب، والسياسة، وبرزت حتى الاقتصادات في بعض الأحيان. لكن جوهر حضارة كلارك كانت الثقافة المرئية High Visual Culture. أما أبطاله فكانوا مايكل آنجلو، ودافنشي، ودوريه، وكونستابل، وتيرنر، وديلاكروا[١].

لعل إنصاف كلارك يدعونا إلى التنويه بأن سلسلته حملت عنواناً فرعياً هو **رؤية شخصية**. كان كلارك مدركاً لما توحيه سلسلته، وهو ما مثّل مشكلةً حتى في العام ١٩٦٩، وهو أن «حقبة ما قبل المسيحية والشرق» كانت غير حضارية. لكن كان من الصعب بعد مرور أربعة عقود على تلك السلسلة التوافق مع رؤية كلارك، سواء أكانت شخصية أم لا (هذا إذا لم نقل شيئاً عن أسلوبه الفظ de haut en bas). فضّلت في كتابي هذا أخذ رؤية أوسع وأكثر مقارنة، كما قصدت التركيز على الأمور الوضيعة والقذرة، بدل التركيز على السمو والقدرة. تشتمل فكرتي عن الحضارة على أنابيب الصرف الصحي مثلما تشتمل على الدعائم الخارجية الضخمة للكنائس الكبيرة، هذا إن لم يكن أكثر، لأن المدن تصبح مصائد للموت من دون نظام صرفٍ صحي فعّال، أي إنها تحوّل الأنهار إلى ملاجئ للبكتيريا المسببة لأمراض الكوليرا. إنني لا أخجل من الاهتمام بسعر قطعة فنية بمثل اهتمامي بقيمتها الثقافية، كما أنني أعتبر

(١) Clark, Civilisation.

أن الحضارة شيء يتجاوز وجود حفنة من المعارض الفنية رفيعة المستوى. أعتقد أن الحضارة مؤسسة إنسانية شديدة التطور. يُحتمل كثيراً أن تكون اللوحات، والتماثيل، والمباني هي إنجازات حضارية تلفت الأنظار، لكنها تبقى إنجازات غير مفهومة إن لم تترافق مع فهم للمؤسسات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية التي أنتجتها ودفعت كلفتها، ونفذتها، وحافظت عليها إلى أن أصبحت تحت أنظارنا.

إن كلمة حضارة civilisation هي كلمة فرنسية، وكان أول من استخدمها هو الاقتصادي الفرنسي آن – روبرت – جاك تورغو، وذلك في العام ١٧٥٢، كما نشرها بعد مضي أربع سنوات[١] فيكتور ريكويتي، مركيز ميرابو، والد ذلك الثوري العظيم. أما صموئيل جونسون فلم يقبل إدخال ذلك التعبير الجديد، وفضّل عليه كلمة civility، وذلك ما أشارت إليه بداية هذه المقدمة. أما إذا كانت كلمة بربرية barbarism تمتلك نقيضاً لها عند جونسون لكان قال إنها الحياة المدنية اللطيفة (بالرغم مما شابها من بذاءة في بعض الأحيان) التي تمتع بها في لندن. تدور الحضارة، بحسب ما يوحيه أصل الكلمة، حول مدنها، كما أن المدن، بطريقة أو بأخرى، هي الأبطال الرئيسة في هذا الكتاب[٢] لكن قوانين مدينة ما (سواء أكانت متمدنة أم لا) هي بمثل أهمّية جدرانها، أي إن دستورها وعاداتها – سلوكيات سكانها (سواء أكانت مهذبة أم لا) – هي بمثل أهمّية قصورها[٣]. تتعلق الحضارة بمختبرات العلماء بمثل ما تتعلق بمحترفات الفنانين، وتتعلق كذلك بفترات ملكية الأراضي بمثل تعلقها بتضاريسها الطبيعية. أما نجاح الحضارة فيُقاس ليس بإنجازاتها الجمالية فحسب بل كذلك، والأهم منها، بطول أعمار مواطنيها ونوعية حياتهم. تمتلك نوعية الحياة أبعاداً عديدة لكن لا يسهل تقويمها كلها. قد تستطيع تقدير مدخول الفرد لسكان العالم في القرن الخامس عشر، أو حتى أعمارهم المتوقعة عند الولادة. لكن ماذا عسانا أن نقول

(١) Braudel, History of Civilizations.

(٢) See also Bagby, Culture and History; Mumford, City in History.

(٣) On manners see Elias, Civilizing Process.

عن راحتهم؟ وماذا عن نظافتهم؟ وماذا عن سعادتهم؟ وما هي أعداد الثياب التي امتلكوها؟ وما هو عدد ساعات العمل التي كانوا مجبرين عليها؟ وما هي أنواع الطعام التي كانوا يتمكنون من شرائها بأجورهم؟ ربما تقدم لنا أعمالهم الفنية بعض الدلائل، لكنها تعجز عن الإجابة عن أسئلةٍ كهذه.

يتضح لنا، على أي حال، أن مدينة واحدة لا تشكل حضارة. إن الحضارة هي أكبر وحدة مفردة للمؤسسة الإنسانية، وهي أرفع حتى من أمبراطورية وإن كانت أكثر غموضاً منها. يمكننا اعتبار أن الحضارات هي، جزئياً، استجابة مواطنيها العملية لبيئاتهم. يشمل ذلك تحديات الغذاء، وتوفير المياه، والمأوى، والدفاع عن أنفسهم. لكن الحضارات ثقافية في خصائصها، وعادة ما تكون، وإن ليس على الدوام، مجتمعات لغة[١]. يمكننا القول إن هناك حضارات قليلة، لكنها لم تكن متباعدة. أحصت كارول كويغلي دزينتين من الحضارات في خلال الأعوام العشرة آلاف الأخيرة[٢]. اعتبر آدا بوزمان أن هذه الحضارات في فترة ما قبل العالم الحديث هي خمس فقط: الغرب، والهند، والصين، وبيزنطة، والإسلام[٣]. أما ماثيو ميلكو فقد جعل مجموعها اثنتي عشرة، وهي التي اختفت سبعٌ منها (حضارة ما بين النهرين، والمصرية، والكريتية، والكلاسيكية، والبيزنطية، وحضارة أميركا الوسطى، وحضارة الآندز) في حين بقي منها خمس فقط (الصينية، واليابانية، والهندية، والإسلامية، والغربية)[٤]. أما صموئيل آيزنستاد فقد جعلها ستاً بعد أن أضاف الحضارة اليهودية إلى هذه المجموعة[٥]. كان تفاعل هذه الحضارات القليلة فيما بينها، ومع بيئاتها الخاصة بها، من أهمّ محركات التغيرات التاريخية[٦]. أما الأمر المدهش في هذه

---

(١) ndez- Armesto, Civiliza-JSee Coulborn, Origins of Civilized Societies and, more recently, Fern tions.

(٢) Quigley, Evolution of Civilizations.

(٣) Bozeman, Politics and Culture.

(٤) Melko, Nature of Civilizations.

(٥) Eisenstadt, Comparative Civilizations.

(٦) McNeill, Rise of the West.

التفاعلات فهو أن الحضارات الحقيقية [الأصلية] تميل إلى المحافظة على قيَمها لفتراتٍ طويلة جداً من الزمن، وذلك بالرغم من التأثيرات الخارجية. قال فرنان بروديل: «الحضارة هي في واقع الأمر أطول قصة من بين كل القصص... تتمكن الحضارة... من الاستمرار عبر سلسلة من الاقتصادات أو المجتمعات»[1].

لو كان بإمكاننا في العام ١٤١١ الدوران حول الكرة الأرضية، فلربما كنا سوف نُدهش كثيراً بنوعية حياة سكان الحضارات الشرقية. كانت المدينة المحرمة قيد البناء في ذلك الوقت في مينغ بيجينغ بينما العمل كان ما زال جارياً في إعادة فتح القناة الكبرى، وفي تحسينها. أما في الشرق الأدنى فإن العثمانيين كانوا يُطبقون على القسطنطينية التي سقطت بأيديهم أخيراً في العام ١٤٥٣. كانت الأمبراطورية البيزنطية تلفظ آخر أنفاسها في ذلك الوقت. لكن موت أمير الحرب تيمور (تيمورلنك) في العام ١٤٠٥، أزال التهديدات المميتة والمتكررة لتلك الجماعات الغازية الآتية من آسيا الوسطى، وهي التي كانت نقيضة الحضارة. أما بالنسبة إلى الأمبراطور يونغل Yongle، والسلطان العثماني مراد الثاني فكان المستقبل زاهراً.

في المقابل كانت أوروبا الغربية في العام ١٤١١ تبدو وكأنها في حال تراجع بائس، وكانت لا تزال تسترد عافيتها بعد الآثار المدمّرة التي خلّفها الموت الأسود [الطاعون] الذي قلّص عدد السكان إلى النصف خلال تقدمه شرقاً ما بين العامين ١٣٤٧ و١٣٥١، كما بقيت المنطقة تعاني سوء الأحوال الصحية، والحروب المستمرة. أما في إنكلترا فقد فرغ هنري الرابع، الملك الذي كان مصاباً بداء الجُذام، من قلبِ ريتشارد الثاني سيئ الحظ وقتله. كانت فرنسا عالقة في هذا الوقت في قبضة حروبٍ مميتة ما بين أتباع دوق بوروندي، وأولئك الذين اغتالوا دوق أورليانز. أما حرب المئة عام ما بين إنكلترا وفرنسا فقد كانت على وشك أن تبدأ من جديد، لكن الممالك المشاكسة الأخرى الواقعة في أوروبا الغربية، أي الأراغون، والكاستيل، والنافار، والبرتغال، واسكتلندا فبدت أفضل حالاً بقليل. أما غرناطة فكانت لا تزال

(١) Braudel, History of Civilizations, pp. 34f.

تحت حكم ملكٍ مسلم، بينما كان الملك الأسكتلندي جايمس الأول سجيناً في إنكلترا بعد أن ألقى قراصنة إنكليز القبض عليه. لكن أكثر أجزاء أوروبا ازدهاراً في ذلك الوقت كانت المدن – الدول الواقعة في شمال إيطاليا: فلورنسا، وجنوا، وبيزا، وسيّنا، وفينيسيا. كانت أميركا الشمالية في القرن الخامس عشر قفراً، وفي حالة من الفوضى مقارنة بممالك الآزتيك، والمايا، والإنكا الواقعة كلها في أميركا الوسطى والجنوبية، وهي الممالك التي انتشرت فيها المعابد العالية، والطرقات التي تخترق الجبال الشاهقة. سنلاحظ في نهاية جولتنا في العالم أن فكرة احتمال هيمنة الغرب على بقية أنحاء العالم طوال معظم فترة الخمسمئة سنة المقبلة هي فكرة مغرقة في الخيال.

لكن هذه الهيمنة تحققت بالفعل.

تمكّنت الدول الصغيرة الواقعة في غرب أوروبا ـ ولسببٍ ما، بدءاً من أواخر القرن الخامس عشر، وبالرغم من استعاراتها اللغوية المتنوعة من اللاتينية (وبعض الإغريقية)، وبعد أن تبنّت ديانة مستقاةً من تعاليم رجلٍ يهودي من الناصرة، وبالرغم من دَيْنها الفكري الذي تمثل بعلوم الشرق في الرياضيات وعلم الفلك، والتقنية – من تكوين حضارة قادرة ليس على قهر الأمبراطوريات الشرقية العظيمة وإخضاع أفريقيا، والأميركيتين، وجنوب آسيا فحسب، بل تمكنت كذلك من تحويل الشعوب في أنحاء العالم كافة إلى طريقة الحياة الغربية، وهو تحويل تحقق بالكلمة أكثر مما تحقق بواسطة السيف.

يوجد من بيننا أولئك الذين يناقضون ذلك الطرح، وهم يزعمون أن كل الحضارات متساوية بمعنى ما، وأن الغرب لا يستطيع ادعاء التفوق على شرق أوراسيا، على سبيل المثال[1]. تبدو هذه النسبوية سخيفة بشكلٍ واضح. لم تتمكن أي حضارة سابقة من

(١) See Fernandez-Armesto, Millennium; Goody, Capitalism and Modernity and Eurasian Miracle; Wong, China Transformed.

تحقيق هيمنة على بقية أنحاء العالم مثل تلك التي تمكن الغرب من تحقيقها[1]. شكّلت القوى التي أصبحت استعمارية بعد ذلك في أوروبا نحو ١٠ بالمئة من مساحة بر العالم في العام ١٥٠٠، ونحو ١٦ بالمئة على الأكثر من عدد سكانه. أما بحلول العام ١٩١٣ فقد تمكّنت إحدى عشرة أمبراطورية غربية[*] من السيطرة على نحو ثلاثة أخماس مساحة اليابسة والسكان، كما تمكّنت من إنتاج أكثر من ثلاثة أرباع (أي ٧٩ بالمئة، وهو رقم يثير الدهشة) مجمل الإنتاج الاقتصادي العالمي[2]. بلغ معدل الأعمار المتوقعة في إنكلترا في ذلك الوقت نحو ضعفين مما كان عليه في الهند، كما تمثلت مستويات المعيشة العالية في الغرب في النوعية الفضلى من الوجبات الغذائية، حتى بالنسبة إلى العمال الزراعيين، وكذلك في القامات الأطول حتى بين الجنود العاديين والسجناء[3]. تتعلق الحضارة بالمدن كما رأينا سابقاً. تمكن الغرب من احتلال الذروة حتى في هذا المجال. كانت بيجينغ في العام ١٥٠٠، بحسب علمنا، أكبر مدينة في العالم حيث بلغ عدد سكانها ما بين ٦٠٠,٠٠٠ و٧٠٠,٠٠٠ نسمة. كانت باريس هي المدينة الأوروبية الوحيدة من بين أكبر مدن العالم في ذلك الوقت، كما أن عدد سكانها كان أقل من ٢٠٠,٠٠٠ نسمة. أما عدد سكان لندن فلربما كان أقل من ٥٠,٠٠٠ نسمة. كانت نسبة تطوير الأراضي في شمال أفريقيا وأميركا الجنوبية أعلى مما كانت عليه في أوروبا. انعكست تلك الوقائع بشكلٍ مذهل مع حلول العام ١٩٠٠، فمن بين أكبر عشر مدن في العالم في ذلك الوقت كانت واحدة

---

(١) McNeill, Rise of the West. See also Darwin, After Tamerlane.

(*) كانت الأمبراطوريات الإحدى عشرة هي النمسا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وإسبانيا وروسيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة الأميركية وكانت فرنسا والبرتغال وإسبانيا هي فقط الإمبراطوريات القائمة منذ العام ١٥٠٠ بشكلٍ مشابه لما بدت عليه في أوائل القرن العشرين. لمعرفة المزيد حول مطالبة روسيا باعتبارها جزءاً من الغرب، أنظر أدناه.

(٢) Based on data in Maddison, World Economy. The historic figures for global output (gross domestic product) must be treated with even more caution than those for population because of the heroic assumptions Maddison had to make to construct his estimates, and also because he elected to calculate GDP in terms of purchasing-power parity to allow for the much lower prices of non-traded goods in relatively poor countries.

(٣) Details in Fogel, Escape from Hunger, tables 1.2, 1.4.

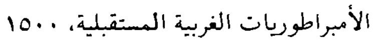
منها فقط آسيوية، وكانت طوكيو تلك المدينة. أما أكبر مدن العالم في تلك السنة فقد كانت لندن بسكانها الذين وصلت أعدادهم إلى نحو ٦,٥ ملايين نسمة[١]. لم تنتهِ السيطرة الغربية مع سقوط الأمبراطوريات الأوروبية. أدى صعود الولايات المتحدة إلى توسيع الفجوة الفاصلة ما بين الغرب والشرق، وهكذا كان الأميركي المتوسط الحال أغنى من نظيره الصيني بثلاث وسبعين مرة في العام ١٩٩٠[٢].

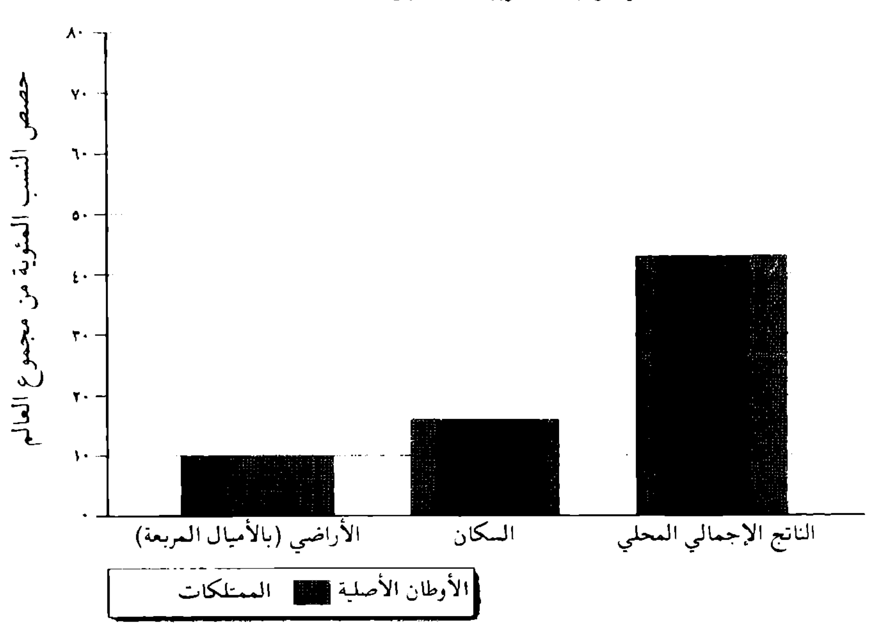
يُضاف إلى كل ذلك أنه اتضح في النصف الثاني من القرن العشرين أن الطريقة الوحيدة لردم الهوة في المداخيل، الآخذة في الاتساع، هي أن تتبع المجتمعات الشرقية مثال اليابان التي تبنت بعض الأمبراطوريات الإحدى عشرة النمسا، وبلجيكا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وهولندا، والبرتغال، وإسبانيا، وروسيا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة. كانت فرنسا والبرتغال وإسبانيا من بين هذه الأمبراطوريات تحتفظ بأشياء تماثل الحالة التي كانت عليها في مطلع القرن العشرين. أما بالنسبة إلى مطالبة روسيا بأن تُعتبر جزءاً من الغرب فيمكنك أن تتبع ما يلي.

(وليس كل) المؤسسات والأنماط التشغيل الغربية. أما النتيجة فكانت أن الحضارة الغربية أصبحت نوعاً من النموذج الذي تسعى بقية العالم إلى تنظيم نفسها على مثاله. كانت هناك، بطبيعة الحال، قبل العام ١٩٤٥ مجموعة متنوعة من النماذج التطويرية، أو أنظمة التشغيل بحسب لغة المعلوماتية، التي كان بإمكان المجتمعات غير الغربية تبنيها. لكن الأكثر جاذبية من بينها كان ذا منشأ أوروبي: الرأسمالية الليبرالية، الاشتراكية القومية، والشيوعية السوفياتية. أدت الحرب العالمية الثانية إلى القضاء على النموذج الثاني بالرغم من أنه استمر تحت مسمياتٍ أخرى في بعض الدول النامية. كما أدى انهيار الأمبراطورية السوفياتية ما بين العامين ١٩٨٩ و١٩٩١ إلى القضاء على النموذج الثالث.

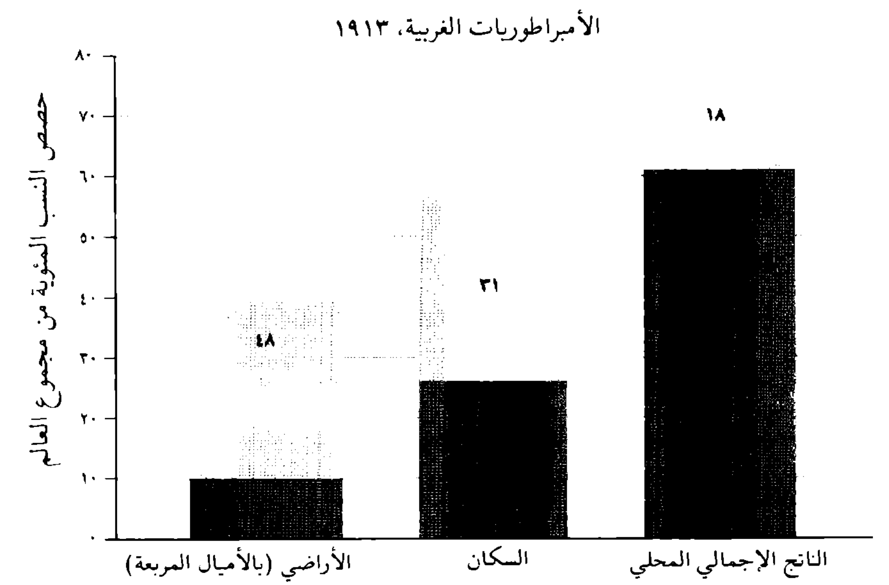
(١) Figures from Chandler, Urban Growth.

(٢) Calculated in terms of current dollars, from the World Bank's World Development Indicators online database.





الأمبراطوريات الغربية، ١٩١٣



شاع كلام كثير عشية الأزمة المالية العالمية حول النماذج الاقتصادية الآسيوية البديلة. لكننا نلاحظ أنه حتى أشدّ التغييريين الحضاريين حماسة لا يوصي بالعودة إلى المؤسسات التي كانت شائعة في عهد سلالة مينغ أو المغول، وهكذا ينحصر الجدال الحالي ما بين مناصري السوق الحرة والداعين إلى تدخل الدولة، وهو جدال يتمحور أساساً حول مدرستين فكريتين غربيتين تحديداً: أتباع آدم سميث وأتباع جون ماينارد كينز، لكن مع وجود بعض المؤمنين المتشبثين بتعاليم كارل ماركس. إن أمكنة ولادة هؤلاء الثلاثة تُفصح بالكثير: كيرك كالدي، وكامبريدج، وترييه. نلاحظ، عملياً، أن معظم العالم قد اندمج الآن في نظام اقتصادي غربي تعمد فيه الأسواق، بحسب توصيات سميث، إلى تحديد معظم الأسعار وهي تحدّد كذلك تدفق التجارة وتقسيم العمالة، لكن الحكومات تؤدي دوراً هو أقرب ما يكون إلى الدور الذي تصوره كينز، أي إنها تتدخل في محاولة منها لتسهيل دورة الأعمال [أو التجارة] وتقليص عدم التساوي بالمداخيل.

أما بالنسبة إلى المؤسسات غير الاقتصادية فلا يدور حولها أي جدالٍ يستأهل الذكر. تسير جميع الجامعات في أنحاء العالم كافة نحو اتباع المعايير الغربية. يصدق الأمر ذاته على طريقة تنظيم العلوم الطبية بدءاً من البحوث المتقدمة وصولاً إلى العناية الصحية الأولية. يتقبل معظم الناس في هذه الأيام الحقائق العلمية العظيمة التي كشف عنها نيوتن، وداروين، وآينشتين، وحتى في حال عدم تقبلها فإنهم يُقبلون بلهفة على المنتجات الصيدلانية الغربية عند ظهور أول عوارض الإنفلونزا أو التهاب القصبات الهوائية. أما المجتمعات التي تقاوم تقدم الأنماط الغربية للتسويق والاستهلاك بالإضافة إلى نمط الحياة الغربية فهي قليلة جداً. تقبل أعداد متزايدة من الناس على ارتداء الملابس الغربية والعيش في مساكن ذات الطراز الغربي. أما نظام العمل الغربي تحديداً، أي خمسة أو ستة أيام في الأسبوع، ومن الساعة التاسعة حتى الخامسة مع وجود أسبوعين أو ثلاثة أسابيع بمنزلة إجازة سنوية، فقد أصبحت كلها قاعدة في أنحاء العالم. يُضاف إلى ذلك أن الدّين الذي سعى المبشّرون الغربيون

إلى نشره في بقية أنحاء العالم يقدّر أتباعه بنحو ثلث البشرية، كما أنه يحرز تقدماً لا بأس به في أكثر البلدان اكتظاظاً بالسكان، حتى أن الإلحاد الذي كان الغرب مهداً له يُحرز تقدماً هو الآخر.

تتزايد بمرور السنوات أعداد البشر الذين يتسوقون مثلنا، ويدرسون مثلنا، ويعتنون بصحتهم (أو يهملونها) مثلنا، ويصلّون (أو لا يصلّون) مثلنا. لا يسع المرء كذلك أن لا يجد أينما توجه البيرغرات [شطائر اللحم]، ومشاعل بنسن [المستخدمة في المختبرات]، والضمادات. أما في عالم المؤسسات السياسية فيستمرّ التنوع على صعيد العالم، وذلك مع وجود مجموعة واسعة ومتنوعة من حكومات العالم التي تقاوم فكرة حكم القانون، وما يترافق معه من حماية الحقوق الفردية التي تُعدّ أساس حكومة تمثيلية ذات معنى. يسعى الإسلام المتطرف، بوصفه عقيدة سياسية كما هو دِين، إلى مقاومة زحف المعايير الغربية للمساواة بين الجنسين والحرية الجنسية(١).

أعتقد أنه ليس مغالاةً في حب أوروبا، ولا مغالاة في معاداة الشرق، قولنا إن نهوض الحضارة الغربية هو أهمّ ظاهرة تاريخية وحيدة، بعد ظهور المسيح، في النصف الثاني من الألفية الثانية. إنها تصريح بما هو واضح وجلي. لكن يكمن التحدّي في تفسير كيفية حدوث هذه الظاهرة. ما هي الأمور التي ترافقت مع حضارة غرب أوروبا بعد القرن الخامس عشر، وجعلتها تتفوق على أمبراطوريات الشرق القوية في الظاهر؟ يبدو بوضوح أنها كانت أموراً تتعدى جمال معبد سيستين.

إن الجواب السهل، غير المنطقي، عن ذلك السؤال هو أن الغرب هيمن على بقية أنحاء العالم بسبب السياسة الإمبريالية(٢). ثمة أناسٌ كثيرون هذه الأيام من الذين هم على استعداد للحديث بكل استياء عن جرائم [أو مساوئ] الأمبراطوريات الأوروبية. ظهرت هذه المساوئ بكل تأكيد، وهي لم تغب عن صفحات هذا الكتاب. لكن يبدو واضحاً في الوقت نفسه أن أشكالاً أخرى من الاستعمار - الاستيطان مقابل

(١) For an illuminating discussion, see Scruton, The West and the Rest.

(٢) See e.g. Laue, 'World Revolution of Westernization'.

الاقتلاع – قد ترافقت مع عواقب مختلفة جداً على المدى الطويل[1]. لا يُعدّ وجود الأمبراطورية تفسيراً تاريخياً كافياً للهيمنة الغربية. ظهرت أمبراطوريات قبل وقتٍ طويل من وجود الإمبريالية التي شجبها الماركسيون – اللينينيون. شهد القرن السادس عشر، في الواقع، عدداً من الأمبراطوريات الآسيوية التي زادت كثيراً من قوتها ومدى سيطرتها. فشل مشروع تشارلز الخامس في إقامة أمبراطورية عظمى لآل هابسبورغ، وهي الأمبراطورية التي كان يُفترض أن تمتد من إسبانيا عبر البلاد المنخفضة حتى ألمانيا، وهكذا تجزأت أوروبا أكثر من ذي قبل، كما أن الإصلاح [الديني] تسبب بإطلاق حروب دينية استمرت أكثر من قرنٍ من الزمن.

لم يكن بوسع المسافر في القرن السادس عشر ألاّ يلاحظ النقيض [الحالة في أوروبا]. فبالإضافة إلى سيطرة الأمبراطورية العثمانية التي كانت بقيادة **سليمان الكبير** (١٥٢٠- ١٥٦٦) على الأناضول، ومصر، وشبه الجزيرة العربية، وبلاد ما بين النهرين واليمن، فقد توسّعت إلى البلقان وهنغاريا، وهدّدت أبواب فيينا في العام ١٥٢٩. أما إلى الشرق فقد امتدت **الأمبراطورية الصفوية** التي كانت تحت حكم عباس الأول (١٥٨٧- ١٦٢٩) من أصفهان وتبريز وقندهار، بينما كانت المناطق في شمال الهند بدءاً بدلهي حتى البنغال تحت حكم الأمبراطور المغولي القوي أكبر (١٥٥٦- ١٦٠٥). أما الصين التي كانت تحكمها سلالة مينغ فقد بدت منيعة وراء **السور العظيم**. كان صعباً على الزوّار الأوروبيين القليلين الذين زاروا بلاط الأمبراطور **وانلي** (١٥٢٧- ١٦٢٠) أن يتوقعوا سقوط هذه السلالة بعد أقل من ثلاثة عقود على موته. أما الدبلوماسي الفلامنكي **أوجييه غيسلين دي بوسبيك**، الرجل الذي نقل نبتة الزنبق من تركيا إلى هولندا، فقد كتب بانزعاج ظاهر في أواخر الخمسينيات من القرن الماضي مقارناً ما بين أوروبا المجزّأة و«الثروة الهائلة» للأمبراطورية العثمانية.

يحقّ لنا القول إن القرن السادس عشر كان زمن النشاط الأوروبي المحموم وراء البحار. لكن الأمبراطوريات الشرقية عدت البحّارة البرتغاليين والهولنديين النقيض

(١) Acemoglu et al., 'Reversal of Fortune'; Putterman and Weil, 'Post-1500 Population Flows'.

المباشر لحاملي لواء الحضارة، وهكذا كانوا مجرد آخر دفعة من البرابرة الذين هدّدوا **المملكة الوسطى**. حظي هؤلاء البحارة بكراهية أكبر من تلك التي كانت الأمبراطوريات تشعر بها نحو قراصنة اليابان. أما أكثر ما جذب الأوروبيين إلى آسيا فكانت النوعية الممتازة للأقمشة الهندية والبورسلان الصيني.

تمكن جيشٌ عثماني من الزحف نحو أبواب فيينا في العام ١٦٨٣، وهي عاصمة لأمبراطورية هابسبورغ. طلب هذا الجيش من سكان المدينة الاستسلام والتحوّل إلى الإسلام. أما بعد رفع الحصار عن المدينة فقد تمكّنت المسيحية، ببطء، من تهديد السيطرة العثمانية في وسط وشرق أوروبا عبر البلقان حتى البوسفور، لكن ذلك استغرق سنوات طويلة قبل أن تتمكن الأمبراطوريات الأوروبية من الوقوف على قدم المساواة مع إنجازات الإمبريالية الشرقية. أما «الافتراق العظيم» ما بين الغرب وبقية أنحاء العالم فقد كان بطيئاً أكثر في الظهور في أماكن أخرى. إن الفجوة المادية ما بين أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية لم تتكرس بقوة حتى أواسط القرن التاسع عشر، كما أن معظم أفريقيا كان في ذلك الوقت خارج سيطرة الأوروبيين حتى مطلع القرن العشرين، ما عدا بضع مناطق ساحلية ضيقة.

إذا كان متعذراً، لتلك الأسباب، تفسير صعود الغرب بحسب التعابير المملة الإمبريالية، فهل كان ذلك مجرد قدرٍ من الحظ الحسن، بحسب زعم بعض الباحثين؟ هل يرجع السبب إلى الجغرافيا، أم إلى مناخ الطرف الغربي لأوراسيا، وهو الذي أحدث ذلك الافتراق [أو التباعد]؟ هل كان الأوروبيون مجرد محظوظين عندما عبروا جزر الكاريبي، وهي الجزر المثالية من حيث الموقع لزرع قصب السكّر الغني بالسعرات الحرارية؟ وهل قدّم العالم الجديد آكرات مترامية الأطراف من الأراضي [إلى أوروبا] في حين أن الصين كانت تفتقر إليها؟ وهل الحظ السيئ هو الذي جعل الفحم في الصين أكثر صعوبة للتعدين والنقل من الفحم في أوروبا؟[1] أم أن الصين كانت، بمعنى ما، ضحية نجاحها الذي حققته هي، أي إنها علقت في «مصيدة

(١) Pomeranz, Great Divergence.

توازن على مستوى عالٍ»، وذلك نتيجة قدرة مزارعيها على تزويد عددٍ كبيرٍ من الناس الكمية الكافية من السعرات الحرارية التي تكفل لهم الاستمرار في العيش؟[1] أيُعقل أن تصبح إنكلترا البلد الصناعي الأول لسبب رئيس، وهو أن سوء أوضاع الصرف الصحي والأمراض قد جعل الحياة قصيرة بالنسبة إلى الغالبية الساحقة من الناس، وهو ما أعطى الأغنياء والمغامرين فرصة أفضل لإمرار جيناتهم الوراثية؟[2]

رفض واضع القواميس الإنكليزي الخالد **صموئيل جونسون** كل هذه التفسيرات المحتملة لصعود الغرب. قال جونسون على لسان **رسيلاس** في كتابه **تاريخ رسيلاس: أمير أبيسينيا**، وهو الكتاب الذي صدر في العام ١٧٥٩:

ما هي الوسائل... التي جعلت الأوروبيين أقوياء هكذا؟ أو لماذا لا يستطيع الآسيويون والأفريقيون، ولأنهم يستطيعون زيارة آسيا وأفريقيا بسهولة من أجل التجارة أو السيطرة، زرع مستعمراتهم في موانئ هاتين القارتين، وإصدار القوانين لأمرائهما؟ إن الرياح ذاتها التي تعود بهم هي التي تنقلنا إلى هناك[*].

أجاب الفيلسوف إيملاك عن هذه التساؤلات كما يأتي:

إنهم، يا سيدي، أقوى منا، ولأنهم أكثر حكمةً منا، وهكذا فإن المعرفة سوف تتفوق دوماً على الجهل، أي مثل ما يدير أي رجل الحيوانات الأخرى. لكن لماذا تكون معرفتهم أكثر من معرفتنا؟ لا أعرف السبب الذي يُمكن أن يُعطى لذلك سوى الإرادة غير القابلة للجدال للكائن الأعلى[3].

لا شك في أن المعرفة قوة إذا كانت تقدّم طرائق متفوقة للإبحار بالسفن،

---

(١) Elvin, Pattern of the Chinese Past.

(٢) Clark, Farewell to Alms.

(*) طُرح هذا السؤال بالفعل في الأمبراطوريات غير الغربية في القرن الثامن عشر. سأل الكاتب العثماني Ibrahim Mutferrika في العام ١٧٣١: «لماذا تمكنت الأمم المسيحية، التي كانت في الماضي ضعيفة مقارنة بالأمم الإسلامية، من البدء باحتلال أقسام كبيرة من الأراضي في هذه الأزمنة الحديثة، حتى أنها تمكنت من إلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية التي كانت مظفرة ذات يوم؟».

(٣) Johnson, Rasselas, pp. 56f.

واستخراج المعادن، وإطلاق البنادق، ومعالجة الأمراض. لكن أيعقل أن الأوروبيين هم في واقع الأمر أكثر اطلاعاً من الشعوب الأخرى؟ ربما كان الأمر كذلك بحلول العام ١٧٥٩، بدليل أن الابتكارات العلمية لفترة نحو قرنين ونصف قرن من الزمن بعد العام ١٦٥٠ كانت غربية المنشأ[1]. لكن هل كان الأمر كذلك في العام ١٥٠٠؟ سنرى لاحقاً أن التقنية الصينية، والرياضيات الهندية، وعلم الفلك العربي كانت متقدمة قبل قرون من الزمن.

أم أن فرقاً ثقافياً غامضاً هو الذي أهّل الأوروبيين لأن يسبقوا نظراءهم الشرقيين؟ كانت تلك هي الحجة التي ساقها عالم الاجتماع الألماني ماكس ويبر. ظهرت هذه الفروق بصيغ عديدة – الفردية الإنكليزية في القرون الوسطى، النزعة الإنسانية والأخلاقيات البروتستانتية، كما أنها اتُبعت في كل مكان بدءاً بوصايا wills المزارعين الإنكليز، إلى دفاتر حسابات التجار المتوسطين، وقواعد الإتيكيت في البلاطات الملكية. أوضح دافيد لاندس في كتابه **ثروات الأمم وأسباب فقرها** هذه القضية الثقافية عندما أثبت أن أوروبا الغربية قادت العالم نحو تطوير البحث الفكري الشخصي، وكذلك في الطريقة العلمية في التحقق، وعقلنة البحوث ونشرها. لكنه ذكر مع ذلك أن هناك أشياء أخرى مطلوبة كي يزدهر ذلك النمط من العمل: الوسطاء الماليون والحكومات الجيدة[2]. أما العامل الأساس في كل ذلك فقد أصبح واضحاً أنه يكمن ضمن المؤسسات [النُظُم].

تُعتبر المؤسسات [النُظُم] بطبيعة الحال نتيجة الثقافة بمعنى ما. لكن لأنها تقوم بصوغ مجموعة من المعايير فإن هذه المؤسسات هي العناصر التي تُبقي الثقافة نزيهة، وهي التي تقدّر إلى أي مدى تساهم في السلوكيات الحسنة بدلاً من السيئة. أما إذا أردنا إيضاح هذه النقطة فيمكننا القول إن القرن العشرين قد شهد مجموعة من التجارب التي فرضت وجود مؤسسات [نُظُمٍ] مختلفة تماماً على مجموعتين من

(١) Murray, Human Accomplishment.

(٢) Landes, Wealth and Poverty.

الألمان (في الغرب وفي الشرق)، ومجموعتين من الكوريين (في الشمال والجنوب) ومجموعتين من الصينيين (داخل الجمهورية الشعبية وخارجها). جاءت النتائج مدهشة جداً، أما الدروس المستخلصة فكانت في منتهى الوضوح. يعني ذلك أنه إذا أخذنا الشعب ذاته الذي يمتلك الثقافة ذاتها كمثال، وفرضنا مؤسساتٍ [نظماً] شيوعية على مجموعة ما ونُظُماً رأسمالية على مجموعة أخرى، فإن ذلك يعني وجود اختلافٍ بالطريقة التي تتصرف بها هاتان المجموعتان.

يوافق عدد كبير من المؤرّخين هذه الأيام على وجود عدد قليلٍ من الاختلافات الجوهرية ما بين الطرفين الشرقي والغربي من أوراسيا في سنوات القرن السادس عشر. كانت المنطقتان تتبنيان الزراعة، والتبادل المستند إلى قواعد السوق وإلى الكيانات التي ترتكز على المدن[١]. بقي مع ذلك فرق مؤسساتي جوهري واحد ظهر [في النُظم]. في الصين في ذلك الوقت أمبراطورية موحدة، بينما بقيت أوروبا مجزأة سياسياً. فسّر يارد دياموند في كتابه **بنادق، أفكار، وفولاذ** السبب الذي جعل أوراسيا تتقدم على بقية أنحاء العالم[٢]. لكنه لم يقدم لنا إجابة عن السبب الذي جعل أحد طرفي أوراسيا يتقدم كثيراً على الطرف الآخر إلى أن كتب مقالته «الطريق إلى الغنى» (١٩٩٩). تلخصت الإجابة التي قدّمها في أن الأمبراطوريات الشرقية الموحّدة التي ظهرت في سهول أوراسيا الشرقية خنقت الابتكار، بينما انشغلت الممالك المتعدّدة، والدول/المدن، التي ظهرت فوق مناطق غرب أوراسيا التي تقطعها الأنهر، في منافسة إبداعية وفي التواصل[٣].

يُعتبر ذلك الجواب جذّاباً، لكنه مع ذلك لا يُمكن أن يكون جواباً كافياً. يكفينا الآن أن ننظر إلى الرسوم النافرة التي حملت عنوان **مآسي الحرب**، وهي الرسوم التي نشرها فنان من اللورين يدعى جاك كالو في ثلاثينيات القرن السابع عشر. يبدو جاك

(١) Hibbs and Olsson, 'Geography'; Bockstette et al., 'States and Markets'.

(٢) Diamond, Guns, Germs and Steel.

(٣) Diamond, 'How to Get Rich'.

وكأنه أراد تحذير العالم من مخاطر الصراعات الدينية. كانت المنافسة التي جرت ما بين الدول الصغيرة في أوروبا، وفي داخل تلك الدول، في خلال النصف الأول من القرن السابع عشر كارثية ، وهي التي أدت إلى إفراغ مناطق شاسعة من وسط أوروبا، هذا بالإضافة إلى دفع الجزر البريطانية إلى الدخول في صراعات منهكة استمرت لفترة تنيف على قرنٍ من الزمن. تترافق التجزئة السياسية أحياناً مع تأثيراتٍ كهذه. أما إذا كنتَ تشك في هذا القول فيمكنك أن تسأل سكان يوغوسلافيا السابقة. يعني ذلك أن المنافسة كانت، وبالتأكيد، جزءاً من قصة صعود الغرب، أي كما سوف نرى في الفصل الأول، لكنها جزء فقط من القصة.

أريد في هذا الكتاب إظهار أن ما ميّز الغرب من بقية أنحاء العالم، وبالتالي القوى المحركة للقوة العالمية، كان ستة تطويرات جديدة ومتميزة في النُظم وما رافقها من أفكار وسلوكيات. يمكنني تلخيص هذه التطويرات ووضعها تحت ستة عناوين من أجل تبسيطها:

١- المنافسة،

٢- العلوم،

٣- حقوق الملكية،

٤- الطب،

٥- المجتمع الاستهلاكي،

٦- أخلاقيات العمل،

أما إذا أردنا استخدام لغة هذا العالم في المعلوماتية والتناسق فيمكننا القول إن هذه كانت ستة تطبيقات استثنائية سمحت لأقلية من البشر نشأت في الطرف الغربي من أوراسيا بالهيمنة على العالم لمعظم فترة ٥٠٠ سنة.

أريد الأن، وقبل أن تبادر بسخط إلى الكتابة إليّ معترضاً لأنني تجاهلت بعض

الأوجه الأساسية لصعود الغرب، مثل الرأسمالية، أو الحرية، أو الديمقراطية (أو حتى البنادق، والأفكار، والفولاذ) أن تتفضّل وتقرأ التعريفات المختصرة الآتية:

المنافسة – أدت اللامركزية في الحياة السياسية والاقتصادية إلى خلق نقاط انطلاق للدول/الأمة وللرأسمالية.

العلوم – طريقة دراسة، وفهم، العالم الطبيعي وبالتالي تغييره، وهو الأمر الذي أعطى الغرب (من بين أمورٍ أخرى) تفوقاً عسكرياً رئيساً على بقية أنحاء العالم.

حقوق الملكية – أي حكم القانون بوصفه وسيلة لحماية المالكين الشخصيين، وحلّ النزاعات ما بينهم بطريقة سلمية، وهو الأمر الذي شكّل قاعدة لأكثر صيغ الحكومات ثباتاً.

الطب – ذلك القسم من العلوم الذي سمح بإدخال تحسينات على الصحة، وتوقعات طول الأعمار، وهي الأمور التي بدأت في المجتمعات الغربية، لكنها امتدت كذلك إلى المستعمرات التابعة لها.

المجتمع الاستهلاكي – إنه نمط الحياة المادية الذي يؤدي فيه إنتاج الألبسة والسلع الاستهلاكية الأخرى وشراؤها دوراً اقتصادياً محورياً، ومن دونه ما كانت الثورة الصناعية لتستمر.

أخلاقيات العمل – هيكلية أخلاقية ونمط الأنشطة (من بين أمور أخرى) المستقاة من المسيحية البروتستانتية، وهي التي توفر اللحمة اللازمة للمجتمع الحركي المعرّض لعدم الاستقرار، وهو المجتمع المكوّن بحسب البنود من ١ إلى ٥.

لا أريد هنا أن أتعرّض لسوء الفهم: إن هذا ليس طريقة أخرى لعرض «انتصار الغرب»[1]. أريد إظهار أن التفوق الغربي وحده لم يكن هو العامل الذي أدى إلى السيطرة على معظم أنحاء بقية العالم واستعماره، بل الضعف المفاجئ الذي أصاب

(١) See e.g. Roberts, Triumph of the West.

منافسي الغرب. أدت، على سبيل المثال، مجموعة عوامل في أربعينيات القرن السابع عشر منها أزمات مالية واقتصادية، وتغيرات في المناخ، وأمراض وبائية إلى إطلاق ثورة كانت هي الأزمة الأخيرة في **مملكة مينغ**. لم تتعلق هذه العوامل بالغرب على الإطلاق. يصدق الأمر ذاته على الانحطاط السياسي والعسكري للأمبراطورية العثمانية، التي كانت عوامل داخلية أكثر منها عوامل فُرضت من الخارج. نلاحظ كذلك أن المؤسسات السياسية في أميركا الشمالية قد ازدهرت في الوقت نفسه الذي فسدت فيه تلك المؤسسات في أميركا الجنوبية، لكن فشل سيمون بوليفار في تكوين ولايات متحدة لأميركا الجنوبية ليس خطأ الغربيين.

أما النقطة الحاسمة هنا فهي أن الفرق ما بين الغرب وبقية أنحاء العالم كان اختلافاً مؤسساتياً. تمكّنت أوروبا الغربية من تجاوز الصين، جزئياً، وذلك نظراً لوجود تنافس أكبر في المجالين السياسي والاقتصادي في الغرب. تمكّنت النمسا، وبروسيا، وروسيا بعد ذلك، من اكتساب فاعلية أكبر من الناحيتين الإدارية والعسكرية لأن الشبكة التي أنتجت الثورة العلمية ظهرت في العالم المسيحي وليس في العالم الإسلامي. أما السبب الذي مكّن المستعمرات السابقة في شمال أميركا من إحراز قدرٍ من النجاح أكبر من ذلك الذي أحرزته المستعمرات السابقة في جنوب أميركا، فكان أن المستوطنين الإنكليز أسسوا نظاماً لحقوق الملكية والتمثيل السياسي في الشمال يختلف تماماً عن ذلك الذي أسّسه الإسبانيون والبرتغاليون في الجنوب. (برز في الشمال «نظام الحيازة المفتوح»، وذلك بدلاً من ذلك النظام المغلق الذي يراعي مصالح النخبة الساعية إلى التأجير)[1]. تمكّنت الأمبراطوريات الأوروبية من اختراق أفريقيا ليس بسبب امتلاكها البنادق الرشاشة فحسب، بل لأنها اخترعت لقاحات ضد أمراض المناطق الإستوائية التي كانت تفتك بالأفارقة.

عكست الثورة الصناعية التي نشأت في الغرب قبل ذلك، وبالطريقة ذاتها، فوائد

(١) See North, Understanding the Process of Economic Change; North et al., Violence and Social Orders.

مؤسساتية: ظهرت إمكانية للمجتمع الاستهلاكي على النطاق الواسع قبل قدوم القوة البخارية وانتشارها، أو حتى قبل نظام المصانع. استمرت الفروق بين الشرق وبقية أنحاء العالم حتى قبل توافر التكنولوجيا الصناعية وانتشارها، لكنها تزايدت في الاتساع في واقع الأمر. تمكّن العامل الأوروبي أو العامل في أميركا الشمالية من العمل بإنتاجية أكبر، كما تمكّن رب عمله الرأسمالي من تجميع الثروة بسرعة أكبر من تلك التي لدى نظرائه الشرقيين، وذلك مع وجود ماكينات موحدة بالكامل لغزل القطن[١]. أما الاستثمار في مجال الصحة العامة وفي التعليم العام فقد كان مجزياً أكثر. أما في المناطق التي لم توجد فيها تلك الاستثمارات فقد بقي الناس فقراء[٢]. يتحدث الكتاب عن كل هذه الفروق، وعن أسباب وجودها والأسباب التي تجعلها في منتهى الأهمّية.

لجأت حتى الآن إلى استخدام كلمات مثل «الغرب» و«الغربية» بطريقة عرضية نوعاً ما. لكن ما الذي أعنيه بالضبط، أو أين، عندما أستخدم تعبير «الحضارة الغربية»؟ تعود الرجال الآنكلو- ساكسون البيض والبروتستانت تحديد الغرب (الذي يُعرف أيضاً بالعالم الحر) بصورة فطرية نوعاً بمنطقة ضيقة نسبياً تمتد (بالتأكيد) من لندن حتى ليكزنغتون، ماساشوستس، وكذلك (لربما) من ستراسبورغ حتى سان فرنسيسكو. كانت اللغة الأولى للغرب الذي خرج تواً من ميادين الحروب في العام ١٩٤٥، هي الإنكليزية متبوعة بالفرنسية. أما بعد نجاح الاندماج الأوروبي في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي فقد زاد النادي الغربي اتساعاً. أعتقد أن القليلين يشكّون الآن بأن البلاد المنخفضة، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والبرتغال، وأسكندنافيا، وإسبانيا تنتمي كلها إلى الغرب، بينما اليونان هي عضو فخري فيه وذلك بالرغم من ولائها لاحقاً إلى المسيحية الأرثوذكسية، وذلك لأننا مدينون دوماً للفلسفة الهيلينية، وبسبب ديون اليونان للاتحاد الأوروبي في هذه الأيام.

(١) Clark, Farewell to Alms, pp. 337–42.

(٢) Rajan and Zingales, 'Persistence of Underdevelopment'; Chaudhary et al., 'Big BRICs, Weak Foundations'.

لكن ماذا بشأن ما تبقى من جنوب وشرق المتوسط، وهما المنطقة التي لا تضمّ مناطق البلقان شمال البيلوبونيز فقط، لكنها تضم كذلك شمال أفريقيا والأناضول؟ وماذا بشأن مصر وبلاد ما بين الرافدين مهد الحضارات الأولى؟ هل أميركا الجنوبية، التي استعمرها الأوروبيون مثل ما استعمروا أميركا الشمالية، والتي تقع في نصف الكرة الجنوبي، هي جزء من الغرب؟ وماذا نقول عن روسيا؟ هل الجزء الأوروبي من روسيا هو غربي حقاً، في حين أن روسيا ما وراء الأورال هي جزء من الشرق بمعنى ما؟ كان يُشار في خلال الحرب الباردة إلى الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكه على أنهما «الكتلة الشرقية». لكن يمكننا القول إن الاتحاد السوفياتي كان نتاجاً للحضارة الغربية مثلما كانت الولايات المتحدة. اشتمل جوهر عقيدة الاتحاد السوفياتي على المصادر الفيكتورية ذاتها، مثل القومية، والعداء للعبودية ولمعاناة المرأة، وهي كلها المبادئ التي وُلدت ونشأت في **غرفة القراءة** الدائرية القديمة للمكتبة الإنكليزية. يصدق الأمر ذاته على امتداده الجغرافي الذي كان نتاج التوسع والاستعمار الأوروبيين، أي على شاكلة استيطان الأميركيتين. حكم الأوروبيون غير الأوروبيين في آسيا الوسطى مثلما فعلوا في أميركا الجنوبية. يمكننا القول، بذلك المعنى، إن ما حدث في العام ١٩٩١، كان، وبكل بساطة موت آخر أمبراطورية أوروبية. لكن أحدث تعريف جدّي للحضارة الغربية، وهو التعريف الذي قدّمه صموئيل هنتينغتون، يستبعد ليس روسيا فحسب، لكن جميع البلدان التي تتبع الأرثوذكسية. يشتمل الغرب بحسب هنتينغتون على غرب أوروبا ووسطها (من دون الشرق الأرثوذكسي)، وشمال أميركا (من دون المكسيك)، وأستراليا (مع نيوزيلندا وجزر جنوب المحيط الهادئ). أما اليونان، وإسرائيل، ورومانيا، وأوكرانيا فلا يشملها ذلك التعريف. يصدق الأمر ذاته على جزر الكاريبي، بالرغم من أن عدداً منها هو غربي مثل فلوريدا[1].

نستنتج من كل ذلك أن تعبير «الغرب» هو أكثر بكثير من تعبير جغرافي. إنه

(١) Huntington, Clash of Civilizations.

مجموعة من المعايير، والسلوكيات، والمؤسسات وهو يمتلك مع ذلك حدوداً ليست واضحة عند أطرافه. تستحق تأثيرات ذلك التعريف أن نتوقف عندها. أيعقل أن يكون ممكناً لمجتمع آسيوي أن يصبح غربياً إذا تبنى المعايير الغربية في اللباس وفي القيام بالأعمال، أي مثل ما فعلت اليابان من حقبة الميجي، وكما يبدو أن معظم المناطق الباقية من آسيا تفعله الآن؟ كان من الشائع ذات يوم القول إن «النظام الرأسمالي العالمي» قد فرض فصلاً دائماً للعمالة بين المركز الغربي وبقية أنحاء العالم المحيطة به(١). لكن، ماذا سيحدث لو أن العالم برمته انتهى إلى التغريب [أصبح غربياً] في المظهر، وفي طريقة العيش على الأقل؟ أيُعقل أن تكون الحضارات الأخرى أكثر مرونة بحسب قول هنتنغتون، وعلى الخصوص الحضارة الصينية التي أراد بها الصين الكبرى(*)، والإسلام، وذلك «بحدودها ومناطقها الداخلية الدامية»؟(٢) نسأل هنا إلى أي مدى يُعتبر تبني هاتين الحضارتين لأنماط العمل الغربية تحديثاً سطحياً فقط من دون أي عمقٍ ثقافي؟ هذه هي الأسئلة التي سوف نعالجها فيما يلي.

يبقى لغزٌ آخر بشأن الحضارة الغربية، وهو أن الانقسام يبدو وكأنه إحدى خصائصها الحاسمة. اشتكى عدد من المعلقين الأميركيين في بدايات العقد الأول من هذا القرن من «الأطلسي الآخذ في التوسع» – أي إنهم قلقوا بشأن تلاشي تلك القيم المشتركة التي ربطت بعمق بين الولايات المتحدة وحليفاتها في أوروبا الغربية في أثناء الحرب الباردة(٣). كان هنري كيسنجر عندما كان وزيراً للخارجية صلة الوصل بين رجال الدولة وأوروبا، لكن من الأصعب بكثير الآن معرفة من هو الناطق باسم الحضارة الغربية. يبقى أن نقول إن الانقسام الحالي بين أميركا و«أوروبا العجوز» هو انقسام طفيف وودي بالمقارنة بالانقسامات العميقة التي كانت سائدة

---

(١) Wallerstein, Modern World-System.

(*) من المستغرب إعطاء واحدة من حضارات العالم المعتبرة اسماً لم يسمع به غير أحد المنظِّرين السياسيين. استخدم هنتينغتون في مقالته الأصلية التي نشرها في العام ١٩٩٣ تعبير «الكونفوشيوسية».

(٢) Huntington, Clash of Civilizations.

(٣) See e.g. Kagan, Paradise and Power and, more recently, Schuker, 'Sea Change'.

في الماضي حول الدِّين، والعقائد، حتى حول معنى الحضارة ذاتها. زعم الألمان في خلال الحرب العالمية الأولى أنهم يخوضون الحرب من أجل حضارة أسمى، وأنهم يخوضونها ضد الحضارة الإنكليزية – الفرنسية الرخيصة والمادية (أشار توماس مان وسيغموند فرويد من بين آخرين إلى هذا التمايز). لكن يصعب علينا فهم ذلك التمايز مع إحراق جامعة **ليوفن**، والإعدامات الجماعية للمدنيين البلجيكيين في خلال المرحلة الأولى من الحرب. ردّ المسؤولون البريطانيون عن الدعاية بتعريف الألمان على أنهم من «الهون» الذين يفوقون الجميع في البربرية، كما أطلقوا على الحرب ذاتها اسم «الحرب الكبرى من أجل الحضارة» ووضعوا هذا التعبير على ميدالية النصر عندهم[1]. هل الحديث هذه الأيام عن «الغرب» باعتباره حضارة واحدة يحمل معاني أكبر مما كان عليه الأمر في العام ١٩١٨؟

أخيراً، أقول إنه يجب علينا أن لا ننسى أن الحضارة الغربية قد عرفت الانحطاط والسقوط من قبل. تشهد الآثار الرومانية المتبعثرة في كل أنحاء أوروبا، وشمال أفريقيا، وفي الشرق الأدنى، بكل وضوح على ذلك. برزت أول صيغة من **الغرب** – الحضارة الغربية الرقم واحد – في ما يُدعى الهلال الخصيب الذي يمتد من وادي النيل إلى ملتقى نهرَي الفرات ودجلة، وهي التي وصلت إلى ذروتيها التوأمين مع الديمقراطية الأثينية والأمبراطورية الرومانية[2]. أما العناصر الأساسية في حضارتنا هذه الأيام، فليست هي فقط الألعاب الرياضية، والرياضيات، والقانون المدني، والهندسة، والطراز الكلاسيكي في الهندسة المعمارية وجزءاً ضخماً من الكلمات الموجودة الآن في اللغة الإنكليزية الحديثة، فقد نشأت في الأصل في الغرب القديم. كانت الأمبراطورية الرومانية في ذروة مجدها نظاماً متطوراً بشكلٍ مدهش، كما كان تجار الحبوب، والصناعيون يتنقلون ضمن اقتصاد امتد من شمال إنكلترا إلى أعالي نهر النيل، كما ازدهرت الثقافة، وساد حكم القانون، وظهرت الطبابة

(١) See most recently Osborne, Civilization.

(٢) Morris, Why the West Rules.

وحتى مراكز التسوق مثل **تراجان فوروم** في روما. لكن تلك الصيغة من الحضارة الغربية بدأت بالانحطاط والسقوط بسرعة مذهلة في القرن الخامس بعد الميلاد، وهي التي أفسدتها اجتياحات البرابرة والانقسامات الداخلية. تهاوت روما، العاصمة الأمبراطورية الضخمة، في غضون جيلٍ من الزمن، وتساقطت أبنيتها إلى حدٍ يصعب إصلاحه، كما دُمرت أقنية الري، وهُجرت الأسواق التي كانت فخمة ذات يوم. كانت المعرفة التي عرفها الغرب الكلاسيكي عرضةً للضياع تماماً لولا العاملون في مكتبات بيزنطة[١]، ورهبان إيرلندا[٢]، وباباوات وكهنة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وذلك من دون أن ننسى الخلفاء العباسيين[٣]. كان يستحيل على حضارة الغرب أن تولد من جديد في إيطاليا عصر النهضة لولا جهود الذين أشرنا إليهم.

هل الانحطاط والسقوط هما المصير الذي يخيّم على الحضارة الغربية الرقم ٢؟ يمثّل سكان المجتمعات الغربية من الناحية الديموغرافية أقلية بالنسبة إلى سكان العالم، لكن نسبة هؤلاء السكان تتناقص هذه الأيام. كانت اقتصادات الولايات المتّحدة وأوروبا هي المهيمنة ذات يوم، لكنها تواجه الآن إمكانية حقيقية في أن تتمكن الصين من تجاوزها في غضون عشرين أو حتى عشر سنوات علماً أن البرازيل والهند ليستا متخلفتين كثيراً عنها. يبدو أيضاً أن «العصا الغليظة» للغرب تواجه مصاعب حقيقية في الشرق الأوسط الكبير بدءاً بالعراق وحتى أفغانستان، أي تماماً مثلما حدث مع «ميثاق واشنطن» حول سياسة اقتصادات السوق الحرّة، وهو الميثاق الذي يبدو أنه على طريق التلاشي. تؤشر الأزمة المالية التي بدأت في العام ٢٠٠٧ على عيوب أساسية في جوهر المجتمع الاستهلاكي الذي يركّز على ظاهرة البيع بالتجزئة التي تستند إلى الإقراض. أما المبدأ البروتستانتي القائم على التوفير والذي بدا ذات يوم مركزياً بالنسبة إلى المشروع الغربي فيبدو أنه قد تلاشى تماماً. أما النُخب الغربية فهي تعاني هذه الأيام مخاوف من الدمار الشامل للبيئة في المستقبل.

(١) Brownworth, Lost to the West.

(٢) Cahill, How the Irish Saved Civilization. At the time of writing, it remains to be seen if the compliment will be returned.

(٣) Dawson, Making of Europe; Woods, How the Catholic Church Built Western Civilization.

يُضاف إلى ذلك أن الحضارة الغربية، كما يبدو، قد فقدت ثقتها بنفسها. بدأت سلسلة من الجامعات الهامة بالامتناع عن تقديم دورة دراسية عن تاريخ «الحضارة الغربية» إلى طلابها، وذلك بدءاً بجامعة ستانفورد في العام ١٩٦٣. بدأت المدارس كذلك بالتخلي عن سرد قصة صعود الغرب العظيمة أمام طلابها. أدت بدعة المسؤولين عن التعليم إلى ترفيع «المهارات التاريخية» فوق المعرفة التاريخية باسم «التاريخ الجديد»، وبالترافق مع العواقب غير المقصودة التي رافقت عملية إصلاح المناهج التعليمية، وهو الأمر الذي جعل عدداً كبيراً من الطلاب الذين أنهوا الدراسة الثانوية لا يعرفون إلا شذرات متفرقة من التاريخ الغربي: هنري الثامن وهتلر، بالإضافة إلى جرعة صغيرة عن **مارتن لوثر كينغ الابن**. أظهرت دراسة أُجريت على طلاب التاريخ، السنة الأولى، في إحدى الجامعات البريطانية الرئيسة أن ٣٤ بالمئة فقط منهم يعرفون اسم الملك البريطاني في زمن معركة الأرمادا، وأن ٣١ بالمئة منهم يعرفون موقع حرب البوير، وأن ١٦ بالمئة منهم فقط يعرفون من قاد القوات البريطانية في واترلو (قال ضعفا تلك النسبة من الطلاب إنهم يعتقدون أنه كان نيلسون بدلاً من ولينغتون)، وأن ١١ بالمئة منهم يستطيعون تسمية رئيس وزراء بريطاني في القرن التاسع عشر[١]. أظهر استطلاع مماثل أُجري على الأولاد الإنكليز الذين تراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والثامنة عشرة أن ١٧ بالمئة منهم يعتقدون أن أوليفر كرومويل حارب في معركة هاستينغز، كما وضع ٢٥ بالمئة منهم الحرب العالمية الأولى في القرن الخطأ[٢]. يضاف إلى ذلك شيوع الاعتقاد في العالم الناطق بالإنكليزية بأنه يجب علينا دراسة ثقافات الآخرين بدلاً من ثقافتنا نحن. أما النموذج الموسيقي الذي أُرسل إلى الفضاء الخارجي مع المركبة الفضائية **فوياجر** في العام ١٩٧٧ فقد عرض سبعاً وعشرين مقطوعة، كانت عشر منها فقط من تأليف موسيقيين غربيين. لم يتضمن ذلك النموذج موسيقى باخ وموزارت وبيتهوفن فحسب، بل تضمن كذلك أصوات

(١) Matthews, 'Strange Death'; Guyver, 'England'.

(٢) Amanda Kelly, 'What Did Hitler Do in the War, Miss?', Times Educational Supplement, 19 January 2001.

لويس آرمسترونغ، وشوك بيري وبلايند ويلي جونسون. أما تاريخ العالم «في ١٠٠ معروضة» الذي نشره مدير المتحف البريطاني في العام ٢٠١٠ فلم يتضمن أكثر من ٣٠ منتجاً من الحضارة الغربية[1].

يبقى أن نقول مع ذلك إن تاريخ حضارات العالم الذي لا يركّز على درجة خضوعها التدريجي للغرب بعد العام ١٥٠٠ إنما يُغفل نقطة أساسية، الأمر الذي يحتاج إلى تفسيرٍ أكثر من غيره. إن صعود الغرب هو، بكل بساطة، الظاهرة التاريخية الأهم في النصف الثاني من الألفية الثانية بعد المسيح. إنها القصة التي توجد في قلب التاريخ الحديث. ربما هي اللغز الأكثر إثارة للتحدي الذي يبقى على المؤرّخين حله. علينا أن نحل هذا اللغز ليس من أجل إرضاء أنفسنا فقط، وذلك لأنه بواسطة تحديد الأسباب الحقيقية لصعود الغرب يمكننا فقط، بدرجة من الدقة، تقدير احتمال انحدارنا وسقوطنا.

(١) MacGregor, History of the World.

الفصل الأول

المنافسة

تبدو الصين وكأنها قابعة في مرحلة طويلة من الجمود، وربما حصلت منذ وقتٍ طويل على ثروات كاملة تتناسب مع طبيعة قوانينها ومؤسساتها [نُظُمها]. لكن هذه الثروات قد تكون أقل بكثير مما قد تسمح به طبيعة أرضها، ومناخها، وموقعها فيما لو اتبعت قوانينَ ونُظُماً أخرى. إن البلاد التي تهمل، أو تحتقر، التجارة الخارجية، والتي تستقبل مراكب الدول الأخرى في ميناء واحد أو ميناءين فقط، هي بلاد تعجز عن المتاجرة بالكميات ذاتها التي يُمكنها القيام بها فيما لو اتّبعت قوانين ومؤسسات مختلفة... إن تجارة خارجية أكثر اتساعاً... لا يمكنها أن تعجز عن زيادة إنتاج الصين، وعن تحسين القوى الإنتاجية للقطاع الصناعي فيها. يستطيع الصينيون أن يتعلموا عن طريق الملاحة الأوسع، وبطريقة طبيعية، فن استخدام وصنع الآلات المختلفة بأنفسهم، وهي الآلات المستخدمة في البلدان الأخرى. إنهم يستطيعون كذلك إدخال تحسينات أخرى على الفن والصناعة الموجودة في أنحاء مختلفة من العالم.

آدم سميث

لماذا هم صغار الحجم وأقوياء مع ذلك؟ ولماذا نحن ضخام البنية وضعفاء مع ذلك؟ ... إن ما يجب علينا أن نتعلمه من البرابرة هو فقط... السفن المتينة والبنادق الفعالة.

فينغ غويفين

نهران

بُنيت **المدينة المحرّمة** (جوجونغ) في قلب مدينة بيجينغ على أيدي أكثر من مليون عامل، استخدموا مواد جلبوها من أنحاء الأمبراطورية الصينية كافة. تشتمل **المدينة المحرّمة** على نحو ألف مبنى وكلها منسقة ومبنية ومزخرفة كي ترمز إلى مملكة مينج، وهكذا فهي ليست أثراً يدل على ما كان ذات يوم أعظم حضارة في العالم، لكنها تدل كذلك على أن ما مِن حضارة تدوم إلى الأبد. أشار آدم سميث في العام ١٧٧٦ إلى الصين بوصفها «واحدة من أغنى، وأخصب، وأفضل أرض مزروعة في العالم، كما يعمل سكانها بجد أكثر من أي مكان آخر، وهي إلى ذلك أكثر بلدان العالم في عدد السكان... إنها بلد أغنى بكثير من أي جزءٍ من أجزاء أوروبا». قال سميث عن الصين إنها «جامدة منذ وقتٍ طويل»، أو إنها «تقف بثبات»[1]. كان مصيباً بالتأكيد في هذا الأمر. بدأ هبوط الشرق النسبي في غضون أقل من قرن من زمن تشييد **المدينة المحرمة** ما بين العامين ١٤٠٦ و١٤٢٠. أما الدول الصغيرة والفقيرة والمنهكة بالصراعات في غرب أوروبا فقد انطلقت في توسع مستمر تقريباً لفترة خمسمئة سنة. أما أمبراطوريات الشرق العظيمة فقد ركدت في هذا الوقت وما لبثت أن خضعت للهيمنة الغربية.

لماذا تهاوت الصين في حين مضت أوروبا قُدُماً؟ كان الجواب الرئيس عند سميث هو أن الصين عجزت عن «تشجيع التجارة الخارجية»، وهكذا حُرمت من الفوائد التي تتيحها المقارنة ومن التقسيم الدولي للعمالة. هنالك مع ذلك تفسيرات أخرى. أنحى تشارلز دي سيكوندات، وهو بارون مونتسيكيو، باللائمة على «خطة الطغيان الثابتة»، وهي الخطة التي أرجعها إلى العدد الهائل لسكان الصين، الأمر الذي يعود بدوره إلى طقس شرق آسيا:

إنني أفكّر في هذا: لا تمتلك آسيا منطقة معتدلة، كما أن الأماكن الواقعة في

(١) Smith, Wealth of Nations, Book I, chs. 8, 11, Book IV, ch. 9.

مناطق مناخية شديدة البرودة تجاور مناطق شديدة الحرارة، أي تركيا، وبلاد فارس، والهند، والصين، وكوريا، واليابان. أما في أوروبا، في المقابل، فإن المنطقة المعتدلة فيها مترامية جداً... يعني ذلك أن كل بلدٍ يماثل البلد الذي يتصل به، ولا يوجد فرق استثنائي بينهما... يعني ذلك أن البلدان القوية في آسيا تقف ضد البلدان الضعيفة، وأن السكان المحاربين والشجعان والنشطاء يحتكون مباشرة بأولئك الكسالى، والمتخنثين، والضعفاء؛ وهكذا يجب على طرفٍ أن يقهَر، وعلى الطرف الآخر أن يُقهر. أما في أوروبا، في المقابل فإن الدول القوية تواجه دولاً قويةً أخرى، كما أن الدول التي تنضم إلى الدول الأخرى تتمتع بالشجاعة نفسها. هذا هو السبب الأساس لضعف آسيا، ولقوة أوروبا، ولتحرر أوروبا وعبودية آسيا. إنها قضية لا أذكر أبداً أن أحداً أشار إليها من قبل[1].

اعتقد كتّابٌ أوروبيون بعد ذلك أن التقنية الغربية هي سبب التفوق على الشرق، وبالتحديد التقنية التي أنتجت الثورة الصناعية فيما بعد. بدا الوضع هكذا بالنسبة إلى إيرل ماكارتني بعد رحلته المخيبة للآمال التي قام بها إلى البلاط الأمبراطوري الصيني في العام ١٧٩٣ (أنظر ما يلي). برزت حجة أخرى حازت شعبية في القرن العشرين وفحواها أن الفلسفة الكونفوشيوسية هي التي قيّدت الابتكار. لكن هذه التفسيرات المعاصرة لتخلف الشرق كانت كلها خاطئة. لم يكن أول البنود الحاسمة الستة التي امتلكها الغرب وافتقدها الشرق لا تجارياً، ولا مناخياً، ولا تقنياً، ولا فلسفياً. كان مؤسساتياً [نُظُماً] بحسب ما رآه سميث.

لو تسنى للقارئ أن يقوم في العام ١٤٢٠ برحلتين بمحاذاة نهرين، التايمز ويانغ تسي، لكان دُهش كثيراً بالتباين فيما بينهما.

كان يانغ تسي جزءاً من شبكة قنوات مائية متطورة تربط ما بين نانكنغ وبيجينج. كانت هذه القناة تمتد ما يزيد على ٥٠٠ ميلٍ إلى الشمال، وإلى هانغ زاو في

(١) Montesquieu, Spirit of the Laws, Book VIII, ch. 21. See also Book VII, ch. 7, Book XIX, chs. 17–20.

الجنوب. كانت القناة العظيمة هي أساس ذلك النظام، وهي التي امتدت في أقصى بعدٍ لها مسافة أكثر من ألف ميل. تعود هذه القناة إلى القرن السابع قبل الميلاد، كما أنها جُهّزت في القرن العاشر قبل الميلاد بأقفالٍ مائية، وبجسور رائعة مثل جسر **الحزام الثمين** بأقواسه المتعددة. قام الأمبراطور من سلالة مينغ، وهو يونغل (١٤٠٢-١٤٢٤) بترميم وتحسين تلك القناة التي سمحت عندما انتهى كبير المهندسين باي ينغ من ترميمها، وتحويل مجرى النهر الأصفر، بإبحار نحو ١٢,٠٠٠ مركبٍ محملٍ بالحبوب سنوياً[١]. عمل نحو ٥٠,٠٠٠ رجل في صون تلك القناة. أما في الغرب فإن أعظم الأقنية ستظل، وبطبيعة الحال، أقنية البندقية. لكن عندما قام ماركوبولو، ذلك البحّار الجسور من البندقية بزيارة الصين في سبعينيات القرن الثالث عشر، دُهش كثيراً بحجم حركة المرور في يانغ تسي:

إن هذه الأعداد الكبيرة من المراكب التي تستخدم هذا النهر العظيم هي كبيرة بحيث لن يصدقها أحد من الذين يقرأون أو يسمعون عنها. إن كمية التجارة التي يتم تبادلها هي أكبر من أن تصدّق. إنها كبيرة جداً في واقع الأمر بحيث يخيل إلى المرء بأنه يقف أمام بحر وليس مجرد نهر.

لم يقتصر دور القناة الكبرى على كونها الشريان الرئيس للتجارة الداخلية. فقد مكّنت هذه القناة كذلك الحكومة الأمبراطورية من التحكّم في سعر الحبوب بواسطة خمسة مستودعات حكومية، وهي التي كانت تشتري الحبوب عندما تكون رخيصة، وتبيعها عندما يرتفع سعرها[٢].

ربما كانت نانجينغ أكبر مدينة في العالم في العام ١٤٢٠ حيث راوح عدد سكانها ما بين نصف مليون ومليون نسمة. ظلت تلك المدينة لعقود من الزمن مركزاً مزدهراً لصناعتَي الحرير والقطن، كما أصبحت في عهد الأمبراطور يونغل مركزاً للتعلّم. يعني اسم يونغل «السعادة الأبدية»، لكن لربما يكون تعبير الحركة الأبدية توصيفاً أفضل.

(١) See in general Bishop, China's Imperial Way.

(٢) Tsai, Perpetual Happiness, p. 123.

لم يقم أعظم أباطرة سلالة مينغ بعملٍ ناقصٍ قط. استغرق إعداد ملخص للتعليم الصيني جهود أكثر من ٢,٠٠٠ باحثٍ كما تطلب ما يزيد على ١١,٠٠٠ مجلد. لم تتمكن أي موسوعة أخرى من التفوق عليها غير ويكيبيديا، ولم يحدث ذلك إلا في العام ٢٠٠٧، أي بعد مرور ٦٠٠ عام بالضبط.

لكن يونغل لم يكن راضياً في نانكينغ. لم يمضِ وقت طويل على اعتلائه العرش حتى قرر بناء عاصمة جديدة تفوقها روعة، وكانت تلك العاصمة هي بيجينج. تمكّنت **الصين تحت ظل سلالة مينغ من احتلال لقب أكثر الحضارات تقدماً في العالم من** دون منازع.

كان نهر التايمز في المقابل نهراً راكداً بالفعل في بدايات القرن الخامس عشر بالمقارنة بيانغ تسي. كانت لندن ميناءً مزدحماً، وذلك لأنها كانت محطة لتجارة إنكلترا مع القارة. أما أشهر رئيس لبلدية المدينة أي ريتشارد وايتنغتون، فقد كان تاجر أقمشة بارزاً، وهو الذي تمكن من جني ثروته من صادرات الصوف المتنامية. تعزّزت صناعة بناء السفن في العاصمة الإنكليزية نتيجة الحاجة إلى نقل الرجال والمؤن لمصلحة حملات إنكلترا المتكرّرة ضد الفرنسيين. أما في شادويل وراتكليف، فإنه كان بالإمكان رفع السفن إلى مراسٍ من الطين من أجل إعادة تجهيزها. ظهر كذلك برج لندن وهو الذي كان خطِراً أكثر منه محرماً.

كان يندر أن يُدهش الزائر القادم من الصين بكل هذا. شُيّد البرج نفسه بتصميم غير دقيق بالمقارنة بالقاعات المتعددة للمدينة المحرمة. أما جسر لندن فلم يكن سوى سوقٍ غير مرتبة مشيدة فوق أعمدة، وذلك بالمقارنة **بجسر الحزام الثمين** Precious Belt Bridge. يُضاف إلى ذلك أن تقنيات الإبحار البدائية أبقت البحّارة الإنكليز ضمن مناطق ضيقة من المياه، أي التايمز والقنال، أي حيث يتمكّنون من البقاء في مجال رؤية الضفاف والسواحل المألوفة لديهم. لم يتمكّن البحّارة الإنكليز والصينيون على السواء من تخيّل إمكانية إبحار السفن من لندن إلى يانغ تسي في المستقبل.

كانت لندن التي عاد إليها هنري الخامس في العام ١٤٢١ بعد الانتصارات التي أحرزها على الفرنسيين، وعلى الخصوص انتصاره عليهم في آجينكورت، مجرد بلدة بالمقارنة بنانكينغ. كانت أسوارها القديمة والمرمّمة تمتد مسافة ثلاثة أميال، وهي تمثل جزءاً يسيراً من حجم أسوار نانكينغ. استغرق مؤسس سلالة مينغ ما يزيد على عشرين عاماً من أجل تشييد السور حول عاصمته الذي امتد أميالاً عديدة، كما تخللته بوابات كانت من الكبر بحيث أن بوابة واحدة كانت تتسع لثلاثة آلاف جندي. بُني هذا السور كي يصمد بمرور الزمن. بقي قسم كبير من السور حتى هذه الأيام، بينما لم يبقَ أي شيء تقريباً من سور لندن الذي بُني في العصور الوسطى.

تُعدُّ الصين في عهد سلالة مينغ، بمعايير القرن الخامس عشر، مكاناً يستطيع الإنسان العيش فيه براحةٍ نسبية. أما النظام الإقطاعي الذي تأسس مع بداية حقبة سلالة مينغ فقد خفّت وطأته مع ازدهار التجارة الداخلية[1]. يستطيع زائر سوزهاو هذه الأيام أن يرى ثمار الرخاء العمراني، وذلك في ظلال الأقنية المظللة والممرّات الأنيقة في وسط المدينة القديمة. كانت الحياة في مدن إنكلترا مختلفةً جداً. أدى الموت الأسود، أي وباء الطاعون، الذي تسببه بكتيريا تحملها البراغيث Yersinia pestis، والذي وصل إلى إنكلترا في العام ١٣٤٩ إلى تقليص عدد سكان لندن إلى نحو ٤٠,٠٠٠ مواطن، أي أقل من جزء من عشرة من عدد سكان نانكينغ. تفشّت أمراض أخرى إلى جانب هذا الوباء مثل حُمّى التايفوس، والدّيزنطاريا، والجُدَري. تكفل سوء أنظمة الصرف الصحي بجعل لندن مصيدة للموت حتى من دون الأوبئة. كانت رائحة العفونة تفوح من شوارع لندن بسبب غياب أقنية تصريف المياه، هذا في حين أن فضلات السكان كانت تُجمع بانتظام في المدن الصينية ثم تُستخدم بعد ذلك كسماد في حقول الأرزّ الشاسعة. أما في الأيام التي تسلّم فيها ديك وايتنغتون رئاسة البلدية – شغل منصبه أربع مرات ما بين عام ١٣٩٧ وبين موته في العام ١٤٢٣، فقد رُصفت شوارع لندن بالحجارة.

(١) Brook, Confusions of Pleasure.

تعوّد طلبة المدارس الاعتقاد أن هنري الخامس هو أحد الشخصيات البارزة في التاريخ الإنكليزي، وأنه كان نقيض سلفه الضعيف ريتشارد الثاني. يشعر المرء بالأسف عندما يقول إن مملكة هذين الملكين كانت مختلفة تماماً عن تلك الجزيرة الملكية التي تحدث عنها شكسبير على لسان ريتشارد الثاني، إذ إنها لم تكن أكثر من جزيرة متعفنة. تعوّد ذلك الكاتب المسرحي أن يسمّيها «عدن [جنة] الأخرى، وشبه جنة، / هذه القلعة التي بنتها الطبيعة لنفسها/ منيعة ضد التلوث...» لكن توقع أعمار البريطانيين عند الولادة كان منخفضاً جداً، أي ٣٧ سنة، وذلك في السنوات ما بين ١٥٤٠ و١٨٠٠. أما في لندن فقد كان هذا المعدّل في العشرينيات. كان ما معدله طفل واحد من بين خمسة أطفال إنكليز يموت في سنته الأولى، أما في لندن فقد بلغ هذا المعدل واحداً من بين ثلاثة. أما هنري الخامس نفسه فقد أصبح ملكاً في السادسة والعشرين من عمره ومات بسبب الديزنطاريا في الخامسة والثلاثين. يدل هذا على أن معظم الأحداث التاريخية كان يصنعها، حتى وقتٍ قريبٍ جداً، شبان في مقتبل العمر لكنهم يموتون باكراً.

كان العنف مستوطناً في تلك الأيام، كما كانت الحروب مع فرنسا حالة دائمة تقريباً. كان الإنكليز يحاربون الويلزيين، والأسكتلنديين، والآيرلنديين عندما لا يكونون منشغلين بالحرب مع الفرنسيين. حارب الإنكليز أنفسهم في أثناء حروبهم مع الكيلتيين، وذلك في سلسلة حروب للسيطرة على الحكم. وصل والد هنري الخامس إلى سُدّة الحكم عن طريق العنف، أما ابنه هنري السادس فقد خسر الحكم بالطريقة ذاتها مع تفجر حرب الورود، وهي الحرب التي شهدت خسارة أربعة ملوك لعروشهم كما شهدت مقتل أربعين من أفراد طبقتها في خلال المعارك أو تحت أعواد المشانق. أما خلال العامين ١٣٣٠ و١٤٧٩ فقد كان العنف هو سبب ربع الوفيات بين أفراد الطبقة الأرستقراطية الإنكليزية. كانت الجرائم العادية شائعة هي الأخرى، كما توحي المعطيات من القرن الرابع عشر بأن نسبة الجرائم في أكسفورد وصلت إلى أكثر من ١٠٠ من بين كل ١٠٠,٠٠٠ مواطن. أما لندن فكانت أكثر أمناً بعض الشيء

مع نسبة وصلت إلى خمسين من بين ١٠٠,٠٠٠. أما أسوأ نسب جرائم في العالم هذه الأيام فتظهر في جنوب أفريقيا (٦٩ من بين ١٠٠,٠٠٠)، وكولومبيا (٥٣)، وجامايكا (٣٤). أما ديترويت فلم تتجاوز نسبة الجرائم فيها ٤٥ لكل ١٠٠,٠٠٠ حتى في أسوأ أيام الثمانينيات من القرن الماضي[١].

لاحظ أحد المنظّرين السياسيين فيما بعد، وهو توماس هوبس، أن الحياة الإنكليزية في هذه الفترة هي حقاً (ما يدعى حالة الطبيعة)، «منعزلة، فقيرة، مقزّزة، قاسية، وقصيرة». كان الأمن قليلاً حتى بالنسبة إلى إحدى العائلات الثرية في نورفولك مثل عائلة باستون. طُردت مارغريت زوجة جون باستون بالقوة من منزلها عندما أصرّت على التمسك بحقها في قلعة غريشام، وهي القلعة التي كان يحتلها وارث المالك السابق. ترك السير **جون فاستولف** قلعة كايستر لمصلحة آل باستون، لكنها حوصرت من قِبل دوق نورفولك وذلك بعد وقتٍ قصير من موت جون باستون كما احتفظ بها لمدة سبع عشرة سنة[٢]. كانت إنكلترا من بين أكثر البلدان الأوروبية ثراء وأقلها عنفاً، فالحياة كانت أسوأ، وأكثر شراسة، وأقصر في فرنسا. كانت الأمور تزداد سوءاً كلما اتجه المرء شرقاً في أوروبا. كانت حصة الرجل الفرنسي العادي اليومية من السعرات الحرارية لا تتجاوز ١,٦٦٠ سعرة حتى في بدايات القرن الثامن عشر، وهي حُصّة لا تزيد إلا بقليل على الحدّ الأدنى المطلوب للحفاظ على الحياة البشرية، وهي نسبة تبلغ نصف معدل حصة الإنسان في الغرب هذه الأيام. كان طول الرجل الفرنسي العادي في فترة ما قبل الثورة مجرد خمس أقدام وأربع بوصات وثلاثة أرباع البوصة[٣]. أما بقية البلدان داخل القارة الأوروبية، التي نمتلك معطيات عنها في فترة القرون الوسطى، فتُظهر معدلات جريمة أكبر مما كانت عليه في إنكلترا، لكن إيطاليا المشهورة بكثرة الاغتيالات التي تجري فيها كما هي شهيرة بفنانيها، كانت تقف في المرتبة الأسوأ.

---

(١) Pinker, Better Angels.

(٢) Castor, Blood and Roses.

(٣) Fogel, Escape from Hunger, tables 1.2, 1.4.

يجادل أشخاصٌ في بعض الأحيان بأن هذا السوء في أحوال أوروبا الغربية كان نوعاً من مزية كامنة. يُحتمل أن تكون نسبة الوفيات العالية بين الفقراء هي التي ساعدت الأغنياء على زيادة ثرواتهم. أما الأمر المؤكّد فهو أن إحدى نتائج وباء الموت الأسود [الطاعون] هي التسبب بزيادة نصيب الفرد من المداخيل. تمكّن الذين نجوا من الموت من جني أجورٍ أكبر بسبب ندرة اليد العاملة. كان من الصحيح كذلك أن نسبة أولاد الأغنياء في إنكلترا الذين كانوا يتمتعون بإمكانية الوصول إلى مرحلة البلوغ كانت أكبر مما تمتع به أولاد الفقراء[1]. يبدو مع ذلك أن هذه المعطيات السكانية الأوروبية لا تفسّر ذلك التباعد الكبير بين الغرب والشرق. ثمة بلدان في العالم هذه الأيام تُعدُّ ظروف الحياة فيها بمثل السوء الذي كانت عليه في إنكلترا القرون الوسطى حيث كانت الأوبئة، والجوع، والحرب، والجريمة تؤدي كلها إلى إبقاء توقع الأعمار منخفضاً جداً، وحيث كان الأثرياء وحدهم هم الذين يعيشون طويلاً. أما أفغانستان وهايتي، والصومال فلا يبدو أنها تستفيد من ظروفٍ كهذه. سنرى لاحقاً كيف أن أوروبا تمكّنت من القفز قُدُماً نحو الثراء بالرغم من الموت، وليس بسببه.

أعتقد أنه بإمكان الباحثين والقراء المعاصرين الإفادة من التذكير بطبيعة الموت في تلك الأيام. لم تكن لوحة الفنان الفلمنكي بيتر بروغيل الأب (١٥٢٥- ١٥٦٩) **انتصار الموت**، عملاً واقعياً بطبيعة الحال، وهي أبرز عمل خيالي له، لكن بروغيل لم يكن بالتأكيد مضطراً للاعتماد كلياً على مخيلته كي ينقل صورة الموت المقزّز والدمار المخيف. أظهرت اللوحة بلاداً يحكمها جيش من الهياكل العظمية، وملكاً يستلقي مُحْتضَراً من دون أن ينفعه كنزه شيئاً، بينما ظهر أحد الكلاب وهو يقضم جثة بجواره. أما في خلفية اللوحة فنرى رجلين معلقين على أعواد المشانق، وأربعة رجال مشوّهين في الدواليب، وآخر ينتظر أن يُقطع رأسه. نشاهد في هذه اللوحة الجيوش تتصادم، ومنازل محترقة، وسفناً تغرق. أما في مقدمة اللوحة فنرى رجالاً ونساءً

(١) Clark, Farewell to Alms.

وشباناً ومسنّين، وجنوداً ومدنيين مدفوعين جميعاً بشكلٍ فوضوي نحو نفقٍ ضيق. لم ينجُ أحد من هذه المحنة، حتى ذلك المغني الجوال الذي يغني لعشيقته والذي قُضي عليه. أما الفنان نفسه فقد مات في بدايات الأربعينيات من عمره، وكان في عمرٍ أقل من عمر مؤلف هذا الكتاب.

رسم فنان إيطالي آخر، وهو سلفاتور روزا، بعد مرور قرنٍ من الزمن، لوحةً لعلها هي الأكثر إثارة من بين جميع momento mori وحملت عنواناً بسيطاً (الضعف الإنساني). استوحى الفنان هذه اللوحة من الطاعون الذي اكتسح نابولي، مسقط رأسه، في العام ١٦٥٥ وقضى على حياة ابنه الرضيع روزالفو، بالإضافة إلى حياة شقيقه، وشقيقته وزوجها وخمسة من أولادهما. ظهر ملاك الموت من وراء الظلمة. بدا ضاحكاً بشكلٍ مخيف من وراء زوجة روزا كي يأخذ ولدهما حتى وهو يبذل أولى محاولاته كي يكتب. عكست ثماني كلمات لاتينية كُتبت على قماش اللوحة مزاج ذلك الفنان المفجوع:

Conceptio culpa

Nasci pena

Labour vita

Necesse mori

«الحمل خطيئة، الولادة ألم، الحياة عناء، والموت محتّم». أليس ذلك هو أكثر التوصيفات المختصرة يُمكن أن يفكر فيها المرء للحياة في أوروبا في ذلك الوقت؟»

الخصي ووحيد القرن

كيف يُمكن لنا أن نفهم تفوّق الشرق؟ نقول بداية إن الزراعة الآسيوية كانت أكثر إنتاجية بكثير من الزراعة الأوروبية. كان آكر واحد من الأرض كافياً لإعالة أسرة. كان ذلك دليلاً على فاعلية زراعة الأرزّ. بينما في إنكلترا كان معدل الآكرات اللازم لإعالة أسرة واحدة عشرين آكراً. يساعدنا هذا الرقم على فهم سبب كون شرق

آسيا آهلاً بالسكان أكثر من غرب أوروبا. كان النظام الشرقي الأكثر تطوراً لزرع الأرز كافياً لإعالة أناسٍ أكثر. يفسر هذا سبب نظر الشاعر زهاو شيكسيو، الذي عاش في خلال حكم أسرة مينغ، إلى الريف من خلال منظارٍ وردي، لكن الصورة كانت هي صورة عائلة ريفية هانئة في معيشتها:

تبدو المداخل المتواضعة من خلال الطريق المعتم، ويؤدّي الطريق المتعرّج إلى مدخلٍ صغير. تعيش هنا عشر عائلات... جنباً إلى جنب ومنذ عدة أجيالٍ. تتداخل أدخنةُ المواقد أينما تنظر. يُبدي الناس تعاوناً في أعمالهم اليومية. يرأس أحد أولاد الرجل منزلاً في الغرب، بينما ابنة رجلٍ آخر هي زوجة جاره. تهبّ ريح خريفية باردة على معبد إله الأرض. جرت التضحية بصغار الخنازير والجعة المصنوعة من الأرز إلى **راعي الحقول**، وهو الذي يحرق له الشامان المسن العملة الورقية بينما يقرع الأولاد طبلاً برونزياً. يغلف الضباب حديقة قصب السكّر بسكون، بينما رذاذ المطر يتساقط على حقول القلقاس. يعود الناس إلى منازلهم بعد إتمامهم للطقوس، وينشرون الحُصُر، ويدردشون، وهم أقرب إلى أن يكونوا ثملين...[١]

لكن هذه المشاهد من الريف تعادل جزءاً واحداً من القصة. مالت الأجيال التالية من الغربيين إلى التفكير في الصين الأمبراطورية وكأنها مجتمع ساكن يعاني حساسية ضد الابتكار. عرّف عالم الاجتماع الألماني ماكس ويبر عقلانية الكونفوشيوسية في كتابه **الكونفوشيوسية والطاوية** (١٩١٥) على أنها تعني «التكيّف العقلاني مع العالم»، وهو ما يناقض المفهوم الغربي «للسيطرة العقلانية على العالم». وافق الفيلسوف الصيني فينغ يولان إلى حدٍ كبير على هذه النظرة في كتابه **تاريخ الفلسفة الصينية** (١٩٣٤)، وكذلك وافق عليها الباحث في جامعة كامبريدج جوزف نيدهام في مجموعة كتبه عن تاريخ **العلوم والحضارة في الصين**. يصعب أن تقف هذه التفسيرات الثقافية – التي عادة ما تكون جذابة بالنسبة إلى الذين يتعاطفون مع النظام الماوي بعد العام ١٩٤٩، مثل فينغ ونيدهام ـ مع الأدلة التي تقول إنه قبل

(١) Dardess, 'Ming Landscape', pp. 323f.

وقتٍ طويل من حقبة مينغ سعت الحضارة الصينية على الدوام إلى السيطرة على العالم من خلال الابتكارات التكنولوجية.

إننا لا نعرف على وجه التأكيد من هي الجهة التي صمّمت أول ساعةٍ مائية. يُحتمل أن يكون المصريون، أو البابليون، أو الصينيون هم الذين صمّموها. لكننا نعرف أن **سو سونغ** أضاف في العام ١٠٨٦ ترس توازن للساعة فابتكر بذلك أول ساعة ميكانيكية في العالم، وهي كانت بدعةً معقدة يبلغ طولها ٤٠ قدماً، وهي لا تعلن الوقت فقط لكنها ترسم حركات الشمس، والقمر، والكواكب. رأى ماركوبولو برجاً يشتمل على ساعةٍ كهذه، وذلك عندما زار **دادو** الواقعة في شمال الصين، وذلك بعد وقتٍ قصير من تشييد البرج في العام ١٢٧٢. لم توجد في إنكلترا آلة تقترب من دقة تلك الساعة إلا بعد مرور قرنٍ من الزمان، أي عندما بدأت صناعة أولى الساعات الفلكية للكاتدرائيات في نورويتش، سان آلبان وفي سالزبوري.

تُعزى صناعة المطبعة المزوّدة أحرفاً متحركة إلى ألمانيا في القرن الخامس عشر. أما الواقع فيدل على أنها اختُرعت في الصين في القرن الحادي عشر. نشأت صناعة الورق في الصين، وذلك قبل وقتٍ طويل من وصولها إلى الغرب. يصدق الأمر ذاته على النقود الورقية، وورق الجدران، وورق المراحيض(١).

يؤكد كثيرون أن رائد الزراعة الإنكليزي جيثرو تول هو الذي اكتشف أداة زرع البذور في العام ١٧٠١. لكن الواقع يدل على أنها اختُرعت في الصين قبل ألفي سنة. أما محراث روثرهام المزود حديدة معقوفة، والذي كان أداة أساسية في الثورة الزراعية الإنكليزية في القرن الثامن عشر، فقد كان اختراعاً صينياً آخر(٢). أما كتاب وانغ زن الذي صدر في العام ١٣١٤ وعنوانه **دراسة في الزراعة** فقد كان مليئاً بالأدوات التي لم تكن معروفة في الغرب(٣). نشأت فكرة الثورة الزراعية في الصين كذلك. أما أول

(١) Needham (ed.), Science and Civilization, vol. V, pp. 52, 313.

(٢) Ibid., vol. VI, pp. 558, 571, 581. Cf. Hobson, Eastern Origins, p. 201.

(٣) Mokyr, Lever of Riches, pp. 209ff.

أتون لصهر خام الحديد فلم يكن مبنياً في **كولبروكدايل في العام** ١٧٠٩، لكنه كان في الصين قبل العام ٢٠٠ ق.م. كما أن أول جسرٍ حديدي معلق في العالم لم يكن بريطانياً بل صينياً. يمكن رؤية بقايا ذلك الجسر الذي يعود بناؤه إلى العام ٦٥ ب.م. قرب **تشينغ- تونغ** الواقعة في محافظة يونان[١]. يُذكر أن مستويات إنتاج الحديد في بريطانيا في العام ١٧٨٨ كانت لا تزال أقل من تلك التي وصلت إليها الصين في العام ١٠٧٨. كان الصينيون هم من أول من أحدث ثورة في إنتاج الأقمشة عندما أدخلوا إلى هذه الصناعة ابتكارات مثل نول النسيج ودولاب لفّ الحرير، وهي الأدوات التي استوردتها إيطاليا في القرن الثالث عشر[٢]. إن القول بأن الصينيين استخدموا أشهر إبتكارٍ لهم، أي البارود، في الألعاب النارية فقط هو قول أبعد ما يكون عن الحقيقة. إن الكتاب الذي نشره **جياو يو وليو جي** الذي حمل عنوان Huolongjing في أواخر القرن الرابع عشر، أورد توصيفاً للألغام البرية والبحرية، والصواريخ، وكرات المدفعية المجوفة المملوءة بالمتفجرات.

تضمّنت الاختراعات الصينية الأخرى المبيدات الزراعية الكيميائية، وبكرة صيد الأسماك، وأعواد الثقاب، والبوصلة المغناطيسية، وأوراق اللعب، وفرشاة الأسنان، وعربة اليد. يعرف الجميع أن لعبة الغولف اختُرعت في أسكتلندا، لكن سجلات دونغ كسوان المتبقية من سلالة سونغ (٩٦٠ – ١٢٧٩) تتحدث عن لعبة تدعى **شوي وان.** استخدم اللاعبون عشرة مضارب، بما فيها **كوان بانغ، وبوبانغ، وشاوبانغ**، وهي مضارب تعادل **الدرايفر، وتو وود، وثري وود** التي نستخدمها نحن. كانت المضارب مرصّعة باليشب [من الأحجار الكريمة] والذهب، الأمر الذي يوحي بأن لعبة الغولف كما نعرفها اليوم كانت لعبة للأثرياء.

لا يقتصر الأمر على هذا فقط، لأنه ما إن أطل قرن جديد في العام ١٤٠٠ حتى كانت الصين مؤهلة لتحقيق إنجازاتٍ تقنية جديدة، وهي الإنجازات التي كانت

(١) Needham (ed.), Science and Civilization, vol. IV, p. 184.

(٢) Ibid., vol. V, pp. 61, 157, 354, 421. Cf. Hobson, Eastern Origins, pp. 207–12.

ستكفي لجعل الأمبراطور **يونغل** ليس سيّد المملكة الوسيطة فحسب، لكن سيد العالم بأسره. يعني لقبه حرفياً «كل ما هو تحت السماء».

يمكن للمرء أن يرى في **نانكينغ** في هذه الأيام نسخة طبق الأصل لسفينة الأميرال **جينغ هي**، وهو أشهر بحّارٍ صيني في التاريخ. كانت السفينة بطول ٤٠٠ قدم، أي خمسة أضعاف حجم **سانتا ماريا** السفينة التي عبر كريستوف كولومبس الأطلسي على متنها في العام ١٤٩٢. كانت هذه السفينة جزءاً فقط من أسطول يشتمل على أكثر من ٣٠٠ سفينة شراعية كبيرة وعابرة للمحيطات. احتوت تلك السفن على أشرعة متعدّدة وحجرات طافية منفصلة من أجل منعها من الغرق في حال حدوث فجوة تحت خط مستوى المياه. كانت تلك السفن أكبر من أي شيء آخر تم بناؤه في أوروبا القرن الخامس عشر. كان أسطول **جينغ** المؤلف من ٢٨,٠٠٠ بحار أكبر من أي أسطولٍ آخر شهده الغرب حتى الحرب العالمية الأولى.

كان سيّد ذلك الأسطول وقائده رجلاً استثنائياً، وهو الذي أُلقي القبض عليه في ميدان المعركة على يد مؤسس سلالة مينغ، **زهو يوانجانغ**. تعرّض الأسير للخصاء جرياً على العادة في ذلك الوقت. عُيّن بعد ذلك خادماً للابن الرابع للأمبراطور، وهو **زهو دي**، الرجل الذي سيستولي فيما بعد على العرش الأمبراطوري تحت اسم **يونغل**. أراد **يونغل** مكافأة **جينغ هي** على خدمته التي كانت في منتهى الإخلاص فأسند إليه مهمة استكشاف محيطات العالم.

أبحر أسطول **جينغ هي** إلى مسافات بعيدة تثير الدهشة، وذلك في سلسلة من ست رحلات ملحمية قام بها ما بين العامين ١٤٠٥ و١٤٢٤ (*). أبحر الأميرال إلى تايلاندا، وسومطرة، وجاوا، وإلى كاليكوت، الميناء الذي كان عظيماً ذات يوم

(*) جرت رحلة سابعة ما بين العامين ١٤٣٠ و ١٤٣٣. زعم غافين مينزيس أن السفن الصينية دارت حول رأس الرجاء الصالح، وأبحرت صعوداً بمحاذاة الشاطئ الغربي لأفريقيا نحو جزر كايب فيردي، وقطعت الأطلسي ثم تابعت رحلتها حتى وصلت إلى تيرا دي فويجو وساحل أستراليا، كما زعم أن أحد أميرالات جينغ قد تمكن من الوصول إلى غرينلندا وعاد إلى الصين بمحاذاة الساحل الشمالي لسيبيريا وعبر مضيق بيرينغ. إن الأدلة على هذه المزاعم هي أدلة ظرفية في أفضل الأحوال، وغير موجودة في أسوأ الأحوال.

(يسمى اليوم كوزكود، ويقع في كيرالا)، وإلى تيماسيك (التي سميّت سنغافورة فيما بعد)، وإلى ملقة، وسيلان، وإلى كوتاك في أوريسا، وإلى هرمز، وعدن صعوداً إلى البحر الأحمر، وأخيراً وصل إلى جدة[1]. انطلقت هذه الرحلات لهدفٍ معلن وهو البحث عن سلف **يونغل** في الحكم الذي اختفى بطريقة غامضة، وكذلك البحث عن الخاتم الأمبراطوري الذي اختفى معه. (هل سعى **يونغل** إلى التعويض عن تسلّمه العرش بالقوة، أم أنه أراد طمس حقيقة أنه فعل ذلك؟) لكن لم يكن الهدف الحقيقي للرحلة قط هو إيجاد الأمبراطور الضائع.

تلقى **جينغ** أمراً قبل رحلته الأخيرة يقضي بالقيام «بواجب أمبراطوري إلى هرمز وبلدان أخرى، وأن يصطحب معه سفناً من مختلف الأحجام بحيث يبلغ عددها إحدى وستين سفينة... وأن يحمل معه الحرير الملون... وأن يشتري أقمشة القنّب». أُمر ضباطه كذلك «بشراء البورسلان، والقدور الحديدية، والهدايا، والذخائر، والورق، والزيوت، والشمع، وغير ذلك من سلع»[2]. بدت الرحلة بهذه الطريقة وكأنها تجارية مع العلم أن الصينيين امتلكوا سلعاً كانت مطلوبة من قِبل تجار المحيط الهندي (البورسلان، والحرير، والمسك)، وذلك بالإضافة إلى سلع أخرى كانوا يريدون حملها معهم إلى الصين (التوابل، واللآلئ، والأحجار الكريمة، والعاج، وربما قرون الكركدن لاستخدامات طبية)[3]. أما الحقيقة فهي أن الأمبراطور لم يكن معنياً بالتجارة، وذلك بحسب ما فهم آدم سميث فيما بعد. أورد أحد النصوص التي كُتبت في زمن تلك الرحلات أنه يجب على الأسطول «الذهاب إلى بلاد البرابرة وإعطاؤهم الهدايا من أجل تحويلهم عن طريق إظهار قوتنا...» أراد يونغل أن يعطيه الحكّام الأجانب الجزية مقابل هذه «الهدايا»، أي مثل ما كان يفعل جيران الصين القريبون منها، وهكذا يعترفون بسيادته، ومن هو الحاكم الذي يستطيع أن يرفض الخضوع لأمبراطور يمتلك مثل ذلك الأسطول القوي؟[4]

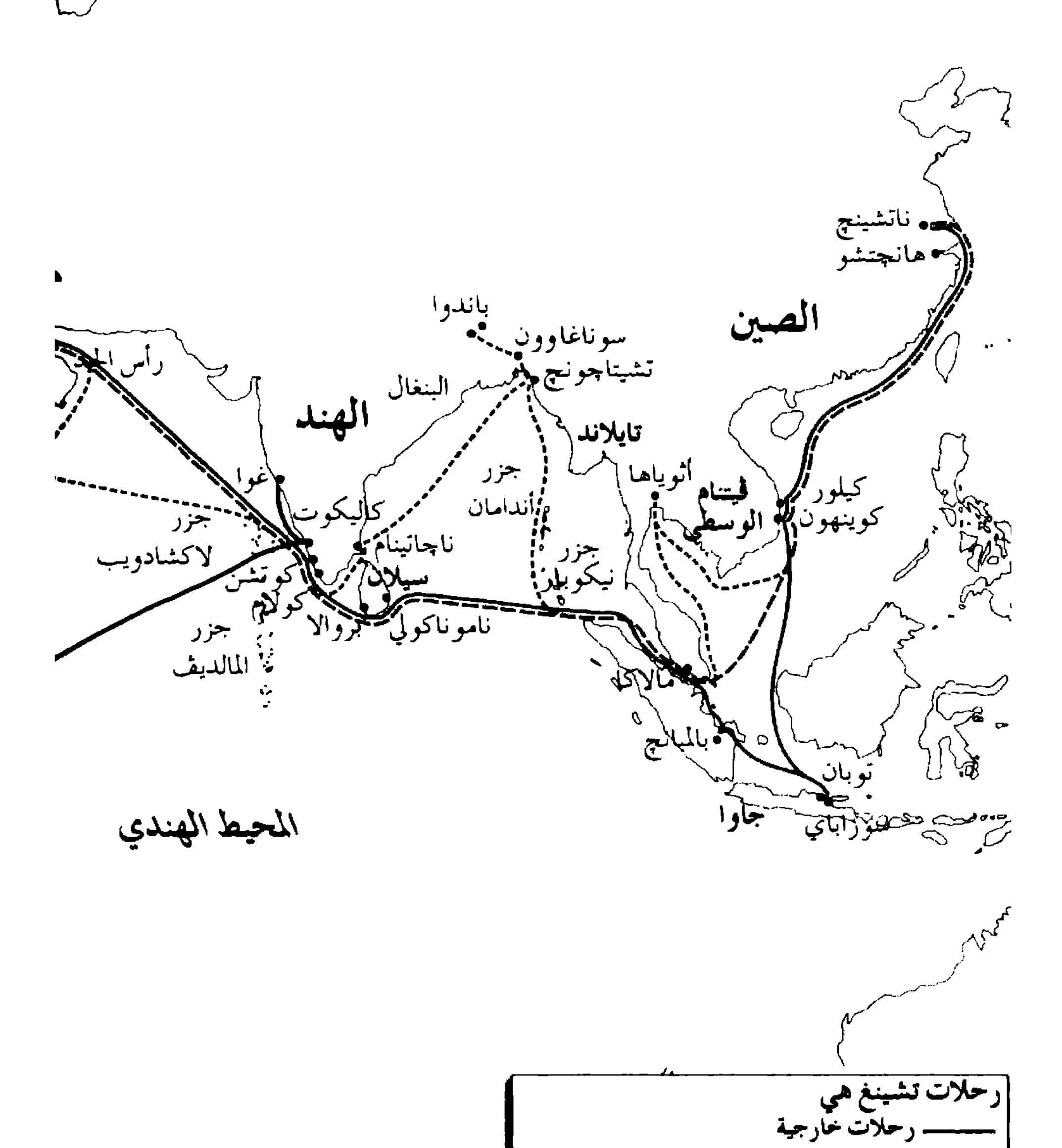
(١) Levathes, When China Ruled the Seas.

(٢) 17. Ray, 'Analysis', p. 82.

(٣) Ibid., pp. 82–4.

(٤) Duyvendak, 'True Dates'.

الرحلة السابقة لـ(تشينغ هي) ١٤٣٠-١٤٣٣
والرحلة الأولى لـ(دا جاما) ١٤٩٧-١٤٩٩




البرتغال
لشبونة
أفريقيا
جدة
مقديشو
براڤا
ماليندي
ممباسا
المحيط الأطلسي
1000 miles 500 0
2000 Km 1000 0

تمكّنت عدة سفن تابعة لأسطول **جينغ هي** من الوصول إلى الساحل الشرقي لأفريقيا في ثلاث من الرحلات التي قام بها ذلك الأسطول. لم تمكث تلك السفن طويلاً. دعا **جينغ** وفوداً تمثّل ثلاثين حاكماً أفريقياً للصعود إلى متون تلك السفن كي يريهم «التفوق العالمي» الذي يتمتّع به أمبراطور مينغ. أرسل سلطان ماليندي (أي كينيا هذه الأيام) وفداً محملاً بهدايا غريبة، وكان من بينها زرافة. تسلّم يونغل هذه الهدية شخصياً عند مدخل قصره الأمبراطوري في **نانكينغ**. استُقبلت الزرافة بوصفها وحيد القرن الأسطوري، واعتُبرت «رمزاً للفضيلة الكاملة، وللحكومة الكاملة، وللتناغم التام في الأمبراطورية والكون»[1].

تلاشى ذلك التناغم في العام ١٤٢٤. مات **يونغل**، وهكذا دُفنت معه طموحات الصين في السيطرة على بلاد ما وراء البحار. أما رحلات **جينغ هي** فقد توقفت على الفور، لكنها استؤنفت لفترة وجيزة مع آخر رحلة استكشافية للمحيط الهندي في العامين ١٤٣٢ و١٤٣٣. ألغيت الرحلات في المحيط نهائياً بموجب مرسوم هاي جين haijin. كان أي مواطن صيني يُلقى القبض عليه بعد العام ١٥٠٠ وهو يبني سفينة تضمّ أكثر من صاريتين يعرّض نفسه لعقوبة الموت. أما في العام ١٥٥١ فكان استخدام هذه السفن للقيام برحلة بحرية يُعدُّ جريمة[2]. تعرضت سجلات **جينغ هي** بعد ذلك إلى الإتلاف، وما لبث **جينغ هي** نفسه أن مات، والمؤكّد تقريباً أنه دُفن في البحر.

ما هو الدافع وراء هذا القرار الخطير؟ هل جاء نتيجة صعوبات مالية أم نتيجة جدالات سياسية داخل البلاط الأمبراطوري؟ أم أن القرار كان بسبب كلفة الحرب في **آنام** (فيتنام في هذه الأيام) التي تبيّن أنها باهظة بشكلٍ غير متوقع؟[3] أم

(١) ndez-Armesto, Millennium, ch. 4; Pathfinders,Cotterell, Imperial Capitals, p. 222. See also Fern ch. 4.

(٢) Landes, Wealth and Poverty, pp. 95f.

(٣) Keay, China: A History, p. 385.

أن القرار جاء، بكل بساطة، بسبب شكوك الباحثين الكونفوشيوسيين في «الأشياء الغريبة» التي عاد بها جينغ هي، وليست الزرافة بأقلها؟ يصعب علينا هنا التحقق من الأمر. لكن اتجاه الصين للانكماش نحو الداخل بدا جلياً.

كانت رحلات جينغ هي عرضاً مهيباً للثروة والتطور التكنولوجي، أي مثل ما كانت عليه رحلات أبولو إلى القمر. كان هبوط خصي صيني في الساحل الأفريقي الشرقي إنجازاً كبيراً يمكننا مقارنته بهبوط أول رائدٍ فضاء أميركي على القمر في العام ١٩٦٩. لكن الإلغاء المفاجئ للرحلات الاستكشافية في المحيط كان يعني أن خلفاء يونغل اعتبروا أن الفوائد الاقتصادية من وراء هذه الإنجازات كانت ضئيلة جداً.

لكن لا يمكننا أن نقول الأمر ذاته عن الرحلات التي كانت على وشك أن يقوم بها بحارٌ مختلف جداً آتٍ من مملكة أوروبية صغيرة تقع على الطرف الآخر من كتلة أوراسيا.

السباق على التوابل

وضع مانويل، الملك البرتغالي المتوج حديثاً [في ذلك الوقت]، فاسكو دي غاما على رأس أربع سفنٍ صغيرة وعيّن لها مهمةً كبيرة. جرى ذلك في قلعة ساو خورخي Castelo de Sao Jorge وفي التلال التي تعلو مرفأ لشبونة الذي تعصف به الرياح. كان بالإمكان وضع كل هذه المراكب الأربعة داخل سفينة جينغ هي العملاقة. كان مجموع بحّارة هذه المراكب ١٧٠ رجلاً فقط. أما مهمة الرجال فتلخصت بالآتي، «إحراز اكتشافات، والانطلاق بحثاً عن التوابل»، لكن قدّر لهذه المهمة أن تحوّل العالم بأسره نحو الغرب.

كانت التوابل التي نتحدث عنها هي القرفة، القرنفل cloves، mace، وجوز الطيب، وهي التوابل التي لم يستطع الأوروبيون زرعها بأنفسهم، لكنهم كانوا يسعون

وراءها من أجل تطييب مذاق أطعمتهم. بقي خط سير التوابل لقرون عديدة يجري في أعلى المحيط الهندي نحو البحر الأحمر، أو براً عبر شبه الجزيرة العربية والأناضول. أما في منتصف القرن الخامس عشر فقد تمكن الأتراك وتجار البندقية من السيطرة بشدة على ذلك القسم الأخير الذي يؤدّي إلى أوروبا. أدرك البرتغاليون أنهم إذا تمكّنوا من العثور على خطٍ بديل يمرّ نزولاً بمحاذاة الساحل الغربي لأفريقيا، ويدور حول رأس الرجاء الصالح نحو المحيط الهندي فسيتمكنون بذلك من الاستحواذ على تلك التجارة. تمكن بحّار برتغالي آخر، وهو بارثلميو دياز من الدوران حول رأس الرجاء الصالح في العام ١٤٨٨، لكن طاقم سفنه أجبره على العودة. مرت تسع سنوات قبل أن يأتي دور دي غاما لإكمال الطريق.

تعطينا أوامر الملك مانويل لمحةً في منتهى الأهمية عن طريقة تمكّن الحضارة الغربية من التمدد عبر البحار. سنرى لاحقاً أن الغرب امتلك أكثر من نقطة تفوقٍ واحدة على بقية أنحاء العالم. لكن نقطة التفوق التي بدأت العملية برمتها كانت، بالتأكيد، هي المنافسة الشرسة التي أشعلت عصر الاستكشاف. لم يقصد الأوروبيون من الإبحار حول أفريقيا الحصول على مجرد جزية رمزية لمصلحة ملكٍ يقبع داخل القارة، بل كان هدفهم التفوق على منافسيهم، سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية. كانت لشبونة ستتفوق على البندقية فيما لو نجح دي غاما في مهمته. يعني ذلك، وفي المختصر، أن الاستكشافات البحرية كانت في القرن الخامس عشر بمنزلة السباق نحو الفضاء [في هذه الأيام]، أو لعله من الأفضل أن نسمّيه السباق نحو التوابل.

أبحر دي غاما في ٨ تموز من العام ١٤٩٧. أما عندما نجح مع رفاقه البحّارة البرتغاليين في الدوران حول رأس الرجاء الصالح، لم يبحثوا عن الحيوانات الغريبة التي يستطيعون أن يعودوا بها إلى ملكهم. أرادوا فقط أن يعرفوا إذا ما كانوا نجحوا أخيراً حيث فشل الآخرون، أي في العثور على طريق جديد للتوابل. أرادوا أن يتاجروا، ولم يسعوا وراء الحصول على جزية.

وصل دي غاما إلى ماليندي في شهر شباط من العام ١٤٩٨ أي بعد اثنين وثمانين عاماً مضت على رسو سفينة **جينغ هي** هناك. لم يترك الصينيون وراءهم سوى أشياء قليلة بما في ذلك بعض أواني البورسلان، وبعض الحمض النووي، أي تلك الناتجة من بقاء نحو عشرين من البحّارة الصينيين الذين تحطمت بهم سفينتهم قرب جزيرة باتي. تمكن هؤلاء البحارة من الوصول سباحة إلى الشاطئ فبقوا هناك، وتزوجوا نساء أفريقيات، كما علّموا السكان المحليين الأساليب الصينية لصنع السلال وإنتاج الحرير[١]. أما البرتغاليون، في المقابل، فقد لاحظوا على الفور صلاحية ماليندي لتكون مركزاً تجارياً محتملاً. دُهش دي غاما عندما التقى بعض التجار الهنود هناك، كما أنه من المؤكد تقريباً أنه تلقى مساعدة من أحد هؤلاء الهنود مكّنته من الاستفادة من الرياح الموسمية للوصول إلى كاليكوت.

لم يكن التوق إلى التجارة هو الفرق الوحيد بين البرتغاليين والصينيين. كان لدى البحّارة القادمين من لشبونة عنصر من الشراسة، التي وصلت في واقع الأمر إلى الوحشية، وهو العنصر الذي نادراً ما أظهره **جينغ لي**. تطلع ملك كاليكوت متخوفاً على السلع التي أحضرها البرتغاليون معهم من لشبونة، وما لبث دي غاما أن ألقى القبض على ستة عشر صياداً كرهائن. أما في رحلته الثانية إلى الهند فقد أبحر على رأس خمس عشرة سفينة وأقدم على قصف كاليكوت، ثم قطع، بكل وحشية، أطراف بحارة السفن التي استولى عليها. يُقال إنه في مناسبةٍ أخرى سجن الركاب على متن سفينة كانت متجهة إلى مكة Mecca ثم أضرم فيها النار.

أظهر البرتغاليون عنفاً قلّ نظيره لأنهم كانوا يعرفون أن افتتاحهم لطريق توابل جديد حول رأس الرجاء الصالح سوف يلقى مقاومة. أرادوا بهذه الطريقة الانتقام مسبقاً من تلك المقاومة. أبلغ ألفونسو دي بوكيرك، وهو ثاني حاكم للهند البرتغالية، مليكه في العام ١٥١٣: «اختفت السفن [المحلية] لدى سماعها بقدومنا، حتى أن الطيور توقفت عن الطيران فوق سطح المياه». كانت المدافع وسيوف الملاحين

(١) According to Nicholas D. Kristof, '1492: The Prequel', New York Times, 6 June 1999.

غير فاعلة أمام بعض الأعداء. لم يستطع نصف رجال دي غاما الصمود خلال رحلته الأولى، وكان من بين أقل الأسباب أهمّية أن قبطانهم حاول العودة إلى أفريقيا ضد اتجاه الرياح الموسمية. تمكّنت سفينتان فقط من أصل السفن الأربع الأصلية من العودة إلى لشبونة. أما دي غاما ذاته فقد قضى بسبب مرض الملاريا في خلال رحلته الثالثة إلى الهند في العام ١٥٢٤. أعيد رفاته إلى لشبونة في وقتٍ لاحق، وهو يرقد الآن في قبر فخم في دير سان جيروم في لشبونة. تابع مستكشفون برتغاليون آخرون الإبحار، وتمكّنوا من تخطي الهند حتى وصلوا إلى الصين. تمكّن الصينيون من معاينة أولئك البرابرة البعيدين عنهم والقادمين من أوروبا، وأظهروا عدم الاكتراث لهم إن لم يكن الاحتقار. تمكّن هؤلاء البرابرة من الوصول إلى أبواب المملكة الوسطى ذاتها بسبب السباق نحو التوابل. يجدر بنا ملاحظة أنه بالرغم من أن البرتغاليين حملوا معهم عدداً قليلاً من الأشياء الثمينة، إلا أنهم جلبوا بعض السلع الثمينة التي أراد الصينيون الحصول عليها، مثل الفضّة التي أرادت الصين تحت حكم سلالة مينغ الحصول عليها، وأبدوا طلباً شديداً عليها كي تحل محل العملة الورقية، وخدمات العمالة بوصفهما الوسيلتين الرئيسيتين للدفع.

وصل البرتغاليون في العام ١٥٥٧ إلى ماكاو، وهي شبه جزيرة في دلتا نهر بيرل. كان من أول الأعمال التي قاموا بها هو إقامة بوابة – وهي بورتا دو سيركو – ونقشوا عليها الكلمات التالية: «خافوا من عظمتنا، واحترموا فضيلتنا». تحولت ماكاو في العام ١٥٨٦ إلى مركزٍ تجاري وصلت أهميته إلى حد أن أعلنها التاج البرتغالي مدينة: سيداد دي نوم دي ديوس (مدينة باسم الله). كانت تلك المدينة أول الجيوب التجارية الأوروبية في الصين. عاش لويس دا كاموس، وهو مؤلف **ذي لوسيادس** تلك الملحمة الشعرية التي تتحدث عن التوسع البحري البرتغالي، في **ماكاو** لبعض الوقت، وذلك بعد نفيه من لشبونة بسبب حادثة اعتداء. تساءل الشاعر عن كيفية تمكّن مملكة صغيرة مثل البرتغال، يبلغ عدد سكانها ما نسبته أقل من واحد بالمئة من مجموع سكان الصين، من التطلع إلى السيطرة على تجارة الأمبراطوريات الآسيوية

التي تفوقها كثيراً بعدد السكان. مضى مواطنوه مع ذلك بالإبحار، وتمكّنوا من تأسيس شبكة مدهشة من المراكز التجارية التي امتدت مثل قلادة عالمية من لشبونة وحول أفريقيا، وشبه الجزيرة العربية والهند وعبر مضايق ملقة وصولاً إلى جزر التوابل ذاتها، وذلك قبل أن تتابع إلى مسافاتٍ أبعد تتجاوز ماكاو. كتب كاموس عن مواطنيه يقول: «لو بقيت هناك عوالم أخرى تنتظر الاستكشاف فإنهم سيجدون طريقهم إليها!»[١].

لم يغفل منافسو البرتغال من الأوروبيين عن فوائد التوسع ما وراء البحار. كانت إسبانيا بعيدة أول الأمر عن هذا التوسع الذي قامت به البرتغال، لكنها أخذت المبادرة في العالم الجديد (أنظر الفصل الثالث) ولم تلبث أن أسست موقعاً آسيوياً لها في الفليبين، وهي المحطة التي شحنوا منها كميّات كبيرة من الفضة المكسيكية إلى الصين[٢]. أدّت معاهدة توردیسیلاس (١٤٩٤) إلى تقسيم العالم بين هاتين القوتين في شبه الجزيرة الإيبيرية لمدة عقودٍ من الزمن، وتمكّنت الدولتان من التعلق بإنجازاتهما الإمبريالية بثقة زائدة بالنفس. لكن الهولنديين، رعايا الإسبانيين المتمرّدين والبارعين في التجارة، تمكنوا من تقدير الإمكانيات التي يفتحها طريق التوابل الجديد هذا. تمكن الهولنديون بحلول أواسط القرن السادس عشر من التفوق على البرتغاليين بالنسبة إلى أعداد السفن، وكذلك حمولة السفن التي يبحرون بها حول رأس الرجاء الصالح. دخل الفرنسيون بدورهم هذا السباق.

لكن، ماذا بشأن الإنكليز وهم الذين لم تتجاوز طموحاتهم الإقليمية فرنسا، والذين انحصر نشاطهم التجاري في القرون الوسطى ببيع الصوف إلى الفلمنكيين؟ أيُعقل أن يقفوا على الهامش مع سماعهم أخبار تمكن ألدّ أعدائهم، وهم الإسبان والفرنسيون، من جني ثروات طائلة من مناطق ما وراء البحار؟ لم يُضِع الإنكليز وقتاً طويلاً قبل دخولهم ميدان السباق على التجارة وراء البحار. أجرى جون كابوت أول

(١) Finlay, 'Portuguese and Chinese Maritime Imperialism', pp. 240f.

(٢) Flynn and Giraldez, 'Born with a «Silver Spoon» ', p. 204.

محاولة له لعبور الأطلسي من بريستول في العام ١٤٩٦. أما في العام ١٥٥٣ فقد أبحر هوغ ويلوبي وريتشارد كانسيلور من ديبتفورد للبحث عن «ممر في الناحية الشمالية الشرقية» يوصلهما إلى الهند. تجمّد ويلوبي حتى الموت في هذه المحاولة، لكن كانسيلور تمكّن من الوصول إلى آرك آنجيل، ثم أكمل طريقه براً إلى بلاط إيفان الرهيب في موسكو. لم يُضع كانسيلور أي وقت فور عودته إلى لندن في تأسيس شركة موسكوفي (أما اسمها الكامل فكان شركة التجار المغامرين لاكتشاف الأقاليم، والدومينيون، والجزر، والأماكن المجهولة) بغية تطوير التجارة مع روسيا. ظهرت مشاريع مشابهة مع تشجيع البلاط الحماسي لها، ولم تستهدف هذه المشاريع الأطلسي فقط لكنها اشتملت أيضاً على طريق التوابل. ازدهرت تجارة إنكلترا بحلول أواسط القرن السابع عشر، وذلك بدءاً من بلفاست حتى بوسطن، ومن البنغال حتى جزر البهاما.

انشغل العالم في ذلك الوقت بمنافسة شرسة، لكن السؤال يبقى: لماذا أبدى الأوروبيون حماسة شديدة للتجارة كانت أكبر من تلك التي أبداها الصينيون؟ ولماذا كان فاسكو دي غاما نهماً، بشكلٍ واضح، للمال، ونهماً إلى حد استعداده للقتل من أجل الحصول عليه؟

يمكننا العثور على الجواب إذا ما نظرنا إلى خرائط أوروبا في العصور الوسطى، وهي الخرائط التي تُظهر مئات، تقريباً، من الدول المتنافسة التي تراوح بين ممالك ساحلية والعديد من **المدن – الدول** المبعثرة بين بحر البلطيق والبحر الأدرياتيكي، من لوبيك حتى البندقية. ظهرت نحو ألف حكومة تقريباً في أوروبا القرن الرابع عشر، وذلك بالإضافة إلى نحو ٥٠٠ من المناطق المستقلة بعد مرور ٢٠٠ سنة. ما هو السبب في هذا؟ إن أبسط إجابة هي الجغرافيا. تمتلك الصين ثلاثة أنهر عظيمة، النهر الأصفر، ونهر يانغ تسي، ونهر بيرل، وكلها تجري من الغرب إلى الشرق[1]. تمتلك أوروبا أنهراً عديدة تجري في اتجاهات متعددة، هذا عدا مجموعة من سلاسل الجبال

(١) Chirot, 'Rise of the West', pp. 181ff.

مثل الألب والبيرينيه، وغير الغابات الكثيفة والمستنقعات في ألمانيا وبولونيا. كان من الأسهل بكثير على الغزاة المغول الوصول إلى الصين، أما أوروبا فقد كانت أقل قابلية لخرقها على يد جماعة تمتطي الخيول، وهكذا كانت بحاجة أقل إلى الوحدة. لا يمكننا مع ذلك الجزم بسبب تلاشي التهديدات لأوروبا بعد تيمورلنك. تكون الدفاعات الروسية أصبحت أفضل مما كانت عليه من قبل، ويُحتمل كذلك أن خيول المغول كانت تفضّل أعشاب السهول.

سبق لنا أن رأينا شراسة الصراعات في أوروبا، ويكفي هنا التفكير في الفوضى التي سبّبتها حرب الثلاثين عاماً التي جرت في ألمانيا منتصف القرن السابع عشر. عانى السكان الذين كانوا يعيشون على الحدود الفاصلة بين دزينة أو أكثر من الدول الأوروبية الكبرى ويلات تلك الحرب التي استغرقت فترة ثلثي الوقت بين العامين ١٥٥٠ و١٦٥٠. انشغلت إسبانيا بحروب مع أعداءٍ أجانب في ٨١ بالمئة من الفترة بين ١٥٠٠ و١٧٩٩، أما حصة بريطانيا من الحروب في هذه الفترة فكانت ٥٣ بالمئة، وفرنسا ٥٢ بالمئة. لكن هذه الحروب المستمرة قد ترافقت مع ثلاث فوائد غير مقصودة. **أولها**، تشجيعها على الابتكار في ميدان التكنولوجيا العسكرية. أما في البر فإنه كان لا بد من تقوية التحصينات لأن المدافع زادت قوة ومرونة. كان مصير قلعة «البارون السارق» الواقعة على تانبيرغ المطلة على سيهايم في جنوب ألمانيا بمنزلة إنذار: أصبحت القلعة في العام ١٣٩٩ أول التحصينات الأوروبية التي تتعرض للتدمير بواسطة المتفجرات.

أما في البحر فقد بقيت السفن في ذلك الوقت صغيرة، وذلك لأسبابٍ وجيهة. لم يتغير تصميم السفن في البحر المتوسط كثيراً منذ زمن الرومان بالمقارنة بالسفن البرتغالية في أواخر القرن الخامس عشر، وهي التي تميزت بأشرعتها المتعامدة مع متن السفينة، والتي عادة ما كانت مزوّدة بساريتين، الأمر الذي يحقق توازناً مثالياً بين السرعة وقوة النيران. كانت الاستدارة أسهل على هذه السفن من سفن جينغ هي العملاقة، وكذلك كان من الصعب إصابتها. أما في العام ١٥٠١ فقد ابتكر الفرنسيون

وضع صفين من المدافع في فسحاتٍ خاصة على جانبَي السفينة، الأمر الذي حوّل «رجال الحرب» الأوروبيين إلى رجالٍ في «قلاعٍ عائمة»[1]. أما لو نشب قتالٌ بحري بين جينغ هي وفاسكو دي غاما لكان من المحتمل أن يتمكن البرتغاليون من إغراق هياكل السفن الصينية الثقيلة. استفاد البرتغاليون من المراكب العربية الأصغر حجماً، والأكثر مرونة، الموجودة في المحيط الهندي، وذلك على الرغم من تمكّن أسطول مينغ من إغراق أحد المراكب البرتغالية في تاماو في العام ١٥٢١.

أما الفائدة الثانية من حروب أوروبا المتواصلة تقريباً فقد كانت تحسين الدول المتصارعة لطريقة توفيرها للمداخيل اللازمة كي تتمكّن من دفع تكاليف حملاتها العسكرية. تمكّن حكّام إنكلترا وفرنسا من تحصيل أموالٍ ضريبية أكبر من تلك التي تمكّن نظراؤهم الصينيون من تحصيلها في الفترة الفاصلة بين العامين ١٥٢٠ و١٦٣٠، وذلك بحسب كمية غرامات الفضة العائدة إلى الشخص الواحد. بدأ الأوروبيون كذلك، بدءاً من إيطاليا في القرن الثالث عشر تجربة طرقٍ غير مسبوقة في مجال اقتراض الحكومات، الأمر الذي زرع بذور أسواق السندات المالية الحديثة. كان الدَّين العام نظاماً مجهولاً تماماً في الصين التي كانت تحت حكم أسرة مينغ، وهو النظام الذي أُدخل إلى البلاد بتشجيع من الأوروبيين في أواخر القرن التاسع عشر. قدّم الهولنديون ابتكاراً مالياً لاقى أصداءً في أنحاء العالم، وذلك عندما أدخلوا نظام منح حقوق الاحتكارات التجارية في الشركات المساهمة مقابل حصةٍ من أرباحها وتفاهم يقضي بأن تعمل تلك الشركات كمقاول بحري فرعي ضد القوى التي تنافس الدولة. كانت شركة الهند الشرقية الهولندية التي أُسّست في العام ١٦٠٢، ونظيرتها الإنكليزية أول الشركات المساهمة الحقيقية، وكان رأسمال الشركتين مقسماً إلى أسهم يُمكن تبادلها، كما كانت توزع أرباح لكل سهم بحسب رغبة مدراء الشركتين. لم ينشأ في الشرق أي شيء يماثل هاتين المؤسستين المفعمتين بالحركة. زادت الشركتان من المداخيل الملكية، لكنهما قلصتا الامتيازات الملكية عندما أنشأتا نظام

(١) Cipolla, Guns and Sails, pp. 77–82.

أصحاب الحصص الجديد الذي قدّر له الاستمرار في مطلع عهد الدول الحديثة: المصرفيون، وحاملو السندات، ومدراء الشركات[١].

أدت الصراعات المميتة التي استمرت على مدى أجيال إلى منع أي ملكٍ أوروبي من بلوغ القوة الكافية بحيث يتمكّن من منع الاستكشاف وراء البحار. تقدم الأتراك مراراً نحو أوروبا الشرقية في خلال القرن السادس عشر والسابع عشر، وبالرغم من ذلك لم يتمكّن أي أمبراطورٍ أوروبي من توجيه الأوامر إلى البرتغاليين من أجل تعليق استكشافاتهم البحرية بغية التركيز على العدو القادم من الشرق[٢]. أقدم الملوك الأوروبيون، على النقيض من ذلك، على تشجيع التجارة، والفتوحات، والاستعمار وكان ذلك جزءاً من التنافس القائم فيما بينهم.

كانت الحرب الدينية سبباً لتسميم الحياة الأوروبية على مدى أكثر من قرنٍ واحد بعد الإصلاحات التي قام بها لوثر والتي اجتاحت ألمانيا (أنظر الفصل الثاني). لكن المعارك الدامية بين البروتستانت والروم الكاثوليك، وكذلك الملاحقات الموسمية والمحلية لليهود، ترافقتا كذلك مع منافع جانبية. طُرد اليهود في العام ١٤٩٢ من الكاستيل والأراغون بداعي الهرطقة الدينية. سعى عددٌ منهم إلى اللجوء إلى الأمبراطورية العثمانية في البداية، لكن جالية يهودية نشأت في البندقية بعد العام ١٥٠٩. أما في العام ١٥٦٦ ومع ثورة الهولنديين ضد الحكم الإسباني، ومع تأسيس المحافظات المتحدة بوصفها دولة بروتستانتية، أصبحت أمستردام ملاذاً آخر للتسامح. طُرد **الهوغونو** البروتستانت من فرنسا في العام ١٦٨٥، لكنهم تمكّنوا من اللجوء إلى إنكلترا، وهولندا، وسويسرا[٣]. وفَّر التعصب الديني، بطبيعة الحال، حافزاً آخر للتوسع إلى ما وراء البحار. شجّع الأمير البرتغالي هنري الملاح بحّارته

(١) Hoffman, 'Why Was It that Europeans Conquered the World?' On the deficiencies of the Ming tax system, see Huang, 1587, p. 64.

(٢) Jones, European Miracle, p. 67.

(٣) Ibid., p. 120.

على استكشاف الساحل الأفريقي على أمل، أقله جزئياً، أن يعثروا على المملكة الأسطورية للقدّيس المفقود **بريستور جون**، وعلى أمل أن يساعدهم ذلك على مد يد العون إلى أوروبا ضد الأتراك. يُضاف إلى ذلك إصرار **فاسكو دي غاما** على إعفائه من الرسوم الجمركية الهندية، كما اجترأ على الطلب من ملك كاليكوت طرد كل المسلمين من مملكته، كما أطلق حملة من القرصنة ضد كل السفن المتجهة إلى مكة.

يعني ذلك، وبكل اختصار، أن التجزئة التي ميّزت أوروبا قد عاقت إنشاء أي شيء يشبه الأمبراطورية الصينية، كما أن هذا الأمر دفع الأوروبيين إلى السعي وراء الفرص المتاحة في البلدان البعيدة، سواء منها الاقتصادية، والجيوسياسية، والدينية. يُمكن للمرء أن يعُدّ الأمر نوعاً من سياسة فرّق تسُد، اللهم إلا أن الأوروبيين طبّقوا هذا المثل بطريقة معكوسة عندما فرّقوا أنفسهم وحكموا العالم. كان صغر الحجم يعني الجمال في أوروبا لأن ذلك كان يعني المنافسة، وليس المنافسة بين الدول فقط ولكن داخل الدول أيضاً.

كان هنري الخامس رسمياً ملك إنكلترا، وويلز، وفرنسا التي كان يدّعي ملكيتها بالفعل. لكن على الأرض كانت السلطة الحقيقية في ريف إنكلترا بأيدي النبلاء الذين كانوا من سلالة الرجال الذين فرضوا **الماغنا كارتا** على الملك جون، وذلك بالإضافة إلى آلاف النبلاء من أصحاب الأراضي وعددٍ كبير من الهيئات العامة سواء منها الدينية والمدنية. لم تكن الكنيسة تحت السيطرة الملكية إلا في عهد هنري الثامن. كانت المدن الصغيرة تتمتّع عادة بالحكم الذاتي، ويُذكر هنا أن أهمّ المراكز التجارية في الأرياف كان مستقلاً تماماً على وجه التقريب. لم تكن أوروبا مؤلفةً من دول، لكنها كانت مكونة كذلك من مُلْكياتٍ أرستقراطية، ودينية، وأخرى تابعة لسكان المدن.

تستطيع شركة **مدينة لندن** إرجاع تأسيسها وتركيبتها إلى تاريخ يعود إلى القرن الثاني عشر. يعني ذلك أن العمدة، ومدير الشرطة، وأعضاء المجلس البلدي، والمجلس العام Common Council، ومالكي الإسطبلات، والرجال الأحرار جميعاً

مؤسسات ظلت موجودة منذ أكثر من ٨٠٠ سنة. كانت هذه المؤسسة أحد نماذج المؤسسات التجارية المستقلة الأولى، وهي كانت رائدة، بطرائق عديدة للشركات الكبيرة كما نعرفها اليوم، وبمعنى آخر رائدة الديمقراطية ذاتها.

منح هنري الأول في وقتٍ مبكر يعود إلى الثلاثينيات من القرن الثاني عشر، سكان لندن الحق في اختيار مدير شرطة مدينتهم وقاضي المدينة «من تلقاء أنفسهم»، وكذلك في إدارة شؤونهم القضائية والمالية من دون تدخلٍ من التاج، أو من السلطات الأخرى[١]. أما في العام ١١٩١، وبينما كان ريتشارد الأول يشارك في الحملة الصليبية في الأراضي المقدسة، فقد تم منح السكان حق انتخاب عمدة المدينة، وهو الحق الذي أكده الملك جون في العام ١٢١٥[٢]. لم تكن شركة «المدينة City»، ونتيجة لذلك، تخشى سلطة التاج عليها. أقدم العمدة توماس، بدعم من الرجال الأحرار في **المدينة** على مساعدة ثورة سيمون دي مونتفورت ضد هنري الثامن في الفترة ما بين العامين ١٢٦٣ و١٢٦٥. جاء دور إدوارد الثاني لمواجهة [شركة] **المدينة** في العام ١٣١٩، وذلك عندما سعى تجّار الأقمشة إلى تقليص الامتيازات الممنوحة للتجار الأجانب. قاوم التاج [الملك] هذه الخطوة فأقدمت «جماهير لندن» على دعم محاولة روجر مورتيمر خلع الملك. أما في خلال عهد الملك إدوارد الثالث فقد تحول الرأي العام ضد [شركة] **المدينة**، أو **سيتي**. تمكّن التجار الإيطاليون والهانزا من تدعيم موقفهم في لندن بطرائق ليس أقلها تزويد التاج القروض بشروط في منتهى التساهل، وهو إجراء استمر في عهد أقلية ريتشارد الثاني[٣]. لكن سكان لندن استمروا في تحدي السلطة الملكية، وأظهروا قدراً قليلاً من الحماسة إزاء قضية التاج، سواء في أثناء ثورة الفلاحين (١٣٨١) أو التحدي الذي واجهه حكم ريتشارد من قِبل القضاة في مجلس اللوردات Lords Appellant. أما في العام ١٣٩٢ فقد أقدم

(١) Birch, Historical Charters, pp. 3f.

(٢) Ibid., pp. 19f.

(٣) Ibid., pp. 61f.

الملك على إلغاء الامتيازات والحريات الممنوحة إلى لندن. لكن هذه الامتيازات والحريات عادت بعد مرور خمس سنوات، وذلك بعد تقديم هدية سخية من العمدة وايتنغتون وقدرها ١٠,٠٠٠ جنيه. أصبحت القروض والهدايا المقدمة إلى التاج شرطاً أساسياً للاستقلالية، وهكذا زادت ثروة [شركة] **سيتي** كلما زاد النفوذ الذي تتمتّع به. أقرض وايتنغتون هنري الرابع مبلغاً لا يقل عن ٢٤,٠٠٠ جنيه، كما أقرض ابنه هنري الخامس نحو ٧,٥٠٠ جنيه[١].

لم يقتصر الأمر على منافسة **سيتي** للتاج في السلطة. فقد جرت المنافسة داخل شركة سيتي ذاتها. تستطيع شركات تأجير السيارات العودة بجذورها إلى العصور الوسطى، كما يستطيع الحائكون العودة بجذورهم إلى العام ١١٣٠، والخبازون إلى العام ١١٥٥، وبائعو السمك إلى العام ١٢٧٢، وصائغو الذهب، وmerchant taylors، وتجار الجلود إلى العام ١٣٢٧، أما تجار الأجواخ والألبسة فيمكنهم العودة بجذورهم إلى العام ١٣٦٤، وتجار الحرير إلى العام ١٣٨٤، والبقّالون إلى العام ١٤٢٨. مارست هذه النقابات نفوذاً كبيراً على قطاعات محدّدة من الاقتصاد، كما حازت نفوذاً سياسياً كذلك. اعترف إدوارد الثالث بهذا النفوذ، وذلك عندما أعلن نفسه «أخاً» لـ Lenin Armourers، (التي أصبحت لاحقاً نقابة Taylor Merchant). وقد تمكنت من أن تعدّ من بين أعضائها الفخريين الحاليين أو السابقين سبعة ملوك وملكة، وسبعة عشر أميراً ودوقاً، وتسعة كونتيسات، ودوقات، وبارونات، وما يزيد على ٢٠٠ إيرل ولورد، والنبلاء، وأسقفاً. أما الشركات «الاثنتا عشرة العظيمة»، وهي بحسب ترتيب أسبقياتها: الحرير، والبقالة، والأقمشة، وتجارة الأسماك، وصياغة الذهب، وتجارة الجلود، وmerchant taylors، ولوازم الخياطة، والملاحات، وتجارة الحديد، والخمّارات، وعمال الأقمشة، فهي تذكّر بالنفوذ الذي تمتع به الحرفيون والتجار والذي تمكنوا من حيازته، حتى لو كانت أدوار أصحابها هذه الأيام مجرد

---

(١) Details from Inwood, History of London.

أدوارٍ فخرية. أما في ذروة تنافس هذه الشركات فلم يكن من النادر أن تجلس معاً، وكذلك أن تواجه بعضها بعضاً في أحيانٍ أخرى[١].

ظهرت هذه المنافسة متعدّدة المستويات، من بين أمور أخرى، بين الدول، وداخل الدول حتى بين المدن، وهي تساعد على تفسير الانتشار السريع لتقنية الساعة الميكانيكية في أوروبا وتقدمها. سبق لريتشارد والنغفورد في الثلاثينيات من القرن الرابع عشر أن وضع ساعة ميكانيكية متطورة جداً في حائط دير سانت آلبانز، وهي ساعة كانت تُظهر حركة القمر، وحركات المدّ والجزر، بالإضافة إلى حركة بعض الأجسام السماوية. لم يقتصر الأمر على أن الساعة الميكانيكية (التي اكتسبت اسمها من أصوات أجراسها المميزة التي تدق كل ساعة: **كلوك**)، والساعة التي تتحرك بواسطة النابض التي خلفتها في القرن الخامس عشر، كانتا أكثر دقة من الساعات المائية الصينية. فقد كان القصد أن تنتشر تلك الساعات **لا** أن يتم احتكارها على يد فلكيي الأمبراطور. أما إذا وضعت إحدى كاتدرائيات المدينة ساعة رائعة في برجها فكانت أقرب منافساتها تشعر بأنها ملزمة أن تحذو حذوها. كان صانعو الساعات من البروتستانت غير مرحبٍ بهم في فرنسا بعد العام ١٦٨٥، لكن السويسريين استقبلوهم بكل سرور. ولّدت هذه المنافسة تحسينات في الصناعة، وكما حدث بالنسبة إلى التقنية العسكرية، وذلك عندما تعاون الحرفيون على إدخال تحسيناتٍ صغيرة ومتتابعة على دقة منتجاتهم ودقتها. أما عندما أدخل المبشّر اليسوعي **ماتيو ريشي** الساعات الأوروبية إلى الصين في أواخر القرن السادس عشر فقد تبيّن أن تلك الساعات كانت متفوقة كثيراً على أمثالها في القصر إلى درجة أنها استُقبلت باستياء[٢]. صنع **ريشي** في العام ١٦٠٢، بناء على طلب الأمبراطور وانلي، خريطة جميلة للعالم من ورق الأرز، لكنه وضع الصين في وسط الأرض، إلا أنه أدرك أن الصين بدأت بالانتقال إلى هامش الأهمّية في العالم في أمور التقانة.

(١) Burrage and Corry, 'At Sixes and Sevens'.

(٢) Landes, Revolution in Time, pp. 34-42.

يمكننا القول إن الدقة الكبرى في المقاييس وفي تنسيق الحركة التي ترافقت مع التحسينات في الساعة، والساعة المحمولة التي ظهرت فيما بعد، هي التي تسمح لنا بالقول إنها ترافقت مع نهوض الحضارة الغربية. يعني ذلك أنه مع كل ساعة شخصية كان المزيد من الوقت ينقضي على التفوق الشرقي.

كانت آسيا الشرقية – أقله بالمعنى السياسي للكلمة ـ وفي مقابل نسيج أوروبا المتنوع، نسيجاً أحادي اللون. كان المغول الجشعون هم المنافسين الرئيسيين للمملكة الوسطى في الشمال، وكان اليابانيون القراصنة هم منافسيها إلى الشرق منها. كان الخطر القادم من الشمال هو الخطر الأكبر منذ عهد **كين شي هوانغ دي** الذي يُعرف بأنه «أمبراطور الصين الأول» (٢٢١- ٢١٠ ق.م)، وهو الخطر الذي استوجب استثمارات هائلة في شؤون الدفاع عن الإمبراطورية، وهي الاستثمارات التي تُعرف اليوم باسم الجدار [سدّ] العظيم. لم تشهد أوروبا بناء جدارٍ مماثل، ولو بالقدر القليل، منذ أيام هادريان إلى زمن إيريك هونيكر. كانت شبكة الأقنية والخنادق، التي روت أراضي الصين القابلة للزراعة، مماثلةً للسور في العظمة. رأى الماركسي المختص بالشؤون الصينية كارل ويتفوغل في هذه الشبكة أهم إنتاج «للبيروقراطية المائية» التي تميّز الاستبداد الشرقي.

كانت المدينة المحرّمة في بيجينغ معلماً آخر يرمز إلى القوة الصينية الموحدة. أما إذا أراد الزائر تصوّر الحجم الهائل لهذه المدينة ورموزها المميزة فقد كان عليه المرور من خلال **بوابة الانسجام العظيم** قبل وصوله إلى **قاعة الانسجام العظيم** التي تحتوي على العرش، أي عرش التنين ذاته، ثم الوصول إلى **قاعة الانسجام المركزي،** وهي غرفة الأمبراطور الخاصة. يصل الزائر بعد ذلك إلى **قاعة الانسجام الحافظ** التي تشتمل على المرحلة الأخيرة من التمحيص الملكي لمرشحي الخدمة المدنية (أنظر ما يلي). يبدو بوضوح أن الانسجام harmony يرتبط، بشكلٍ معقّد، بفكرة السلطة الإمبريالية التي لا تتجزأ[1].

---

(١) Barmé, Forbidden City.

لم يظهر في الغرب في خلال القرن الخامس عشر ـ وأقلّه في لندن التي كانت السلطة فيها مقسّمة بين التاج واللوردات من الزمنيين والدينيين ومجلس العموم، وكذلك مع **شركة مدينة لندن** وشركات تأجير العربات ـ أي شيء يماثل المدينة المحرّمة في العظمة، أي مثل ما كان الأمر عليه مع السُّور العظيم. امتلكت كل مؤسسة من تلك المؤسسات قصوراً وقاعات، لكنها كلها كانت صغيرة جداً مقارنة بالمعايير الشرقية. يصدق الأمر ذاته على الممالك الأوروبية التي كانت تديرها مجموعة من مالكي الأراضي الموروثة، ورجال الدِّين الذين يتم اختيارهم (وأحياناً يُقالون بطريقة قاسية) على أساس المحاباة الملكية. أما الصين فقد كانت محكومة بالبيروقراطية الكونفوشيوسية من القمة حتى القاعدة، وهي البيروقراطية المطبقة، لربما، على أسس أكثر نُظُم الامتحانات صعوبة في التاريخ. أما الذين كانوا يطمحون إلى الحصول على وظيفة في الخدمة الأمبراطورية فقد كانوا مضطرّين للخضوع إلى ثلاث مراحل من الاختبارات المضنية التي كانت تجري في مراكز مشيدةٍ خصوصاً، وما زال أحد هذه المراكز موجوداً في نانكينغ هذه الأيام، وهو عبارة عن مجمّع مسوّر يحتوي على آلاف الحجرات الصغيرة التي لا يزيد حجمها على حجرات المراحيض في عربات القطار:

[كتب أحد الرحّالة الأوروبيين]: إن هذه الحجرات الحجرية الصغيرة جداً كانت لا تزيد في العمق على ١,١ متر، وعلى مترٍ واحدٍ في العرض، و١,٧ متر في الارتفاع. تحتوي كل حجرة على قطعتين حجريتين تصلح إحداهما كطاولة، والأخرى كمقعد. كان الجنود يراقبون من برج مراقبة المرشحين على مدى يومين وهي مدة الاختبار... أما الحركة الوحيدة التي كان يُسمح بها فقد كانت مرور الخدم وهم يقدمون الطعام والماء، أو عندما ينقلون الفضلات البشرية. أما عندما يتعب أحد المرشحين فكان يُسمح له بالاستلقاء فوق مفرشه، أو يُسمح له بأخذ قسطٍ من الراحة. لكن الضوء الساطع في الحجرة المجاورة كان يضطره إلى الإمساك بفرشاته ثانية... كان بعض المرشحين يصابون بالجنون التام بتأثير ذلك الضغط[1].

(١) Cotterell, Imperial Capitals, p. 222.

لا يُستغرب والحالة هذه ألاّ يتمكن من الصمود في هذه الاختبارات التي تستمرّ ثلاثة أيام وليلتين سوى أكثر المرشحين اقتداراً، وأكثرهم اندفاعاً. نلاحظ أن هذا الاختبار الذي يركّز كثيراً على الكتب الأربعة، وعلى كتابات الكونفوشيوسية الخمس التي تشتمل على ٤٣١,٢٨٦ حرفاً محيّراً ينبغي حفظها غيباً، وذلك بالإضافة إلى مقدمة مكتوبة بأسلوبٍ جامد تشتمل على ثمانية مقاطع أُضيفت في العام ١٤٨٧. كان ذلك اختباراً يولّد الانسجام والتنبه[١]. كان ذلك الاختبار تنافسياً من دون شك، لكنه لم يكن ذلك النوع من التنافس الذي يشجع على الابتكار، كما أنه لا يحفّز على التغيير. كانت اللغة المكتوبة التي هي في جوهر الحضارة الصينية مصمّمةً لتكوين نخبة محافظة، ومن أجل استبعاد الجماهير عن أنشطة هذه النخبة. أما اللغات المحكية في أوروبا، وهي الإيطالية والفرنسية والكاستيلية بالإضافة إلى البرتغالية والإنكليزية فقد كانت بمتناول أدب نخبة الناس، لكنها تصل بسهولة إلى جمهورٍ أوسع بسبب تعليمها البسيط نسبياً والقريب من الأفهام[٢].

قال كونفوشيوس ذات يوم: «إن الرجل العادي يُدهش للأمور غير العادية. أما الرجل الحكيم فيُدهش أمام الأمور العادية». اشتملت طريقة العمل في الصين في عهد أمبراطورية مينغ على أمورٍ عادية كثيرة، لكن الأمور الجديدة كانت قليلة جداً.

المملكة الوسطى

الحضارات هي من الأمور المعقدة، وهي التي يُمكن لها أن تزدهر في منطقة معينة بكل ما أوتيت من قوة وازدهار، لكنها عادةً ما تسقط بعد ذلك، بطريقة مفاجئة، فريسة الفوضى.

نشأت سلالة مينغ في الصين في العام ١٣٦٨، وذلك عندما أعاد أمير الحرب

(١) Cotterell, China: A History, p. 178.

(٢) Catto, 'Written English'.

يوان جانغ تسمية نفسه باسم **هونغ وا**، وهو الاسم الذي يعني «القوة العسكرية الهائلة». سبق لنا أن رأينا أنه على امتداد القرون الثلاثة التالية كانت الصين تحت حكم سلالة مينغ أكثر الحضارات العالمية تطوراً، وذلك بحسب كل المعايير. لكن في منتصف القرن السابع عشر تعثرت تلك الحضارة. لا يعني ذلك أننا بالغنا في تقدير مدى استقرارها السابق، وذلك لأن **يونغل** نجح في خلافة والده **هونغ وا** بعد فترة من الحرب الأهلية وبعد أن خلع الوارث الشرعي للسلطة، أي الابن الأكبر لشقيقه. لكن الأزمة التي عصفت بالبلاد في منتصف القرن السابع عشر كانت أزمة كبيرة من دون شك. تفاقمت التفرقة السياسية نتيجة أزمة مالية سبّبها ضعف القوة الشرائية المتزايد للفضة، الأمر الذي أجهز على القيمة الفعلية لمداخيل الضرائب[١]. ساهمت ظروف الطقس القاسية، والمجاعة، والأوبئة المنتشرة، في تهيئة الظروف المناسبة للثورة في الداخل، وأمام الغزوات من الخارج[٢]. سقطت بيجينغ ذاتها بأيدي القائد المتمرد **لي زي شينغ** في العام ١٦٤٤. أما آخر أباطرة سلالة **مينغ** فقد شنق نفسه بسبب العار الذي شعر به. استغرق هذا الانتقال المثير من التوازن الكونفوشيوسي إلى الفوضى أكثر بقليل من عقدٍ من الزمن.

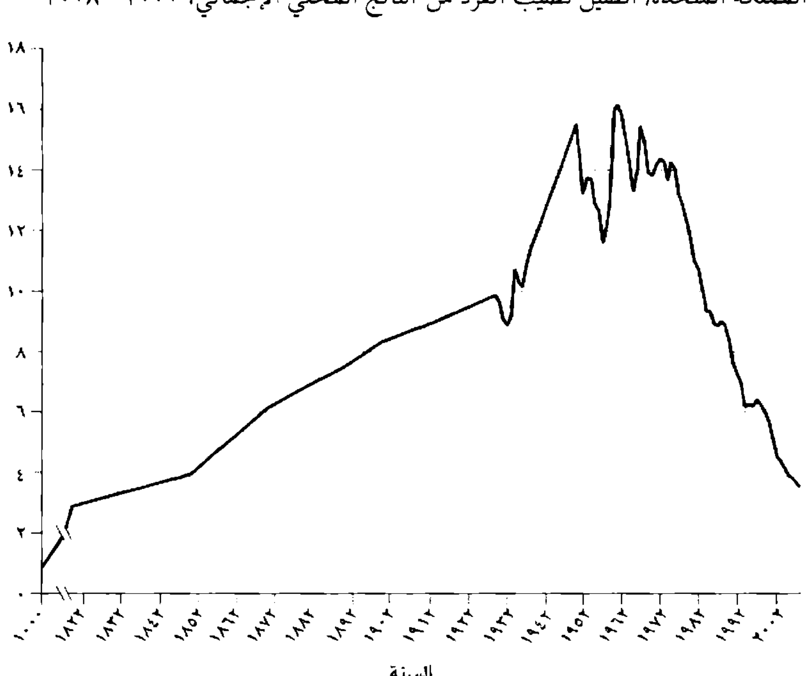
كانت عواقب انهيار أمبراطورية **مينغ** وخيمةً جداً. أدّت الصراعات والأوبئة في الفترة ما بين ١٥٨٠ و١٦٥٠ إلى تقليص عدد سكان الصين بنسبةٍ راوحت بين ٣٥ و٤٠ بالمئة. ما هي الأخطاء التي أدت إلى ذلك الانهيار؟ تكمن الإجابة عن ذلك السؤال بأن الانكماش نحو الداخل كان مميتاً، وعلى الخصوص بالنسبة إلى مجتمع معقدٍ وكثيف السكان مثل الصين. أسفر نظام **مينغ** عن تكوين توازن على مستوىً عالٍ، وكان هائلاً من الخارج، لكنه هشّ في داخله. تتمكّن الأرياف من ضمان سُبل العيش لعددٍ هائل من الناس، لكن شرط أن يتوافر نظام اجتماعي مستقر أساساً، غير أن هذا النظام توقف عملياً عن الإبداع. كان ذلك الوضع نوعاً من المصيدة،

(١) Flynn and Giraldez, 'Arbitrage, China, and World Trade'.

(٢) Ebrey, Cambridge Illustrated History of China, esp. p. 215.

وهكذا أطبقت المصيدة عند فشل أول الأمور البسيطة. افتقدت الصين المصادر الخارجية التي يمكنها الاعتماد عليها. لكن عدداً من الباحثين قد سعى إلى إظهار أن الصين في عهد مينغ كانت مجتمعاً غنياً يتمتع بتجارة داخلية وأسواق ناشطة للسلع الكمالية[1]. أظهرت أحدث الدراسات الصينية مع ذلك أن الدخل الفردي في عهد أمبراطورية مينغ بقي ثابتاً، وأن الرساميل قد تقلّصت بالفعل[2].

المملكة المتحدة/ الصين نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، ١٠٠٠- ٢٠٠٨



تسارعت في المقابل نسبة تزايد سكان إنكلترا في أواخر القرن السابع عشر، كما أن التوسع في ما وراء البحار قد أدى دوراً حيوياً في إخراج البلاد من مصيدة مالتوس. أدت التجارة عبر المحيط الأطلسي إلى تدفق مغذياتٍ جديدة إلى البلاد،

(١) For a good summary, see Goody, Capitalism and Modernity, pp. 103–17.

(٢) Guan and Li, 'GDP and Economic Structure'.

مثل البطاطا والسكّر – تعطي مساحة آكر واحد من قصب السكر كمية الطاقة ذاتها التي تعطيها مساحة ١٢ آكراً من القمح –[١] بالإضافة إلى كميات كبيرة من أسماك القد والرنغة. سمح الاستعمار بهجرة العدد الفائض من السكان. كانت النتيجة بمرور الزمن هي زيادة الإنتاجية، والمداخيل، والتغذية، وحتى طول الأشخاص.

سننتقل الآن إلى مناقشة مصير شعب آخر يسكن مثل الإنكليز، في أرخبيلٍ قبالة ساحل كتلة أوراسيا. تطلع الإنكليز بأبصارهم نحو الخارج، ووضعوا أسس ما يمكن أن نسمّيه «**فرض الهيمنة الإنكليزية** Anglobalization » بينما اتبع اليابانيون المسار المعاكس الذي تمثّل سياسة **الشوغن** shogunate التي اتبعها **طوكوغاوا** والتي تتميز بالعزلة الصارمة (ساكوكو) بعد العام ١٦٤٠. كانت كل أشكال الاتصال مع العالم الخارجي محرّمة تماماً. وكانت النتيجة حرمان اليابان تماماً من كل المنافع المترافقة مع المستويات الآخذة بالتزايد للتجارة الدولية والهجرة. جاءت النتائج مثيرة . تألفت حصة المزارع في إنكلترا في أواخر القرن الثامن عشر من أكثر من ٢٨ بالمئة من المنتجات الحيوانية، بينما عاش نظيره الياباني على حصةٍ روتينية تتألف نسبة ٩٥ بالمئة منها من الحبوب، ومعظمها من الأرز. يفسّر هذا الاختلاف في نُظُم التغذية الفرق الكبير في طول القامة بين الشعبين بعد العام ١٦٠٠. كان معدل طول (السجناء) الإنكليز في القرن الثامن عشر خمس أقدام وسبع بوصات. أما معدل طول الجنود اليابانيين في الفترة ذاتها فقد كان خمس أقدام وبوصتين ونصف البوصة[٢]. كان التطلع على المستوى ذاته مستحيلاً عند لقاء الشرق والغرب.

يعني ذلك أنه قبل وقتٍ طويل من الثورة الصناعية كانت إنكلترا الصغيرة تتقدم أمام حضارات الشرق العظيمة، وذلك بسبب الفوائد المادية الناتجة من التجارة والاستعمار. إن الخط الصيني والياباني، أي الابتعاد عن التجارة الخارجية والتركيز على زراعة الأرز، كان يعني أنه مع نمو السكان كانت المداخيل تنخفض، كما انخفض

(١) See Mintz, Sweetness and Power, p. 191; Higman, 'Sugar Revolution'.

(٢) Clark, Farewell to Alms, p. 57.

معها مستويات التغذية، والطول، والإنتاجية. أما عندما كانت تقل المحاصيل، أو عندما كانت تتقطع الزراعة فكانت النتائج كارثية. كان الإنكليز أسعد حظاً مع أدويتهم كذلك: كانوا متعودين منذ زمنٍ طويل شرب الكحول، لكنهم تخلّصوا من عادتهم هذه في القرن السابع عشر بفعل التبغ الأميركي، والقهوة العربية، والشاي الصيني. استفاد الإنكليز كذلك من التحفيز الناتج من المقاهي، التي كانت تُستخدم جزئياً لشرب القهوة بالإضافة إلى مكان لتبادل الأسهم، وكانت غرفة للدردشة جزئياً[١]. انتهى الصينيون، في المقابل، مع الخمول الذي تولده جحور الأفيون، وتكفلت شركة الهند الشرقية البريطانية بملء غلايينهم[٢].

لم يلاحظ جميع المعلقين الأوروبيين حالة «الصين الجامدة» كما فعل آدم سميث. أعلن الفيلسوف والرياضي الألماني ليبنز في العام ١٦٩٧: «يجب عليّ تعليق هذه الملاحظة على بابي: مكتب معلومات المعرفة الصينية». أورد ليبنز في كتابه المعنون **آخر الأخبار من الصين**، أنه «يجب إرسال المبشّرين الصينيين إلينا كي يعلمونا غايات وممارسات اللاهوت الطبيعي، أي كما نرسل المبشّرين إليهم لتعليمهم الدِّين المعلن». أما الفيلسوف الفرنسي فولتير فقد أعلن في العام ١٧٦٤، «ضرورة الاعتراف بأن أمبراطوريتهم هي، في واقع الأمر أفضل الأمبراطوريات التي شهدها العالم على الإطلاق». نشر الاقتصادي فرنسوا كويسناي بعد عامين من الزمن كتابه **الاستبداد في الصين**، وهو الكتاب الذي مدح فيه أولوية الزراعة في السياسة الاقتصادية الصينية.

ظهر مع ذلك في الجهة الأخرى من القنال [الإنكليزي] أولئك الذين اهتموا أكثر بالتجارة والصناعة، وكذلك أولئك الذين كانوا أقل ميلاً إلى التركيز على مثالية الصين وذلك في سياق توجيه النقد بشكلٍ غير مباشر إلى حكوماتهم، بل فضّلوا

(١) Pelzer and Pelzer, 'Coffee Houses of Augustan London'.

(٢) For a revisionist view, which downplays the social damage done by exports of opium from British India, see Newman, 'Opium Smoking in Late Imperial China'.

التركيز على الجمود الصيني. قاد الإيرل الأول مونتغومري في العام ١٧٩٣ بعثة استكشافية إلى بلاط الأمبراطور كيانلونغ، وذلك في إطار جهود لم تتكلل بالنجاح لإقناع الصينيين بإعادة فتح أمبراطوريتهم أمام التجارة. تعمّد ماكارتني رفض السجود أمام الأمبراطور، إلا أنه جلب معه هدية سخية كانت عبارة عن قبة زجاجية ألمانية الصنع، «أكبر العدسات الزجاجية وأكثرها كمالاً من تلك التي صُنعت على الإطلاق»، وذلك بالإضافة إلى مناظير، وأجهزة قيس الزوايا، والمضخّات الهوائية، وآلاتٍ كهربائية، وكذلك جهاز شامل يساعد على تفسير مبادئ العلوم وتوضيحها». لم يُظهر الأمبراطور العجوز (الذي كان في الثمانينات من عمره) مع ذلك أي دهشة إزاء عجائب الحضارة الغربية هذه:

> اكتشفنا الآن أن حب [العلوم] قد تلاشى تماماً في هذه الأيام، هذا إذا كان موجوداً... [إن كل هذه الأشياء]... ضاعت عندما عُرضت أمام الصينيين الجهلة... الذين عمدوا فور مغادرة السفير [كذا] إلى تكديسها في مستودعات أخشاب يوين- مين - يوين [القصر الصيفي القديم]. لاقت النماذج المتعددة لمصنوعات المنتجين البريطانيين فشلاً مماثلاً بعد عرضها. أما الانطباع الذي تركته هذه المصنوعات في أذهان رجال البلاط فيبدو أنه كان الغيرة... ربما بإمكاننا أن نعزو هذا السلوك إلى نوعٍ من أنواع سياسة الدولة التي لا تشجّع على إدخال هذه المصنوعات المبتكرة...
>
> وجّه الأمبراطور في إثر ذلك مرسوماً رافضاً إلى الملك جورج الثالث، وأعلن: «إننا لا نفتقد شيئاً. إننا لا نخصص مساحاتٍ كثيرة للأشياء الغريبة أو المبتكرة، كما أننا لا نحتاج إلى أي من مصنوعات بلدكم»[1].

ترمز مبادرة ماكارتني الفاشلة تجاه الصين إلى تغيّر القوة في العالم من الشرق إلى الغرب، وهو التغيّر الذي بدأ منذ العام ١٥٠٠. تحولت المملكة الوسطى التي كانت في يومٍ من الأيام أم المخترعات إلى مملكة متوسطة [الحال]، كما أنها تعمدت إظهار

(١) Barrow, Life of Macartney, vol. I, pp. 348f.

العدائية تجاه مخترعات الشعوب الأخرى. عادت الساعة، ذلك الاختراع الصيني العبقري، إلى عقر دارها، لكنها عادت في حُلّتها الأوروبية المعدلة والمحسّنة، وهي تتميز بآليات أكثر دقة تشتمل على نوابض وتروس. توجد هذه الأيام غرفة في المدينة المحرمة مخصّصة لمجموعة أمبراطورية هائلة من الآلات المخصصة للضبط. دأب أسلاف الأمبراطور **كيان لونغ** في جمع الساعات، وهم فعلوا ذلك بشغفٍ افتقده ذلك الأمبراطور. يمكننا القول الآن إن كل الساعات تُصنع الآن في أوروبا، أو على أيدي حرفيين أوروبيين يتمركزون في الصين.

تأكد صعود الغرب [وهيمنته] في حزيران من العام ١٨٤٢، أي عندما أبحرت القوارب المسلحة التابعة للبحرية الملكية صعوداً في نهر يانغ تسي، ووصلت إلى القناة الكبرى، وذلك رداً على إتلاف كميات من الأفيون على يد مسؤولٍ صيني متحمس. اضطرت الصين إلى دفع تعويض مقداره ٢١ مليون دولار فضي، وكذلك إلى فتح خمسة مرافئ صينية أمام التجارة البريطانية، وإلى التنازل عن سيادتها على جزيرة هونغ كونغ. كان من المفارقة الملائمة، توقيع هذه المعاهدة التي وُصفت بأنها أولى «المعاهدات غير المتكافئة» في نانكينغ، وفي معبد جينغ هاي الذي شُيّد في الأساس تكريماً للأميرال **جينغ هي وتيان في،** إلهة البحر، التي حرسته مع أسطوله على مدى سنوات قبل أكثر من أربعة قرون.

عادت الصين هذه الأيام إلى بناء السفن، وهي تبني سفناً ضخمة قادرة على الإبحار حول الكرة الأرضية بعد أن تغادر محملة بالمستوعبات المليئة بالمنتجات الصينية، ثم تعود بالمواد الأولية اللازمة لإشباع الاقتصاد الصناعي النهم والمتنامي. صُعقت بالحجم الهائل للسفن التي هي قيد البناء، وذلك عندما قمت بزيارة أكبر حوضٍ لبناء السفن في شنغهاي في حزيران من العام ٢٠١٠. أدى هذا المنظر إلى محوٍ مشاهد أحواض بناء السفن في غلاسكو في ذهني، التي كنت أراها في أيام شبابي الأولى. أما في مصانع وينزهاو فإن العمال ينتجون البذلات بمئات الآلاف، والأقلام البلاستيكية بالملايين. أما مياه نهر **يانغ تسي** فهي تشهد دائماً عدداً لا

يُحصى من المراكب المحملة بالفحم، والإسمنت والمعادن الخام. كانت المنافسة، والشركات، والأسواق من بين الأمور التي أدارت لها الصين ظهرها ذات يوم. لكن الأمر تغيّر الآن، كما عاد الأميرال **جينغ هي**، وهو رمز التوسع الصيني، وقد كان منسياً لفترةٍ طويلة، إلى اعتباره بطلاً في الصين. قال دينغ هسياو بينغ، أعظم مصلح اقتصادي في فترة ما بعد عهد ماو:

لا يستطيع أي بلد يطمح لأن يصبح متقدماً أن يتبع سياسة الأبواب المغلقة. أما نحن فقد ذقنا هذه التجربة المرة كما ذاقها أسلافنا. كانت بلادنا مفتوحة في وقت مبكر من حكم سلالة مينغ، وتحديداً في عهد **يونغل**، أي عندما أبحر **جينغ هي** في المحيط الغربي. بدأ حكم هذه السلالة بالانحطاط بعد موت يونغل، وتعرضت الصين للاجتياح، وبدءاً من منتصف عهد سلالة مينغ، حتى حرب الأفيون، مرّت الصين عبر ٣٠٠ سنة في حالةٍ من العزلة وأصبحت فقيرة، ورجعية، وعانت أوقاتاً حالكة من الجهل.

كان ذلك مقطعاً منطقياً من التاريخ (وهو مقطع قريب من آدم سميث بشكلٍ كبير).

كان يعدّ المرء واهماً إذا توقّع منذ ثلاثين عاماً أن الصين سوف تصبح أكبر اقتصادٍ في العالم في غضون نصف قرن. لكن لو توقع شخصٌ عاش في العام ١٤٢٠ أن أوروبا الغربية ستنتج في يومٍ ما أكثر مما ستنتجه آسيا برمّتها، وأنه في غضون ٥٠٠ سنة سيكون المواطن البريطانيّ العادي أغنى بتسعة أضعاف من المواطن الصيني العادي، لكان عُدّ ذلك الشخص غير واقعي كذلك. كان ذلك النتيجة الحيوية التي سادت غرب أوروبا، والنتيجة المعيقة للاحتكار السياسي الذي ساد شرق آسيا.

الفصل الثاني

العلوم

تظاهرت بأنني مهتم جداً بالعلم، وأفادني هذا التظاهر بأن أصبحت متعلقاً به. لم أعد رجل المجتمع... قررت ترك موطني، وهكذا أعطتني مغادرتي للبلاط عذراً مقنعاً. انتظرت مقابلتي للملك، وركزت أمامه على رغبتي الشديدة في التعرف إلى علوم الغرب، كما ألمحت أمامه بأن أسفاري قد تصبح نافعة له.

مونتسيكيو

لعله من المفيد شرح كيف امتلك بلد رملي مثل براندنبيرغ تلك القوة التي وصلت إلى حد حشد جهود ضده هي أكبر بكثير من تلك التي تم حشدها ضد لويس الرابع عشر.

فولتير

الحصار

وقعت مصادمات متكررة بين الشرق والغرب منذ انطلاق الإسلام من الصحراء العربية في القرن السابع. شن أتباع محمد الجهاد ضد أتباع يسوع المسيح، فما كان

من المسيحيين إلا أن ردّوا التحية عندما شنّوا حملات الحروب الصليبية في الديار المقدسة – وصل عددها إلى تسع بين العامين ١٠٩٥ و١٢٧٢- بالإضافة إلى إعادة احتلالهم لإسبانيا والبرتغال. فاز الغرب في صدام الحضارات هذا على الدوام، وذلك على مدى معظم فترة الثلاثمئة سنة الماضية، هذا إذا استثنينا بعض النكسات الموقتة. كان أحد الأسباب الرئيسة لهذا هو تفوق العلوم الغربية، لكن هذه المزية لم تكن موجودة على الدوام(١).

لم تكن الحماسة الدينية وحدها هي التي مكّنت ورثة النبي محمد من تأسيس خلافة امتدت، في منتصف القرن الثامن، من إسبانيا وعلى امتداد أفريقيا الشمالية، وفي قلب الجزيرة العربية، وشمالاً عبر سوريا وصولاً إلى القوقاز، ومن ثمّ شرقاً عبر بلاد فارس وأفغانستان مروراً من توليدو إلى كابول. تميزت الخلافة العباسية بتقدم في ميدان العلوم، كما تُرجمت إلى العربية كتب إغريقية لأرسطو وكتّابٍ آخرين، وذلك في بيت الحكمة الذي أسّسه هارون الرشيد في القرن التاسع. أسّست الخلافة ما عدّه بعضهم أول مستشفيات حقيقية، مثل البيمارستان الذي أسّسه في دمشق الخليفة الوليد بن عبد الملك في العام ٧٠٧، وهو الذي كان مصمّماً لعلاج المرضى بدلاً من مجرد إقامتهم فيه. كانت الخلافة مركزاً لما عدّه بعض الأشخاص أول مؤسسة للتعليم العالي، وهي جامعة القيروان التي أُسّست في فاس في العام ٨٥٩. أسّس المسلمون علم الجبر (المأخوذ من كلمة عربية تعني الترميم) واعتمدوا فيه على أسسٍ إغريقية وهندية على الخصوص، وجعلوه مادة مستقلة عن الحساب والهندسة. أما أول كتاب في الجبر فكان **حساب الجبر والمقابلة** المكتوب باللغة العربية بيد العالِم الفارسي محمد بن موسى الخوارزمي حوالى السنة ٨٢٠. أما أول عالِم تجريبي حقيقي فكان مسلماً: أبو علي الحسن بن الهيثم (٩٦٥- ١٠٣٩)، الذي تمكّن كتابه المؤلف من سبعة مجلدات **كتاب البصريات** من قلب مجموعة من المفاهيم القديمة

(١) See in general Bakar, Tawhid and Science; Morgan, Lost History; Lyons, House of Wisdom.

الخاطئة، ونذكر منها على الخصوص الفكرة القائلة بأننا قادرون على رؤية الأشياء لأن أعيننا تُصدر الضوء. وكان ابن الهيثم أول من أدرك أن القذيفة تتزايد احتمالات اختراقها لجدار إذا صدمته بزاوية قائمة، وهو أول من أدرك أن النجوم ليست أجساماً صلبة، كما كان أول من صنع camera obscura وهي الكاميرا ذات الثقب التي لا تزال تُستخدم هذه الأيام لتعريف طلاب المدارس بعلم البصريات. أكمل العالِم الفارسي كمال الدين الفارسي دراسات ابن الهيثم في أواخر القرن الثالث عشر، وذلك عندما درس قوس قزح[1]. يدين الغرب كذلك كثيراً للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، وذلك بسبب حفاظه على الحكمة [الفلسفة] الكلاسيكية، وكذلك بسبب تأسيسه لعلوم جديدة في فن رسم الخرائط، والطب، والفلسفة، وذلك بالإضافة إلى الرياضيات والبصريات. اعترف المفكر الإنكليزي روجر باكون بهذه الحقيقة: «الفلسفة مستقاة من المسلمين»[2].

إذاً، كيف تخلّف العالم الإسلامي عن الغرب في ميدان العلم؟ وكيف ساعدت الثورة في العلوم الحضارة الغربية على السيطرة على العالم، عسكرياً وأكاديمياً على السواء؟ إذا أردنا الإجابة عن تلك الأسئلة فسوف فيجب علينا العودة أكثر من ثلاثة قرون إلى الوراء، أي إلى آخر مرة تمكنت فيها أمبراطورية إسلامية من تهديد أمن الغرب بصورة جدية.

نحن الآن في العام ١٦٨٣. تمكّن الجيش العثماني مجدداً، كما حدث في العام ١٥٢٩، من تهديد مداخل فيينا. كان كارا مصطفى كوبرولو، الصدر الأعظم في عهد **السلطان محمد الرابع**، على رأس ذلك الجيش.

حمل العثمانيون، وهم سلالة من الأناضول قامت على أنقاض الأمبراطورية البيزنطية، لواء الإسلام منذ فتحهم القسطنطينية في العام ١٤٥٣. لم تمتلك أمبراطوريتهم

(١) Freely, Aladdin's Lamp, p. 163.

(٢) Lyons, House of Wisdom, p. 5.

الزخم الكافي الذي امتلكته الخلافة العباسية(*) في زحفها شرقاً، لكنها نجحت في نشر الإسلام في المناطق التي كانت لا تزال مسيحية، وهي المناطق التي لم تشتمل على أراضي البيزنطيين على جانبَي مضايق البحر الأسود فحسب، لكنها شملت بلغاريا، وبلغراد التي سقطت في أيدي العثمانيين في ١٥٢١، وبودا التي سقطت في العام ١٥٤١. تمكّنت البحرية العثمانية كذلك من إخضاع رودس في العام ١٥٢٢. كان يُمكن لفيينا، مثلما حدث مع مالطا، أن تنجو من السقوط في أيدي العثمانيين، لكن السلطان سليمان الكبير(١٥٢٠- ١٥٦٦) ـ الذي تمكّن من مدّ سلطة العثمانيين من بغداد إلى البصرة، ومن فان Van في القوقاز إلى عدن الواقعة على ثغر البحر الأحمر، وفي ساحل البربر Barbary من الجزائر إلى طرابلس ـ تمكّن من الادعاء، وعن حق: «أنا سلطان السلاطين، وملك الملوك، وواهب التيجان لملوك الأرض، وظل الله على الأرض...» (**) أما الجامع في إسطنبول الذي يحمل اسمه فهو إثبات دامغ على ادعائه تلك العظمة. لكن الأمر شبه المجهول تقريباً هو أن سليمان بنى كذلك معهداً طبياً (الداروتيب، أو المدرسة السليمانية للطب)[1]. كان سليمان مشرّعاً للقوانين، وشاعراً موهوباً، كما جمع السلطة الدينية والسياسية والاقتصادية (بما في ذلك تحديد الأسعار). كان الأمبراطور الروماني المقدس في هذا الوقت، أي تشارلز

(*) يجدر بنا ملاحظة أن الشيعة المسلمين في بلاد فارس، كما المغول في الهند، وهم الأقل تمسكاً بالعقيدة، عارضوا ادّعاء العثمانيين الخلافة.

(**) كان اللقب الكامل لسليمان هو: «صاحب الجلالة الأمبراطورية سليمان الأول، ملك سلالة آل عثمان، خان الخانات، القائد المؤمن ووارث نبي إله الكون، وحامي المدن المقدسة، مكة والمدينة، والقدس، أمبراطور المدن الثلاث، القسطنطينية، وأدرنة، وبورصة، ومدينتي دمشق والقاهرة، وكل أرمينيا، والمغرب Magris، وبرقة، والقيروان، وحلب، والعراق العربي والعجم، والبصرة، والإحساء، وديلان، والرقة، والموصل، وبارثيا، وديار بكر، وكيليكيا، وولايات أرضروم، وسيواس، وأضنة، وكرمان، وفان Van، برباري Barbary، والحبشة، وتونس، وطرابلس، ودمشق، وقبرص، ورودس، وكانديا، وولاية موريا، وبحر مرمرة، والبحر الأسود وسواحله كذلك، والأناضول، ورومیلیا، وبغداد، وكردستان، واليونان، وتركستان، وبلاد التتار، والقيرغيز، وإقليمَي كاباردا، وجورجيا، وسهل كبشاك Kypshak، وجميع بلاد التتار، وكيفا Kefa وكل البلاد المجاورة لها، والبوسنة وكل المناطق التابعة لها، ومدينة بلغراد وقلعتها، وولاية صربيا وكل قلاعها، وحصونها ومدنها، وألبانيا، وكل أنحاء Iflak وبودانيا...»

(١) Ihsanoglu, Science, Technology and Learning, pp. 16f.

الخامس مجرد «ملك فيينا»[1]، أما التجار المغامرون البرتغاليون فلم يكونوا أكثر من قراصنة. لم يكن من المستغرب مع وجود سليمان على العرش أن يحاكي العثمانيون التحدي الذي واجهه البرتغاليون في المحيط الهندي والتفوق عليهم[2].

كان التباين بين أمبراطورية آل هابسبورغ والأمبراطورية العثمانية مقلقاً إلى أقصى حد، وذلك بحسب أحد المبعوثين في أواخر القرن السادس عشر أوجيه جيسيلين دي بوسبيش:

إن عواقب الصراع بين هذين النظامين المختلفين تجعلني أقشعرّ عندما أفكّر فيها، يجب أن يبقى أحد النظامين بعد تدمير النظام الآخر، وعلى أي حال لا يستطيع النظامان الوجود معاً بأمان. أما نقاط القوة التي تعزّز موقف النظام الآخر فهي الثروة الهائلة التي تمتلكها أمبراطوريتهم، والموارد الكبيرة والسليمة، والخبرة، والتدرب على الأسلحة، والروح العسكري الراسخ، وسلسلة متواصلة من الانتصارات، والاستعداد لتحمّل المشقات، والاتحاد، والنظام، والانضباط، والتوفير، واليقظة. أما من جانبنا فإننا نجد خزانة فارغة، وعادات مترفة، وموارد ناضبة، وروحاً معنوياً هابطاً، وروحاً عسكرياً يميل إلى التمرّد من دون أن يترافق مع الخبرة، وشجارات أنانية، وعدم احترام الانضباط، واستغلال الصلاحيات، ورجالاً ينغمسون في شرب الكحول والفسق. أما الأسوأ من كل ذلك فهو وجود عدو تعوّد الانتصار، في حين تعوّدنا نحن تلقي الهزائم. هل هناك بعد الآن من شك في نتيجة الصراع؟[3]

شهد القرن السابع عشر مكاسب عثمانية إضافية: تعرضت كريت للاحتلال في العام ١٦٦٩. وصلت سلطة السلطان في ذلك الوقت حتى إلى أوكرانيا الغربية. استمر العثمانيون في إثارة الرعب حتى كقوةٍ بحرية[4]. أما أحداث العام ١٦٨٣

(١) Mansel, Constantinople, p. 62.

(٢) Hamdani, 'Ottoman Response'.

(٣) Forster and Daniel (eds.), Life and Letters, p. 221.

(٤) Hess, 'Ottoman Seaborne Empire'.

فقد كان الغرب يخشاها منذ زمن طويل. لم تفلح جهود ليوبولد الأول(*)، ملك الأمبراطورية الرومانية المقدسة في الحفاظ على السلام الذي تم التوصل إليه في فازفار في العام ١٦٦٤، وعبثاً حاول إقناع نفسه بأن لويس الرابع عشر كان خطراً أكبر عليه[١].

نفّذ السلطان في صيف العام ١٦٨٢ أول خطوة له، فاعترف بالقائد المجري المتمرد عمرو ثوكولي ملكاً على هنغاريا، وذلك مقابل اعترافه بالسيادة العثمانية. تجمعت قوات هائلة على مدى الشتاء التالي في أدريانوبول ثم ما لبثت أن أُرسلت إلى بلغراد. دخل الأتراك في حزيران من العام ١٦٨٣ مناطق تابعة لآل هابسبورغ. احتل الأتراك غيور في مطلع تموز. شعر ليوبولد بالرعب في هذه الأثناء، وهو الذي كان في فيينا. كانت دفاعات المدينة غير ملائمة بالمرة، كما أن حرس المدينة كان ما زال يعاني انتشار وباء الطاعون. أما قوات هابسبورغ المتعبة، التي كانت بقيادة تشارلز حاكم اللورين فقد بدت عاجزة عن إيقاف التقدم العثماني. قدّم مبعوث ليوبولد إلى إسطنبول في هذه الأثناء آمالاً زائفة عندما أكد له أن فاعلية القوات التركية كانت «متوسطة»[٢].

(*) جسّد ليوبولد قدرة آل هابسبورغ على كسب المقاطعات عن طريق الزواج بدل الحرب، وكذلك الصعوبات الناتجة من عدم الإنجاب. سمي بعد عمادته ليوبولد إيغناز جوزف بالثاسار فيليشيان فون هابسبورغ. أما ألقابه الكاملة عند انتخابه أمبراطوراً رومانياً مقدساً فكانت: «ليوبولد الأول الذي انتُخب بمباركة الرب أمبراطوراً رومانياً مقدساً، أوغست إلى الأبد، ملك ألمانيا، ملك هنغاريا، ملك بوهيميا، ودالماسيا، وكرواتيا، وسلوفينيا، وراما، وصربيا، وغاليسيا، ولودوميريا، وكيومانيا، وبلغاريا، وأرشيدوق النمسا، ودوق بوروندي، وبراوان، وستيريا، وكارنثيا، وكارنيولا، ومارغرايف في مورافيا، ودوق لوكسمبورغ، وسيليزيا العليا والسفلى، وورتيمبيرغ وتيك، وأمير سوابيا، وكونت هابسبورغ، والتيرول، وكيبورغ وغوريشيا، ولاندغرايف الإلزاس، وماركيز الأمبراطورية المقدسة، وبورغوفيا، والإنز، واللوزاس العليا والسفلى، ولورد سلوفينيا وبورت ناون والسالين». كان ليوبولد مصاباً في فكه الأسفل (شفة آل هابسبورغ الشهيرة)، لكنه تزوج ثلاث مرات: الأولى كانت الإسبانية مارغريتا تيريزا، التي كانت ابنة شقيقته وابنة عمه في الوقت عينه، ثم أرشيدوقة التيرول كلوديا فيليسيتاس، وأخيراً تزوج الأميرة إليانور من نيوبورغ. أنجب ستة عشر ولداً من زوجاته الثلاث، لكن أربعة منهم فقط عاشوا لما بعد وفاته.

(١) I'nalcik and Quataert, Economic and Social History of the Ottoman Empire, p. xviii.

(٢) Stoye, Siege of Vienna, p. 32.

تمكنت هذه القوات التي كان يُفترض أنها متوسطة، والتي كانت مؤلفة من ٦٠,٠٠٠ من رجال الأنكشارية الأشداء، وهي التي كانت مدعومة بقوات الخيالة sipahi، و٨٠,٠٠٠ جندي إضافي من البلقان، وقوة أخرى من التتار الذين يثيرون الرعب من الوصول إلى مداخل فيينا في ١٣ تموز من العام ١٦٨٣. كان على رأس القيادة العليا لهذا الجيش الصدر الأعظم كارا مصطفى كوبرولو، وهو الذي يحمل لقب كارا «الأسود» وهو لقبٌ يشير إلى شخصيته بالإضافة إلى ملامحه. كان ذلك هو الرجل الذي سلخ جلود أسراه وهم أحياء بعد أن احتل مدينةً بولونية في العام ١٦٧٤. قدم **كارا مصطفى** خياراً للمدافعين عن المدينة بعد أن نصب خيمه على بعد ٤٥٠ خطوة من أسوارها:

إما أن تقبلوا الإسلام وتعيشوا بسلام تحت كنف السلطان! وإما تسليم القلعة وتعيشوا بسلام في كنف السلطان كمسيحيين. يستطيع الرجل أن يرحل بسلام ويأخذ معه أمتعته! أما إذا أصررتم على [المقاومة] فالموت، أو السلب، أو العبودية مصيركم جميعاً![١]

واجه قاهرو البيزنطيين من المسلمين ورثة روما المسيحيين، وما لبث أن قُرعت الأجراس على امتداد أوروبا الوسطى وذلك لدعوة كل المؤمنين من أجل نيل الشفاعة الإلهية. تعطي الرسوم الموجودة على كاتدرائية سان أستيفان فكرة عن المزاج السائد في فيينا في ذلك الوقت: «محمد... عد إلى بلادك!» كان ذلك هو أقصى حدود التحدي الذي أظهره ليوبولد. اقتنع ليوبولد بالفرار إلى مكانٍ آمن بالرغم من أن فكرة الهروب كانت بمنزلة «إهانة لكرامته».

كان مجرد نصب العثمانيين لخيَمهم علامة كافية على ثقتهم بأنفسهم. أقدم **كارا مصطفى** على زرع حديقة أمام خيمته الملكية[٢]. كان الهدف من هذه الحديقة

(١) Ibid., p. 119. Cf. Panaite, Ottoman Law.

(٢) Goodwin, Lords of the Horizons, p. 229.

واضحاً: يمتلك الأتراك ما يكفي من الوقت لتجويع سكان فيينا حتى يقرّروا الاستسلام. تصاعدت في الأجواء أصوات غريبة وتهديدية صادرة عن المخيم، وذلك عندما بدأ العثمانيون بقرع طبولهم الكبيرة. أفاد الضجيج في حجب أصوات الرفوش والمجارف التي استخدمها الأتراك لحفر الأنفاق والخنادق المغطاة. نجح تفجير لغم ضخم في ٢٥ تموز في خرق أحد الحواجز المقامة حول المدينة، كان بمنزلة خط الدفاع الأول عنها. نجح تفجير كبير ثانٍ في فتح الطريق نحو استحكامات المدافعين عن فيينا، وذلك من خلال فتحات الرماية، وهذه الفتحات هي عبارة عن إستحكامات ناتئة مثلثة الشكل. أما في الرابع من أيلول فكاد الأتراك ينجحون في التغلب على المدافعين عن الحصن الأوسط ذاته.

تردد كارا مصطفى في لحظة حاسمة. كانت رياح الخريف في الأجواء، كما أن خطوط اتصالاته مع الأراضي العثمانية أصبحت بعيدة جداً. أوشكت مؤن الجيش على النفاد، كما أنه لم يكن واثقاً بطبيعة خطوته التالية فيما لو نجح فعلاً في الاستيلاء على فيينا. أعطى هذا التردد الذي أظهره الأتراك وقتاً هاماً لتجميع قوة إنقاذ. سبق للملك ليوبولد أن وقّع قبل الغزو العثماني معاهدة للدفاع المشترك مع مملكة بولندا، وهكذا أسرع الملك المنتخب حديثاً جان الثالث سوبييسكي نحو فيينا على رأس جيشٍ قوامه ٦٠,٠٠٠ من الرجال البولونيين والألمان الأقوياء. كان سوبييسكي في سن تتجاوز الشباب لكنه كان حريصاً على كسب شيء من الأمجاد. كانت القوات التي قادها في الواقع خليطاً من البولونيين، والبافاريين، والفرنجة، والساكسون، بالإضافة إلى جنود هابسبورغ. تقدّم هذا الجيش ببطء نحو فيينا. فعل الجيش ذلك لأسباب ليس أقلها أن قائده لم يكن مدركاً تماماً جغرافية النمسا. بدأ الهجوم المضاد أخيراً في الساعات الأولى من يوم ١٢ أيلول ١٦٨٣، وذلك مع وابلٍ من النيران الصاروخية. كانت القوات العثمانية منقسمة بشأن هذا الهجوم المضاد،

فبينما أراد بعضهم الدخول بكل زخم إلى المدينة شنّ آخرون هجوماً مضاداً ضد مشاة البولونيين المتقدمين. لم يبذل كارا مصطفى كبير جهد في الدفاع عن خطوط التقدم. أطلق سوبييسكي خيالته عند الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم، وهم الذين شنّوا هجوماً كاسحاً على معسكر العثمانيين من كالينبيرغ، وهي التلة المطلة على فيينا. قال أحد شهود العيان من الأتراك إن الخيّالة البولنديين بدوا وكأنهم «سيل من الزفت الأسود في هبوطه من أعلى الجبل». كانت المرحلة الأخيرة من فيينا في منتهى الشراسة إلا أن النتيجة حُسمت بسرعة. دخل سوبييسكي خيمة كارا مصطفى فوجدها خالية، وهكذا انتهى حصار فيينا.

رحّب المدافعون عن فيينا بسوبييسكي الذي ابتهج كثيراً، وما كان منه إلا أن كرر كلمات قيصر الشهيرة، لكن مع بعض التعديل: «أتينا، ورأينا، لكن الله هو الذي غلب». أما المدفع العثماني فقد صُهر ليكون جرساً جديداً لسان أستيفان بعد أن زُيّن بنقوش ستة رؤوسٍ من الأتراك. دفع كارا مصطفى المنسحب من المعركة الثمن الأغلى لفشله. عانى الأتراك الجَلْد المبرح عند وصولهم إلى إزترغوم Esztergom. وصل الأمر بالسلطان إلى حد أنه أمر بإعدامه على الفور. شُنق الرجل على الطريقة العثمانية المفضّلة، أي بواسطة حبلٍ من الحرير.

نشأت مجموعة كبيرة من الأساطير عشية خلاص فيينا. قيل أن الأهلّة [جمع هلال] المرسومة على الأعلام التركية هي التي أعطت فكرة الكرواسان، وأن كمية البن التي تركها العثمانيون وراءهم استُخدمت لتأسيس أول مقهى في فيينا، ولإعداد أول كوبٍ من الكابوتشينو، وأن آلات الطَرْق التي غُنمت من الأتراك (أي الصنج، والمثلثات والطبول) هي التي أُدخلت إلى فِرق كتائب الجيش النمسوي. أما القيمة التاريخية الحقيقية لهذه المناسبة فقد كانت أكبر من ذلك بكثير. كان هذا الفشل الذي حدث للمرة الثانية في احتلال فيينا بمنزلة بداية النهاية بالنسبة إلى الأمبراطورية

العثمانية، وهي التي أعلنت نهاية التوسع الأمبراطوري الذي ترافق مع نتائج كارثية على المدى البعيد. طُرد العثمانيون تقريباً من كل الأراضي الأوروبية التي قهرها سليمان الكبير، وذلك بعد أن لاقوا الهزيمة في معركة إثر معركة، وكانت ذروة هذه الهزائم هي تلك التي أنزلها **يوجين** أمير السافوي الذي أحرز نصراً كاسحاً في زنتا في العام ١٦٩٧. أما معاهدة كارلوويتز، التي تنازل السلطان بموجبها عن كل مطالبه في هنغاريا وترنسلفانيا، فقد كانت معاهدة مذلة بالنسبة إليه[١].

لم يكن رفع الحصار عن فيينا مجرد نقطة تحوّل هامة في الصراع الذي طال مدة قرونٍ من الزمن بين المسيحية والإسلام، بل كان لحظةً حاسمةً في صعود الغرب. صحيحٌ أن الطرفين ظهرا وكأنهما متعادلان في ميدان المعركة في العام ١٦٨٣، وفي واقع الأمر كانت الفروق طفيفة جداً بينهما. حارب التتار مع كلا الجانبين. كان الجنود المسيحيون الذين يعيشون في مولدافيا ووالاشيا، اللتين كانتا تحت السيطرة التركية، مجبرين على القتال إلى جانب العثمانيين. تُظهر الرسوم والنقوش التي مثّلت المعركة أن الفروق بين الجيشين كانت شكلية أكثر مما هي تقنية أو تكتيكية. لكن توقيت الحصار كان في منتهى الأهمية. كانت فترة أواخر القرن السابع عشر فترة التغيير المتسارع في أوروبا في مجالين هامين: الفلسفة الطبيعية (وهي الوصف الذي كان يُطلق على العلوم) والنظرية السياسية. شهدت السنوات التي أعقبت العام ١٦٨٣ تغييرات عميقة في طريقة إدراك العقل الغربي للطبيعة والحكم. نشر إسحق نيوتن في العام ١٦٨٧ كتابه **برينسيبيا**، وبعد مرور ثلاثة أعوام نشر صديقه جون لوك كتابه **أطروحة ثانية في الحكم**. يعني ذلك أنه إذا كان على المرء أن يفرّق الغرب عن الشرق في أمر واحد لكان ذلك الأمر هو تفاوت درجات السعي وراء هذه المعرفة الواسعة وتطبيقها بصورة منهجية.

(١) Lewis, What Went Wrong?, pp. 18f.

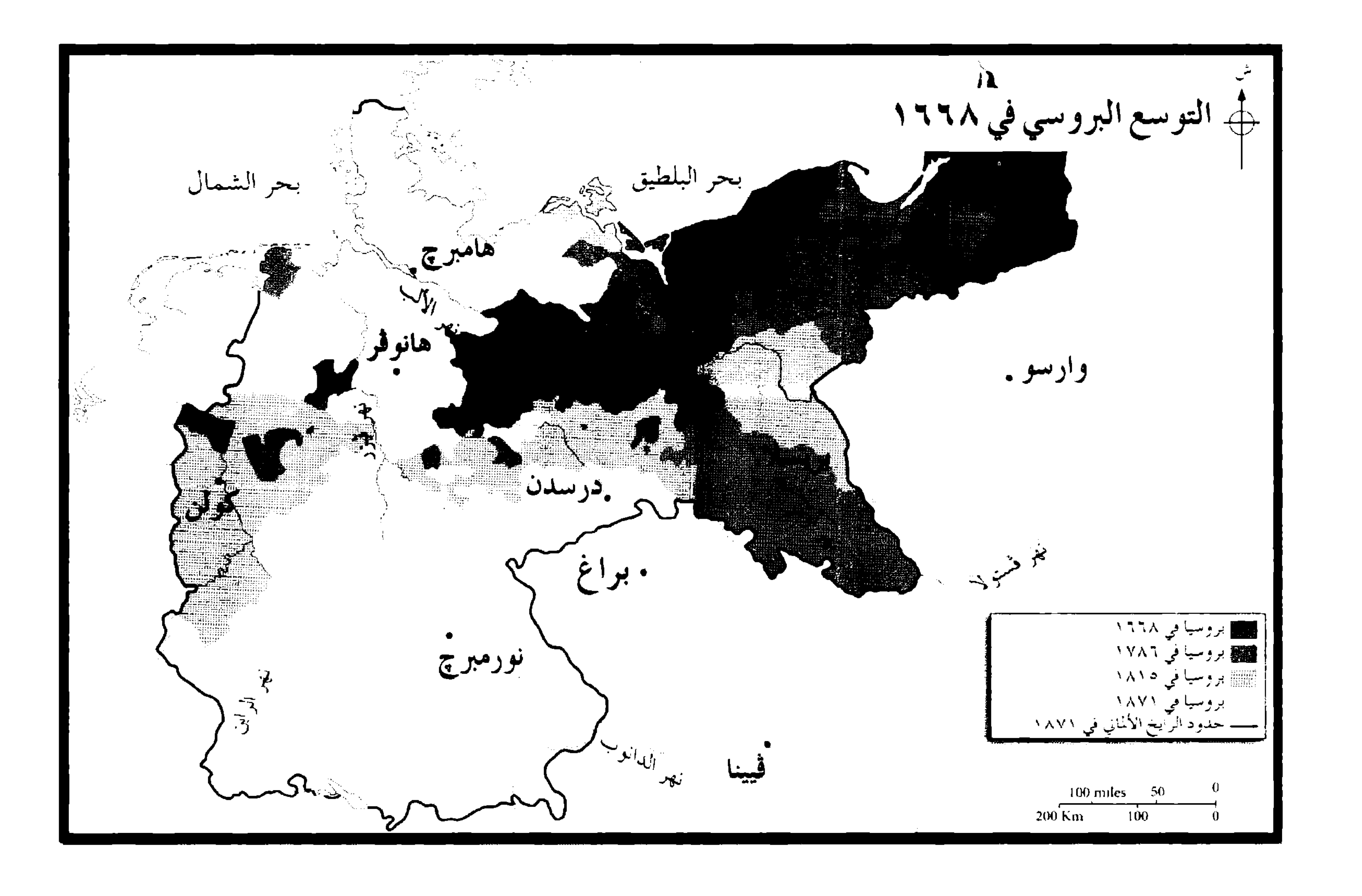
أما التراجع الكبير الذي أصاب الأمبراطورية العثمانية بعد العام ١٦٨٣ فلم يكن نتيجة التراجع الاقتصادي. لم تكن إسطنبول مدينة أفقر من أمثالها المدن المجاورة في وسط أوروبا، ولم تكن الأمبراطورية العثمانية أبطأ في احتضان التجارة العالمية، والتصنيع في وقتٍ لاحق، مما كانت عليه الحال في أنحاء أخرى من أوروبا[١]. لكن التفسير الذي أوردناه في الفصل السابق عن انحطاط الصين الأمبراطورية لا ينطبق هنا، أي لم يكن هناك من غياب للتنافس الاقتصادي والشركات المساهمة المستقلة، حتى النقابات، في الأراضي العثمانية[٢]. كانت هناك منافسة كافية كذلك بين العثمانيين، والصفويين، والمغول. يجب علينا كذلك أن لا نفهم الانحطاط العثماني على أنه، ببساطة، نتيجة لتنامي التفوق العسكري الغربي[٣]. يظهر ذلك التفوق عند التمحيص الدقيق بأنه يستند إلى التحسينات الكبيرة في تطبيق العلوم على المجهود الحربي، وعلى العقلانية في الحكم. أما في القرن الخامس عشر فقد سبق لنا أن رأينا أن المنافسة السياسية والاقتصادية أعطت الغرب تفوقاً حاسماً على الصين. أما في القرن الثامن عشر فقد كان التفوق على الشرق يتعلق بالقدرة الفكرية بقدر تعلقه بالتفوق في القوة النيرانية في ميدان المعارك.

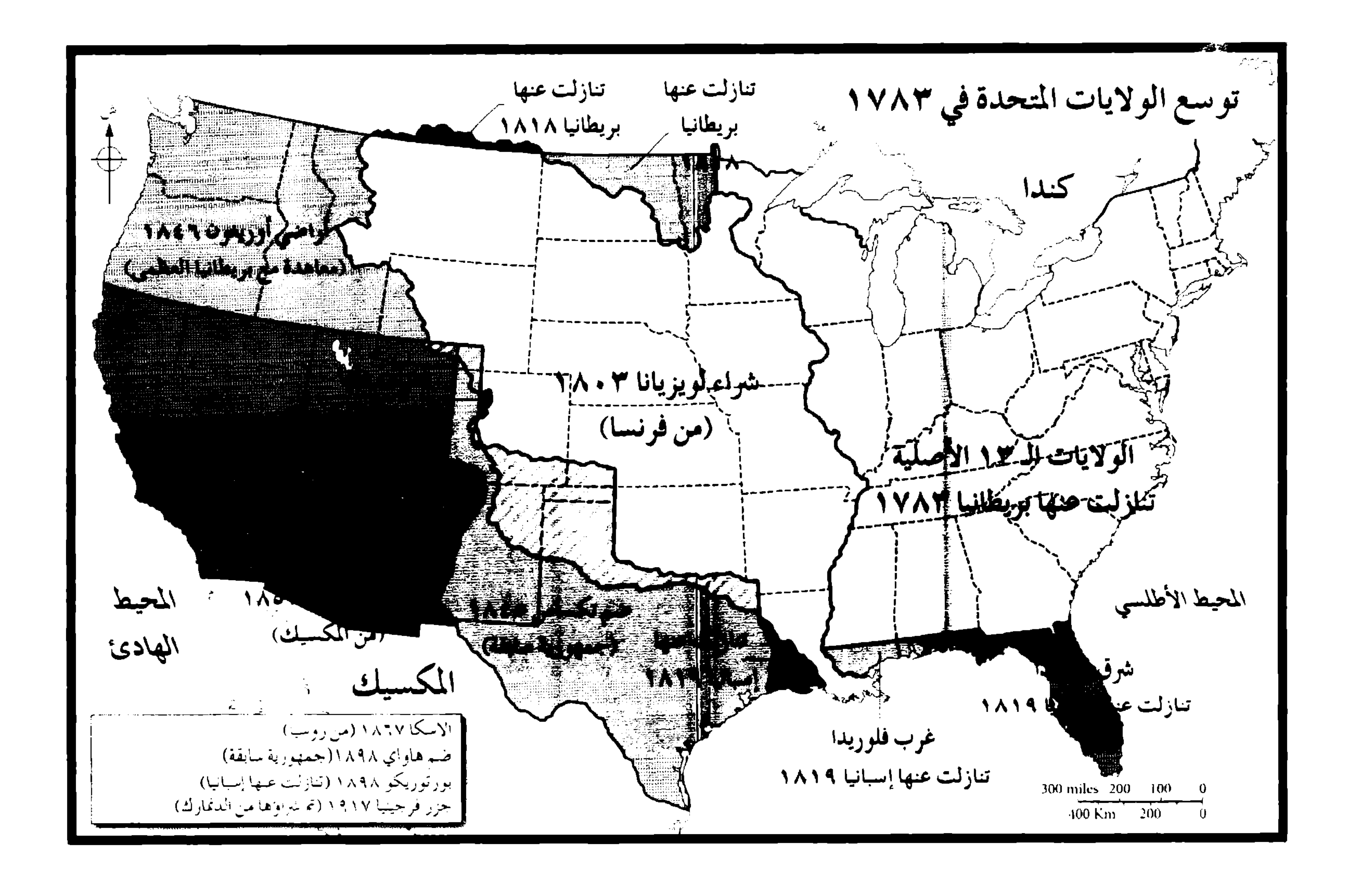
---

(١) zmucur and Pamuk, 'Real Wages'; Quataert, Ottoman Manufacturing. As in India, traditional textile manufacturing was hard hit by European competition in the early nineteenth century, but the Ottoman economy fared better in the period after 1850.

(٢) Rafeq, 'Making a Living'; Pamuk, 'Institutional Change'.

(٣) Grant, 'Rethinking the Ottoman «Decline» '.


التوسع البروسي في ١٦٦٨
ش
بحر الشمال
بحر البلطيق
هامبرج
نهر الألب
هانوفر
وارسو
درسدن
كولن
براغ
نهر فستولا
نورمبرج
نهر الراين
نهر الدانوب
ڤيينا
بروسيا في ١٦٦٨
بروسيا في ١٧٨٦
بروسيا في ١٨١٥
بروسيا في ١٨٧١
حدود الرايخ الألماني في ١٨٧١
100 miles
50
0
200 Km
100
0


توسع الولايات المتحدة في ١٧٨٣
تنازلت عنها
بريطانيا ١٨١٨
تنازلت عنها
بريطانيا
كندا
(معاهدة مع بريطانيا العظمى)
شراء لويزيانا ١٨٠٣
(من فرنسا)
الولايات الـ ١٣ الأصلية
تنازلت عنها بريطانيا ١٧٨٣
المحيط الأطلسي
المحيط
الهادئ
(من المكسيك)
المكسيك
غرب فلوريدا
تنازلت عنها إسبانيا ١٨١٩
تنازلت عن
١٨١٩
الاسكا ١٨٦٧ (من روسيا)
ضم هاواي ١٨٩٨ (جمهورية سابقة)
بورتوريكو ١٨٩٨ (تنازلت عنها إسبانيا)
جزر فرجينيا ١٩١٧ (تم شراؤها من الدنمارك)
300 miles 200 100 0
400 Km 200 0

ميكروغرافيا

«تحت المجهر»

لم يكن درب أوروبا نحو الثورة العلمية والتنوير مستقيماً وواضحاً، بل كان طويلاً ومتعرجاً. ترجع هذه الثورة بأصولها إلى العقيدة المسيحية الأصولية القائلة بوجوب فصل الكنيسة عن الدولة. «أعطوا لقيصر ما هو ملك قيصر، وأعطوا لله ما هو لله (متى ٢٢ : ٢١) كان ذلك أمراً يختلف تماماً عن ذلك الموجود في القرآن، وهو أمرٌ يصر على عدم الفصل بين القانون الإلهي، كما أوحي للنبي، وبين وحدة أي كيان سلطوي مبني على الإسلام. كان التميز الذي قام به المسيح بين ما هو دنيوي وما هو روحي ظاهراً في **مدينة الله** الذي ألفه القديس أوغسطين (وذلك رداً على «مدينة الإنسان» في الأمبراطورية الرومانية) وهو ما مكّن الحكّام الأوروبيين المتعاقبين من رفض الذرائع السياسية للبابوية في روما. هدّدت السلطات العلمانية بتحويل البابا إلى مجرد دمية، وذلك حتى أعاد غريغوري السابع (١٠٧٣- ١٠٨٥) السلطة البابوية في تعيين رجال الدِّين.

كانت أوروبا قبل العام ١٥٠٠ أرضاً للأحزان، لكنها لم تكن أرضاً للجهل. أعادت أوروبا في عصر النهضة اكتشاف معظم المعرفة الكلاسيكية. يرجع الفضل في ذلك إلى الاتصال مع العالم الإسلامي. ظهر عدد كبير من الابتكارات في ذلك الوقت. شهد القرن الثاني عشر ولادة التأليف الموسيقي، وهو إنجازٌ كبير في تاريخ الموسيقى الغربية. أما الأهمّية الأساسية فهي للنهج التجريبي الذي اقترحه روبرت غروسيتست، وأكّده روجر باكون في القرن الثالث عشر. ابتكر فيليبو برونليشي في نحو العام ١٤١٣ المنظور الخطي linear perspective في الرسم. أما أول رواية

حقيقية فكانت La vida de Lazarillo de Tormes (١٥٠٠)، إلا أن مؤلفها بقي مجهولاً. لكن الإنجاز الذي يفوق النهضة في الأهمية فقد كان قدوم عصر الإصلاح وما تبعه من تجزئة المسيحية الغربية بعد العام ١٥١٧ . كانت تلك خطوة كبيرة بسبب الدور الثوري الذي أدته المطبعة، وهي بالتأكيد أهم ابتكار تقني بمفرده في الفترة التي سبقت الثورة الصناعية. سبق لنا أن رأينا أنه بإمكان الصينيين الادعاء أنهم هم الذين اخترعوا الطباعة بواسطة المطبعة (أنظر الفصل الأول). لكن نظام غوتنبيرغ للحروف المعدنية المتحركة كان أكثر مرونة وقابلية للتوسع من أي شيء تم تطويره في الصين. سمح هذا «التوافق المدهش، والتناسق والتناغم للمثاقب والرموز» بحسب قول غوتنبيرغ، بالإنتاج السريع جداً للمنشورات والكتب. كانت تلك تقنية قوية جداً بحيث يصعب احتكارها (كما كان يأمل غوتنبيرغ). لم يتأخر المقلدون عن تأسيس المطابع في غضون سنواتٍ قليلة من ذلك الإنجاز الأصلي في ماينز، وعلى الخصوص الإنكليزي وليام كاكستون في كُلن (١٤٦٤)، وبال (١٤٦٦)، وروما (١٤٦٧)، والبندقية (١٤٦٩)، وونرمبيرغ، وأوترخت، وباريس (١٤٧٠)، وفلورنسا، وميلانو، ونابولي (١٤٧١)، وأوغسبيرغ (١٤٧٢)، وبودابست، وليون، وفالنسيا (١٤٧٣)، وكراكوف، وبرجيس (١٤٧٤)، ولوبيك، وبريسلاو (١٤٧٥)، ووستمينستر، وروستوك (١٤٧٦)، وجنيف، وباليرمو، وميسينا (١٤٧٨)، ولندن (١٤٨٠)، وأنتويرب، وليبزيغ (١٤٨١)، وأودينس (١٤٨٢) واستكهولم (١٤٨٣)[1]. وصل عدد المطابع في ألمانيا وحدها إلى ٢٠٠ بحلول العام ١٥٠٠. أما في العام ١٥١٨ فقد وصل عدد الأعمال المطبوعة باللغة الألمانية إلى ١٥٠، وما لبث العدد أن ارتفع إلى ٢٦٠ في العام ١٥١٩، وارتفع مجدداً إلى ٥٧٠ في العام ١٥٢٠، وإلى ٩٩٠ في العام ١٥٢٤.

لم يستفِد أي مؤلفٍ آخر من هذه الكمية الهائلة من النشر أكثر مما استفاد مارتن لوثر، وذلك لأسباب ليس أقلها إدراكه أنه من الأفضل الكتابة باللغة المحكية بدلاً من اللاتينية. بدأ لوثر بشكلٍ متواضع عندما نشر مقدمةً لإحدى طبعات **الثيولوجيا**

(١) Steinberg, Five Hundred Years, pp. 22-5.

الألمانية، والمزامير السبعة التكفيرية، كما أنه أغرق السوق الألمانية بمنشورات دينية تنتقد ممارسات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وذلك بمساعدة تلقاها من يوهان غرننبيرغ، وهو أحد أصحاب المطابع في ويتينبيرغ. لم تُنشر في البداية أشهر كتابات لوثر اللاذعة، وهي الأطروحات الخمس والتسعون التي انتقد فيها قيام الكنيسة ببيع صكوك الغفران (كطريقة للتكفير عن الذنوب)، لكنها عُلّقت على باب كنيسة قلعة ويتينبيرغ. لم يتأخر الوقت كثيراً قبل ظهور نسخٍ مطبوعةٍ عديدة عن تلك الأطروحات[١]. كانت الرسالة التي أراد لوثر إيصالها هي أن «الإيمان وحده من دون العمل يبرّر الإنسان، ويحرره، وينقذه» وأن كل الرجال هم «كهنة إلى الأبد... وهم مؤهلون للظهور أمام الله، وللصلاة من أجل الآخرين، وليتبادلوا فيما بينهم تعليم الأمور التي هي من الله»[٢]. كان هذا المفهوم «لكهانة كل المؤمنين» الذين يعلمون أنفسهم متطرفاً في ذاته، لكن المطبعة هي التي جعلته فعالاً، وهو عكس ما حدث مع التحدي الذي أقامه جان هوس في وقتٍ سابق ضد السلطة البابوية، وهو التحدي الذي سُحق بشراسة، أي مثل ما حدث مع كل الهرطقات الأخرى التي ظهرت في العصور الوسطى. انتشرت منشورات لوثر في أنحاء ألمانيا كافة في غضون السنوات القليلة التالية، وذلك بالرغم من **قانون ورمز** الديني الذي صدر في العام ١٥٢١، وهو القانون الذي أمر بإحراقها. نجح لوثر في طبع ٣٧٠ طبعة للعظات الثلاثين وكتابات أخرى، وذلك ما بين شهر آذار من العام ١٥١٧ وصيف العام ١٥٢٠. أما إذا افترضنا أن متوسط حجم الطبعة الواحدة كان ألف نسخة فإن ذلك يعني أن ثلث مليون نسخة من أعماله كان قيد التداول في وقتٍ لاحق. أصدر لوثر وحده نصف المنشورات في فترة ما قبل عصر النهضة[٣]، أي في الفترة ما بين العامين ١٥٢١ - ١٥٤٥.

شجعت هذه الوسائط الجديدة على القراءة الفردية للكتاب المقدس وعلى

(١) Eisenstein, Printing Revolution, p. 168.

(٢) Luther, Concerning Christian Liberty (1520).

(٣) Crofts, 'Printing, Reform and Catholic Reformation', p. 376. notes to pp. 43–62.

«التعليم المتبادل»، وهكذا كانت، في حقيقة الأمر، رسالةً تشجع على الإصلاح. أدت المنافسة التجارية، على أي حال، دوراً في صعود الغرب مثل ما كانت الحال عليه مع أوجهٍ عديدة كثيرة. اشتكى لوثر نفسه من أن ناشري كتبه كانوا «مرتزقة قذرين»، وهم الذين اهتموا «بأرباحهم أكثر من اهتمامهم بالناس»[1]. أما الواقع فهو أن المنافع الاقتصادية للمطبعة توزعت على مكوّنات المجتمع. نلاحظ كذلك أنه في خلال القرن السادس عشر سجلت المدن التي تمتلك المطابع نمواً أسرع بكثير من تلك التي تفتقدها[2].

ساهمت المطابع مساهمة كبيرة في نشر تعاليم غير تعاليم لوثر. أما العهد الجديد ذاته فقد طُبع لأول مرة بالإنكليزية في العام ١٥٢٦، وكانت بحسب ترجمة **ماثيو تينداير**، وهي الترجمة التي سمحت للرجال المتعلمين العاديين بقراءة الكتاب المقدس بأنفسهم. دان بعض رجال الدِّين المحافظين ذلك «المحرك الشرّير» أي المطبعة، وتطلعوا بحنين إلى «الأوقات السعيدة عندما كان التعليم يجري بقراءة النصوص، وبمساعدة أحد الموظفين... الذين يحتفظون بمفاتيح المكتبة»[3]. لكن تلك الأيام ولّت إلى غير رجعة. أدرك توماس مور، الذي كان وزيراً في عهد هنري الثامن، بسرعة أنه حتى أولئك الذين يعارضون الإصلاح لم يكن لديهم من خيار سوى النزول إلى المعترك بالمنشورات المطبوعة. كانت الطريقة الوحيدة للحد من الانتشار الواسع لإنجيل كالفين المطبوع في جنيف (١٥٦٠) في أنحاء إسكتلندا وإنكلترا هي قيام الملك جايمس السادس بتكليف لجنة ترجمة نسخة بديلة و«مرخصة»، وهي ثالث محاولة رسمية لترجمة الكتاب المقدس وأكثرها نجاحاً. خرجت أعمال الفلاسفة القدماء من أدراجها، وانتشرت بفضل المطبعة. نذكر منهم على الخصوص أرسطو، وهو الذي نُشر كتابه «النفس» **دي أنيما**، وأعيد نشره بترجمةٍ

(١) Holborn, 'Printing and the Growth of a Protestant Movement', pp. 134f.

(٢) Dittmar, 'Ideas, Technology, and Economic Change'.

(٣) Walsham, 'Unclasping the Book?', p. 156.

حديثة في العام ١٥٠٩، وكذلك أعمال علماء الإنسانيات، مثل نيكولاس مارشالك، وجورج سيبوتوس. ظهر بحدود العام ١٥٠٠ أكثر من ألف عملٍ مطبوع في العلوم والرياضيات، ومن بين هذه الأعمال De natura rerum الذي ألفه لوقريطوس، وهو كتاب أعيد اكتشافه في العام ١٤١٧، و De re medica الذي كتبه سيلسوس وهو جمعٌ روماني للعلوم الطبية.

تقف النسخة المرخصة [الشرعية] (وهو الاسم الذي عُرف به إنجيل الملك جايمس في العام ١٦١١) جنباً إلى جنب مع مسرحيات وليام شكسبير في خانة أعظم الأعمال في الأدب الإنكليزي. خاب أمل فريق الباحثين المؤلف من سبعة وأربعين باحثاً والذي عمل على ذلك الإنجيل مرة واحدة فقط. أما طبعة العام ١٦٣١، التي تعرف باسم «الإنجيل الشرّير» فقد حذفت كلمة «لا» من وصية «لا تزنوا» الإغريقية، وكذلك الترجمات اللاتينية لأعمال أرخميدس[١]. أدت المطابع الإيطالية دوراً مهماً بشكلٍ خاص في نشر كتب الحساب وتقنيات المحاسبة، وهي العلوم التي يُمكن الاستفادة منها في التجارة. شملت هذه الكتب Treviso Arithmatic (١٤٧٨)، وكتاب لوقا باكيولي Summa de arithmatica, geometria, proportioni et proportionalita (١٤٩٤).

ربما تُرجم القرآن إلى اللاتينية ونُشر في **بال** على يد الطبّاع **جوهانس أوبورينوس**، وذلك في الوقت الذي كانت المنشورات المعادية للأتراك تحظى بشعبية تماثل المنشورات المعادية للبابوية في ألمانيا[٢]. أما عندما أقدم مجلس مدينة **بال** على منع هذه الترجمة في العام ١٥٤٢، وصادر كل النسخ الموجودة فقد كتب لوثر نفسه دفاعاً عن أوبورينوس:

دُهشت كثيراً لأن المرء لا يقدر على إيذاء محمد أو الأتراك، ولا يستطيع إنزال

(١) Hall, 'Intellectual Tendencies', pp. 390f.

(٢) Bohnstedt, 'Infidel Scourge of God', p. 24.

الأذى بهما (بأكثر مما يفعل إزاء أسلحتهم) أكثر من جلب قرآنهم إلى المسيحيين في وضح النهار، وهم الذين يرون فيه كتاباً مشتوماً، ومكروهاً، ويائساً، ومليئاً بالأمور غير الصحيحة، والأساطير والفظاعات التي يخبئها الأتراك ويتجاهلونها... [ثم] يكتشفون [أن ذلك الكتاب] يكرّم المسيح، ويعطيهم حقهم، و[هم يفعلون ذلك] من أجل إنزال الأذية بالأتراك، ولإغاظة الشيطان. أطلِقوا هذا الكتاب من أسره ولا تحجبوه عن الناس... يجب على الإنسان أن يفتح القُروح والجروح كي يعالجها[1].

نُشرت ثلاث طبعات بحسب الأصول في العام ١٥٤٣، وما لبثت أن تبعتها طبعة إضافية بعد مرور سبع سنوات. تُظهر لنا هذه الحقيقة، أكثر من أي شيء آخر، واقع تفتّح العقل الأوروبي بعد الإصلاح.

لا يعني ذلك، بطبيعة الحال، أن كل شيء يُنشر يضيف [كماً هاماً] للمعرفة البشرية. إن قدراً كبيراً مما أخرجته المطابع في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان هدّاماً بشكلٍ واضح، ومثال ذلك الطبعات التسع والعشرون من Malleus maleficarum التي ظهرت بين العامين ١٤٨٧ و١٦٦٩، وهي التي شرّعت ملاحقة الساحرات، وكانت كالهوس الذي ساد جميع أنحاء أوروبا، وأسفرت عن مقتل ما بين ١٢,٠٠٠ و ٤٥,٠٠٠ شخص معظمهم من النساء[2]. كانت فكرة أن يقوم عالِمٌ ألماني ببيع روحه إلى الشيطان في مقابل منحه أربعة وعشرين عاماً من القوة والمتعة اللتين لا حد لهما، فكرة قابلة للتحقيق بالنسبة إلى الأشخاص الذين شاهدوا مسرحية الدكتور فاوست التي كتبها كريستوفر مارلو، والتي عُرضت لأول مرة في العام ١٥٩٢:

بفضله سأكون أمبراطوراً عظيماً للعالم،

وسأصنع جسراً من خلال الهواء المتحرك،

كي أعبر المحيط مع مجموعة من الرجال.

---

(١) Clark, 'Publication of the Koran', p. 9.

(٢) Thomas, Religion and the Decline of Magic; Levack, Witch-Hunt.

سألتقي التلال التي تحيط بالساحل الأفريقي،

وسأجعل تلك البلاد تابعة لإسبانيا،

وسيخضع الاثنان لعرشي:

لن يعيش الأمبراطور إلا بإذني...

لكن **توماس هوك** تمكّن بعد مرور سبعين عاماً فقط من نشر كتابه **ميكروغرافيا** (١٦٦٥)، وهو الكتاب الذي يُعدّ احتفاءً بالتجريب العلمي:

لم يعد أي شيء بعيداً جداً بفضل المناظير، وأصبح بالإمكان تقريب أي شيء لأنظارنا، كما أنه بمساعدة المجاهر لم يعد أي شيء صغيراً جداً بحيث نعجز عن تقصّيه. يعني ذلك اكتشاف عالم مرئي جديد أمام أفهامنا. كما يعني كذلك أن السماء قد انفتحت، و[إمكانية أن نرى] عدداً هائلاً من النجوم الجديدة، وحركاتٍ جديدة، وأشياء جديدة تظهر فيها، عجز علماء الفلك الأقدمون عن رؤيتها. يعني ذلك أن الأرض ذاتها التي تقع قريباً جداً منا، وتحت أقدامنا، ستُظهر شيئاً جديداً أمامنا... ربما نتمكّن من فهم كل الأنظمة السريّة للطبيعة. إذاً، ما هي الأمور التي لا نتوقعها منها إذا ما تفحصناها جيداً؟ إن الكلام والتصادم بين الحجج سرعان ما يتحولان سريعاً إلى أعمال. إن كل الأحلام الرائعة التي تترافق مع وجهات النظر، وكل الطبائع الماورائية، التي ابتدعتها الأدمغة المبدعة، ستتلاشى كلها كي تحل محلها التواريخ المثبتة، والتجارب، والأعمال. وكما أن الجنس البشري قد سقط سابقاً عندما ذاق ثمار شجرة المعرفة، وهكذا نحن الأجيال التالية قد نصل إلى الخلاص بالطريقة ذاتها، ليس عن طريق الملاحظة والتأمل فحسب، لكن عن طريق تذوّق ثمار المعرفة الطبيعية التي هي غير محرّمة بعد على الإطلاق. يستطيع العالِم الآن تلقي المساعدة بفضل مجموعة متنوعة من الاختراعات، وأصبح بالإمكان جمع مادة جديدة للعلوم، وهكذا سيتحسن كل ما هو قديم ويتخلص من الصدأ الذي يعلوه...

إن استخدام **هوك** كلمة «خلية» لوحدة متناهية في الصغر من مادة عضوية كان واحداً من مجموعة كبيرة من الإنجازات الكبيرة التي تزاحمت في الزمان والمكان،

وهي الإنجازات التي أعادت تعريف إدراك الجنس البشري للعالم الطبيعي بشكلٍ أساسي.

يمكننا القول إن الثورة العلمية بدأت بسلسلة متتابعة من نقاط التقدم في دراسة حركة الكواكب والدورة الدموية. لكن **مجهر** هوك أوصل العلوم إلى آفاقٍ جديدة عندما كشف عن أمورٍ كانت غير مرئية للعين البشرية حتى ذلك الوقت. كان **ميكروغرافيا** إعلاناً للمذهب التجريبي الجديد، وهو عالم بعيدٌ كل البعد عن عالم سحر فاوست. تجاوز العلم الجديد مع ذلك مجرد الملاحظة الدقيقة، فبدءاً بغاليليو اهتمّ بالتجريب المنهجي، وتحديد العلاقات الرياضية [الرياضياتية]. توسّعت آفاق الرياضيات بدورها عندما أدخل **إسحق نيوتن** حساب التفاضل والتكامل على الأعداد المتناهية في الصغر [القريبة جداً من الصفر] calculus، **وغوتفريد ليبينز** الذي أدخل حساب التفاضل والتكامل differential calculus. كانت الثورة العلمية أخيراً ثورة في الفلسفة عندما قلب رينيه ديكارت وباروخ سبينوزا النظريات التقليدية المتعلقة بالإدراك والعقلانية. يمكننا القول، بدون مبالغة، إن هذه السلسلة من الابتكارت الفكرية هي أساس العلوم الحديثة في التشريح، وعلم الفلك، وعلم الأحياء، والكيمياء، والجيولوجيا (علم طبقات الأرض)، والهندسة، والرياضيات، والميكانيكا، والفيزياء. تلخص لنا هذه القائمة فقط الإنجازات التسعة والعشرين الأهمّ التي شهدتها الفترة بين العامين ١٥٣٠ و١٧٨٩.

١٥٣٠ باراسيلسوس، رائد تطبيق الكيمياء في علم وظائف الأعضاء وعلم الأمراض.

١٥٤٣ وضع كتاب نيكولاس كوبرنيكوس *De revolutionibus orbium coelestium* أسس نظرية المدارات للنظام الشمسي.

أندرياس فاسيليوس ينسف في كتابه De humani corporis fabrica كتاب جالينوس في علم التشريح.

١٥٤٦ أغريغولا يصنف في كتابه *De natura fossilium* المعادن ويُدخل مصطلح fossel (متحجّرات).

١٥٧٢ تايكو براهي يسجل أول مشاهدة أوروبية لسوبرنوفا [النجم المتفجر [المستسعر] الأعظم].

١٥٨٩ غاليليو يختبر الأجسام الساقطة (الذي نشره في كتاب *De motu*) ويثوّر النهج التجريبي.

١٦٠٠ كتاب وليام جيلبيرت *De magnete, magnetisque corporibus* يصف الخصائص المغناطيسية للأرض والكهرباء.

١٦٠٤ غاليليو يكتشف أن الأجسام الساقطة الحرة تزيد من المسافة التي تقطعها مع مربع الوقت.

١٦٠٨ هانز ليبرشي وزكريا جانسن يخترعان التلسكوب كلٌّ على حدة.

١٦٠٩ غاليليو يجري أول مراقبة بالمنظار للسماء في الليل.

١٦١٠ غاليليو يكتشف أربعة من أقمار جوبيتر، ويستنتج بأن الأرض ليست مركز الكون.

١٦١٤ جون نابييه يُدخل اللوغاريثمات في كتابه *Mirifici logrithmorum canonis descripto.*

١٦٢٨ وليام هارفي يكتب *Excercitatio anatomica de motu cordis et sanguinis in animalibus*

يصف فيه الدورة الدموية بكل دقة.

١٦٣٧ رينيه ديكارت يضع في ملحق La Geomtric الذي وضعه لكتابه Discours de la method أسس الهندسة التحليلية.

١٦٣٨ غاليليو يضع في كتابه *Discorsi e dimonstrazioni matematiche* أسس الميكانيكا الحديثة.

١٦٤٠ بيار دي فيرمات يضع أسس نظرية العدد.

١٦٥٤ فيرمات وبلايز باسكال يضعان أسس نظرية الاحتمالات.

١٦٦١ روبرت بويل يعرّف في كتابه *Skeptical Chymist* العناصر والتحليل الكيميائي.

١٦٦٢ بويل يعرّف قانون بويل القائل إن الحجم الذي تحتله كمية ثابتة من الغاز في وعاء يتناسب عكسياً مع الضغط الذي يبذله.

١٦٦٩ إسحق نيوتن يقدّم في كتابه *De analysi per aequationes numero terminorum infinitas* أول عرضٍ منهجي للتفاضل والتكامل calculus الذي طوره غوتفريد ليبينز بصورة مستقلة.

١٦٧٦ أنطوني فان لوينهوك يكتشف الكائنات المجهرية.

١٦٨٧ نيوتن في كتابه *Philosophiae naturalis principia mathematica* يتحدث عن قانون الجاذبية الشامل، وكذلك قوانين الحركة.

١٧٣٥ كارلوس لينايوس يُدخل في كتابه *Systema naturae* التصنيف المنهجي لأنواع وفصائل الكائنات.

١٧٣٨ دانيال بيرنولي يتحدث في كتابه *Hydrodynamica* عن مبدأ بيرنولي ويضع أسس الدراسة الرياضية لجريان السوائل وكذلك النظرية الحركية للغازات.

١٧٤٦ جان إيتيان جيتارد يُعدّ أولى الخرائط الجيولوجية الحقيقية.

١٧٥٥ جوزف بلاك يعرّف ثاني أوكسيد الكربون.

١٧٧٥ أنطوان لافوازييه يصف الاحتراق.

١٧٨٥ جايمس هوتون يتحدث في كتابه Concerning the System of the Earth عن التصور الموحد uniformitarian view لتطور الأرض.

١٧٨٩ لافوازييه يتحدث في كتابه Traite' elementaire de chimie عن قانون conservation [بقاء] المادة.

أخذ هذا النوع الجديد من المعرفة العلمية بالانتشار بسرعة بحلول منتصف القرن السابع عشر، أي مثل ما حدث مع عقائد الإصلاحيين البروتستانت قبل ذلك بقرنٍ من الزمن. تضافرت المطابع والخدمات البريدية الموثوقة على إنشاء شبكة استثنائية يُمكن اعتبارها صغيرة بحسب المعايير الحديثة، لكنها كانت أقوى بكثير مما حققته جماعات العلماء من قبل. ثمة، بطبيعة الحال، قدر كبير من المقاومة الفكرية، وهو أمر ليس بغريب عندما يتغيّر مثال معيّن، أي البنية المفاهيمية ذاتها[1]. جاءت بعض هذه المقاومة من الداخل في واقع الأمر، كما أن نيوتن ذاته جرّب مع الخيمياء. جهد هوك كثيراً في محاولة إيجاد علاجاتٍ زائفة لعسر الهضم. لم يكن من السهل قط التوفيق بين العلم الجديد والعقيدة المسيحية، وهي العقيدة التي لم يرفضها إلا القليلون[2]. لكن ما لا يُمكن إنكاره هو أن ذلك كان ثورة فكرية أكثر تغييرية من الثورة الدينية التي سبقتها، والتي أدّت إليها عن غير قصد. أُرسيت في ذلك الحين القواعد الأساسية للبحث العلمي، بما في ذلك نشر نتائج ذلك البحث، وإعطاء الفضل لأول كتاب يُطبع [عن موضوعٍ معيّن]. كتب الفيلسوف الفرنسي الشاب فرنسوا ماري آرويه، المعروف باسمه المستعار «فولتير» رسالةً إلى بيار لويس مورو دي ماوبيرتيوس، وذلك بعد نشر هذا الأخير كتاب **بحث في الأشكال المختلفة للكواكب** *Discourse on the Different figures of the Planets* في العام ١٧٣٢: «إن أول بحثٍ لك هو الذي عمّدني في الدِّين النيوتوني. أما بحثك الثاني فقد أعطاني التأكيد الذي أحتاج إليه. أشكرك على مقدساتك»[3]. نلاحظ وجود بعض السخرية هنا، ومع ذلك ثمة اعترافٌ بالطبيعة المعرفية للعلم الجديد.

أما أولئك الذين يقفون ضد التركيز على أوروبا، ويعدّون ذلك انحيازاً مقيتاً، فإنهم يواجهون مشكلة: كانت الثورة العلمية، بكل المقاييس العلمية، ترتكز كلياً على

(١) Kuhn, Structure of Scientific Revolutions.

(٢) Henry, Scientific Revolution, p. 74.

(٣) Shank, Newton Wars, p. 239.

أوروبا. نلاحظ، بشكلٍ يثير الدهشة أن نسبةً كبيرةً من الشخصيات الرئيسة – حوالى ٨٠ بالمئة – قد نشأت في مساحة سداسية الشكل تحدّها غلاسكو، كوبنهاغن، كراكوف، نابولي، مرسيليا، وبلايموث، علماً أن كل الشخصيات المتبقية تقريباً وُلدت ضمن مئة ميلٍ بعيداً عن تلك المساحة[١]. كان التقدم العلمي العثماني، وعلى النقيض من ذلك، غير موجودٍ بالمرة في تلك الفترة ذاتها. كان أفضل تفسير لهذا التباين يكمن في السيادة غير المحدودة للدِّين في العالم الإسلامي. بدأ رجال الدِّين البارزون يجادلون مع نهاية القرن الحادي عشر بأن دراسة الفلسفة اليونانية أمرٌ لا يتوافق مع تعاليم القرآن[٢]. كان من الكفر مجرد الإيحاء بأن الإنسان يُمكن أن يكون قادراً على فهم النمط المقدّس لعمل الكائنات الحية، الذي يُمكن لله أن يغيّره على أي حال. قال أبو حامد الغزالي وهو مؤلف كتاب **تهافت الفلاسفة**: «يندر أن ينغمس الإنسان في هذا العلم [الأجنبي] من دون أن يتخلى عن الدِّين وعن أعنّة التقوى فيه»[٣]. قضى نفوذ رجال الدِّين بتقليص [أو تحريم] دراسة الفلسفة القديمة، فأُحرقت الكتب، ولوحق ما أُطلق عليهم وصف المفكرين الأحرار وركزت المدارس الإسلامية على دراسة اللاهوت بشكلٍ خاص. جرى ذلك في وقتٍ وسّعت فيه الجامعات الأوروبية مجال دراساتها[٤]. يُضاف إلى ذلك أن العالم الإسلامي قاوم فكرة وجود المطابع، واعتبر العثمانيون أن المخطوطات تحظى بتقديرٍ خاص، كما كانوا يفضلون الخط اليدوي على إنتاج المطابع. وصل الأمر إلى حد اعتبار أن «حبر العلماء أغلى من دماء الشهداء»[٥]. أصدر السلطان سليم الأول مرسوماً في العام ١٥١٥ هدّد فيه بإنزال عقوبة الموت بكل من يُقبض عليه مستخدماً مطبعة[٦].

(١) Murray, Human Accomplishment, esp. pp. 257f., 297f. See also Basalla, 'Spread of Western Science'.

(٢) Smith, 'Science and Technology'. Cf. Clark, 'Aristotle and Averroes'.

(٣) Deen, Science under Islam, pp. 122ff.; Huff, Rise of Early Modern Science, p. 92.

(٤) Huff, Rise of Early Modern Science, p. 75.

(٥) Deen, Science under Islam, pp. 4f.; Faroqhi, Subjects of the Sultan.

(٦) Mansel, Constantinople, p. 45.

تبيّن لاحقاً أن هذا العجز عن التوفيق بين الإسلام والتقدم العلمي كان كارثياً. وجد العلماء المسلمون أنفسهم معزولين عن تطورات البحث العلمي بعد أن زوّدوا العلماء الأوروبيين الأفكار ذات يوم. يمكننا القول إنه إذا كانت الثورة العلمية نتيجة شبكة مترابطة [فيما بينها] فإن الأمبراطورية العثمانية كانت خارج تلك الشبكة. كان الكتاب الغربي الوحيد الذي تُرجم إلى لغةٍ شرق أوسطية حتى أواخر القرن الثامن عشر كتاباً طبياً عن معالجة داء الزهري[١].

إن مصير المرصد الذي شُيّد في سبعينيات القرن السادس عشر في إسطنبول ليكون مركزاً للعالِم القدير تقي الدين الراصد (تقي الدِّين) هو أفضل ما يوضح لنا هذا التباين. وُلد تقي الدِّين في سوريا في العام ١٥٢١، وتلقى العلم في دمشق والقاهرة، وكان عالِماً موهوباً، كما ألّف بحوثاً عديدة في علم الفلك، والرياضيات، والبصريات. صنع هذا العالِم ساعاته الفلكية الدقيقة بنفسه، حتى أنه أجرى تجارب على قوة البخار. نجح تقي الدِّين، بصفته الفلكي الخاص للسلطان، في الدعوة إلى إنشاء مرصد. كان دار الرصد الجديد منشأةً متطورة من كل الأوجه، وكان يضاهي المرصد الأكثر شهرة الذي أقامه داين تايكو براهي في يورانيبورغ. أدت مشاهدة أحد المذنبات في ١١ أيلول من العام ١٥٧٧ فوق سماء إسطنبول إلى توجيه دعوات من أجل تفسير فلكي لهذا الحدث. لكن تقي الدِّين تسرّع عندما فسّره على أنه بشيرٌ بنصرٍ عسكري عثماني وشيك. لكن شيخ الإسلام قاضي زاده، وهو أرفع رجل دين في ذلك الوقت نجح في إقناع السلطان بأن تفحّص تقي الدين لأسرار السموات كان عملاً يدل على الكفر، أي مثل ما هي جداول الكواكب التي أعدّها أولوغ بيغ، الفلكي من سمرقند الذي ربما قُطع رأسه لقاء عملٍ متهورٍ كهذا. أمر السلطان بهدم المرصد في شهر كانون الثاني من العام ١٥٨٠، أي بعد مضي ما لا يزيد على

(١) Lewis, What Went Wrong?, p. 43.

خمس سنوات مضت على إتمام تشييده[1]. لم تشهد إسطنبول مرصداً آخر حتى العام ١٨٦٨. نجح رجال الدِّين المسلمون في القضاء، بفاعلية، على فرص التقدم العلمي في الأمبراطورية العثمانية. كانت الكنائس المسيحية في أوروبا في هذا الوقت تخفف قبضتها على البحث الحر. اعتبرت إسطنبول خطوات التقدم الأوروبي مجرد «تفاهات»[2]. أما إنجازات [علماء] الإسلام في بيت الحكمة التي كانت تحظى بتقديرٍ كبير فقد تلاشت وراء سحابة من التقوى. كان تفسير كبير المعلمين، حسين فقي تاماني، في **معهد المهندسين الجديد** Muhendishane-i Cedide للكون في مطلع القرن التاسع عشر، يجري على النحو الآتي: «إن الكون في مظهره هو كرة تقع الأرض في مركزها... أما الشمس والقمر فيدوران حول هذه الكرة ويتحركان حول علامات البروج»[3].

كان الحكام في أنحاء أوروبا يشجعون العلم بقوة، وذلك بالرغم من انزعاج رجال الدِّين في النصف الثاني من القرن السابع عشر، هذا بينما كان خلفاء عثمان في حالة من الجمود. تسلمت الجمعية الملكية لتحسين المعارف الطبيعية في لندن عقدها الملكي من الملك تشارلز الثاني. كان الهدف من هذه الجمعية هو تأسيس مؤسسة «من أجل تشجيع التعلّم التجريبي الفيزيائي – الرياضي». قال أول مؤرخ للجمعية إن المؤسسين:

قبلوا عن طيب خاطر رجالاً من مختلف الأديان، والبلدان، ومن مختلف المهن في الحياة. كانوا ملزمين أن يفعلوا ذلك وإلا لكانوا يقصّرون عن الوفاء بالالتزامات التي التزموها في إعلان التأسيس. إنهم يصرّحون بأنهم لا يريدون إرساء فلسفة إنكليزية، أو أسكتلندية، أو إيرلندية، أو بابوية أو بروتستانتية، بل فلسفة للجنس

(١) Barkey, Empire of Difference, pp. 232f.; I'hsanoglu, Science, Technology and Learning, p. 20. See also Mansel, Constantinople, p. 46; Vlahakis et al., Imperialism and Science, p. 79.

(٢) I'hsanoglu, Science, Technology and Learning, p. 4.

(٣) Barkey, Empire of Difference, p. 233.

البشري... تمكّن المؤسسون من تطبيع رجالٍ من كل البلدان، وهكذا ضمنوا بدايات بعض المنافع للمستقبل. سيتمكّن المؤسسون بهذه الوسيلة من توطيد تفاهم مستمر بين كل الأمم المتمدنة، ومن جعل الجمعية الملكية مجتمعاً عاماً والمنبر الحر للعالم(١).

تأسست في باريس بعد مرور أربع سنوات **الأكاديمية الملكية للعلوم**، وكان القصد منها في البداية أن تكون مركزاً رائداً لفن رسم الخرائط(٢). تحولت هاتان الأكاديميتان إلى نماذج لمؤسسات مشابهة تأسست في كل أنحاء أوروبا. كان **كريستوفر رين** من بين مؤسّسي الجمعية الملكية، وكان مهندساً معمارياً، ورياضياً، وعالِماً، وفلكياً. كلّف تشارلز الثاني في العام ١٦٧٥ **رين** تصميم المرصد الملكي في غرينيتش، لكنه بالتأكيد لم ينتظر منه توقّع نتائج المعارك. فهم الملك أن العلم الحقيقي هو لمصلحة الأمة.

إن ما جعل الجمعية الملكية في منتهى الأهمّية لم يكن الرعاية الملكية بقدر ما كان حقيقة أنها كانت جزءاً من نوع جديد من المجتمع العلمي، وهو الأمر الذي سمح للأفكار بالانتشار، وللمشاكل بأن تُعالج بصورةٍ جماعية من خلال عملية من المنافسة المفتوحة. كان قانون الجاذبية هو النموذج التقليدي، وهو القانون الذي كان نيوتن عاجزاً عن صوغه لولا الجهود السابقة التي بذلها **هوك** من قبله. كانت الجمعية التي أصبح نيوتن رئيساً لها في العام ١٧٠٣ مركزاً في هذه الشبكة العلمية الجديدة. لا أريد القول إن العلم الحديث كان تعاونياً في العالم، أو هو الآن كذلك. كان الطموح بقدر ما كان الإيثار هو الذي يحفّز العلماء. يُمكن للمعرفة العلمية أن تنمو على نحو تراكمي بسبب ضرورة نشر الاكتشافات الجديدة، وإن كان ذلك ترافق أحياناً مع بعض الحدّة. تجادل نيوتن وهوك بمرارة بشأن من كان أول من حدّد

(١) Sprat, History of the Royal Society, pp. 63f.

(٢) FernÜndez-Armesto, Pathfinders, p. 281.

قانون العلاقة العكسية للجاذبية، أو حول الطبيعة الحقيقية للضوء[1]. كما تجادل نيوتن بمرارةٍ مماثلة مع ليبنز الذي عدّ الجاذبية «ذات ميزة غامضة»[2]. يوجد هنا خط انقسام فكري هام بالفعل بين الفكر الميتافيزيقي [ما وراء الطبيعة] في القارة، والممارسة التجريبية للجزر البريطانية. لم يكن مستغرباً، والحالة هذه أن تكون هذه الأخيرة بمعارفها المميزة التي تكونت من خلال التفكير التجريبي والملاحظة الدائبة، مصدراً للتقدم التقني الذي ما كانت الثورة الصناعية لتحدث لولاه (أنظر الفصل الخامس)[3]. لقد بدأ هذا الخط مع قوانين نيوتن، وصولاً إلى محرك نيوكومين البخاري، الذي استُخدم لأول مرة من أجل إفراغ مناجم وايتهافين في العام ١٧١٥. كان المحرّك قصيراً جداً ومستقيماً بشكلٍ كبير، وذلك برغم كون نيوكومين تاجر حديد متواضعاً من دارتموث[4]. هل هي مصادفة أن تكون ثلاثة من أهمّ الابتكارات في العالم – المحرّك البخاري الذي أدخل جايمس واط تحسيناتٍ عليه (١٧٦٤)، وكرونوميتر جون هاريسون الذي يحدّد خط الطول (١٧٦١)، والحاجز المائي الذي ابتكره ريتشارد آركرايت (١٧٦٩) – قد اختُرعت كلها في البلد ذاته، وفي العقد ذاته من السنين؟

تُوفّي نيوتن في آذار من العام ١٧٢٧، لكن جثمانه ظل مسجىً مدة أربعة أيام في دير وستمنستر، كما تم الاحتفال بالصلاة عن نفسه بينما كان نعشه محمولاً على أكتاف دوقين، وثلاثةٍ من النبلاء، وكبير القضاة الإنكليز. شهد فولتير مراسم الصلاة على الجنازة، وقد دُهش لمقدار التبجيل الذي أُغدق على عالمٍ من عامة الشعب. كتب ذلك الفيلسوف الشهير لدى عودته إلى فرنسا: «رأيت أستاذاً للرياضيات يُدفن مثل الملوك، لا لسببٍ إلا لأنه كان عظيماً في مجال عمله، ولأنه أبلى بلاءً حسناً

(١) Gribbin, Fellowship, pp. 253f.

(٢) Hall, Philosophers at War.

(٣) Stewart, Rise of Public Science, p. 258.

(٤) Allen, Steam Engine; Allen, 1715 and Other Newcomen Engines.

في مواده». يعني ذلك أن العلم والحكومة في الغرب دخلا في شراكة. كان أفضل من جسّد منافع تلك الشراكة هو فريدريك الكبير أمبراطور بروسيا الذي كان صديقاً لفولتير.

عثمان وفريتز

جسّد رجلان الفجوة المتزايدة بين الحضارة الغربية ومنافستها الإسلامية في الشرق الأدنى، وذلك بعد مرور سبعين سنة على حصار فيينا. حكم السلطان عثمان الثالث بشيءٍ من الإهمال أمبراطورية عثمانية كانت تسير على طريق الانحطاط، هذا في وقتٍ أجرى فريدريك الكبير، الذي كان يحكم من بوتسدام، إصلاحاتٍ جعلت أمبراطورية بروسيا نموذجاً مثالياً للفاعلية العسكرية والعقلانية الإدارية.

بدت الأمبراطورية العثمانية من بعيد مدهشة بوصفها حكماً أوتوقراطياً، أي كما كانت في عهد سليمان الكبير. كانت الأمبراطورية في واقع الأمر مصابة بمشاكل بنيوية حادة بدءاً من منتصف القرن السابع عشر والعقود التي تلت ذلك التاريخ. جابهت الأمبراطورية أزمة مالية حادة نتيجة الإنفاق الذي فاق كثيراً عائدات الضرائب، وجابهت كذلك أزمة نقدية مستوردة من العالم الجديد، وهي الأزمة التي تفاقمت بعد تقليص عمليات سكّ النقود، كما أدت إلى رفع الأسعار (الأمر الذي حدث في أوروبا كذلك)[1]. جهد رئيس الوزراء محمد كوبرولو، وابنه أحمد، وابنه بالتبني سيئ الحظ، كارا مصطفى، في عملية تغطية النفقات الباهظة لبلاط السلطان، ولكبح جماح الانكشارية، وهم جنود المشاة العثمانيون (كانوا يبقون بدون زواج) الذين تحولوا إلى جماعة مستقلة، وكانوا يتبعون قوانينهم الخاصة ويحكمون المقاطعات الأمبراطورية الأكثر بعداً. كان الفساد متفشّياً في ذلك الوقت، وذلك مع ازدياد نفوذ القوى الساعية إلى الانفصال. أما نفوذ الإقطاعيين من أصحاب الأراضي فقد أخذ

(١) Goldstone, Revolution and Rebellion, p. 367. Cf. Gerber, 'Monetary System'; Pamuk, 'Prices'.

بالتقلص. شرع المتمرّدون celali في الأناضول في تحدي السلطة المركزية، كما نشأ صراع ديني بين رجال الدِّين المتشدّدين مثل قاضي زادة محمد، وهو الذي اعتبر أن تراجع العثمانيين كان نتيجة الابتعاد عن تعاليم النبي[١]، والزهّاد الصُّوفيين من أمثال سيواسي أفندي[٢]. امتلكت الطبقة البيروقراطية العثمانية فيما مضى عدداً كبيراً من العبيد (وفق نظام الرق devsirme)، وهم الذين كانوا يؤسرون في العادة من المجتمعات المسيحية في البلقان. لكن سرعان ما بدا أن التعيين والترقية في مناصب الدولة يعتمدان على الرشوة والمحاباة بدلاً من الكفاءة. زادت نسبة التململ بصورة كبيرة مع تدافع الناس سعياً وراء التعيينات[٣]. يمكن للمرء أن يتتبع المعايير الإدارية في سجلات الحكومة العثمانية. كان إحصاء العام ١٤٥٨ وثيقةً دقيقة في هذا المجال، أما السجلات المماثلة العائدة إلى العام ١٦٩٤ فقد كانت رديئة إلى حدٍ كبير، وذلك بعد أن امتلأت بالكلمات المختصرة والشطب[٤]. أدرك المسؤولون العثمانيون هذا التدهور الحاصل، لكن العلاج الوحيد الذي تمكّنوا من التوصية به كان العودة إلى الأيام القديمة والحسنة لسليمان الكبير[٥].

ربما كانت المشكلة الأكثر خطورة هي تدني نوعية السلاطين أنفسهم. كانت نسبة تعاقب الحكام عالية جداً، إذ تعاقب تسعة سلاطين على الحكم بين عام ١٥٦٦، أي عندما توفي سليمان الكبير وعام ١٦٤٨، وهو تاريخ وصول محمد الرابع إلى العرش. تعرّض خمسة من هؤلاء السلاطين للخلع عن العرش بينما تعرض اثنان آخران للإغتيال. كان نظام تعدد الزوجات يعني أن سلاطين بني عثمان لم يعانوا الصّعوبات التي عاناها الملوك المسيحيون مثل هنري الثامن، الذي أدت به مساعيه للحصول على وارث ذكر إلى الزواج بست نساء، لكنه أعدم اثنتين منهن، وطلّق اثنتين. أما

(١) Goffman, Ottoman Empire and Early Modern Europe, p. 119.

(٢) Shaw, History of the Ottoman Empire, p. 207.

(٣) Lewis, Middle East, p. 126. See also Goldstone, Revolution and Rebellion, pp. 378f.

(٤) Lewis, Modern Turkey, p. 23.

(٥) Coles, Ottoman Impact, p. 163.

في إسطنبول فكون المرء ابناً لأحد السلاطين كان أمراً خطراً جداً. كان يُمكن لواحدٍ من هؤلاء الأولاد أن يصبح سلطاناً، وهكذا كان الأبناء الآخرون يُشنقون من أجل ضمان عدم المزاحمة على تولي العرش. استمر هذا الإجراء حتى العام ١٦٠٧. لم تكن هذه العادة وصفة حميدة للمحبة بين الأشقاء، لكن مصير مصطفى، وهو الابن الأكبر الموهوب لسليمان لم يكن نسيج وحده. تعرض مصطفى للاغتيال في خيمة والده نتيجة نجاح الدسائس التي قامت بها الزوجة الثانية للسلطان، وزوجة أبيه، في تكريس وراثة العرش لولديها. شُنق ابن آخر للسلطان، هو بايزيد. أما اعتلاء محمد الثالث العرش في العام ١٥٩٧ فكلّف مقتل تسعة عشر من أشقائه. أما بعد العام ١٦٠٧ فقد تم التخلّي عن هذه الممارسات عقب الاتفاق على اعتلاء الابن البكر عرش الأمبراطورية. جرت العادة منذ ذلك الحين أن يتم عزل الأبناء الأصغر سناً في بيت الحريم – النساء المحرمات بالمعنى الحرفي – وهو المكان الذي تسكنه زوجات السلطان، والمحظيات، والأولاد[1].

إن الاكتفاء بوصف بيئة الحريم على أنها غير صحية هو أمر لا يفي بالغرض. تسلّم عثمان الثالث مقاليد السلطنة وهو في السابعة والخمسين من عمره، وذلك بعد أن أمضى السنوات الواحدة والخمسين السابقة سجيناً بين أسوار الحريم. لم يكن عثمان عند خروجه من الحريم على علم بأي شيء يجري في السلطنة التي ينبغي له أن يحكمها. بلغ كره عثمان للنساء حدّاً تعوّده انتعال حذاءٍ ذي كعبٍ حديدي. كان من واجب النساء في بيت الحريم الابتعاد عن طريقه عند سماعهن وقع خطواته. لم تكن فترة نصف قرن من السكن بين المحظيات أفضل إعداد بالنسبة إلى شخصٍ سيتولى السلطة. أما الحياة الملكية فقد كانت مختلفةً جداً في البلاد التي تقع إلى الشمال من البلقان.

أورد فردريك الكبير في العام ١٧٥٢ في أولى الوثيقتين السياسيتين اللتين كتبهما للأجيال القادمة: «الحاكم هو المواطن الأول في الدولة، وهو يتلقى راتباً جزلاً لكي

(١) Mansel, Constantinople, pp. 86–96; Goodwin, Lords of the Horizons, p. 168.

يحافظ على كرامة منصبه. لكن يُطلب إليه في المقابل أن يعمل بفاعلية من أجل رفاهية الدولة»[1]. عبّر والد جده فردريك وليام، وهو عضو الهيئة الناخبة للأمبراطور، عن مشاعر شديدة الشبه بهذه، وهو صاحب إنجاز تحويل **مارك براندنبورغ** إلى أكثر الدول المحكومة بصراحة في وسط أوروبا، وهي الدولة التي اعتمدت ماليتها على الإدارة الفعالة لأملاك المملكة العامة التي يعتمد نظامها الاجتماعي على طبقة أصحاب الأراضي، كما اعتمد أمنها على جيش من الفلاحين جيد التدريب. كانت مملكة فردريك وليام عند اعتلاء ابنه العرش بوصفه «ملك في بروسيا» في العام ١٧٠١، أقرب صورة لدولة موجودة عن أفضل نموذج للملكية المطلقة، وهو النموذج الذي وضعه المنظّر السياسي الإنكليزي توماس هوبس على اعتبار أنه نقيض الفوضوية. كانت تلك مملكة كبيرة، فتية ومرنة.

كان مقرّ فردريك الكبير في بوتسدام، وهو المكان المفضل لديه، على النقيض تماماً من النظام العثماني. صمّم الملك نفسه ذلك المقر فكان أقرب إلى منزلٍ كبير منه إلى القصر. كان الملك صاحب القصر في منتهى الرزانة والجدية على الرغم من إطلاقه اسم **سان سوسي** «دار الهناء» على مقره. أعلن الملك: «ليست لدي اهتمامات غير مماثلة لما لدى شعبي. أما إذا تضاربت اهتماماتي مع اهتمامات الشعب فإنني أعطي الأولوية لخير هذه البلاد ومصالحها».

كان التصميم البسيط لسان سوسي بمنزلة نموذج لسائر البيروقراطيين في بروسيا. أما الانضباط الذاتي الصارم، والروتين الحديدي، والنزاهة المتناهية، فكانت كلها شعارات تلك الطبقة. احتفظ فردريك بحاشية صغيرة في سان سوسي: ستة رجال من المشاة، وخمسة من المشاة النظاميين، واثنين من السُّعاة، لكنه لم يحتفظ بأي من الخدم بسبب بساطة مجموعته من الملابس التي كان يتألف معظمها من الأزياء العسكرية العادية التي كانت ملطّخة «بالعطوس». لم تكن الأثواب الملكية عمليةً

(١) Clark, Iron Kingdom, p. 240.

بحسب رأي فردريك، أما التاج فلم يكن سوى «قبعة تتسرب منها مياه المطر»[١]. كانت حياته أشبه بحياة راهب مقارنة بحياة نظيره الذي يسكن قصر توبكابي. كانت له زوجة واحدة (إليزابيت كريستين من برونزويك) بدلاً من طائفة من الحريم. شعر الأمبراطور بالمقت تجاه زوجته، وهو الذي استقبلها بعد إحدى فترات الانفصال العديدة التي كانت تحدث بينهما بهذه العبارة: «زدتِ سمنةً يا سيدتي»[٢]. تُظهر السجلات الحكومية التباين الشديد كذلك. إن تفاصيل سجلات الحكومة الملكية البروسية، التي تتضمّن صفحة في إثر صفحة من القرارات الملكية المسجلة بدقة، هي التي تمثّل نقيض الوثائق الحكومية العائدة إلى الأمبراطورية في القرن الثامن عشر.

كتب الشاعر لورد بايرون ذات مرة إلى أحد أصدقائه: «إن العادات السيئة الشائعة في إنكلترا هي بنات الليل وشرب الكحول، أما في تركيا فهي الممارسات الشاذة والتدخين. إننا نفضّل الحصول على فتاة وزجاجة شراب، أما هم فيفضلون الغليون والممارسات الشاذة...» لكن المفارقة هنا تكمن في أن فردريك الكبير، وهو رائد الاستبداد التنويري، كان يُمكن أن يكون مسروراً أكثر في البلاط العثماني عندما كان شاباً. كان الرجل في منتهى الحساسية، ولعله كان مثقفاً شاذاً، كما تحمّل تعليماً قاسياً وهو الذي كان سادياً في بعض الأحيان بتوجيه من والده فردريك وليام الأول الذي كان سريع الغضب ومحباً للاستعراضات.

أما عندما كان فردريك وليام يسترخي مع رفاقه ذوي الطباع الفظة والمحبين لشرب الكحول في «وزارة التبغ»، فكان ابنه ينشد العزاء في التاريخ، والموسيقى، والفلسفة. عدّه والده المحب للانضباط «ولداً مخنّثاً، يفتقد أي ميلٍ ذكوري، ولا يمكنه امتطاء الخيل ولا إطلاق النار، ذو شخصية ضعيفة وقذرة، لا يحلق شعره أبداً

(١) T. R. Ybarra, 'Potsdam of Frederick the Great -- After William II', New York Times, 10 September 1922.

(٢) Clark, Iron Kingdom, p. 189.

بل يسرّحه بشكل ضفائر فيبدو مثل الأغبياء»[1]. أما عندما قُبض على فردريك في أثناء محاولته الفرار من بروسيا فقد أمر والده بسجنه في قلعة كوسترين، كما أجبره على مشاهدة عملية قطع رأس صديقه هانز هيرمان فون كاتي، الذي ساعده على وضع خطة الهرب. وقد تُركت جثة صديقه ورأسه المقطوع على الأرض خارج حجرة ولي العهد[2]. وبقي الأمير في أسره في كوسترين مدة عامين.

لم يتمكن فردريك مع ذلك من تجاهل حماسة والده للجيش البروسي، كما سعى لتحسين مهاراته العسكرية بصفته عقيداً في كتيبة غولتز (بعد إطلاقه من السجن). تبيّن أن هذه المهارات ضرورية عندما جهد في التعويض عن موقع بروسيا الجغرافي الضعيف، وهي البلاد التي امتدت عبر وسط أوروبا. زاد فردريك من حجم الجيش الذي ورثه من ٨٠,٠٠٠ إلى ١٩٥,٠٠٠ رجل، الأمر الذي جعله ثالث أكبر جيشٍ في أوروبا. كانت بروسيا أكثر البلدان عسكرةً في العالم عند نهاية عهد فردريك في العام ١٧٨٦، وذلك مع وجود جندي واحد لكل تسعة وعشرين مواطناً[3]. كان فردريك، على عكس والده، مستعداً لنشر جيشه إلى ما يتجاوز ميدان الاستعراض، وذلك سعياً وراء كسب أرضٍ جديدة. أدهش الأمبراطور القارة بعد مرور أشهرٍ على اعتلائه العرش في العام ١٧٤٠، وذلك عندما غزا مقاطعة سيليزيا الغنية في النمسا واحتلها. تحوّل ذلك الشاب الحسّاس والمحب للجمال، الذي جهد ذات مرة في البقاء فوق صهوة حصانه، وهو الذي كان يفضّل صوت الناي على قرقعة النعال، إلى فنان في ممارسة السلطة: der alte Fritz.

كيف يُمكن للمرء تفسير هذا التحول؟ يمكننا إيجاد دلالة واضحة في الكتاب الذي ألّفه فردريك في وقت سابق عن الفلسفة السياسية التي وردت في **نقيض مكيافيلي** وهو واحد من عدة مؤلفات ملكية تفند ما كتبه ذلك الكاتب من فلورنسا،

(١) Chakrabongse, Education of the Enlightened Despots, pp. 52f.

(٢) Fraser, Frederick the Great, pp. 29f.

(٣) Clark, Iron Kingdom, p. 215.

نيكولو مكيافيلي، في كتابه **الأمير** ليكون دليلاً شهيراً للحكّام، وإن كان يحمل بعض التهكّم في طياته. يدافع فردريك في كتابه عن حق الملك في شن حربٍ وقائية «عندما تبدأ قوة الدول العظمى في أوروبا بالخروج من داخل حدودها لتغمر العالم». يعني ذلك أنه من أجل الحفاظ على توازن القوى، «ذلك التوازن الدقيق الذي تتمكن القوى الموحدة للممالك الأخرى بواسطته من موازنة قوة عظمى لأحد الملوك»: «من الأفضل... شنّ حرب هجومية عندما يكون المرء حراً في الاختيار بين غصن الزيتون وإكليل الغار، بدلاً من انتظار الأوقات العصيبة التي تفرض عليه إعلان الحرب من أجل تجنّب العبودية والدمار بشكلٍ موقت»[١]. وصف فردريك بولندا في وقتٍ لاحق أنها، «ثمرة أرضي شوكي جاهزة للاستهلاك ورقةً في إثر ورقة»، وهو التهمها بحسب الأصول عندما قُسّمت البلاد بين النمسا، وبروسيا، وروسيا[٢]. لم يكن احتلال فردريك لسيليزيا مغامرة وليدة اللحظة لكل تلك الأسباب. كان توسّع بروسيا صورة معكوسة للانكماش العثماني: الوصول إلى نوعٍ جديد من السلطة يكون مستنداً إلى عقلانية شرسة.

تمكّن **فردريك وليام الأول** من جمع مبالغ كبيرة من المال، وتمكّن من الحصول على كل قرشٍ من مناطق أمبراطوريته، وهكذا سلّم وارثه صندوقاً يحتوي على ثمانية ملايين **تايلر** [عملة قديمة]. صمّم ابنه على الاستفادة من ذلك الكنز الهائل، ولم يكتفِ بتوسيع المناطق التي يسيطر عليها لكنه أراد إعطاءها رأسمالٍ يليق بمملكة من الدرجة الأولى. كان أول الصروح الفخمة التي أرادها أن تكون مركزاً رائعاً في قلب برلين هو **أوبرا الدولة** State Opera. شيّد بعد ذلك كاتدرائية سان هيدويغ الضخمة. ربما يعتبر السائح غير المكترث هذه الأيام أن هذين الصرحين لا يختلفان كثيراً عن دور الأوبرا والكاتدرائيات التي يراها في عواصم أوروبية أخرى، لكنهما يستأهلان تمحيصاً أكبر. لم ترتبط **دار أوبرا الدولة في برلين** بأي قصرٍ ملكي، وهو

(١) Frederick, Anti-Machiavel, ch. 26.

(٢) Clark, Iron Kingdom, p. 231.

أمرٌ غير مألوف في شمال أوروبا. لم تتأسس هذه الأوبرا من أجل إرضاء ملكٍ بصورة شخصية، لكنها وُجدت من أجل إرضاء جمهورٍ أوسع بكثير. أما كاتدرائية فردريك فكانت إستثنائية بدورها لأنها كنيسة كاثوليكية في مدينةٍ لوثرية، وهي التي شيدها ملك ينتمي إلى جماعة اللاأدرية [الغنُّوصية]، وتعمد أن لا يجعلها في ضواحي المدينة بل في قلب أفخم باحةٍ في المدينة. أما الرواق المعمّد للكاتدرائية فهو مصمّمٌ، عمداً، على شاكلة البانثيون، وهو هيكل مخصّص لكل **الأسياد**، وهو يقع في روما القديمة[1]. تبقى الكاتدرائية شاهدةً على التسامح الديني الذي تميّز به فردريك الكبير.

تُعدُّ المراسيم التي أصدرها فردريك عند توليه العرش مذهلةً حتى هذه الأيام: لا يقتصر الأمر على تسامح ديني تام، بل يشمل حرية مطلقة للصحافة وانفتاحاً على المهاجرين. كان كل مواطنٍ من أصل خمسة يعيشون في برلين في العام ١٧٠٠، فرنسياً من **الهوغونو** [البروتستانت]، كما عاش هؤلاء فيما يشبه «مستعمرة» فرنسية. كان هناك في المدينة كذلك مواطنون بروتستانت من سالزبورغ، ووالدينيون Waldensians [طائفة دينية منشقّة عن كنيسة الروم الكاثوليك]، والمينونيت [من البروتستانت]، وأتباع الكنيسة المشيخية الأسكوتلندية، واليهود، والكاثوليك، والمتشككون دينياً. أعلن فردريك شاملاً المسلمين: «يمكن لأي شخص هنا أن يبحث عن الخلاص بالطريقة التي تناسبه»[2]. صحيح أنه كان يُنظر بتسامح إلى اليهود والمسيحيين في السلطنة العثمانية، لكن بمعنى أنه باستطاعتهم العيش فيها. لكن أوضاعهم كانت أقرب إلى أوضاع اليهود في أوروبا في أثناء العصور الوسطى، أي إنه كان عليهم البقاء في مناطق محدّدة، وممارسة وظائف محدّدة، كما أنهم كانوا يدفعون ضرائب أعلى[3].

(١) Ibid., pp. 241f.

(٢) Haffner, Rise and Fall of Prussia, pp. 37, 43f.

(٣) Gerber, 'Jews and Money-Lending'. See also Quataert, Manufacturing and Technology Transfer.

انتعشت بروسيا نتيجة الحرية ووجود الأجانب فيها، كما شهدت ازدهاراً ثقافياً دلّ عليه تأسيس جمعياتٍ جديدة للقراءة. وكذلك شهد عهد فردريك موجة نشر كتب جديدة باللغة الألمانية، وذلك بالرغم من أن الملك أعلن أنه يكتب باللغة الفرنسية، ويكره الألمانية ولا يتحدث بها إلا أمام حصانه. ظهر عمانوئيل كانط في عهده كأعظم فيلسوفٍ في القرن الثامن عشر، وهكذا كان كتابه **نقد العقل الخالص** الذي صدر في العام ١٧٨١، والذي بحث فيه طبيعة العقل الإنساني ذاته، ومحدوديته. أظهر كانط من خلال سكنه وعمله طوال حياته في جامعة آلبرتينا في كونيغزبيرغ أنه أكثر صرامةً حتى من مليكه. كان كانط يشرع في نزهته اليومية بدقة متناهية إلى حد أن السكان كانوا يضبطون ساعاتهم على ميقات مروره. لم يكترث فردريك قط لكون ذلك المفكّر العظيم هو حفيد صانع سروجٍ أسكتلندي، بل كان كل ما يهمه هو عقله وليس مكان ولادته. لم يكترث فردريك كذلك لكون أحد المفكّرين الذين يماثلون كانط في العظمة، وهو موسى مندلسون، يهودياً. عدّ الملك، بقليلٍ من التهكّم، أن المسيحية «ملأى بالمعجزات والتناقضات والسخافات، كما أنها زُرعت أولاً في مخيلة الشرقيين المتحمّسين ثم امتدّت إلى موطننا أوروبا حيث اعتنقها بعض المتعصّبين، كما أن بعض الأشخاص تظاهروا بأنهم اقتنعوا بها، وآمن بها فعلاً بعض البسطاء»[١].

نشأت هنا بذرة الحركة التي نعرفها اليوم باسم **التنوير**، والتي كانت امتداداً بطرائق عديدة، وإن لم يكن كلياً، للثورة العلمية. كانت الفروق مضاعفة.

أولاً، كانت دائرة الفلاسفة أكبر. إن ما كان يحدث في بروسيا كان يحدث في كل أنحاء أوروبا: فناشرو الكتب، والمجلات، والصحف خدموا سوقاً أكثر اتساعاً، وذلك بفضل تحسنٍ كبير في نسب معرفة القراءة والكتابة. ارتفعت نسبة الرجال القادرين على توقيع أسمائهم ـ وهي دلالة كافية على تلك المعرفة – من ٢٩ بالمئة في ثمانينيات القرن السابع عشر إلى ٤٧ بالمئة في ثمانينيات القرن الثامن عشر،

(١) Clark, Iron Kingdom, p. 187.

وذلك بالرغم من أن تلك النسب بين النساء بقيت منخفضة جداً (من ١٤ بالمئة إلى ٢٧ بالمئة). أما في باريس فإن نسبة الذين كانوا يحسنون القراءة والكتابة بين الذكور في العام ١٧٨٩ كانت ٩٠ بالمئة، أما تلك النسبة بين النساء فكانت ٨٠ بالمئة. ساهمت عوامل عديدة في مضاعفة مقدرة الأوروبيين على القراءة، وهي عوامل تضمّنت المنافسة بين مؤسسات البروتستانت والكاثوليك، وكذلك مضاعفة المساعدات التي يتلقاها المواطنون من الدولة، والنسب العالية من العمران المُدُني ووسائل النقل المحسّنة. لا يعني ذلك أن عصر التنوير قد انتشر عن طريق القراءة فقط. تضمنت المناسبات العامة في القرت الثامن عشر حفلاتٍ موسيقية منظمة (مثل حفلات آماديوس موزار في فيينا في العام ١٧٨٤)، ومسارح عامة ومعارض فنية جديدة، هذا إذا لم نذكر شيئاً عن الشبكة الثقافية المتطورة والأخويات، مثل جمعيات البنّائين الأحرار [الماسونيين] التي انتشرت كثيراً في ذلك الوقت. كتب الشاعر والمؤلف المسرحي فردريك شيلر بحماسة في العام ١٧٨٤، «إنني أكتب بصفتي مواطناً في هذا العالم»، وقال:

إن الشأن العام يعني لي كل شيء في هذا الوقت – انشغالاتي، ومليكي، وصديقي. إنني أنتمي إليهم من الآن فصاعداً، كما أنوي أن أضع نفسي أمام محكمتهم فقط. إنها الشيء الوحيد الذي أخشاه وأحترمه. ينتابني شعور من العظمة عندما أفكر بأن القيد الوحيد الذي أحمله هو رأي العالم، وبأن العرش الوحيد الذي سألتجئ إليه هو عرش الروح البشري[1].

ثانياً، لم يكن الهمّ الوحيد عند مفكّري التنوير هو الطبيعة، بل العلوم الاجتماعية، وهو ما أطلق عليه الفيلسوف الأسكتلندي دافيد هوم «علم الإنسان». إن مدى علمية عصر التنوير هو أمر ما زال قابلاً للنقاش. لم تكن التجريبية في ذلك الوقت، وفي فرنسا على الخصوص، موضع تقدير. كان فلاسفة القرن الثامن عشر أكثر اهتماماً

(١) Blanning, Culture of Power, pp. 108f.

بتعريف طبيعة المجتمع الإنساني، أو كيف يُمكن لهذا المجتمع أن يكون، أو يجب أن يكون. سبق لنا أن عرضنا كيف أن مونتسيكيو وهو يؤكد أهمّية الدور الذي أداه المناخ في تكوين ثقافة الصين السياسية. أما كويسناي فدُهش لإعطاء الأولوية للزراعة في السياسة الاقتصادية الصينية، كما أن سميث جادل بأن جمود الصين يرجع إلى التجارة الخارجية غير الكافية. لم يذهب أيّ من الرجلين إلى الصين. أما جون لوك وكلود أدريان هلفيتيوس فقد اتفقا على أن العقل البشري يشبه لوحاً نظيفاً، وهو يتكوّن بالثقافة والتجربة. لكن الرجلين لم يقدما دليلاً تجريبياً واحداً على فرضيتهما. كان ذلك، وأشياء كثيرة أخرى، نتيجة التأمل، بالإضافة إلى قدرٍ كبيرٍ من القراءة.

نجح عصر التنوير في تسجيل نقاطٍ سهلة في وضع العقل بإزاء الخرافات التي تترافق مع الإيمان الديني أو الماورائيات. عبّر فردريك الكبير عندما كدّس انتقاداته [أو تهكّمه] ضد المسيحية، وبشكلٍ صريح عما كان يوحيه فولتير، ودافيد هوم، وإدوارد غيبون، وآخرون في كتاباتهم الفلسفية أو التاريخية. وصل التنوير إلى أقصى درجات الفاعلية عندما كان يستخدم أسلوب السُّخرية. عبّر غيبون في فصلٍ ممتع كتبه عن المسيحيين الأوائل (القسم الأول، الفصل ١٥ من كتاب **انحطاط الأمبراطورية الرومانية وسقوطها**) أو في **كانديدا** عن السُّخرية الشديدة التي صبّها فولتير على زعم ليبينز أن «كل شيء هو لخير ما هو أفضل في كل العوالم الممكنة» [*].

مع كل ذلك، ربما تكون أعظم إنجازات تلك الحقبة هو التحليل الذي قدّمه سميث عن المؤسسات المتداخلة في المجتمع المدني (**نظرية المشاعر الأخلاقية**) وعن اقتصاد السوق (**ثروة الأمم**). لكن ما يلفت نظرنا هنا هو أن هذين العملين، وبالمقارنة بالأعمال الأخرى التي كُتبت في تلك الفترة، يستندان بشدة إلى ملاحظة عالم البورجوازيين الاسكتلنديين الذي مكث فيه سميث طوال حياته. لكن في حين

(*) عانى كانديدا، وسونيجوندا والدكتور بانغلوس من ليبينيزيا وكاكامبو في أسفارهم، أو شهدوا الجَلْد، والحروب ومرض الزُّهري، وتحطّم سفينتهم، والشنق، وهزةً أرضية، والعبودية، وأعمالاً شاذةً، والمرض، والموت على يد فرقة إعدام.

كان يجب تضمين «اليد الخفية» للسوق التي تحدث عنها سميث في شبكةٍ من الممارسات الاعتيادية والثقة المتبادلة، فإن الفلاسفة الفرنكوفونيين الأكثر تطرفاً قد سعوا إلى تحدي ليس المؤسسات الدينية فحسب، لكن المؤسّسات السياسية الموجودة كذلك. أما كتاب الفيلسوف السويسري جان جاك روسو **العقد الاجتماعي** (١٧٦٢) فإنه يلقي ظلالاً من الشك على شرعية أي نظام سياسي لا يستند إلى «الإرادة الجماعية». أما نيكولاس دي كاريتات، وهو مركيز كوندورسيه، فقد شكّك في شرعية العمل غير المتمتع بالحرية، وذلك في كتابه **تأملات في عبودية الزنوج** (١٧٨١). أما إذا كان بإمكان ملكٍ بروسي السخرية من الدِّين المسيحي فما هي العوامل التي تمنع الباريسيين hacks من توجيه سهام اللوم إلى ملكهم وملكتهم؟ اجتاح التنوير مناطق واسعة جداً، وامتد من المرتفعات العالية لكونيغسبيرغ، مكان سكن **كانط**، إلى الأعماق الباريسية غير المريحة، وهي موطن [صحف] ما يُسمّى libelles مثل La Gazetier Cuirasse التي كان يحررها تشارلز ثيفينيو دي موران. كان فولتير ذاته مندهشاً بالهجمات البذيئة التي شنتها **الغازيتيه** على الحكومة، ووصفها بأنها «أحد الأعمال الشيطانية بحيث إن الجميع شعروا بالإهانة بدءاً بالملك حتى آخر مواطن»[١].

كانت المفارقة في التأثير الثوري شبه المقصود الذي تركته حركة التنوير تكمن في كونها قضية أرستقراطية إلى حدٍ كبير. كان من بين أبرز مناراتها مركيز دي ميرابو، ومركيز كوندورسيه، وكبير الملحدين بارون دي هولباخ. أما الفلاسفة الذين هم من أصل عادي فقد اعتمدوا بشكلٍ أو بآخر على الرعاية الملكية، أو الأرستقراطية: اعتمد فولتير على مركيز دي شاتاليه، واعتمد سميث على دوق بكليتش، واعتمد فردريك شيلر على دوق ورتمبيرغ، واعتمد دينيس ديدرو على كاثرين الكبيرة.

لم يكتفِ فردريك الكبير، مثله مثل الملوك الأوروبيين الآخرين، بإعطاء المفكّرين حرياتهم الدينية وتحريرهم من القيود الأخرى. بل تضمّنت رعايته ما يتجاوز إعطاء

(١) Darnton, Literary Underground, p. 25.

فولتير سقفاً يؤويه في سان سوسي. دعا فردريك ماوبيرتيوس إلى الحضور إلى برلين للمساعدة على تأسيس مثيلٍ بروسي للجمعية الملكية، وذلك بعد أن أُعجب في شهر حزيران من العام ١٧٤٠ بالتفنيد الذي قدّمه ذلك الرجل الفرنسي لفرضية نيوتن بأن الأرض هي كرة مفلطحة، أي إنها مسطحة قليلاً عند القطبين. عانى هذا المشروع نكسة عندما أُخذ ماوبيرتيوس أسيراً على أيدي النمسويين في حرب سيليزيا الأولى، لكن المشروع استمر بعد ذلك[١]. أما في شهر كانون الأول من العام ١٧٤٤ فقد أنشأ فردريك **الأكاديمية البروسية للعلوم والآداب**، فأدمج بذلك الأكاديمية الملكية للعلوم التي تأسست في وقتٍ سابق **والجمعية الأدبية** غير الحكومية، التي تأسّست قبل سنةٍ من الزمن، كما أقنع ماوبيرتيوس بالعودة إلى برلين لترؤس الأكاديمية. قال الملك لفولتير: «إنها أروع إنجازٍ أتممته في حياتي»[٢].

كان فردريك، من دون أي شك، مفكراً عميقاً في ذاته. أما كتابه **نقيض المكيافيلية** فيُعدُّ وثيقة ثورية هامة نظراً إلى إصرارها على أن دور الملك يتمثّل بصفته خادماً للشعب:

إن الحكمة الرئيسة للحكّام هي فعل الخير، وأن يصبحوا ناجحين في دولهم... لا يكفيهم أبداً القيام بأعمالٍ لامعة وإرضاء طموحهم إلى المجد، بل... يجب عليهم تفضيل سعادة الجنس البشري... ولطالما نسي الأمراء العظام أنفسهم في سبيل الخير العام... إن الملك الذي يدفعه طموحه الشديد إلى خوض الحرب يجب عليه أن يرى كل العواقب الفظيعة التي تنزل برعاياه – الضرائب التي تسحق سكان بلدٍ ما، والرسوم التي تدفع شبانه إلى الرحيل بعيداً، والأمراض المعدية التي يموت بسببها عدد كبير من الجنود بشكلٍ يثير الشفقة، والحصارات القاتلة، والمعارك الأكثر شراسة، والمعوقين الذين يُحرمون من وسائل بقائهم الوحيدة، والأيتام الذين قهر العدو لحمهم ودماءهم... إنهم يضحّون بمصالح عددٍ لا يحصى من الرجال الذين

(١) Terrall, Man Who Flattened the Earth, pp. 181-5.

(٢) Aldington (ed.), Letters of Voltaire and Frederick the Great, p. 179.

يجب عليهم حمايتهم، وذلك على مذبح أهوائهم المتهورة... إن الملوك الذين يعدون رعاياهم بمنزلة عبيد لهم يخاطرون بحياتهم من دون شفقة، ويشاهدونهم يموتون من دون ندم، لكن الأمراء الذين يعدون الرجال أنداداً لهم، وبمعنى ما أسياداً لهم، إنما يضنون بدمائهم، ويبخلون بأرواحهم(١).

تستحقّ مؤلفات فردريك كل تقدير بدورها، وعلى الخصوص منها سوناتة المزمار [الناي] في **سي مايجور**، التي هي ليست مجرد تقليد ليوهان سيبستيان باخ. أما كتاباته السياسية **الأخرى** فكانت أبعد ما تكون عن عمل الهواة. هناك مع ذلك فرق هام بين التنوير كما فهمه هو، والثورة العلمية السابقة له. كانت **الجمعية الملكية** مركزاً لشبكةٍ فكرية مفتوحة على نحو مذهل. أما الأكاديمية البروسية فكانت، في المقابل، مصمّمة لتكون تراتبية من القمة حتى القاعدة، أي إنها مصمّمة على مثال الملكية المطلقة في ذاتها. قال فردريك في **الوصية السياسية** (١٧٥٢): «مثل ما كان يستحيل على نيوتن تخطيط نظام التجاذب الذي وضعه لو كان تعاون مع ليبينز أو ديكارت، هكذا يستحيل وضع النظام السياسي والمحافظة عليه إذا لم يكن من بنات أفكار رجلٍ واحد»(٢). ثمة أمور كثيرة من هذا النوع تمكن روح فولتير من تحمّلها. أسرع فولتير إلى كتابة نقده الساخر بشدة Diatribe du Docteur Akakia, medecin du Pape عندما أساء ماوبيرتيوس إلى سلطة مركزه شبه الملكي من أجل تمجيد المبدأ الذي وضعه عن **التحرك الأقل**. كان ذلك هو السلوك المتمرد بعينه الذي لم يكن بوسع فردريك تحمله. أمر الملك بإتلاف كل النسخ الموجودة من Diatribe، وأعلن بصراحة أن فولتير لم يعد ضيفاً مُرحَّباً به في برلين(٣).

أظهر آخرون ميلاً أكبر إلى الإذعان. كان كانط فلكياً قبل أن يصبح فيلسوفاً، كما

(١) Frederick, Anti-Machiavel, pp. 400–405.

(٢) Terrall, Man Who Flattened the Earth, p. 235.

(٣) Shank, Newton Wars, p. 475; Fraser, Frederick the Great, p. 259.

أنه حاز انتباه الجمهور لأول مرة في العام ١٧٥٤، أي عندما فاز بجائزة الأكاديمية البروسية عن أطروحته التي أعدّها عن تأثير **مقاومة السطوح** في إبطاء دوران الأرض. أعرب الفيلسوف عن امتنانه من خلال مقطع رائع في مقالته المؤثّرة التي حملت عنوان «ما هو التنوير؟» دعا كانط في هذا المقطع كل الناس إلى «اللجوء إلى العقل!» (Sapere aude!)، لكن من دون التمرّد على سيدهم الملكي:

إن المتنوّر وحده... من يمتلك جيشاً شديد الانضباط هو الذي يستطيع أن يضمن السلم العام، وهو وحده الذي يستطيع أن يقول: «جادلوا قدر ما تريدون، وبالأمور التي تريدونها، لكن أطيعوا! لا تجرؤ الجمهورية على مثل هذا القول... تبدو الدرجة الكبرى من الحرية المدنية مفيدة لحرية عقول الناس، لكنها مع ذلك تضع عليها قيوداً حتمية. أما القدر الأقل من الحرية المدنية فهو، وعلى العكس من ذلك يوفر مجالاً للعقل بحيث يتمكّن كل رجل من توسيع آفاقه إلى أقصى طاقته»[1].

يمكننا القول بالمختصر إن التنوير في بروسيا كان يتعلق بحرية الفكر، وليس بحرية التحرك. يُضاف إلى ذلك أن هذا التفكير الحر كان مصمّماً في الأساس بغية تعزيز سلطة الدولة. ساهم المهاجرون في الاقتصاد البروسي وهو الأمر الذي سمح بجمع ضرائب أكبر، مما سمح بدوره بالاحتفاظ بجيشٍ أكبر، مما أدى إلى إخضاع المزيد من الأراضي، وهكذا تمكّنت الأبحاث الأكاديمية من تقديم مساهمة استراتيجية للدولة. فالمعارف الجديدة تستطيع تقديم ما يتجاوز الإضاءة على العالم الطبيعي، وحل ألغاز حركات الأجسام السماوية. كما تمتلك هذه المعارف إمكانية تحديد صعود السلطات الأرضية وهبوطها.

تُعدّ بوتسدام هذه الأيام مجرد ضاحية عادية أخرى من برلين، وهي التي يعلوها الغبار في الصيف، والتي تتجهم سماؤها في الشتاء، أما أفق هذه الضاحية فتحجبه المجمعات السكنية البشعة التي تحمل علامات ألمانيا الشرقية «الاشتراكية الحقيقية

(١) Kant, '«What is Enlightenment?»'.

إنتاجية العمل العسكري في الجيش الفرنسي:

نسبة الطلقات الناجحة لكل جندي من المشاة، ١٦٠٠-١٧٥٠

التاريخ التقريبي	نسبة الرماية الناجحة لكل مسدس (الطلقات بالدقيقة)	المسدسات لكل جندي مشاة	نسبة الرماية الناجحة لكل جندي مشاة (الطلقات بالدقيقة)	فرضيات
(١٦٠٠-١٦٢٠ للمسدسات لكل جندي مشاة)	٠,٥٠	٠,٤٠	٠,٢٠	طلقة واحدة بالدقيقة مع matchlock نسبة الخطأ ٠,٥٠
١٧٠٠	٠,٦٧	٠,١٠٠	٠,٦٧	طلقة واحدة بالدقيقة مع flintlock، نسبة خطأ التصويب ٠,٣٣ النصال إلى استبدال حاملي الحراب
١٧٥٠	٢,٠٠	١,٠٠	٢,٠٠	٣ طلقات بالدقيقة Flintlock، والمدك وخراطيش ورقية، مع نسبة خطأ تصويب ٠,٣٣

الموجودة». أما في عهد فردريك الكبير فكان معظم سكان بوتسدام جنوداً، كما أن معظم أبنيتها كان له علاقة بالجيش بطريقة أو بأخرى. شُيّد متحف الأفلام القائم في هذه الأيام ليكون دفيئة برتقال في الأصل، لكنه تحوّل بعد ذلك إلى اصطبلات لجياد الفرسان. أما إذا سار المرء من خلال وسط المدينة، فسوف يمشي بمحاذاة دار أيتام العسكريين، وميدان الاستعراضات ومدرسة الفروسية السابقة. أما في تقاطع ليندين ستراس وشارلوتين ستراس، وهو التقاطع المليء بمظاهر الزينة العسكرية فقد كان مركزاً سابقاً للحراس من العسكريين. يُلاحظ كذلك أنه حتى المنازل قد شُيدت مع طبقة إضافية في أعلاها لتكون سكناً للعسكريين.

كانت بوتسدام هي بروسيا كاريكاتيرية ومصغّرة، كما لاحظ مساعد فردريك جورج فون بيرينهورست على سبيل الدعابة: «إن المملكة البروسية ليست بلداً يمتلك جيشاً، بل هي جيش يمتلك بلداً يتمركز فيه، كما هو واقع الحال»[١]. لم يعد الجيش مجرد أداة بيد السلالة الحاكمة، لكنه أصبح جزءاً لا يتجزأ من المجتمع البروسي. أما أصحاب الأراضي فيُنتظر منهم الخدمة كضباط في الجيش، في حين أن الفلاحين أقوياء البنية حلّوا مكان المرتزقة الأجانب في صفوف الجيش. كانت بروسيا هي الجيش، والجيش هو بروسيا. كانت نسبة تفوق ٣ بالمئة من سكان بروسيا تحت السلاح، أي ضعف النسبة الموجودة في فرنسا والنمسا.

عدّ الجميع أن التركيز على التدريب والانضباط هو أساس نجاح الجيش البروسي. كان فردريك في هذا المجال الوارث الحقيقي لموريس ناساو، والملك السويدي غوستاف أدولف، وهما سيدا الحروب في القرن السابع عشر. كان جنود المشاة في الجيش البروسي يماثلون في سيرهم دقة عمل الساعة ويقطعون تسعين خطوة كل دقيقة، وكانوا يعمدون إلى تخفيض وتيرة سيرهم حتى تصل إلى سبعين خطوة في الدقيقة عندما كانوا يقتربون من العدو[٢]. حدثت معركة ليوثن في شهر كانون الأول من العام ١٧٥٧، أي عندما كان وجود بروسيا ذاتها مهدداً من قبل تحالف ثلاث قوى هي فرنسا، والنمسا، وروسيا. تصرّف الجيش البروسي بحسب ما هو متوقع منه وفاجأ صفوف النمسويين، ثم هاجمهم في جناحهم الجنوبي واستوعبهم. لكن النمسويين حاولوا إعادة تجميع صفوفهم، إلا أنهم واجهوا شيئاً أخطر بكثير من عدوهم المتقدّم نحوهم، أي المدفعية. كانت قوة النيران شديدة الدقة حاسمةً بالنسبة إلى صعود بروسيا مثل ما كانت الطاعة العمياء التي أبداها جنود المشاة[٣].

---

(١) Clark, Iron Kingdom, p. 215.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٥.

(٣) Palmer, 'Frederick the Great', p. 102.

عدّ فردريك في سنواته الأولى في الحكم المدفعية «بالوعة مصاريف»[١]. لكنه أخذ بعد ذلك في تقدير قيمتها. قال الملك: «إننا نحارب الآن ضد شيء يتجاوز الرجال. يجب علينا أن نفهم جيداً أن نوع الحرب التي سوف نشنّها من الآن فصاعداً سيكون مسألة مواجهة بين أسلحة المدفعية...»[٢] امتلك البروسيون في معركة ليوثين ثلاثة وستين مدفعاً ميدانياً، وثمانية مدافع هاون، بالإضافة إلى عشرة مدافع عيار ١٢ باونداً تُعرف بلقب «هدّارة»، وذلك بسبب دويها الهادر الذي يرافق إطلاقها. أما بطاريات المدفعية التي تجرّها الخيول والتي أنشأها فردريك فقد أصبحت، سريعاً جداً، من المعايير الأوروبية[٣]. إن سرعة نشر هذه البطاريات وتركيزها بدرجةٍ غير مسبوقة كانت أساس الانتصارات التي أحرزها نابليون بونابرت في وقتٍ لاحق.

أعطت أسلحة كهذه نموذجاً عن طريق المعرفة العلمية في مجال القوة العسكرية. كانت تلك عملية منافسة، وابتكار، وتقدّم، وهي التي سرعان ما فتحت فجوةً كبيرة بين الغرب وبقية أنحاء العالم. لكن أبطال هذا التقدم ظلوا خارج دائرة الضوء في الغالب.

وُلد بنيامين روبنز من دون أن يمتلك شيئاً غير فكره. لم يمتلك الرجل وسائل تمكّنه من الالتحاق بالجامعة، فعمد إلى تعلم الرياضيات بنفسه، وما لبث أن حاز شهرة كمعلم خصوصي. انتُخب عضواً في الجمعية الملكية وهو في الحادية والعشرين من عمره، وما لبث أن عيّنته شركة الهند الشرقية ضابط مدفعية ومهندساً عسكرياً. طبّق روبنز في مطلع الأربعينيات من القرن الثامن عشر فيزياء نيوتن على مشكلة المدفعية، كما استخدم المعادلات التفاضلية من أجل تقديم أول توصيف حقيقي لتأثير مقاومة الهواء في مسار القذائف ذات السرعات العالية (وهي مشكلة عجز غاليليو عن حلّها). استخدم روبنز في كتابه **مبادئ جديدة للمدفعية**، الذي نشره في

(١) Bailey, Field Artillery, pp. 165ff.

(٢) Duffy, Frederick the Great, p. 264.

(٣) Kinard, Weapons and Warfare, pp. 157f.

بريطانيا في العام ١٧٤٢، خليطاً من ملاحظاته الدقيقة التي أجراها شخصياً، وقانون بويل، والاقتراح ذي الرقم تسعة وثلاثين الذي أورده نيوتن في مجلده الأول من **برنسيبيا**(وهي التي تحلّل حركة الأجسام عندما تكون تحت تأثير القوى المركزية centripetal forces) وذلك من أجل حساب سرعة velocity قذيفة منذ مغادرتها فوهة المدفع. عمد روبنز، عن طريق بندوله الباليستي، إلى تبيان أثر مقاومة الهواء، التي تصل إلى مقدار ١٢٠ ضعفاً من وزن القذيفة ذاتها، وهو الأمر الذي أظهر عدم دقة المسار الإهليلجي الذي اقترحه غاليليو. كان روبنز كذلك أول عالِم يستطيع إظهار كيف أن دوران قذيفة مدفعٍ طائرة يتسبب بانحرافها عن مسارها المحدّد لها. أما البحث الذي قدّمه بعنوان «طبيعة البنادق ذات السبطانات المحززة وفوائدها Rifled Barrel Piece»، وهو البحث الذي قرأه أمام **الجمعية الملكية** في العام ١٧٤٧، الذي نال فيه ميدالية كوبلي التي تمنحها الجمعية، فقد أورد أن الرصاصات يجب أن تكون بيضوية الشكل وأن سبطانات البنادق يجب أن تكون طويلة. أظهرت خلاصة البحث كيف أن روبنز يقدّر جيداً الأهمّية الاستراتيجية والعلمية لعمله:

إن أي دولة تدرك طبيعة البنادق ذات السبطانات الطويلة والمحزّزة وفوائدها، وبعد أن تسهل عملية إنتاجها وصنعها، يجب أن تقدّمها إلى جنودها بعد تبيان استخداماتها العامة والمهارة اللازمة لاستخدامها. ستحظى هذه الدولة بالتفوق نتيجة لهذه الوسيلة، وهي التي تماثل أي شيء صُنع في كل الأوقات، وذلك نتيجة تفوق هذا السلاح المحدد على أي نوعٍ من الأسلحة[1].

إن تزايد دقة المدفعية وفاعليتها يُقلل من قيمة التحصينات مها بلغت من التطور، كما يُقلل من خطر كتائب المشاة وإن كانت تتمتع بتدريبٍ ممتاز.

لم ينتظر **فردريك الكبير** أكثر من ثلاث سنوات ليأمر بترجمة كتاب روبنز **مبادئ جديدة في المدفعية** إلى اللغة الألمانية. قام المترجم **ليونارد يولر**، وهو عالم

(١) Steele, 'Muskets and Pendulums', pp. 363ff.

رياضيات بارع بدوره، بتحسين النص الأصلي للكتاب عندما أضاف إليه ملحقاً شاملاً من الجداول التي تحدد السرعة، والمدى، والارتفاع الأقصى، ووقت الطيران بالنسبة إلى قذيفةٍ أُطلقت بسرعة معلومة وزاويةٍ معلومة من فوهة مدفع(1). لم تتأخر الترجمة الفرنسية عن الظهور في العام ١٧٥١. توافر في ذلك الوقت، بطبيعة الحال، مخترعون عسكريون آخرون، نذكر منهم على الخصوص أمير النمسا جوزف وينزل فون ليشتنشتين والجنرال الفرنسي غريبوفال، لكن فضل الثورة الباليستية في القرن الثامن عشر يعود إلى روبنز. إن هذه التطبيقات الاستثنائية للعلوم هي التي أعطت الغرب سلاحاً قاتلاً بالفعل: المدفعية دقيقة التصويب. كان ذلك إنجازاً مدهشاً بالنسبة إلى رجلٍ وُلد، مثل روبنز، في أسرة تنتمي إلى الكويكرز [جماعة دينية تنادي بالصداقة والسلام].

كانت الثورة التي أطلقها روبنز في عالم القذائف بعيدة، بطبيعة الحال، عن العثمانيين، وهو أمرٌ يماثل استبعادهم عن قوانين نيوتن العامة المتعلقة بالحركة. كانت الأسلحة العثمانية في القرن السادس عشر التي كانت من إنتاج مصانع مدافع الأمبراطورية تنافس كثيراً المدافع الأوروبية(2). بدأ ذلك الوضع بالتغيّر في القرن السابع عشر. لاحظ سيد الإستراتيجيا ريموندو مونتيكوكولي في العام ١٦٦٤، وهو الذي سبق له أن دحر الجيش العثماني في سان غوثارد: «هذه المدفعية الضخمة [للأتراك] تتسبب بأضرارٍ كبيرة عند إصابتها لأهدافها، لكن يصعب تحريكها، كما أنها تتطلب وقتاً طويلاً لإعادة حشوها وتصويبها على أهدافها... أما مدفعيتنا فهي أكثر مرونة في تحريكها وأكثر فاعلية. تكمن هنا درجة تفوقنا على مدفع الأتراك»(3). أخذت تلك الفجوة بالتزايد على مدى القرنين التاليين، وذلك مع التحسينات التي أدخلها الأوروبيون على معارفهم وأسلحتهم، وذلك في مؤسساتٍ مثل أكاديمية

(١) Ibid., pp. 368f.

(٢) Agoston, 'Early Modern Ottoman and European Gunpowder Technology'.

(٣) Coles, Ottoman Impact, p. 186.

ولويتش للهندسة والمدفعية التي أُسّست في العام ١٧٤١. أما عندما احتلت قوات السير جون داكورث الدردنيل في العام ١٨٠٧، فكان الأتراك ما زالوا يستخدمون المدفع القديم الذي يقذف كراتٍ حجرية كبيرة نحو السفن المهاجمة، لكن من دون التصويب عليها بدقة.

الرحلات المنتظمة

تتصور رواية مونتسيكيو (التي كتبها على شاكلة رسائل) **الرسائل الفارسية** رجلين فارسيين يقومان برحلة استكشافية إلى فرنسا عبر تركيا. كتب أوزبك في يومياته عن رحلته نحو الغرب: «لاحظت بدهشة ضعف أمبراطورية العثمانيين. تخلى هؤلاء البرابرة عن كل الفنون، حتى عن فن الحرب. حدث ذلك بينما الأمم الأوروبية تتحسن في كل يوم، لكن هؤلاء الناس يبقون في حالةٍ من الجهل البدائي، كما أنهم نادراً ما يفكرون في استخدام اختراعاتٍ جديدة في الحرب إلا بعد أن تُستخدم ضدهم ألف مرة»[١].

جرت بالفعل عدة رحلات استكشافية من أجل تقصي أسباب تنامي التفوق العسكري الغربي. أما عندما أُرسل يرميسيكيز شلبي محمد إلى باريس في العام ١٧٢١، فإنه كان يحمل أوامر تقضي بزيارة القلاع، والمعامل، وكل مظاهر الحضارة الفرنسية بشكلٍ عام، وأن يبعث بتقارير عن الأمور القابلة للتطبيق. بعث الرجل بتقارير حماسية عن المدارس العسكرية الفرنسية وميادين التدريب.

أدرك العثمانيون في هذا الوقت أن عليهم أن يتعلّموا من الغرب . قدّم **إبراهيم متفرقة**، وهو مسؤول عثماني وُلد مسيحياً في ترنسلفانيا، تقريراً في العام ١٧٣٢ إلى السلطان محمد الأول تحدث فيه عن **القواعد العقلية لسياسات الأمم**، وهو التقرير

(١) Montesquieu, Persian Letters, Letter XIX.

الذي طرح مسألة لطالما أقلقت المسلمين طويلاً: «لماذا بدأت الأمم المسيحية التي كانت ضعيفة في الماضي مقارنة بالدول الإسلامية، بالسيطرة على بلدانٍ كثيرة في الأزمنة الحديثة، حتى أنها تمكّنت من إلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية التي كانت مظفرة ذات يوم؟» تشعّبت إجابة **متفرقة** كثيراً فأشار إلى النظام البرلماني في إنكلترا وهولندا، وإلى التوسع المسيحي في أميركا والشرق الأقصى، حتى أنه ذكر أنه بينما كانت الأمبراطورية العثمانية محكومة بقانون الشريعة، امتلك الأوروبيون «قوانين وقواعد مستمدة من العقل والمنطق». لكنه قال إنه قبل كل شيء ينبغي ردم الفجوة العسكرية:

يجب على المسلمين التحرك بحسب البصيرة، وأن يتعرّفوا من كثب الطرق، والتنظيمات، والاستراتيجيات، والتكتيكات وفنون الحرب الأوروبية... يتفق كل الحكماء في العالم على أن شعب تركيا يتفوق بطبيعته المتقبلة للقانون والنظام على كل الشعوب الأخرى. أما إذا تعلم ذلك الشعب العلوم العسكرية الجديدة وتمكّن من تطبيقها فلن يتمكّن أي عدو من الوقوف في وجه هذه الدولة[١].

كانت الرسالة في منتهى الوضوح: «يجب على الأمبراطورية العثمانية اعتناق الثورة العلمية والتنوير، هذا إذا كانت ترغب أن تكون في عداد القوى العظمى. ليس من المصادفة بعد كل ذلك أن يعمد **متفرقة** في النهاية إلى إدخال المطبعة إلى الأمبراطورية العثمانية في العام ١٧٢٧، كما أنه نشر بعد مرور سنة أول كتاب يستخدم الحرف العربي المطبوع والمتحرك، وهكذا ظهر معجم **فان قولو**. نشر **متفرقة** في العام ١٧٣٢ مؤلفاً يحتوي على عدد من الأعمال الإنكليزية واللاتينية مثل **إضاءة على القوة المغناطيسية»**[٢].

ترك الموظف في الدولة والدبلوماسي العثماني **أحمد رسمي أفندي** إسطنبول

(١) Mansel, Constantinople, pp. 185f.

(٢) Shaw, History of the Ottoman Empire, pp. 236–8.

في ٢ كانون الأول من العام ١٧٥٧ متوجّهاً إلى فيينا، وذلك من أجل إعلان اعتلاء سلطان جديد العرش، وهو مصطفى الثالث. كانت هذه حملةً عثمانية تختلف كثيراً عن تلك التي قادها **كارا مصطفى** في العام ١٦٨٣. لم يصطحب رسمي معه جيشاً هذه المرة، لكنه اصطحب ما ينيف على مئة مسؤولٍ عسكري ومدني. لم تكن مهمته هي الشروع في حصار عاصمة آل هابسبورغ بل التعلم منها. أمضى الوفد ١٥٣ يوماً كتب بعدها تقريراً مفصلاً مفعماً بالحماسة ويشتمل على ما يزيد على ٢٤٥ ملفاً[١]. أما في العام ١٧٦٣ فقد كُلِّف مهمة دبلوماسية أخرى إلى برلين. يُذكر أنه دُهش لما رآه في بروسيا بأكثر مما كانت عليه الحال في النمسا. انزعج أحمد من ملابس فردريك (التي علاها الغبار نتيجة الاستخدام اليومي)، إلا أنه سُرّ بانكباب الملك على شؤون الإدارة، وكذلك بعدم وجود انحياز ديني لديه، وذلك بالإضافة إلى توافر أدلة كثيرة على التنمية الاقتصادية في بروسيا[٢].

كانت التقارير السابقة عن أوروبا التي كتبها مبعوثون عثمانيون ملأى بالسخرية. إن عقدة التفوق المزمنة كانت بالفعل عقبةً أخرى أمام الإصلاحات العثمانية. دلّت تقارير **رسمي** المتحمسة على تغيّرٍ مثيرٍ لكنه مؤلم. لم يتقبل الجميع في إسطنبول تلك التقارير. ربما كانت هذه الانتقادات الضمنية والصريحة للأنظمة المدنية والعسكرية العثمانية هي سبب عدم ترقية هذا المسؤول الموهوب إلى منصب الوزير الأول. كان وصف تفوق الحكومات الأوروبية شيئاً، وتطبيق الإصلاحات على النظام العثماني شيئاً آخر مختلفاً تماماً.

دعت الدولة خبراء غربيين إلى إسطنبول للعمل كمستشارين لدى السلطان. أشرف **كلود ألكسندر**، وهو **كومت دي بونيفال**، على تحسين فرق المتفجرات ونقل المدفعية العثمانية، وكذلك على تحسين كتائب رجال المدفعية. أما الضابط

(١) Lewis, What Went Wrong?, p. 27.

(٢) Aksan, Ottoman Statesman.

الفرنسي من أصلٍ هنغاري، وهو البارون فرنسوا دي توت فقد استُقدم للإشراف على إنشاء تحصيناتٍ فعالة وجديدة للعاصمة العثمانية. دُهش دي توت في أثناء عبوره البوسفور على متن أحد المراكب عندما أدرك أن التحصينات لم تكن قديمة العهد فحسب لكنها كانت في المكان الخطأ بحيث إن السفن المعادية كانت بعيدة عن مدى المدفعية، حتى تلك الحديثة منها. وصف دي توت في مذكّراته هذه التحصينات بأنها «أقرب إلى خرائب الحصار منها إلى تجهيزاتٍ دفاعية». أقام دي توت **سورات توبكولاري أوكاجي**، وأسسها على طراز كتائب **الديليجانت** الفرنسية، وكذلك الأكاديمية العسكرية، وهناك كان رجل إسكتلندي، وهو **كامبل مصطفى** يدرّس الرياضيات للطلبة العسكريين. شيد **دي توت** كذلك مسبكاً جديداً للمدفعية، كما شجّع على تأسيس وحدات المدفعية المتحركة[١].

لاقت محاولات التغيير هذه معارضة شديدة مرة بعد أخرى، وليس أقلها من جنود الانكشارية الذين نجحوا في العام ١٨٠٧ في إلغاء النظام الجديد للجيش الذي أُدخل على يد خبيرٍ فرنسي آخر، وهو الجنرال آلبرت دوبابيه. بدا الجيش العثماني في ذلك الوقت على أنه يعمل فقط من أجل إرضاء ضباطه ويتحرك بحسب ما يريدونه. تزايد ضعف ذلك الجيش في المعارك، ولم يعد فعالاً في إخماد الثورات الداخلية[٢]. استمر الأمر على هذا المنوال إلى حين حلول حقبة **التنظيمات** (إعادة التنظيم) التي جرت في عهدَي السلطان محمود الثاني وعبد الحميد الأول، وعندئذ أصبح السلطان جاهزاً لمواجهة التحديات بشكل مباشر.

شهد يوم ١١ حزيران من العام ١٨٢٦ استعراض ٢٠٠ جندي في الميدان القريب من ثكنات الانكشارية، وكانوا يرتدون الأزياء العسكرية الأوروبية. تجمّع في اليوم التالي حوالى ٢٠,٠٠٠ من جنود الانكشارية للاحتجاج، وراحوا يهتفون: «لا نريد

(١) I'hsanoglu, Science, Technology and Learning, p. 56. See also Levy, 'Military Reform'.

(٢) Reid, Crisis of the Ottoman Empire, pp. 59–64.

التدريبات العسكرية التي يجريها الكفار!» أقدم هؤلاء على حركةٍ رمزية عندما قلبوا قدورهم pilav، وهدّدوا بالزحف نحو قصر **توبكابي**. انتهز السلطان محمود الثاني هذه الفرصة. فأعلن إما أن يُقتل الانكشارية، وإما أن تجول القططة فوق خرائب إسطنبول. جهّز السلطان خطته بعناية بعد أن ضمن ولاء وحدات الجيش الأساسية مثل سلاح المدفعية. وقعت قوى المعارضة عندما أدارت بنادقها ضد ثكنات الانكشارية في حالةٍ من الفوضى. قُتل المئات في ذلك اليوم، وهكذا قُضي على الانكشارية في يوم ١٧ حزيران[١].

لم يدخل الطراز الأوروبي أزياء الجنود فحسب، بل كان على هؤلاء الجنود السير في الاستعراضات على إيقاعٍ جديد تماماً، وذلك بعد تعيين كبير مدربي فرقة موسيقى الجيش العثماني الأمبراطوري، وهو **غوسيب دونيزيتي** شقيق الرجل الأكثر شهرة **غايتانو دونيزيتي** الذي ألّف مقطوعة **لوشيا دي لاميرمور**. كتب **دونيزيتي** نشيدين وطنيين مختلفين بالإيطالية بموجب تكليفٍ من الأمبراطور، وأشرف كذلك على تأسيس فرقة عسكرية على الطراز الأوروبي، وهي الفرقة التي علّمها عزف مقدمات معزوفات **روسيني**. اختفت طبول الحرب التي بعثت ذات مرة خشية الله في نفوس المدافعين عن فيينا. نشرت الصحيفة الفرنسية **لامينيسترال** في شهر كانون الثاني من العام ١٨٣٦ ما يأتي:

تلاشت في إسطنبول أصداء الموسيقى التركية القديمة. إن السلطان محمود يحب الموسيقى الإيطالية وهو الذي قدّمها إلى جيوشه... يحب السلطان البيانو بشكلٍ خاص، وهو يحبه إلى درجة أنه أمر بإحضار عدة بيانوهات من فيينا من أجل زوجاته. لا أعرف كيف ستتعلم زوجاته العزف لأن أحداً لم ينجح حتى الآن في الاقتراب منهن[٢].

---

(١) Mansel, Constantinople, pp. 237ff.

(٢) Araci, 'Donizetti', p. 51.

أما أكبر رمزٍ باقٍ من حقبة الإصلاح، فهو ذلك الذي شيّده السلطان عبد الحميد الأول. شُيّد قصر دولما باشا بين العامين ١٨٤٣ و١٨٥٦، وهو يحتوي على ما لا يقل عن ٢٨٥ غرفة، وأربع وأربعين صالة، وثمانية وستين مرحاضاً، وستة حمّاماتٍ تركية. استُخدم ما زنته أربعة عشر طناً من أوراق الذهب من أجل زخرفة أسقف القصر التي تتدلى منها ثريّات كبيرة بلغ عددها ستاً وثلاثين ثريا. أما فوق قاعة **درج الكريستال** الرائعة، وفوق أرض أكبر غرف القصر التي تدعى صالة الأعياد (الاحتفالات) فتربض سجّادة هائلة منسوجة قطعة واحدة مساحتها ١,٣٠٠ قدم مربعة، وثريا تزن ما يزيد على أربعة أطنان. يبدو هذا القصر أقرب ما يكون إلى شكلٍ يتقاطع بين المحطة المركزية الكبيرة ومسرح أُقيم في أوبرا باريس.

كان كل ما تبقى فعله هو تطبيق الثورة العلمية بعد تخلّفٍ دام نحو مئتي عام. أكد تقرير حكومي نُشر في العام ١٨٣٨، الأهميّة المستجدة للمعارف الغربية: «تساهم المعرفة الدينية في الخلاص في العالم الآتي، لكن العلم يساهم في كمال الإنسان في هذا العالم». تأخر الأمر مع ذلك حتى العام ١٨٥١ قبل تأسيس مجلس المعارف على شاكلة الأكاديمية الفرنسية (يُفترض أن يكون أعضاؤها «على اطلاع جيد على الدراسة والعلم، وأن يحوزوا معرفة تامة بإحدى اللغات الأوروبية»). مرت عشرة أعوام قبل تأسيس الجمعية العلمية العثمانية[١]. بُذلت في الوقت ذاته جهود منسّقة لبناء معامل تماثل مجمعاً صناعياً قادراً على صنع أزياء وأسلحةٍ حديثة، وذلك بالتزامن مع تأسيس شيء يشبه الميدان الصناعي في غرب إسطنبول. بدا أن العثمانيين قد انفتحوا أخيراً على الغرب[٢]. أما المستشرق جايمس ريدهاوس الذي عُيّن في البداية أستاذاً في مدرسة الهندسة البحرية العثمانية وذلك بعد أن التحق بالبحرية jumping ship في السابعة عشرة من عمره، وجهد عدة عقود في ترجمة

(١) Ihsanoglu, Science, Technology and Learning, pp. 170ff.

(٢) Clarke, 'Ottoman Industrial Revolution', pp. 67f.

أعمالٍ إنكليزية إلى التركية، وفي تصنيف المعاجم، وكُتُب القواعد والترجمة، وهي المصنفات التي تجعل المعارف الأوروبية بمتناول القرّاء العثمانيين، وذلك بالإضافة إلى تحسين تفهّم الغربيين للأتراك سيّئي السمعة. أسّس أحمد مدحت في العام ١٨٧٨ صحيفة **ترجمان الوقائع**، وهي الصحيفة التي نشر فيها عدداً من كتبه بشكل متسلسل. تضمّنت هذه الكتب **رحلة إلى أوروبا**، ١٨٨٩. تحدث مدحت في هذا الكتاب عما شاهده في **المعرض العالمي** في باريس، وعلى الخصوص عن انطباعاته في **قصر المكائن**[١].

بذل رؤساء الوزارات، من أمثال رشيد باشا، وفؤاد وعلي باشا ومدحت باشا، جهوداً مخلصة إلا أن هذه التغييرات لم تترافق مع ذلك النوع من الإصلاحات لنظام الإدارة العثماني بشكلٍ يمهد لأساس متين يدعم مظاهر الإصلاح الرائعة هذه[٢]. إن تأسيس جيوش جديدة، وأزياء جديدة، وأناشيد جديدة، وقصورٍ جديدة، كانت كلها أموراً حسنة، لكن من دون وجود نظام فعال للضرائب يكفي لتمويل كل هذه المشاريع، اضطرت الدولة إلى الاستقراض من باريس ولندن من أجل تغطية تكاليفها. لكن مع ارتفاع نسبة الفوائد التي تدفعها الدولة إلى حاملي سنداتها كانت تقل المبالغ المتبقية لتمويل الدفاع عن هذه الأمبراطورية الآخذة بالانهيار. بدت الأمبراطورية العثمانية على شفير انحطاط مميت بعد طردها من اليونان في العشرينيات من القرن التاسع عشر، وبعد أن خسرت مساحات كبيرة من المناطق في البلقان في العام ١٨٧٨، كما أن تخفيض عملتها بعد إصدار عملة ورقية (القابلة للتزييف بسهولة) عُرفت باسم kaime[٣]، وهو الأمر الذي أدى إلى تصاعد نسبة مداخيلها التي تستهلكها مدفوعات الفوائد لمقرضيها الأوروبيين[٤]. تعرضت أطراف الأمبراطورية نتيجة تضافر المشاعر

(١) Findley, 'Ottoman Occidentalist'.

(٢) Weiker, 'Ottoman Bureaucracy', esp. pp. 454f.

(٣) Pamuk, 'Bimetallism', p. 16; Davison, Essays, pp. 64-7. Cf. Farley, Turkey, pp. 121f

(٤) Pamuk, Ottoman Empire, pp. 55-9.

القومية السلافية ومؤامرات الدول الكبرى إلى مخاطر كثيرة. فشلت المحاولات التي بُذلت من أجل وضع دستور يحدّ من سلطة السلطان، وهي المحاولات التي انتهت بنفي مدحت باشا وإعادة فرض الحكم المطلق مع السلطان عبد الحميد الثاني.

تقبع في إحدى زوايا قاعات قصر **دولما باشا** ساعة هي الأكثر غرابة، وهي ميزان حرارة في الوقت ذاته، ومقياس للضغط الجوي، وروزنامة. كانت هذه الساعة هدية من خديوي مصر إلى السلطان. تتضمّن الساعة نقشاً باللغة العربية: «فلتكن كل دقيقة تساوي ساعة، ولتكن كل ساعة من ساعاتك تساوي مئة سنة». بدت الساعة وكأنها تحفة تقنية شرقية، وذلك ما عدا تفصيلاً صغيراً: صُنعت الساعة في النمسا على يد وليام كيرش. توحي ساعة كيرش بمغزى شديد الأهميّة وهو أن مجرد استيراد التقنية الغربية ليس بديلاً عن التحديث داخل الإمبراطورية العثمانية. لم يكن الأتراك بحاجة إلى قصرٍ جديد فحسب، لكنهم كانوا بحاجة إلى دستورٍ جديد، وإلى أبجدية جديدة، أي إنهم كانوا بحاجة إلى دولةٍ جديدة في واقع الأمر. أما أنهم حصلوا أخيراً على ذلك كله فيعود إلى جهود رجلٍ واحد. كان اسم ذلك الرجل كمال أتاتورك، وهو الذي كان طموحه يقضي بأن يصبح فردريك الكبير في تركيا.

من إسطنبول إلى القدس

لدي سبب وجيه يدفعني إلى الاعتقاد أن الكويكب الذي أتى منه الأمير الصغير هو الكويكب المعروف باسم B-612. شوهد هذا الكويكب مرة وحيدة من خلال المنظار. كان عالم فلكٍ تركي هو الذي رأى الكويكب في العام ١٩٠٩. قدّم العالِم اكتشافه هذا أمام المؤتمر الفلكي الدولي، وهو الذي قدّم عرضاً عظيماً. لكنه كان يرتدي زياً تركياً، ولذلك لم يصدّق أحد ما قاله... لكن لحسن حظ الكويكب B-612 فرض دكتاتور تركي قانوناً على رعاياه يفرض عليهم التحوّل إلى الأزياء الأوروبية تحت طائلة إنزال عقوبة الموت. عاد عالم الفلك لتقديم عرضه مجدداً

في العام ١٩٢٠، لكنه هذه المرة كان يرتدي زياً أنيقاً ومدهشاً. قبِل الجميع تقريره هذه المرة.

سخر أنطوان دي سان إكزوبيري في روايته **الأمير الصغير** من عملية تحديث تركيا، وإن كان فعل ذلك بلطفٍ. لكن المؤكّد أن الأتراك غيّروا أزياءهم بعد الحرب العالمية الأولى، وأخذوا يقتربون أكثر فأكثر من المعايير الأوروبية، أي مثل ما فعل اليابانيون بعد الإصلاحات التي أدخلها مايجي (أنظر الفصل الخامس). لكن ما هو مدى التغيير الذي يمثّله هذا التحوّل؟ هل تركيا الجديدة هذه بالتحديد قادرة على أن تلعب في الميدان العلمي ذاته مثل الدول الأوروبية؟

لم يكن مصطفى كمال مستعداً لتسلّم السلطة مثل ما كانت عليه الحال مع فردريك الكبير في بروسيا. كان كمال زير نساء ومحباً لشرب الخمر، لكنه استفاد من عملية إصلاح الجيش العثماني في أواخر القرن التاسع عشر، وهي العملية التي أشرف عليها كولمار فريهير فون دير غولتز (غولتز باشا) في ثمانينيات القرن التاسع عشر ومطالع تسعينيات ذلك القرن. كان غولتز تجسيداً حياً لبروسيا التي صاغها فردريك الكبير، وهو الذي وُلد في شرق بروسيا ابناً لجندي متوسط الحال ومزارع، ثم ما لبث أن تقلد منصب لواء في الجيش نتيجة لشجاعته وذكائه. تعلّم كمال الطريقة الألمانية في الحرب، وتمكن من تحويل النظرية إلى ممارسة في غاليبولي في العام ١٩١٥، وهي المعركة التي أدى فيها دوراً أساسياً في نجاح الدفاعات التركية ضد القوات البريطانية الغازية. تفكّكت الأمبراطورية العثمانية بعد الحرب، وبدأ الجيش اليوناني زحفه نحو الأناضول، لكن كمال كان هو القائد الذي نظّم الهجوم المضاد الحاسم، وأعلن نفسه أبا الجمهورية التركية الجديدة (أتاتورك). نقل كمال العاصمة من إسطنبول إلى أنقرة في قلب الأناضول، لكنه لم يشك البتة في وجوب أن تتطلع الجمهورية التي أسسها نحو الغرب. وقد احتج كمال بأن الأتراك ظلوا قروناً يسيرون

من الشرق تجاه الغرب[1]. سأل كمال الكاتب الفرنسي موريس بيرنو: «أيمكن للمرء أن يسمي دولة واحدة لم تلتفت نحو الغرب في سعيها نحو الحضارة؟»[2]

كان الإصلاح الجذري الذي أدخله أتاتورك شخصياً على الأبجدية جزءاً أساسياً من التحوّل الذي أدخله إلى تركيا. لم يقتصر الأمر على أن الخط العربي يرمز إلى هيمنة الإسلام على البلاد، لكنه لم يناسب كثيراً الأصوات الموجودة في اللغة التركية، ولهذا السبب كانت القراءة والكتابة صعبتين على الغالبية العظمى من السكان.

نفّذ أتاتورك خطوته هذه في ميدان غولهان، الذي كان ذات يوم حديقة تابعة لقصر توبكابي، وذلك ذات مساء من أيام شهر آب من العام ١٩٢٨. خاطب كمال حشداً كبيراً من المدعوين، وما لبث أن طلب حضور شخص يستطيع قراءة التركية كي يقرأ من ورقة في يده. تطلع المتطوع بدهشة واضحة إلى الكلمات المكتوبة في الورقة، وما لبث أتاتورك أن أبلغ الحشد: «قد ارتبك هذا الشاب لأنه لا يعرف الأبجدية التركية الحقيقية». ناول أتاتورك الورقة بعد ذلك إلى زميلٍ له فقرأ محتويات الورقة بصوتٍ عالٍ:

ستقدر لغتنا الغنية والمنسجمة على إظهار نفسها مع الأحرف التركية الجديدة. يجب علينا أن نحرر أنفسنا من هذه العلامات غير المفهومة التي قيّدت عقولنا بأصفادٍ حديدية طوال قرونٍ عديدة... يجب علينا تعلّم الأحرف التركية الجديدة بسرعة... احسبوا ذلك واجباً وطنياً وقومياً... إنه لمن العار على الأمة أن تشتمل على ١٠ أو ٢٠ بالمئة من المتعلمين وعلى ثمانين أو تسعين بالمئة من الأميين... يجب علينا إصلاح هذه العيوب... ستُظهر أمتنا بحروفها وعقليتها أن مكانها هو مع العالم المتحضّر[3].

(١) Kinross, Atatürk, p. 386.

(٢) Mango, Atatürk, p. 396.

(٣) Kinross, Atatürk, pp. 442f.

كان تغريب الأبجدية [جعلها غربية] جزءاً فقط من ثورةٍ ثقافية أوسع صمّمها أتاتورك من أجل دفع تركيا إلى القرن العشرين. عرفت أزياء الرجال والنساء التغريب كذلك، كما أن الطربوش والعمامة استُبدلا بالقبعة الغربية، أما الحجاب الذي ترتديه النساء فقد كثُرت الدعوات لعدم ارتدائه. تبنّى النظام الجديد الروزنامة الغربية بما في ذلك التأريخ المسيحي. لكن أهمّ عملٍ بمفرده قام به أتاتورك كان تأسيس تركيا الجديدة كدولةٍ علمانية مستقلة تماماً عن كل السلطات الدينية. أُلغيت الخلافة في شهر آذار من العام ١٩٢٤، وأُلغيت المحاكم الدينية بعد ذلك، واستُبدل قانون الشريعة بقانون مدني يستند إلى القوانين السارية في سويسرا. رأى أتاتورك أن لا شيء ساهم في تخلف الأمبراطورية العثمانية ومنعها من التقدم أكثر من التدخل الديني في ميدان العلم. أقدم أتاتورك في العام ١٩٣٢ على استبدال دار الفنون (دار العلوم) القديمة، التي كانت تحت السيطرة الحازمة للأئمة، بجامعة إسطنبول التي تتبنى المنهج الغربي في التدريس، وذلك بعد استشارة آلبرت مالش المسؤول في جامعة جنيف. فتحت جامعة إسطنبول أبوابها بعد ذلك أمام نحو مئة من الأكاديميين الألمان الفارّين من نظام الاشتراكيين القوميين إما لأنهم يهود، وإما لأنهم ينتمون إلى اليسار السياسي. أعلن أتاتورك بكلمات نُقشت على مدخل المبنى الرئيس لجامعة أنقرة، «من أجل كل شيء في العالم – لأجل الحضارة، لأجل الحياة، لأجل النجاح. إن أصدق دليل هو المعرفة والعلم. أما السعي وراء دليلٍ غير المعرفة والعلم [هو علامة] على الإهمال، والجهل، والضلال»[١].

أدى تفكيك الأمبراطورية العثمانية ودفع قلبها التركي نحو العلمانية إلى إسداء الحرب العالمية الأولى خدمةً هامة – ولا ننكر أنها خدمة غير مقصودة – إلى قيَم الثورة العلمية والتنوير. سعى البريطانيون إلى تأكيد النصر فحشدوا الأعداء الداخليين ضد السلطان، ومن بينهم العرب واليهود. وعد البريطانيون العرب بإعطائهم ممالك

(١) Mango, Atatürk, p. 412.

مستقلة، كما وعدوا اليهود بإعطائهم «وطناً قومياً» في فلسطين. تبيّن فيما بعد، وكما نعرف جميعاً، أن هذه الوعود كانت غير واقعية.

تبدو القدس هذه الأيام المكافئ الحديث لفيينا في العام ١٦٨٣، أي عندما كانت مدينة محصنة على تخوم الحضارة الغربية، وذلك بالرغم من أن القدس تُعدّ مدينة مقدّسة للأديان التوحيدية الثلاثة. أُسّست إسرائيل في أيار من العام ١٩٤٨ لتكون دولة يهودية مبنية على أيدي اليهود، لكن ليس لليهود فقط، أي إنها تعد نفسها مركزاً غربياً متقدماً. لكنها مركز متقدم محاصر. إن إسرائيل التي تدّعي أن القدس هي عاصمتها، هي دولة مهدّدة من كل الجهات من قِبل قوى إسلامية تهددها في صميم وجودها: توجد حماس في قطاع غزّة المحتل (الذي توجد فيه الآن) وفي الضفّة الغربية وحزب الله في لبنان المجاور، وإيران في الشرق، وذلك من دون أن ننسى المملكة العربية السعودية. أما في مصر وسوريا فإن الإسرائيليين يلاحظون كيف أن الإسلاميين يهددون حكوماتهم العلمانية. تعرف إسرائيل كذلك أن تركيا التي كانت صديقتها التقليدية تتجه نحو الإسلامية ومعاداة الصهيونية، هذا إذا لم نقل شيئاً عن سياستها الخارجية التي هي أقرب ما تكون إلى العثمانية الجديدة. يشعر عدد كبير من سكان إسرائيل بأنهم مهددون، أي مثل ما كان سكان فيينا يشعرون في العام ١٦٨٣. أما السؤال الأهم الآن فهو إلى أي مدى سيتمكّن العلم من الاستمرار بأن يكون التطبيق الاستثنائي الذي يعطي مجتمعاً غربياً مثل إسرائيل تفوقاً على أعدائها.

يُعد هذا مدهشاً بالفعل إلى حدٍ ما بالنسبة إلى بلدٍ صغير مثل إسرائيل، أي أن تحوز تفوقاً كبيراً في ميدان الابتكارات العلمية والتقنية. وصل عدد براءات الاختراع المسجلة في إسرائيل في الفترة ما بين العامين ١٩٨٠ و٢٠٠٠ إلى ٧,٦٥٢ براءة وذلك مقارنة بـ٣٦٧ براءة اختراع مسجلةً في الدول العربية مجتمعة. تقدم المخترعون الإسرائيليون في العام ٢٠٠٨ وحده بطلبات تسجيل ٩,٥٩١ براءة اختراعٍ جديدة. أما العدد في إيران في العام ذاته فلم يتجاوز ٥٠ براءة، وكذلك العدد

بالنسبة إلى البلدان التي تسكنها غالبية إسلامية فكان ٥,٦٥٧[١]. لدى إسرائيل عدد من العلماء والمهندسين بالنسبة إلى كل فرد هو أكبر مما هي عليه الحال في أي بلدٍ آخر، كما أنها تُنتج دراساتٍ علمية أكثر بالنسبة إلى الفرد. أما الإنفاق على الأبحاث والتطوير بالنسبة إلى حصة ناتجها الإجمالي المحلي فهو الأعلى في العالم[٢]. لم يكن المصرفي الألماني - اليهودي سيغموند واربيرغ على خطأ عندما قارن في أثناء حرب الأيام الستة بين إسرائيل وبروسيا في القرن الثامن عشر. (كان واربيرغ معجباً على الخصوص بمعهد وايزمن للعلوم في ريهوفوث، وهو مركز دراسات أُسّس في العام ١٩٣٣ على يد حاييم وايزمان، وهو عالِم الكيمياء البارز الذي انتهى به الأمر أول رئيسٍ لإسرائيل)[٣]. تحتاج كل دولة محاطةٍ بالأعداء إلى العلم من أجل ضمان بقائها الاستراتيجي. أما الآن فلا شيء يبيّن الرابط بين العلم والأمن أكثر من غرفة قيادة المراقبة التابعة إلى الشرطة التي تقع في قلب مدينة القدس. كل شارعٍ مزدحم، تقريباً، في المدينة القديمة كاميراته التلفزيونية ذات البث المباشر الخاصة به [الحلقةً المغلقة]، ممّا يسمح لرجال الشرطة بمراقبة وتسجيل تحركات المشتبه فيهم من الإرهابيين، وردعهم إذا لزم الأمر.

يبدو، بالرغم من كل ذلك أن علامات سد تلك الفجوة العلمية بدأت بالظهور. تستضيف إيران، بالرغم من أنها دولة إسلامية، مهرجانين علميين سنويين: مهرجان الخوارزمي الدولي للعلوم الأساسية، ومهرجان الرازي السنوي لأبحاث العلوم الطبية، وهما المناسبتان اللتان يُقصد من ورائهما تشجيع الأبحاث ذات المستوى العالي في الحقلين النظري والتطبيقي. خصّصت الحكومة الإيرانية منذ وقتٍ قصير ١٥٠ مليار ريال (نحو ١٧,٥ مليون دولار) من أجل بناء مرصدٍ جديد ليكون جزءاً من استثمارات

(١) World Intellectual Property Organization, World Intellectual Property Indicators 2010 (Geneva, 2010): http://www.wipo.int/ipstats/en/statistics/ patents/.

(٢) Senor and Singer, Start-Up Nation.

(٣) Ferguson, High Financier, pp. 317f.

كبيرة في علم الفلك، وفي الفيزياء الفلكية. لكن الأمر الذي يثير العجب هو وجود ما نسبته ٧٠ بالمئة من طلبة العلوم والهندسة من النساء، وذلك بالنظر إلى التطبيق الصارم لقانون الشريعة. لاحظت في أثناء زياراتي لطهران والرياض والمدرسة الإسلامية الخاصة بالفتيات وهي الممولة من السعودية، أن الحظر المفروض على تعليم النساء بدأ بالتراجع. يُعدّ ذلك تطوراً مهماً في ذاته. أما ما يثير قدراً أقل من الترحيب فهو طريقة استخدام هذه المعرفة العلمية الجديدة.

أعلن الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد في ١١ نيسان من العام ٢٠٠٦ أن إيران نجحت في تخصيب اليورانيوم. يعني ذلك أن إيران تتقدم منذ ذلك الحين، بالرغم من التهديد بالعقوبات الاقتصادية، نحو تحقيق حلمها القديم كي تصبح قوةً نووية. تدّعي إيران أن ذلك البرنامج يهدف إلى إنتاج الطاقة النووية. أما في الواقع فإنه ليس سراً أن محمود أحمدي نجاد يطمح إلى امتلاك السلاح النووي. لكن هذا السلاح لن يجعل من إيران الدولة الإسلامية النووية الأولى. تمكّنت باكستان منذ سنوات أن تصبح المحرك الرئيس لانتشار الأسلحة النووية، وذلك بفضل العمل الرائد والمتهور للدكتور آي. كيو. خان. لم يتضح بعد، في وقت كتابة هذه الأسطر، ما إذا كانت إسرائيل وحدها تمتلك رداً عسكرياً فعالاً على إيران النووية.

أما الآن، وبعد أكثر من ثلاثة قرون مضت على حصار فيينا، يبقى السؤال الأساسي وهو: إلى أي مدى سيبقى الغرب قادراً على المحافظة على تقدّمه العلمي، وهو التقدم، الذي اعتمد عليه طويلاً من بين عوامل أخرى، في المحافظة على تفوقه العسكري لهذه المدة الطويلة. ربما يمكننا صوغ هذا السؤال بطريقة أخرى. هل تستطيع قوة غير غربية أن تأمل بالفعل الاستفادة من المعارف العلمية الغربية إذا ما استمرّت في رفض ذلك الجزء الأساسي الآخر من الصيغة الغربية الرابحة: الابتكار المؤسسي الثالث، حقوق الملكية الخاصة، وحكم القانون، وحكومة تمثل شعبها بالفعل؟

الفصل الثالث

الملكية

الحرية... هي حرية ترتيب dispose، وتنظيم order شخصه، وأفعاله، وممتلكاته، وأملاكه برمّتها، في إطار ما تسمح به تلك القوانين التي يخضع لها، ومن دون أن يكون خاضعاً لإرادة القوانين الأخرى الاعتباطية... ولذلك، فإن الغاية العظيمة والرئيسة لاتحاد الرجال في اتحادات (كومونولث)... هي المحافظة على ملكياتهم.

جون لوك

إننا نسل الإسبان الشرسين الذين أتوا إلى أميركا من أجل نهبها والزواج من ضحاياها. اشترك الأحفاد غير الشرعيين لتلك الزيجات فيما بعد مع أحفاد العبيد الذين نُقلوا من أفريقيا. هل نستطيع نحن، مع هذا الخليط العرقي، وهذا السجل الأخلاقي، أن نضع القوانين فوق القادة والمبادئ فوق الرجال؟

سيمون بوليفار

عوالم جديدة

كان ذلك عالماً جديداً، لكن قُدّر له أن يكون عالماً للغرب. كان الأوروبيون

هم الذين عبروا المحيط الأطلسي لكي يستملكوا أراضي شاسعة، هي التي، وبكل بساطة، لم تظهر على الخرائط قبل ظهور **جغرافيا العالم** Universalis cosmographia الذي أعدّه **مارتن فالدسيمولر**. كانت تلك الأراضي الشاسعة هي أميركا، وهي سُمّيت كذلك على اسم المستكشف أميركو فاسبوتشي(*) . كانت الحكومتان الملكيتان، قبل كل شيء، أي إسبانيا وإنكلترا اللتان كانتا تتنافسان في الأرواح، والذهب، والأراضي، مستعدتين لعبور محيطاتٍ وقاراتٍ بأسرها. يرى عدد من المؤرّخين أن اكتشاف الأميركيتين (يشمل هذا التعريف أيضاً جزر الكاريبي) كان السبب الأساس لصعود الغرب. أكّد هؤلاء المؤرّخون أنه من دون العالم الجديد، «لكانت بقيت أوروبا الغربية منطقة صغيرة ومتخلفة من أوراسيا، ولكانت لا تزال معتمدة على آسيا لنقل التقنية، والثقافة، والثروة»[1]. لم تكن «المعجزة الأوروبية»، ولا الثورة الصناعية، لتحدثا من دون «تلك الأراضي الشاسعة»، والعبيد الأفارقة الذين كانوا يعملون فيها[2]. يمكننا القول، بالنظر إلى التقدم الذي تحقق في أوروبا الغربية على الصعيدين الاقتصادي والعلمي في فترة ما قبل التطوير واسع النطاق للعالم الجديد، إن هذه الادعاءات كانت مبالغاً فيها. إن الأهمّية الحقيقية للفتوحات والاستعمار في الأميركيتين هي أنها كانت واحدة من أكبر التجارب الطبيعية في التاريخ: لنأخذ ثقافتين غربيتين، ولنصدّرهما، ثم لنفرضهما على مجموعة واسعة من الشعوب والأراضي المختلفة – البريطانيين في الشمال، والإسبانيين والبرتغاليين في الجنوب، ولننظر أخيراً أي مجموعة تنجح بشكلٍ أفضل من الأخرى.

لم يكن الأمر بمنزلة منافسة. لكن إذا نظرنا إلى العالم اليوم، أي بعد مرور أربعة قرون، فلا يُمكن لأحد إنكار أن القوة المهيمنة في الحضارة الغربية هي الولايات

(*) كان من الممكن أن تسمّى تلك القارة «كولومبيا»، لكن الكتاب الذي أصدره فاسبوتشي في العام ١٥٠٤، **العالم الجديد** سرق بعض الوهج من كولومبس..

(١) Fernández-Armesto, Americas, p. 66.

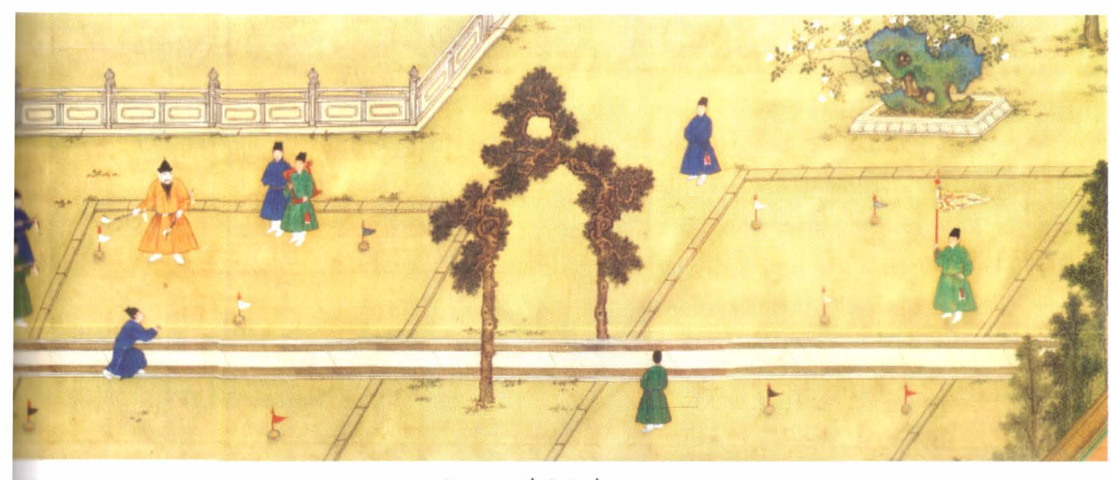
(٢) The classic statements are Pomeranz, Great Divergence; Williams, Capitalism and Slavery. For a modified version of the argument, see Acemoglu et al., 'Rise of Europe'.

الممالك الصغيرة المتحاربة: إنكلترا وفرنسا تصطدمان مجدداً في حرب المئة عام



الأوضاع الأربعة للمجتمع: الفقر بريشة جان بورديكون، حوالى العام ١٥٠٠

ساعة سو سونغ المائية في المدينة المحرمة، بيجينغ



لعبة غولف صينية

انتصار الموت بريشة بيتر بروغل الأكبر، حوالى العام ١٥٦٢



أمبراطور يونغل





المنتصر في سباق التوابل: مدفن فاسكو دي غاما، دير سان جيروم في لشبونة

إيرل ماكارتني يسعى عبثاً إلى إثارة اهتمام الأمبراطور كسيان لونغ بالحضارة الغربية: بريشة جايمس جيلاري



الكيلين سلطان ماليندي
إلى المملكة الوسطى



ثقافة الانسجام: امتحانات الخدمة
المدنية الصينية في خلال حكم
الأمبراطور جين تسونغ

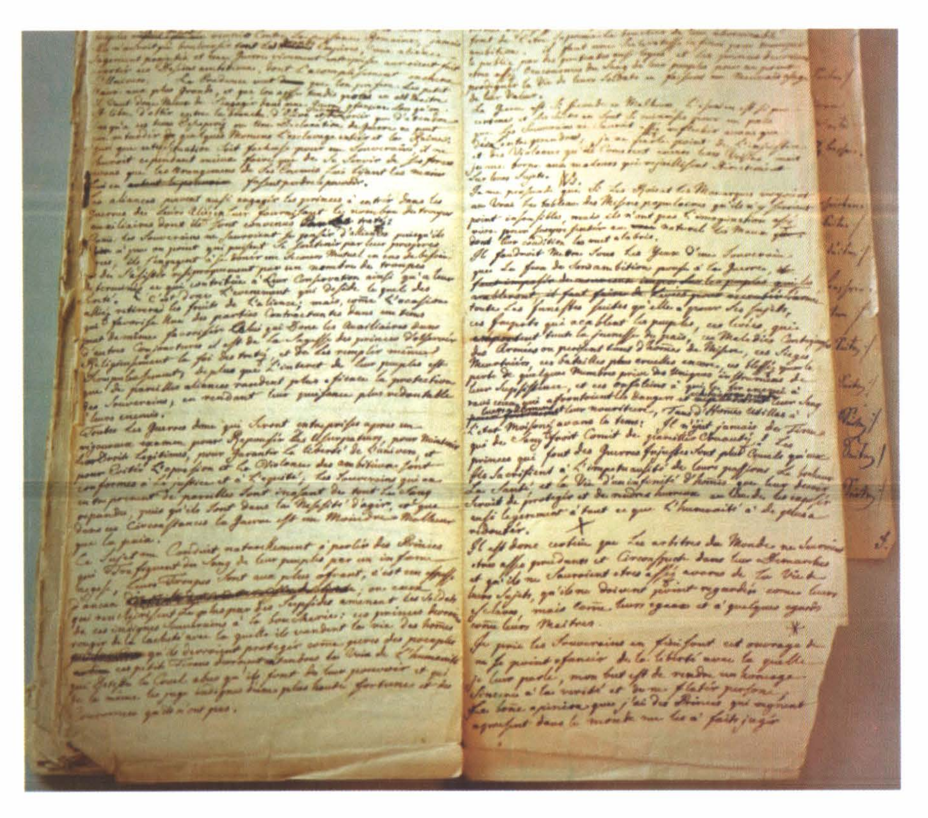


سجين الحريم: السلطان
عثمان الثالث

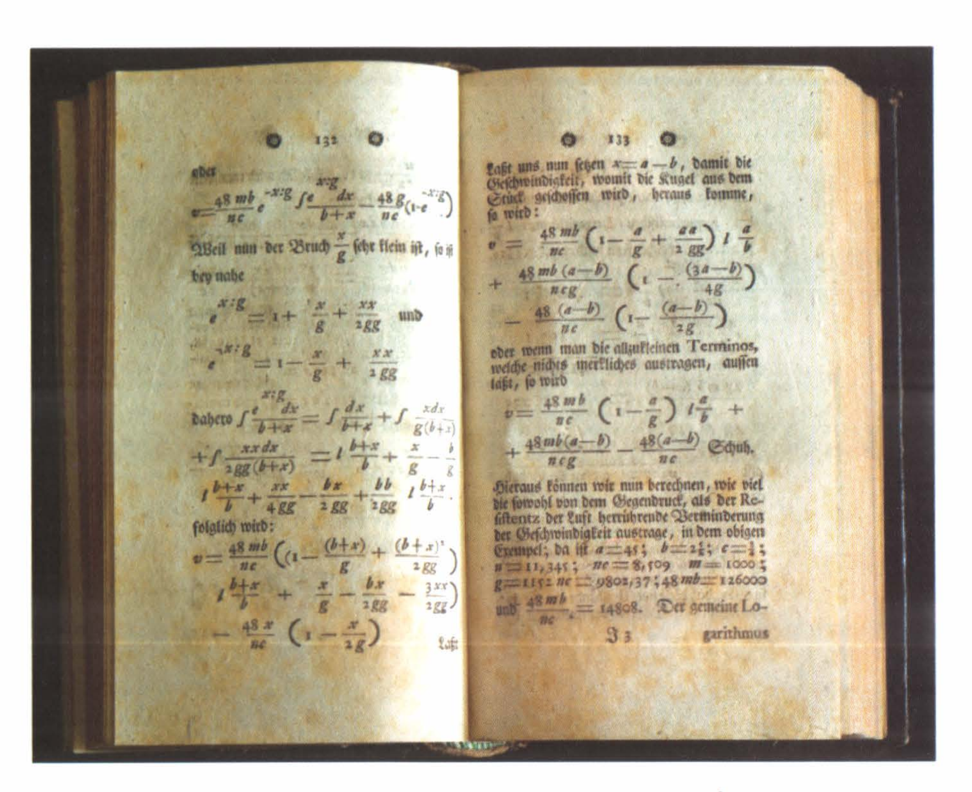


وصول الموفد العثماني
أحمد رسمي أفندي إلى
برلين في العام ١٧٦٣

رجال جان سوبيسكي يرفعون الحصار عن فيينا



النص الأصلي لوثيقة الرد على مكيافيلي التي كتبها فردريك الكبير مع تذييلات بقلم فولتير



132

oder

$$v = \frac{48\,mb}{nc} e^{-x:g} \int \frac{e^{x:g}\,dx}{b+x} - \frac{48\,g}{nc}\left(1 - e^{-x:g}\right)$$

Weil nun der Bruch $\frac{x}{g}$ sehr klein ist, so ist bey nahe

$$e^{x:g} = 1 + \frac{x}{g} + \frac{xx}{2gg} \text{ und}$$

$$e^{-x:g} = 1 - \frac{x}{g} + \frac{xx}{2gg}$$

$$\text{dahero } \int \frac{e^{x:g}\,dx}{b+x} = \int \frac{dx}{b+x} + \int \frac{x\,dx}{g(b+x)}$$

$$+ \int \frac{xx\,dx}{2gg(b+x)} = l\frac{b+x}{b} + \frac{x}{g} - \frac{b}{g}\, l\frac{b+x}{b} + \frac{xx}{4gg} - \frac{bx}{2gg} + \frac{bb}{2gg}\, l\frac{b+x}{b}.$$

folglich wird:

$$v = \frac{48\,mb}{nc}\left(\left(1 - \frac{(b+x)}{g} + \frac{(b+x)^2}{2gg}\right) l\frac{b+x}{b} + \frac{x}{g} - \frac{bx}{2gg} - \frac{3xx}{2gg}\right) - \frac{48\,x}{nc}\left(1 - \frac{x}{2g}\right)$$

Laßt

133

Laßt uns nun setzen $x = a - b$, damit die Geschwindigkeit, womit die Kugel aus dem Stück geschossen wird, heraus komme, so wird:

$$v = \frac{48\,mb}{nc}\left(1 - \frac{a}{g} + \frac{aa}{2gg}\right) l\frac{a}{b} + \frac{48\,mb\,(a-b)}{ncg}\left(1 - \frac{(3a-b)}{4g}\right) - \frac{48\,(a-b)}{nc}\left(1 - \frac{(a-b)}{2g}\right)$$

oder wenn man die allzukleinen Terminos, welche nichts merkliches austragen, aussen läßt, so wird

$$v = \frac{48\,mb}{nc}\left(1 - \frac{a}{g}\right) l\frac{a}{b} + \frac{48\,mb(a-b)}{ncg} - \frac{48(a-b)}{nc} \text{ Schuh.}$$

Hieraus können wir nun berechnen, wie viel die sowohl von dem Gegendruck, als der Resistentz der Luft herrührende Verminderung der Geschwindigkeit austrage, in dem obigen Exempel; da ist $a = 45$; $b = 2\frac{1}{8}$; $c = \frac{3}{4}$; $n = 11{,}345$; $nc = 8{,}509$ $m = 1000$; $g = 1152$ $nc = 9802{,}37$; $48\,mb = 126000$ und $\frac{48\,mb}{nc} = 14808$. Der gemeine Logarithmus

J 3

صفحات من النسخة الألمانية لكتاب بنيامين روبنز «المبادئ الجديدة للمدفعية»

المتّحدة الأميركية. كانت أميركا اللاتينية متخلفة حتى وقتٍ قريب جداً عن أميركا الأنكلو ـ ساكسونية. كيف حدث ذلك ولماذا؟ يمكن للمرء الافتراض أن السبب يعود إلى أن الأرض الشمالية كانت أكثر خصباً، أو أنها تختزن الذهب والنفط في باطنها، أو لأن الطقس كان أفضل، أو لأن توزيع الأنهر كان أكثر ملاءمة – أو لأن أوروبا كانت أقرب جغرافياً. لكن كل تلك العوامل لم تكن أساسيةً في نجاح الأميركيين الشماليين. لا يمكننا في الوقت ذاته الادعاء أن الأمبراطورية الإسبانية، أو البرتغالية، قد تأثرت بعيوب الأمبراطوريات الشرقية العظيمة. كان الإسبانيون، بخلاف الصينيين، من أوائل المشاركين في فورة التجارة العالمية بعد العام ١٥٠٠، وكانوا بخلاف العثمانيين من أوائل المشاركين في الثورة العلمية[1]. كان السبب، بدلاً من كل تلك الافتراضات، فكرةً تسببت بالفروق الهامة بين أميركا البريطانية وأميركا الإيبيرية. كانت فكرة تتعلق بالطريقة التي يجب على الناس أن يحكموا أنفسهم بها. يخطئ بعض الناس في تسمية هذه الفكرة «ديمقراطية»، وفي تصوّر أي بلدٍ يُمكن أن يتبناها بمجرد إجراء انتخابات. أما واقع الأمر فهو أن الديمقراطية قمة صرحٍ أساسه حكم القانون، أو لنكن أكثر دقة ونقل **إن قدسية الحرية الفردية وأمن حقوق الملكية الخاصة، تضمنهما حكومة دستورية تمثّل الشعب.**

أعلن أحد أعظم الأنكلو ـ ساكسونيين في وقت كانت الحضارة، كما يفهمها، تتعرض لخطرٍ مميت: «هناك كلمات قليلة تُستخدم بعفوية أكثر من كلمة **«حضارة»**. ماذا تعني هذه الكلمة؟» جاءت إجابته عن هذا السؤال تعريفاً للفرق السياسي بين الغرب وبقية أنحاء العالم، وكانت هي الأفضل من بين كل التعريفات:

إنها تعني مجتمعاً مستنداً إلى رأي المدنيين. إنها تعني أن العنف، وحكم المحاربين والقادة الاستبداديين، وواقع المعسكرات والحروب، والاضطرابات والطغيان، تخلي كلها المكان للمجالس التمثيلية [البرلمانات] حيث تُصاغ القوانين، وحيث تقوم محاكم العدالة المستقلة التي تحافظ على تلك القوانين على مدى

(١) Barrera-Osorio, Experiencing Nature.

فتراتٍ طويلة من الزمن. هذه هي الحضارة التي تنبت في تربتها الحرية، والراحة، والثقافة بشكلٍ مستمر. تقدّم الحضارة، عندما تسود أي بلد، حياةً أوسع وأقل إرهاقاً إلى مجموعات من الناس. تحترم [الحضارة] تقاليد الماضي ويصبح الإرث الذي تركه لنا رجال حكماء أو شجعان من ماضي تاريخنا ميراثاً غنياً يستطيع الجميع التمتع به واستخدامه. إن المبدأ الأساس للحضارة هو خضوع الطبقة الحاكمة للعادات الراسخة للشعب ولإرادته كما هو منصوصٌ في الدستور...[١]

هكذا كان ونستون تشرشل في العام ١٩٣٨، وهو ابن رجل إنكليزي وإحدى الوارثات الأميركيات. لكن من أين جاء ذلك التعريف الأنكلو- أميركي المحدّد عن الحضارة، أي عن الحرية والسلام المستندين إلى حكم القانون والحكومة الدستورية؟ ولماذا عجز ذلك التعريف عن الرسوخ في أميركا الواقعة جنوب ريو غراندي؟

تبدأ قصتنا بسفينتين. كان على متن إحدى السفينتين التي رست في شمال الإكوادور في العام ١٥٣٢ أقل من مئتي رجلٍ من الإسبان، وهم الذين كانوا من مرافقي الرجل الذي ادعى حصوله على لقب «حاكم بيرو». كان طموح أولئك البحّارة هو قهر أمبراطورية **الإنكا** لمصلحة ملك إسبانيا، وكذلك توفير حصولهم على حصةٍ كبيرة من الثروة ذائعة الصيت والمكونة من المعادن الثمينة. أما السفينة الأخرى، **كارولينا**، فقد وصلت إلى العالم الجديد بعد مرور ١٣٨ عاماً، أي في سنة ١٦٧٠. رست هذه السفينة في جزيرة قبالة ساحل ما هو اليوم **كارولينا الجنوبية**. كان من بين البحارة على متن السفينة بعض الخدم الذين اقتصر طموحهم المتواضع على العثور على حياة أفضل من حياة الفقر المدقع التي تركوها وراءهم في إنكلترا.

ترمز السفينتان إلى قصتنا هذه عن الأميركيتين. كان الفاتحون الإسبان على متن إحدى السفينتين، أما السفينة الأخرى فحملت مجموعة من الخدم المتعاقدين. حلمت إحدى المجموعتين بالنهب الفوري، وبجبالٍ من ذهب المايا تكون تحت

(١) Churchill, 'Civilization', pp. 45f.

تصرفها. أما المجموعة الأخرى فكانت تعلم أن سنين طويلة من التعب تنتظرها، وأن أتعابها سوف تُكافأ بإحدى أكثر الأصول جاذبية في العالم – أرض أميركا الشمالية العذراء – بالإضافة إلى حصتها من عملية صوغ القوانين. هذا هو الحلم الأميركي الشمالي.

لكن في البداية لم تكن أوضاع المهاجرين الجدد والفقراء، بالرغم من كل ذلك، أفضل حالاً من الإسبان الذين هاجروا إلى الجنوب. وصل الإسبان إلى تلك القارة قبلهم. تُرك أمر استعمار الأميركيتين خلال القرن السادس عشر، كلياً، إلى شعب شبه الجزيرة الإيبيرية. كان الإنكليز تائقين إلى السيطرة على كالايس Calais، لكن في هذه الأثناء تمكّن المغامرون الإسبان من إخضاع الأمبراطوريات المحلية القوية. أما في المكسيك فقد تمكّن هيرنان كورتيز في الفترة ما بين ١٥١٩ و١٥٢١ من إخضاع الأزتيك المتعطشين إلى الدماء. تمكّن فرنشيسكو بيزارو من إخضاع أمبراطورية الأنكا في جبال الأنديز المنعزلة بعد مرور عقدٍ من الزمن.

لم يمتلك بيزارو أيّ أوهام بخصوص العلاقة بين مخاطر هذا الإخضاع ومكاسبه. تطلب الأمر حملتين في العامين ١٥٢٤ و١٥٢٦ من أجل العثور على موقع أمبراطورية الأنكا. عمد بيزارو إلى إيضاح تلك العلاقة في سياق الحملة الثانية، وذلك عندما بدأ بعض رفاقه الأقل إصراراً بالتردد. رسم بيزارو خطاً على الرمال:

أيها الرفاق والأصدقاء. يقع هناك الجزء الذي يمثّل الموت، والصعوبات، والجوع، والعري، والأمطار، والهجران. تمثّل هذه الجهة الراحة. يمكنكم العودة من هنا إلى بنما لتصبحوا فقراء، ويمكنكم هناك المضي قُدُماً نحو البيرو لتصبحوا أغنياء. أريدكم أيها الإسبان الطيبون أن تختاروا ما هو الأفضل لكم(١).

اشتملت حملته الثانية التي انطلق بها من بنما في العام ١٥٣٠ على ١٨٠ رجلاً، وكان من بينهم مجموعة من الأشقاء والمقربين من مسقط رأسه تروجيلو. وصلت

(١) Hemming, Conquest of the Incas, p. 28.

الحملة إلى مرتفعات البيرو، ولم يكن تحت إمرة بيزارو سوى ستين من الخيّالة، وتسعين رجلاً من الجنود المشاة. وصلت جرأتهم إلى مدى يثير دهشتنا حتى بعد مرور خمسمئة سنة. بلغ عدد سكان الأمبراطورية التي أرادوا إخضاعها ما بين خمسة ملايين وعشرة ملايين نسمة.

وقف حليف غير مرئي إلى جانب الغزاة الإسبان: الأمراض الأوروبية التي لم تكن لدى سكان جنوب أميركا أي مقاومةٍ ضدها: الجدري، والإنفلونزا، والحصبة، والتيفوس. كانت الخيول، والبنادق، والأقواس الإسبانية، في الوقت ذاته، أسلحة متفوقة أكثر بكثير من أي سلاح يمتلكه الأنكا. أعطت تلك الأسلحة الغزاة مظهراً فضائياً مرعباً. أما الأنكا فكانوا منقسمين على أنفسهم. مات زعيم الأنكا هويانا كاباك، لكن ولديه آتاهوالبا وهواسكار تقاتلا لوراثته، بينما رأت القبائل الخاضعة لهما في ذلك فرصةً للتخلص من نير الأنكا. لم تكن معركة كاجاماركا، التي جرت في ١٤ تشرين الثاني من العام ١٥٣٢، معركة بالمعنى الصحيح. تحدث هيرناندو، شقيق بيزارو، عن وقوع آتاهوالبا في مصيدة عندما قبل دعوة الإسبان لتناول الغداء:

توقف آتاهوالبا بعد أن تقدّم إلى وسط الباحة المفتوحة، وما لبث أحد الرهبان الدومينيكان الذين كانوا مع الحاكم [بيزارو] أن تقدم منه كي يبلغه بالنيابة عن الحاكم أنه ينتظره في مسكنه، وأنه أُرسل كي يتحدث معه. أبلغ الراهب آتاهوالبا أنه كاهن، وأنه أُرسل إلى هذا المكان من أجل تعليم أمورٍ دينية إذا ما أرادوا أن يصبحوا مسيحيين. أطلع الراهب الرجل على كتابٍ كان يحمله في يديه [الإنجيل] وقال له إن هذا الكتاب يحتوي على أمورٍ تتحدث عن الله. طلب آتاهوالبا الحصول على الكتاب ورماه على الأرض وقال: «لن أغادر هذا المكان حتى تعيدوا إلينا ما أخذتم من أرضي. إنني أعرفكم جيداً وأعرف ما جئتم لأجله». نهض بعد ذلك من مكانه وخاطب رجاله، كما سرت همهمات بينهم ونداءات لأولئك الذين يحملون السلاح منهم. توجه الراهب إلى الحاكم وأبلغه بما حدث وأنه ليس بإمكانهم تضييع مزيد من الوقت. بعث إليّ الحاكم [بأوامر] فرتبت مع قائد المدفعية بأنه عند إطلاق الإشارة

ينبغي له إطلاق نيران المدافع، وأنه يجب على الجنود بعد سماعهم بما حدث أن يتقدموا على الفور. جرى تنفيذ كل ذلك فهُزم الهنود لأنهم كانوا غير مسلحين ومن دون أن يلحق الأذى بأي مسيحي[1].

قال مؤرّخ من الأنديز للقرن السادس عشر، وهو **وامان بوما** إن الإسبان قتلوا الهنود المرعوبين «مثل النمل»[2].

لم تُقهر البيرو نتيجة معركة واحدة، لأن الأنكا قاموا بثوراتٍ عديدة بقيادة **مانكو كاباك في العام** ١٥٣٥، وقاموا بثورة أخرى على نطاقٍ أوسع في الفترة ما بين العامين ١٥٣٦ و١٥٣٩. لم يتأخر الهنود عن تبني الأساليب الأوروبية في القتال. برهن هؤلاء أنهم محاربون شجعان على طريقة حرب العصابات. تشاجر الإسبان في هذا الوقت فيما بينهم، ووصلت خصوماتهم إلى حد إعاقة حركة سيطرتهم على البلاد، وإلى حد أن النزاع الداخلي [بين الأشقاء] كلّف بيزارو حياته في العام ١٥٤١. لم تُكسر مقاومة الأنكا نهائياً إلا بعد إعدام **توباك آمارو** بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً، أي في أيلول من العام ١٥٧٢.

كان بين الإسبان قائد شاب من **سيغوفيا** يدعى **جيرونيمو دي آلياجا**. رأى آلياجا أن البيرو غامضة بقدر ما هي رائعة. دُهش آلياجا بمستوى الهندسة المعمارية المتطورة عند الأنكا، وليس أقلها السور الشمالي الكبير الذي يحيط بقلعة **ساكسايهوامان في** عاصمتهم كوزكو، والمشيّد بأحجار متراصة زنة الواحد منها ٢٠٠ طن. شيّد الإسبان معظم أبنيتهم بعد ذلك على أنقاض الجدران التي بناها **الأنكا** وأسسها، وذلك بعد أن أدركوا مزاياها الاستثنائية المقاومة للزلازل[3]. أما هذه الأيام فيُمكن للمرء أن يأخذ فكرةً أفضل عن عظمة أيام **الأنكا** التي سبقت الفتوحات في **ماشو بيكشو**، وهي «مدينة الأنكا الضائعة» الأسطورية، التي تبدو وكأنها عائمة وسط غيوم جبال

(١) Markham (ed.), Reports, pp. 113-27.

(٢) Wood, Conquistadors, p. 134.

(٣) Hemming, Conquest of the Incas, p. 121.

الأنديز، وهي المدينة التي لم يعثر عليها الإسبان، ولذلك لم يدمروها قبل إعادة بنائها [كما فعلوا في أمكنة أخرى]. ربما تكون **ماشو بيكشو** Machu Picchu، التي تقبع فوق نهر يوروبامبا، قد شيّدت في منتصف القرن الخامس عشر. كانت المدينة مستوطنة مكتفية ذاتياً على الرغم من موقعها غير العملي في الظاهر، وهي التي تقع على سفوح جبل شديد الانحدار، ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر أكثر من ٨,٠٠٠ قدم. حظيت منازل المدينة بمياه جارية، ومدرجات صالحة لزرع المحاصيل ورعي المواشي. بقيت هذه المدينة مجهولة تماماً بالنسبة إلى العالم الغربي حتى العام ١٩١١، أي عندما عثر عليها أحد الجامعيين الأميركيين، والمستكشف حيرام بينغهام[١]. تشهد هذه المدينة على أنه ليس بإمكان أي حضارة مهما استشعرت من القوة في نفسها أن تكون بمنأى عن الدمار. إننا ما زلنا نجهل حتى هذه الأيام السبب بالتحديد الذي جعل الأنكا يهجرون تلك المدينة، وزمن حصول ذلك. ثمة احتمال قوي أن يكون أحد الأوبئة قد ضرب المدينة من هيسبانيولا (وهي الجزيرة التي لا تزال مقسمة هذه الأيام بين جمهورية الدومينيكان وهاييتي) وذلك في زمن سبق وصول الإسبان، وهو الوباء الذي قضى على سكانها وجعل من **ماشو بيكشو** مدينة أشباح.

كانت الذريعة التي اتخذها الإسبان لمهاجمة **كاجاماركا** هي أن الأنكا رفضوا التحوّل إلى المسيحية. لكن **بيزارو** كان مهتماً بالذهب أكثر من اهتمامه بالله. كانت المحاولة التي بذلها **أتاهوالبا** من أجل حفظ حريته، أي عندما ملأ غرفته مرة بالذهب ومرتين بالفضة، سبباً لإثارة شهية الإسبان إلى هذين المعدنين الثمينين. أدت كمية ١٣,٤٢٠ باونداً من الذهب من عيار ٢٢ قيراطاً و٢٦,٠٠٠ باوند من الفضة الخالصة إلى جعل كل رجلٍ في الحملة ثرياً بلمحة بصر. لكن كان هناك المزيد من تلك المعادن الثمينة[٢]. وجد الإسبان الذهب في هيسبانيولا، وكميات هائلة من الفضة في **زاكاتيكاس** في وسط المكسيك، كما وجدوا منجماً للفضة لا مثيل له في العالم

(١) Bingham, Lost City.

(٢) Burkholder, Colonial Latin America, p. 46.

في «الجبل الغني cerro rico» في **بوتوشي**. بدا أن الإسبان يعثرون على النقود أينما توجهوا في البيرو. كان جيرونيمو دي آلياجا كبير موظفي المحاسبة عند بيزارو، وكان في موقع يمكنه من التقدير الكامل لهذه الثروة المستجدة. تمكّن الإسبان في السنوات التي سبقت العام ١٥٥٠ من أخذ ما قيمته نحو ١٠ ملايين بيزوس من الذهب، وكان نصفها منهوباً، والنصف الآخر مستخرجاً من المناجم[١]. تزايد إنتاج المناجم من الفضة بمرور الوقت، فارتفع من ٥٠ طناً في السنة في مطلع القرن السادس عشر إلى ما ينيف على ٩٠٠ طن في العام ١٧٨٠[٢]. يمكننا القول إنه ما بين العامين ١٥٠٠ و١٨٠٠ تم شحن ما قيمته بأسعار هذه الأيام نحو ١٠٩ مليارات جنيه إسترليني من هذا المعدن الثمين من العالم الجديد إلى أوروبا مباشرة أو عبر المحيط الهادئ إلى آسيا. كانت كمية كبيرة من هذا الذهب مستخرجة من مناجم البيرو. تحوّل رجالٌ من أمثال **دي آلياجا** إلى أشخاص أثرياء جداً بالفعل. تمكّن الرجل من تشييد منزلٍ ريفي كبير في **ليما**، عاصمة البيرو الجديدة. اشتمل منزله هذا على باحة داخلية في موقع هيكلٍ للأنكا. استمر أحفاده في السكن في ذلك المنزل منذ ذلك الحين. يفخر الساكن الحالي لذلك المنزل، وهو غونزالو دي آلياجا بسلفه فخراً شديداً.

بدا الإسبان وكأنهم يؤسّسون لحضارة جديدة ورائعة تكون تحت إدارة مجموعة قليلة من المدن الرائعة، ويُشرف عليها نخبة من أفراد الطبقة الراقية التي وُلدت في إسبانيا. كبُرت هذه المدن بسرعة. بلغ سكان مدينة مكسيكو ١٠٠,٠٠٠ نسمة في العام ١٦٩٢ ، وذلك في وقتٍ لم يتعدّ عدد سكان بوسطن ٦,٠٠٠ نسمة. شيدت في تلك الفترة خمس وعشرون جامعة، مثل تلك التي شيدت في سانتو دومينغو التي سبقت هارفرد بنحو نصف قرن[٣]. ازدهر في ذلك الوقت علم رسم الخرائط وعلم

(١) المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٢) Findlay and O'Rourke, Power and Plenty, figure 4.4.

(٣) Lanning, Academic Culture.

المعادن[1]. تعلّم الإسبان تذوّق بعض مأكولات أميركا الوسطى، مثل المثلجات، والفستق، والبطاطا، والديوك الرومية (وهي المأكولات التي تبناها كلها سكان أميركا الشمالية)[2]. شُيّدت في هذه الفترة مئات من الكنائس المزيّنة بشكلٍ مسرف، وكان من بينها بعض أكثر الكاتدرائيات زخرفة في العالم، مثل تلك الكاتدرائية الضخمة في **كوزكو** التي صمّمها المهندس فرنشيسكو بيكيرا، والتي اكتمل بناؤها في العام ١٦٦٩ على يد اليسوعي الفلمنكي خوان باوتيستا إيجيديانو. توافد الفرنسيسكان بالآلاف إلى أميركا الجنوبية مثل ما فعل اليسوعيون بهدف ما تبقى من السكان الأصليين. بقيت السلطة العليا بيد التاج الإسباني، وذلك بالرغم من نفوذ الكنيسة القوي. أما الأمر الهام فهو أن ملكية الأراضي كانت تعود كلها إلى التاج الإسباني. أما قصة ملكية الأراضي في أميركا الشمالية فهي قصة مختلفة تماماً.

أرض الأحرار

ترجّل زوجان شابان مفلسان في العام ١٦٧٠ من أول سفينة رست في شواطئ كارولينا الجنوبية، وذلك بعد رحلة مروّعة عبر المحيط الأطلسي. سبق لميليسنت هاو، مثل رفيقها إبراهام سميث، أن وقّعت عقد عمل في أيلول من العام ١٦٦٩:

ليعلم الجميع أنني، ميليسنت هاو من لندن سبنستر، وفي التاريخ المذكور أدناه، أتعهد بالتقيد بحزم بهذه النقاط، وأنني أُلزم نفسي أن أكون خادمةً مخلصة ومطيعة في كل الأمور مهما كانت من أجل الخدمة، وأن أسكن مع القبطان جوزف وست من مدينة لندن ميرشانت، في مزرعة، أو في محافظة كارولينا[3].

قدم على هذا الأساس ما نسبته ٦٥ بالمئة إلى ٨٠ بالمئة من مجموع البريطانيين

(١) Barrera-Osorio, Experiencing Nature.

(٢) FernJndez-Armesto, Americas, p. 95.

(٣) South Carolina Department of Archives and History, Charleston.

الذين حضروا إلى شيسابيك في خلال القرن السابع عشر[1]. لم يكن ذلك استثنائياً بأي حالٍ من الأحوال. يعني ذلك أن ثلاثة أرباع المهاجرين الأوروبيين إلى أميركا البريطانية على امتداد الفترة الاستعمارية قدموا على أساس أنهم من الخدم المتعاقدين[2].

كان ذلك نوعاً مختلفاً جداً من الهجرة التي عرفها جيرونيمو دي آلياجا. عثر الإسبان على جبالٍ حقيقية من الفضة في المكسيك والبيرو. أما كل ما بدا أنه موجود في سواحل كارولينا فقد كان ميداناً لجذوع الأشجار المتروكة. لم تكن تلك البلاد **إلدورادو**. اضطر المستوطنون في أميركا الشمالية، بدلاً من ذلك، إلى زرع الذرة كي يأكلوا، وزرع التبغ كي يتاجروا به[3]. بقيت المستعمرات الأميركية التابعة لبريطانيا مساحات من المزارع والقرى، بينما ظهرت بلدات قليلة من دون وجود مدن حقيقية. كان السكان الأصليون أقل عدداً، لكن إخضاعهم لم يكن أسهل على الإطلاق. كان بإمكان المرء، حتى في العام ١٦٧٠، أن يُعذر على اعتقاده أن أميركا التي عاش فيها جيرونيمو دي آلياجا هي أرض المستقبل، هذا في الوقت الذي كُتب على بلاد ميليسنت هاو أن تبقى روريتانيا الغامضة.

ماذا كان حصل لو أن الأمور جرت على نحو معكوس؟ وماذا لو انتهى آلياجا في كارولينا إسبانية، ولو انتهى هاو وسميث في بيرو بريطانية؟ قال المؤرّخ جاي. آيتش. إليوت ذات مرة فيما يشبه الدعابة، «لو أن [إنكلترا] هنري الثامن كانت مستعدة لرعاية رحلة كولمبس الأولى:

ولو تمكّنت قوة استطلاعية [من الإنكليز] من قهر المكسيك لمصلحة هنري الثامن، لكان من الممكن عندئذ... زيادة كبيرة في ثروة التاج الإنكليزي مع تدفق كمياتٍ كبيرة من الفضة الأميركية إلى الخزائن الملكية، وتطوير استراتيجية إمبريالية

(١) Tomlins, 'Indentured Servitude'.

(٢) Engerman and Sokoloff, 'Once upon a Time in the Americas'.

(٣) See in general Egnal, New World Economies.

متماسكة تهدف إلى استغلال موارد العالم الجديد، وذلك بالإضافة إلى تكوين بيروقراطية إمبريالية لحكم مجتمعات المستوطنين والأشخاص الذين يعيشون تحت سيطرتهم، وكذلك النفوذ المتقلص في البرلمان في الحياة القومية، وتأسيس حكمٍ ملكي إنكليزي مطلق ممولٍ من فضة أميركا(١).

يعني ذلك، بكلماتٍ أخرى، أنه ليس من المؤكد أن المستعمرات البريطانية كانت ستظهر على ما كانت عليه لو أنها أُسست في أميركا الجنوبية بدلاً من أميركا الشمالية.

ماذا كان سيحدث لو أن إنكلترا الجديدة أُسّست في المكسيك، ولو أن إسبانيا الجديدة أُسّست في ماساشوستس؟ وماذا سيحدث لو أننا تصورنا أن إنكلترا، وليس كاستيل، هي التي انجرفت وراء الحكم المطلق بسبب الفضّة المستخرجة من مناجم البيرو، وهل بإمكاننا أن نتخيل بالمثل أن **كاستيل**، وليس إنكلترا، هي التي زرعت بذور الفضائل الجمهورية في المرتفعات العالية؟ أيُعقل أن **كورتيس**، وهي أقرب ما امتلكته إسبانيا في بداية عهدها بالبرلمان، قد تمكنت من حشد ما يكفي من النفوذ الذي مكّنها من تأسيس أول ملكية دستورية في أوروبا الغربية؟ وهل بإمكاننا أن نتصور قيام ولايات متحدة [إسبانية] نتيجة نزاع مع الإسبان، بدلاً من أن يكون ذلك النزاع مع سلطة إمبريالية بريطانية، تتكلم الإسبانية منذ بداية تأسيسها؟ لا يبدو هذا التبادل في الأدوار مقنعاً، أو معقولاً جداً. نشأت **المقاطعات** [المحافظات] **المتحدة** نتيجة الثورة الهولندية ضد الحكم الإسباني. ربما كان الأمر مجرد احتمال – غياب ذهب وفضة العالم الجديد أو وجودهما – أسفر عن دفع إنكلترا بعيداً في طريق الحكم البرلماني، ودفع إسبانيا نحو أسفل طريق الحكم المطلق. كان بإمكان **تشارلز الأول** الحفاظ على «حكمه الشخصي» مع توافر المداخيل الإضافية التي هي خارج نطاق سيطرة البرلمان، وكان بإمكانه تجنّب المواجهة الحاسمة التي أسفرت عن الحرب الأهلية البريطانية. كان خصومه من البيوريتانيين [البروتستانت الإنكليز] في

(١) Elliott, Empires of the Atlantic World, p. 411.

مجلس العموم من كبار السن في العام ١٦٤٠. يعني ذلك أن التحدي الذي يمثلونه كان سيتلاشى بعد مرور عدة سنوات[1]. لم يكن كذلك ما يضمن أن بريطانيا ستُدفع بعيداً، ومجدداً، عن الحكم المطلق الذي فرضه الغزو والانقلاب الهولنديان اللذان أسفرا عن تنصيب وليام، أمير أورانج، ملكاً[2]. كان بالإمكان، في عدة مناسباتٍ، كسر تسلسل الأحداث الذي انطلق مع المعاناة المالية التي عرفها جايمس الأول وصولاً إلى خلع جايمس الثاني عن العرش. لا تصل أي رواية أخرى عن التاريخ الإنكليزي إلى الانحياز الذي وصلت إليه رواية **الويغ** Whig، وذلك بسبب افتراضها أن **الثورة المجيدة** Glorious Revolution في العام ١٦٨٨ كانت تسوية فرضها القدر بين الملك والهيئة التشريعية. ظلّ أرستقراطيو **الويغ**، وهم الذين كانوا المستفيدين الحقيقيين من خلع آل ستيوارت عن الحكم، حتى ما بعد العام ١٦٨٨، عرضة للانقلابات المضادة التي قام بها اليعاقبة، وهم الذين تمتعوا بدعم كبير من جيرانهم **السلتيك** Celtic.

إن جوهر المسألة هنا هو من ناحية الأهمية النسبية في العملية التاريخية، كنوز الموارد الأولية في المقاطعات المستعمَرة في العالم الجديد، وهو من ناحية أخرى المخطّطات المؤسسية التي أحضرها المستعمرون معهم من أوروبا. أما لو افترضنا أن الظروف الأولية هي العامل الحاسم فيمكننا القول إذّاك إنه لا فرق إن ظهر الإنكليز أو الإسبان في البيرو، لأن النتيجة كانت ستبقى هي ذاتها إلى حدٍ بعيد، وذلك لأن الإنكليز كانوا سيشعرون بالدوافع ذاتها لنهب ثروات الأنكا، كما كانوا سيقعون فريسة «لعنة الثروة» المتمثلة في التوافر الرخيص للذهب والفضة[3]. يمكننا أن نفترض كذلك أن المستوطنين الإسبان لكانوا أكثر إبداعاً لو أنهم وجدوا في **خليج شيسابيك** الخالية من الذهب. لكن إذا ما اعتقدنا أن المتغيّر الأساسي هنا كان المؤسسات [النُظُم] التي حملها المستوطنون معهم فعندئذ ستفرض بدائل أخرى مختلفة تماماً.

(١) Adamson, 'England without Cromwell'.

(٢) Clark, 'British America'.

(٣) Acemoglu et al., 'Reversal of Fortune'.

أثمر الاستعمار البريطاني نتائج اقتصادية أفضل من تلك التي أنتجها الاستعمار الإسباني أو البرتغالي، وذلك بغض النظر عن المكان. ليس لدينا معيار مثالي لهذا الافتراض، وذلك لعدم وجود مستعمرتين متشابهتين تماماً، لكننا نلاحظ أن أريزونا هي أغنى من المكسيك، وأن هونغ كونغ أغنى من مانيلا. بناءً على كل ذلك، ربما لو استعمر البريطانيون المكسيك والبيرو لكنا رأينا اليوم ولاياتٍ متحدة لأميركا الوسطى والجنوبية. ربما كذلك لو استعمر الإسبان أميركا الشمالية لكانوا تركوا تلك المنطقة فقيرة نسبياً ومقسّمة إلى جمهوريات متنازعة بعضها مع بعض. يعني ذلك أننا كنا سنشهد دولاً متعددة القوميات مثل كولومبيا بدلاً من مقاطعة كولومبيا الوحيدة [في الولايات المتحدة الآن] لتكون مركز الحكومة الاتحادية، وكنا سنشهد عداوة دائمة بين وسكونسن ومينيسوتا بدلاً من الخصومة بين كولومبيا وفنزويلا.

كانت إنكلترا تختلف فعلاً عن إسبانيا في العام ١٦٧٠، أي قبل وقتٍ طويل من ظهور التصنيع. استمر العنف، الذي يُقاس بحسب نسبة جرائم القتل، في الهبوط المستمر منذ القرن الرابع عشر. أما **الثورة المجيدة** التي حدثت في العام ١٦٨٨ فقد حملت معها نهاية حقبة من الحرب الأهلية المتقطعة، وذلك بالرغم من خوض عدة معارك لفرض النظام في مناطق **السلتيك**، وعلى الخصوص في شمال أسكتلندا وجنوب إيرلندا. بدأت نسبة الولادات بين الإنكليز بالتزايد بثبات بدءاً من العام ١٦٤٠ من حوالى ٢٦ بالألف إلى ذروة بلغت ٤٠ بالألف في مطلع القرن التاسع عشر. لم تُطبِق المصيدة المالتوسية مع ذلك كما فعلت في الماضي، واستمرّت هكذا في أمكنة أخرى. ارتفعت الأجور الحقيقية كذلك، كما أن الإيجارات اتجهت نزولاً. يُضاف إلى ذلك أن نسبة معرفة القراءة والكتابة قد ارتفعت بصورة ملحوظة[١]. كان التغيّر الحاسم هو توافر خيار الخروج بالنسبة إلى الذين هم على استعداد للمخاطرة بالقيام برحلة عبر المحيط الأطلسي. تعدى عدد المهاجرين بحسب نظام الهجرة الانتقائية في الأربعينيات من القرن السابع عشر الرقم ١٠٠,٠٠٠ شخص، كما راوح

(١) Clark, Farewell to Alms.

العدد بين ٣٠,٠٠٠ و٧٠,٠٠٠ في كل عقدٍ من العقود حتى التسعينيات من القرن الثامن عشر[١]. أما أولئك الذين خشوا أن يخسر الوطن أولئك المهاجرين المغامرين فقد عجزوا عن إدراك منافع الهجرة إلى ما وراء الأطلسي، وذلك لأن التجارة بين المستعمرات الأميركية وأوروبا ازدهرت كثيراً. كان تصدير اليد العاملة أكثر منفعة في أميركا الغنية بالأراضي والفقيرة باليد العاملة. أفادت مغادرة المهاجرين كذلك، وبطريقة غير مباشرة، أقاربهم غير المحبين للمخاطرة الذين تركوهم وراءهم، وذلك لأن الهجرة تسببت برفع أجور أعمالهم، وإن جرى ذلك بنسبة طفيفة.

أما أمثال مليسينت هاو وأبراهام سميث الذين تركوا إنكلترا متوجهين إلى أميركا بعد العام ١٦٧٠ فقد أخذوا القليل معهم. عمد هؤلاء إلى دفع أجور سفرهم عن طريق رهن عملهم المستقبلي، لكنهم حملوا في أذهانهم عدداً من الأفكار التي أثرت تأثيراً واسعاً في مستقبلهم الأميركي. كانت الفكرة الأولى هي **حقوق الملكية**[*] وذلك لأنهم نشأوا على فكرة محاكم القانون العام [الذي يتجمع نتيجة العادات وقرارات المحاكم] (وكذلك على مبدأ المحاكم العليا) منذ القرن الثاني عشر[٢]. أما الفكرة الثانية فقد كانت فكرة بروتستانتية متطرفة (بالرغم من أنه من الأهمية بمكان عدم نسيان أن الكويكرز، والكاثوليك، واليهود أدوا أدوارهم كذلك في الاستيطان في منطقة الساحل الشرقي)[٣]. تتمثل الفكرة الثالثة في أن الضريبة تعتمد في شرعيتها على مصادقة البرلمان. كانت تُرسل «الإمدادات supply» إلى التاج في مقابل الموافقة على معالجة الشكاوى عن طريق التشريعات. كانت تلك هي المسائل الجوهرية للحرب الأهلية البريطانية. إن معاداة اتساق [أو وحدة] العبادة الأنجليكانية

---

(١) Emmer, Colonialism and Migration, p. 35.

(*) خصوصاً الحق المفترض للوارث الذكر في وراثة أرض والده، والتمييز من حيث العزل بين عقد البيع والإرث، والتمييز من حيث ضمان الحيازة بين الاستثمار والتأجير، واستخدام التعدي على ممتلكات الغير والطرد لتحديد عنوان وشرعية «الاستخدام» و«الثقة»، باعتبارها وسيلة للتهرب من المستحقات الإقطاعية وغيرها من المتوجبات.

(٢) North et al., Violence and Social Orders, ch. 3.

(٣) Fernandez-Armesto, Americas, p. 159.

التي كان الأسقف **وليام لود** يطمح إليها، إضافة إلى معاداة التجديدات المالية التي ابتكرها تشارلز الأول، هما اللتان أسبغتا على أزمة منتصف القرن السابع عشر سمةً مميزة في الجزر البريطانية. أورد نقّاد الملك في البرلمان في التماس [عريضة] الحقوق المطالبة أنه «لن يُجبر أي رجل من الآن فصاعداً وعلى الخصوص، صاحب الحق الافتراضي، للوارث الذكر في وراثة أراضي والده، والتمييز في شروط التفريق بين الملكية البسيطة والملكية المحدودة، والتمييز في شروط ضمان الحيازة بين المُلْكية الصرف وcopyhold، والاستخدام غير القانوني للممتلكات trespass، والطرد ejectment من أجل تحديد الأحقية والشرعية لكلمتَي «استخدام» و«ائتمان» كطريقة لتجنب الضرائب الإقطاعية أو الرسوم المفروضة، على إعطاء، أو تسليم، أي هدية، أو قرض، أو صدقة، أو ضريبة، أو مثل هذه الرسوم من دون موافقة البرلمان».
أما عندما انتهت المحاولة الفاشلة لفرض كتاب **لود للصلوات العامة** بحرب، اضطر إذّاك تشارلز إلى العودة إلى البرلمان حاملاً قبعته بيده. لكن بدلاً من أن يعمد تشارلز إلى قبول ما أصبح لائحة اختراقات البرلمان الطويلة لامتيازاته، فضّل أن يرفع العلم الملكي في آب من العام ١٦٤٢ وأقحم البلاد في الحرب. خسر **تشارلز** الرهان فدفع الثمن بقطع رأسه في ٣٠ كانون الثاني من العام ١٦٤٩. انتهت جريمة قتل الملك بإعلان الجمهورية (الكومونولث)، لكن الجمهورية ما لبث أن تحولت، كما يُمكن للمرء أن يتوقع حصوله في النظرية السياسية التقليدية، بالاستبداد الذي مارسه أوليفر كرومويل بصفته رئيس الدولة lord protector. عادت المَلَكية بعد موت كرومويل، لكن القضايا القديمة عاودت الظهور. وُجّهت الشبهات نحو **تشارلز الثاني** وشقيقه، لأسبابٍ وجيهة، بالميل نحو كنيسة الروم الكاثوليك، وذلك بالإضافة إلى رغبةٍ في تقليص سلطة البرلمان. كان خلع تشارلز الثاني في العام ١٦٨٨ عملية انقلاب هولندي بدعوةٍ من البرلمان، كما أن **إعلان الحقوق** Declaration of Rights قد أنهى بشكلٍ قاطع الجدال بشأن السلطة المالية: «إن فرض مبلغ من المال لأجل التاج، أو لاستخدامه بحجة الامتيازات، من دون موافقة البرلمان، ولمدة أطول، أو بأي طريقة

أخرى غير الطريقة التي ينبغي فيها منح هذا المبلغ، هو عملٌ غير شرعي». إن إنهاء تهديد فرض الضرائب بطريقة عشوائية، ووضع الإنفاق والاستقراض تحت مراقبة هيئة [تشريعية] ذات تمثيل غير متوازن بالنسبة إلى مالكي الأراضي [العقارات]، يعني أن **الثورة المجيدة** Glorious Revolution قد أرست أساساً متيناً لتكوين ما يُمكن أن يُدعى «العقدة البحرية المالية»[1]. يشك المرء كثيراً بأن آل ستيوارت كانوا سيبطلون هذا الترتيب حتى لو أُعيدوا إلى الحكم في العام ١٧١٤ أو في العام ١٧٤٥.

كان التغيير الأوسع الذي حدث في إنكلترا القرن السابع عشر يتعلّق بطبيعة السياسة ذاتها. دار الجدال بين اثنين من رجال أكسفورد – تعلم أحدهما في **ماجدالين هال**، والآخر في كنيسة المسيح Christ Church – تحدرا من بيئة أرستقراطية، وهما إيرل ديفون شاير في الأولى، وإيرل شافتسبوري في الثانية. استقى الرجلان أفكاراً كثيرة من الفترة التي قضياها في الخارج، فالأول قضى فترة من الزمن في فرنسا، والثاني في هولندا. أما بالنسبة إلى توماس هوبس فقد كتب في مؤلفه Leviathan (١٦٥١)، الدرس المستخلص من النصف الأول من القرن السابع عشر بوضوح: «في الوقت الذي يعيش الرجال من دون سلطة مشتركة في حالةٍ من الرهبة فإن ذلك يعني أنهم... في حالة حرب... ويقف فيه كل رجلٍ ضد كل رجلٍ آخر»[2]. قال هوبس إن «الخوف هو الذي يجعل الرجال يقومون بوظائفهم»، ولذلك يجب إيكال السلطة إلى ملكٍ [حاكم] يكون مسؤولاً عن الدفاع، والتعليم، والتشريع، والعدل. أما النقطة الحاسمة هنا فهي إيمان هوبس بأن الملك يجب أن يتمتع بحصانة ضد التحديات الآتية من رعيته. لا يمكن للملك أن يتقيّد بأي «ميثاق» (أو دستور)، ولا يمكن «تقسيم سلطاته»، ولا يمكن أن «يُعدَم بعدالة»[3]. لا يُعدّ ذلك (كما يحدث في بعض الأحيان) تبريراً للحكم الملكي المطلق، بل على العكس من

(١) The classic statement is by North and Weingast, 'Constitutions and Commitment'. See also on the role of fiscal strength and overseas expansion O'Brien, 'Inseparable Connections'.

(٢) Hobbes, Leviathan, Part I, ch. 13.

(٣) المرجع نفسه، ص١٨.

ذلك فإن Leviathan، وهو أطروحة **هوبس** ـ بنظرته اليائسة إلى عيوب الإنسان، وبحججه البراغماتية [الواقعية] التي تدل على الحاجة إلى ملكٍ قوي ـ قطع علاقاته مع آل ستيوارت الذين كانوا منفيين في ذلك الوقت. أوضح هوبس أن مليكه [الحاكم] يمكن أن يكون إما ملكاً وإما برلماناً (إما «رجل واحد، وإما مجموعة من الرجال»)[1]. يعني ذلك أن مفهومه كان بعيداً جداً عن الحكم المطلق ذي الحق الإلهي الذي كان يؤمن به أمثال السير روبرت فيلمر المناصر لآل ستيوارت، وهو مؤلف كتاب Patriarcha.

جاء كتاب **جون لوك** الأول **أطروحة عن الحكم** [أو الحكومة] (١٦٩٠) بمنزلة نقض لكتابات فيلمر، لكن كتابه الثاني **أطروحة** قدّم تحدياً بحثياً وحقيقياً لكتابات هوبس. احتج **لوك** بأن الملك القوي هو أبعد من يكون عن الحل للحالة الطبيعية، بل إن الوضع الحقيقي للطبيعة هو الانسجام، وهكذا فإن الحاكم المطلق المنتظر هو الذي يضع نفسه في حرب مع المجتمع عندما يسعى إلى «إلغاء **الحرية**»[2]. لا يختار الشعب أن يُحكَم بسبب الخوف فقط. يدخل الشعب، بصفته «تجمعاً [مجتمعاً] من الكائنات العاقلة»، في «مجتمع من أجل مصالح أفراده المتبادلة». اقترح **لوك** أنه في جمهورية **كومونولث** مكوّنة على ذلك الأساس فإن السلطة لا تُمنح إلا بواسطة «مجتمع مدني» إلى «[مجلس] تشريعي»، تستند معظم قراراته إلى الموافقة الضمنية لسائر المواطنين. فضّل لوك ـ في تناقض واضحٍ مع اعتقاد هوبس أنه **لا** يمكن تجزئة السلطات الموحّدة للملك – فصل «[السلطة] **التنفيذية**»، وما دعاه الفروع «**الاتحادية**»، عن [السلطة] أو الفروع **التشريعية**، وذلك بالرغم من أنه اعتبر [السلطة] التشريعية هي المؤسسة المهيمنة، وهي التي تُناط بها مسؤولية تعيين القضاة وكذلك إصدار القوانين. أما النقطة الأكثر إدهاشاً هنا فهي الفرق بين **نظرية هوبس** عن الحرية **ونظرية لوك**. يرى الأول أن «حرية المواطن تكمن... فقط

(١) المصدر نفسه، ص١٧، ١٩.

(٢) Locke, Two Treatises, Book II, ch. 3.

في تلك الأمور التي... سبق للملك أن منحها - في حالات «إسكات القانون»، فإن الافتراض يجب أن يكون لمصلحة الملك. أما **لوك** فقد نظر إلى المسألة بطريقةٍ مختلفة تماماً:

حيث لا يوجد القانون، لا توجد حرية... [المجلس] التشريعي... ملزمٌ بتنفيذ العدالة... وذلك بإصدار القوانين، وتعيين القضاة المخولين... ومن دون أن يكون له أي غاية غير المصلحة العامة للشعب[١].

أما الحرية فهي من وجهة نظر **لوك** شيء متميزٌ تماماً، وهو يرى أن حرية الإنسان: «حرية التصرّف dispose، وإدارة شخصه، وأفعاله، وممتلكاته، وكامل ممتلكاته، كما يشاء في نطاق ما تسمح به القوانين التي يخضع لها [ذلك الشخص] وأن لا يكون خاضعاً لإرادة القوانين الأخرى العشوائية...»[٢] يكمن هنا جوهر المسألة: «ولهذا، إن الغاية العظيمة والرئيسة من وراء اتحاد البشر في [عدة وحدات] كومنولث... هي **المحافظة على ممتلكاتهم**»[٣]. كما أن [المجلس] التشريعي لا يستطيع «أخذ أي جزءٍ من ممتلكات أي رجل من دون موافقته»، بمعنى موافقة غالبية النواب على فرض الضريبة. تستتبع هذه الفرضية نتائج ثورية بالفعل، الأمر الذي أدركه لوك جيداً. ظهر ذلك بعد وقتٍ قصير من أحداث العام ١٦٨٨:

بما أن [المجلس] التشريعي هو السلطة المؤتمنة على التحرك لأجل غاياتٍ محددة، لكن تبقى مع ذلك بيد الشعب السلطة العليا لإلغاء أو تغيير [المجلس] التشريعي، عندما يكتشف أن هذا [المجلس] التشريعي يتصرف بشكلٍ مغاير للثقة التي أُنيطت به[٤].

بالرغم من أنه لم تظهر سوى نسخة أميركية واحدة من **الأطروحتين** قبل العام

(١) المصدر نفسه، ص١١.
(٢) المصدر نفسه، ص٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٩.
(٤) المصدر نفسه، ص١٣.

١٧٧٦ – وهي كانت نسخة ناقصة – إلا أن أفكار **لوك** تركت تأثيراً عظيماً في تطوير المجتمع والسياسات في أميركا الشمالية. لكننا نجد، في المقابل، أن السياسة في أميركا اللاتينية بعد الاستقلال قد انتهت بالتذبذب ما بين دولة الطبيعة الفوضوية عند هوبس، وصيغة بدائية للملك الاستبدادي عنده.

أضاف العالم الجديد مساحاتٍ هائلة من الأراضي إلى ممالك الغرب الأوروبية. أما المشكلة الأساسية التي واجهت المستوطنين الجدد في الأميركيتين – الإسبان في الجنوب، والبريطانيين في الشمال – فكانت كيفية توزيع تلك الأراضي الجديدة. أما الحلول التي قدّمها المستوطنون لحلّ هذه المشكلة فهي التي حدّدت في آخر الأمر هوية القيادة المستقبلية للحضارة الغربية. كان الفرق بين الطريقتين واسعاً جداً.

حمل أول قبطان نزل من أول سفينة تصل إلى كارولينا [الشمالية والجنوبية] إلى الشاطئ مجموعة من النُظُم المؤسّسية للعالم الجديد – وهي المجموعة التي كانت في صلبها مسألة الأراضي. كُتبت «الدساتير الأساسية لكارولينا» في شهر آذار من العام ١٦٩٩. لم ينصّ هذه الدساتير أحدٌ غير جون لوك، وذلك بصفته أحد المالكين القانونيين الثمانية لكارولينا، وإيرل شافتسبيري. تُعدُّ هذه وثيقة في منتهى الأهمّية بالنسبة إلى الأمور التي لم يتبنّها المستعمرون، وكذلك بالنسبة إلى ما لم يتبنوه. كان لوك مطيعاً لسيده الأرستقراطي الذي كان حريصاً على «تجنب إقامة ديمقراطية عددية»، وهكذا لخّص **لوك** خطة كان من شأنها تأسيس أرستقراطية وراثية ومجتمع تراتبي hierarchical في الأميركيتين بحيث يشتمل على supreme lord palatine، وحكّام مقاطعات، وبارونات، وكل أنواع المناصب الفريدة الأخرى مثل caziques، وleet-meng، وذلك بالإضافة إلى قيودٍ صارمة على سلخ وتقسيم الأراضي ذات العقارات الكبيرة. سعى **لوك** كذلك إلى حظر عمل المحامين المهنيين، متذرعاً بأنه «من الخسّة والحقارة طلب المال أو المكافآت». أضاف سيّد **لوك** النبيل إحراجاً آخر عندما أجبره على إضافة المادة (٩٦) التي تقضي بتسمية

كنيسة إنكلترا على أنها كنيسة كارولينا الشرعية[1]. امتلك المستعمرون من الحكمة ما جعلهم يتجاهلون معظم تلك المواد، لكنهم احتفظوا بإحدى فرضيات لوك الأساسية، وهي المادة التي تقضي بوجود رابطٍ بين التمثيل السياسي وملكية الأراضي. حددت المادة الرابعة أن ثلاثة أخماس الأرض يجب أن تقسّم «ما بين الشعب». أما المادتان ٧١ و٧٢ فأعلنتا وجوب قيام برلمان يجتمع مرة في كل سنتين:

يجب ألاّ يتم اختيار أي عضوٍ في البرلمان يمتلك أقل من خمسمئة آكر بحيث تكون ملكاً خالصاً له، وتقع في منطقته الانتخابية التي يُنتخب فيها، ويجب ألاّ يمتلك أحدٌ صوتاً في اختيار ذلك العضو إذا امتلك أقل من خمسين آكراً ملكاً خالصاً له من ضمن الدائرة المذكورة.

يعني كل ذلك أن الكثير يتوقف على كيفية توزيع الأراضي في كارولينا.

سرت المخاوف في البداية من أن يكون أول أسطولٍ يقلّ المستوطنين المرسلين إلى كارولينا قد ضاع في البحر. شاعت أنباء وصولهم بالسلامة ولم يطل الوقت كثيراً قبل كتابة ما عُرف بعد ذلك باسم **إعلان باربادوس** الذي يهدف إلى تنظيم عملية توزيع الأراضي. أما الأمر الهام هنا فهو وجود حدّ أدنى مضمون [من الأراضي لكل مستوطن]: «يحقّ لكل رجلٍ حرّ، هو وورثته من بعده إلى الأبد، وصل إلى هنا قبل ٢٥ آذار ١٦٧٢ أن يزرع مساحة ١٠٠ آكر ويقيم هنا...» لكن ماذا سيحدث إذا لم يتوافر عدد كافٍ من الرجال الأحرار ليستفيدوا من هذا العرض؟ كان الحلّ البديهي هو أنه عندما تنتهي مدة عمل الخدم المتعاقدين، التي عادة ما كانت من خمس أو ست سنوات، فيمكنهم تسلّم الأراضي المخصصة لهم.

كانت الحياة في إنكلترا قاسية بالنسبة إلى ميليسنت هاو وآبراهام سميث. أما رحلة عبور الأطلسي فقد كانت مشحونة بالمخاطر، كما كانا يدركان، وبكل تأكيد، أن أعداداً كبيرة من المهاجرين إلى المستعمرات في شمال أميركا لم تتمكن من تخطّي

(١) Full text at http://avalon.law.yale.edu/17th_century/nc05.asp.

أول سنة أو سنتين من seasoning. لكنهما وجدا حافزاً مهماً لأخذ تلك المخاطر. كانت حقوق الملكية في إنكلترا مضمونة، لكن ملكية الأراضي كانت بأيدي قلة من الناس. (امتلكت ما بين ٦,٠٠٠ و١٠,٠٠٠ من أسر النبلاء والطبقة الراقية في سنة ١٤٣٦ نحو ٤٥ بالمئة من الأراضي، كما امتلكت الكنيسة ٢٠ بالمئة، أما التاج فقد امتلك ٥ بالمئة). أما في أميركا فكان حتى أفقر الفقراء يمتلكون الفرصة للبدء بشراء الأراضي. كان ذلك هو أساس نظام headright الذي طُبّق في فرجينيا، وميريلاند، ونيوجيرسي، وبنسلفانيا. كان ذلك نظاماً منطقياً جداً في المستعمرات حيث كانت الأراضي متوافرة واليد العاملة قليلة[١]. لاحظ لوك في كتابه «تأملات في نتائج تخفيض الفوائد»: «إن معظم الدول في الأجزاء المتمدنة من العالم هي إلى حدّ بعيد إما غنية وإما فقيرة، وتعتمد نسبة الغنى أو الفقر على ندرة شعبها أو كثرته، وليس على قحل أراضيها أو خصبها». إن الأمبراطوريات [الممالك] المتخاصمة – مثل الإسبان والهولنديين – لا تستطيع إجراء أي تحسينات عن طريق الزراعة، أما ما فعلته هاتان المملكتان في الهند الشرقية فقد فعلتاه فقط عن طريق الحرب، والتجارة، وتشييد المدن المحصنة، والقلاع على السواحل، وهما فعلتا ذلك من أجل تأمين حركة التجارة في الأماكن والشعوب التي سيطرتا عليها بالحرب، ولم تفعلا ذلك بواسطة تسوية الأراضي وإصلاحها، والزراعة، أي كما فعل الإنكليز»[٢]. لم يقتصر الأمر على أن هذه الزراعة الناشطة للأراضي هي نوع من الاستعمار ذو جدوى اقتصادية أكبر. أدى الأمر كذلك إلى تشريع نزع ملكية الأراضي من سكانها الأصليين الذين يعتمدون على الصيد وجمع الغذاء. قال **لوك**: «كلما زادت مساحة الأراضي التي يحرثها الإنسان ويزرعها ، ويحسّنها، ويرعاها، والتي يتمكن من استخدام محاصيلها أصبحت ملكه. إنه ينتزعها من الأملاك العامة بعمله وجهده»[٣]. كانت أراضي الصيد التي يستخدمها الهنود أرضاً من دون مالكين terra nullius ولهذا

(١) Engerman and Sokoloff, 'Once upon a Time in the Americas'.

(٢) Arneil, John Locke and America, p. 98.

(٣) Locke, Two Treatises, Book II, ch. 5.

فهي جاهزة للتطوير، وذلك بحسب هذا التعريف للملكية الخاصة. كان ذلك بمنزلة قانون لانتزاع ملكية الأراضي.

إن كل المعاملات العقارية التي جرت منذ وصول أوائل المستوطنين هي معاملات مسجلة في مكتب شمال شارلستون لنقل الملكية، وتتضمن السجلات كل قطع الأراضي الصغيرة التي مُنحت للرجال والنساء الذين أتموا شروط عقود أعمالهم. مُنح كل من ميليسنت هاو وآبراهام سميث ١٠٠ آكر و٢٧٠ آكراً من الأراضي على التوالي، كما أعطيا حرية الاحتفاظ بالأرض أو بيعها كما يريان ذلك مناسباً. وصل الاثنان إلى مراكز هامة، ليس مالياً فقط بل سياسياً كذلك. أوضح لوك في مؤلفه «الدساتير الأساسية» أن مالكي الأراضي هم الذين سيمسكون بالسلطة السياسية. يعني ذلك أنه إذا كان شخصٌ، مثل أبراهام سميث – وليس امرأة مثل ميليسنت هاو – يمتلك ٥٠ آكراً من الأراضي أو أكثر، فإنه يستطيع المشاركة في التصويت، والمشاركة في هيئات المحلّفين. أما إذا امتلك المرء ٥٠٠ آكر فإنه يستطيع أن يصبح عضواً في مجلس كارولينا، أو أن يكون قاضياً. أما الأمر المهم هنا فهو أن المرء سواء أكان مشاركاً في التصويت، أم عضواً في هيئة محلّفين، أم عضواً في البرلمان صوت واحد فقط بغض النظر عما إذا امتلك الحد الأدنى من الآكرات، أو ضعف تلك المساحة.

امتلكت ديمقراطية مالكي الأراضي بدايةً محلية. أما أوائل النواب المنتخبين في كارولينا فقد اجتمعوا في البداية في الطابق العلوي من المنزل ١٣، شارع تشرش [الكنيسة]، وهو منزل متواضع في تشارلستون. برهنت مؤسسات مثل هذه على أنها تصلح لإطلاق ثورة في نظام الحكم. تمكّن التاج الإنكليزي من إرساء أُسس الأمبراطورية الأميركية، وذلك عن طريق منح الحقوق للشركات التجارية. كان الحكام يعيّنون بموجب مرسوم صادرٍ عن الملك، لكن ذلك كان يحدث مع افتراض أن المستعمرين [المستوطنين] هم الذين يختارون مجالسهم التمثيلية، الأمر الذي كان منطقياً تماماً بسبب تمرّسهم السابق بالشركات المجازة chartered companies.

لم يتأخر المستوطنون عن إقامة تلك المجالس بالفعل. اجتمع مجلس فرجينيا للمرة الأولى في العام ١٦١٩. ظهرت في المستعمرات البريطانية ثمانية مجالس من هذا النوع مع حلول العام ١٦٤٠ بما فيها مجالس ماساشوستس باي، ومِريلاند، وكونكتيكت، وبليموث، ونيوهايفن، بالإضافة إلى باربادوس[١]. أما في أميركا اللاتينية فلم يكن من وجود لمؤسساتٍ كهذه.

أقول بالمختصر إن الأمر الأساس هنا كان المرونة الاجتماعية التي يعبّر عنها رجل مثل أبراهام سميث الذي وصل إلى أرضٍ قفر من دون أن يمتلك أي شيء تقريباً، لكنه تمكّن مع ذلك من أن يصبح في غضون سنواتٍ قليلة مالكاً لعقاراتٍ وناخباً في الوقت ذاته. كان حق التصويت، في سبع من أصل ثلاث عشرة منطقة، أصبحت ولايات فيما بعد، محصوراً بمالكي الأراضي أو بدفع الضريبة المترتبة على العقارات - وهي القوانين التي كانت لا تزال سارية في بعض الحالات حتى التسعينيات من القرن التاسع عشر.

أما في المستعمرات الإسبانية في الجنوب فقد كان توزيع الأراضي يتم بطريقة مختلفةٍ تماماً.

منح فرنشيسكو بيزارو، بموجب مرسوم صادرٍ في ١١ آب من العام ١٥٣٤، جيرونيمو دي آلياجا ومستوطناً إسبانياً آخر يدعى سيباستيان دي توريس قطعة أرض واسعة تدعى رورينغوالاس، وهي من ضمن وادي كاليخون دي هوايلاس الجميل الذي يقع في جبال الأنديز في البيرو. كان الوادي خصباً، والجبال ملأى بخامات ثمينة من المعادن. كانت المشكلة التي واجهت دي آلياجا هي كيفية استغلال هذه الموارد الهائلة. جاء الحل الذي ابتكره مختلفاً جداً عن ذلك الذي طلع به **جون لوك** بالنسبة إلى أميركا الشمالية.

لم تكن المشكلة في البداية هي الأرض التي مُنحت إلى **دي آلياجا وتوريس**،

(١) Elliott, Empires of the Atlantic World, p. 135.

فمن الناحية التقنية كانت المسألة تتعلق بعمل ٦,٠٠٠ فقط أو نحو ذلك من الهنود والتوريس الذين يعيشون هناك. كانت المسألة في أميركا الإسبانية هي إعطاء حق استغلال السكان الأصليين إلى نخبة قليلة العدد، على عكس ما جرى في المستعمرات البريطانية مثل كارولينا حيث وزّعت مساحات من الأراضي بشكلٍ واسع. عمل الهنود في السابق لمصلحة أمبراطور الأنكا في ظل نظام **ميتا**. أما في ظل النظام الجديد فكان مطلوباً منهم العمل لمصلحة الإسبانيين. كان ذلك أساساً نظام الجزية، لكن الجزية هنا أخذت شكل العمل الشاق. تمكّن **آلياجا** من إدارة عمل الهنود على هواه، سواء أكان ذلك حرث الأراضي أم التنقيب عن الذهب والفضة في الجبال. تغيّر هذا النظام بشكلٍ طفيف فقط مع إدخال ما سميّ repartimiento de labor [إصلاح قانون العمل]، وهو التعديل الذي فرض الهيمنة المَلَكية على توزيع عمل السكان المحليين، وذلك بحسب تقارير إساءة العمل التي يصدرها المشرفون على العمال. قُتل توريس في الواقع على يد بعض العمال الهنود الذين كانوا تحت إمرته، وذلك بسبب قسوته الشديدة. لم يكن Encomiendas يُمنح بشكل حقٍ للرجل وورثته، لأنه بحسب قانون كاستيل بقيت الأراضي التي يوجدون فيها ملكاً للتاج، حتى أنه لم يكن يفترض تسييج هذه الأراضي. لم يتحول المستوطنون إلى العقارات الكبيرة إلا ببطء[1]. لكن النتيجة النهائية كانت أن طبقة المستوطنين تحولت إلى طبقة كسلى من الأثرياء. لم تمتلك غالبية الناس إلا قطعاً صغيرة من الأراضي. كان encomenderos أقلية حتى بين المهاجرين الإسبان، وربما وصلت نسبتهم الضئيلة إلى نحو ٥ بالمئة من جميع السكان الإسبانيين في البيرو[2]. بقيت نسبة العمال من السكان الأصليين متوافرة نسبياً بالرغم من فتك الأوبئة بهم. وصلت كثافة السكان في العام ١٧٠٠ في ثلاث مستعمرات إسبانية أساسية إلى عدة أضعاف نسبتهم في المستعمرات البريطانية الداخلية. يعني ذلك أن الإسبان لم يشعروا بالحاجة إلى استيراد العمال المتعاقدين

(١) Ibid., p. 40. See also Sato, Legal Aspects of Landownership.

(٢) Engerman and Sokoloff, 'Once upon a Time in the Americas'.

من أوروبا على نطاقٍ واسع. وصل الأمر كذلك بالحكومة الإسبانية في مطلع القرن السادس عشر إلى تقييد الهجرة إلى مستعمراتها الأميركية[1]. كانت نتيجة هذا الوضع في المستعمرات الواقعة تحت الحكم الإسباني هي عدم توافر أي عاملٍ من عوامل المرونة التي ميّزت أميركا البريطانية.

يُضاف إلى ذلك أن الحكم الإسباني كان يعني الكاثوليكية الرومانية، التي لم تكن سيئة البتة. كان المبشّر الدومينيكاني فراي بيدرو دي كوردوبا هو أول من كشف الإساءات الهائلة التي يتعرض لها السكان الأصليون الرازحون تحت نظام encomienda، لكن هذه الكنيسة كانت احتكاراً من نوعٍ آخر. أما أميركا الشمالية فقد أصبحت، في المقابل، مركزاً لعدة طوائف بروتستانتيّة. كان الانشقاق والتنوع من بين المبادئ التنظيمية للمستعمرة [المستوطنة] البريطانية. ترتبت على هذا الوضع جوانب سلبية عديدة، لأن محاكمات السحرة في **سالِم** تقفز إلى الأذهان، لكن الفوائد الجليّة لهذا الوضع كانت نشوء مجتمع من التجار والمزارعين الملتزمين بالحرية الدينية وبالحرية السياسية على السواء. أوضحت المادة ٩٧ من «القانون الأساسي لكارولينا»، الذي كتبه جون لوك، مدى الالتزام الإنكليزي بالتسامح الديني:

بما أن السكان الأصليين في ذلك المكان، الذين سيبقون في مزرعتنا، هم غرباء تماماً عن المسيحية، وهم الذين لا تعطينا عبادتهم للأوثان، أو جهلهم، أي حقّ لطردهم أو إساءة معاملتهم، كما أن أولئك الذين يأتون من أجزاءٍ أخرى كي يزرعوا هناك، سيكوّنون بلا ريب وجهات نظرٍ مختلفة تتعلق بأمور الدين، وهكذا سيجب علينا منحهم الحرية التي يتوقعون أن نمنحهم إياها، كما أنه سيكون من غير المنطقي بالنسبة إلينا، ولهذه الأسباب، أن نمنعها عنهم. يجب المحافظة على السلم المدني وسط الاختلاف في الآراء، كما يجب احترام اتفاقنا وميثاقنا مع كل الناس بإخلاص وبالشكل المناسب. [يعني ذلك] أن خرق هذه الاتفاقات من قِبل أي مسؤول لا يُمكن إلا أن يكون إساءة كبيرة إلى الله القدير، وعاراً كبيراً على

(١) المصدر نفسه.

الدِّين الحقيقي الذي نتبناه. إن اليهود، والوثنيين، وكل المنشقّين الآخرين عن نقاوة الدِّين المسيحي، يجب عدم إخافتهم والابتعاد عنهم، لكن يجب اغتنام كل الفرص لتعريفهم الحقيقة وعقلانية مذاهبه، وكذلك سلمية معتنقيه وعدم عدائهم، وذلك عن طريق الاستخدام الصحيح والإقناع، واستخدام كل تلك الطرائق المقنعة واللطيفة والتواضع، وهي الأمور التي تتناسب مع قواعد الدِّين وأساليبه، ويجب أن نكسبهم كي يعتنقوا ويتسلّموا الحقيقة بكل صدق، لذلك، يستطيع أي سبعة أو أكثر من الرجال الذين يتفقون ضمن أي دين تكوين كنيسة أو مهنة، بحيث يعطونها اسماً ما من أجل تمييزها من الكنائس أو المهن الأخرى [أضيفت بعض العبارات التي تشدّد على هذا الأمر].

تطلب الأمر ثقة شديدة بالنفس، وبعد سنواتٍ عديدة من الصراعات الدينية المريرة في أوروبا من أجل تصور مجتمع يسمح لسبعة أشخاصٍ فقط بإطلاق كنيسة جديدة بصورةٍ شرعية. ظلت هذه الفروق الواسعة بين المجتمعات المدنية في الأميركيتين المستعمرَتين الشمالية والجنوبية مستمرة فيهما عندما حان الوقت لتحكما باستقلالية.

الثورات الأميركية

كانت الأميركيتان الشمالية والجنوبية في العام ١٧٧٥ عبارة عن مجموعة من المستعمرات التي يحكمها ملوك من البعيد، وذلك بالرغم من الفروق الاقتصادية والاجتماعية الواسعة بينهما. لكن، كان لا بد لهذا الوضع أن يتغيّر.

تجمّع في ٢ تموز من العام ١٧٧٦ حشدٌ كبير على درج سوقٍ قديمة للتبادل التجاري في تشارلستون، وذلك من أجل سماع بيان حكومة كارولينا الجنوبية الذي كان إعلاناً لاستقلال المستعمرة عن بريطانيا. كانت تلك الولاية هي الأولى التي تُقدم على هذا العمل. انتهى الحكم الإسباني في أميركا اللاتينية بعد مرور أربعين

سنة. نلاحظ مع ذلك أنه بينما أدت إحدى الثورات إلى ترسيخ الحقوق الديمقراطية لمالكي الأراضي، وأنشأت جمهورية اتحادية تمكّنت في غضون مئة سنة من أن تصبح أغنى بلدٍ في العالم، أدت الثورات التي حدثت في أميركا الجنوبية إلى إغراق كل الأراضي الأميركية الواقعة جنوب ريوغراندي في قرنين من الانقسام والاضطرابات والتخلف. ماذا كان السبب؟

عرفت الأمبراطوريتان الإسبانية والبريطانية أزمات في أواخر القرن الثامن عشر. أدت القيود المتزايدة التي فُرضت على التجارة عبر الأطلسي على يد السلطات الأمبراطورية، وكذلك النفقات المرتفعة لحرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣)، إلى تمهيد الطريق أمام ثورات المستعمرات. أما الثورات التي انفجرت في المستعمرات الأميركية البريطانية في سبعينيات القرن الثامن عشر ونظائرها في المستعمرات الأميركية الإسبانية: ثورة توباك آمارو الثاني في الأنديز ما بين ١٧٨٠- ١٧٨٣، وثورة كوميونيرو في غرانادا الجديدة (التي أصبحت اليوم كولومبيا) في العام ١٧٨١. لكن عندما أعلنت ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية في أميركا الشمالية الاستقلال، كان ذلك ردة فعل مجتمع واعٍ ومتحرر يتألف من التجار والمزارعين ضد ما رأوا فيه من توسع مفرطٍ للسلطة الأمبراطورية. لم تكن المشكلة القديمة والمزمنة المتمثلة بفرض الضرائب والتمثيل في السلطة [التشريعية] هي سبب ما يُمكن عده، لأسبابٍ وجيهة، نتيجة للحرب الأهلية البريطانية في أربعينيات القرن السابع عشر[1]. أدت الأراضي دوراً حيوياً وهاماً في الثورة الأميركية. كانت محاولة الحكومة البريطانية تقييد حركة الاستيطان غرب جبال الأبلاشيا هي التي أصابت صميم رؤية المستعمرين التوسعيين للمستقبل[2] وهي رؤية تشتمل على عملية استيلاءٍ واسعة، كانت مهمة جداً تحديداً

(١) See Clark, Language of Liberty.

(٢) Clark, 'British America'.

على المضاربين بالعقارات من أمثال جورج واشنطن(*). أما عندما وقّعت الحكومة في لندن عقوداً مع القبائل الهندية من خلال حرب السنوات السبع، فقد افترض [جورج] واشنطن أن هذه العقود كانت ترتيباً في فترة الحرب فقط. صُعق واشنطن عندما جرى تثبيت الهنود فعلياً في أراضيهم عن طريق إعلانٍ ملكي صدر في العام ١٧٦٣:

لا أستطيع أن أنظر إلى الإعلان بأي ضوءٍ آخر (لكن ذلك ما أقوله فيما بيننا) غير أنه ترتيب موقت من أجل تهدئة خواطر الهنود [جاء ذلك في رسالة كتبها إلى شريكه في وقتٍ لاحق وليام كراوفورد في العام ١٧٦٧]. يجب أن يسقط [ذلك الإعلان] بطبيعة الحال في غضون سنواتٍ قليلة، وعلى الخصوص عندما يُذعن أولئك الهنود أمام احتلالنا لأراضيهم. إن أي شخص... يُهمل الفرصة الحالية في السعي وراء أراضٍ مناسبة، ويُهمل تحديد تلك الأراضي وتمييزها بحيث تكون له، ولإبعاد الآخرين عن المكوث فيها، هو شخص لن يحصل على تلك الفرصة ثانية. أما إذا كنتَ تجد صعوبة في البحث عن أراضٍ فإنني سوف آخذ على عاتقي مهمة توفيرها ما دام ثمة إمكانية لذلك، وسأقوم كذلك بتحمل تكاليف مسح تلك الأراضي وتسجيلها... ربما يسهل عليك في هذا الوقت ملاحظة أن خطتي هي توفير مساحةٍ كبيرة من الأراضي. ستحصل في النهاية على مساحة هائلة... [لكن] أريدك أن تُبقي الأمر سراً، أو أن تأتمن عليها أولئك الذين... يستطيعون مساعدتك على تحمل كل ذلك عن طريق اكتشافهم للأراضي(١).

(*) عيّن واشنطن وهو في السابعة عشرة من عمره مسّاحاً في مقاطعة كولبيبر الحدودية التي أُسّست حديثاً. وضعته هذه المهارات في مركز هام كضابط في الحرب الفرنسية والهندية، وهو الاسم الذي أطلقه المستوطنون على حرب السنوات السبع. بدأ واشنطن حياته المهنية في العام ١٧٥٢ بصفة مضارب على الأراضي، وذلك عندما اشترى ١,٤٥٩ آكراً بمحاذاة بولسكين كريك [نهر بولسكين] في محافظة فردريك، فرجينيا. أما بعد النصر الذي أُحرز في حرب الاستقلال فقد أطبق هو ورفاقه على الأراضي الواقعة غرب نهر أوهايو بوصفها غنائم شرعية للحرب.

(١) George Washington to William Crawford, 20 September 1767, in Washington and Crawford, Washington Crawford Letters, pp. 3f.

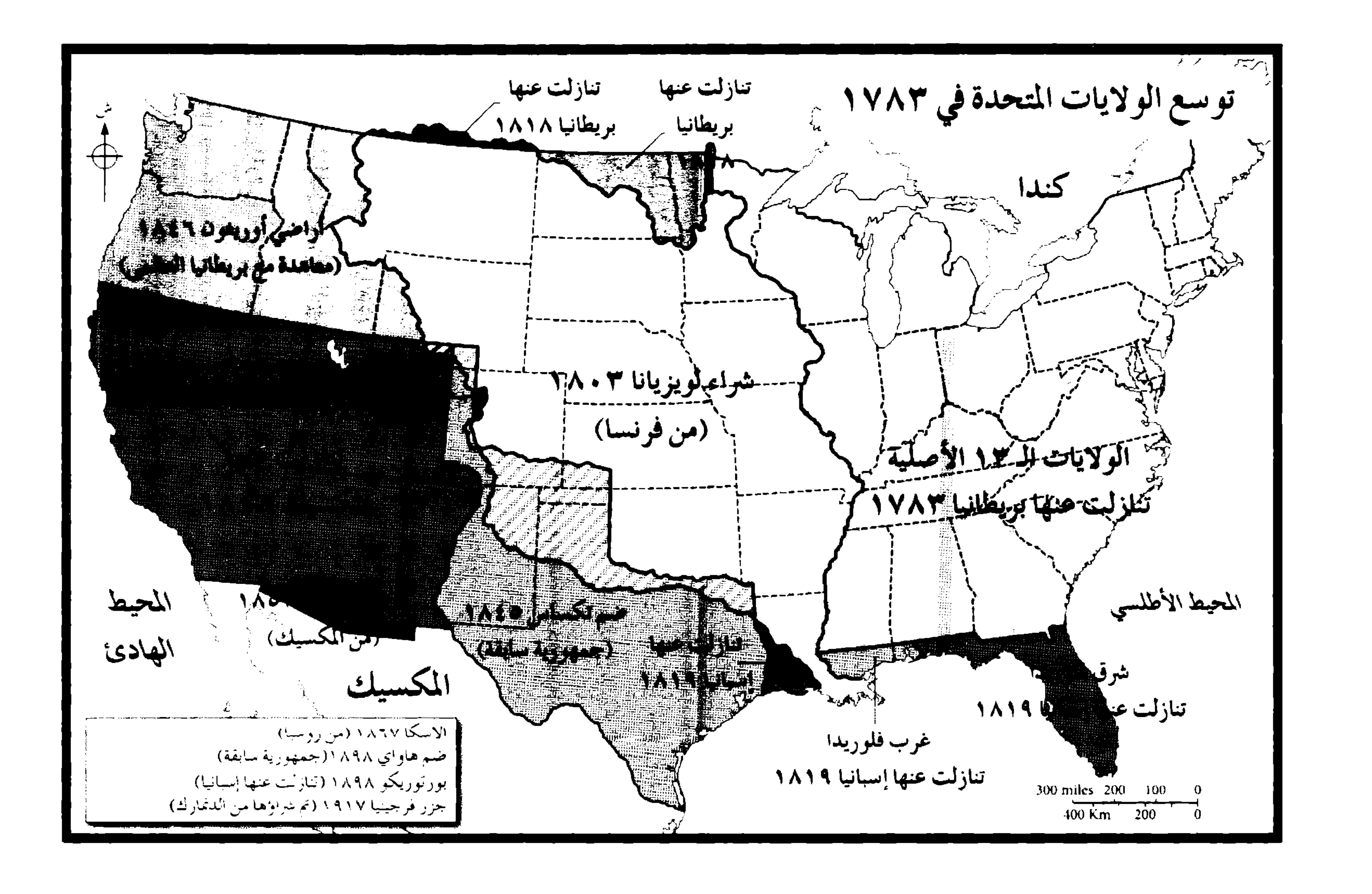
حصل واشنطن بحلول العام ١٧٦٨ على ٤٥,٠٠٠ آكرٍ من الأراضي الواقعة هذه الأيام في مايسون، وبوتنام، وكاناهوا، وهي الآن في فرجينيا الغربية. كان واشنطن كذلك المستفيد المباشر من الطرد القسري الذي حدث بعد ذلك لقبائل ديلاواير، والشواني والمينغو من أراضٍ تقع إلى الجنوب من نهر أوهايو. لكنه رأى أن قانون كيبيك الذي صدر في العام ١٧٧٤ قد جعل الأمور أسوأ بكثير، وذلك ليس لأنه وسّع ما كان في الماضي كندا الفرنسية إلى ما هو هذه الأيام إيلينوي، وإنديانا، وميشيغان، وأوهايو، وويسكونسن وأجزاء من مينيسوتا، فحسب لكن لأنه ضمن أيضاً حرية العبادة للكاثوليك الناطقين بالفرنسية. لا نعجب والحالة هذه إذا كان متمردو نيو إنجلند قد وضعوا ذلك القانون جانباً بالإضافة إلى أربعة إجراءات تأديبية أخرى أقرّت بعد حفلة شاي بوسطن وقد عدوها كلها «قوانين لا تُطاق».

كان بالإمكان تجنّب الحرب لو أن لندن قدّمت بعض التنازلات في المسائل الأساسية مثل الضرائب والتمثيل النيابي. يمكننا القول أيضاً إن الحرب كان يُمكن أن تأخذ مساراً آخر لو أن كبار القادة العسكريين البريطانيين قد أدوا واجباتهم بشكلٍ أفضل. ربما حانت الفرصة كذلك للدبلوماسية الحكيمة لتمنع تلك العزلة الرهيبة عن بريطانيا، التي بلغت ذروتها مع النصر الذي أحرزه الفرنسيون، لأنه كان نصراً بالفعل، في يوركتاون العام ١٧٨١. يمكننا كذلك أن نتصور المستعمرات الثلاث عشرة وهي تتفكك بدلاً من أن تتحد بعضها مع بعض. كانت المشاكل الاقتصادية التي رافقت الحرب وأعقبتها خطيرة جداً: وصل التضخم في نقطة ذروته إلى نحو ٤٠٠ بالمئة سنوياً في العام ١٧٧٩. حدث بعد ذلك الكساد، الذي تسبّب بخفض معدل مدخول الفرد إلى النصف في الفترة ما بين ١٧٧٤ و١٧٩٠، كما خلّف كمية هائلة من الدَّين وصلت إلى حدود ٦٢ بالمئة من الناتج القومي الإجمالي في العام ١٧٩٠، مما اضطر الولايات إلى فرض رسوم على حدودها. أما الأسوأ من ذلك كله فهو أن مزارعي ماساشوستس، من أمثال دانيال شايس، قد اضطروا إلى الثورة عندما صودرت ممتلكاتهم من أجل استيفاء الضرائب المتأخّرة التي ترتبت عليهم

وديونهم الخاصة. أما لو لم تتمكّن الثورة من تجاوز بنود الاتحاد لكان من المحتمل أن يكون مصير أميركا الشمالية أقرب إلى مصير أميركا الجنوبية، أي إنها لكانت قصة التفكك بدلاً من قصة الوحدة. تطلب الأمر وجود دستور العام ١٧٨٧، وهو أروع نصٍ من نصوص بناء المؤسسات في التاريخ برمته، من أجل إنشاء بنى اتحادية قابلة للاستمرار والتحول إلى جمهورية جديدة لم تتمكّن من إنشاء أطراف السلطة الأربعة التي تحدث عنها لوك، أي التنفيذية، والمجلس التشريعي الثنائي [النواب والشيوخ]، والمحكمة العليا فحسب، لكنها تمكّنت كذلك من إنشاء سوقٍ واحدة، وسياسة تجارية واحدة، وعملة واحدة، وجيشٍ واحد، وقانونٍ واحد (شديد الأهمية) للإفلاس بالنسبة إلى الأشخاص الذين تفوق ديونهم ممتلكاتهم، وذلك من دون أن ننسى ذلك التعديل، أي التعديل الرابع الذي يحمي الفرد ضد «التفتيش والمصادرة غير المعقولة».

أما الأساس في ذلك كله فقد كان الملكية. أبلى جورج واشنطن بلاءً حسناً في هذا المجال لأنه كان واحداً من أولئك الصارمين الذين خرجوا مع وضعٍ مريحٍ بعد حرب الاستقلال. اشتملت وصيته التي نُفذت في العام ١٨٠٠ على ما مجموعه ٥٢,١٩٤ آكراً في فرجينيا، وبنسلفانيا، ومريلند، ونيويورك، وكنتكي، ووادي أوهايو، وذلك بالإضافة إلى أراضٍ أخرى في مدن الإسكندرية، وونشستر، وباث (التي أصبحت الآن بيركلي سبرنغز في فرجينيا الغربية) الواقعة كلها في فرجينيا، وكذلك في المدينة التي أُسّست حديثاً والتي تحمل اسمه. إن أفضل شيء يوضح متانة الرابطة القائمة بين الأراضي والحرية في التاريخ المبكر للولايات المتحدة. عمل الهنود في أراضي أميركا الجنوبية، لكنهم خسروها في أميركا الشمالية.

كان يفترض أن يؤدي سيمون بوليفار في أميركا الجنوبية الدور الذي أداه [جورج] واشنطن في أميركا الشمالية. تمكّن الرجل من التخلص من أمبراطورية، أي إسبانيا، بدوره. لكنه فشل في إنشاء ولاياتٍ متحدة في أميركا الجنوبية. لم تنجح الثورة الأميركية في تحقيق الوحدة بين المستعمرات الأميركية السابقة فقط (بالرغم


توسع الولايات المتحدة في ١٧٨٣
تنازلت عنها بريطانيا ١٨١٨
تنازلت عنها بريطانيا
كندا
أراضي أوريغون ١٨٤٦
(معاهدة مع بريطانيا العظمى)
شراء لويزيانا ١٨٠٣
(من فرنسا)
الولايات الـ ١٣ الأصلية
تنازلت عنها بريطانيا ١٧٨٣
المحيط الأطلسي
المحيط الهادئ
(من المكسيك)
ضم تكساس ١٨٤٥
(جمهورية سابقة)
المكسيك
شرق
تنازلت عنها ١٨١٩
غرب فلوريدا
تنازلت عنها إسبانيا ١٨١٩
الاسكا ١٨٦٧ (من روسيا)
ضم هاواي ١٨٩٨ (جمهورية سابقة)
بورتوريكو ١٨٩٨ (تنازلت عنها إسبانيا)
جزر فرجينيا ١٩١٧ (تم شراؤها من الدنمارك)
300 miles 200 100 0
400 Km 200 0

من أن المستعمرتين الكندية والكاريبية بقيتا على ولائهما للأمبراطورية بطبيعة الحال، وهو ما فعله عدد من الأميركيين الموالين الذين اختاروا مغادرة الجمهورية الوليدة)[1]. وضع الاستقلال الولايات المتحدة على طريق ثراء وسلطةٍ غير مسبوقين حتى الآن. لكن الاستقلال عن إسبانيا خلف لأميركا الجنوبية تركةً من الصراعات، والفقر، وعدم المساواة. لماذا عجزت الرأسمالية والديمقراطية عن الازدهار في أميركا اللاتينية؟ ولماذا تردد أحد زملائي في هارفرد عندما سألته عما إذا يعتقد أن أميركا اللاتينية تنتمي إلى الغرب؟ واختصاراً، لماذا لم يتمكن بوليفار من أن يكون واشنطن أميركا اللاتينية؟

وُلد بوليفار في تموز من العام ١٧٨٣ ابناً لمزارع كاكاو فنزويلي، وأصبح يتيماً قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، وجندياً في الرابعة عشرة، كما درس في إسبانيا وفرنسا على السواء. أمضى بعض الوقت في باريس في العام ١٨٠٤، وذلك بعد طرد كل الأجانب – بمن فيهم الأشخاص المتحدرون من أجناس مختلطة في أميركا اللاتينية – من مدريد في إطار معالجة الحكومة للنقص في المواد الغذائية. عاد بوليفار إلى فنزويلا في العام ١٨٠٧، وذلك بعد استلهامه المرحلة النابوليونية من الثورة الفرنسية (أنظر الفصل الرابع) وبعد أن ضجر من الحكم الإسباني. كان بوليفار يحلم بإحداث تغييرات مماثلة في بلاده الأم. لكن عندما حدثت الثورة في أميركا الجنوبية فلم تكن بفعل خطة مسبقة بقدر ما كانت ردة فعلٍ فوضوية نتيجة فراغٍ مفاجئ في السلطة، نتج من هجوم نابوليون على إسبانيا في العام ١٨٠٨. أُرسِلَ بوليفار بعد مرور سنتين إلى لندن سعياً وراء تلقي المساعدة من بريطانيا في حال أقدم الفرنسيون على مهاجمة مستعمرات إسبانيا في أميركا. لم يحصل على المساعدة، لكنه التقى فرنشيسكو ميراندا، وهو مناضل مخضرم من أجل الحصول على استقلال فنزويلا، وما لبث أن نشأت صداقة بين الاثنين. أعلن الرجلان لدى عودتهما في شهر تموز ١٨١١ تأسيس أول جمهورية في فنزويلا.

(١) See Jasanoff, Liberty's Exiles.

انتهت هذه الجمهورية بالفشل. حصر دستور العام ١٨١١ حق التصويت بمالكي الأراضي، لكن هذا الشرط استبعد، كما سنرى لاحقاً، نسبة كبيرة من السكان كانت أكبر من تلك التي استبعدتها القوانين في أميركا الشمالية. كانت نتيجة هذا الوضع أن الذين لا يمتلكون أراضي، بمن فيهم أعدادٌ كبيرة من العبيد المحررين pardos وقفوا إلى جانب قضية الملكيين[1]. خاب أمل بوليفار من ميراندا بعد أن نجح الملكيون في الاستيلاء على بورتو كابيلو، وبعد أن وشى به إلى الإسبان. فرّ بوليفار إلى غرانادا الجديدة وجهد ليحشد وراءه أولئك المتحدرين من أجناسٍ مختلطة تحت لواء الدعوة إلى الاستقلال.

أعلن بوليفار الجمهورية الثانية ونصّب نفسه حاكماً مطلقاً عليها، لكنه ما لبث أن شنّ ما دعاه campana admirable التي كان من بين نتائجها طرد المَلَكيين من ميريدا، وبوغوتا، وكراكاس، وتروجيلو، وهكذا أحرز لقب **المحرر** el Libertador. يعطي المرسوم الذي أصدره بإعلان **الحرب حتى الموت** فكرة عن شراسة الصراع: «إن أي إسباني لا يعمل ضد الطغيان لمصلحة هذه القضية العادلة بكل الوسائل الناشطة والفعالة، سوف يُعدّ عدواً ويُعاقَب، وسيُعدّ خائناً للأمة، وسيُعدم في النهاية رمياً بالرصاص»[2]. لم يكن من النادر أن يُقتَل السجناء بصورة روتينية، وقُتل في إحدى المناسبات ٨٠٠ سجين في وقتٍ واحد. لم يضع بوليفار حداً لهذه الممارسات إلا عندما أرسل إليه أحد المتعاونين معه، وكان يحمل لقب el Diablo، رأس أحد المسنّين الإسبان. استمر البيض باللجوء إلى صفوف الملكيين بالرغم من استخدام العنف. لكن هزّة أرضية مدمّرة ضربت كراكاس في شهر آذار من العام ١٨١٢ فقتلت نحو ١٠,٠٠٠ شخص، الأمر الذي بدا وكأنه دليل على صحة إدانة الكنيسة للحركة الاستقلالية (*). أعلن بوليفار، وهو رجل التحدي بطبيعته: «إذا واجهتنا الطبيعة

(١) Lynch, Bolivar, p. 63.

(٢) http://faculty.chass.ncsu.edu/slatta/hi216/documents/bolivar/sbwar1813. htm.

(*) وقف بعض رجال الدين إلى جانب حركة الإستقلال، وعلى الخصوص في نيو غرانادا التي شاع فيها قدر كبير من السخط بسبب الضرائب التي فرضتها إسبانيا على الكنيسة الأميركية الجنوبية. شن الملكيون حملة ضد هؤلاء الكهنة أطلقوا عليها اسم «استقصاء قرطاجنة».

فسوف نحارب ضدها، وسوف نجبرها على إطاعتنا»[١]. لكن مشكلته الكبرى مع ذلك لم تكن الطبيعة، بل خوسيه توماس بوفيس، وهو متمرد إسباني قاد جيشاً مختلطاً وفوضوياً مؤلفاً من الهنود، والعبيد الهاربين، والفارين من الجيش. كان أفراد الجيش مهتمين بالنهب والسرقة أكثر من اهتمامهم بالحرية، لكن هذا الجيش بدا عصياً على الإخضاع[٢]. حدثت سلسلة هجمات عسكرية مضادة أجبرت بوليفار على الفرار مجدداً، لكنه توجه هذه المرة إلى جامايكا. أقنعته إقامته الوجيزة في هايتي بأن تحرير عبيد فنزويلا يجب أن يصبح جزءاً من استراتيجيته. اقتنع بوليفار أكثر فأكثر أن أمله بالنجاح يعتمد على إقناع العبيد، وكذلك البيض المختلطين بقضية الاستقلال[٣]. وجّه بوليفار نداءاته إلى كل سكان أميركا الجنوبية حتى الملوّنين منهم[٤].

نجحت خطته هذه المرة، وإن موقتاً. شعر عدد من padros [العبيد المحررين] بالعرض المغري الذي قُدّم لهم بالحصول على التمثيل السياسي فانضموا إلى جيش بوليفار. تحوّل مانويل كارلوس بيار، وهو ابن تاجرٍ إسباني، ووالدة نصف هولندية ونصف أفريقية من كوراكاو، إلى رمزٍ لتطلعاتهم. حاول رجلٌ [من المنبوذين] ذو أعراق مختلطة يدعى بيار الحصول على رتبة القائد العام general- in- chief، الأمر الذي بدا وكأنه أثبت صدق بوليفار في زعمه أنه محرّر جميع الأميركيين الجنوبيين، بغضّ النظر عن ألوانهم. ضعُف في هذا الوقت الدعم الذي تقدمه إسبانيا من أجل إعادة السلطة الملكية إلى البلاد. حدث في العام ١٨٢٠ تمرد كبير في كاديز بين الجنود البالغ عددهم ١٤,٠٠٠ رجل، والذين كان من المقرر إرسالهم عبر الأطلسي من أجل «إعادة استعمار أميركا»[٥]. كانت تلك ضربة مريرة بالنسبة إلى بابلو موريللو

(١) Ortega, 'Earthquakes'.
(٢) Lynch, 'Bolivar and the Caudillos', pp. 6f.
(٣) King, 'Royalist View'.
(٤) Lynch, 'Bolivar and the Caudillos', pp. 16f.
(٥) Woodward, 'Spanish Army'.

أحد قادة الملكيين، الذي كانت مهمته [غير المحمودة] هي إعادة الحكم الإسباني المتهاوي إلى البلاد.

مالت الدفة في ذلك الوقت إلى جانب بوليفار، لكن بقي عليه خوض معارك عديدة. أراد بوليفار تعزيز فاعلية الجنود الذين يقاتلون بإمرته، فتطلع بعيداً من أجل كسب المساعدة[١]. حصل بوليفار على مساعدة من جهة غير متوقّعة، أي من بريطانيا.

يقرأ المرء على نصبٍ مهيب أُقيم في قلب كراكاس أسماءً منقوشة بشكلٍ واضح وبارز للآباء المؤسسين لفنزويلا، لكنها أسماء متنافرة، مثل براون، ماكغريغور، وحتى فرغسون، هذا إذا لم نذكر شيئاً عن أوكونور، وأوليري، وروبرتسون. لكن أصحاب هذه الأسماء هم قلة من بين الجنود البريطانيين والإيرلنديين الذين حاربوا وماتوا في بعض المعارك دفاعاً عن قضية حرية أميركا اللاتينية في الفترة ما بين العامين ١٨١٠ و١٨٢٥.

التحق ما مجموعه نحو ٧,٠٠٠ متطوع بريطاني وإيرلندي بغية المساعدة على تحرير أميركا الجنوبية من الحكم الإسباني. كان بعض هؤلاء من قدامى الجنود الذين شاركوا في الحروب النابوليونية والذين لم يستسيغوا فترة السلم التي تبعت معركة واترلو. لكن غالبية المتطوعين (الثلثان) كانوا حديثي العهد بالمعارك. تأثر بعض المتطوعين بالقضية السامية التي جسّدها بوليفار: أميركا الجنوبية حرة ومتحدة. سادت فكرة التحرير الأجواء بعد العام ١٨١٥، وقد ساعد بعض المثاليين، وأشهرهم **بايرون** اليونانيين على انتزاع استقلالهم من العثمانيين. لكن معظم الذين أبحروا إلى فنزويلا كانوا منجذبين، أكثر من أي شيء آخر، إلى وعود بالحصول على أراضٍ، أي مثل ما كان المهاجرون البريطانيون الذين هاجروا إلى أميركا الشمالية من قبلهم. كانت الوعود هي haberes militares تعطى مكافأةً مقابل الخدمة العسكرية. كان من بين المتطوعين نقيب شاب من مانشستر يدعى توماس فيرير، وهو الذي ما لبث أن تسلّم الجحفل البريطاني التابع لبوليفار.

(١) Ulrick, 'Morillo's Attempt', p. 553.

كانت بلدة آنغوستورا (منزل الجعة)(*) هي المنظر الأول الذي رآه فيريير في أميركا بوليفار الجديدة، وهي بلدة تقع على ضفاف نهر أورينوكو الوعرة حيث أسس بوليفار قاعدته. حارب رجال بوليفار مدة أربع سنوات في معارك متتالية من ساحل الأطلسي إلى ساحل المحيط الهادئ. ساعد هؤلاء في شهر آب من العام ١٨١٩، وبعد معركة بوياشا، على احتلال طونجا وبوغوتا حيث أعلن بوليفار جمهورية كولومبيا[1]. تحول الرجال بعد ذلك شمالاً نحو فنزويلا. وصلوا أخيراً إلى كوردوبو [قرطبة] الواقعة إلى الجنوب من بورتو كابيلو. كانت تلك المعركة الحاسمة في حملة بوليفار الفنزويلية. واجه نحو ٦,٥٠٠ من الجمهوريين نحو ٥,٠٠٠ رجل من الملكيين الموالين لإسبانيا. أما لو نجح جنود بوليفار في ربح تلك المعركة لكان ذلك يعني فتح الطريق أمامهم إلى كراكاس.

أمر بوليفار ٦٠٠ رجل هم تحت إمرة فيريير بإحاطة الإسبان الذين احتموا في تلة تشرف على ميدان المعركة. تمكن الرجال من الاقتراب بسلام عبر أخاديد آمنة. لكن ما إن كُشف أمرهم حتى فتح الإسبان عليهم النار من مدفعين على الأقل و٣,٠٠٠ بندقية. انتظر فيريير عبثاً برغم حرارة حارقة وصول تعزيزات من بوليفار. أُعطي الأمر أخيراً بالتقدم. كان الهجوم بحراب البنادق الذي أعقب ذلك واحداً من أعظم الإنجازات الحربية التي شهدتها أميركا الجنوبية. تحدثت إحدى الروايات عن هذه المعركة على أنها «مهمة لم تتطلب شجاعة بطولية فحسب، لكنها تطلبت أيضاً قدرة جبارة على التحمل وتصميماً عنيداً على المضي في القتال طالما بقيت ولو شعلة ضئيلة من الحياة». انتهت عملية احتلال المواقع المعادية، لكن فيريير سقط مصاباً بجروح مميتة. ابتهج بوليفار بهذا النصر، ووصف الجنود البريطانيين على أنهم «منقذو بلادي».

(*) كانت جعة آنغوستورا في الواقع من اختراع رجل ألماني يعمل في خدمة بوليفار، وكان الرجل يُدعى الدكتور يوهان غوتليب بنيامين سيغرت، وهو كان أول من أنتج في العام ١٨٢٤ ذلك الشراب الكحولي المركز بموجب وصفة لا تزال سرية حتى الآن. كان بيسكو سور Pisco Sour شراباً لا يستأهل اسمه من دون نقاط قليلة من شراب سيغرت.

(١) Hamnett, 'Counter Revolution'.

تحوّل بوليفار في هذا الوقت إلى سيّد ما سمّاه «كولومبيا الكبرى»، التي تشمل غرانادا الجديدة، وفنزويلا، وكيتو (الإكوادور هذه الأيام). أما خوسيه دي سان مارتان، وهو محرّر الأرجنتين وتشيلي فقد سلّمه القيادة السياسية. تمكن رجاله في شهر نيسان من العام ١٨٢٥ من طرد آخر القوات الإسبانية من البيرو، أما البيرو العليا فقد اتخذت اسماً جديداً هو «بوليفيا» تكريماً له [بوليفار]. كانت الخطوة التالية هي إنشاء اتحاد الأنديز المؤلف من كولومبيا الكبرى، والبيرو وبوليفيا.

لماذا فشلت كولومبيا الكبرى التي أسّسها بوليفار في فرض نفسها باعتبارها قلب الولايات المتحدة لأميركا اللاتينية؟ تكمن الإجابة السطحية عن هذا السؤال في تصميمه على مركزية السلطة، وعلى مقاومة أمراء الحرب الإقليميين الذين قفزوا إلى المسرح الذي خلا أمامهم نتيجة الانهيار الإسباني[١]. لكن ذلك يُغفل ثلاث صعوبات أعمق بكثير[٢].

تتمثل الصعوبة الأولى في افتقاد سكان أميركا الجنوبية كلّياً، على وجه التقريب، أي خبرة في اتخاذ القرارات بطريقةٍ ديمقراطية على غرار الطريقة المعتادة في مجالس مستعمرات أميركا الشمالية منذ البداية. كانت السلطة محصورة في أيدي الإسبان المولودين في شبه الجزيرة الإيبيرية، أما المولودون في أميركا الجنوبية من ذوي الأجناس المختلطة فلم يكن لديهم خبرة تُذكر في أي نوعٍ من أنواع المسؤوليات الإدارية. قال بوليفار في العام ١٨١٥:

إننا... لسنا من الهنود ولا من الأوروبيين، لكننا جنس وسط ما بين المالكين الشرعيين لهذه البلاد ومغتصبيها من الإسبان... إننا معزولون هنا، والواقع هو أننا مقطوعون عن العالم فيما يتعلق بعلم الحكم وإدارة الدولة. لم نكن نواب ملوك أو حكّاماً إلا في حالاتٍ نادرةٍ جداً. لم يسبق لأحدنا أن تقلد منصب رئيس أساقفة،

(١) Lynch, Bolivar, p. 99.

(٢) See in general Langley, Americas in the Age of Revolution, esp. pp. 243-84.

أو كان أسقفاً، أو دبلوماسياً على الإطلاق. كنا رجالاً عسكريين نتلقى أوامرنا، وكنا نبلاء من دون أن نتمتع بامتيازات الملوك. يعني ذلك باختصار أننا لم نكن قضاة ولا ممولين ونادراً ما كنا تجاراً[1].

تخوّف بوليفار كثيراً من الصراعات الفئوية الداخلية التي شهدها في مجالس ذوي الأعراق المختلطة في غرانادا الجديدة[2]. وقد صبّ في إعلان قرطاجنة في العام ١٨١٢ جام غضبه على «نظام التسامح... المميت... وهو النظام الذي دين منذ فترة طويلة لأنه ضعيف وغير كافٍ من قِبل كل شخصٍ عقلاني»، وكذلك على «الاعتدال القاتل» الذي يُظهره «الحالمون الأخيار» الذين يؤسسون جمهوريات خيالية في مخيلاتهم، والذين سعوا إلى بلوغ الكمال السياسي بعد أن افترضوا وجود جنس بشري كامل. دان بوليفار كذلك تجربة الجمهورية الفنزويلية الأولى مع الفدرالية، وهي التجربة التي «عرقلت، بسماحها بالحكم الذاتي، العقود الاجتماعية، وحوّلت الدول إلى حالة من الفوضى»[3]. اقتنع بوليفار في أثناء فترة نفيه الثانية في جامايكا بأن «النُظم [المؤسسات] التي هي تمثيلية بالكامل لا تناسب شخصيتنا، وعاداتنا، ومعارفنا الحاضرة»[4]. فخاطب الكونغرس الذي شُكّل حديثاً في أنغوستورا بلهجةٍ مماثلة، وذلك قبل سنتين من معركة كارابوبو:

بالرغم من أن تلك البلاد قد نشأت في أحضان التحرر، وفي أجواء الحرية، واستمرت في البقاء عن طريق التحرر فقط... إنها أعجوبة... أن تكون حكومة بهذا الضعف والتعقيد مثل النظام الفدرالي قد تمكنت من حكم مواطنيها وسط ظروفٍ صعبة ومرهقة في ماضيهم...

(١) http://web.archive.org/web/19970615224356/www.umich.edu/~proflame/mirror/etext/bol5.html.

(٢) Williamson, Penguin History, p. 218.

(٣) http://web.archive.org/web/19970615224356/www.umich.edu/~proflame/mirror/etext/bol5.html.

(٤) Bolívar to Sir Henry Cullen, 6 September 1815, in Bolívar (ed.), Selected Writings, vol. I, p. 114.

رأى بوليفار أن دستور الولايات المتحدة يتطلب «جمهورية من القديسين» كي ينجح[١]. لم يكن لنظامٍ كهذا، برأيه، أن يتمتع بأي فرصة للنجاح في أميركا الجنوبية:

بغضّ النظر عن فاعلية هذا النمط من الحكم بالنسبة إلى أميركا الشمالية، يجب عليّ القول إنه لم يخطر في ذهني قط، ولو للحظة واحدة إجراء مقارنة بين أوضاع وشخصية بلدين متنافرين مثل أميركا الإنكليزية وأميركا الإسبانية.

تبيّن إذاً أن حلم بوليفار لم يكن الديمقراطية بل الدكتاتورية، ولم يكن الفدرالية بل مركزية السلطة، وهو الذي قال في إعلان **قرطاجنة**، «لأن رفاقنا المواطنين لا يتمكّنون بعد من ممارسة حقوقهم بأنفسهم إلى الحدّ الأقصى، وذلك لأنهم يفتقدون المزايا السياسية التي تميّز الجمهوريين الحقيقيين»[٢]. قضى الدستور الذي صاغه بنفسه بأن يكون دكتاتوراً لمدى الحياة مع حقّه في تسمية خلفه، وكان تأسيس مجلس تشريعي ثلاثي من بين الخصائص الأخرى لذلك الدستور. أعلن بوليفار: «إنني مقتنع حتى العظم أن أميركا لا يُمكن أن تُحكم إلا على يد مستبدّ قادر... [إننا لا نستطيع] وضع القوانين فوق القادة، والمبادئ فوق الرجال»[٣]. بيّن مرسومه الأساسي للدكتاتورية الذي أعلنه في ١٨٢٨ أنه لن يكون هناك ما يسمى بديمقراطية ملكية الأراضي في أميركا الجنوبية البوليفارية، ولن يكون هناك حكم للقانون.

تعلقت المشكلة الثانية بالتوزيع غير المتساوي للملكيات ذاتها. امتلكت أسرة بوليفار نفسه خمسة عقارات كبيرة تغطي مساحة تزيد على ١٢٠,٠٠٠ آكر. كانت كل الأراضي تقريباً في فنزويلا ما بعد الاستقلال مملوكة من نخبة مواطنين من ذوي الأعراق المختلطة التي لا يزيد عددها على ١٠,٠٠٠ شخصٍ تقريباً، أي ما نسبته ١/١ بالمئة من مجموع السكان. يعني ذلك أن مقارنة هذه البلاد بالولايات المتّحدة

(١) http://web.archive.org/web/19970615224356/www.umich.edu/~proflame/mirror/etext/bol2.html.

(٢) http://web.archive.org/web/19970615224356/www.umich.edu/~proflame/mirror/etext/bol5.html.

(٣) Lynch, Bolívar, p. 218.

كانت مقارنة مدهشة في هذا المجال. تحوّل امتلاك الأرض بعد الثورة في أميركا الشمالية إلى عملٍ أكثر سهولة بالنسبة إلى المستوطنين الجدد، سواء أكان ذلك نتيجة القروض الحكومية (بموجب قوانين متنوعة صدرت ما بين ١٧٨٧ و١٨٠٤) أم نتيجة قوانين أخرى مثل قانون حق الشفعة العام الذي صدر في العام ١٨٤١، وهو الذي منح شاغلي الأراضي بصورة غير قانونية ملكية شرعية، وكذلك قانون ملكية المنازل الذي صدر في العام ١٨٦١ وهو القانون الذي جعل قطع الأراضي الصغيرة مجاناً في المناطق الحدودية. لم يحدث شيء من هذا القبيل في أميركا اللاتينية، وذلك بسبب معارضة مجموعات لها مصلحة في المحافظة على مزارع كبيرة في الأرياف، وعلى اليد العاملة الرخيصة في المدن الساحلية المزدحمة. أما في المكسيك، وفي الفترة ما بين العام ١٨٧٨ و١٩٠٨ على سبيل المثال فإن أكثر من جزء من عشرة من المساحة الوطنية الإجمالية تم تحويله إلى قطعٍ كبيرة لمصلحة شركات تطوير الأراضي. أما في العام ١٩١٠، وعشية الثورة المكسيكية فكانت نسبة ٢,٤ بالمئة من أرباب الأسر في المناطق الريفية لا تمتلك أية أراضٍ على الإطلاق. أما نسب ملكية الأراضي في الأرجنتين فقد كانت أعلى – راوحتْ ما بين ١٠ بالمئة في مقاطعة لا بامبا، و٣٥ بالمئة في شوبوت – لكن هذه النسب كانت أكثر بكثير في الولايات المتحدة في العام ١٩٠٠ حيث كانت أقل بقليل من ٧٥ بالمئة[1].

يجب علينا التركيز في هذا المجال على أن هذه الظاهرة لم تكن تخص الولايات المتحدة وحدها. كانت نسبة ملكية الأراضي الريفية أعلى في كندا – ٨٧ بالمئة – كما أن أرقاماً متماثلة ظهرت في أستراليا، ونيوزيلندا وحتى في أجزاء من أفريقيا البريطانية، وهي الظواهر التي أكدت أن فكرة التوزيع الواسع لملكية الأراضي (الخاصة بالبيض) كانت سمةً بريطانية تحديداً وليست أميركية. بقيت هذه الظاهرة حتى اليوم واحداً من أكبر الفروق ما بين أميركا الشمالية والجنوبية. أما في البيرو، وفي زمنٍ ليس ببعيد، أي في العام ١٩٥٢، فقد كان ٢ بالمئة من مالكي الأراضي

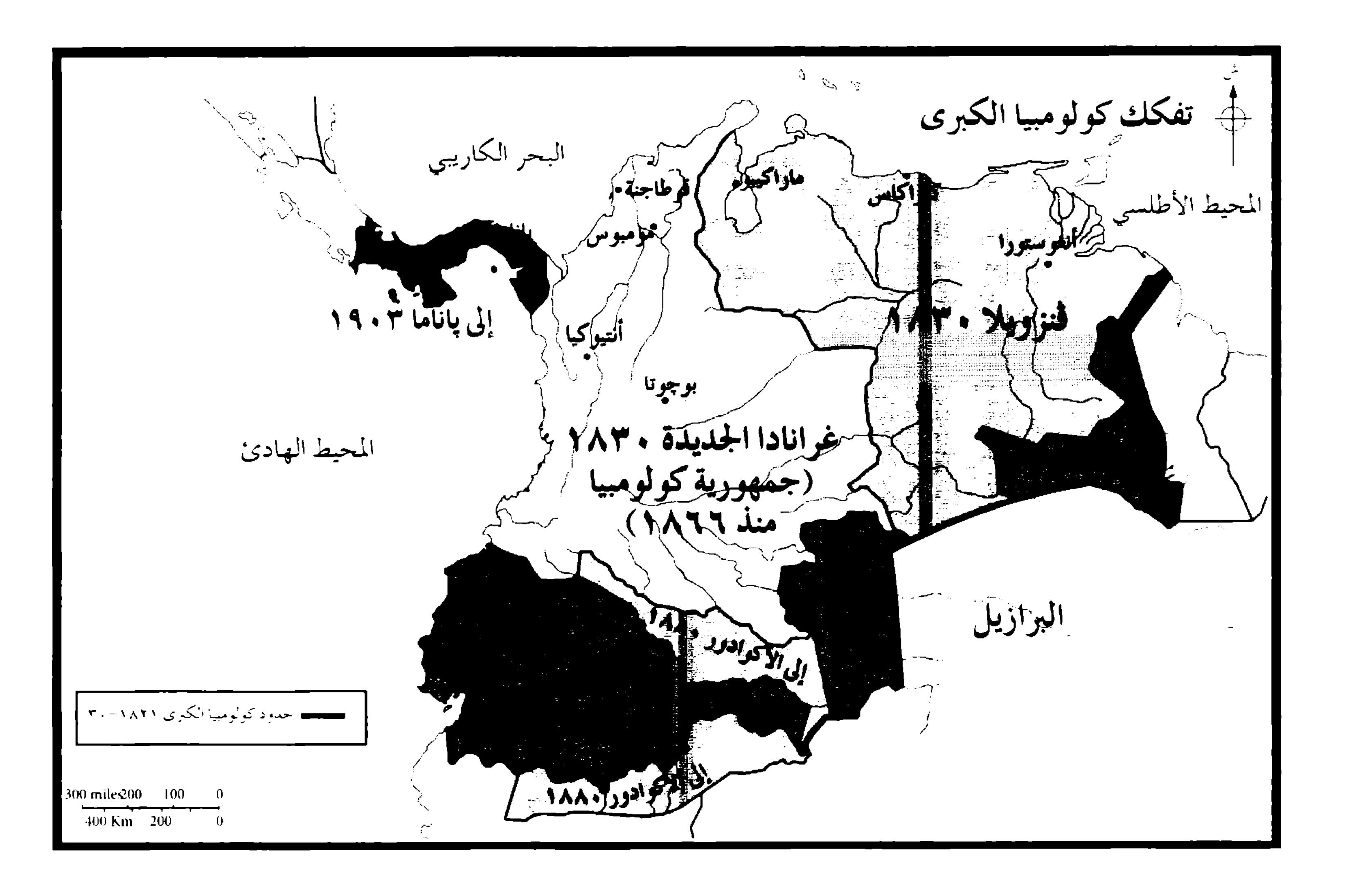
(١) Engerman and Sokoloff, 'Once upon a Time in the Americas'.

يسيطرون على ٦٩ بالمئة من كل الأراضي الصالحة للزراعة، وكان ٨٣ بالمئة يمتلكون نسبة ٦ بالمئة من الأراضي فقط، وهي أراضٍ تتألف الواحدة منها من ١٢ آكراً أو أقل. يعني ذلك أن المتطوعين البريطانيين الذين قدموا للقتال مع بوليفار على أمل امتلاك حصة لهم بموجب haberes militares انتهوا بخيبة أملٍ كبيرة. يفسّر هذا أنه من أصل ٧,٠٠٠ من المتطوعين الذين توجهوا إلى فنزويلا لم يبقَ سوى ٥٠٠ فقط، كما أن ثلاثة آلاف من بينهم ماتوا نتيجة المعارك أو نتيجة الأمراض، أما الآخرون فقد عادوا إلى موطنهم في بريطانيا[١].

أما الصعوبة الثالثة، التي ترتبط بالأمور المذكورة آنفاً ارتباطاً وثيقاً، فهي أن درجة التنوع العرقي والانقسامات كانت أعلى بكثير في أميركا الجنوبية. كان متعدّدو الأعراق من أمثال بوليفار يكرهون peninsulares [الذين ولدوا في شبه الجزيرة الإيبيرية] بمرارةٍ استثنائية، وكانت عداوة أكثر بكثير من العداوة التي كانت بين «الوطنيين» و«الجنود البريطانيين العاملين في أميركا» في ماساشوستس. لكن مشاعر pardos والعبيد تجاه متعدّدي الأعراق لم تكن أقل عدائية منها. لكن محاولة بوليفار الحصول على مساعدة السود لم تكن بناءً على إيمان خالص بالمساواة بين الأعراق، وذلك لأنها كانت مسألة تتعلق بالمصلحة السياسية. وهكذا أمر بوليفار بإلقاء القبض على بيار Piar عندما شك بأنه يخطط لحشد رفاقه من العبيد الهاربين castas ضد البيض، وما لبث أن حاكمه بتهمة الهروب من الخدمة العسكرية، والتمرد، والتآمر على الحكومة. أُعدِم بيار رمياً بالرصاص في ١٥ تشرين الأول من العام ١٨١٧، وذلك بعد أن أُسند إلى حائط كاتدرائية في آنغستورا، وكانت أصوات الرصاصات مسموعة داخل مكتب بوليفار المجاور[٢]. لم يكترث بوليفار لمنح السكان الأصليين الحقوق السياسية. أما الشرط الدستوري بضرورة أن يكون كل الناخبين على معرفة بالقراءة والكتابة حتى يُمنحوا حق التصويت فقد حرم عملياً هؤلاء السكان من حقوقهم هذه.

(١) Brown, Adventuring, figure 2.2.

(٢) Lynch, 'Bolivar and the Caudillos', pp. 16ff.



تفكك كولومبيا الكبرى
ش
البحر الكاريبي
المحيط الأطلسي
قرطاجنة
ماراكيبو
كراكاس
أنجوستورا
بوبايان
أنتيوكيا
إلى باناما ١٩٠٣
فنزويلا ١٨٣٠
بوجوتا
المحيط الهادئ
غرانادا الجديدة ١٨٣٠
(جمهورية كولومبيا
منذ ١٨٦٦)
البرازيل
إلى الإكوادور
إلى الإكوادور ١٨٨٠
حدود كولومبيا الكبرى ١٨٢١-٣٠
300 miles 200 100 0
400 Km 200 0

إذا أردنا أن نفهم السبب الذي جعل الانقسامات العرقية أكثر تعقيداً في أميركا الجنوبية مما هي عليه في أميركا الشمالية فينبغي لنا تفهّم الفروق الواسعة التي ظهرت في عهد بوليفار. كان الهنود الأميركيون يمثلون ٨٠ بالمئة من السكان في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية على السواء، بما في ذلك البرازيل. لكن هذه النسب تغيرت كثيراً مع حلول العام ١٨٢٥. أما السكان الأصليون في أميركا الإسبانية فما زالوا يمثّلون ٥٩ بالمئة من السكان. أما في البرازيل فقد انخفض هذا العدد إلى ٢١ بالمئة، بينما كان في أميركا الشمالية أقل من ٤ بالمئة. استمرت الهجرة بأعداد ضخمة بالتدفق من أوروبا إلى الولايات المتحدة وكندا، هذا في حين كانت عملية نزع ملكيات السكان الهنود مستمرة مع إعادة إسكانهم في محميات محدّدة، وهي كلها أمور كان يسهل القيام بها عن طريق القوة العسكرية. أما في أميركا الإسبانية فإن الهنود لم يكونوا أكثر عدداً فقط، لكنهم كانوا قوة عاملة لا غنى عنها ضمن نظام encomienda، وذلك بغياب المهاجرين بأعدادٍ كبيرة. يضاف إلى ذلك، كما سنرى لاحقاً، أن إدخال العبيد الأفارقة قد ترك تأثيرات سكانية متنوعة في المناطق المختلفة للمستعمرات الأوروبية[1].

اتضح في النهاية، لكل الأسباب المبينة أعلاه، أن رؤية بوليفار إلى أميركا جنوبية متحدة كانت مستحيلة التحقق. أدّت الثورات في غرانادا الجديدة، وفنزويلا، والإكوادور، إلى رفض فكرة اتحاد الأنديز المقترحة، وما لبثت كولومبيا الكبرى ذاتها أن تفككت عندما انفصلت فنزويلا وكيتو. كان المنتصر في ظل هذا الوضع حليف بوليفار السابق، القائد خوسيه أنطونيو باييز، الذي اندفع قُدُماً بوصفه نصير فنزويلا الأمة – الدولة[2]. كتب بوليفار قبل شهرٍ من وفاته نتيجة مرض السل في شهر كانون الأول من العام ١٨٣٠، وبعد أن استقال من مناصب الرئاسة والقيادة العامة للجيش، رسالة أخيرة مفعمة باليأس:

(١) Data from Engerman and Sokoloff, 'Once upon a Time in the Americas'.

(٢) Lynch, 'Bolivar and the Caudillos', p. 34.

... حكمت مدة عشرين سنة، لكني أيقنت خلال تلك السنوات حقائق قليلة: (١) إن أميركا [الجنوبية] غير قابلة للحكم بالنسبة إلينا؛ (٢) إن أولئك الذين يخدمون ثورة إنما يحرثون البحر؛ (٣) إن الأمر الوحيد الذي يقدر عليه المرء في أميركا هو الهجرة؛ (٤) ستقع هذه البلاد في نهاية الأمر في أيدي الجماهير غير المنضبطة، وذلك قبل أن تقع أخيراً بأيدي طغاة صغار من كل الألوان وكل الأجناس؛ (٥) ما إن نقع فريسة الجرائم وتُخمد عزائمنا بكل شراسة حتى يعدنا الأوروبيون غير مستحقين حتى أن نُقهر؛ (٦) إذا كان ممكناً لأي جزءٍ من العالم العودة إلى الفوضى البدائية، فإن ذلك الجزء سوف يكون أميركا في ساعتها الأخيرة[١].

كان ذلك توقعاً دقيقاً ومؤلماً لتاريخ أميركا اللاتينية بعد قرنٍ ونصف قرن من الزمن. بدأت الدول التي استقلت حديثاً حياتها من دون إرساء تقليد الحكومة التمثيلية، وبتوزيع غير متساوٍ إلى حدّ كبير للأراضي وبانقسامات عرقية كانت مماثلة لعدم المساواة الاقتصادية. كانت نتيجة كل ذلك حدوث دورةٍ من الثورات والثورات المضادة، والانقلابات في إثر الانقلابات، كما سعى المحرومون من الأراضي إلى الحصول على آكراتٍ قليلة إضافية، بينما تمسّكت النخبة من ذوي الأعراق المختلطة بمزارعها الشاسعة. فشلت التجارب الديمقراطية مرة بعد أخرى لأن النخَب الثرية كانت تعمد عند ظهور أولى علامات التأميم إلى التجمع وراء قائدٍ صارم من أجل استرجاع مكانتها المعتادة بالقوة. يتضح جلياً أن ذلك الوضع لم يكن بيئة مناسبة للنمو الاقتصادي السريع.

لم يكن من قبيل المصادفة أن يعمد رئيس فنزويلا الحالي «القائد» هوغو تشافيز إلى اعتبار نفسه بوليفار هذا العصر. بلغت شجاعة **المحرر** حداً دفعه في العام ٢٠١٠ إلى فتح قبر بوليفار بغية الاتصال بروحه (حدث ذلك تحت أضواء كاميرات التلفزة). يحب تشافيز، وهو جندي سابق مغرم بالمسرح السياسي، التحدث عن «الثورة البوليفارية». يُمكن للمرء أن يرى هذه الأيام، وفي كل أرجاء كراكاس،

(١) Lynch, Bolivar, p. 276.

وجه بوليفار المتطاول ذا اللحية المشذّبة بعناية على ملصقاتٍ، كما تظهر إلى جانبه معالم وجه تشافيز الأكثر خشونة، والأكثر امتلاءً. أما حقيقة نظام تشافيز فلا تعدو كونها ديمقراطية زائفة، وهي ديمقراطية يُستخدم فيها رجال الشرطة ووسائل الإعلام كأدواتٍ ضد الخصوم السياسيين، كما تُستخدم مداخيل البلاد الناتجة من حقول النفط الكثيرة من أجل شراء مساندة الجماهير عن طريق أسعار الواردات المدعومة، والهبات، والرشى. أما حقوق الملكية الخاصة، وهي أمرٌ جوهري في الولايات المتحدة فهي تتعرض للاختراق بصورة روتينية. يقوم تشافيز بتأميم الشركات بحسب مزاجه، وذلك بدءاً بشركات إنتاج الإسمنت إلى محطات التلفزة، ووصولاً إلى المصارف. دأب الرئيس في تغيير الدستور ليتناسب معه، وهو الأمر الذي قام به عدة حكام دكتاتوريين في أميركا اللاتينية تعودوا تحويل حكم القانون إلى مهزلة – أولاً، في العام ١٩٩٩ وذلك بعد وقتٍ قصيرٍ من فوز تشافيز في الانتخابات للمرة الأولى، وكان آخرها في العام ٢٠٠٩ عندما أقدم على إلغاء الحدّ الأقصى لتولي منصب الرئاسة وذلك من أجل ضمان إعادة انتخابه لمراتٍ غير محددة.

إن أفضل مثالٍ على الفرق الموجود بين الثورتين الأميركيتين هو هذا: **دستور واحد للولايات المتحدة، قابل للتعديل ولكن ليس للخرق، ستة وعشرون دستوراً لفنزويلا وكلها قابلة للخرق.** أما جمهورية الدومينيكان فقد عرفت عدداً أكبر من الدساتير (اثنان وثلاثون دستوراً)، وهايتي والإكوادور تحتلان المرتبتين الثالثة والرابعة بدساتيرهما الأربعة والعشرين والعشرين لكل منهما على التوالي[1]. صُمّم دستور الولايات المتحدة من أجل ترسيخ «حكم القانون وليس الرجال»، أما في أميركا اللاتينية فإن الدساتير ذاتها تُستخدم كأدوات من أجل إفساد حكم القانون في ذاته.

لكن يجب علينا قبل الاحتفاء بالنجاح الطويل الأمد للنموذج البريطاني

(١) Cordeiro, 'Constitutions'.

الاستعماري في أميركا الشمالية أن نعترف بأنه لا يتفوق أبداً على نموذج أميركا اللاتينية في وجهٍ واحدٍ ومحدد. زاد الانقسام العرقي بين البيض والسود، وعلى الخصوص بعد الثورة الأميركية. عمد الدستور الأميركي، بالرغم من مزاياه العديدة إلى تكريس ذلك الانقسام عندما قبل شرعية العبودية – وهي الخطيئة الأولية للجمهورية الجديدة. ظل السكان البيض يبيعون العبيد حتى العام ١٨٠٨ فوق درج البورصة القديمة في تشارلستون حيث قُرئ إعلان الاستقلال، وذلك بفضل المادة الأولى، القسم ٩ من الدستور وهي التي أجازت المتاجرة بالعبيد لمدة عشرين عاماً إضافية. أما تمثيل ولاية كارولينا الجنوبية في الكونغرس فقد كان يُحتسب بحسب قاعدة أن كل عبد «الشخص الآخر» بحسب ما ذكر الدستور، يجب أن يُعد ثلاثة أخماس رجلٍ حر.

كيف يمكن لنا، والحالة هذه، فهم هذا التناقض في قلب الحضارة الغربية – أي إن أكثر الثورات نجاحاً، وهي تلك التي تم خوضها باسم الحرية كانت ثورة صنع معظمها مالكو عبيد، وكل هذا في وقتٍ تزايدت فيه حركة إلغاء الاستعباد على جانبي الأطلسي؟

مصير الغولاه

سنعرض فيما يلي قصةً أخرى تتحدث عن سفينتين حملتا نوعاً مختلفاً كل الاختلاف إلى الأميركيتين. غادرت السفينتان جزيرة **غوري** الصغيرة، التي تقع قبالة ساحل السنغال. اتجهت السفينة الأولى إلى **باهيا** في شمال البرازيل، بينما توجهت الثانية إلى تشارلستون في كارولينا الجنوبية. حملت السفينتان عبيداً، وكانوا جزءاً صغيراً فقط من مجموع ثمانية ملايين إنسان من الذين عبروا الأطلسي ما بين العامين ١٤٥٠ و١٨٢٠. كان ثلثا المهاجرين تقريباً إلى الأميركيتين ما بين العامين ١٥٠٠ و١٧٦٠ من العبيد، وزادوا من نسبة الخُمس قبل العام ١٥٨٠، لكن النسبة بلغت

ذروتها عندما استقرت عند حد يقل قليلاً عن ثلاثة أرباع ما بين العامين ١٧٠٠ و١٧٦٠[1].

تبدو ظاهرة العبيد واحداً من بين النظم القليلة المشتركة ما بين أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية. اعتمدت مزرعة التبغ الجنوبية [في أميركا الشمالية] وengenho البرازيلية على العبيد الأفريقيين المستوردين. حدث ذلك عندما تبيّن أنهم يتمكّنون من العمل في ظروف شاقة أكثر من العمال الأوروبيين المتعاقدين في الشمال، وهم أقل كلفة من الأميركيين الأصليين في الجنوب. لم يكن بائعو العبيد يميزون بين العبيد سواء أكانوا من أمثال ملك الداهومي أو غيره، بل كانوا مسرورين لكونهم في خدمة مشتري العبيد من البريطانيين، وكذلك البرتغاليين، أو زبائنهم التقليديين من العرب. تعود تجارة العبيد عبر الصحارى إلى نحو القرن الثاني بعد الميلاد. اكتشف البرتغاليون أسواق عبيد ناشطة لدى وصولهم إلى بينين في العام ١٥٠٠[2]. لكن من وجهة نظر الأفريقي الأسير في مستودعٍ للعبيد في **غوري** لم يكن يهمه إذا ما شُحن في سفينة متوجهة إلى شمال أميركا أوٍ إلى جنوبها. كانت احتمالات موته على متن إحدى السفينتين هي ذاتها (نحو واحد من أصل ستة، وذلك لأننا نعرف أن ١٦ بالمئة منهم لم يتجاوزا هذه المحنة).

بقيت مع ذلك فروق مهمة في أنواع العبودية التي نشأت في العالم الجديد. كانت العبودية جزءاً أساسياً من الاقتصاد المتوسطي منذ الأزمنة القديمة، كما أنها انتعشت في فترة الحروب الصليبية، لكنها اختفت تماماً في إنكلترا. اختفى مركز العبد الإقطاعي من القوانين الوضعية، وذلك في وقتٍ كان البرتغاليون يفتتحون طريقاً بحرياً جديداً من أسواق العبيد في غرب أفريقيا إلى البحر المتوسط، كما أسّسوا أول مزارع قصب السكر في منطقة الأطلسي، وكانت أولاها في ماديرا (١٤٥٥) ومن ثم

(١) Engerman and Sokoloff, 'Once upon a Time in the Americas'.

(٢) Fage, 'Slavery and the Slave Trade', p. 395.

في **ساو تومي** في خليج غينيا (١٥٠٠)[١]. وصل أوائل العبيد الأفريقيين إلى البرازيل في وقت مبكر، أي في العام ١٥٣٨، لكن الولايات المتّحدة لم تشهد وصول أول فوجٍ للعبيد إليها قبل العام ١٦١٩، أي عندما وصل ٣٥٠ منهم إلى جايمس تاون، وذلك بعد الاستيلاء عليهم كغنيمة من سفينة إسبانية متجهة إلى فيراكروز[٢]. لم تكن هناك مزارع قصب سكر في أميركا الشمالية. أما هؤلاء engenhos في باهيا وبيرنامبوكو فقد كانت ظروف العمل كأقسى ما يكون بالنسبة إلى العبيد، وذلك بسبب خصائص ظروف العمل المكثفة لزرع قصب السكّر في الفترة ما قبل الصناعية[*]. لم تكن مناجم الذهب في جنوب البرازيل (مثل ميناس جيرايس) أفضل حالاً بكثير، ولا مزارع البن في مطلع القرن التاسع عشر. يُذكر أنه شُحن إلى البرازيل عدد أكبر من العبيد مما شُحن إلى جنوب الولايات المتحدة. لم تتأخر البرازيل عن أخذ مركز الصدارة من منطقة الكاريبي كأهمّ مركزٍ في العالم لإنتاج السكر، وهي التي أنتجت نحو ١٦,٠٠٠ طن سنوياً حتى في العام ١٦٠٠. (لم تتمكن مستويات الإنتاج في سانتو دومينغو وكوبا من الوصول إلى هذه الأرقام إلا في وقت لاحق)[٣]. تنوّع الاقتصاد بعد ذلك بمرور الوقت، وذلك بدءاً بإنتاج السكر إلى استخراج المعادن، وزرع البن والمصنوعات الأولية، واستمر استيراد العبيد الذين كانت لهم أفضلية على المهاجرين الأحرار، كما كان المهاجرون هم النوع المعتاد للعمالة في كل قطاع من قطاعات الاقتصاد[٤]. كانت العبودية هامة جداً بالنسبة إلى البرازيل إلى حد أنّ السكان من ذوي الأصول أو الأنساب الأفريقية كانوا يمثّلون نسبة ٥٦ بالمئة من السكان في العام ١٨٢٥، وذلك مقارنة بنسبة ٢٢ بالمئة في أميركا الإسبانية، و١٧

(١) Curtin, Plantation Complex, pp. 4–26.

(٢) Thornton and Heywood, Central Africans.

(*) كانت كل مرحلة من هذه العملية – القطع، والنقل، والطحن، والغلي، والتجفيف، تتطلب عملاً جسدياً شاقاً، ولم يكن يُسمح بالتأخير في تنفيذ كل مرحلة من هذه المراحل.

(٣) Curtin, Plantation Complex, p. 26; Klein and Luna, Slavery in Brazil, p. 28. See also Prado, Colonial Background; Poppino, Brazil.

(٤) Schwartz, 'Colonial Past', p. 185.

بالمئة في أميركا الشمالية. استمر البرازيليون في المتاجرة بالعبيد واقتنائهم حتى بعد وقتٍ طويل من إلغائها في العالم الناطق بالإنكليزية. عمد البرازيليون إلى استيراد مليون عبدٍ جديد ما بين العامين ١٨٠٨ و١٨٨٨، وذلك بالرغم من المعاهدة الأنكلو - برازيلية في العام ١٨٢٦، التي كان مفترضاً أن تضع حداً لهذه التجارة. أما بحلول الخمسينيات من القرن التاسع عشر، أي عندما بدأت البحرية البريطانية بتهديد حركة المرور عبر الأطلسي بشكلٍ جدي، فقد وصل تعداد العبيد البرازيليين إلى ضعف ما كان عليه في العام ١٧٩٣.

لم تكن ظروف جماعات العبيد في أميركا اللاتينية ما قبل الثورة سيئة تماماً. تمكّنت السلطات الملكية والدينية من التدخل بغية التخفيف من معاناة العبيد، كما فعلت ذلك من أجل تحديد حقوق الملكية الخاصة الأخرى. كانت فرضية كنيسة الروم الكاثوليك تقول إن العبودية هي شرّ ضروري في أفضل أحوالها، لكنها لم تستطع تغيير حقيقة أن للأفريقيين أرواحاً. تمكّن العبيد الذين عملوا في مزارع أميركا اللاتينية من حفظ حرياتهم بنسبة أكبر من أولئك الذين عملوا في مزارع التبغ في فرجينيا. أما في باهيا فقد تمكّن العبيد أنفسهم من شراء نصف صكوك حرياتهم[١]. لكن بحلول العام ١٨٧٢ كان ثلاثة أرباع السود والخلاسيين في البرازيل من الأحرار[٢]. أما في كوبا والمكسيك فقد كان بإمكان العبد تحديد سعره، وبعد ذلك كان يتمكن من شراء حريته بالتقسيط[٣]. قيل كذلك إن العبيد البرازيليين كانوا يتمتعون بأيام إجازة (خمسة وثلاثون من أعياد القديسين بالإضافة إلى أيام الآحاد) أكثر مما تمتع به نظراؤهم في جزر الهند الغربية البريطانية[٤]. تمكن العبيد من امتلاك أراضٍ، وذلك بدءاً بالبرازيل.

(١) Schwartz, Slaves, Peasants and Rebels, p. 46.

(٢) Graham, Patronage and Politics, p. 26.

(٣) Elkins, Slavery, p. 76.

(٤) Davis, 'Slavery', p. 72.

لا يمكننا، بطبيعة الحال، رسم صورة وردية لهذا الوضع. عملت بعض معامل إنتاج السكر، في أثناء فترة ازدهار التصدير، أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع، ولهذا عمل العبيد حتى الموت فعلياً. أعلن أحد مالكي المزارع البرازيليين أنه «عندما يشتري العبيد فإنه يفعل ذلك بنية استخدامه لمدة سنة، لكن قليلين منهم يستطيعون الصمود أكثر من هذه المدة، وقال بأنه يحصل خلال هذه الفترة على قيمة عمل من العبد تكفي ليس لتعويض استثماره الأصلي فحسب، بل حتى لجني أرباحٍ لا بأس بها»[1]. عاش المزارعون هناك، كما في الكاريبي، في ظل خوفٍ دائم من ثورات العبيد، ولهذا اعتمدوا على القسوة الرادعة من أجل الحفاظ على النظام. أما العقوبة التي كانت شائعة في المزارع البرازيلية فكانت novenas، أي الجلْد لفترة تسع ليالٍ متتالية. كانت جروح الضحية في خلال هذه المدة تُمسح بالملح والبول[2]. لم يكن من النادر في **ميناس جيرايس** القرن الثامن عشر أن تُعرض رؤوس العبيد المقطوعة على جوانب الطرقات. كما لم يكن من الغريب أيضاً أن لا يزيد العمر المتوقع في الخمسينيات من القرن التاسع عشر للعبد البرازيلي على ثلاثة وعشرين عاماً فقط، كما أنه كان يكفي العبد أن يعيش خمس سنوات في خدمة سيده كي يُكسِب صاحبه ضعفي الاستثمار الأصلي الذي وضعه فيه[3]. كان العبيد البرازيليون يتمتعون بالحق في الزواج، وهو ما حُرم منه العبيد الذين كانوا يعملون بموجب القانون البريطاني (والهولندي). لكن القوانين البرتغالية والإسبانية أخذت تميل، بمرور الوقت، إلى أن تصبح أقل تشدداً من ناحيتهم.

شعر مالكو العبيد في شمال أميركا بأنهم أقوياء بما يكفي لمعاملة «**ممتلكاتهم**» كما يحلو لهم، وسواء أكانت هذه الممتلكات بشراً أم قطع أرض. بدأت أعداد العبيد بالتزايد، فوصلت إلى نحو ثلثي السكان الأميركيين البريطانيين بحلول العام ١٧٦٠،

(١) Thomas, Slave Trade, p. 633.

(٢) Davis, 'Slavery', p. 78.

(٣) Schwartz, Slaves, Peasants and Rebels, p. 42.

لكن السلطات زادت في تمييزها بين العمال البيض الذين يعملون بموجب عقد، والذين تبلغ مدة خدمتهم خمس أو ست سنوات، وبين العبيد السود الذين كانوا مجبرين على الخدمة طوال حياتهم. أما القانون الذي كان مطبقاً في ميريلاند في العام ١٦٦٣ فقد كان غامضاً: «إن كل الزنوج أو العبيد الآخرين في المقاطعة... يجب أن يخدموا مدى الحياة durante vitae، كما أن كل أطفال الزنوج أو العبيد الآخرين سيكونون عبيداً كما كان آباؤهم»[١]. أخذت العبودية في أميركا الشمالية تتجه لأن تكون أكثر صرامة بمرور الزمن. يقضي أحد القوانين التي صدرت في العام ١٦٦٩ بأن قتلَ السيّد لأحد عبيده لا يُعد جريمة. ورد صراحةً في أحد القوانين التي صدرت في كارولينا الجنوبية في العام ١٧٢٦ أن العبيد كانوا من «الممتلكات» (تحولت الكلمة بعد ذلك إلى «ممتلكات شخصية»). لم يكن العقاب البدني مسموحاً به فقط بل كان منصوصاً عليه في القوانين[٢]. وصلت الأمور إلى حد أن العبيد الهاربين من كارولينا بدأوا بعبور الحدود إلى فلوريدا الإسبانية حيث سمح لهم الحاكم هناك بتأسيس مستوطنة مستقلة، لكن شريطة أن يتحولوا إلى الكاثوليكية[٣]. كان ذلك تطوراً مدهشاً، وذلك بالنظر إلى أن العبودية الامتلاكية قد تلاشت في إنكلترا قبل ذلك بقرون بحسب ما مرّ معنا من قبل، وهو ما يُظهر كيف أن النُظُم الأوروبية كانت قادرة تماماً على التغيّر فوق الأرض الأميركية. عبّر أحد القضاة في فرجينيا عن التوتّر الموجود في جوهر «النظام المحدد» عندما أعلن: «إن العبيد ليسوا بممتلكاتٍ فقط، لكنهم كائنات عاقلة، وهم يستأهلون رأفة المحكمة وذلك عند إمكانية تطبيقها من دون خرق حقوق الملكية»[٤]. تعرّض تجار العبيد للهجوم من قِبل أولئك الداعين إلى إلغاء العبودية، وذلك عندما تجاوزا حداً هاماً، أي كما فعل قبطان إحدى سفن ليفربول زونغ في العام ١٧٨٢، أي عندما رمى ١٣٣ عبداً من فوق متن السفينة. كان

(١) Elkins, Slavery, p. 40.

(٢) المرجع نفسه، ص٥٠.

(٣) Elliott, Empires of the Atlantic World, p. 283.

(٤) Davis, 'Slavery', p. 125.

العبيد أحياء ومقيّدين، وهو فعل ذلك بسبب نقص المياه التي تحملها السفينة. يجدر بنا أن نذكر هنا أن القبطان قد حوكم في البداية بتهمة الاحتيال على التأمين، وذلك قبل قيام **أولادا إكوينو** بإبلاغ **غرانفيل شارب** وهو أحد الداعين إلى إلغاء العبودية بطبيعة الجريمة(١).

ثمة فرقٌ مدهش على وجه الخصوص ما بين الشمال والجنوب، وهو ما تمثّل في تحريم أميركا الشمالية الزواج بين الأعراق، أو «تمازج الأجناس» كما أُطلق عليه ذات مرة. أما أميركا اللاتينية فقد تقبلت منذ البداية واقع الزواج بين الأعراق، كما صنّفت نتاج ذلك الزواج (**ميستيزو**، أي أولاد الرجال الإسبان من النساء الهنديات، **والخلاسيون** وهم نتاج زواج الرجال من أصل إسباني والسود، **والزامبو** وهم أولاد الهنود والسود) كما فصلت لهم أنسابهم. تزوج بيزارو ذاته امرأة من الأنكا، وهي هيويلاس يوبانكوي التي ولدت له ابنة هي دونا فرانشيسكا(٢). وصلت نسبة هؤلاء «الخلاسيين» وهي كلمة إنكليزية يُراد بها الانتقاص، في العام ١٨١١ إلى ثلث مجموع عدد سكان أميركا اللاتينية، وهي نسبة تعادل عدد السكان الأصليين، وما يزيد على عدد المستوطنين من ذوي الأصل الإسباني الخالص، وهم الذين وصلت نسبتهم إلى أقل من خُمْس السكان. أما في القرن الثامن عشر فقد وصلت نسبة الخلاسيين البرازيليين إلى ٦ بالمئة فقط من أصل القوى العاملة الزراعية التي تتألف غالبيتها من الأفارقة، لكنهم كانوا خمس القوة العاملة الماهرة وذوي المناصب الإدارية. يعني ذلك أنهم كانوا طبقة تأتي في المرتبة الثانية في الأمبراطورية البرتغالية.

أما في الولايات المتحدة، في المقابل، فقد بُذلت جهود حثيثة لمنع (أو أقله الحرمان من الشرعي) مثل هذا الزواج. ربما يكون ذلك نتيجة فرق آخر. هاجر البريطانيون إلى أميركا بصحبة عائلاتهم. لكن عندما عَبَر الإسبان والبرتغاليون المحيط الأطلسي فقد فعلوا ذلك وحدهم. اشتمل **سجل المسافرين إلى العالم**

(١) Walvin, Black Ivory, pp. 16f.

(٢) See Rostworowski, Dóa Francisca Pizarro.

الجديد، وهو قائمة بالمسافرين الإسبان الذين توجهوا إلى العالم الجديد ما بين العامين ١٥٠٩ و١٥٩٩، على نسبة ١٠ بالمئة فقط من الإناث. لم يكن توقع نتائج هذا الوضع صعباً على الإطلاق. درس فريق من العلماء بقيادة أندريه رويز ليناريس عِيَناً شخصية للحمض النووي الخلوي لثلاث عشرة مجموعة من الميستيزو، تعيش في سبعة بلدان بدءاً من تشيلي حتى المكسيك. أظهرت نتائج الدراسة، بوضوح، أن الرجال الأوروبيين في جميع أنحاء أميركا اللاتينية عمدوا إلى اتخاذ زوجاتٍ لهم من السكان الأصليين أو من الأفارقة، لكن العكس لم يكن صحيحاً[١]. أيدت عدة دراسات في أماكن مثل ميديلين في كولومبيا، حيث يُعد السكان من أصلٍ إسباني صافٍ، ذلك الاستنتاج. أظهرت إحدى العِيَن أن الكروموسوم Y (الموروث من الأب) هو ٩٤ بالمئة من الأوروبيين، و٥ بالمئة من الأفارقة، وواحد بالمئة من الهنود الأميركيين الأصليين، بينما أظهرت مورثات الحمض النووي الموروثة من الأم أن ٩٠ بالمئة منها من السكان الهنود الأصليين، ٨ بالمئة من أصل أفريقي و٢ بالمئة من أصل أوروبي[٢].

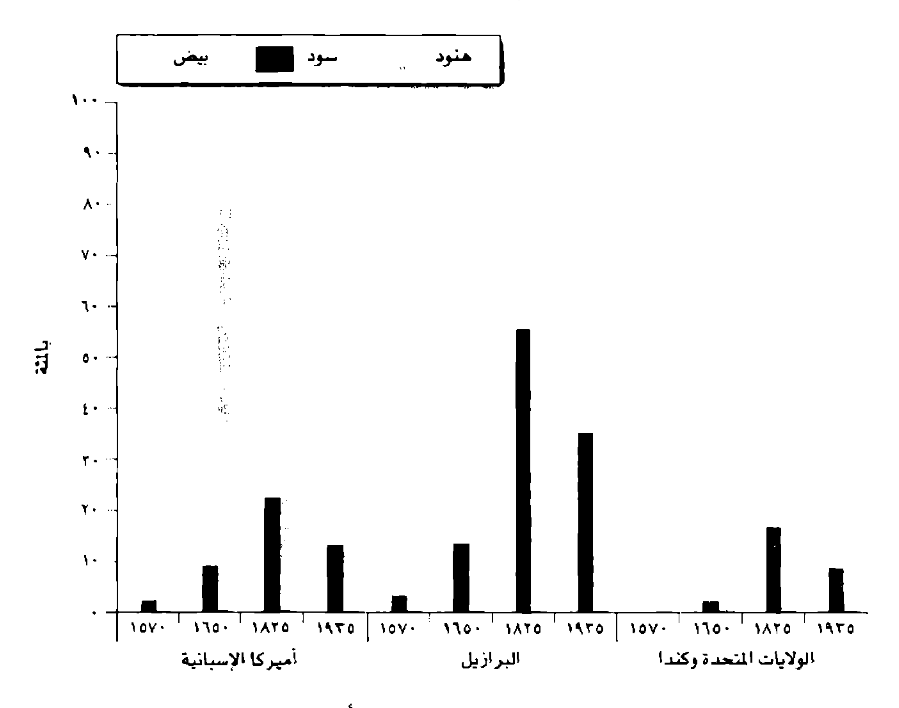
لم يكن السبب عدم حدوث التزاوج بين الأعراق في أميركا الشمالية، لأنه حدث بالفعل. إن توماس جيفرسون هو مجرد أشهر أميركي يُنجب أولاداً من إحدى العبدات اللواتي كنّ في خدمته. أما في نهاية الحقبة الاستعمارية فقد وجد نحو ٦٠,٠٠٠ من الخلاسيين في أميركا البريطانية. أما هذه الأيام فإن نسبةً تراوح ما بين الخُمس والربع من الحمض النووي لمعظم الأميركيين من أصلٍ أفريقي في الولايات المتحدة يُمكن إرجاعها إلى الأوروبيين. لكن النموذج السائد في الفترة الاستعمارية كان ثنائياً في الأساس. كان المرء الذي يمتلك ولو «قطرةً» واحدة من الدماء الأفريقية الأميركية يعد أسود، وفي فرجينيا كان يكفي أن يكون جد واحد أسود للمرء، كي يُصنّف من السود، وذلك بغض النظر عن بشرته الشاحبة أو تعابير الوجه القوقازية. كان الزواج

(١) Wang et al., 'Geographic Patterns'.

(٢) Carvajal-Carmona et al., 'Strong Amerind/White Sex Bias'; Bedoya et al.,'Admixture Dynamics'.

بين الأعراق المتعددة يُعد جريمة يُعاقَب عليها منذ وقتٍ مبكر من العام ١٦٣٠ كما مُنع قانونياً في العام ١٦٦٢. أما مستعمرة ميريلاند فقد أقرّت قانوناً مماثلاً قبل سنةٍ من الزمن، كما اعتمدت خمس مستعمرات أميركية شمالية قوانين كهذه. أقدمت ما لا يقل عن ثمان وثلاثين ولاية على حظر هذا الزواج المختلط عرقياً، وذلك في القرن الذي تلا تأسيس الولايات المتحدة. احتفظت ثمان وعشرون ولاية بقوانين مشابهة حتى وقتٍ متأخر من العام ١٩١٥، كما أن عشراً من هذه الولايات وقّعت على جعل هذا الحظر دستورياً. وصلت الأمور إلى حد محاولة تعديل دستور الولايات المتحدة في شهر كانون الأول من العام ١٩١٢، وذلك من أجل حظر التزاوج المختلط «إلى الأبد»(١).

التركيب العرقي للعالم الجديد ١٥٧٠-١٩٣٥



ملاحظة: المعطيات عن السكان متعددي الأعراق غير متوافرة.

(١) Ferguson, War of the World, pp. 20–22.

يعني ذلك وجود فرقٍ كبير بالنسبة إلى الجهة التي يختارها العبيد الأفارقة. انتهى أولئك المتجهون إلى أميركا اللاتينية إلى ما يشبه بوتقة انصهارٍ عرقي حيث يمتلك العبد الذكر فرصةً معقولة لكسب حريته، هذا إذا ما تمكّن من البقاء على قيد الحياة في الأعوام الأولى من العمل الشاق. أما الأنثى من العبيد فكانت تمتلك فرصة غير ضئيلة لولادة طفلٍ مختلط عرقياً. أما العبيد المتجهون إلى الولايات المتحدة فكانوا يدخلون مجتمعاً يتزايد فيه التمييز الصارم بين البيض والسود.

سبق لنا أن رأينا كيف أن جون لوك جعل الملكية الخاصة أساس الحياة السياسية في كارولينا. لكن الرجل لم يفكّر في ملكية الأراضي فقط. أوضح **لوك** في المادة ١١٠ من «الدساتير الأساسية»: «سيمتلك كل رجلٍ حرّ في كارولينا القوة المطلقة والسلطة المطلقة على عبيده من الزنوج مهما كانت آراؤهم وأديانهم». كان امتلاك البشر جزءاً أساسياً من المشروع الاستعماري مثل ما كان امتلاك الأراضي. لم يكن مسموحاً لأولئك البشر أن يكونوا من أصحاب الأراضي، أو من الناخبين. أما صانعو القوانين الذين ظهروا بعد ذلك فقد جهدوا في المحافظة على ذلك التمايز. سمح الجزء العاشر من قانون العبيد في كارولينا الجنوبية الذي صدر في العام ١٧٤٠ للشخص الأبيض بإيقاف أو تفتيش أي عبدٍ خارج منزلٍ أو مزرعة إذا لم يكن مصحوباً بشخصٍ أبيض. أما الجزء السادس والثلاثون فقد منع العبيد من مغادرة مزرعتهم، وعلى الخصوص في ليالي السبت، والآحاد، والأعياد. أما العبيد الذين يخالفون هذا القانون فيعرّضون أنفسهم إلى «جلْدٍ خفيف». أما الجزء XLV فقد منع الأشخاص البيض من تعليم العبيد القراءة والكتابة.

يُمكن لنا أن نفهم التأثيرات الهامة لقوانين كهذه في الولايات المتحدة حتى في هذه الأيام. يمتد الشاطئ الجنوبي الشرقي للولايات المتحدة (الذي يسكنه الأميركيون الأفارقة) من **ساندي آيلند**، وكارولينا الجنوبية، وأميليا آيلاند، حتى فلوريدا. يمتلك الناس شرفاتهم، وأنواع أطعمتهم المميزة، وأساليبهم الموسيقية

الخاصة بهم[1]. إن بعض علماء الإنسانيات يعتقدون أن **«غولاه»** هي أنغولا معدلة، أي المكان الذي يُعتقد أن أسلاف السكان قدموا منه. يبقى ذلك أمراً محتملاً. يُذكر أن بدءاً من منتصف القرن السابع عشر جاءت نسبة كبيرة من كل العبيد الذين نُقلوا إلى الأميركيتين – ربما ٤٤ بالمئة – من ذلك الجزء من أفريقيا الذي يسمّيه المعاصرون أنغولا (البلد الذي يُعرف بهذا الاسم بالإضافة إلى المنطقة الواقعة ما بين الكاميرون والضفة الشمالية لنهر الكونغو)[2]. جاء ثلث العبيد الذين مرّوا من تشارلستون من أنغولا[3]. أُخذ معظم هؤلاء من بين شعب **مبوندو** في مملكة **ندونغو**، وهي المملكة التي أعطى حاكمها **نغولا** البلاد الحالية اسمها. انتهى هؤلاء بالانتشار في كل الأميركيتين بدءاً من البرازيل مروراً بالبهاما ووصولاً إلى ولايتَي كارولينا.

إن وجود آثار ترددات من أنغولا في كارولينا الجنوبية، بما في ذلك وجود آثارٍ من لغة كيمبوندو، أمر بالغ الأهمية. يتحدّر سكان تلك المنطقة من العبيد الأنغوليين مباشرة، ولم يتعرضوا لأشياء من شأنها تعديل مورثاتهم الجينية. يشهد بقاء ثقافة **الغولاه** على القدرة المدهشة للملونين على البقاء في ولايات مثل كارولينا الجنوبية. أما الأنغوليون الذين أُرسلوا إلى أميركا الجنوبية فقد حصلوا على فرصٍ أكبر للتخلص من سجن عبوديتهم، وهو ما كان تحقق في بعض الأحيان في حالة العبيد في بيرنامبوكو الذين تمكّنوا من تأسيس كويلومبو، مستعمرتهم الخاصة بهم التي تُعرف كذلك باسم أنغولا الصغرى، وذلك في بالميرا التي تقع في أعماق غابة في شمال شرقي ولاية آلاغواس البرازيلية. سكن ما يزيد على ١٠,٠٠٠ شخص هذه المملكة الصغيرة في عزّها، كما كان لها زعيم منتخب «غانغا زومبا». أُسست هذه المستعمرة في مطلع القرن السابع عشر، لكنها لم تُقهر على يد القوات البرتغالية حتى العام ١٦٩٤. لكن مصير «الغولاه» جاك بريتشارد، وهو عبدٌ أنغولي خطط للبدء بثورة

(١) Creel, Peculiar People.

(٢) Eltis, 'Volume and Structure', table 1.

(٣) Schaefer, Genealogical Encyclopaedia; Thornton and Heywood, Central Africans.

ضد **البوكرا** (البيض) في تشارلستون في العام ١٨٢٢، كان مختلفاً جداً، **لأنه** شُنق. بدت بلاد الأحرار، للمفارقة، وكأنها **بلاد غير الأحرار الدائمين** بالنسبة إلى خُمس سكانها. تحولت العبودية من الشمال من ريو غراندي إلى شأنٍ وراثي.

لقي هذا التصرف الخاطئ المتمثّل في العبودية حلاً له في نهاية الأمر على شكل حرب بين ولايات الجنوب التي تتبنى العبودية، وولايات الشمال التي تعاديها. كان من شأن تدخل البحرية البريطانية إلى جانب الكونفدراليين أن يهزم مشروع الاتحاديين، لكن ذلك التدخل لم يكن محتملاً قط. تمكّنت الحرب الأهلية من إنهاء العبودية ومع ذلك استمر عدد كبير من الأميركيين، ولمدة تزيد على قرنٍ من الزمن، في الاعتقاد أنهم مدينون في رخائهم إلى الخط الفاصل ما بين البيض والسود. كتب إدوارد إيفيريت في العشرينيات من القرن التاسع عشر في دورية **نورث أميركان ريفيو:**

إننا لا نهتم أبداً بأميركا الجنوبية، ولا نكن أبداً أي قدرٍ من التعاطف مع سكانها، ولا يمكننا أن نشعر بتعاطفٍ حقيقي معهم. **أتينا من جنسين مختلفين**... وتعجز كل المعاهدات التي نعقدها معهم، ويعجز كل المرسلين الذين نرسلهم، وكل الأموال التي يُمكن أن نقرضهم إياها، عن تحويل... كل بوليفار إلى واشنطن[1].

أما بالنسبة إلى الأجيال التالية التي شهدت تفوق الجنس الأبيض فقد كانت التفرقة العنصرية هي السبب الأساس الذي ساهم في ازدهار الولايات المتحدة، بينما غرقت شعوب أميركا اللاتينية الهجينة بالفقر (هذا إذا لم نذكر الشيوعية في بعض الحالات).

هتف جورج والاس، حاكم آلاباما، في حملته الانتخابية: «التفرقة العنصرية الآن! التفرقة العنصرية غداً! التفرقة العنصرية إلى الأبد!» وهكذا وضع التفرقة العنصرية في قلب قصة النجاح الأميركية. حدث ذلك في عهدٍ ليس ببعيد، أي في العام ١٩٦٣ في سياق خطابه في أثناء حملته للفوز بمنصب حاكم الولاية:

---

(١) Langley, Americas in the Age of Revolution, p. 240. Emphasis added.

لم يُقصد قط أن تكون هذه الأمة وحدة واحدة... بل هي جماعات متحدة... هذا هو السبب بالضبط الذي دفع آباءنا المؤسسين إلى تأسيس الولايات، وذلك بغية تقسيم الحقوق والسلطات بين الولايات، الأمر الذي يضمن عدم حصول سلطةٍ مركزية على حكم مركزي وحيد...

ينطبق الأمر ذاته على حياتنا العرقية... لدى كل عرقٍ الهيكليات التي تسمح له بحرية التعليم... والتوجيه.. والتطوير... وكذلك حرية طلب وتلقي المساعدة التي يستحقها من الآخرين الذين ينتمون إلى مراكز عرقية منفصلة. هذه هي الحرية العظيمة التي تمتع بها آباؤنا المؤسسون... لكن إذا اندمجنا في وحدةٍ واحدة يدعو إليها الفلاسفة الشيوعيون... فسوف يتلاشى عندئذٍ إلى الأبد... الغنى الذي تتصف به حياتنا... وحرية تطورنا. سنتحول عندئذٍ إلى وحدة هجينة في ظل سلطة حكومة قوية واحدة... سنسعى عندئذٍ إلى كل شيء... وإلى اللاشيء.

لم تلق تلك الحجج قبولاً في تلك الأيام: صوّت عشرة ملايين ناخب (١٣/٥ بالمئة من مجموع الناخبين) لمصلحة والاس، وحزبه **الحزب الأميركي المستقل** عندما ترشّح لمنصب الرئاسة في العام ١٩٦٨.

تبقى مع ذلك الفكرة القائلة إن نجاح الولايات المتحدة يعتمد على التفرقة العنصرية مفهوماً خالياً من المعنى. كان من الخطأ تماماً الاعتقاد، كما فعل والاس، أن الولايات المتحدة كانت أكثر ازدهاراً واستقراراً من فنزويلا والبرازيل بسبب قوانين منع الزواج متعدد الأعراق، وبسبب مجموعة من الفواصل العرقية التي أبقت الأميركيين السود والبيض منفصلين في الأحياء، والمستشفيات، والمدارس، والكليات، وأماكن العمل، والمتنزّهات، وأحواض السباحة، والمطاعم، وحتى في المدافن. يمكننا القول، على العكس من ذلك، إن أميركا الشمالية كانت أفضل حالاً من أميركا الجنوبية، ببساطة وبشكلٍ قاطع، لأن النموذج البريطاني يقضي بتوزيع حقوق الملكيات الخاصة بشكلٍ واسع، ولأن الديمقراطية نجحت فيها أكثر مما حدث في النموذج الإسباني الذي يقضي بتركيز الثروة والسلطة المستبدة. كانت

العبودية والفصل العنصري عقبتين أمام التطور الأميركي، ولم يكونا ضروريين لنجاح أميركا الشمالية، كما أن تركة تلك السياسة لا تزال ماثلة بوضوح وأسف في المشاكل الاجتماعية في تلك البلاد: الحمل في سن المراهقة، التقصير في مجال تحصيل العلم، وإدمان المخدرات، والسجن غير المتوازن [بين الفئات العرقية]، وهي المشاكل التي تعانيها المجتمعات الأفريقية - الأميركية.

أما في هذه الأيام فإن رجلاً من والدٍ أفريقي ووالدة بيضاء - وهو من كان يُسمّى منبوذاً casta في أيام سيمون بوليفار - هو رئيس الولايات المتحدة، وذلك بعد أن هزم بطلاً حربياً مكرماً يتحدر من أصل أسكتلندي - إيرلندي حتى في ولاية فرجينيا. كان ذلك شيئاً بعيد الاحتمال كثيراً حتى قبل ثلاثين سنة مضت، أي عندما زرت الجنوب الأميركي للمرة الأولى. يسهل على المرء أن ينسى أنه حتى في العام ١٩٦٧، على سبيل المثال، كانت ست عشرة ولاية لا تزال تحظر الزواج المختلط بين الأعراق. تطلب الأمر صدور حكم عن المحكمة العليا في قضية **لوفينغ ضد فرجينيا** ورد فيه أن خطر الزواج المختلط عرقياً يُعد غير دستوري في سائر أنحاء الولايات المتحدة. لم تعمد ولاية تينيسي، حتى مع صدور ذلك الحكم، إلى إلغاء المادة المعنية من دستورها حتى شهر كانون الأول من العام ١٩٨٧. تغيرت مواقف الأميركيين بالنسبة إلى الفصل العنصري تغيّراً واسعاً منذ ذلك الحين. اختفت من التداول، نتيجة لذلك، طائفة كبيرة من الكلمات والألفاظ التي كانت متداولة في تلك البلاد منذ زمنٍ طويل.

نلاحظ، في الوقت ذاته، أن الناس في شوارع مدنٍ أميركية شمالية عديدة يشبهون نظراءهم في أميركا الجنوبية. إن استمرار الهجرة من أميركا اللاتينية، ومن المكسيك على الخصوص، يعني أن البيض الذين هم من أصولٍ غير إسبانية ربما سيصبحون أقلية بين سكان الولايات المتحدة[1]. ستصبح البلاد في ذلك الوقت ثنائية اللغة

(١) Sam Roberts, 'Projections Put Whites in Minority in U.S. by 2050', New York Times, 18 December 2009.

عملياً، وإن لم يكن قانونياً. تحوّل المجتمع الأميركي في الوقت ذاته إلى مجتمع مختلطٍ عرقياً كما لم يكن من قبل. تميز سجلات الإحصاءات الأميركية ما بين أربع فئاتٍ «عرقية»: «السود»، و«البيض»، «والأميركي الأصلي»، و«الآسيوي أو سكان الباسيفيكي». يمكننا القول على هذا الأساس إن واحداً من كل عشرين طفلاً في الولايات المتحدة يتحدر من أعراقٍ مختلطة، بما معناه أن الأبوين لا ينتميان كلاهما إلى الفئة العرقية ذاتها. ارتفع عدد الأزواج المختلطين عرقياً إلى أربعة أضعاف ما بين العامين ١٩٩٠ و٢٠٠٠، أي إلى نحو ١,٥ مليون. إن فوز باراك أوباما في انتخابات العام ٢٠٠٨ لا يعود مدهشاً جداً بالنظر إلى هذه الوقائع.

إن أحد أكثر الاقتصادات حيوية في العالم هو اقتصاد البرازيل متعددة الأعراق، ويمكننا القول إن مفتاح النجاح في البرازيل، التي لا تزال أبرز مجتمعات العالم في عدم المساواة، كان الإصلاح الذي جاء متأخراً جداً والذي يحصل بموجبه عدد متزايد من السكان على فرصة امتلاك عقارات وكسب أموال. تمكّنت معظم دول أميركا اللاتينية، باستثناء فنزويلا مع الأسف، وبعد ما يزيد على قرنٍ من الزمن من الاعتماد المفرط على الحمائية [حماية الدولة]، والتعويض عن الاستيراد import substitution، وعلى أشكالٍ أخرى من تدخل الدولة، تمكّنت من تحقيق نسبة نمو أكبر منذ الثمانينيات من القرن الماضي وذلك بفضل مزيج من سياسات الخصخصة، والاستثمارات الأجنبية، والتوجه نحو التصدير(١). يبدو كذلك أن الأيام التي كانت تتخبط فيها اقتصادات المنطقة ما بين التضخم الهائل والتخلف عن وفاء ديونها، قد أصبحت من الماضي. كان الناتج الإجمالي المحلي لأميركا الجنوبية في العام ١٩٥٠ أقلّ من خُمس الناتج الإجمالي المحلي للولايات المتحدة. أما الآن فإن هذه النسبة تقترب من الثلث.

مضت خمسمئة سنة على عملية الاحتلال والاستعمار، لكن يمكننا القول إن الفجوة الواسعة ما بين أميركا الإنكليزية وأميركا اللاتينية آخذة بالضيق. يبدو أن

(١) Haber, 'Development Strategy'.

حضارة أميركية واحدة قد بدأت بالظهور آخر الأمر، وهي شكل من أشكال تحقيق حلم سيمون بوليفار الأساسي، وإن كان متأخراً، بالتوصل إلى أميركا واحدة.

يبدو أننا أغرقنا في التوقعات، لأن ذروة نظريات التمييز العرقي لم تظهر، في واقع الأمر، في القرن التاسع عشر بل في النصف الأول من القرن العشرين. يجب علينا إذا أردنا أن نفهم سبب انشغال الغرب بالأعراق في سعيه إلى التفاعل مع الحضارات الأخرى، أن نلتفت الآن إلى أفريقيا نفسها، التي أصبحت النقطة المحورية للتوسع الإمبريالي الأوروبي في تلك الفترة. طرح تشرشل، في الخطاب الذي بدأنا به هذا الفصل، والذي بدأت حياته المهنية الإمبريالية في السودان وجنوب أفريقيا، سؤالاً كان محورياً بطرائق متعددة لحياة جيلٍ بأسره من بناة الأمبراطورية: «لماذا لا تنجح المبادئ ذاتها في تنظيم هذا العالم المضطرب، وهي التي صاغت [طريقة حياة] حضارة الجزر البريطانية والأمبراطورية البريطانية، الحرة، والمنظمة، والمتسامحة؟ نجحت الحضارة، كما فهمها في التجذّر في أميركا الشمالية، وذلك كما نجحت في تلك الأجزاء التي بقيت تحت الحكم البريطاني مثل ما نجحت في أميركا الشمالية. ازدهرت الحضارة في مناطق أستراليا القاحلة، إذاً، لماذا لا تنجح في أفريقيا كذلك؟

حاولت، في أميركا، أربع قوى أوروبية زرع حضاراتها في أرضٍ أجنبية (خمس إذا ما حسبنا محاولة الهولنديين في غويانا و«أمستردام الجديدة»، وست إذا ما حسبنا السويديين في سان ـ بارثليمي، وسبع إذا ما حسبنا الدنماركيين في جزر فيرجين [العذراء]، وثمانٍ مع مستوطنات الروس في آلاسكا وكاليفورنيا). حدث ذلك بدرجاتٍ متفاوتة من النجاح. ظهر متنافسون أكثر عدداً في السباق الذي جرى لتحقيق الأمر ذاته في أفريقيا. لكن تبيّن أن المنافس الأكبر لبريطانيا في هذا السباق هو البلد الذي نجحت بالتغطية عليه في أميركا: فرنسا.

الفصل الرابع

الطب

يجدر بنا أولاً استعراض وضع الأمور التي نصفها بكلمة «حضارة». يكمن الاختبار الحقيقي في كون الناس الذين يعيشون في نطاقها يجعلون الرفاهية [الصحة] الجسدية هي هدف الحياة... يعيش الناس في أوروبا هذه الأيام في منازل مشيدة بطريقة أفضل مما كانت عليه قبل مئة سنةٍ مضت... أما سابقاً فقد كانوا يرتدون جلود الحيوانات، ويستخدمون الرماح أسلحةً لهم. لكنهم اليوم يرتدون سراويل طويلة، ويحملون... المسدسات بدلاً من الرماح... كان الناس في أوروبا سابقاً يحرثون أراضيهم مستخدمين العمل اليدوي في الغالب. أما الآن فإن رجلاً واحداً يتمكن من حرث مساحة واسعة من الأرض بواسطة المحركات البخارية ويستطيع لهذا السبب تجميع ثروة قيّمة... كان الناس يرتحلون سابقاً بواسطة عربات الخيل، أما الآن فتراهم يخترقون الهواء بمعدل أربعمئة ميل تقريباً في اليوم الواحد... كان الناس في الماضي إذا أرادوا قتال بعضهم بعضاً يحتسبون قواهم الجسدية، أما الآن فإنه من الممكن أن يقوم شخص واحد يربض خلف تلة أن يحصد أرواح آلاف الأشخاص... توجد الآن كذلك أمراض لم يسبق للبشر قط أن حلموا بها، كما أن جيشاً من الأطباء يجهد في اكتشاف علاجات لها، وهكذا زادت أعداد المستشفيات. هذا هو امتحان الحضارة ... فماذا يمكنني أن أضيف؟...

وصلت الحضارة إلى وضعٍ لا يسع الإنسان فيه إلا الانتظار قبل أن يراها وهي تدمّر ذاتها. يمكننا اعتبار هذه الحضارة شيطانية بحسب تعاليم [النبي] محمد. أما الهندوسية فتصفها بأنها العصر الأسود... ولذلك يجب الابتعاد عنها.

المهاتما غاندي

إنها شعب قام أبناؤه (روبسبيير، وديكارت، وغيرهما) بعمل الكثير من أجل الإنسانية. إنني لا أمتلك الحق في تمني السوء لها.

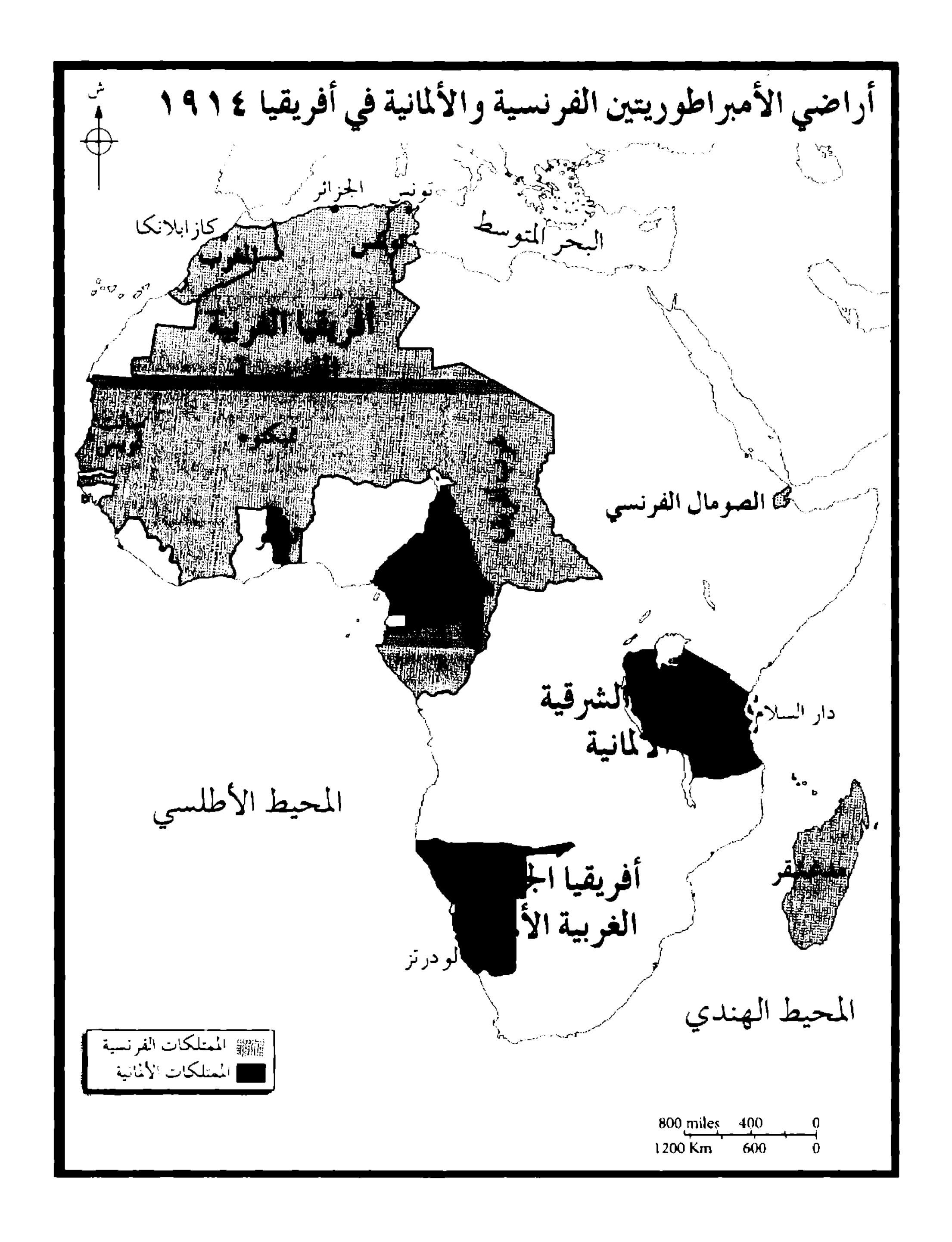
طالبٌ سنغالي

نبوءة بيرك

تمكن الغرب من الهيمنة على بقية أنحاء العالم من منتصف القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين. لم تكن تلك الفترة عصر الأمبراطوريات فقط بل عصر الإمبريالية أيضاً، وعصر نظرية التوسع ما وراء البحار التي برّرت الهيمنة الرسمية وغير الرسمية على الشعوب غير الغربية بدواعٍ مصلحية وإيثارية [غيرية]. كانت الأمبراطورية تعني «حيّز العيش» للعدد الفائض من السكان. كانت تعني كذلك أسواق التصدير الخارجية المضمونة، التي لا تستطيع قوة منافسة محاصرتها عن طريق فرض الرسوم. كانت الأمبراطورية تعني كذلك عائدات استثمارات أعلى من تلك المتوافرة داخل البلاد[1]. يُمكن للأمبراطورية كذلك أن تحوز وظيفة سياسية تحوّل بموجبها النزاعات الاجتماعية التي ظهرت في عصر الصناعة إلى مشاعر مصالح قومية واعتزازٍ قومي، أو إعطاء دفعات استرضائية إلى مجموعات مصالح قوية. لكنها كانت تعني كذلك نشر الحضارة، وهي تعبير واسع الاستخدام بشكلٍ متزايد من أجل وصف تلك المجموعة المعقدة من النظم الغربية الواضحة، التي سبق لنا أن ناقشناها في الفصول السابقة: اقتصاد السوق، الثورة العلمية، ونظام حقوق الملكية الخاصة، والحكومة التمثيلية. كانت الأمبراطورية تعني كذلك نشر المسيحية، لأنه في مرحلة بناء الأمبراطورية كانت الإرساليات الدينية مهمة مثلما كان التجار والجنود (أنظر الفصل السادس).

كانت بريطانيا هي الأكبر من بين الأمبراطوريات الغربية. امتدت أراضي هذه الأمبراطورية من **غرانت لاند** في أقصى الطرف الشمالي لكندا، إلى الشواطئ الحارة لجورجتاون في غويانا، وصولاً إلى غراهام لاند في القارة المتجمدة الجنوبية، ونزولاً

(١) For a classic formulation, see Jules Ferry's speech of 28 July 1885, quoted in Brunschwig, French Colonialism, pp. 76f.


أراضي الأمبراطوريتين الفرنسية والألمانية في أفريقيا ١٩١٤
ش
الجزائر
تونس
كازابلانكا
البحر المتوسط
الصومال الفرنسي
الشرقية
الألمانية
دار السلام
المحيط الأطلسي
أفريقيا الج
الغربية الأ
لودرتز
المحيط الهندي
المتلكات الفرنسية
المتلكات الألمانية
800 miles 400 0
1200 Km 600 0

مع نهر النيل إلى نيانزا وعبر الزامبيزي إلى الكايب، ومن الخليج الفارسي عبر جميع أنحاء الهند إلى خليج البنغال، وامتداداً إلى بورما وبورنيو، ومن سنغافورة إلى سيدني. احتلت الأمبراطورية مساحات كبيرة على خريطة العالم بما فيها من عدد لا يحصى من الجزر الصغيرة، وهي الجزر التي غيّرت بشمسها الاستوائية لون البشرة الزهرية الشاحبة التي تميّز الرجل الاسكتلندي. كانت الأمبراطورية البريطانية تغطي عشية الحرب العالمية الأولى ربع مساحة اليابسة في العالم تقريباً كما كانت تحتضن النسبة ذاتها من البشر. مارست الأمبراطورية سيطرة لا مثيل لها على خطوط التجارة البحرية الدولية وعلى شبكة التلغراف [البرق] الدولية. لكن بريطانيا مع ذلك لم تكن السلطة الإمبريالية الوحيدة. عاود الفرنسيون توسعهم الإمبريالي في غضون خمس عشرة سنة بعد هزيمتهم في واترلو، وبالرغم من الكلفة الهائلة من الأرواح البشرية التي نتجت من الثورات والحروب النابوليونية. أما الأمبراطورية الفرنسية فقد غطت بحلول العام ١٩١٣ ما تقلّ نسبته بقليل عن ٩ بالمئة فقط من مساحة العالم، وكانت تتألف من جميع الجزر القديمة المنتجة للسكر مثل ريونيون، غوادلوب والمارتينيك، وذلك بالإضافة إلى المراكز التجارية مثل سان لويس، وغوري مع الممتلكات الجديدة في الشمال، والغرب، ووسط أفريقيا، والمحيط الهندي، والهند الصينية وبولينيزيا. أما البلجيكيون، والألمان، والإيطاليون فقد حصلوا على مستعمرات بدورهم فيما وراء البحار، بينما احتفظ البرتغاليون والإسبان بمساحات شاسعة من أمبراطوريتيهما السابقتين. وسّع الروس في هذه الأثناء أمبراطوريتهم عبر اليابسة بدلاً من البحار. توجّه الروس نحو القوقاز، وسيبيريا، وآسيا الوسطى. امتلك النمسويون بدورهم أراضي جديدة، وذلك بعد أن طردتهم بروسيا من ألمانيا في العام ١٨٦٦، وعندئذٍ اتجه آل هابسبورغ جنوباً تحت البلقان. بدأت بعض المستعمرات السابقة بكسب مستعمرات لها، أي مثل ما حدث عندما احتلت الولايات المتحدة بورتوريكو والفليبين، وكذلك هاواي وحفنة من جزر المحيط الهادئ.

سيطرت الأمبراطوريات الغربية على العالم بحلول العام ١٩١٣. يعني ذلك أن ١١ دولة تمثّل ١٠ بالمئة من مساحة اليابسة في العالم تمكّنت من حكم ما يزيد على نصف العالم، كما عاش ٥٧ بالمئة من سكان العالم في هذه الأمبراطوريات التي كانت تمثل أربعة أخماس الناتج الاقتصادي العالمي. أثار سلوك تلك الأمبراطوريات الانتقاد المرير حتى في ذلك الوقت. إن نقطة «إمبريالية» هي لفظة مسيئة استخدمها القوميون، والتحرريون، والاشتراكيون على السواء. لقد سخر هؤلاء المنتقدون بذكاء من الزعم القائل إن الأمبراطوريات تقوم بتصدير الحضارة. ردّ المهاتما غاندي، الزعيم الوطني الهندي، على سؤال وجّه إليه عن انطباعه عن الحضارة الغربية، رداً ذكياً بأنه يعتقد أن هذه الحضارة هي فكرة جيدة. قال غاندي في كتاب **هند سواراج** (الحكم الذاتي الهندي) الذي نُشر في العام ١٩٠٨، إن الحضارة الغربية هي «مرض» و«هلاك»[١]. أما مارك توين أبرز الكتاب الأميركيين المعادين للإمبريالية، فقد فضّل اللجوء إلى السخرية. كتب توين في العام ١٨٧٩: «إننا نجد تبريراً للذين يظنون أن ذلك النتاج الطريف الذي يدعى الحضارة الفرنسية سيكون إضافة إلى حضارة غويانا الجديدة وأمثالها، ومثل الاستيلاء على مدغشقر ونشر الحضارة الفرنسية فيها»[٢]. أما الزعيم البولشفيكي فلاديمير إيليتش لينين فقد كان في منتهى السخرية عندما تحدث عن الإمبريالية بوصفها: «أسمى مراحل الرأسمالية»، ونتيجة المصارف الاحتكارية الساعية للحصول على «مصادر للمواد الأولية، وتصدير الرأسمال، والحصول على دوائر النفوذ، أي دوائر الصفقات الرابحة، والالتزامات، والأرباح الاحتكارية وغير ذلك». عد لينين، في واقع الأمر، الإمبريالية «طفيلية»، و«رثة»، و«رأسمالية محتضرة»[٣]. هذه هي الآراء عن الأمبراطورية التي ما زال عدد كبير من الناس يتشاركون فيها هذه الأيام. يُضاف إلى ذلك تلك الحقيقة الشائعة عالمياً تقريباً في كل المدارس والكليّات في العالم الغربي، التي تقول إن الإمبريالية هي السبب

(١) Gandhi, Hind Swaraj, ch. VI.

(٢) Twain, Following the Equator, p. 321.

(٣) Lenin, Imperialism, ch. X.

الرئيس لكل مشكلة قائمة حالياً على وجه التقريب بدءاً من الشرق الأوسط إلى الفقر المنتشر في الصحراء الأفريقية، وهي أمور يتشدق بها حكام مستبدون من أمثال روبرت موغابي في زيمبابوي.

تتزايد صعوبة إلقاء تبعة المأساة الحالية التي يمر بها «أفقر مليار إنسان»، وهم الأشخاص الذين يعيشون في أفقر بلدان العالم، على الاستعمار الذي حدث في الماضي[١]. واجهت التنمية الاقتصادية في أفريقيا في الماضي، ولا تزال تواجه، عقبات بيئية وجغرافية خطيرة. لم تكن تصرفات الحكام المستقلين، مع وجود استثناءات قليلة، أفضل بكثير من الحكّام المستعمرين قبل الاستقلال وبعده، كما أن عدداً كبيراً من هؤلاء الحكّام تصرفوا بصورة أسوأ بكثير. إن الغرب الذي يضطلع اليوم بمهمة حضارية غربية مختلفة تماماً، وهي مهمة الوكالات الحكومية وغير الحكومية، قد حقق قدراً أقل بكثير مما كان يؤمله ذات يوم، وذلك بالرغم من تحويل مبالغ كبيرة من المال على شكل مساعدات[٢]. وبالرغم من الجهود الحثيثة التي يبذلها خبراء الاقتصاد في أبرز الجامعات الأميركية Ivy League، ونجوم موسيقى الروك الإيرلنديون، فإن أفريقيا تبقى الحلقة الأفقر بين القارات التي تعتمد إما على الهبات الغربية، وإما على استخراج المواد الأولية. هناك في الواقع بصيص أمل بالتحسن، وليس أقلّه تأثيرات الاتصالات الهاتفية الخلوية الرخيصة، التي تقدم للأفارقة للمرة الأولى، على سبيل المثال، خدمات مصرفية فعالة ورخيصة. ثمة كذلك احتمال حقيقي بتوفير مياه الشفة النظيفة بصورة أوسع مما عليه الآن [*]. تبقى مع ذلك معوقات رهيبة تحول دون التنمية، وليس أقلها الحكم السيئ الذي ابتُليت به عدة

(١) Collier, Bottom Billion.

(٢) Moyo, Dead Aid. See also Easterly, White Man's Burden.

(*) يُمكن توزيع جهاز تطهير المياه البسيط لكن الفعال الذي ابتكره دين كامين بسهولة تامة من خلال شبكة إنتاج ونقاط بيع شبكة المشروبات الخفيفة كوكاكولا التي لا مثيل لها، وهي الشبكة التي تمتد في سائر أرجاء دول العالم النامي. لكن بالنظر إلى أعداد الأشخاص الذين يفقدون حياتهم سنوياً بسبب مياه الشرب الملوثة يمكننا القول إن ذلك سوف يضع حداً نهائياً للعبارة المهينة «كوكا- استعمارية».

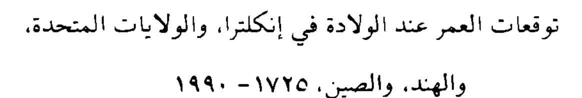
دولٍ أفريقية، وهو الواقع الذي يرمز إليه ذلك التمثال القبيح الذي يرتفع الآن فوق داكار، وهو التمثال الذي يُظهر زوجين سنغاليين عملاقين في أسوأ أسلوب اجتماعي واقعي. (بنت التمثال شركة تابعة لحكومة كوريا الشمالية). يُلاحظ كذلك أن حضور الصين بوصفها مستثمرة رئيسة في أفريقيا لا يُساهم كثيراً في معالجة تلك المشكلة. يبدو أن الواقع على العكس من ذلك، لأن الصينيين سعداء بمبادلة استثماراتهم في البنى التحتية بحق وصولهم إلى ثروة أفريقيا المعدنية، وذلك بغض النظر عما إذا كانوا يعملون مع دكتاتوريين عسكريين، أو متطفلين فاسدين، أو مستبدين مسنّين (أو الأنواع الثلاثة معاً مجتمعين في شخص واحد). لكن في الوقت الذي تبدأ الحكومات الغربية، والوكالات غير الحكومية، بتحقيق إصلاحات في طرائق الحكم الأفريقية كشرطٍ لإعطاء المساعدات، سرعان ما تعترضها الأمبراطورية الصينية الناشئة.

لا يُعد التقاء الإيثار الأجنبي والاسغلال الأجنبي جديداً في التاريخ الأفريقي. سبق لنا أن رأينا كيف أنه في القرن التاسع عشر قدِم الأوروبيّون إلى أفريقيا مع مجموعةٍ من الحوافز. جاء بعضهم سعياً وراء المال، وجاء بعضهم الآخر سعياً وراء المجد. جاء بعض الأوروبيين من أجل الاستثمار، بينما جاء آخرون بغية النهب. جاء بعضهم من أجل السمو الروحي، بينما جاء بعضهم الآخر من أجل تأسيس جذورٍ له في القارة. كان الجميع تقريباً مقتنعين، مثلما هي وكالات المساعدة مقتنعة هذه الأيام، أن فوائد الحضارة الغربية يُمكن، ويجب، أن تُمنح إلى «القارة السوداء» (*). لكن قبل أن نُسرع في التنديد بالأمبراطوريات الغربية ونصفها بالشرّيرة والاستغلالية – وهي التي لا تقدر إلا على السلوكيات المعاكسة للتمدن – يجب علينا أن نفهم وجود مصداقية غير قليلة لمقولة أن تلك الأمبراطوريات كانت تقوم بمهمة تمدين.

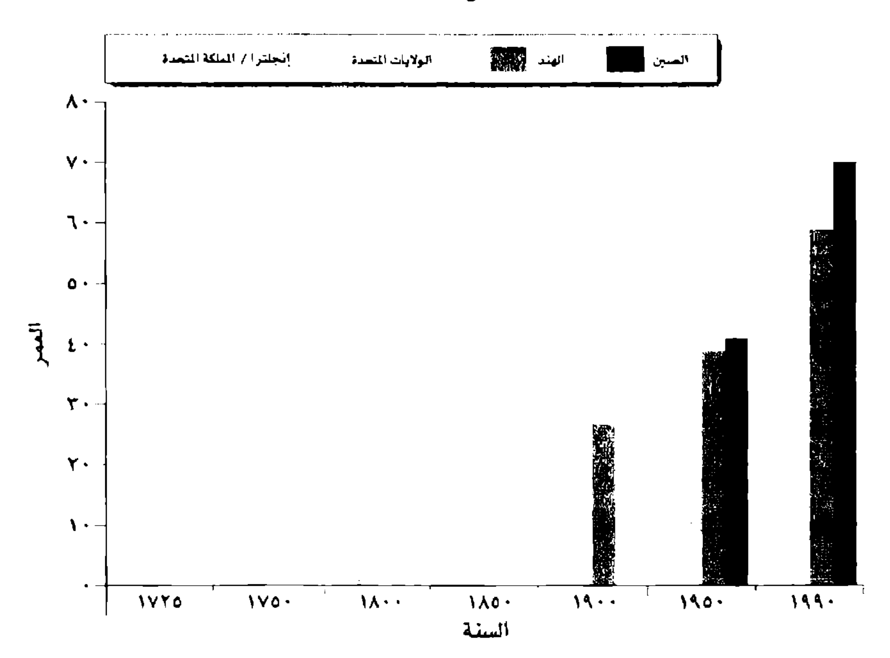
أريد الآن أن أستعرض أكبر إنجاز استثنائي، وهو إنجاز بعيد كل البعد عن القتل

(*) تشير هذه العبارة إلى لون بشرة سكان القارة وإلى تخلفهم النسبي (مثل العصور المظلمة). أما هذه الأيام فإن أفريقيا تبقى القارة السوداء من حيث منظرها من الفضاء في الليل، لأن الأنوار من صنع الإنسان فيها قليلة، وذلك ما عدا أقصى الشمال وأقصى الجنوب فيها.

لأنه يمتلك القدرة على مضاعفة معدل توقع الأعمار: الطب الحديث. سخر غاندي، ذلك المتقشّف الروحاني، من «جيش الأطباء» الذي يحمل لواء الحضارة الغربية. تحدّث غاندي في مقابلة أجراها في لندن في العام ١٩٣١ عن «حملة المرض» بوصفها أحد المعايير «المادية» الصرف التي تقيس بها الحضارة الغربية التقدم[١]. أما بالنسبة إلى الملايين التي لا حصر لها من الناس الذين أطالت الحضارة الغربية أعمارهم فلم يكن الخيار بين الطهارة الروحية والبقاء على قيد الحياة خياراً صعباً. كان توقع معدل الأعمار عند الولادة عالمياً في العام ١٨٠٠ لا يزيد على ٢٨/٥ سنة فقط، لكن بعد مرور قرنين من الزمن تضاعف ذلك المعدل، وأكثر، إلى ٦٦/٦ سنة. لم ينحصر هذا التحسن بالبلدان الإمبريالية فقط. أما المؤرّخون الذين تعوّدوا الخلط بين المجاعات أو الحروب الأهلية والنازيين أو الستالينيين، فالأجدر بهم أن يتساءلوا عن التأثير الكبير الذي أحدثه الطب الغربي في مجال توقع الأعمار في العالم ما قبل الاستعمار وما بعده.



توقعات العمر عند الولادة في إنكلترا، والولايات المتحدة، والهند، والصين، ١٧٢٥- ١٩٩٠



يظهر هنا بوضوح توقيت «تحوّل الوضع الصحي»، أي بداية التحسّن في توقع الأعمار. بدأ ذلك في أوروبا الغربية بين سبعينيات القرن الثامن عشر وتسعينيات القرن التاسع عشر، وكانت الدنمارك في الطليعة بينما احتلت إسبانيا المرتبة الأخيرة. تمكّنت أوروبا، بفاعلية، من إزالة مخاطر أمراض التيفوئيد والكوليرا عشية الحرب العالمية الأولى، وذلك نتيجة للتحسينات التي أُدخلت على الصحة العامة والنظافة، هذا في حين تمّت السيطرة على الدفتيريا (الخُناق) والكزاز بواسطة اللقاحات. أما بالنسبة إلى البلدان الآسيوية الحديثة الثلاثة والعشرين التي تتوافر معطيات عنها، مع استثناء واحدٍ فقط، فإن التحسّن في مجال الصحة قد حدث بين التسعينيات من القرن التاسع عشر وخمسينيات القرن العشرين. أما بالنسبة إلى أفريقيا فإن هذا التحسّن قد حدث بين عشرينيات القرن العشرين وخمسينياته، ما عدا استثناءين فقط، من أصل الثلاثة وأربعين بلداً. يعني ذلك أن توقع الأعمار في جميع البلدان الآسيوية والأفريقية بدأ بالتحسّن قبل نهاية الحكم الاستعماري الأوروبي. تشير الوقائع إلى أن نسبة التحسّن في أفريقيا بدأت بالانحدار منذ نيلها الاستقلال، وعلى الخصوص بسبب وباء الآيدز HIV-AIDS، لكن ليس بسبب ذلك فقط. يجدر بنا كذلك ملاحظة أن الوضع في بلدان أميركا اللاتينية ليس أفضل بكثير، وذلك بالرغم من تمتعها بالاستقلال السياسي منذ مطلع القرن التاسع عشر[1]. إن توقيت التحسّن في توقع الأعمار يصبح أكثر إدهاشاً لأن معظم ذلك التحسّن يعود إلى ما قبل ظهور المضادات الحيوية (وليس أقلها الستربتوميسين كعلاج للتدرن الرئوي [السل]) أما ظهور مبيد الحشرات DDT، واللقاحات غير تلك البسيطة المخصصة للجُدَرِي والحُمّى الصفراء، فقد اكتُشفت في الفترة الإمبريالية (أنظر أدناه). تشير الدلائل كذلك إلى تحسينات مستمرة في قطاع الصحة العامة عبر قطاع واسع من البلدان، مما يقلّص نسبة الوفيات بسبب faecal disease، والملاريا، حتى السل. كانت تلك، بالتأكيد، تجربة جامايكا، وهي إحدى المستعمرات البريطانية، ولعل قصتها تشبه ما حدث في بلدان أخرى،

(١) Riley, 'Health Transitions', esp. figure 2, table 1.

مثل سيلان [سريلانكا]، ومصر، وكينيا، وروديسيا، وترينيداد وأوغندا، وهي البلدان التي شهدت تحسينات متتابعة بدرجةٍ أو بأخرى[1]. سنرى لاحقاً أن الأمر ذاته يصدق بالنسبة إلى المستعمرات الفرنسية. تبيّن لنا أن سجل أفريقيا الفريد، والمميت، من الأمراض الاستوائية هو الذي دفع العلماء ومسؤولي الصحة في الغرب لبذل جهود حثيثة، لم تكن لتظهر في غياب الإمبريالية. يقدّم لنا الكاتب المسرحي العبقري والساخر جورج برنارد شو الردّ المثالي على غاندي:

انشغلت الحضارة لمدة قرن من الزمن بتنظيف الأوضاع التي تتلاءم مع أنواع الحمّى البكتيرية. اختفت حمى التيفوس التي كانت متفشية ذات مرة، كما أن الطاعون والكوليرا قد توقفا عند حدودنا بسدٍ صحي... أصبحت أخطار الالتهابات وطريقة تجنبها مفهومتين أكثر مما كانتا سابقاً... أما في هذه الأيام فإن متاعب مرضى السل قد زادت كثيراً بسبب الميل المتزايد إلى معاملتهم مثل المصابين بداء الجُذَام... لكن الخشية من الالتهابات أدّت إلى عناية ونظافة أكبر بكثير، بالرغم من أن هذه الخشية دفعت كثيراً من الأشخاص، حتى الأطباء، إلى التحدث وكأن الشيء العلمي الوحيد الذي يُمكن فعله مع مريض الحمى هو رميه في أقرب حفرة وإهالة حمض الكربوليك عليه من مسافة بعيدة إلى أن يصل إلى حالة تستوجب حرقه في موضعه. أما النتيجة النهائية فقد كانت سلسلة من الانتصارات على المرض[2].

لم تبقَ الانتصارات حكراً على الإمبرياليين، لكنها أصابت بمنافعها رعاياهم في المستعمرات.

أما المفاجئ في هذه القصة فهو أنه حتى العلوم الطبية في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قد امتلكت جانبها المظلم. ترافقت مكافحة أسباب المرض مع صراع يرتدي ثياب العلم ضد التهديد الوهمي للانحطاط العرقي. اندلعت أخيراً، أي في العام ١٩١٤ حربٌ بين الأمبراطوريات الغربية المتنافسة، وهي الحرب

(١) Ibid., pp. 750, 752.

(٢) Shaw, 'Preface on Doctors', pp. lxvii-lxviii.

التي عُدّت «الحرب الكبرى من أجل الحضارة»، والتي كشفت أن أفريقيا ليست هي أكثر القارات ظلمةً في العالم.

تعبّر معظم الأمبراطوريات عن نياتها الطيبة بإدخال الحضارة إلى البلدان المتخلفة. كان الفرنسيون مغرمين عبر التاريخ أكثر من غيرهم بعبارة «مهمة حضارية». أما إذا أردنا معرفة السبب فيجب علينا أن نفهم أولاً الفرق الشاسع بين الثورتين الفرنسية والأميركية. كان **إدموند بيرك**، ذلك النائب المناصر للثورة الأميركية، وأعظم مفكّر سياسي يظهر في المستوطنة البروتستانتية في القسم الجنوبي من إيرلندا (بايل). دعم بيرك الثورة الأميركية، كما تعاطف بقوة مع الحجة التي قدّمها المستعمرون بأنهم يدفعون الضرائب من دون أن يتمثلوا، كما فهم جيداً أن وزارة **لورد نورث** تتلاعب بوقائع الأزمة الأساسية حول فرض الضرائب في ماساشوستس. كانت ردة فعل بيرك على اندلاع الثورة في فرنسا على العكس من ذلك تماماً. أورد بيرك في كتابه **تأملات حول الثورة في فرنسا**: «هل عليّ حقاً تهنئة رجلٍ مجنون سبق له أن هرب من مركز رعاية وأفلت من الظلمة التامة في حجرته، وذلك على عودته إلى الاستمتاع بضوء النهار والحرية؟ هل عليّ تهنئة قاطع طريق ومجرم تمكّن من اقتحام سجن بعد استعادته حقوقه الطبيعية؟»[1] توقع بيرك الطبيعة العنيفة للثورة الفرنسية في مرحلةٍ مبكرة جداً. نُشرت تلك الكلمات في ٠١ تشرين الثاني من العام ١٧٩٠.

كانت سلسلة الأحداث التي بدأت بالتفاعل في العام ١٧٨٩ نتيجةً للأزمة المالية المزمنة التي زادت حدّتها مع التدخل الفرنسي في الثورة الأميركية. تخلّف الاقتصاد الفرنسي كثيراً عن الاقتصاد الإنكليزي، وذلك منذ الأزمة المالية الحادة التي ظهرت في العامين بسبب فقاعة المسيسيبي Mississipi Bubble. لم يكن في فرنسا مصرف مركزي لإصدار العملات الورقية، كما لم تكن سوق للسندات القابلة للتحويل إلى سيولة مالية حيث يُمكن شراء الدَّين الحكومي وبيعه. أما نظام الضرائب فقد كان مخصخصاً إلى حدّ كبير. عمد التاج الفرنسي إلى بيع المناصب الحكومية بدلاً من

(١) Burke, Reflections, p. 151.

بيع السندات، وهكذا أُتخم جدول رواتب الموظفين الرسميين بالطفيليين. حاول عدد من الوزراء القديرين، مثل تشارلز دي كالون، ولوميني دي بريان وجاك نيكر، إصلاح النظام لكنهم فشلوا. أما الطريقة الأسهل للخروج من تلك الفوضى فقد كانت تهرّب الملك لويس السادس عشر من دفع ديون البلاط، الأمر الذي اتخذ أشكالاً مختلفة وكانت الكلفة ضعفين تقريباً عما كانت تدفعه الحكومة البريطانية على سنداتها الموحدة[1]. سعى الملك، بدلاً من ذلك، إلى الحصول على إجماع، لكن مجلس الأعيان لم يتوصل إلى أي شيء. أما محامو البرلمانات فلم يتسببوا إلا بالمتاعب. اقتنع لويس أخيراً في شهر آب من العام ١٧٨٨ باستدعاء **الجمعية العامة** Estates General، وهي هيئة لم تلتئم منذ العام ١٦١٤. كان الأجدر به أن يتوقع بأن مؤسسة من القرن السابع عشر سوف تتسبب له بأزمة على طراز القرن السابع عشر.

كانت الثورة الفرنسية في البداية تشبه الحرب الأهلية البريطانية، لكن من دون وجود البيوريتانيين [البروتستانت]. أعطى استدعاء **الجمعية العامة** المتذمرين من الطبقة الأرستقراطية فرصة للتنفيس عن غضبهم. كان في طليعة هؤلاء كومتي دي ميرابو، وماركيز دي لافاييت. سلك مجلس النواب نهجاً [إرادة] خاصاً به، أي كما حدث في بريطانيا. أعلنت الجمعية الثالثة Third Estate (مجلس العموم) نفسها **«جمعية وطنية»**. أقسم أعضاء هذه الجمعية بعد ثلاثة أيام على عدم حلّها حتى تحصل فرنسا على دستورٍ جديد، وذلك في **قَسَم قاعة التنس** Tennis Court Oath الشهير. كان ذلك Long Parliament بالفرنسية حتى ذلك الوقت. لكن عندما وصل الأمر إلى استنباط قواعد أساسية للحياة السياسية الفرنسية لم يتأخر الثوريون عن تبنّي بعض مفردات الثورة الأميركية. يبدو أن إعلان حقوق الإنسان والمواطن في ٢٧ آب من العام ١٧٨٩ قد أثار قدراً قليلاً من العجب للوهلة الأولى في فيلادلفيا:

٢. إن الحقوق الطبيعية وغير القابلة للانتهاك للإنسان... هي الحرية، والملكية، والأمن، ومقاومة الاضطهاد...

(١) Ferguson, Ascent of Money, p. 154.

١٠. يجب أن لا يتعرض أحد للقمع بسبب آرائه، بما في ذلك آراؤه الدينية...

١٧. الملكية هي حق غير قابلٍ للخرق ومقدس، ولهذا يجب أن لا يُحرم أحد منه...[١]

لماذا، والحالة هذه، ردّ إدموند بيرك بهذا العنف من خلال خطابٍ حاد في ١ شباط/فبراير من العام ١٧٩٠ ضد هذه الثورة؟ جاء الخطاب على النحو الآتي:

ثار الفرنسيون ضد ملكٍ معتدل وقانوني، وهم فعلوا ذلك بغضبٍ شديد، ونقمة، وإساءة كانت أكثر مما فعله أي شعب آخر ثار ضد مغتصب سلطة غير شرعي، أو ضد أكثر الطغاة دموية. أُجبرت ثورتهم على التنازل... ووجهوا ضربتهم ضد يد تهب التكريم، والجميل، والحصانات... كان نجاحهم عقاباً لهم: القوانين التي أُلغيت، والمحاكم التي أُفسدت، والصناعة التي فقدت حماستها، والتجارة التي تلاشت، والمداخيل التي لم تُدفع، ومع ذلك عانى الشعب الفقر، ودمّرت إحدى الكنائس، والدولة لم تشعر بالارتياح، كما أن الفوضى بين المدنيين والعسكريين هي التي أصبحت دستور المملكة. تمت التضحية بكل شيء إنساني ومقدس على مذبح صنم المصلحة العامة، فكان الإفلاس الوطني هو النتيجة، وفوق كل ذلك ظهرت السندات المالية الورقية، التي استخدمتها السلطات الجديدة المزعزعة والمترنّحة... وعدتها عملة لتدعيم الأمبراطورية[٢].

كنا سنفهم الأمر لو أن بيرك كتب تلك الكلمات في العام ١٧٩٣، ولكانت أقل غموضاً. لكن تمكّنه من توقع الطبيعة الحقيقية للثورة الفرنسية في غضون سنة من اندلاعها كان أمراً استثنائياً. ماذا لاحظ؟ أما الجواب فهو روسو.

كان كتاب جان جاك روسو **العقد الاجتماعي** (١٧٦٢) من بين أخطر الكتب التي أنتجتها الحضارة الغربية على الإطلاق. رأى روسو أن الإنسان «نبيل متوحش»

(١) http://avalon.law.yale.edu/18th_century/rightsof.asp.

(٢) Burke, Reflections, pp. 190f.

يتردد في الخضوع للسلطة. أما السلطة الشرعية الوحيدة التي يُمكن له الخضوع أمامها فهي «سلطة الشعب» و«الإرادة العامة [الجماعية]». يرى روسو أن الإرادة العامة يجب أن تكون إرادة سامية بحيث ينحني أمامها القضاة والمشرّعون. لا يُسمح بوجود أي «اتحادات تقسيمية». لا يمكن [بالنسبة إليه] وجود المسيحية، وهي التي تعني بعد كل شيء فصل السلطات (الروحية عن الدنيوية). لا يوجد شك في أن الحرية هي أمرٌ جيد، لكن بالنسبة إلى روسو الفضيلة هي أكثر أهمية. يجب أن تكون الإرادة العامة [الجماعية] هي الفضيلة العاملة[١]. يمكن للقارئ أن يبدأ بملاحظة الأمور التي روّعت بيرك:

٦- القانون هو التعبير عن الإرادة العامة [الجماعية]...

١٠- لا ينبغي إزعاج أي شخص بسبب آرائه، بما في ذلك آراؤه الدينية، شريطة ألاّ يتسبب إظهار هذه الآراء بتخريب النظام العام الذي أرساه القانون...

١٧- بما أن الملكية هي حقّ مقدس غير قابلٍ للخرق، لذلك يجب أن لا يُحرم أحد منه **باستثناء حالات الضرورة العامة والضرورات القانونية التي تتطلب ذلك بوضوح**... [المزيد من عبارات التأكيد].

كانت تلك التحذيرات هي التي أثارت شكوك بيرك. إن الأولوية التي أعطاها روسو «للنظام العام» و«الضرورات العامة» هي التي صعقته لكونها شرّيرة تماماً. رأى بيرك أن الإرادة الجماعية هي هيئة أقل موثوقية لاختيار الحاكم مما هو مبدأ الوراثة، وذلك لأن الحكّام الذين يجري اختيارهم بهذه الطريقة يميلون أكثر إلى احترام «الحريات القديمة»، وهي الحريات التي كان بيرك يفضّلها على «الحرية» الفردية الجديدة والمجردة. رأى بيرك أن المجلس الثالث [مجلس العموم] Third Estate سوف يُصاب بالفساد الذي تسببه السلطة (وبالمصالح المالية)، وهو أمر يعاكس واقع الحال عند الطبقة الأرستقراطية، التي تتمتع بالاستقلالية التي تمنحها

(١) Rousseau, Social Contract.

الثروة الخاصة. فهِمَ بيرك كذلك أهمية تأميم أراضي الكنيسة في شهر تشرين الثاني من العام ١٧٨٩ – كانت تلك أولى الخطوات الثورية الحقيقية – وأخطار طبع الأوراق النقدية (assignats) من دون أي ضمانة سوى أراضي الكنيسة المصادرة. رأى بيرك أن العقد الاجتماعي الحقيقي ليس ميثاق روسو المعقود بين النبيل الشرّير والإرادة الجماعية، لكنه «شراكة» بين الجيل الحالي والأجيال القادمة. حذّر بيرك، مع قدرته المدهشة على التوقع، من طوباوية «الأساتذة»، وكتب في أعظم توقع يتعلق بتلك الحقبة: «عند نهاية كل vista مشهد لا يرى المرء سوى أعواد المشانق»[*]. حذّر بيرك بأن الاعتداء على المؤسسات التقليدية من شأنه أن ينتهي «بحكم أقلية خبيثة ودنيئة»، وسيتحول في نهاية الأمر إلى دكتاتورية عسكرية[1]. برهنت الأحداث على أن بيرك كان على حق في كل ما كتبه.

حافظ دستور أيلول من العام ١٧٩١ على عدم امكانية انتهاك حقوق الملكية، وعلى عدم انتهاك حرمة «ملك الفرنسيين»، وعلى عدم خرق حق الاجتماع مع الآخرين، وعلى عدم خرق حرية العبادة. لكن كل هذه الحقوق الأربعة خُرقت في غضون عامين، وذلك بدءاً بانتهاك حقوق الكنيسة. أما حق حرية الاجتماع مع الآخرين فقد أُتبع بإلغاء نظام الرهبنة، والنقابات، والاتحادات المهنية (ما عدا تلك السياسة التي عرفت بعض الازدهار). خُرقت مكانة الملك وامتيازاته في آب من العام ١٧٩٢، وذلك عندما قُبض عليه بعد اجتياح قصر التويلري. تسبّب لويس السادس عشر لنفسه وللعائلة المالكة بهذا المصير المأسوي، وذلك في أثناء فرارهم نحو فارينيس، لكنها كانت محاولة فاشلة للهرب من باريس (بعد التخفي بصفتهم مرافقي بارونة روسية) نحو حصن مونتميدي الملكي، الذي يقع بالقرب من الحدود الشمالية الشرقية. لكن مع انعقاد المؤتمر الوطني الجديد في أيلول من العام ١٧٩٢

(*) فشل بيرك فقط في توقّع تبني المقصلة كحلّ جذري لمشكلة كيفية إنهاء الحياة الإنسانية بأكثر الطرائق فاعلية.

(١) Burke, Reflections, p. 291.

تزايدت احتمالات إعدام الملك أكثر فأكثر. لكن إعدام الملك لويس السادس عشر في شهر كانون الثاني من العام ١٧٩٣، ترتّبت عليه عواقب تختلف كثيراً عن إعدام تشارلز الأول. كان إعدام الملك في الثورة الإنكليزية نهاية الحرب الأهلية، أما في حالة الثورة الفرنسية فقد كان ذلك مجرد المقدمة، وذلك مع إمرار السلطة عبر **جمعية اليعاقبة لأصدقاء الدستور** إلى **الكوميونة الثورية** وبعد ذلك إلى لجان المؤتمر الوطني للمراقبة والأمن العام. لم يكن الثوريون هم أول من تسلّحوا بدِينٍ جديد في تاريخ الغرب، وذلك لتعزيز موقفهم والقيام بأعمالٍ أخرى تتسم بشراسة أكبر. أعلن الثوار في ١٠ تشرين الثاني من العام ١٧٩٣ حظر عبادة الله، وأسسوا طائفة العقل [أو الفكر] Reason بدلاً منها، وهكذا كان أول دينٍ سياسي في العصر الحديث، ترافق مع أيقوناته وشعائره، وشهدائه.

كانت الثورة الفرنسية، في واقع الأمر، عنيفة منذ بدايتها[1]. توّج الثوار اجتياحهم لسجن الباستيل المقيت في ١٤ تموز من العام ١٧٨٩، بقطع رأس المركيز دي لوناي (حاكم الباستيل) وجاك دي فليسيل (رئيس مجلس تجار باريس). أما وزير خارجية الملك جوزف فرنسوا فولون دي دوي، وصهره برثييه دي سوفينيه، فقد لقيا مصرعهما بدورهما. لكن قُتل نحو مئة شخصٍ عندما هاجمت الجماهير الثائرة العائلة الملكية في فرساي في شهر تشرين الأول التالي. شهد العام ١٧٩١ **يوم الخناجر**، ومجزرة في شامب دي مارس. أما شهر أيلول من العام ١٧٩٢، فقد شهد إعدام نحو ١,٤٠٠ سجين، وذلك بعد التظاهرات المعادية للثورة التي جرت في بريتاني، وفيندي، ودوفاين. لكن الثورة كانت بحاجة إلى أمورٍ أخرى من أجل تنفيذ **مجزرة الرعب**، وهي أول تظاهرة في العصر الحديث تشهد على الواقع الكئيب القائل إن الثورة تلتهم أبناءها.

حاول عدد كبير من المؤرّخين الذين يتبعون أفكار كارل ماركس (أنظر الفصل الخامس) تفسير ما جرى على ضوء صراع الطبقات، وعزوا الثورة إلى المحاصيل

(١) Schama, Citizens, remains the most readable English account.

السيئة، وإلى ارتفاع أسعار الخبز وأحزان متطرفي الثوار، وهي أقرب صفات النظام القديم إلى البروليتاريا. لكن التفسيرات الماركسية تهاوت أمام وفرة الأدلة التي تبرهن أن البورجوازيين لم يشنّوا حرباً طبقيةً على الطبقة الأرستقراطية. كان الواقع هو أن حفنة من «الأعيان»، وبعض البورجوازيين، وبعض الأرستقراطيين هم الذين قاموا بالثورة. قدّم أحد المفكرين الأرستقراطيين، وهو ألكسيس دي توكفيل تفسيرات أكثر إقناعاً في أبرز كتابين له، **الديمقراطية في أميركا** (١٨٣٥) **والنظام القديم والثورة** (١٨٥٦). قدّم الكتابان جواباً لا مثيل له عن السؤال: لماذا فرنسا وليس أميركا؟ جادل توكفيل أن ثمة خمسة فروق أساسية بين المجتمعين، واستطراداً بين الثورتين اللتين نتجتا منهما. أولاً، كانت فرنسا مركزيةً إلى حدّ كبير، بينما كانت أميركا دولة فدرالية [اتحادية] بطبيعتها وتتميّز بحياة تشاركية محلية مفعمة بالحيوية، وبمجتمعها المدني. ثانياً، يميل الفرنسيون إلى رفع الإرادة الجماعية فوق نصوص القانون، وهو ميلٌ يقاومه رجال القانون الأميركيون الأقوياء. ثالثاً، هاجم الثوريون الفرنسيون الدِّين والكنيسة التي تتبناه، بينما وفّرت الطائفية الأميركية حصناً منيعاً ضد مزاعم السلطات العلمانية. (كان توكفيل من المتشكّكين في الدِّين، لكنه فهم أسرع من غيره القيمة الاجتماعية للدِّين). رابعاً، تنازل الفرنسيون عن سلطاتٍ كثيرة للمفكرين اللامبالين، بينما في أميركا تبوأ العمليون مراكز رفيعة. أخيراً، والأهم بالنسبة إلى توكفيل، هو أن الفرنسيين وضعوا المساواة فوق الحرية. يمكننا أن نختصر كل ذلك بالقول إن الفرنسيين فضّلوا روسو على لوك.

أصاب توكفيل كبد الحقيقة في الفصل الثالث عشر من كتابه **الديمقراطية في أميركا** عندما قال:

يتعلم المواطن في أميركا منذ نعومة أظفاره الاعتماد على ذاته، وأعماله من أجل مقاومة شرور حياته وصعوباتها. إنه يتطلع نحو السلطة الاجتماعية بعين الشك والقلق، وهو يطلب مساعدتها عندما يعجز تماماً عن التحرك من دونها... لا حدود في أميركا لحرية الاختلاط مع الغير لأسبابٍ سياسية... وليس هناك من بلاد تحتاج

إلى الاختلاط أكثر من البلاد التي تقوم على الديمقراطية، وذلك من أجل منع تسلط فئةٍ محددة، أو قيام السلطة الاعتباطية لأميرٍ ما[1].

كان الضعف النسبي للمجتمع المدني الفرنسي، ولكل تلك الأسباب، جزءاً كبيراً من السبب الذي جعل الجمهوريات الفرنسية تميل إلى خرق الحريات الفردية والتحول إلى الحكم المطلق. لكن توكفيل أضاف نقطة سادسة، وكأنها ملحقة بالنقاط الخمس الأخرى:

أما في فرنسا فإن الحماسة للحرب هي من الشدة بحيث لا توصف معها أي مغامرة بالجنون، أو توصف بأنها تُلحق الضرر بمصالح الدولة، وكذلك هي من الشدة بحيث أن الرجل لا يعد نفسه مكرماً في الدفاع عنها حتى على حساب حياته[2].

يكمن هنا، بطبيعة الحال، أكبر فرق ما بين الثورتين. يجب على الثورتين شن حرب لاستمرارها، لكن الحرب التي شنّها الثوار الفرنسيون كانت أكبر وأطول. هذا هو كل الفرق.

منذ تلك اللحظة في تموز من العام ١٧٩١ ـ أي عندما دعا ليوبولد الثاني، أمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدّسة، زملاءه الملوك كي يهبوا لنجدة لويس السادس عشر، وهو النداء الذي كان أول من سارع إلى تلبيته وارث فردريك الكبير، فردريك وليام الثاني – اضطرت الثورة الفرنسية إلى القتال دفاعاً عن استمراريتها. أطلق إعلان الحرب على النمسا (نيسان ١٧٩٢)، وبريطانيا، وهولندا، وإسبانيا (شباط ١٧٩٣) سلسلة من الحروب كانت أطول وأكبر من حرب الاستقلال الأميركية. أوردت سجلات وزارة الدفاع الأميركية أن ٤,٤٣٥ من الوطنيين قد فقدوا حياتهم دفاعاً عن الولايات المتحدة الأميركية حتى معركة يوركتاون ومن ضمنها، وأن ٦,١٨٨ مواطناً قد جُرحوا. أما أرقام حرب العام ١٨١٢ فكانت على التوالي ٢,٢٦٠ و٤,٥٠٥[3]. كانت

(١) Tocqueville, Democracy in America, pp. 148–51.

(٢) المرجع نفسه، ص١٥٣.

(٣) Carter et al., (eds.), Historical Statistics of the United States, table Ed1-5.

خسائر البريطانيين أقل نوعاً ما. تُعد تلك الحرب نزاعاتٍ صغيرةً، حتى ولو أهلكت أعداداً كبيرة من الجرحى، وأعداداً أخرى وقعت فريسة الأمراض، أو الصعوبات التي سببتها الحرب. كانت بعض المعارك الشهيرة بما فيها براندي واين، أو حتى يورك تاون ذاتها، مجرد مناوشات قياساً على المعايير الأوروبية. وصلت أعداد القتلى الأميركيين في يورك تاون إلى ثمانية وثمانين قتيلاً فقط. أما مجموع قتلى الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية فكان أكبر من ذلك بكثير، لأن أحد التقديرات ذكر أن قتلى المعارك بين الجانبين في الفترة ما بين العامين ١٧٩٢ و١٨١٥ هم ٣,٥ ملايين قتيل. كما ذكر أحد التقديرات المتحفظة أن عدد الفرنسيين الذين فقدوا حياتهم دفاعاً عن ثورتهم فاق عدد القتلى من الأميركيين بعشرين ضعفاً. لا تشمل هذه النسبة ضحايا القمع الداخلي. يقدّر عدد الفرنسيين الذين أُعدموا بعد الثورة بنحو ١٧,٠٠٠ رجلٍ وامرأة، ومابين ١٢,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠ سيقوا إلى المقصلة أو إلى أعواد المشانق من دون محاكمة، كما أن عدداً يراوح ما بين ٨٠,٠٠٠ و٣٠٠,٠٠٠ من الأشخاص هلكوا في قمع ثورة الملكيين التي حدثت في فيندي[١]. أحدثت الثورة الفرنسية فوضى في الاقتصاد هي أكبر بكثير من تلك التي أحدثتها الثورة الأميركية، كما عانى الأميركيون التضخم قبل أن تتبعه فترة من الاستقرار، أما الفرنسيون فقد عانوا نسبة عالية من التضخم تُوّجت أخيراً بانهيارٍ تام في قيمة العملة الورقية. يُذكر كذلك أن جميع الذكور من السكان كانوا معبئين للحرب. كانت الدولة تسيطر على الأسعار والرواتب، لكن اقتصاد السوق انهار تماماً.

علينا أن نفهم في هذا الإطار أن تطرف الثورة الفرنسية، حقّق توقّعات بيرك. كانت باريس في الفترة من نيسان العام ١٧٩٣، أي عندما تركزت السلطة بأيدي لجنة الأمن العام، بمنزلة مستشفى للمجانين. ألقيَ القبض في البداية على ذلك الجناح من **نادي اليعاقبة** الذي يُعرف باسم الجيرونديين (بينما كان منافسوهم الأكثر تطرفاً يُعرفون باسم المونتاناردين)، وما لبثوا أن أُعدموا في ٣١ تشرين الثاني. تبعهم بعد

(١) http://users.erols.com/mwhite28/wars18c.htm.

ذلك أتباع جورج ـ جاك دانتون إلى أعواد المشانق (٦ نيسان من العام ١٧٩٤). أخيراً، جاء دور الشخصية البارزة في **لجنة الأمن العام**، والكاهن الأكبر لمذهب الفضيلة الجمهورية الذي أرساه روسو، أي **ماكسيميليان روبسبيير** الذي وجد طريقه نحو المقصلة. ترافقت الموسيقى مع رقصة الموت هذه ممثلةً بنشيد المارسيلييز الذي ما زال متعطشاً إلى الدماء حتى يومنا هذا (*). واجه الرجل أقصى اتهامٍ مميتٍ أي الخيانة، وهو الذي عُدّ «عدواً للشعب». أدت النكسات العسكرية إلى تعزيز موجة الذعر هذه. صحّت توقعات بيرك، الذي كان يعرف بحسب نظريته السياسية التقليدية أن ديمقراطية كهذه من شأنها أن تُستبدل في النهاية بحكم أقلية، وذلك قبل أن تنتهي السلطة في آخر الأمر مع طغيان قائدٍ عسكري. استُبدل **المؤتمر** Convention في غضون عقدٍ من الزمن **بمديرية** (تشرين الأول من العام ١٧٩٥)، وبمديرية القنصل الأول (١٧٩٩)، ثم استُبدل لقب القنصل الأول بلقب أمبراطور (كانون الأول من العام ١٨٠٤). يعني ذلك أن الثورة التي بدأت مع روسو انتهت بصيغة أخرى من صيَغ سقوط الجمهورية الرومانية.

تمكّن نحو ٧٣,٢٠٠ جندي فرنسي من إنزال الهزيمة بنحو ٨٥,٧٠٠ من الجنود الروس والنمسويين، وذلك في معركة أوسترليتز (**) التي جرت في ٢ كانون الأول من العام ١٨٠٥. يجب علينا مقارنة هذه الأرقام بأرقام الجنود الذين شاركوا في معركة يوركتاون في العام ١٧٨١، حيث تمكّن ١٧,٦٠٠ من رجال [جورج] واشنطن من إلحاق الهزيمة بنحو ٨,٣٠٠ من الجنود البريطانيين الذين كانوا بقيادة كورنواليس. فاق عدد الضحايا الذين سقطوا في هذه المعركة الأخيرة كل المشاركين في المعركة

(*) ألَف كلود – جوزف روجيه دي ليل هذا النشيد في شهر نيسان من العام ١٧٩٢: «الطغاة ضدَنا/ رُفع العلم المضرَج بالدماء/... أتسمع في هذه الميادين/ صراخ الجنود المرتعبين؟/ إنهم قادمون بيننا/ ليقطعوا رقاب أبنائنا وزوجاتنا!/ إلى السلاح أيها المواطنون،/ انتظموا في كتائب،/ تقدموا، تقدموا!/ دعوا الدم الفاسد/ يسل على خنادقنا!... [لا ترحموا] أولئك الطغاة الدمويين/... وكل أولئك الشرسين الذين هم، من دون رحمة/ افترسوا أرحام أمهاتهم!».

(**) هي الآن سلافكوف في جمهورية التشيك، وأوسترليتز كانت مسرح المعركة التي دفعت نابوليون إلى إقامة قوس النصر.

الأولى بأكثر من ١٢,٠٠٠ ضحية. قُتل، أو جُرح، أو أُسر في معركة أوسترليتز أكثر من ثلث الجيش الروسي. يُلاحظ مع ذلك أن السلاح الذي استُخدم هناك لم يختلف كثيراً عن ذلك الذي استخدمه جيش فردريك الكبير في ليوثيرن قبل ما يقرب من نصف قرنٍ من الزمن. تمكّنت المدفعية المنقولة من إنزال القدر الأكبر من الإصابات. أما العامل الجديد فقد كان حجم الحرب النابوليونية وليس تقنيتها. وصل عدد الجيش الفرنسي في العام ١٨١٢ إلى ٧٠٠,٠٠٠ جندي، لكن عدد الفرنسيين المجنّدين للحرب وصل إلى ١/٣ مليون رجل، وذلك ما بين العام ١٨٠٠ وتلك السنة المشؤومة. أما عدد الذين خسروا حياتهم بسبب الحروب التي شنّها بونابرت فبلغ نحو مليوني رجل، وكان نصف هذا العدد تقريباً من الفرنسيين – أي بنسبة نحو واحدٍ من كل خمسة من بين الذين وُلدوا ما بين العامين ١٧٩٠ و١٧٩٥. التهمت هذه الثورة أبناءها بأكثر من طريقةٍ واحدة.

تساءل توكفيل عما إذا كان هناك أي شيء يميّز المجتمع المدني الأميركي، الذي أعطى الديمقراطية فرصةً أفضل، أكثر من المجتمع في فرنسا. وهل كانت فرنسا، تلك الدولة المركزية، أكثر استعداداً لإبراز نابوليون من الولايات المتحدة، تلك الدولة اللامركزية؟ لا يمكننا تيقن ذلك. لكن أليس من غير المنطقي أن نتساءل عن مدة صمود الدستور الأميركي فيما لو تعرّضت الولايات المتحدة للضغوط ذاتها التي تسببت بانهيار الدستور الفرنسي في العام ١٧٩١.

طاغوت الحرب

لم تلتهم الثورة أبناءها فقط. كان عدد كبير من الذين حاربوا ضدها من الأطفال بالفعل. كان كارل فون كلاوزويتز في الثانية عشرة من عمره وبرتبة عريف في الجيش النمسوي، وذلك عندما شهد لأول مرة معارك ضد الفرنسيين. نجا كلاوزويتز الذي كان باحثاً محارباً من الهزيمة التي لحقت بالجيش البروسي في جينا في العام ١٨٠٦. رفض بعد ذلك المشاركة مع الفرنسيين في قتالهم ضد الروس في العام ١٨١٢، كما

شهد أعمالاً حربية في **ليجني** في العام ١٨١٥. فهمَ الرجل أكثر من أي شخصٍ آخر (بمن فيهم نابوليون نفسه) الكيفية التي حوّلت بها الثورة الفرنسية فن الحرب المظلم. أما كتابه الرائع الذي نُشر بعد وفاته **حول الحرب** (١٨٣٢) فيبقى أهم عمل كتبه مؤلف غربي في ذلك الموضوع. وبالرغم من كون كتاب **حول الحرب** خالداً لأكثر من سبب إلى أنه يُعد وصفاً لا يُستغنى عنه عن الحقبة النابوليونية، وذلك لأنه يفسر سبب تغيّر حجم الحرب، وما هي نتيجة ذلك على سلوكياتها.

أعلن كلاوزويتز: «الحرب هي... عملٌ من أعمال القوة لإجبار عدونا على الخضوع لإرادتنا... إنها ليست مجرد عمل من أعمال السياسة لكنها أداة سياسية حقيقية، وهي استمرار للمداخلات السياسية لكنها تُمارس بأدواتٍ أخرى». كانت تلك أشهر كلماته، لكنها كذلك أكثر كلماته التي تعرضت لسوء الترجمة وسوء الفهم. لكنها لم تكن أهمّ كلماته. تكمن عبقرية كلاوزويتز في ملاحظته أن عشية الثورة الفرنسية ظهرت رغبةٌ جديدة في ميادين المعارك. قال في إشارة له إلى الفرنسيين: «حتى أكثر الشعوب تمدناً، تشعر بحقدٍ كبير بعضها على بعض...» تحولت الحرب بعد العام ١٧٩٣ «إلى الشغل الشاغل للناس»، أي إنها لم تعد هواية الملوك، بل أصبحت «الطاغوت» الذي يسيّره «مزاج الأمة». اعترف كلاوزويتز بعبقرية نابوليون بصفته قائد هذا الطاغوت العسكري الجديد. تمكنت «جرأة نابوليون، وحظّه الحسن، من طرح الممارسات القديمة المتعارف عليها أدراج الرياح». وصلت الحرب على يد نابوليون «إلى حالة من الكمال المطلق». لم يكن ذلك المبتدئ الكورسيكي أقل من «إله الحرب ذاته... الذي أدى تفوقه الدائم إلى سحق العدو». بقيت قيادته، بالرغم من كل ذلك، أقل أهمّية من الروح الشعبي الجديد الذي مثل حافزاً لجيشه.

كتب كلاوزويتز ما كان يجب أن يكون معادلته الأشهر بأن الحرب تحولت الآن إلى «ثالوثٍ متناقض» مؤلفٍ من العنف البدائي، والحقد، والعداوة، وهي التي يجب أن تُعد قوةً طبيعية عمياء يتقاطع فيها دور الحظ مع الاحتمالات... وكذلك التبعية، أحد عناصرها، وبوصفها أداةً سياسية، الأمر الذي يجعلها خاضعة للمنطق فقط».

صحيحٌ أن «الرغبة في القضاء على القوات العدوة» هي دافع قوي، وهي النتيجة [الوليدة] الأولى لحرب الأمم الجديدة هذه. لكن كلاوزويتز حذّر بأن الدفاع هو على الدوام «صيغة قتالية أقوى من الهجوم»، لأن «قوة الهجوم تتناقص تدريجاً...» ثمة صعوبة كامنة حتى في الدفاع: «كل شيء في الحرب هو بسيط جداً، لكن الأمر الأبسط صعب... إنه نوع من الاحتكاك... الذي يُضعف المستوى العام للأداء». يجب على القائد القادر، لكل هذه الأسباب، أن يتذكر أربعة أشياء على الدوام. أولاً، «تقويم الاحتمالات»(*). ثانياً، «التصرّف بأعلى درجة من التركيز». ثالثاً، «التصرف بأقصى سرعة»:

يجب أن تتعلّق الأنشطة العسكرية برمّتها بالاشتباك، سواء مباشرة أم بطريقة غير مباشرة. إن الغاية من تجنيد كل جندي، وإعطائه الملابس، والسلاح، ومن تدريبه... هي، ببساطة، أن يحارب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب.

أما الأهمّ من ذلك كله فهو ضرورة أن يبقى ذلك الطاغوت تحت السيطرة. إن ما يُطلق عليه كلاوزويتز الحرب المطلقة **«يتطلب إعطاء الأولوية للسياسة»**. يعني ذلك بكلماتٍ أخرى إخضاع وسائل الحرب إلى أهداف السياسة الخارجية. هذا هو المغزى الحقيقي لكتاب **حول الحرب**[1].

إذاً، ماذا كانت أهداف نابوليون السياسية؟ يمكننا القول إنه من الصحيح من بعض النواحي أن هذه الأهداف اكتسبت مسحةً رجعية، وهذا ما يلاحظ إذا ما قارنا ما تصوّره لوحة جاك – لويس دافيد **تكريس نابوليون الأول** (١٨٠٤)، وهو يظهر ملتفاً بالفرو الأمبراطوري في نوتردام، بالبطل الرومانسي الذي رسمه الفنان نفسه **نابوليون في سان- برنار باس** (١٨٠١)، وهو هذا الثوري العصري Zeitgeist

(*) خضع نابوليون في المدرسة الحربية في باريس لفحصٍ على يد بيار – سيمون لابلاس، وهو أحد رواد الرياضيات في نظرية الاحتمالات.

(١) All quotations from Clausewitz, On War, Book I, chs. 1, 2, 7; Book III, ch. 17; Book VII, chs. 4, 5, 6, 22; Book VIII, chs. 1–9.

(بحسب تعبير الفيلسوف جورج ويلهلم هيغل) على صهوة الحصان. كان ذلك التحوّل مقيتاً بالنسبة إلى لودفيغ فان بيتهوفن، وهو روح موسيقى ذلك العصر، إلى درجة أنه شطب بغضب العنوان الأصلي لسيمفونيته الثالثة – «بونابرت» – وغيّره إلى «سيمفونية أوريكا». أجبر نابوليون، بعد أن توّج نفسه أمبراطوراً في شهر كانون الأول من العام ١٨٠٤، الأمبراطور النمسوي فرنسيس الثاني على التخلي عن لقب الأمبراطور الروماني المقدس، ومن ثمّ تزوج ابنته. توصل نابوليون في هذا الوقت إلى عقد معاهدة «كونكوردات» بين فرنسا والبابا، الأمر الذي أجهز على ما تبقى من طائفة العقل اليعقوبية.

اتسمت الأمبراطورية التي سعى نابوليون إلى إقامتها في أوروبا بحنينٍ إلى الماضي، وكانت ثورية بالفعل. لم يكتفِ نابوليون بتكبير مساحة فرنسا حتى «حدودها الطبيعية» وتحجيم بروسيا، بل إنه أنشأ كونفدرالية سويسرية جديدة؛ وكونفدرالية الراين الألمانية الغربية التي ضمت أربعين دولة جديدة، تمتد من البلطيق حتى الألب؛ وكذلك أنشأ مملكة في (شمال) إيطاليا؛ وأنشأ كذلك دوقية وارسو الجديدة. كان القصد من هذه الدول الجديدة أن تكون تابعةً لفرنسا، حتى أنه نصّب شقيقه الأصغر جيروم، المعروف بإسرافه، حاكماً فخرياً لمملكة وستفاليا الجديدة. أعطى نابوليون كذلك شقيق زوجته جواشيم مورات مركزاً مماثلاً في نابولي. نلاحظ كذلك أن الدول المهزومة دفعت جزية كبيرة للمنتصرين الفرنسيين. أعطى الهولنديون في الفترة ما بين ١٧٩٥ و١٨٠٤ الفرنسيين ما مجموعه ٢٢٩ مليون غيلدر، وهو مبلغ يعادل أكثر من قيمة المدخول القومي لسنة واحدة. لم يقتصر الأمر مع حملات نابوليون التي شنّها ما بين العامين ١٨٠٦ و١٨٠٧ على تغطية تكاليفها بل إنها غطت ما لا يقل عن ثلث النفقات العادية للحكومة الفرنسية. أما في إيطاليا فإن نصف الضرائب التي جُمعت ما بين العامين ١٨٠٥ و١٨١٢ ذهب إلى الخزينة الفرنسية. يُلاحظ مع ذلك أن الخريطة الأوروبية كما أعاد نابوليون رسمها قد حوّلت رقعة المقاطعات الموروثة إلى شبكةٍ جديدة من الأمم – الدول. يُضاف إلى ذلك أن الحكم الفرنسي ترافق مع

تغيير جذري في النظام القضائي وذلك مع إدخال قانونٍ مدني جديد أشرف عليه نابوليون – وهو تغيير ترك تأثيرات دائمة وإيجابية في اقتصادات البلدان المعنية. ألغى الحكم الفرنسي سائر الامتيازات التي كانت تحمي طبقة النبلاء، والنقابات، والأقليات النافذة في المدن. وترسّخ بدلاً منها مبدأ المساواة أمام القانون[1]. لم يكن نابوليون يهذي كلياً عندما قال في وقتٍ لاحق إنه «أراد إنشاء نظام أوروبي، وأنظمة قوانين أوروبية، ونظام قضائي أوروبي، وذلك من أجل أن يكون هناك **شعب واحد في أوروبا**»[2]. لا يمكننا القول إنه افتقد الرؤية السياسية لمجرد أن أمبراطوريته لم تستمر طويلاً. لم تكن الحرب بالنسبة إلى نابوليون غايةً في ذاتها، بل كانت، بحسب ما فهمه كلاوزويتز، المسعى [الذراع] العسكري للسياسة.

لم يكن الخطأ في هدف نابوليون، بل في حتمية تفوق أعداد أعدائه عليه، حتى وإن لم يستطع قادتهم مجاراته في مهاراته [العسكرية]. لم يتأثر نابوليون كثيراً بالشتاء الروسي كما تأثر بالاستراتيجية التي قضت بالانسحاب العميق، وبحرب الاستنزاف (هذا إذا لم نذكر شيئاً عن وباء التيفوس)، وهكذا انهار **الجيش العظيم** أمام كثرة أعداد خيول أعدائه – وعلى الخصوص في ليبزيغ في العام ١٨١٣[3]. حدث الأمر ذاته عندما عدل البروسيون كفة الميزان في واترلو في العام ١٨١٥. سبق لفرنسا أن خسرت الحرب في البحر قبل ذلك بوقتٍ طويل. انضم السير هوراثيو نيلسون إلى طبقة النبلاء بعد أن هاجم، ببراعة، الأسطول الفرنسي من الجانبين في خليج أبوقير (معركة النيل) في العام ١٧٩٨، مما وجه ضربةً قاتلة إلى حلم نابوليون في قهر مصر. تمكّن نيلسون بعد مرور سبع سنوات من مناورة الأسطول الفرنسي – الإسباني الأكثر عدداً بعد تطبيقه «لمسة نيلسون»، وهو التكتيك الذي يقضي بالإبحار بسرعةٍ عالية من خلال خطوط العدو وإطلاق النار على الجانب الأيمن لإحدى السفن، وعلى مؤخّرة سفينة أخرى، وعلى سفينة ثالثة portside.

(١) Acemoglu et al., 'Consequences of Radical Reform'.

(٢) McLynn, Napoleon, p. 664.

(٣) Lieven, Russia against Napoleon.

إن دلالة هزيمة نابوليون في البحر دلالة مضاعفة. أولاً، انقطعت فرنسا تدريجاً عن مستعمراتها الواقعة وراء البحار. أما مستعمرة سان دومينغو الغنية جداً بقصب السكر فقد ثارت في العام ١٧٩١ تحت قيادة العبد المحرر فرنسوا دومينيك توسان «لوفيرتير» (ومعناها الحرفي «الافتتاحية») وذلك بعد أن صوّت المجلس التشريعي على تحرير السود والخلاسيين، من دون العبيد. أدى قانون إلغاء العبودية الذي أصدره المؤتمر القومي في العام ١٧٩٤ إلى غرق الجزيرة في حمأة حرب عرقية دامية وصلت شرارتها إلى جزيرة سانتو دومينغو الإسبانية المجاورة. استمرت الثورة حتى إلقاء القبض على توسان وترحيله إلى فرنسا في العام ١٨٠٢، وحتى أعاد نابوليون العمل بنظام العبودية. فَقَدَ ما بين ١٦٠,٠٠٠ و٣٥٠,٠٠٠ شخص حياتهم في أثناء الثورة الهايبتية. فضّل الفرنسيون بعد سنةٍ من الزمن بيع ممتلكاتهم الشاسعة في منطقة أميركا الشمالية المعروفة بلويزيانا (لكن يجب عدم الخلط بينها وبين الولاية المعروفة هذه الأيام) إلى الولايات المتحدة بسعر مخفضٍ جداً: ٨٢٨,٨٠٠ ميلٍ مربع مقابل ١٥ مليون دولار (أقل من ٣ سنتات للآكر الواحد). ثانياً، والأهم، هو أن فرنسا خسرت الحرب المالية. لم يتمكّن نابوليون، بالرغم من عمليات البيع المستمرة للأراضي التي كانت ملك الكنيسة سابقاً، ومن إصدار عملةٍ جديدة وإرهاق دافعي الضرائب الهولنديين والألمان، من الحصول على كلفة استقراض تحت ٦ بالمئة. كان معدل العائد yield لسندات الحكومة الفرنسية أعلى بنقطتين مئويتين من السندات البريطانية. كان ذلك إنفاقاً مميتاً.

سعى بونابرت، وهو الإنسان المركانتيلي إلى إضعاف موقف بريطانيا الاقتصادي عن طريق حظر التجارة بين القارة وبريطانيا. لكن التجار البريطانيين تمكنوا من التحوّل إلى أسواق بعيدة فيما وراء البحار، واستفادوا من هيمنة الأسطول البحري البريطاني على خطوط الملاحة البحرية الرئيسة. يُخطئ بعضهم أحياناً عندما يفترض أن التصنيع الذي مرت به بريطانيا سابقاً قد أعطاها تفوقاً على نابوليون. لكن الواقع هو أن التجارة والتمويل هما ما كسبا المعركة، وليس الحديد والبخار. لم يقتصر

الأمر على صمود التجارة، لكن الأهم أن بريطانيا كانت قادرة على التمتع بفائض في ميزانها التجاري بفضل مداخيل غير منظورة ناتجة من الشحن البحري، والتأمين، والاستثمارات في مناطق ما وراء البحار. يُضاف إلى ذلك أرباح الأمبراطورية (المداخيل من تجارة العبيد والضرائب التي فرضتها شركة الهند الشرقية على الهنود). بلغ فائض ميزان المدفوعات في المملكة المتحدة ١٤ مليوناً من الجنيهات سنوياً في الفترة ما بين عامي ١٨٠٨ و١٨١٥، وهو مبلغ يفوق كثيراً العجز التجاري في الفترة ذاتها. مكّن هذا الواقع بريطانيا من إجراء تحويلات كبيرة من الخارج - بلغت ذروتها عندما وصلت إلى ٤/٤ من الدخل القومي سنوياً - وكان ذلك على شكل مدفوعات لجيوشها ومساعدات لحلفائها. أما في الفترة ما بين العامين ١٧٩٣ و١٨١٥، فقد بلغ مجموع القيمة التي منحتها بريطانيا لأعداء فرنسا في القارة الأوروبية ٦٥,٨ مليون جنيه. تمثل الروح الجديد لذلك العصر في أحد أعمدة البورصة، وكان يهودياً وُلد في فرنكفورت ويُدعى ناثان روتشيلد - **بونابرت المالي** - وهو الذي أدى دوراً أساسياً في إعطاء دوق ولنغتون وحلفائه مصادر القوة للحرب[1].

هُزم نابوليون، وناءت فرنسا في ذلك الوقت تحت وطأة التعويضات بالإضافة إلى عودة آل بوربون بشخص لويس الثامن عشر. مات نابوليون في جزيرة سانت هيلانة المنعزلة في جنوب المحيط الأطلسي في العام ١٨٢١ بسبب سرطان في المعدة، لكن لم يمت معه حلم الثورة ولا حلم الأمبراطورية الثورية. أعطت الثورة في العام ١٧٨٩ فرنسا مسرحيةً سياسية لا مثيل لها. كانت الرغبة في إعادة تمثيل هذه المسرحية على مدى القرن التالي رغبةً لا تقاوم. حدث ذلك في العام ١٨٣٠، وفي العام ١٨٤٨، ومرة جديدة في العام ١٨٧١. إذ كانت النقطة الحاسمة هنا أنه كلما ارتفعت المتاريس في شوارع وسط باريس، سرت موجة صادمة في كل أنحاء أوروبا والأمبراطوريات الأوروبية، وإن جاءت ردات الفعل متفاوتة في هجومها. كان وعد الحرية الأحمر الذي **أعقب إعلان حرية الإنسان** أصعب من إخفائه بالسواد الديني،

(١) Ferguson, Ascent of Money, pp. 81f.

ولا يُمكن أن يُنسى. شدّد الكاتب ستاندال كثيراً في روايته **الأحمر والأسود** (١٨٣٠) على هذه النقطة. يُمكن لأي شخص، على أي حال، أن يتبنى مصطلحات الثورة ورموزها. أما المدنيون الذين تسلحوا على عجل، والمحاربون الذين مشوا بصدورٍ عارية، والشهداء، الذين انتشروا في الشوارع فقد سقطوا وراء الشعارات التي دافعوا عنها طويلاً (*).

كانت الثورات التي ظهرت في العام ١٨٤٨ أكثر انتشاراً. احتل الناس الشوارع في برلين، ودرسدن، وهانوفر، وكارلسرو، وكاسل، وميونيخ، وشتوتغارت، وفيينا، وكذلك في ميلانو، ونابولي، وتورينو، والبندقية. كانت تلك ثورة قادها المفكرون الذين خاب ظنهم، أكثر من أي شيء آخر، من القيود على حرية التعبير التي فرضتها الأنظمة الملكية التي عادت إلى السلطة. ساهم المؤلف الموسيقي ريتشارد فاغنر، وذلك الثوري ميخائيل باكونين، في **«حريق العالم»** وذلك عندما خططا معاً لكتابة أوبرا إلحادية (**). كانت بريطانيا إحدى الدول الأوروبية الغربية القليلة التي نجت من هذا الحريق، ولأسبابٍ ليس أقلها وجود ٣٥,٠٠٠ جندي، و٨٥,٠٠٠ شرطي خاص، و١,٢٠٠ من العسكريين المتقاعدين، و٤,٠٠٠ شرطي آخر كانوا جاهزين لضمان إبقاء **الجارتيين** Chartist، وهم مناصرو فكرة المعاناة العالمية، داخل حدودهم. كانت نتيجة كل ذلك بقاء لندن في العام ١٨٤٨ مدينة تسودها الخطب في المتنزّهات العامة، بدلاً من أن تسيل الدماء في شوارعها.

(*) يمكننا مقارنة لوحة يوجين ديلاكروا **الحرية** تقود الشعوب (١٨٣٠) بلوحة إيجيد، بارون وابرز مشهد من الثورة البلجيكية عام ١٨٣٠ (١٨٣٥) و(من بين كثير من الأمثلة في القرن العشرين) لوحة الفنان المكسيكي مخزن الأسلحة (١٩٢٨).

(**) قال كاتب سيرة فاغنر: «فكّرت في مخطط لمأساة تدور في مسرح مثالي في المستقبل، وكان عنوانها يسوع الناصري. طلب إلي باكونين عدم تزويده تفاصيل، لكن عندما سعيت إلى كسبه للمشروع الذي أعددته عن طريق بضع ملاحظات لفظية، تمنى لي التوفيق، لكنه أصرّ عليّ أن أسعى جهدي لجعل يسوع يبدو شخصية ضعيفة. أما بالنسبة إلى الموسيقى التي تترافق مع هذه القطعة فقد نصحني، من بين تنويعاتٍ كثيرة، أن أستخدم مجموعة واحدة من العبارات، وعلى الخصوص: بالنسبة إلى المؤدي (تينور)، «اقطعوا رأسه!»؛ وبالنسبة إلى السوبرانو، (اشنقوه!) والكورس، «النار! النار!»» تُظهر هذه الحادثة الروح المتوقد السائد في العام ١٨٤٨.

لكن لم ينحصر ما يسمّى «ربيع الشعوب» في أوروبا. تحولت الثورة على الطراز الفرنسي، وبسرعة، إلى ظاهرة عالمية، أي مثل عدد كبير من الأفكار الغربية الأخرى في القرن الثامن عشر. انتشرت الاضطرابات في الأمبراطورية البريطانية - في سيلان، وغويانا، وجامايكا، ونيز ساوث وايلز، ومنطقة أورانج ريفر، والبنجاب، وبلاد فان ديمين[١]. كانت الأحداث في أفريقيا الغربية الفرنسية أكثر إدهاشاً من ذلك. استند التغيير السياسي الحاسم هناك، وعلى النقيض مما حدث في المستعمرات البريطانية، إلى الحكومات الثورية في العواصم.

تسلّط كل هذه الأحداث الضوء على أبرز سمات الإمبريالية الفرنسية: مزيتها الثورية المستمرة. أما الأمبراطورية البريطانية فقد كانت محافظةً اجتماعياً بطبيعتها. زاد ميل الحكّام الإداريين [في المستعمرات] بمرور السنين إلى النُخب المحلية، كما ارتاحوا أكثر فأكثر إلى الحكم غير المباشر عن طريق زعماء القبائل والمهراجات الذين يميلون إلى البهرجة. لكن الفرنسيين تعلقوا بأمل أن تكون الحرية، والمساواة، والإخاء - بالإضافة إلى **قانون نابوليون**، والأطعمة المعلبة (اختراع آخر من نابوليون) - سلعاً للتصدير إلى أنحاء العالم[٢].

أرست فرنسا، مثل كل الأمبراطوريات الأخرى، أمبراطوريتها ما وراء البحار على العبودية، أقلّه جزئياً. لكن في العام ١٨٤٨، أعلنت الحكومة الجمهورية الجديدة أن العبودية سوف تُلغى مجدداً في جميع أنحاء الأمبراطورية الفرنسية، بما في ذلك مستعمرة السنغال في أفريقيا الغربية. أما البريطانيون فقد فعلوا ذلك قبل خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ. لكن إلغاء العبودية كان الخطوة الأولى فقط في ثورة أفريقيا الفرنسية. أُعلن كذلك أن العبيد المحررين حديثاً سيحصلون على حق التصويت، الأمر الذي لم يحصل عليه المواطنون المحليون في المستعمرات البريطانية. أما بعد ظهور مفهوم **معاناة الإنسان في العالم** في سائر أنحاء الأمبراطورية الفرنسية، فقد

(١) Taylor, '1848 Revolutions'.

(٢) Blanton et al., 'Colonial Style'.

شاركت القوى الناخبة الأفريقية كلها، والناخبون المتحدرون من أعراق مختلفة (كان البيض يشكلون ١ بالمئة فقط من مجموع الناخبين في السنغال)، في الانتخابات التي جرت في تشرين الثاني من العام ١٨٤٨ واختارت أول رجل ملون يحوز مقعداً في الجمعية الوطنية[١]. لكن بالرغم من أن حق إرسال نائبٍ إلى باريس قد سُحب من السنغال في العام ١٨٥٢، بأمرٍ من الأمبراطور نابوليون الثالث، ولم يُسترجع هذا الحق إلا في العام ١٨٧٩، فإن ممارسة حق التصويت قد استمرت في انتخاب مجالس المحافظات الأربع (سان لويس، غوري، روفيسك، وداكار) وذلك على أساس **معاناة الإنسان في العالم**[٢]. اجتمع أول مجلس ديمقراطي متعدد الأعراق في التاريخ الأفريقي في مدينة سان لويس التي كانت حينئذٍ عاصمة المستعمرة.

أدرك المعاصرون مدى جسامة ذلك التغيير. كتب أحد زائري سان لويس من البريطانيين: «يشاهد زائر هذا المجلس رئيساً أسود يدعو عضواً أوروبياً إلى التزام الهدوء... ويرى أعضاء من السود وهم ينتقدون مسؤولين في السنغال من غير رحمة. لكن المستعمرات البريطانية لم تتحمل ذلك النوع من الهجمات التي يقوم بها السكان المحليون ضد المسؤولين الأوروبيين في السنغال»[٣]. كان البريطانيون يرون أن الأمبراطورية تتمسك بالتراتبية بالطريقة ذاتها التي يتمسك بها المجتمع في الوطن بالطبقية. تربعت فيكتوريا، الملكة والأمبراطورة، على القمة. كان كل واحدٍ من رعاياها الذين يبلغ عددهم ٤٠٠ مليون يقبع تحتها ضمن سلسلة من الرتب، وتسير نزولاً حتى أفقر الفقراء punkah wallah في كالكوتا. أما الأمبراطورية الفرنسية فقد كانت مختلفة.

رأى الثوريون في العام ١٨٤٨ أنه من البديهي تحويل الرعايا في المستعمرات إلى رجالٍ [مواطنين] فرنسيين بأسرع وقتٍ ممكن. وجب «إدماج» الأفارقة بحسب

(١) Crowder, Senegal, pp. 6f., 14f.; Cruise O'Brien, White Society, p. 39.

(٢) Klein, Islam and Imperialism, p. 118.

(٣) R. L. Buell, The Native Problem in Africa (1928), quoted in Crowder, Senegal, p. 23.

لغة ذلك الزمان. ترافق ذلك مع تشجيع الزواج المختلط بين المسؤولين الفرنسيين والنساء الأفريقيات[1]. تجسّدت هذه الإمبريالية التقدمية بشخص لويس فايدهيرب، وهو جندي مجرب ما لبث أن أصبح حاكم السنغال في العام ١٨٥٤. أشرف فايدهيرب في سان لويس على بناء جسور جديدة، وطرقٍ معبدة، ومدارس، وأرصفة موانئ، وعلى توفير مياه الشرب، وعلى تدشين خدمة نقل بحري منتظمة عبر النهر. شهدت مناطق السنغال كذلك تأسيس «قرى الحرية» المخصصة لسكنى العبيد المحرّرين. أسّس فايدهيرب في العام ١٨٥٧ جيشاً سنغالياً خاصاً بالمستعمرة – Tirailleurs Senegalais – تحوّل فيه الجندي الأفريقي من عامل عسكري متعاقد إلى رجل مشاة نظامي عادي. أُسّست مدرسة كذلك لتعليم أبناء الزعماء المحليين[2]. أما فايدهيرب ذاته فقد تزوج فتاة سنغالية في الخامسة عشرة من عمرها.

أعلن فايدهيرب عند اقتراب نهاية فترة خدمته كحاكم: «إن نياتنا نبيلة. قضيتنا عادلة». نعرف، بطبيعة الحال أن مهمته تجاوزت مجرد تمدين السكان. أعلن الرجل في العام ١٨٥٧: «كان هدفنا أن نحكم هذه البلاد بأقل كلفةٍ ممكنة ومن خلال التجارة، وذلك من أجل الحصول على أكبر المنافع الممكنة»[3]. تلقى الرجل تعليمات لتوسيع النفوذ الفرنسي إلى داخل البلاد، وتحقيق التنمية الاقتصادية وذلك عن طريق تهديد سيطرة المواطنين الأفارقة على تجارة الصمغ العربي الذي يُصنع من نسغ أشجار الآكاسيا والفستق. كانت استراتيجية فايدهيرب تقضي ببناء سلسلة من الحصون الفرنسية بمحاذاة نهر السنغال، وذلك بدءاً من ميدينة التي تقع أسفل شلالات فيلو. أدى ذلك في النهاية إلى نزاعٍ مع القوى الداخلية النافذة داخل البلاد: مع ترارزا مورز في والو، ومع كايور في الجنوب ومع الحاج عمر تال، وهو الحاكم المسلم في منطقة وسط النيجر، الذي تمكّن فيما بعد من تأسيس أمبراطورية

(١) Cruise O'Brien, White Society, p. 33.

(٢) Gifford and Louis, France and Britain, p. 672.

(٣) Cohen, Rulers of Empire, ch. 1.

كل الأعراق Tou- couleur في مالي المجاورة[1]. أُجبر هؤلاء المنافسون الأفريقيون أخيراً على التراجع تدريجاً. قلبت الحكومة الفرنسية في العام ١٨٥٧ **جمهورية ليبو**، وحوّلت العاصمة **نداكارو** إلى مدينة جديدة تابعة للمستعمرين تحت اسم **داكار**. يبقى وسط المدينة هذه الأيام رمزاً يذكّر بالرؤية الاستعمارية الفرنسية، وذلك بدءاً من قصر الحاكم العام الأبيض إلى جادة فايدهيرب، ومن الأفران التي تعرض أرغفة الخبز الفرنسية الشهية إلى محالّ الحلويات التي تقدم القهوة بالحليب. قصد المستعمرون جعل عملية الفرنسة رسمية ولذلك قسموا البلاد إلى مناطق، ودوائر، وكانتونات. تمكّن الفرنسيون مع تخلي فايدهيرب عن السلطة في العام ١٨٦٥، من التجوال في أنحاء سان لويس والافتخار بمنجزات بلادهم. تحولت كذلك أسواق العبيد السابقة إلى مراكز فخورة لثقافة بلاد الغال [الفرنسية]. أما ضحايا الإمبريالية السابقون فقد تحولوا إلى مواطنين يتمتعون بحق التصويت ويُفرض عليهم واجب حمل السلاح. كتب الصحفي غابرييل شارمز:

في هذه المناطق العظيمة التي لا يسودها سوى التعصّب الشديد، وحكم رجال العصابات هذه الأيام، يُنتظر من فرنسا أن تجلب... السلام، والتجارة، والتسامح، لكن من يستطيع القول إن كل ذلك هو سوء استخدام السلطة؟ ... وذلك بعد أن علّموا الحضارة لملايين الرجال، وهكذا امتلأوا بالفخر الذي يصنع الشعوب العظيمة[2].

لم تستطع الإمبريالية الفرنسية تحمّل هذه التكاليف الباهظة للحياة، وكان التحدّي الأكبر هو جذب المسؤولين الذين يتمتّعون بالكفاءة من فرنسا. قال أحد خلفاء فايدهيرب بصراحة إن أولئك الذين تطوعوا للخدمة في أفريقيا الغربية إن لم يكونوا «أشخاصاً مضطهدين في بلادهم، فقد عجزوا أقلّه عن توفير لقمة عيشهم هناك، أي إنهم إذا لم يكونوا من عداد صغار المجرمين كانوا من الثملين والمفلسين»[3].

(١) Brunschwig, 'French Exploration and Conquest'.

(٢) Conklin, Mission, p. 13.

(٣) Fonge, Modernization without Development, p. 66.

قال أحد المستوطنين في العام ١٨٩٤، إن المستعمرات كانت «ملاذاً آمناً لكل المتوحدين، ومجمعاً لكل نواتج نظامنا السياسي والاجتماعي». ذكر مدير المدرسة الاستعمارية أنه إذا غادر أحدهم البلاد متوجهاً إلى المستعمرات كان أصدقاؤه يسألون: «ما هي الجريمة التي اقترفها؟ ومن أي وجه جثة يفرّ؟»[١] اشتُهر كذلك عدد من المسؤولين الاستعماريين بقسوتهم الشديدة تجاه السكان المحليين. احتفل أحدهم، ويدعى إميل توكيه، بذكرى الباستيل في العام ١٩٠٣ بتفجير أحد السجناء بعد ربطه بالمتفجرات[٢]. كان معظم المسؤولين عن شؤون المستعمرات يتشاركون في فكرة أن رعاياهم الأفريقيين متخلفون فكرياً. استمدّ هؤلاء قوة من قانون indigenat الذي سمح لهم، إذا ما رأوا ذلك مناسباً، بسجن السكان المحليين المعاندين لمدةٍ تصل إلى خمسة عشر يوماً بست وأربعين تهمة، ومعظمها لا يعد غير قانوني في فرنسا[٣]. غابت آليات الاستئناف عن ذلك القانون. أما نظام السخرة فقد كان جزءاً أساسياً من النظام الضريبي في أفريقيا الغربية. أنشئت سكة حديد داكار – النيجر بهذه الطريقة. كانت ضريبة الرأس الواحد في الكونغو الفرنسية تعادل مئة يوم عمل في السنة. كانت السلطات تأخذ رهائن من القرى التي تتخلف عن دفع المبالغ المستحقة عليها. بدا أن بعض المسؤولين ـ مثل ذلك المسؤول في السودان الفرنسي الذي اتُهم بجرائم متعددة، إحداها حادثة اغتصاب واحدة على الأقل، وإنزال أذى جسدي شديد ، وإساءة استخدام العدالة والاختلاس ـ قد تمثلوا بكيرتز، إحدى شخصيات الروائي كونراد، وعدوه مثالهم الأعلى[٤]. أقدم أحد المسؤولين واسمه بروكار على قطع رأس أحد السجناء الذي أصيب بالعمى نتيجة الأوضاع السيئة في زنزانته، وذلك «لأسبابٍ إنسانية»[٥]. أما ذروة تلك التصرفات المجنونة فقد كانت مهمة

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) Berenson, Heroes of Empire, pp. 197f.

(٣) Joireman, 'Inherited Legal Systems'.

(٤) Cohen, Rulers of Empire, pp. 79f.

(٥) Asiwaju, West African Transformations, p. 60.

بول فوليت، وجوليان كانونين، في بحيرة تشاد (١٨٩٨ - ١٨٩٩)، وهي المهمة التي تركت آثارها في القرى المحروقة، والسكان المشنوقين، حتى الأطفال الذين تعرضوا للشيّ عند انتهائها، وذلك بعد أن ثار عليهما الجنود الذين عملوا بإمرتهما وقتلوهما[١].

تحسّن مع ذلك مستوى الفرنسيين المسؤولين عن المستعمرات في النهاية، وعلى الخصوص بعد الحرب العالمية الأولى، وذلك عندما جذبت مدرسة المستعمرات Ecole Colonial ليس طلاباً أفضل فحسب، بل تمكّنت من جذب علماء أعراقٍ بارزين من أمثال موريس ديلافوس وهنري لوبريه. تمكن أحد مدراء المدرسة جورج هاردي، وكان تقياً جداً من تجسيد **المهمة الحضارية**. بذل الفرنسيون جهداً حقيقياً في الوقت ذاته من أجل جذب أصحاب المواهب المحليين وتدريبهم. عبّر فايدهيرب عن أفكاره بكل وضوح في خطابٍ ألقاه أثناء منحه رتبة مساعد ملازم أول إلى جندي يدعى آليون سال:

يُظهر... هذا التعيين أن اللون لم يعد سبباً للاستبعاد حتى بالنسبة إلى أعلى المراكز في مجتمعنا... لن ينجح إلا أولئك الذين يتمتّعون بأعظم القدرات. أما أولئك الذي يعاندون بإصرارهم على الجهل فإنهم سيظلون في أسفل مراتب المجتمع، أي كما هي الحال في جميع بلدان العالم[٢].

التحق في العام ١٨٨٦ ابن ملك بورتو نوفو (التي أصبحت داهومي/ بينين) بمدرسة المستعمرات مع دزينة من الطلاب الآسيويين[٣]. تمكّن رجل يدعى **بلايس ديان** وُلد في العام ١٨٧٢ في منزلٍ متواضع يقع في **غوري**، وهي أحد مراكز تجارة العبيد، من الالتحاق بدائرة جمارك المستعمرات والتدرّج في مراتبها، وذلك بفضل مهمة الحضارة. كان هذا التقدم في المراتب أصعب بكثير في أفريقيا البريطانية.

---

(١) Taithe, Killer Trail.

(٢) Echenberg, Colonial Conscripts, p. 18.

(٣) Cohen, Rulers of Empire, p. 38.

انتهى ديان في العام ١٩١٤ ليكون أول رجلٍ أفريقي أسود (من أصلٍ غير مختلط) يحتل مقعداً في الجمعية الوطنية الفرنسية، وذلك بالإنجاز القليل بالنسبة إلى حفيد عبدٍ سنغالي. أما بالمقارنة بسلوكيات الأمبراطوريات الأوروبية الأخرى، في ذلك الوقت، فلا يسع المرء إلا أن يعد الأمبراطورية الفرنسية أكثرها تحرراً. تردّدت في مناطق communes داكار أغنية ولوف Wolof، كانت مخصّصة من أجل الاحتفال بنصر ديان، وهي الأغنية التي تختصر الوضع السياسي الجديد: «هزمت النعجة السوداء النعجة البيضاء»[1].

تلقت الإمبريالية الفرنسية تحية غير مباشرة في العام ١٩٢٢ عن طريق شخصٍ يُدعى «نغويين آي كواك»، وذلك في سياق رسالةٍ إلى الحاكم العام لمستعمرة فرنسية أخرى تقع في المقلب الآخر من العالم، وهي الهند الصينية. بدأ كاتب الرسالة، الذي كان اسمه الحقيقي نغويين سين كونغ، والذي أتقن الفرنسية في الفترة التي قضاها في ليسيه [ثانوية] هوا:

إننا نعرف جيداً أن تعاطفكم مع السكان المحليين، وسكان المستعمرات عموماً، ومع شعب آنام على وجه الخصوص، هو تعاطف كبير. عرف شعب آنام تحت حكمكم الازدهار الحقيقي والسعادة الحقيقية، وكانوا سعداء لرؤية بلدهم، وهي تمتلئ بأعداد متزايدة من الناس، وبمحال الأفيون، وهي الأمور التي تضافرت مع فرق الإعدام، والسجون، و«الديمقراطية»، وكل الأدوات المحسّنة للحضارة الحديثة من أجل جعل شعب آنام أكثر شعوب آسيا تقدماً، وأكثر شعوب العالم سعادة. إن مساعي الخير هذه تمنعنا من ذكر كل الأمور الأخرى، مثل التجنيد الإجباري والقروض، والسخرة، وأعمال القمع الدموية، وخلع الملوك ونفيهم، وتدنيس الأماكن المقدّسة، وغيرها[2].

لم يتعلّم مراسل الحاكم ذاك في المدرسة اللغة الفرنسية فقط. قُدّر له، وتحت اسم مستعارٍ آخر هو «هو شي مينه»، إنشاء حركة تهدف إلى استقلال فيتنام. تعمّد

(١) Lunn, Memoirs of the Maelstrom, p. 62.

(٢) Marr, Vietnamese Anticolonialism. For full English text, see www. fsmitha.com/h2/y14viet.html.

هو شي مينه الإشارة إلى حقوق الإنسان عندما أعلن الاستقلال الفيتنامي، وكذلك فعل **فو نغويين جياب**، الذي انتصر في معركة **ديان بيان فو** الحاسمة (والذي تخرّج في المدرسة ذاتها)، كما تعلّم فن الحرب عندما درس حملات نابوليون. كان هذا هو المصير المحتّم لهذه المهمة الحضارية التي صدّرت التقاليد الثورية مع لعبة البولز [التي تشبه لعلة البولينغ) والأرغفة الفرنسية[1]. لم يكن من المصادفة أن يكون رؤساء الدول المستقلة مثل ساحل العاج، والنيجر، والداهومي، ومالي، من متخرجي **مدرسة وليام بونتي**، كما يصدق الأمر ذاته مع رئيس الوزراء السنغالي[2].

لكن كل هذا – أي **المهمة الحضارية** الفرنسية ـ كان مهدداً بالهزيمة بعدوٍ قاتل، أي المرض، الأمر الذي ترك آثاراً في أفريقيا الصحراوية التي تكاد لا تصلح أبداً لسكنى الأوروبيين[3]. كان توقع الأعمار منذ قرنٍ ونصف قرن من الزمن قصيراً بما يكفي في الغرب. أما توقع الأعمار عند الولادة في بريطانيا في العام ١٨٥٠ فكان ما زال أربعين عاماً فقط، وذلك مقارنةً بالمعدل هذه الأيام الذي يبلغ خمسة وسبعين عاماً. كانت نسب الوفاة عند الأطفال في أفريقيا، والوفيات عموماً، عاليةً بصورة مدهشة. أما توقع الأعمار في السنغال في منتصف القرن التاسع عشر فقد كان ما بين أوائل العشرينيات ومنتصفها[4]. كانت أفريقيا، لهذا السبب، ميدان اختبار للعامل الحاسم الرابع للحضارة الغربية: قدرة الطب على إطالة الحياة البشرية.

أطباء بلا حدود

لم تكن أفريقيا الغربية تُعرف بأنها مقبرة الرجل الأبيض من دون سبب: كان المشروع الاستعماري الأوروبي معرضاً للخطر في مهده. يعطينا النُصب الذي يرتفع

(١) Gardiner, 'French Impact on Education', p. 341.

(٢) Sabatier, ' «Elite» Education in French West Africa'.

(٣) See in general Acemoglu et al., 'Disease and Development'.

(٤) Iliffe, Africans, p. 70.

في جزيرة غوري تخليداً لذكرى واحد وعشرين طبيباً فرنسياً لاقوا حتفهم في أثناء تفشي وباء الحمّى الصفراء في العام ١٨٧٨، فكرةً عن المخاطر التي تعرّض لها الأوروبيون في أفريقيا. فتكت الأمراض الاستوائية فتكاً ذريعاً بالموظفين المدنيين في المستعمرات الفرنسية. مات ما مجموعه ١٣٥ رجلاً من أصل ٩٨٤ موظفاً ما بين العامين ١٨٨٧ و١٩١٢ (١٦ بالمئة) في تلك المستعمرات. كان المسؤولون المتقاعدون في المستعمرات يموتون بما معدله سبع عشرة سنة قبل نظرائهم في العواصم. تلقى ما يقرب من ثلث عدد الأوروبيين في أفريقيا الغربية الفرنسية، والبالغ عددهم ١٦,٠٠٠ شخص العلاج في المستشفيات لمدة أربعة عشر يوماً في السنة، وذلك حتى الفترة المنتهية في العام ١٩٢٩[١]. لكن الأحوال كانت أفضل قليلاً في أفريقيا البريطانية. كانت نسبة الوفيات بين الجنود البريطانيين في سيراليون من بين الأسوأ في سائر الأمبراطورية البريطانية، كما كانت تفوق نسبة الجنود المتوفين في البلاد [بريطانيا] بثلاثين مرة. أما لو استمرت نسبة الوفيات على هذا المنوال لكان الأوروبيون تخلوا، بكل تأكيد، عن استعمار أفريقيا.

حافظ الفرنسيون، مثل بقية الإدارات الاستعمارية، على تدوين سجلات كاملة. يُمكن للمرء هذه الأيام أن يعثر في الأرشيفات الوطنية على كل تفاصيل تفشّي الأوبئة في منطقة أفريقيا الغربية الفرنسية: الحُمّى الصفراء في السنغال، والملاريا في غينيا، والجُذَام في ساحل العاج. بدا أن الفرنسيين مهووسون بكل ما يتعلق بالصحة وهم الذين أصدروا النشرات الصحية، والقوانين الصحية، وقاموا بالحملات الصحية. لكن لمَ لا يكونون كذلك؟ كان لا بد من إيجاد طريقة للسيطرة على تلك الأمراض. قال السير ريوبرت وليام بويس في العام ١٩١٠: إن بقاء الوجود الأوروبي في المناطق الاستوائية يعتمد على هذه المعادلة: «البعوضة أو الإنسان». قال **جون .ل. تود** في هذا الصدد: «إن مستقبل الإمبريالية يعتمد على المجهر»[٢]. لكن مظاهر التقدم

(١) Cohen, Rulers of Empire, p. 23.

(٢) MacLeod and Lewis (eds.), Disease, Medicine and Empire, p. 7.

الأساسية لم تتحقق في المختبرات النظيفة للجامعات الغربية والشركات الصيدلانية.

نشرت المجلة الساخرة بانش Punch في أيلول من العام ١٩٠٣ قصيدة المؤرقين رددها دارسو الأمراض الاستوائية:

يا رجال العلم، يا من

تتحدون الجراثيم في عرينها

وتلاحقون من خلال شجرات الغابات الكثيفة

جرثومة مرض النوم الأفريقية

اسمعوا. آهٍ، اسمعوا ندائي الأخير.

ابعثوا إليّ بجرثومة![(١)]

لم يكن من قبيل التخيّل رؤية رجال العلم وهم يجولون في أنحاء الغابات. أقام باحثون في الأمراض الاستوائية مختبراتٍ في أبعد المستعمرات الأفريقية، وكان أولها ذلك المختبر الذي أُسّس في سان لويس في العام ١٨٩٦. كانت الحيوانات في ذلك المختبر تُحقن بلقاحاتٍ تجريبية، وهكذا حُقنت اثنتان وثمانون قطة بلقاحات الزُّحار، وأحد عشر كلباً بلقاحات داء الكزاز. عملت مختبرات أخرى على أمراض الكوليرا، والملاريا، والكَلَب، والجدري. اعتمدت جهودٌ كهذه على العمل الرائد الذي تمثّل في نظرية الميكروبات التي قدّمها لويس باستور في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر.

ألهمت الأمبراطورية جيلاً كاملاً من المبتكرين الأوروبيين في حقل الصحة. قام عالم الجراثيم الألماني روبرت كوخ، الذي سبق له أن عزل عصويات الأنثراكس والسل، باكتشاف Vibrio cholera في العام ١٨٨٤، وهي البكتيريا التي تنقل الكوليرا، أي البكتيريا ذاتها التي أودت قبل عام واحد بحياة لويس تويلييه الذي

(١) Punch, 16 September 1903.

كان منافساً لكوخ. أما في هونغ كونغ، وفي العام ١٨٩٤، فقد اكتشف عالم فرنسي آخر وهو ألكسندر يرسين العصويات المسؤولة عن وباء الطاعون الدبيلي[١]. أما أول من شرح مسببات الملاريا، ودور بعوض الملاريا في نقل ذلك المرض، بشكلٍ كامل، فكان طبيباً في الخدمة الطبية الهندية يُدعى رونالد روس، وهو الذي عانى بنفسه ذلك المرض. كما أن ثلاثة من العلماء الهولنديين تمركزوا في جاوا، أي كريستيان أيكمان، وأدولف فوردرمان، وجيريت جريجينز، هم الذين اكتشفوا أن مرض بري بري (نقص فيتامين ألف) ناتج من نقصٍ في التغذية في الأرز المقشور (نقص الفيتامين ب١). أما آلدو كاستيلاني، وهو العالِم الإيطالي فقد أجرى أبحاثاً في أوغندا أدّت إلى التعرّف إلى طفيليات التريبانوسوما في ذبابة تسي تسي، وهي الذبابة المسؤولة عن مرض النوم. أما فريق الباحثين الذي كان يعمل مع جان لايجريه في معهد باستور في داكار فقد كان أول من عزل الفيروس المسبب للحمّى الصفراء، وهو الذي صنع اللقاح الذي يُؤخذ بطريقةٍ بسيطة، أي من دون الحاجة إلى إبرٍ معقمة وحقن، وهو اللقاح الذي طُوّر لاحقاً ليصبح ما عُرف فيما بعد بلقاح خدش داكار (أو لقاح بلتييه- ديوريو)، والذي يوفّر حمايةً ضد الجدري[٢]. كثُرت هذه الاختراقات، وغيرها، في الفترة في ثمانينيات القرن التاسع عشر وعشرينيات القرن العشرين، وهي التي برهنت على أنها هامة في إبقاء الأوروبيين، ومن ثمّ المشروع الاستعماري، حياً في المناطق الاستوائية. تحوّلت أفريقيا وآسيا بهذه الطريقة إلى مختبرات عملاقة للطب الغربي[٣]. كانت كلما كثُرت نجاحات هذه الأبحاث، وكلما اكتُشفت علاجات أكثر (مثل الكوينين، وهي العلاجات ذات الخصائص المضادة للملاريا التي اكتُشفت في البيرو)، امتدت معها الأمبراطوريات الأوروبية إلى مناطق أوسع، ورافقتها الفائدة العظمى المتمثلة بإطالة الحياة البشرية.

(١) MacLeod and Lewis (eds.), Disease, Medicine and Empire.

(٢) Echenberg, 'Medical Science'; Marcovich, French Colonial Medicine.

(٣) See e.g. Beck, 'Medicine and Society'.

كان الاستعمار في أفريقيا محدوداً في البداية في المستعمرات الساحلية. لكن مع ظهور اختراق غربي آخر – مكننة الحركة – تمكّنت هذه الحركة من الامتداد داخل القارة. كانت السكك الحديد، مثل تلك التي امتدت من داكار إلى باماكو في مالي، ضرورية للمشروع الإمبريالي الغربي. أعلن تشارلز دي فريشينيه، الوزير الفرنسي للأشغال العامة في العام ١٨٨٠: «تنتشر الحضارة وتترسخ عبر مسارات الاتصالات. تمتد أفريقيا أمامنا، وهي تتطلب انتباهنا»[١]. أما بعد إنشاء الاتحاد الفرنسي في أفريقيا الغربية Afrique Occidentale Francaise في العام ١٨٩٥، التي امتدت إلى ما وراء تمبكتو حتى النيجر، فقد أوصل الحكم الفرنسي إلى نحو ما يزيد على عشرة ملايين أفريقي، وهو ما أصبح إحدى سمات الحكم الفرنسي. قال إرنست رومي، أول حاكمٍ للاتحاد:

إننا نرغب في جلب الحضارة إلى المناطق البعيدة، الحضارة التي تَسبّبَ تبصّر رجال دولتنا وشجاعة جنودنا ومستكشفينا في تقديمها لنا... أما الشرط الضروري لتحقيق هذا الهدف فقد كان خطوط الاختراق هذه، وهي وسائل مثالية للنقل تعوّض من غياب الوسائل الطبيعية للاتصالات، وهذا الغياب كان سبباً لبقاء هذه البلاد في حالةٍ من الفقر والبربرية... لا يمكن تحقيق الأنشطة الاقتصادية الحقيقية من دون السكك الحديد هذه. إن من واجبنا، والحالة هذه... وبوصفنا أمة متحضرة أن نأخذ تلك الخطوات التي تفرضها الطبيعة ذاتها، وهي الخطوات الفعالة الوحيدة... يقتنع الجميع باستحالة تحقيق تقدم مادي أخلاقي حقيقي في مستعمراتنا الأفريقية من دون السكك الحديد[٢].

ساعدت السكك الحديد على بسط الحكم الأوروبي في المناطق الداخلية في أفريقيا. لكن السكك الحديد نشرت معها أشياءً أخرى كذلك. لم يقتصر الأمر على تجارة الفستق واللبان فحسب، بل نشرت معها المعرفة الطبية الغربية. كانت ستنتهي

(١) Conklin, Mission, pp. 56f.

(2) Ibid., pp. 51ff.

السكك الحديد بنشر الأمراض وزيادة أخطار الأوبئة لولا التحسينات التي أُدخلت على الصحة العامة. تحوّل الأمر إلى ما يشبه [منظمة] أطباء بلا حدود، لكن على طراز القرن التاسع عشر. تجاهل كثيرون من أمثال غاندي هذه المنافع، بل أصروا على أن الأمبراطوريات الأوروبية لم تشتمل على مزايا نافعة.

تتابعت الجهود بعد إلغاء كيانات السلطة المحلية في سبيل إلغاء الخرافات المحلية. أما هذه الأيام فإن قرية **جاجاك** مشهورة جداً لأنها تحتوي على ما لا يقل عن ثلاثة معالجين تقليديين، ومن بينهم امرأة مسنّة تدعى هان ديوب. يقصد الناس هذه المرأة للحصول على استشارتها من على بعد عدة أميالٍ. أبلغتني المرأة عندما زرت جاجاك في العام ٢٠١٠، بأنها تستطيع شفاء كل الأمراض بدءاً بالربو حتى مرض الحب، وذلك بواسطة علاجاتٍ عشبية وبفضل قدرتها على التوقع. تعوّد الأفارقة هذا النوع من الطب منذ مئات، إن لم يكن آلاف السنين. يُعد ذلك أحد الأسباب التي تُبقي توقعات الأعمار في أفريقيا منخفضة جداً عما هي في الغرب. يُذكر أن العلاجات العشبية والتعاويذ ليست فعالة وحدها ضد معظم الأمراض الاستوائية.

حظرت السلطات الاستعمارية الفرنسية عمل الأطباء السّحرة في العام ١٨٩٧. لكنها مضت بعد مرور سبع سنوات ورسمت خططاً لفتح أول خدمة طبية وطنية أفريقية، وهي الإسعاف الطبي الوطني Assistance Medicale Indigene. لم يقتصر الأمر على بسط الفرنسيين خدماتهم الصحية المجانية الخاصة بهم إلى أنحاء أفريقيا الغربية الفرنسية كافة، بل إن **رومي**، الحاكم العام، أصدر في شباط من العام ١٩٠٥ أمراً يقضي بتأسيس خدمة صحية مجاناً للسكان الأصليين، وهو أمر لم يكن ما يماثله في فرنسا في ذلك الوقت. تحولت منذ ذلك الوقت، هذه «المراكز الصحية»، التي انتشرت في أنحاء المناطق الداخلية إلى مراكز تقدم علاجات الطب الحديث إلى كل الأفريقيين الواقعين تحت الحكم الفرنسي[1]. قال رئيس الوزراء جول فيري مخاطباً الجمعية الوطنية في ١٨٨٤ وملخصاً الوضع الجديد:

(١) Ibid., pp. 48ff.

أيها السادة، علينا أن نتحدث بصوتٍ أعلى وبأمانة أكثر! علينا أن نقول بصراحة، وفعلياً، إن الأعراق الأسمى تمتلك الحق على الأعراق الدنيا... سأكرر القول إن الأعراق الأسمى تمتلك الحق لأن عليها واجباً. يقع على هذه الأعراق تمدين الأعراق الدنيا... لكن هذه الواجبات تعرضت لسوء الفهم عبر القرون الماضية، أعتقد جازماً أن الجنود والمستكشفين الإسبان فشلوا في الالتزام بتلك الواجبات التي تقع عليهم بصفتهم من جنسٍ أرقى عندما أدخلوا العبودية إلى أميركا الوسطى... لكنني أقول إن الأمم الأوروبية فيٍ زماننا هذا تبرئ نفسها بكرمها، وعظمتها، وبصدقها في واجبها السامي في جلب الحضارة [إلى الشعوب الأخرى][1].

كان ذلك أمراً مختلفاً جداً عن أسلوب الحكم غير المباشر الذي يفضّله الأفارقة الذين يعيشون تحت الحكم البريطاني. قال روبرت ديلافينيت، وهو رجل الإدارة ذو الخبرة، ومدير مدرسة المستعمرات[*]:

إن ممثل الجمهورية في داكار، وهو عضو في الماسونية الفرنسية وفي الحزب الاشتراكي الراديكالي، سيكون فوراً الحاكم المطلق، وسوف يستخدم طرائق الحكم الأوتوقراطية بغية قيادة السكان المحليين نحو التقدم... رغب عدد من رجال الإدارة في معاملة اللوردات الإقطاعيين [أي الزعماء] بالطريقة ذاتها التي عاملناهم بها في أثناء الثورة الفرنسية. أراد هؤلاء إما تدميرهم وإما استخدامهم لأغراضنا. يكن رجال الإدارة البريطانيون تعاطفاً أكبر تجاه لوردات الإقطاع. يعني ذلك أن الأرستقراطيين يحترمون الأرستقراطيين[2].

رأى وليام بونتي، الحاكم العام لأفريقيا الغربية الفرنسية في الفترة ما بين العامين ١٩٠٨ و١٩١٥، أن النُظم الأفريقية التقليدية كانت السبب الرئيس الذي يحول ما بين شعوب أفريقيا والحضارة التي كانت تحاول نشرها. أعلن بونتي أن زعماء القبائل

(١) Robiquet (ed.), Discours et opinions, pp. 199-201, 210-11.

(*) أعيدت تسميتها pretentiously المدرسة الوطنية الفرنسية لما وراء البحار في العام ١٩٣٤.

(٢) Cohen, Rulers of Empire, p. 74.

«ليسوا أكثر من طفيليين». أشار أحد المسؤولون عن المستعمرات في العشرينيات من القرن العشرين: «لم ننظر إلى لوردات الإقطاع بجدية، وذلك لأننا لاحظنا أنهم على درجة من السخافة. لا يمكننا توقع عودتنا إلى العصور الوسطى بعد الثورة الفرنسية»[1]. تبنى ديلافينيت موقفاً مشابهاً عندما تخيّل أبطال الأمبراطورية الثورية التي حلم بها «المزارعون السود»، وهو عنوان الرواية التي حازت عدة جوائز في العام ١٩٣١. قال أول وزير مستعمرات اشتراكي، ماريوس موتيه، إن هدف السياسة الفرنسية كان «النظر في تطبيق المبادئ العظيمة لإعلان حقوق الإنسان والمواطن في بلاد ما وراء البحار»[2].

يسهل علينا هذه الأيام عدّ هذه التطلعات نتاج الغطرسة الغالّية [الفرنسية] التي لا تُحتمل. لكن لا شك في أن الأمبراطورية الغربية تمكّنت هنا، وفي الأماكن الأخرى، من تحقيق تقدم حقيقي وملموس. تقلص انتشار مرض الجدري كثيراً في السنغال بعد فرض التلقيح الإجباري في العام ١٩٠٤. لم يتجاوز عدد الإصابات ٤٠٠ سنوياً إلا في أربع سنواتٍ فقط بين العامين ١٩٢٥ و١٩٥٨[3]. تمكنت السلطات كذلك من السيطرة على مرض الملاريا عن طريق التدمير المركزي لمناطق المستنقعات التي هي الأرضية الخصبة لتفقيس البعوض، وكذلك بسبب فرض نظام عزل المرضى إضافةً إلى توزيع الكوينين المجاني[4]. أما أوبئة الحمى الصفراء فقد أصبحت أقل حدوثاً بعد فرض التلقيح الإجباري الفعال.

تحوّل شعار «الصراع على أفريقيا» إلى قولٍ مأثور يسمح بالتقسيم عديم الرحمة للقارة بأسرها على يد الأوروبيين الجشعين. كانت الذروة الغريبة لهذه العملية حادثة **فاشودا**، وذلك عندما تقاطعت الحملتان الفرنسية والبريطانية في التنافس في مدينة

(١) Ibid., p. 77.

(٢) Van Beusekom, Negotiating Development, p. 6.

(٣) Schneider, 'Smallpox in Africa'.

(٤) Ngalamulume, 'Keeping the City Totally Clean', p. 199.

فاشودا (كودوك في هذه الأيام) الواقعة في شرق السودان، في محافظة بحر الغزال. كان الفرنسيون بقيادة الرائد جان – بابتيست مارشان، يحلمون بخطٍ ينطلق من داكار إلى جيبوتي (التي كانت الصومال الفرنسي في ذلك الوقت)، وهو الخط الذي يربط النيجر بالنيل، والذي يكوّن سلسلة غير منقطعة من الأراضي التي يحكمها الفرنسيون تمتد من السنغال حتى ساحل البحر الأحمر. أما البريطانيون الذين كانوا بقيادة السير هيربرت (أصبح لورداً فيما بعد) كيتشنر، فقد عدّوا السيطرة على السودان شرطاً أساسياً لإنشاء خطٍ مماثل يمتد من الشمال إلى الجنوب، أي من القاهرة إلى الكايب. حدثت المواجهة في ١٨ أيلول ١٩٨٩ في نقطة تقاطع هذين الخطين. كان عدد الجنود قليلاً جداً إلى حد السخف. كان مارشان برفقة اثني عشر ضابطاً فرنسياً و١٥٠ من المحاربين، لكن مدار النزاع كان منطقة مستنقعات ملأى بالقصب، والوحل، والأسماك الميتة. وقفت بريطانيا وفرنسا على شفير الحرب بسبب **فاشودا**[١].

كان الصراع من أجل أفريقيا صراعاً على المعرفة العلمية، الذي كان تعاونياً بمثل ما كان تنافسياً، وهو الصراع الذي ترافق مع منافع مؤكّدة بالنسبة إلى السكان المحليين كما للأوروبيين. كان عالِم الجراثيم bacteriologist يخاطر بحياته في أحيان كثيرة من أجل اكتشاف علاجات للإصابات المميتة، وهكذا كان نوعاً من أنواع البطل الإمبريالي، وشجاعاً على طريقته مثلما كان الجنود – المستكشفون. اضطرت كل الدول الأوروبية التي تمتلك طموحاتٍ إمبريالية في هذه الأثناء إلى إنشاء معهد للطب الاستوائي: معهد باستور في باريس الذي أُسّس في العام ١٨٨٧، ومعهدا لندن وليفربول للطب الاستوائي في العام ١٨٩٩، ومعهد أمراض الشحن والأمراض الاستوائية في العام ١٩٠١.

كانت هناك حدود لما يُمكن إنجازه، وهكذا لم يكن بحلول العام ١٩١٤ أكثر من مئة طبيب للعمل في المراكز الصحية الريفية في السنغال. لم يتعدَ عدد المراكز

(١) Wright, Conflict on the Nile. See also Daly, 'Omdurman and Fashoda'; Chipman, French Power, p. 53.

الصحية في سائر أنحاء أفريقيا الغربية الفرنسية ١٥٢ مركزاً في وقتٍ متأخر كالعام ١٩٤٦. أما في الكونغو الفرنسي فقد كان متوقعاً من المركز الكائن في ستانلي بول (سميّت برازفيل بعد ذلك) أن يخدم ٨٠,٠٠٠ شخص مع ميزانية سنوية تبلغ مئتي فرنك فقط. زار الكاتب أندريه جيد تلك المنطقة في العام ١٩٢٧، لكنه أبلغ بأنه إذا ما طُلب من الخدمات الطبية بعض الأدوية فإنها لا تُرسل في العادة إلا بعض اليود، وسلفات الصودا، وحامض البوريك! وهي لا تفعل ذلك إلا بعد تأخيرٍ شديد. سمح هذا «الشح المؤسف للأمراض التي يسهل السيطرة عليها... أن تقوى وتشتد»[١]. كان سبب ذلك يعود إلى واقع اقتصادي. كانت فرنسا ذاتها أبعد ما تكون عن الحصول على عناية صحية شاملةً. لم تتوافر الموارد اللازمة لإرسال الأطباء واللقاحات إلى القرى المعزولة في داخل السنغال أو الكونغو، لكن الأمر مع ذلك كان مسألة أولويات. كانت مؤسسات الأبحاث الغربية أكثر قلقاً بشأن الأمراض الأكثر تأثيراً في الأوروبيين – وعلى الخصوص الملاريا والحُمّى الصفراء – أكثر من قلقها بشأن الكوليرا ومرض النوم، وهما أكثر الأمراض تسبباً بالوفيات بين الأفارقة.

كانت المهمة الحضارية التي اضطلع بها الفرنسيون في البداية تستند إلى فكرة المواطنة العالمية الثورية. لكن هذه الفكرة تراجعت مع توسع الأمبراطورية الفرنسية. كان بإمكان رعايا أفريقيا الغربية أن يصبحوا مواطنين، أما عملياً فإن عدد الذين عدوا مؤهلين كان قليلاً جداً (كان تعدد الزوجات يُسقط أهلية الحصول على المواطَنة، على سبيل المثال). بلغ عدد المواطنين الفرنسيين خارج التجمعات الساحلية الأربعة ٢,١٣٦ شخصاً فقط من أصل كامل مجموع سكان أفريقيا الغربية الفرنسية البالغ ١٥ مليوناً[٢]. تحوّل الفصل العنصري في التجمعات السكنية إلى سلوكٍ سائد (فصل الأماكن السكنية الأوروبية عن «المدينة» الأفريقية في داكار، على سبيل المثال)، وذلك على أساس أن الأفارقة يحملون الأمراض المعدية. أما التعليم فقد كان

(١) Gide, Travels in the Congo, p. 35.

(٢) Crowder, Senegal, pp. 4ff.

محصوراً بأقلية ضئيلة من «أفراد الطبقة المتوسطة»(١). حاول الفرنسيون ذات مرة تحقيق الاستيعاب العنصري(٢)، لكن العلوم الطبية فرضت الفصل ما بين الأعراق. ترافق ذلك مع الرؤية السائدة بأن «الاختلاط» كان هدفاً أكثر واقعية من الاستيعاب. يعود ذلك إلى حد ما ذهب إليه المنظّر الاستعماري **لويس فانون** أن «التعارض بين مبادئ العام ١٧٨٩، والمحافظة التي يتميّز بها السكان غير الأوروبيين»(٣).

لم تكن الحرب على الأمراض الاستوائية تجري في أطباق بيتري [في المختبرات] فحسب، بل امتدت إلى البلدات والقرى الأفريقية. كانت السلطات الفرنسية سريعة في ردّ فعلها عندما ضرب الطاعون الدبيلي السنغال. أُحرقت منازل المصابين بهذا الداء، ونُقل المصابون بالقوة من أماكنهم كما فُرض عليهم الحجر الصحي تحت الحراسة المسلحة. دُفن الأموات من دون إقامة شعائر لهم في مواد تُستخدم لطلاء الخشب أو وسط الكلس، الأمر الذي يخالف التقاليد الإسلامية. كانت تلك معركة شعر الأفارقة فيها بأنهم ضحايا أكثر من كونهم مستفيدين. دفع هذا الأمر السكان إلى الاحتجاج في داكار، وقاموا بأعمال شغب، وكذلك نفذوا أول إضراب عام في تاريخ السنغال(٤).

استدعت أولويات العلوم الطبية إجراءات صارمة من أجل استيعاب الوباء. لكن العلوم في تلك الأيام قدمت سبباً جوهرياً مزيفاً لمعاملة الأفارقة بطريقة شرسة. كان هؤلاء على جهلٍ تام بالعلوم الطبية، وكانوا أعراقاً دنيا بحسب تصنيفات علماء تحسين الأنسال [الانتخاب]. لكن ما يسمى علم الانتخاب [الزائف]، وهو الأخ الصامت غير الشقيق لعلم البكتيريا، لم يكن تأثيره أقوى مما هو في الأمبراطورية الألمانية المتنامية بسرعة.

(١) Yansané, 'Impact of France', p. 350; Gifford and Louis, France and Britain, p. 697.

(٢) Betts, 'Establishment of the Medina'; Cruise O'Brien, White Society, p. 54. Cf. Smith, Vietnam, pp. 88f.

(٣) Cohen, Rulers of Empire, p. 49. Cf. Betts, Assimilation and Association, pp. 64, 152.

(٤) Echenberg, Black Death.

جماجم جزيرة القرش

كانت ألمانيا في طليعة الحضارة الغربية عند بزوغ شمس القرن العشرين. حاز الأساتذة الجامعيون الألمان حصة الأسد من جوائز نوبل للعلوم: ٣٣ بالمئة من مجموع الجوائز الممنوحة ما بين العامين ١٩٠١ و١٩١٠، كما حازوا ما نسبته ٢٩ بالمئة في العقد التالي من السنين. قادت الجامعات الألمانية العالم في ميدان الكيمياء والكيمياء الحيوية. توافد المتخرجون الطموحون من كل أنحاء أوروبا إلى غوتنجن، وهيدلبيرغ، وتوبنجن، ووقفوا أمام عمالقة العلم الألماني. برز روبرت كوخ بعد باستور بصفته القوة الرائدة في علم البكتيريا. برز كذلك عالم ألماني آخر، وهو إميل فون بيرينغ الذي كان أحد مكتشفي مضادات التيتانوس [الكزاز]، والدفتيريا [الخناق]، كما نال على عمله هذا جائزتي نوبل والصليب الحديدي. تمكّن عالمان ألمانيان آخران، وهما فريتز شوادين، وإيريك هوفمان، من التعرّف إلى spirochete pallida [الملتويات الصفارية] بصفتها مسببة مرض السفلس، كما أن عالماً ألمانياً ثالثاً، وهو بول إيرليخ كان واحداً من مخترعي السالفرسان، وهو أول علاجٍ فعالٍ لذلك المرض.

كان ثمة جانب آخر لذلك النجاح العلمي الاستثنائي. تخفى وراء هذا العلم الحقيقي علم زائف، وهو الذي أكّد أن الجنس البشري ليس نوعاً واحداً متجانساً بطريقة أو بأخرى، لكنه مقسمٌ ومصنّفٌ من «الجنس الآري الراقي» نزولاً إلى الجنس الأسود، الذي لا يستأهل أن يصنّف مع الهوموسابيان [البشر]. أيوجد مكان لاختبار تلك النظريات أفضل من المستعمرات التي كسبتها ألمانيا حديثاً في أفريقيا؟ كانت أفريقيا على وشك أن تصبح نوعاً آخر من المختبرات – لكن المختبر هذه المرة كان من أجل البيولوجيا العرقية.

كانت لكل دولةٍ أوروبية طريقتها المميزة في الصراع على أفريقيا. سبق لنا أن رأينا كيف أن الفرنسيين فضّلوا السكك الحديد والمراكز الصحية. أما البريطانيون

فقد قاموا بما هو أكثر من التنقيب عن الذهب والبحث عن الوديان، أي إنهم شيدوا مدارس الإرساليات. حوّل البلجيكيون الكونغو إلى دولة عبيدٍ كبيرة، بينما لم يبذل البرتغاليون كبير جهدٍ في أي شيء. كان الألمان آخر من انضم إلى الحفل. كان استعمار أفريقيا بالنسبة إليهم حقل تجارب كبيراً بالإضافة إلى الأمور الأخرى مثل التجريب في نظرية الأعراق. كانت القوى الاستعمارية التي سبقت الألمان تستند إلى مفهوم التفوّق الفطري. تقول نظرية «الداروينية الاجتماعية» إن الأفريقيين هم جنس أدنى من الناحية البيولوجية، الأمر الذي يشكّل عقبة كبيرة أمام تقدم أفريقيا على يد «الآريين» البيض الأكثر تقدماً. لكن لم يُقدم أحد على تحويل تلك النظرية إلى ممارسة استعمارية بطريقة أكثر شراسة من الألمان في جنوب غربي أفريقيا، وهي البلاد التي تُدعى ناميبيا هذه الأيام.

وضع الألمان أيديهم على شواطئ جنوب غربي أفريقيا الكئيبة لأول مرة في العام ١٨٨٤. عُيّن هنريتش إرنست غورنغ، وهو والد هيرمان الذي يفوقه شهرة، مفوّضاً للرايخ. توضحت أكثر النيات الألمانية في الوقت الذي عُيّن تيودور ليوتفين أول حاكم للمستعمرة في العام ١٨٩٣: تهجير المواطنين **الهيريرو والناما**، وإسكان المزارعينً الألمان في أراضيهم. كانت تلك هي السياسة التي دعا إليها بول فون روورباخ في كتابه المؤثر **الاقتصادات الاستعمارية الألمانية** (١٩٠٧)[١]. بدا ذلك المشروع شرعياً من الناحية القانونية في ذلك الوقت بمثل ما كانت الحملة الأوروبية المستمرة ضد الأمراض الاستوائية.

حضر فرنسيس غالتون، وهو قريب تشارلز داروين، في العام ١٨٥١ إلى هذه البلاد القاحلة لكن الجميلة، وكان تحت رعاية الجمعية الجغرافية الملكية. قال غالتون لدى عودته إلى لندن: إنه رأى « من الأعراق المتوحشة ما يكفي لإقناعي بالتفكير في ما تبقى من حياتي». كان من شأن ملاحظات غالتون عن **الهيريرو والناما** إغناء تفكيره بشأن التطور الإنساني. كان عمل غالتون عن الوراثة البشرية anthropometric هو

(١) Rohrbach, Deutsche Kolonialwirtschaft, vol. 1, pp. 330–33. Cf. Steer, Judgment, p. 61.

الذي أرسى أساس النظام الذي سمّاه «الانتخاب الوراثي eugenics» – استخدام التناسل الاختياري من أجل تحسين مخزون الجينات الوراثية البشرية (*). كان ذلك هو الحل الأمثل لمشكلة الصحة العامة: التوصل إلى بشرٍ متفوقين ينتمون إلى جنسٍ متفوق يتناسل بشكلٍ يتحمل هجمات مسببات الأمراض. كانت النقطة الحاسمة هنا هي ملاحظة أنه قبل مئة عام كانت أعمال غالتون هي أحدث ما في العلم. لم يكن التمييز العرقي عقيدة رجعية من الماضي، كما أن غير المثقفين علمياً تبنّوها بالحماسة ذاتها التي يتقبل فيها الناس الآن نظرية التسخن العالمي الناتج من الأنشطة البشرية. أما في النصف الثاني من القرن العشرين فإن نظرية الانتقاء [أو الانتخاب] العرقي eugenics ومفهوم «الصحة العرقية» المترافق معها قد استُبعدا أخيراً مع إدراك أن الفروق الوراثية بين الأعراق هي ضئيلة نسبياً، كما أن التنوعات داخل العرق الواحد كبيرة جداً.

لم يكن أي شخص تقريباً قبل قرنٍ من الزمان يشك أن البيض يتفوقون على السود. أقصد هنا أي شخصٍ أبيض. كانت النظرية العرقية [العنصرية] تبرّر عدم المساواة الصارخة من ذلك النوع الذي أصبح قانونياً فيما بعد في الجنوب الأميركي عبر صيغة التفرقة العنصرية، وكذلك في جنوب أفريقيا عبر صيغة الفصل العنصري. أما في منطقة جنوب غربي أفريقيا الألمانية فقد كان محظوراً فيها على السود ركوب الخيل، وكان عليهم تحية البيض، ولم يتمكّنوا من السير على الطرقات المخصصة للمشي، ولم يكن بوسعهم امتلاك الدراجات الهوائية، أو الذهاب إلى المكتبات. أما في المحاكم البدائية في تلك المستعمرة فكانت شهادة رجلٍ ألماني تعادل شهادات سبعة من الأفارقة. كان المستوطنون يعاقَبون بدفع غرامات على جرائم كان الأفارقة يُشنقون لأجلها من دون تأخير. علّق أحد المبشّرين بالقول: «ينظر الألماني العادي

(*) كتب غالتون في وقتٍ لاحق من حياته رواية سماها Kantsaywhere، تصور يوتوبيا نظرية الانتقاء العرقي، وهي النظرية التي تفرض على الفرد الخضوع لاختبار أداء قبل البدء بعملية التناسل، حيث «تُعد مسألة توليد الأطفال من قِبل غير الأكفاء... جريمة ضد الدولة».

إلى السكان المحليين على أنهم من مستوى الفقاريات العليا ذاتها (كانت كلمة بابون [القرود] هي الكلمة المفضّلة لديهم لوصف السكان الأصليين) ويعاملهم مثل الحيوانات»[١]. شدد البريطانيون والفرنسيون على إلغاء العبودية في خلال القرن التاسع عشر. أما الألمان فلم يفعلوا ذلك[٢].

بقيت مشكلة صغيرة واحدة مع ذلك. لم يكن **الهيريرو والناما** المخلوقات التي تشبه الأطفال في النظرية العرقية. كان الهيريرو رعاة ماشية من الطراز الأول، وكانوا ماهرين في المحافظة على ماشيتهم في المراعي الشاسعة التي تمتد ما بين صحارى ناميبيا وكالاهاري. كان الناما مهاجمين من الطراز الأول، وكانوا ماهرين في ركوب الخيل والرماية كالبوير القاطنين في الشرق[٣]. شهد **الناما** ما قام به الهولنديون والبريطانيون في جنوب أفريقيا، وهكذا عرفوا جيداً نيات الألمان. أما الأوضاع الاقتصادية لشعب الهيريرو فقد ضعفت كثيراً عند بداية القرن بسبب الأمراض التي فتكت بماشيتهم. استمرت نتيجة لذلك عمليات بيع الأراضي للألمان التي كانت بدأت قبل ذلك الوقت. تصاعد التوتر كذلك ما بين الهيريرو والتجار الألمان الذين استخدموا طرائق لجمع ديونهم كانت أبعد ما تكون عن الليونة[٤]. لكن الهيريرو قاوموا ذلك النوع من السلب الصريح، وخصوصاً بعد سلسلة من أعمال العنف الشنيعة، التي تضمّنت القتل (ومحاولات الاغتصاب) التي قام بها مستوطن ألماني لإحدى زوجات أبناء زعيمهم[٥].

كانت عملية التزوير، التي قام بها أحد المسؤولين الشبان لتواقيع المسنّين من **الهيريرو** على وثائق رسم حدود محميات جديدة للسكان المحليين، هي التي أشعلت فتيل الحرب[٦]. ثار **الهيريرو** بقيادة **صموئيل ماهاريرو** في ١٢ كانون الثاني

---

(١) Madley, 'Patterns', p. 169.

(٢) Deutsch, Emancipation without Abolition.

(٣) Steer, Judgment, pp. 55ff.

(٤) Seiner, Bergtouren, pp. 267–78.

(٥) Olusoga and Erichsen, Kaiser's Holocaust, p. 118.

(٦) Gewald, Herero Heroes, pp. 146ff.

من العام ١٩٠٤، وقتلوا كل رجل ألماني أمكنهم الوصول إليه في المنطقة المحيطة بأوكاهاندجا، لكنهم تعمدوا الإبقاء على حياة النساء والأطفال. قُتل في هذه العملية ما يزيد على مئة مستوطن[١]. ردّ القيصر الألماني وليام الثاني على هذه العملية بأن أرسل الجنرال أدريان ديتريتش **لوثار فون تروثا** مزوداً تعليمات من أجل «استرجاع النظام... بكل الوسائل الضرورية». استخدم الرجل أشد الوسائل فتكاً مما كان بين يديه.

تجاوز المنظّرون الاستعماريون من الألمان نظراءهم من الفرنسيين أو البريطانيين، وذلك عندما تحدثوا عن الحاجة إلى «الاستئصال الحقيقي للقبائل [سكان البلاد الأصليين] غير الأكفاء ثقافياً والعدوانيين». صمّم **تروثا** على وضع هذه النظرية قيد التطبيق باستخدام «أقصى درجات الترويع» من أجل «القضاء على القبائل المتمردة، وإسالة أنهار من الدماء»[٢]. أوضح **تروثا** مفاعيل النظرية العنصرية الألمانية عندما توضع موضع التنفيذ، وذلك في مرسومٍ مرعبٍ له أرسله إلى الهيريرو بلغة Otjiherero البدائية:

أنا قائد [جنرال] الألمان العظيم. أبلغكم أيها **الهيريرو**، بأن الهيريرو لم يعودوا تحت الألمان [أي إنهم لم يعودوا من الرعايا الألمان]... عليكم أيها الهيريرو أن تغادروا هذه الأرض، لأنها ملك الألمان. أما إذا لم تفعلوا ذلك فإنني سوف أزيلكم عنها بقوة المدفع الكبير. إن أي شخص يوجد في الأراضي الألمانية سوف يُقتل برصاص البندقية. لا أعتزم الإمساك بالنساء أو المرضى لكنني سألاحقهم إلى عند زعمائهم أو سأقتلهم بالبندقية.

هذه هي كلماتي إلى شعب الهيريرو.

القائد العظيم للقيصر الألماني العظيم.

---

(١) Rust, Krieg und Frieden, pp. 6–15; Anon., Rheinische Mission, pp. 10–16; Leutwein, Elf Jahre Gouverneur, pp. 466–7; Kuhlmann, Auf Adlers Flügeln, pp. 42f.

(٢) Olusoga and Erichsen, Kaiser's Holocaust, p. 139.

تروثا[1]

لم تكن معركة **هاماكاري** التي وقعت قرب **هضبة واتربيرغ** في ١١ آب من العام ١٩٠٤ معركة بالمعنى الصحيح. كانت مجزرة بكل معنى الكلمة. تجمع **الهيريرو** في مخيّم كبير، وهم الذين كانوا يتوقعون إجراء مفاوضات السلام بعد أن ودعوا قوة ألمانية قبل ذلك بوقتٍ قصير. حاصرهم **تروثا** بدلاً من مفاوضتهم، وأطلق عليهم حملة قصفٍ مميتة ثم تقدم ليحصد الرجال، والنساء، والأطفال مستخدماً بنادق مكسيم. هرب الناجون إلى صحراء أوماهيكي القاحلة، فلقوا بذلك «هلاكهم» بحسب قوله، وكان ذلك مقصوداً. كانت برك المياه المتناثرة على حواف الصحراء محروسةً بعناية. أورد التقرير الرسمي الذي أصدره رئيس أركان جيش جنوب غربي أفريقيا: «يجب على أوماهيكي الخالية من المياه أن تنهي ما بدأته البنادق الألمانية: إبادة شعب الهيريرو». كان تروثا صريحاً بشكلٍ مماثل: «أعتقد أن أمة كهذه تستحق الإبادة»[2].

لم يعتمد الألمان على الصحراء فقط. كان أفراد الهيريرو الذين لم يشاركوا في التمرد يلاحقون من قِبل «دوريات تطهير» تابعة للمستوطنين Schutztruppen، وهي الدوريات التي كان شعارها «نظفوا. اشنقوا، وأطلقوا الرصاص حتى ينتهوا جميعهم»[3]. أما أولئك الذين لم يقتلوا على الفور، ومعظمهم من النساء والأطفال فقد احتُجزوا في خمسة معسكرات اعتقال. انضمت إليهم بعد ذلك عشائر الناما الذين كرروا الغلطة ذاتها بعد أن انضموا إلى الثورة على الألمان، كما ارتكبوا غلطة أكبر عندما سلّموا أسلحتهم مقابل ضمانات المحافظة على حياتهم. اختلفت معسكرات الاعتقال هذه عن تلك التي أقامها البريطانيون في جنوب أفريقيا في أثناء حرب

(١) Full text in Gewald, 'Great General', p. 68.

(٢) Zimmerer, 'First Genocide', p. 37.

(٣) Gewald, Herero Heroes, p. 173. For a contemporary German account, Bayer, Mit dem Hauptquartier, pp. 161–7.

البوير. استمرت هناك حرب العصابات بغية إثارة الاضطرابات في خطوط البوير. كانت أعداد الوفيات الضخمة نتيجة غير مقصودة لحالة تصريف المياه المبتذلة المريعة. أما في جنوب غربي أفريقيا الألمانية فقد انتهت الحرب وكان المقصود من معسكرات الاعتقال أن تكون معسكرات الموت. أما أشهر هذه المعتقلات سيئة السمعة فكانت جزيرة القرش [شارك آيلندن] التي تقع بالقرب من لودريتز.

أقيم ذلك المعسكر على أقصى طرف الجزيرة كي يكون أكثر عرضة للرياح. حُرم السجناء من مساكن مناسبة، ومن الملابس، ومن الطعام، كما أجبروا على بناء أرصفة وهم واقفون ومغمورون بالمياه الباردة حتى خصورهم. أما الذين كانوا يتردّدون في القيام بعملهم هذا فقد كانوا يُجلدون بسياط الحراس المصنوعة من جلود الحيوانات. زار أحد المبشّرين، ويُدعى أوغست كولمان، الجزيرة في أيلول من العام ١٩٠٥. صُعق الرجل عندما رأى امرأة منهكة وهي تتعرض لإطلاق الرصاص على فخذها حتى ماتت لا لسبب إلا لأنها كانت تزحف بحثاً عن الماء. مات في الفترة ما بين أيلول من العام ١٩٠٦ وآذار من العام ١٩٠٧ ما مجموعه ١,٣٢ من أصل ١,٧٩٥ من السجناء الذين كانوا في جزيرة القرش. اقتربت نسبة الوفيات من ٨٠ بالمئة. وصل عدد الهيريرو قبل التمرد إلى ٨٠,٠٠٠، لكن بعد التمرد لم يبقَ منهم على قيد الحياة سوى ١٥,٠٠٠ شخص. وصل عدد شعب الناما عند إجراء الإحصاء الرسمي في العام ١٩١١ إلى أقل من ١٠,٠٠٠ شخص من أصل ٢٠,٠٠٠ شخص. لم يتمكن من النجاة في المعسكرات سوى واحدٍ من أصل عشرة سجناء. أما بعد مصادرة كل أراضي الهيريرو والناما بموجب المرسوم الأمبراطوري الذي صدر في كانون الأول من العام ١٩٠٥، فقد زاد عدد المستوطنين الألمان بنسبة ثلاثة أضعاف ليصل إلى نحو ١٥,٠٠٠ شخص في العام ١٩١٣. أما الهيريرو والناما الذين نجوا من المجزرة فقد كانت أوضاعهم أفضل بقليل من العمال العبيد، وكانوا معرضين لعقوباتٍ جسدية قاسية عند قيامهم بأبسط أنواع التمرد[1].

(١) Drechsler, Südwestafrika unter deutscher Kolonialherrschaft, pp. 251–79. Cf. Olusoga and Erichsen, Kaiser's Holocaust, p. 235.

لم تقف معاناة شعوب جنوب غربي أفريقيا الأصليين عند ذلك الحد. بدا الأمر وكأن إبادة معظمهم لم تكن كافية فأقدم الألمان على تعريض شعوب الهيريرو والناما لتجارب إضافية تحت اسم «التنظيف العرقي». أجرى طبيب واحد على الأقل تجارب مميتة على سجناء معسكرات الاعتقال في جنوب غربي أفريقيا. أما في العام ١٩٠٦ فقد أُجريت ٧٧٦ عملية تشريح للسجناء من أجل ما سمي أبحاث بيولوجيا الأعراق. يُضاف إلى ذلك أن نماذج من تلك الجماجم أُرسلت إلى ألمانيا لإجراء أبحاث إضافية. أما الأمر الذي يصعب تصديقه فكان إجبار الإناث من السجناء على تنظيف الجماجم بقطعٍ من الزجاج(١).

كان الدكتور يوجين فيشر أحد العلماء الألمان الذين كانوا مهتمين بهذا الحقل الغامض الجديد من دراسة الأجناس. دُهش فيشر عندما سمع ما يحكى عن عرقٍ مختلطٍ جديد في جنوب غربي أفريقيا، يُدعى Rehoboth Basters. أمضى فيشر شهرين في قياسات ميدانية من الرأس حتى القدمين والتدقيق في سيماء الوجوه. نشر الرجل استنتاجاته في العام ١٩١٣، وأعلنها بوصفها أول محاولة لتطبيق مبادئ الوراثة الجينية التي طوّرها الروسي غريغور مندل. أطلق فيشر عليهم اسم The Bastards، وعدّهم متفوقين عرقياً على الزنوج الأصليين لكنهم أدنى مرتبة من البيض الأصليين. أعطى هذا التصنيف فرصة للأشخاص ذوي العرق المختلط بأداء دورٍ نافع بصفة رجال شرطة للقوى الاستيطانية أو ضباط من المراتب الدنيا. لكنه رأى أنه يجب تجنّب القيام بعمليات إضافية لخلط الأجناس:

نعرف هذا على وجه التأكيد بشكلٍ مطلق: إن أي شعبٍ أوروبي، من دون استثناء... استوعب دماء أعراق أقل قيمة منه - ولا ينكر أحد غير المتطرفين أن السود والهوتنتوت وشعوباً أخرى عديدة هم أقل قيمة [من البيض] - قد دفع ثمن هذا الاستيعاب وسقوطه الروحي والثقافي(٢).

(١) المصدر نفسه، ص٢٢٤.

(٢) Fischer, Rehobother Bastards, pp. 302f.

وُضعت في هذا الوقت مجموعة معقّدة من القوانين ضد تمازج الأجناس في جنوب غربي أفريقيا الألمانية.

لم يتفق الجميع في ألمانيا على هذه القوانين. رفع الاشتراكيون والكاثوليك الألمان أصواتهم احتجاجاً على ما يجري في أفريقيا على يد بلدهم الذي يُفترض أنه حضاري[1]. وصل الأمر مع بول روورباخ، وهو منظّر في شؤون اقتصاد المستعمرات، إلى حد دين سياسة الإبادة التي اتبعها تروثا، وشدد على أن جنوب غربي أفريقيا لا يمكنها الاستمرار من دون العمالة الأفريقية[2]. لكن بقي السؤال المقلق كما هو: هل جنوب غربي أفريقيا هي موقع لمجازر أكبر بوصفها مركز التجارب للمستقبل؟[3] هل الأمر وصل إلى حد ما تحدث عنه كونراد في روايته **قلب الظلام** بأن المسألة هي تحويل أفريقيا الأوروبيين إلى متوحّشين بدلاً من أن يقوم الأوروبيون بجلب الحضارة [تمدين] إلى أفريقيا؟ وأين كان قلب الظلام الحقيقي؟ هل كان في أفريقيا؟ أم كان بين الأوروبيين الذين عاملوها كمختبر لعلم الأعراق الزائف الذي يقف إلى جانب عقيدة الشيوعية بوصفه أخطر ما صدّرته الحضارة الغربية؟[4]

لكن المآسي التي نزلت بالأفارقة كان لا بد أن تجد ثأرها بطريقة فظيعة. كانت النظرية العرقية فكرة شديدة الفتك بحيث تعجز عن الوقوف عند حدود المستعمرات. ما إن أطل القرن الجديد حتى ارتدت هذه الفكرة إلى موطنها في أوروبا. وجب على الحضارة الغربية مواجهة أخطر أعدائها: ذاتها.

لم تكن الحرب التي بدأت في العام ١٩١٤ حرباً بين بضع دولٍ أوروبية متخاصمة. كانت تلك حرباً بين أمبراطوريات العالم. يعني ذلك أنها كانت حرباً داخل الحضارة الغربية. ترافقت تلك الحرب مع أولى العلامات التي تؤشر على أن الغرب يحمل

(١) Eiermann, 'The Good, the Bad, and the Ugly'.

(٢) Rohrbach, Aus Südwest-Afrikas schweren Tagen, pp. 177f.

(٣) For a good overview of a now large literature, see Madley, 'From Africa to Auschwitz'.

(٤) The point is well made in Mazower, Dark Continent.

في داخله بذور خرابه. أطلق الغرب في هذه الحرب، أكثر من أي حربٍ سابقة، اختراعاته الاستثنائية ضد ذاته. قام الاقتصاد الصناعي بمهمة تزويد وسائل التدمير الآلي. أدى الطب الحديث دوره كذلك في تلك الحرب الدموية الشاملة.

لم تكن مشاكل وسائل الاتصال [المواصلات] أكثر خطورة في أي مسارح القتال مما هي في أفريقيا. كان الرجال هم الحل الوحيد في غياب خطوط سكة حديد شاملة وحيوانات أثقال يُعتمد عليها. خدم ما يزيد على مليوني أفريقي في الحرب العالمية الأولى، كما عمل جميعهم تقريباً كحمالين للمؤن، والأسلحة، والجرحى، وبالرغم من أنهم كانوا أبعد ما يكون عن ميادين الفلاندرز، إلا أن هؤلاء المساعدين المنسيين عانوا صعوباتٍ كثيرة تشبه تلك التي تعرض لها الجنود الذين قاتلوا في الخطوط الأمامية في أوروبا. لم يقتصر الأمر على نقصان الأغذية التي تلقوها، وعلى الجهود المضنية التي بذلوها، لكنهم تعرضوا لشتى أنواع الأمراض بعد انتقالهم من أماكن سكناهم التقليدية، الأمر الذي سرى كذلك على أسيادهم من البيض. مات خمس الأفارقة الذين عملوا بصفة حمّالين، وكان عدد كبير منهم ضحايا مرض الزحار الذي أصاب كل الجيوش الاستعمارية في ميادين القتال. أما في شرق أفريقيا فإن ٣,١٥٦ من البيض العاملين في صفوف الجيش البريطاني ماتوا في أثناء تأديتهم واجباتهم. كان أقل من ثلث هؤلاء ضحايا أعمال العدو. يرتفع العدد الإجمالي للخسائر إلى ١٠٠,٠٠٠ إذا ما أضفنا إليهم الجنود والحمّالين السود(١).

رأينا سابقاً كيف أن المبرر المألوف من وراء حكم البيض في أفريقيا كان أنه يجلب فوائد الحضارة إلى تلك القارة. أما الحرب – التي جرت في كل المستعمرات التابعة لألمانيا (توغولاند، الكاميرون، وشرق أفريقيا بالإضافة إلى جنوب أفريقيا) – فأثبتت سخافة ذلك الادعاء. كتب لودفيغ ديبي، وكان طبيباً عمل مع الجيش الألماني في شرق أفريقيا: «إننا نترك وراءنا حقولاً تالفة، ومستودعات منهوبة، ومجاعة للأيام القليلة التالية. لم نعد وكلاء الثقافة والمعرفة لأن الموت قد لطخ

(١) Strachan, First World War in Africa.

مسارنا، وكذلك القرى المنهوبة التي هجرها أهلها، وهو ما حدث مع جيوشنا وجيوش أعدائنا في خلال حرب الثلاثين عاماً»[1].

سيطر الجمود على معظم فترة الحرب العالمية الأولى. اضطر المدافعون إلى التراجع أمام ضغط الفرنسيين والبريطانيين وانسحبوا، بطريقة ما، من مواقعهم المحصّنة في الجبهة الغربية، في حين أن الألمان استفادوا مما أصبح فيما بعد أكبر حصارٍ في التاريخ. حدث جمود مماثل على جبهتي ترينتينو وآيسونزو حيث فشل الإيطاليون في زحزحة النمسويين - الهنغاريين. أما الحرب في الشرق فقد كانت أكثر حركية بكثير، لكن الألمان حازوا هنا، كذلك، تفوقاً بالرغم من أخطاء حلفائهم من آل هابسبورغ. جرت محاولات كثيرة لكسر ذلك الجمود عن طريق فتح جبهات جديدة: غاليبولي، وسالونيكي، وبلاد ما بين النهرين، لكنها جلبت معها نتائج مريعة. لم يظهر في ذلك الوقت أي سلاحٍ حاسم بالطريقة التي أحدثتها القنبلة النووية في وقتٍ لاحق، وذلك بالرغم من استخدام الغازات السامة بشكلٍ واسع، وهي التي جلبت معها نتائج مرعبة لكنها لم تكن حاسمة. تمكّنت الغواصات من عرقلة تجارة الاستيراد البريطانية، لكنها عجزت عن إيقافها تماماً. كان الوضع كئيباً بالنسبة إلى فرنسا مع قدوم ربيع العام ١٩١٧، أي مع استمرار حرب الاستنزاف. أعطى التمرد والثورة اللذان حدثا في روسيا آمال تحقيق النصر لألمانيا في الجبهة الشرقية. أما الولايات المتحدة، وبالرغم من أنها كانت رسمياً في حالة حربٍ مع ألمانيا بدءاً من ٦ نيسان، فلم تقدر على أداء دورٍ عسكريٍ مؤثرٍ في الجبهة الغربية إلا بعد مرور ستة أشهرٍ على الأقل. زاد قلق الحكومة الفرنسية كثيراً حيال النقص في أعداد الرجال بعد أن كابدت خسائر فادحة في معركة فردان (١٩١٦). بدأ تحديد حجوم العائلات [تحديد النسل] في فرنسا قبل غيرها من البلدان، وربما يعود ذلك إلى فهمٍ أفضل لدى النساء الفرنسيات للجنس، بالإضافة إلى توافر وسائل منع الحمل. فسّر ذلك وجود عدد من الشبان الفرنسيين أقل من الشبان الألمان. وصل عدد القتلى، أو

(١) Strachan, To Arms, p. 95.

الأسرى، من الفرنسيين إلى نحو ١,٣ مليون بحلول آذار من العام ١٩١٧. يمكننا القول بالإجمال إن خسائر الفرنسيين الحربية بلغت ضعف خسائر البريطانيين تقريباً. يعني ذلك أن واحداً من كل ثمانية من الفرنسيين الذين تراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والتاسعة والأربعين، قد فقد حياته. كانت ضريبة الدم فادحة بالفعل.

يسهل على المرء نسيان أن فرنسا خسرت حربين من أصل ثلاث حروب ضد ألمانيا، وذلك ما بين العامين ١٨٧٠ و١٩٤٠. بدا الأمر في العام ١٩١٧ وكأنها على وشك أن تخسر الحرب العالمية الأولى كذلك. ما هي الجهة التي تستطيع فرنسا التطلع إليها للمساعدة؟ كانت أفريقيا هي الجواب. سبق لنا أن رأينا أن معظم الأفارقة قد حُرموا الجنسية الفرنسية الكاملة، لكن الرعايا الفرنسيين من الأفارقة عدّوا مؤهلين لحمل السلاح دفاعاً عن الوطن La patrie. عمد الأفريقيون إلى رفض نداء البلد الأم، وهو ما فعلوه في السنغال، والكونغو الفرنسي، والسودان الفرنسي، والداهومي، وساحل العاج. أما مزاج الرأي العام فقد عبّرت عنه إحدى الأمهات، وهي تندب حظها أمام ضابط فرنسي: «لقد أخذتم كل ما أملك، والآن تأخذون ابني الوحيد». شعر معظم الناس بأن التجنيد في الجيش ما هو إلا حكم بالموت المحتم. بدا بلايز ديان أنه الرجل الوحيد القادر على حل هذا الوضع، وهو الذي كان أول أفريقي يحصل على مقعد في الجمعية الوطنية عن طريق الانتخابات. هل كان مستعداً في ذلك الوقت للعودة إلى السنغال بصفته عريف تجنيد محاطاً بالتقدير؟

رأى ديان الفرصة سانحة لعقد صفقة مع رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو. أصرّ الرجل على أن أي رجلٍ أفريقي يحمل السلاح يجب أن يُمنح الجنسية الفرنسية. أضاف إنه ينبغي تشييد مستشفيات ومدارس إضافية في أفريقيا الغربية. أما قدامى المحاربين فيجب استثناؤهم من الضرائب ويجب إعطاؤهم معاشات تقاعدٍ قيّمة. أبرق ديان لزملائه في داكار بضرورة إحباط التجنيد إذا لم تظهر تلك التنازلات التي طالب بها[1].

(١) Conklin, Mission, pp. 146 59.

قال **ديان** في أول خطاب له في الجمعية الوطنية الفرنسية: «إذا كان بإمكاننا المجيئ إلى هنا لإصدار القوانين، فإننا نحن المواطنين الفرنسيين نطالب بحق الخدمة [في الجيش] مثل ما يفعل المواطنون الفرنسيون». كان ذلك نداءً في منتهى الذكاء يوجّه إلى الثورة الفرنسية ونموذجها الأمة المسلحة – أي إن كل مواطن له الحق في الحرية، والمساواة، والإخاء، لكن مع الواجب المهيب لحمل السلاح دفاعاً عن الأمة. أعلن كليمنصو بعد ذلك: «إن أولئك الذين يسقطون في ميدان المعركة لا يسقطون بوصفهم من البيض أو من السود. إنهم يسقطون كفرنسيين وتحت الراية ذاتها»[1].

بدا أن الوعد بمنح الجنسية الفرنسية كان حافزاً في منتهى النجاح. لبّى ما لا يقل عن ٦٣,٠٠٠ من أفريقيا الغربية نداء **ديان**، أي ضعف العدد الذي طلبه الفرنسيون. كان مجموع الرجال الذين شاركوا في الحرب في أوروبا من أفريقيا الغربية الفرنسية، وأفريقيا الاستوائية ١٦٤,٠٠٠ رجل. شكّل ذلك العدد جزءاً هاماً من النصف مليون من القوة التي أُخذت من سائر مستعمرات الأمبراطورية الفرنسية. قال أحد المجندين، ويدعى نديماتي مبايي: «أخبرنا [ديان] أن فرنسا دخلت الحرب مع الألمان». قال كذلك: «أنتم أصدقاء الفرنسيين. وهكذا عندما تصادقون أحداً ما – ويقع في مشكلة – فيجب عليكم أن تساعدوه، ولهذا طلب إليكم الفرنسيون أن تأتوا وتساعدوا في الحرب»[2]. يشعر معظم المتطوعين بالحماسة – بتأكيدهم مدى «سرورهم» بالخدمة، ومدى «سعادتهم» لمشاركتهم في الحرب، ومدى «الفخر» الذي شعروا به لانخراطهم في صفوف الجيش. كان **ديمبا مبوب** من بين المتلهفين على الحرب لأجل فرنسا:

«كنت سعيداً جداً لأنني لم أكن أعرف طبيعة الحرب الفعلية. كان الأمر نوعاً من الفضول. أردت أن أعرف كيف هي الحرب، وشعوري عندما أصبح جندياً... لذلك

(١) Lunn, Memoirs of the Maelstrom, p. 78.

(٢) المرجع نفسه، ص٦٩.

كنت سعيداً [بالتفكير] بأنني سوف أكتشف تجارب جديدة. لكني لم أعرف»[1].

لم يتأخر الرجل قط عن اكتشاف ما يريد معرفته.

اعتقد الضابط المسؤول عنه، وهو الجنرال **تشارلز مانجين** أنه يعرف بعض الأمور عن الأفارقة. شارك الرجل في بعثة مارشان في فاشودا، وكان lieutenant colonel في العام ١٩١٠. جال **مانجين** مع مجموعة من العلماء في أنحاء أوروبا الغربية بغية مضاعفة أعداد المجندين، وكان على علمٍ بآخر ما توصل إليه علم الأعراق. انتهى فريق الاستطلاع من فحص المجندين مستخدمين مجموعةً كاملة من الطرائق العلمية الزائفة. استنتج الفريق أنه بفضل الأنظمة العصبية التي يُفترض أنها لم تتطور بما يكفي بعد، أن الجنود الأفارقة يشعرون بخوفٍ أقل، ويشعرون بألمٍ أقل مما يشعر بهم نظراؤهم الأوروبيون. يعني ذلك أنهم يثبتون أمام النيران بشكلٍ استثنائي. أما في العام ١٩١٧ فقد تمكن من وضع نظريته موضع الاختبار. واجه **مبوب** ورفاقه من المحاربين أفضل الجنود المدربين الذين أنتجهم الغرب: الآلة الحربية التي كان اسمها الجيش الأمبراطوري الألماني.

العار الأسود

واجه **ديمبا** مبوب ورفاقه في قوات المستعمرات الفرنسية في نيسان من العام ١٩١٧ ـ وهي التي كانت جزءاً من الجيش السادس بقيادة الجنرال تشارلز مانجين، والجيش العاشر الذي كان بقيادة الجنرال دينيس دوشان ـ المواقع شديدة التحصين للجيش السابع الألماني الذي كان بقيادة الجنرال هانز فون بوين، وذلك في **شيمين دي دام** [طريق السيدات] والذي سميّ كذلك بعد أن سارت عليه اثنتان من بنات الملك لويس الخامس عشر في القرن الثامن عشر. حارب جنود نابوليون المنسحبون

(١) المرجع نفسه، ص٧١.

في الطريق ذاته ضد الجيوش النمسوية والروسية الغازية. كانت هذه المنطقة مهمة جداً للمواقع الدفاعية الألمانية في الجبهة الغربية.

كان القائد الفرنسي الجنرال روبرت نيفيل واثقاً بأنه سيكون الرجل الذي سيُحرز الاختراق المنتظر منذ وقتٍ طويل في الجبهة الغربية. بنى الفرنسيون ٣٠٠ ميل من خطوط السكة الحديد الجديدة من أجل تموين جيش الهجوم بـ ٨٧٢ حمولة قطار من الذخائر. حُشد ما مجموعه أكثر من مليون رجل استعداداً للهجوم على جبهة يبلغ عرضها خمسين ميلاً. كان يفترض أن تُفلح أيام القصف العديدة في إضعاف قوة الألمان. تقدمت قوات المستعمرات عند الساعة السادسة من ١٦ نيسان نحو التلال التي أصبحت منطقة انهيارات موحلة نتيجة الأمطار والثلج. وضع مانجين السنغاليين في الموجة الأولى من الهجوم. لكن كان لديه، بالتأكيد، دافع كامن في أعماقه: أراد حماية أرواح الفرنسيين. قال lieutent colonel دي بيافر، وهو آمر الكتيبة ٥٨ من مشاة قوات المستعمرات، إن الأفارقة كانوا «أخيراً وقبل كل شيء قوات هجوم رائعة، وسمحوا بإنقاذ حياة الجنود البيض الذين يستغلون نجاحاتهم وينظمون المواقع التي يقهرونها»[1].

أما من جهة الخنادق الألمانية، فقد راقب النقيب رينهولد آيشاكر برعب:

إن الزنوج السنغاليين السود، هم نعاج فرنسا الجاهزة للذبح. رأيت مئات العيون المحاربة، والثابتة، والمهددة، والمميتة. أتوا بعد ذلك فرادى في البداية وعلى فتراتٍ متباعدة. تحسّسوا طريقهم مثل أذرع أسماك الحبار المميتة. إنها أذرع متلهفة، وجشعة، مثل مخالب وحش جبّار. اندفعوا هكذا مقتربين منا، مومضين ومختفين في بعض الأحيان في جماعتهم. إنهم رجال أقوياء وشرسون يُظهرون أسنانهم الباسمة [المكشّرة] مثل النمور. يا لعيونهم المريعة والمفتوحة الواسعة بصورةٍ غير طبيعية، والمتوهجة والمحتقنة.

(١) المرجع نفسه، ص١٣٩.

تقدموا نحونا بصلابة مثل جدارٍ أسود يتقدم بثبات، مرتفعاً وهابطاً، مترنحاً heaving، وغير قابلٍ للاختراق، ولا ينتهي.

ترددت أوامري حادةً وواضحة: « لتكن صفوفكم متراصة! أطلقوا الرصاص بصورة إفرادية! صوّبوا جيداً على أهدافكم!»

سقط أوائل السود في أثناء اندفاعهم متقدمين نحو أسلاكنا الشائكة. سقطوا مترنّحين مثلما يفعل المهرّجون في السيرك. هلكت مجموعات بأسرها. رأيت أجساداً مقطعة ومشوهة، وأرضاً دبقة، وصخوراً مهشّمة، واختلط كل شيء بفوضوية. توقفت تلك السحابة الدكناء، وارتعشت، ورصّت صفوفها، واقتربت منا أكثر فأكثر. بدت وكأنها لا تقاوم، وكانت ساحقة، ومدمرة!

اندفع جدار من رصاصٍ وحديد على المهاجمين والأسلاك الشائكة القابعة أمام تحصيناتنا. سُمع دويٍ يصمّ الآذان، وسُمعت أصوات تصدّع وقصف، ودفع بكل شيئ إلى الأرض بصخب يكاد يصدّع الأسماع والأعصاب. أحاطت رشاشاتنا بالسود من الجانبين!

غمرت [رشاشاتنا] الرجال مثل يدٍ غير مرئية وأسقطتهم أرضاً، وأمعنت فيهم تمزيقاً! ماتوا فرادى، وطوابير وصفوفاً، وتكوّموا كوَماً، وهكذا سقط السود. سقطوا الواحد إلى جانب الآخر، والواحد خلف الآخر، والواحد فوق الآخر[1].

أما حقيقة الأمر فهي أن الألمان تمكّنوا من الحصول قبل المعركة على خططٍ مفصّلة عن الهجوم من أحد الأسرى العسكريين الفرنسيين. كان الألمان محميين جيداً من القصف الفرنسي عن طريق مجموعةٍ من المتاريس التي تُعرف باسم **مغارة التنين**، والتي استخدموها للوقاية من القنابل. كان الألمان مستعدين بأحدث طراز من البنادق الرشاشة عندما بدأ تقدم المشاة. كابدت القوات المهاجمة ٤٠,٠٠٠ إصابة في اليوم الأول وحده. أما في يوم ١٠ أيار فكان خُمس الجنود الفرنسيين إما

(١) Eichacker, 'Blacks Attack!'.

قتلى وإما جرحى. أما بالنسبة إلى **ديمبا مبوب**، الذي أصابته شظية تسببت بإعاقته، فكان ذلك اليوم كشفاً واضحاً للواقع غير الحضاري للأوروبيين في أوقات الحرب الشاملة. خاب أمل الأفارقة إلى حد دفع بعضهم إلى الانضمام إلى التمرد الواسع الذي اكتسح صفوف الفرنسيين وأجبر الحكومة على استبدال نيفيل. أما في شهر آب فإن ٢٠٠ رجل من الكتيبة ٦١ من المحاربين السنغاليين، الذين يُعرفون باسم كتيبة مالافوس، وبعد أن تبعوا القائد المسؤول عنهم – رفضوا أخذ مواقعهم على طول **طريق السيدات** ـ لخّص أحدهم الوضع بالقول: «لا تحمل كتيبة مالافوس أي خير. إننا لا نجد راحة، وهي تقاتل بشكل دائم، وتقتل السود على الدوام»[1]. حوكم عدد كبير من المتمردين محاكمة عسكرية، كما حُكم على أربعة منهم بالموت، وإن كان لم ينفذ أي حكم فعلياً.

اعترض **بلايز ديان** على الهدر المفرط في استخدام مواطنيه، لكنه سرعان ما عاد إلى السنغال بحثاً عن مجندين جدد. تسلّح هذه المرة بتأكيدات بأن القتال هذه المرة لا يعني الحصول على الجنسية فقط، بل إن الأمر يشمل الحصول على «صليب الحرب». أما في ١٨ شباط من العام ١٩١٨، فقد دافع كليمنصو عن استئناف التجنيد في الخدمة العسكرية أمام مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ، كما أوضح لهم طبيعة نظرة الفرنسيين إلى السنغاليين:

إنني أكن احتراماً لا حدود له لهؤلاء السود الشجعان، إلا أنني أفضّل أن أشهد موت عشرة من السود على أن أطيق رؤية فرنسي واحد، وذلك لأنني أعتقد أنه قُتل ما يكفي من الفرنسيين، وأنه أصبح من الضروري أن نقلل من التضحية بهم ما أمكننا ذلك[2].

قُتل ما يزيد على **٣٣,٠٠٠** من مواطني أفريقيا الغربية، أي مات واحد من كل خمسة من الذين جُنّدوا. أما عدد ما يقابلهم من القتلى في صفوف الفرنسيين فقد

(١) Smith et al., France and the Great War, p. 128.

(٢) Lunn, Memoirs of the Maelstrom, p. 140.

كان أقل من ١٧ بالمئة. كانت نسبة القتلى بين صفوف الهنود من رعايا بريطانيا هي نصف عدد القتلى من المملكة المتحدة[١].

الحرب هي الجحيم. لكن عندما زار روديارد كيبلينغ، وهو شاعر الأمبراطورية، القسم الفرنسي من الجبهة الغربية من العام ١٩١٥ - وذلك قبل وقتٍ قصير من موت ابنه في معركة لووس - أدرك حقيقة الحرب الكبيرة من أجل الحضارة:

قال [أحد] الضباط: «إنه العمل ذاته. العمل ذاته على الدوام! ويُمكن للمرء أن يمشي من هنا إلى البحر أو إلى سويسرا في ذلك الخندق - وسوف تجد العمل ذاته يجري في كل مكان. لم يكن ذلك [هو مفهومنا عن] الحرب».

قال آخر: «إنها أفضل من ذلك. إنها تلتهم الناس. إنهم يأتون ويملأون الخنادق، ويموتون، ويموتون، لكنهم يرسلون المزيد ويموتون بدورهم. إننا نفعل الأمر ذاته بطبيعة الحال، لكن - أنظروا!».

أشار إلى [المغفلين] smoke-heads الذين يجددون أنفسهم فوق ذلك الشاطئ الكالح. «هذه هي جبهة الحضارة. تقف كل الحضارات ضدهم - قساة القلوب أولئك [يعني الألمان]. إننا لا نسعى وراء إحراز الانتصارات المحلية من وراء الحروب القديمة. إنهم البرابرة - كل البرابرة [كذا]. والآن، رأيتم الأمر برمته في هذه الأسطر القليلة»[٢].

يُمكن للحرب أن تكون، بالرغم من كل ذلك، قاطرة التقدم البشري. سبق لنا أن رأينا أن التقدّم المدهش الذي سجّلته الثورة العلمية قد عزّزته الصراعات المستمرة للدول الأوروبية. يصدق الأمر ذاته على صراع الأمبراطوريات ما بين العامين ١٩١٤ و١٩١٨. كانت المجزرة التي حدثت في الجبهة الغربية بمنزلة مختبر كبيرٍ ومرعب للعلوم الطبية، الأمر الذي أسفر عن تقدّم مهمٍ في الجراحة، هذا إذا لم نذكر شيئاً عن

---

(١) Winter, Great War, p. 75; Beckett and Simpson (eds.), Nation in Arms, p. 11.

(٢) Kipling, 'France at War', pp. 341f.

الطب النفسي. ابتُكر في هذه الفترة زرع الجلد، وتنظيف الجروح، كما جرت أولى المحاولات لنقل الدم. تلقى الجنود البريطانيون في هذه الفترة كذلك لقاحات ضد التيفوئيد، كما تلقى الجرحى من الجنود جرعات منتظمة ضد الكزاز[1].

لا يعني ذلك أن هذا التقدم قد ساعد المحاربين، فهم إذا لم يُقتلوا في الخنادق فكانوا يموتون بأعداد كبيرة بسبب التهاب الرئة. لكن، ماذا كان السبب؟ قال الأطباء الفرنسيون إن السبب يعود إلى قابليتهم العرقية للأمراض.

جاء الأوروبيون إلى أفريقيا وزعموا أنهم يعتزمون جلب الحضارة إليها. لكن الأوروبيين فشلوا في ذلك، حتى أن الفرنسيين، بالرغم من نياتهم الطيبة، فشلوا في زرع ما يتجاوز صيغة محدودة جداً من الحضارة الفرنسية هناك. أما في أماكن أخرى، فإن التحديات التي فرضتها الطبيعة القاسية، ومقاومة القبائل قد أثّرت أشدّ التأثير في الأوروبيين، وظهر ذلك أكثر ما يكون في المستعمرات الألمانية لكنها لم تنحصر فيها. أما طرائق الحرب الشاملة فقد تم تجريبها أولاً على أمثال الهيريرو، وما لبثت أن استوردت إلى أوروبا، وأضيفت إليها العواقب المدمّرة للجيل التالي من الأسلحة التي طلعت بها الصناعة. حدث تطور مفاجئ مرير ثانٍ عندما استُدرج الأفارقة إلى أوروبا ليسقطوا على مذبح أكثر الهجمات غباوة في تاريخ الحرب.

كانت تركة الحرب ثقيلة جداً في أفريقيا مثلما كانت في أوروبا. قاد الجنرال بول إميل فون ليتوف- فوربيك، الذي أدى دوراً في المجزرة التي جرت ضد الهيريرو، الحملة ضد القوات البريطانية في شرق أفريقيا. عاد الجنرال ليتوف- فوربيك إلى ألمانيا مع نهاية الحرب، لكن لم يطل الأمر به وبرفاقه قبل العودة إلى القتال مجدداً. ما إن بدأت الثورة في بلادهم حتى زحفوا إلى هامبورغ من أجل القضاء على إمكانية إقامة جمهورية سوفياتية ألمانية. اشتدت الحرب الأهلية ليس في المدن

(١) See in general McCullum, Military Medicine.

الألمانية الكبرى فحسب، ولكن بمحاذاة الحدود الشرقية لألمانيا حيث شن من يسمّون Freikorps، الذين كانوا بقيادة محاربين مخضرمين من أمثال فرانز كزافيير ريتر فون إيب وهيرمان إيرهارد، الحرب على القوميين البولشفيك والسلاف، وكأنهم كانوا من القبائل الأفريقية التي تشبهوا بها في كل شيء ما عدا لون بشرتها. يُذكر أن الأمر كان سهلاً على إيب وإيرهارد لأن الرجلين كانا ضابطين في الحروب ضد الهيريرو والناما[1].

انتهى منظّر علم الأعراق يوجين فيشر في الجهة الخاسرة، لكن الحرب العالمية الأولى كانت مثمرة لميدان الدراسة التي اختارها. ما إن دخل جنود المستعمرات معسكرات أسرى الحرب الألمانية حتى وجد فيها خبراء علم الأعراق مثل أوتو ريش ما يكفيهم من عِيَنٍ جديدة[2]. برز مدير الكتاب الذي ألّفه فيشر بالاشتراك مع إروين بور وفريتز لينس، والذي كان عنوانه **الوراثة البشرية والنظافة العرقية**، ونُشر في العام ١٩٢١، وسرعان ما أصبح العمل المعياري في ميدان الدراسة الآخذ بالتوسع بسرعة أي ميدان علم تحسين الأنسال [الانتقاء العرقي]. رأى هتلر أن أفكاراً قليلة تفوق في الرعب فكرة قيام الجنود السنغاليين الذين تمركزوا في بلاد الراين بعد الحرب بتلقيح النساء الألمانيات. كانت تلك الظاهرة هي «العار الأسود» سيئ السمعة الذي أنتج «لقطاء bastards بلاد الراين»– وكانت دليلاً جديداً على وجود مؤامرة لتلويث دماء العرق الآري. لم يطل الأمر حتى أصبح فيشر مدير **معهد قيصر وليام** الجديد لعلم الأجناس البشرية، والوراثة البشرية، وعلم تحسين الأجناس، وهو المعهد الذي أُسّس في برلين في العام ١٩٢٧، وهذا ما يفسر تأثير فيشر الواسع والمؤذي. عمل بعد ذلك كواحد من العلماء الذين عملوا بموجب تفويض الغستابو الخاص الرقم ٣، الذي يقضي بالتعقيم الإجباري «للقطاء بلاد الراين». كان جوزف مينغيل من بين

(١) Olusoga and Erichsen, Kaiser's Holocaust, pp. 284f.

(٢) Evans, 'Anthropology at War'.

تلاميذه، وهو الذي اشتُهر بمسؤوليته عن التجارب غير الإنسانية التي أُجريت على الأسرى في أوشيفيتز[1].

أما بالنسبة إلى العدد الكبير من جنود المستعمرات السابقين الذين انضموا إلى صفوف الحزب النازي - زوّدت أزياؤهم القديمة SA أولى قمصانهم البنية اللون - فقد كان من الطبيعي تماماً أن تُنقل النظريات التي وُلدت في معسكرات الاعتقال إلى المناطق التي استعمرها النازيون في شرق أوروبا، وأن تُنقل السياسات العنصرية الإجرامية التي انتهت إلى تنفيذ الهولوكوست. لم يكن من قبيل المصادفات أن يكون الرايخ مارشال المسؤول عن Luftwaffe هو ابن مفوض الرايخ في جنوب غربي أفريقيا. لم يكن من المصادفات كذلك أن يكون **هانز غريم**، وهو مؤلف كتاب **شعب من دون مجال** (١٩٢٦)، قد أمضى أربع عشرة سنة في جنوب أفريقيا. لم يكن من قبيل المصادفات كذلك أن يعيّن رجلٌ يدعى هتلر بصفة الحاكم الإقليمي في بوسين في العام ١٩٣٩، وكان فيكتور بوتشر يعمل في قسم الخدمة المدنية في الكاميرون الألمانية. كان الرجل واحداً من الموظفين النازيين الكثر الذين سعوا إلى «أن يفعلوا الآن في شرق الرايخ العمل البنّاء الذي قاموا به ذات مرة في أفريقيا». أراد النازيون دائماً عدّ المناطق التي ضمّوها في شرق أوروبا «من وجهة نظر استعمارية» «مستغلة اقتصادياً بالطرائق الاستعمارية»[2].

إن الفرق الرئيس الذي أدهش المعاصرين هو أن يكون المستعمَرون في شرق أوروبا من لون المستعمِرين ذاته. كتب يوجين إيردلي، وهو من أوائل الذين علّقوا على الحكم الإمبريالي الألماني: «لم يسبق لأمة تنتمي إلى الجنس الأبيض أن خضعت لأوضاعٍ فُرضت عليها». لم يجد النازيون صعوبة في ذلك. يعود ذلك إلى الإبداعات الملتوية التي رافقت نظرياتهم العنصرية. أما بالنسبة إلى هنريتش هيملر،

(١) Madley, 'From Africa to Auschwitz', pp. 453ff. See in general Weindling, Health, Race and German Politics.

(٢) Mazower, Hitler's Empire, pp. 147, 584.

رئيس البوليس السري، فإن الشعوب السلافية هي كلها «من النوع المغولي» الذي يجب أن يُستبدل «بالآريين» من أجل إنشاء «محافظة شقراء» في الشرق. كان الروس مماثلين «للهنود الحمر» بالنسبة إلى هتلر. يمكننا القول إن أوشيفيتز إذا أشر إلى ذروة عنف الدول ضد السكان الذين يُعدون أجانب [غرباء] من الناحية العرقية، فإن الحرب ضد الهيريرو والناما كانت الخطوة الأولى في ذلك الاتجاه.

تُعد بعض الأمبراطوريات أسوأ من غيرها، لكن هذه هي النقطة البسيطة التي يواظب منتقدو الأمبريالية على تجاهلها على الدوام تقريباً. أما إذا أردنا معرفة طريقة عمل الأمبراطورية الفرنسية في فترة الحروب التي جرت داخل القارة، فإن مشاهدة La Croisiere noire قد تكون مفيدة في هذا المجال، وهو فيلم وثائقي صوّرته شركة سيارات سيتروين في العشرينيات من القرن العشرين. أما عندما انطلق جورج– ماري هارد ولويس أودوين – دوبرويل بغية بيع سياراتٍ عسكرية في خلال حملة المركز الأفريقي في سيتروين، وذلك في تشرين الأول من العام ١٩٢٤، فإنهما حاولا بيع ما يتجاوز المزيد من السيارات. حاول الرجلان ترويج دور فرنسا الحميد في أفريقيا، حتى أنهما وصلا إلى «مجاهل الغابة الاستوائية». يُعد الفيلم احتفاءً «بفتوحات الحضارة»، وهو يُظهر مشاهد من «السّحرة البيض» وهم يُدهشون الأفريقيين بمهاراتهم التقنية إلى جانب مشاهد سريعة عن «الأقزام الصغيرة الغريبة». ينتهي الفيلم بمشهد العلم الثلاثي الألوان الذي يرفرف بفخر فوق القارة الأفريقية بأسرها، أي من الجزائر إلى داكار، ومن برازفيل إلى مدغشقر. لم يكن صعباً السخرية من هذا التعبير التقليدي عن التطلعات الإمبريالية الفرنسية[١]. ترافقت تلك التطلعات مع نتائجها الخاصة بها. سبق لنا أن رأينا أن الحكم الاستعماري في السنغال كان مترافقاً مع تحسينات مستمرة في توقعات الحياة وصلت إلى عشر سنوات، أي من ثلاثين سنة إلى أربعين سنة. شهدت كل من الجزائر وتونس تحسيناتٍ نسبية[٢]. كان تحسّن

(١) Levine, 'Film and Colonial Memory'.

(٢) Riley, 'Health Transitions', table 4.

توقيت ووتيرة التحولات الصحية في الأمبراطورية الفرنسية

	السنغال	تونس	الجزائر	فيتنام	فرنسا
بداية التحوّل	c. ١٩٤٥	١٩٣٥	c. ١٩٤٠	c. ١٩٣٠	c. ١٧٩٥
الأعوام المكتسبة سنوياً	٠,٦٣	٠,٦٨	٠,٧٠	٠,٦٧	٠,٢٥
توقع الأعمار في البداية	٣٠,٢	٢٨,٨	٣١,٢	٢٢,٥	٢٨,١
توقع الأعمار في العام ١٩٦٠	٣٩,٦	٤٥,٨	٤٥,٢	٤٢,٦	٦٩,٤
توقّع الأعمار في العام ٢٠٠٠	٥٢,٣	٧٢,١	٧١,٠	٦٩,٤	٧٨,٦
تجاوز ٦٥ في سنة	-	١٩٨٥.c	١٩٨٧	١٩٨٧	١٩٤٨

العناية الطبية، وعلى الخصوص تناقص الوفيات عند الأطفال وعدم الخصب المبكر، سبباً في سرعة تزايد عدد السكان في أفريقيا الفرنسية بعد العام ١٩٤٥[١]. بنى الفرنسيون في الهند الصينية ٢٠,٠٠٠ ميل من الطرق، و٢,٠٠٠ ميلٍ من السكك الحديد، كما فتحوا مناجم الفحم، والقصدير والزنك، وأنشأوا مزارع المطاط[٢]. مُنح نحو ٢,٠٠٠ من الفييتناميين الجنسية الفرنسية في العام ١٩٢٢، لكنهم بقوا مع ذلك أقلية ضئيلة بين عدد السكان البالغ ثلاثة ملايين نسمة، لكنه عدد ليس باليسير مع ذلك[٣]. أما في أفريقيا الغربية الفرنسية فإن ذلك الإمتياز ناله مليون أفريقي في العام ١٩٤٦، كما ناله ثلاثة ملايين أيضاً بعد مرور ثلاث سنوات[٤]. أما مرض النوم الذي كان سيفاً مسلطاً على سكان الكاميرون في إبّان الحكم الألماني فقد قُضي عليه تقريباً عندما أصبحت البلاد تحت الحكم الفرنسي[٥].

(١) Iliffe, Africans, pp. 251-3.

(٢) Singer and Langdon, Cultured Force, p. 20.

(٣) Tai, 'Politics of Compromise'.

(٤) Saxe, 'Changing Economic Structure'.

(٥) Centre d'Informations Documentaires, Work of France, p. 17.

حكم البلجيكيون في الكونغو أسوأ أمبراطوريات أفريقيا[1]، هذا في حين يمكننا القول إن الرايخ الثالث هو أسوأ الأمبراطوريات الأوروبية – بسبب المبالغة في الالتزام بمفهوم معيّن إلى حدوده القصوى the reduction ad absurdum and ad nauseam – وهو مفهوم مهمة نشر الحضارة الذي ساد القرن التاسع عشر، وذلك لأن التأثير الفعلي لهذا المبدأ في المناطق التي حكمها الألمان لفترة وجيزة كان دفعهم نحو مزيد من البربرية. كان الهدف كما فهمه هيملر في أيلول من العام ١٩٤٢ أن تزداد الشعوب الألمانية عدداً من ٨٣ مليون إلى ١٢٠ مليوناً، وأن تُسكن الأعداد الإضافية في الأراضي التي كسبتها ألمانيا من تشيكوسلوفاكيا، وبولندا، والاتحاد السوفياتي. كان الأمل أن يتكاثر هؤلاء في المقاطعات الجديدة التي تحمل أسماءً مثل **إنغمارمان لاند**، كما أن الطرقات السريعة، والسكك الحديد السريعة، من شأنها أن تربط «عقد اللؤلؤ» – أي المواقع الألمانية المحصنة – التي تصل إلى الدون، والفولغا، إلى أن تصل في النهاية إلى الأورال. قال هيملر إن فتح «الشرق» سيكون أعظم استعمار شهده العالم في تاريخه»[2].

تبيّن لاحقاً أن الأمبراطورية النازية هي أقل الأمبراطوريات التي شهدها العالم نجاحاً. بدأت في العام ١٩٣٨ الحملة لتوسيع حدود ألمانيا إلى ما يتعدى حدودها في العام ١٨٧١، لكنها بدأت ذروتها في أواخر العام ١٩٤٢، أي عندما بلغت مساحة ألمانيا نحو ثلث كتلة أوروبا القارية، وكذلك نحو نصف سكانها، أي ٢٤٤ مليون نسمة. لكن، عندما زحف الجيش الأحمر إلى بروسيا في شهر تشرين الأول من العام ١٩٤٤ اختفت تلك الأمبراطورية، وهكذا كانت أقصر الأمبراطوريات عمراً، وكذلك أسوأها، في التاريخ. يمكننا إرجاع قصر عمر هذه الأمبراطورية إلى أسبابٍ عسكرية بطبيعة الحال. ما إن تورط الرايخ الثالث في حرب، ليس مع الأمبراطورية البريطانية فحسب، ولكن كذلك مع الاتحاد السوفياتي والولايات

(١) Hochschild, Leopold's Ghost.

(٢) Mazower, Hitler's Empire, p. 205.

المتحدة، حتى تقرر مصيره بالهلاك الأكيد. هناك مع ذلك تفسير ثانٍ، وكامن، لفشل الرايخ الثالث كأمبراطورية.

أما من وجهة النظر الديموغرافية [السكانية] فمن غير المعقول وضع ٨٠ مليون ألماني على رأس القارة الأوروبية. كان الأسهل، نظرياً، على ألمانيا أن تحكم أوكرانيا من أن تحكم بريطانيا أوتار براديش. كانت كييف، من جهة، أقرب إلى برلين مما هي كانبور إلى لندن. أما من جهة ثانية فإن الألمان لقوا ترحيباً حقيقياً كمحرّرين في أنحاء كثيرة من أوكرانيا في العام ١٩٤١. لم يقف الأمر عند هذا الحد، لأن ستالين عامل الأقليات العرقية المنتشرة في غرب أوروبا الثلاثينيات من القرن الماضي بتشككٍ وعنف. افترض معظم هؤلاء أن الحكم الألماني سيكون أفضل بكثير من الحكم الروسي. فشل الألمان مع ذلك بالاستفادة من تلك المزايا.

إن «ألمان الرايخ الثالث المتغطرسين والمتعجرفين» الذين يجولون ببزاتهم الرسمية الأنيقة، أقدموا على استبعاد الأقليات الألمانية التي كان ينبغي لهم تحريرها من الاضطهاد. أما الأسوأ من ذلك فهو ذلك الشعور بالفخر لتجويع الشعوب التي نجحوا في تركيعها. أعلن مفوّض الرايخ إيريك كوخ عندما تسلّم مسؤولية إدارة أوكرانيا: «سوف أستخرج كل شيء عن آخره من هذه البلاد. لم آتِ إلى هنا لتوزيع البركات...» أما غورينغ فقد تفاخر بأنه: «لا يكترث بتاتاً إذا هلك غير الألمان جوعاً»[1]. أما الدلالة الواضحة التي توحيها هذه الوحشية فقد كانت المعاملة التي تلقاها أسرى حرب الجيش الأحمر عشية عملية بارباروسا. لم يبقَ على قيد الحياة من أصل ٣,٩ ملايين أسير سوى ١,١ مليون، وذلك بحلول شهر شباط من العام ١٩٤٢. جُمع هؤلاء معاً داخل مساحات مسيّجة بالأسلاك الشائكة، وتُركوا فريسة سوء التغذية والمرض. لم يقنع النازيون بتجويع هؤلاء المقهورين لكنهم استساغوا تعذيبهم، وراوح التعذيب ما بين الضرب المرتجل (الذي كان يُنزل بالأسرى بسبب عدم تأديتهم تحية هتلر، أو عدم تأديتها بشكلٍ غير لائق، وذلك بحسب مزاج النازيين) والمجازر

(١) المرجع نفسه، ص١٥٢، ٢٨٦.

المنظمة. كانت تلك المنطقة هي أشبه شيء ببلاد الهيريرو (هيريرولاند)، لكن على نطاقٍ أوسع.

شهد عدد قليل من الألمان هذه الأعمال الإجرامية. قال غوليتييه ألفريد فروينفلد في شهر شباط من العام ١٩٤٤:

إن مبدأ الوحشية المفرطة، ومعاملة البلاد [أوكرانيا] بحسب الآراء المسبقة، والطرائق التي كانت مستخدمة في القرون الماضية ضد العبيد الملونين، وكذلك الحقيقة التي تتحدى أي سياسةٍ منطقية، وهي أن ازدراء ذلك الشعب لم يظهر في الأفعال ضد الأفراد فحسب، لكنه ظهر كذلك في الكلمات التي قيلت في كل مناسبة ممكنة أو غير ممكنة... إن كل ذلك يشهد على فقدان التبصر بالنسبة إلى معاملة الشعوب الأجنبية، وهي المعاملة التي توحي لنا نتائجها أنها... كارثية[١].

كان ذلك بحسب ما جاء على لسان أحد المسؤولين في وزارة الشرق: «قمةً في إساءة المعاملة... أن يقوم المحاربون في خلال سنة من الزمن بمطاردة شعبٍ بأسره إلى الغابات والمستنقعات، وهو شعب كان مؤيداً للألمان بشكلٍ مطلق، وهو الشعب الذي رحّب بنا بوصفنا من حرّره»[٢].

يُضاف إلى كل هذه الغطرسة، والقسوة، والوحشية شيء من الحماقة الأكيدة. أكّد أحد ضباط الجيش الألماني في العام ١٩٣٨ «المدى المقلق الذي يثيره عجز الدولة عن الحكم» في بلاد السوديت التي تم إخضاعها منذ وقتٍ قصير. لم يتأخر الوقت حتى اكتسبت وزارة الشرق التي كانت بيد ألفريد روزنبيرغ لقب «وزارة الفوضى». أراد البوليس السري النازي إحكام قبضته الحديدية والمركزية على الأمبراطورية، لكن **هيملر** وأعوانه فشلوا حتى في إعادة إسكان نحو ٨٠٠,٠٠٠ من المواطنين الألمان. أما أوتو أولندورف، بوصفه قائد Einsatz-gruppe، الذي كان

(١) المرجع نفسه، ص١٣٧.
(٢) المرجع نفسه، ص١٤٩.

مسؤولاً عن الإبادة الجماعية لعشرات آلاف اليهود السوفيات- فقد تأسف لأن هيملر كان مختصاً «بتنظيم الفوضى»[1]. لكن المسؤولية الأخيرة عن السوء الذي ميّز الأمبراطورية النازية لا تقع على كاهل روزنبرغ أو هيملر، بل على كاهل سيّدهما. كان هتلر، في نهاية الأمر، هو المسؤول عن الرايخ الثالث. (صدرت باسمه [هتلر] كل المراسيم التشريعية، ما عدا ٧٢، التي بلغ عددها ٦٥٠ والتي صدرت في أثناء الحرب). لقد رأى هتلر بعد وقتٍ قصير من اجتياحه الاتحاد السوفياتي أنه «نظراً إلى المساحات الشاسعة للمناطق المحتلة في الشرق، فإن القوات المتوافرة لحفظ الأمن في تلك المناطق لن تكون كافية إلا إذا نشرت قوات الاحتلال الرعب الكافي لسحق كل إرادة للمقاومة بين السكان، وذلك بدلاً من معاقبة المقاومين بعد محاكمتهم». كانت طريقة هتلر المفضلة في إخضاع المناطق المحتلة هي، «إطلاق النار على كل شخص مشتبه فيه بأي طريقة من الطرائق». عدّ فيرنر بست (إحدى الشخصيات النادرة في الرايخ الثالث الذي يمتلك مفهوماً يقترب من الجنون للحكم الإمبريالي)، هتلر جنكيز خان زمانه – أي إنه كان اختصاصياً في التدمير، وما من أمل لأمبراطوريته البربرية بالاستمرار[2].

يمكننا القول، لكل تلك الأسباب، إن الأمبراطورية النازية كانت آخر تجسد مريع لمفهومٍ وصل إلى نهايته في العام ١٩٤٥. بدا منطقياً تماماً طوال قرونٍ من الزمن أنّ الطريقَ إلى الثروة يكمن في استغلال الشعوب الأجنبية وأراضيها. لكن قبل وقتٍ طويل من استحداث تعبير Lebensraum [الأراضي المكتسبة] كانت الأمبراطوريات الأوروبية تتنافس في كسب أراضٍ جديدة كي تستوطنها، ومن أجل شعوب جديدة لإرهاقها بالضرائب، كما كانتْ من قبلها الأمبراطوريات الآسيوية، والأميركية، والأفريقية. لكن تبيّن في أثناء النصف الأول من القرن العشرين، وتدريجاً، أنه يُمكن للاقتصاد الصناعي أن يمضي على ما يُرام من دون المستعمرات، التي يُمكن أن

(١) المرجع نفسه، ص٢٥٦.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٤٨.

تكون، في واقع الأمر، عبئاً لا لزوم له. كتب الاقتصادي هيلموت شوبيرت في العام ١٩٤٢ أن مستقبل ألمانيا الحقيقي يكمن في «منطقة صناعية كبيرة»، تعتمد على «وجودٍ دائم ومتزايد للعمال الأجانب». كانت عملية جعل الشرق ألمانياً عملية مستحيلة، لكّن شرقنة ألمانيا [جعلها شرقية] كانت أقرب إلى الواقع مع استمرار تحوّل العمالة من الزراعة إلى الصناعة. لكن ضرورات اقتصاد الحرب فنّدت هذه المقولة. تجنّد مع نهاية العام ١٩٤٤ نحو خمسة ملايين من الأجانب للعمل في مصانع الرايخ القديم ومناجمه. أما المفارقة الكبرى فقد كانت ذلك الحلم بوجود عرقٍ متفوقٍ، وهو الحلم الذي حوّل ألمانيا ذاتها إلى دولةٍ متعددة الأعراق، وإن كانت دولةً تابعة. إن إبدال العبيد الآتين من أوروبا الشرقية بالعمال الأتراك، و«العمال الضيوف» اليوغوسلاف، بعد الحرب لم يغيّر شيئاً من المقولة الاقتصادية. لا تحتاج ألمانيا الحديثة في الواقع إلى «مكانٍ للحياة»، بل تحتاج إلى مهاجرين أحياء.

لم تكن الأمبراطورية الفرنسية بمثل تلك البربرية الميؤوس منها كما كانت عليه الأمبراطورية النازية. أما لو كانت كذلك لبات من المستحيل إعادة إحياء معظمها بعد الحرب العالمية الثانية، حتى لإعادة تأكيد طموح الاستيعاب القديم، وذلك عن طريق إعادة تسميتها «الاتحاد الفرنسي». نلاحظ أن السنوات العشر التي فصلت ما بين مؤتمر برازفيل في العام ١٩٤٤، والضربتين التوأمين اللتين تلقاهما الفرنسيون في ديان بيان فو، والثورة في الجزائر، كانت كلها فترةً تجاوزت الفترة التي عاشتها أمبراطورية هتلر الألمانية المتطرفة. كانت الحربان العالميتان بالرغم من ذلك هما العقاب الفظيع الذي تبع الغطرسة التي رافقت مهمة **جلب الحضارة**، وذلك لأن كل الأمبراطوريات الأوروبية مارست فيما بينها الطرائق ذاتها التي ابتكرتها (بالرغم من تفاوت درجات القسوة) ضد الأفارقة. أما العلوم الطبية التي بدت وكأنها المنقذ الشامل في الحرب ضد الأمراض، فقد تعرضت للانحراف بسبب الانحياز العرقي والعلوم الزائفة التي أتى بها أصحاب تحسين الأنسال، حتى أن بعض الأطباء تحولوا إلى قتلة. بدت «الحضارة الغربية» في واقع الأمر وكأنها متناقضة في طبيعتها، أي

مثل ما قال عنها غاندي: بدا الانحلال السريع للأمبراطوريات الأوروبية في فترة ما بعد الحرب وكأنه حكم عادل بما فيه الكفاية، وذلك بغض النظر عما إذا كانت معظم المستعمرات السابقة مستعدة لتحكم ذاتها بذاتها أم لا[1].

أما اللغز الكبير هنا فهو كيفية بزوغ نموذج جديد للحضارة لا يرتكز على الاستعمار، بل على الاستهلاك، من بين بقايا عصر التدمير الشنيع. حان الوقت في العام ١٩٤٥ بالنسبة إلى الغرب لإلقاء سلاحه وتناول حقائب تسوّقه، أي إن الوقت قد حان لنزع زيّه الرسمي وارتداء الجينز الأزرق.

(١) Fieldhouse, Black Africa.

الفصل الخامس

الاستهلاك

إن ما يجب علينا عمله هو تحويل أمبراطوريتنا وشعبنا، وأن نجعل هذه الأمبراطورية مثل بلدان أوروبا، وأن نجعل شعوبنا مثل شعوب أوروبا.

إينو كاورو

هل سيتخذ الغرب، الذي يحترم بجدية اختراعاته العظيمة، وديمقراطيته، أكثر من كلمة الله، ضد هذا الانقلاب الذي وضع حداً للديمقراطية في Kars؟... أم هل علينا أن نستنتج أن الديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان هي أمور لا أهمية لها، وأن كل ما يريده الغرب من بقية أنحاء العالم هو أن يقلده مثل القرود؟ أيمكن للغرب تحمّل أي ديمقراطية يتوصّل إليها أعداؤه الذين لا يشبهونه بأي حالٍ من الأحوال؟

أورهان باموك

ولادة المجتمع الاستهلاكي

انطلق آلبرت خان(*)، المصرفي الفرنسي - اليهودي ورجل الإحسان، في العام ١٩٠٩، عقب زيارته اليابان، في مشروع إنشاء مجموعة من الصور الملونة لأشخاصٍ من كل زاوية من زوايا العالم. قال **خان** إن الهدف من هذا المشروع كان «تنفيذ نوع من أنواع الجردة الفوتوغرافية لسطح الكرة الأرضية كما سكنها وطوّرها الإنسان في بداية القرن العشرين». كوّن **خان** «أرشيفات الكوكب» المؤلفة من ٧٢,٠٠٠ صورة و١٠٠ ساعة من الأفلام، وهو فعل ذلك بواسطة معالجة الأوتوكروم التي كانت قد اختُرعت قبل وقتٍ قصير. تُظهر هذه الصور مجموعة مذهلة من الأزياء والموديلات التي جُمعت مما يزيد على خمسين دولة مختلفة: الفلاحون الفقراء الذين يعيشون في Gaeltacht، والمجنّدون في بلغاريا بملابسهم المتجعدة، وزعماء القبائل من البلاد العربية، والمحاربون العراة في الداهومي، والمهراجات المكلّلون في الهند، والكاهنات المغريات في الهند الصينية، ورعاة البقر بمناظرهم الغريبة في الغرب المقفر[١]. تبدو صور تلك الأيام مدهشة إلى حدّ ما في هذه الأيام، أما اليوم فإننا ما نلبسه.

أما الآن، وبعد مرور قرنٍ من الزمن، فإن مشروع خان يبدو بلا فائدة إلى حدّ ما، لأن الناس في هذه الأيام يرتدون ملابس متشابهة في معظمها: الجينز ذاته، والأحذية المطاطية ذاتها، والفانيلات ذاتها. لا توجد هذه الأيام سوى أماكن قليلة يقاطع سكانها آلة المزج هذه. يسود هذا الوضع أرياف البيرو. تواظب نساء **الكويشوا** اللواتي يعشن في جبال الأنديز على ارتداء فساتينهن المزركشة والملتمعة،

(*) كان خان تلميذاً للفيلسوف هنري بيرغسون، لكنه تعرّض للانهيار نتيجة الكساد الذي تسبب بوضع حدٍ لمشروع صوره العظيم. يُمكن مشاهدة مجموعة منتخبة من هذه الصور على موقع http://www.albertkahn.co.uk/photos.html.

(١) Okuefuna, Wonderful World of Albert Kahn.

وشالاتهن، وقبعاتهن الصغيرة المصنوعة من الشعر، وهي مثبتة بزوايا جميلة ومزيّنة بشارات القبيلة التي ينتمين إليها. لكن هذه الأزياء ليست أزياء الكويشوا التقليدية على الإطلاق. إن الفساتين، والشالات، والقبعات، هي في واقع الأمر ذات أصلٍ أندلسي، وهي التي فرضها نائب الملك الإسباني فرنشيسكو دي توليدو في العام ١٥٧٢، وذلك عقب هزيمة توباك أمارو. أما اللباس التقليدي الأصيل للنساء فقد اشتمل على سترة (anacu) مشمولة بزنار عند الخصر (chumpi)، وعباءة (llicla) تُلبس فوقها وهي مثبتة بدورها بدبوس tupu. أما الأزياء التي ترتديها نساء الكويشوا هذه الأيام فهي خليط من تلك الأزياء القديمة التي أمرهن أسيادهن من الإسبان بارتدائها. لكن قبعات الشعر المستديرة، التي كانت شائعة بين النساء البوليفيات، قد ظهرت في وقتٍ لاحق، وذلك عندما وصل العمال البريطانيون من أجل بناء أولى السكك الحديد في تلك البلاد[1]. أما الأزياء الحالية الرائجة بين الرجال الأنديزيين، وهي الملابس الأميركية العادية فلا تعدو كونها آخر فصلٍ من فصول تاريخ تغريب [جعلها غربية] الأزياء الطويل.

لكني أتساءل، ما هو الشيء المميز في أزيائنا الذي يجعل الشعوب الأخرى غير قادرةٍ على مقاومتها؟ هل ارتداء ملابس تماثل ملابسنا يتعلّق بالرغبة في أن يكونوا مثلنا؟ يبدو واضحاً أن الأمر يتجاوز الملابس فقط. إنه يتعلّق باعتناق تراثٍ culture شعبي ممتد من الموسيقى والأفلام، هذا إذا لم نقل شيئاً عن المشروبات الغازيّة والأطعمة السريعة. يحمل ذلك التراث الشعبي معه رسالةً كامنة. تتعلق هذه الرسالة بالحرية – حق المرء في ارتداء الملابس، أو الشرب، أو الأكل كما يحلو له (حتى ولو تبيّن أن الجميع يفعلون الأمر ذاته). يتعلق الأمر كذلك بالديمقراطية – لأن الناس يحبون بالفعل صنع المنتجات الاستهلاكية. كما يتعلق بالرأسمالية بطبيعة الحال – لأن الشركات مضطرة لجني أرباح عن طريق بيع المنتجات. لكن الملابس [الأزياء]

(١) Galeano, Open Veins, p. 47.

هي في قلب عملية التغريب لسببٍ واحدٍ وبسيط. إن ذلك التحوّل الاقتصادي العظيم الذي أطلق عليه رجال الاقتصاد منذ وقتٍ طويل اسم الثورة الصناعية – أي تلك القفزة العملاقة لمستويات المعيشة المادية بالنسبة إلى قسم متزايدٍ من البشرية – يعود بجذوره إلى صناعة النسيج. كانت تلك الثورة، جزئياً، معجزة الإنتاج بكمياتٍ كبيرة، الأمر الذي تحقق بفضل موجةٍ من الاختراعات التقنية التي تعود بجذورها إلى الثورة العلمية السابقة (انظر الفصل الثاني). لكن الثورة الصناعية لم تكن لتبدأ ببريطانيا وتنتشر إلى بقية أنحاء الغرب من دون تطوير المجتمع الاستهلاكي الحيوي الذي رافقها، والذي تميّز بطلبه غير المحدود للملابس الرخيصة. إن سحر التصنيع، بالرغم من تجاهل بعض المنتقدين المعاصرين له عموماً، تمثّل في كون العامل [في الصناعة] كان مستهلكاً في الوقت ذاته. تعوّد «العامل المأجور» الذهاب إلى التسوّق بدوره. يقتني أكثر العمال تواضعاً أكثر من قميصٍ واحد، لكن العامل الواحد كان يطمح إلى اقتناء أكثر من قميصين.

حافظ المجتمع الاستهلاكي على انتشاره هذه الأيام بحيث يسهل علينا الافتراض أنه كان موجوداً على الدوام. لكن الواقع يوحي أن هذا المجتمع هو من أحدث الابتكارات التي دفعت الغرب لتجاوز بقية أنحاء العالم. إن الميزة الأكثر إدهاشاً في ذلك المجتمع هي إغراؤه الذي يبدو أنه لا يقاوم. يُعد المجتمع الاستهلاكي تطبيقاً استثنائياً رغبت بقية العالم في تقليده، وهو وضعٌ يختلف عن الطب الحديث الذي فُرض على المستعمرات الغربية بالقوة. عجزت حتى المجتمعات التي تميل بطبيعتها ضد الرأسمالية، وعلى الخصوص تلك المجتمعات التي تميل إلى مبادئ كارل ماركس، عن مقاومة ذلك المجتمع واستبعاده. كانت نتيجة ذلك الوضع إحدى أعظم المفارقات في التاريخ الحديث: انتهى النظام الاقتصادي الذي صُمّم من أجل تقديم خيارات لا حدّ لها للفرد إلى توحيد البشرية.

تعوّد عدد كبير من الناس إساءة فهم الثورة الصناعية، وعدّها مجموعة واسعة من الاختراعات التقنية التي غيّرت عدداً كبيراً من الأنشطة الاقتصادية. لكن الوضع

لم يكن كذلك، لأن المرحلة الأولى من التصنيع تركزت على النسيج. كان المصنع النموذجي هو مصنع القطن، مثل **آنكور ميل** في بايسلي الذي ما زال قائماً حتى اليوم بوصفه رمزاً لذروة الصناعة الأسكتلندية(*).

لكن ماذا حدث بالضبط؟ هناك إجابة بسيطة واحدة، وهي أنه في نقطةٍ ما من القرن التاسع عشر بدأ الناتج الاقتصادي البريطاني للفرد بالارتفاع بسرعةٍ صاروخية، وذلك بعد بداية تسارعه صعوداً في القرن السابع عشر. يختلف الباحثون في تحديد التوقيت المحدد، ويعود ذلك إلى الصعوبة الشديدة في حساب المعايير التي كانت سائدة في الماضي، وهي معايير مثل الناتج المحلي الإجمالي أو الدخل القومي. يذهب أحد التقديرات الموثوقة إلى اعتبار أن معدّل نسبة النمو السنوي للدخل القومي للفرد قد ارتفع مما دون ٠,٢ بالمئة ما بين العامين ١٧٦٠ و١٨٠٠ إلى ٠/٥٢ بالمئة ما بين العامين ١٨٠٠ و١٨٣٠، ليعود إلى الارتفاع بعد ذلك إلى ١,٩٨ بالمئة ما بين العامين ١٨٣٠ و١٨٧٠(١). تُعد كل هذه الأرقام متواضعة جداً إذا ما قيست بمعايير القرن الواحد والعشرين. لكن النتيجة، مع ذلك، كانت ثورية، لأنه لم يحدث أن شهد العالم من قبل مثل ذلك التسارع المستمر في النمو الاقتصادي، كما أنه لم يتوقف. كان ذلك النمو المتسارع، على النقيض من ذلك، يعني أن المواطن البريطاني العادي كان في العام ١٩٦٠ أكثر ثراءً بست مرات تقريباً مما كان عليه والد جده في العام ١٨٦٠(٢). أما الأكثر إدهاشاً فهو سرعة تحوّل القوة العاملة البريطانية عن الزراعة كي تتوجه إلى قطاعات أخرى (ليس الإنتاج الصناعي وحده بل الخدمات كذلك). كان ما يزيد على خُمْس السكان العاملين في بريطانيا يعملون

(*) تأسست كلارك، وهي الشركة التي بنيت (ووفرت لكينيث كلارك الوسائل ليكون الباحث النبيل) في العام ١٨١٢. أما المعمل الذي نعرفه هذه الأيام فقد بُني في العام ١٨٨٦ على طراز عملي أعجب جيريمي بنتام. أُقفل المعمل في العام ١٩٦٨ لأنه لم يعد رابحاً، وهي الحال التي آلت إليها صناعة المنسوجات البريطانية بسبب المنافسة البريطانية.

(١) Crafts, 'British Economic Growth', table 6.1.

(٢) Clark, Farewell to Alms, figure 9.2.

في الزراعة في العام ١٨٥٠، هذا في وقت كانت هذه النسبة أقرب إلى ٤٥ بالمئة في البلاد المنخفضة. لكن بحلول العام ١٨٨٠ وصلت نسبة العاملين في زرع الأراضي إلى أقل من واحد من أصل سبعة مواطنين، إلا أنها عادت وانخفضت بحلول العام ١٩١٠ إلى واحد من أصل أحد عشر(١). تخفي أرقام النمو المجمعة الطبيعة المثيرة لهذا التغيّر. كانت الثورة الصناعية، بالرغم من انتشارها على مدى عقود محلية بامتياز. أما في غلوشستر فكانت هذه الثورة بالكاد ملحوظة. أما في لانكاشاير فقد كانت ظاهرةً بشدة، لكن مرتفعات أسكتلندا لم تمس. يفسر ذلك تعلّق الفيكتوريين بكل ما أدهش جيل الدكتور جونسون لكونه أرضاً بريةً كئيبة. أما غلاسكو، فقد حوّلتها التجارة والصناعة إلى «ثاني أكبر مدينة» في الأمبراطورية البريطانية، وهي التي نافست مداخنها منافستها إدنبرة الشهيرة بتلوثها.

تميّزت الثورة الصناعية بوصفها «موجة من الأدوات»(٢). يمكننا التأكيد هنا أن الاختراعات التقنية هي التي سهّلت الزيادة الكبيرة في إنتاجية الأرض، والعمالة، والرأسمال (وهي التي تسمّى عناصر الإنتاج). زادت كميات العنصرين الثاني والثالث في القرن التاسع عشر (*)، لكن التحسينات النوعية كانت هي الأهم بالفعل – أي إن إجمالي الناتج قد زاد على مجموع الزيادات في أعداد العمال والمصانع. يمكننا القول، استناداً إلى ذلك، إن الثورة الصناعية كانت حملة تفتيش عن الفاعلية. جاءت من هنا جنية غزل هارغريف (١٧٦٦)، والآلة water frame

(١) Gildea, Barricades and Borders, pp. 6, 145, 181.

(٢) Mokyr, Industrial Revolution, p. 109.

(*) ارتفع عدد سكان بريطانيا بنسبة تزيد على الثلث في الفترة ما بين أربعينيات وتسعينيات القرن الثامن عشر، أما في الستينيات من القرن التاسع عشر فقد زاد ثلاثة أضعاف. أما معدل سن الزواج فقد انخفض من ٢٦ سنة إلى ٢٣ سنة، كما أن عدداً قليلاً من النساء بقين عازبات، لكن نسبة الأولاد غير الشرعيين زادت. رأى غريغوري كلارك أن نزعة أولاد الأغنياء ليعيشوا فترة أطول من الفقراء تفسر الثورة الصناعية، وذلك لأن «قيَم الطبقة الوسطى، والتوجّه الاقتصادي، كانا أكثر انتشاراً من خلال ميزة الوراثة... أما التوفير، والتعقل، والتفاوض والعمل الشاق فقد تسرب هذا كله إلى مجتمعات مبذّرة، وعنيفة، ومندفعة ومحبة للهو» (كلارك، Farewell to Abns, pp. ١٣٢, ١٦٦). ربما كان أطفال الفرنسيين والإيطاليين الأغنياء أفضل حالاً من الأطفال الفقراء.

التي صنعها ريتشارد آركرايت (١٧٦٩)، ومغزل صموئيل كرومبتون (١٧٩٩)، ونول إدموند كارترايت الذي يعمل على قوة البخار (١٧٨٧)، ونول ريتشارد روبرتس الذي يعمل ذاتياً (١٨٣٠). كانت كلها طرائق تهدف إلى صنع خيطان أو أقمشة أكثر في خلال ساعة عمل الرجل. أما جنية الغزل، على سبيل المثال، فقد سمحت لعاملٍ واحد بالعمل على ثمانية مغازل من القطن في وقتٍ واحد. انخفضت بفضل هذه الابتكارات أسعار المنتوجات القطنية البريطانية بما نسبته نحو ٩٠ بالمئة في الفترة ما بين أواسط التسعينيات من القرن الثامن عشر وسنة ١٨٣٠[1]. يصدق الأمر ذاته على اختراعاتٍ أساسية أخرى في إنتاج الحديد وتوليد الطاقة البخارية. أما فرن الصهر الذي صنعه جايمس نيلسون، والذي نال براءة اختراع في العام ١٨٢٨ فقد حسّن كثيراً عملية صهر فحم الكوك، وهي الآلة التي اخترعها آبراهام داربي في العام ١٧٠٩. أما إنتاج الحديد في فرن كول بروكدايل التابع لداربي فقد قفز من ٨١ طناً في السنة في العام ١٧٠٩ إلى ٤,٦٣٢ في العام ١٨٥٠. يمكننا تطبيق الأمر ذاته على محرك توماس نيوكومين البخاري الذي صنعه في العام ١٧٠٥، والذي كان ذا فائدة عملية ضئيلة، لكن الإضافة التي أدخلها جايمس واط حسّنته كثيراً، كما أن نسخة ريتشارد تريفيثيك البخارية ذات الضغط العالي فكانت أفضل. كان محرّك نيوكومين يحرق ٤٥ باونداً من الفحم من أجل إنتاج ساعة حصان بخاري واحدة. كانت الصيغة التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر تتمكّن من القيام بالعمل نفسه بأقل من باوندٍ واحد[2]. تمكّنت المحركات البخارية البريطانية بحلول العام ١٨٧٠ من توليد ٤ ملايين حصان بخاري، وهو ما يساوي عمل ٤٠ مليون رجل. كان إطعام قوةٍ عاملة بذلك الحجم يتطلب ثلاثة أضعاف إنتاج بريطانيا من القمح[3]. لم تكن كل هذه المخترعات أشمل فكرياً من الاختراقات العلمية الكبيرة التي ظهرت في القرن السابع عشر، وذلك بالرغم من أن عضوية **بولتون ووات** في **جمعية بيرمنغهام القمرية**

(١) Esteban, 'Factory Costs', figure 1.

(٢) Allen, British Industrial Revolution, p. 156.

(٣) Morris, Why the West Rules, p. 497.

Birmingham Lunar Society، التي ضمّت من بين أعضائها البارزين رائد الكيمياء جوزف بريستلي، تُظهر العلاقة الوثيقة بين الثورتين[1]. كانت تلك أكثر ميلاً لأن تكون عملية تحسيناتٍ تراكمية، وتطورية تميّزت بإدخال إصلاحاتٍ [على مخترعاتٍ قديمة] كان يقوم بها أحياناً رجال ذوو معرفة علمية ضئيلة. تخلص روح العصر من التعلّق بجياد الفرسان ليتعلق بالعمل في ورشة مصنع سوهو بولتون ووات Boulton & Watt Soho Manufactoty. كانت الاختراعات التي جسّدها الرجل الصارم وات، والمخاطرة التي جسّدها الرجل المتحمس بولتون، هما الشراكة المثالية التي وجدت في صميم الثورة الصناعية.

أبلغ بولتون جايمس بوسويل في العام ١٧٧٦: «إنني أبيع هنا يا سيدي كل ما يرغب فيه العالم ـ القدرة POWER»[2]. لكن لماذا؟ كانت الثورة الصناعية بلا معنى لو أنها اشتملت فقط على الزيادة الضخمة في كميات الأقمشة، والحديد، والقوة الميكانيكية التي يُمكن إنتاجها في خلال سنة من الزمن. أما الأمر الذي يحمل أهمّية مساوية فقد كان التطوير والانتشار السريعين لمجتمع الاستهلاك الذي أراد المزيد من كل تلك الأشياء[3]. وإذا كانت الاختراعات التقنية قد عززت جانب العرض، فإن جانب الطلب في الثورة الصناعية قد تعزز بفعل شهية البشر التي بدت أنها لا تشبع تجاه الملابس. أما أكبر عامل حرّك هذه الشهية فقد كان الاستيراد الواسع للأقمشة الهندية الذي قامت به شركة الهند الشرقية، وهي الحركة التي بدأت في القرن السابع عشر. (أما استيراد الخزف الصيني فقد أدى إلى تأثيرٍ مشابه في حركة طلب الآنية الفخارية)[4]. أرادت ربّات البيوت الحصول على هذه الأشياء، فعدّلن عاداتهن وميزانياتهن تبعاً لذلك[5]. أما الرواد من التجار فقد سعوا

(١) Jones, 'Living the Enlightenment'.

(٢) Morris, Why the West Rules, p. 491.

(٣) See especially McKendrick et al., Birth of a Consumer Society.

(٤) Berg, 'Pursuit of Luxury'.

(٥) Vries, 'Purchasing Power'.

إلى استخدام تقنياتٍ جديدة تسمح لهم بتقليد البضائع المستوردة بغية الاستغناء عنها فيما بعد[1].

كان القطن هو ملك المعجزة الاقتصادية البريطانية بالفعل. كان قطاع الأقمشة يمثّل نحو عُشر الدخل القومي البريطاني، كما أن إنتاج القطن وصل إلى أسرع المعدلات في الفاعلية. تحولت مصانع مانشستر وورش أولدهام إلى النقطة المحورية للتحول. أما الأمر المدهش فقد كان وجود حصة كبيرة من إنتاج القطن البريطاني غير مخصصة للاستهلاك الداخلي. بلغت الصادرات القطنية في أواسط الثمانينيات من القرن الثامن عشر نسبة ٦ بالمئة فقط من مجمل الصادرات البريطانية. أما في أواسط الثلاثينيات من القرن التاسع عشر فقد ارتفعت هذه النسبة إلى ٤٨ بالمئة، ومعظمها ذهب إلى أوروبا القارية[2]. تعوّد المؤرّخون الجدال بشأن ما هو الأكثر أهمّية، موجة التقدم التكنولوجي أم مجتمع الاستهلاك. كان الأمر أكثر وضوحاً في القارة، لأن الأوروبيين فضلوا الأقمشة الرخيصة التي تنتجها المصانع، وذلك قبل وقتٍ طويل من تعلّمهم كيفية صنعها بأنفسهم.

لماذا كانت بريطانيا هي السبّاقة في ميدان التصنيع؟ لم يكن المجتمع الاستهلاكي أكثر تقدماً بكثير من دول شمال غربي أوروبا. لم يكن مستوى المعرفة العلمية ومدى انتشارها متفوقين بشكلٍ ملحوظ. كانت هناك مجالات تقدم مدهشة في قطاعاتٍ أخرى من الاقتصاد البريطاني في خلال القرن الثامن عشر، مثلً الزراعة، والمصارف، والتجارة، لكن لم يتضح على الفور السبب الذي يجعل هذه العوامل تتسبب بإطلاق استثمارات تحفّز على الإنتاجية في مجالات القطن، والحديد، وإنتاج البخار. يُقال إن السبب وراء التصنيع المبكر في بريطانيا إنما يكمن في ميدان السياسة أو القانون. شجّع القانون العادي [الناتج من الأعراف والتقاليد]، على سبيل المثال، تأليف الشركات، وقدّم للدائنين حماية هي أفضل مما تعطيه الأنظمة في القارة [الأوروبية]

(١) Berg, 'Imitation to Invention'.

(٢) Findlay and O'Rourke, Power and Plenty, tables 6.2 and 6.4.

مثل تلك التي استُنبطت من قانون نابوليون المدني[١]. ساعدت المزايا المؤسسية بريطانيا، بشكلٍ مؤكد، على أن تسبق الأمبراطوريات التي ظهرت لاحقاً في القرن السابع عشر، وعلى الخصوص في القرن الثامن عشر، أي كما رأينا سابقاً. لكن ذلك لا يوضح السبب الذي جعل من مبدأ سيادة البرلمان، أو ظهور القانون العادي [العرفي]، يزوّد بولتون ووات حوافز أقوى من نظرائهما المغمورين في القارة.

ربما أعطت الرسوم التي فُرضت في القرن الثامن عشر على الأقمشة القطنية الهندية المصنّعين البريطانيين بعض المزايا، أي مثلما أدت السياسات الحمائية المشابهة إلى تقوية الصناعات التي نشأت فيما بعد في الولايات المتحدة ضد المنافسة البريطانية[٢]. لم يكن مبدأ دافيد ريكاردو بشأن المزايا التفاضلية [*] السبب الوحيد الذي جعل الصادرات القطنية البريطانية تزدهر كثيراً في النصف الأول من القرن التاسع عشر. تبدو المسألة، عدا ذلك، غير مقنعة فيما إذا كانت المؤسسات القانونية البريطانية (أو حتى الأميركية) أكثر ملاءمةً للتطوير الصناعي من أمثالها

(١) La Porta et al., 'Law and Finance', 'Investor Protection' and 'Economic Consequences'.

(٢) O'Brien et al., 'Political Components'. See also Leunig, 'British Industrial Success', p. 93.

(*) الميزة التفاضلية تعني قدرة بلدٍ معين على إنتاج سلعة أو خدمة بفرص كلفةٍ أقل مع فاعلية أعلى مما هي عليه الحال في بلدٍ آخر. يتعلق مثال ريكاردو الشهير بالتجارة بين إنكلترا والبرتغال. تتمكن البرتغال من إنتاج النبيذ والأقمشة بسهولة أكبر وكلفة أرخص مما هي عليه الحال في إنكلترا. لكن يصعب في إنكلترا، مع الكلفة الزائدة، إنتاج النبيذ مما هي عليه الحال مع إنتاج الأقمشة. يعني ذلك أن من مصلحة الطرفين أن تركز البرتغال على إنتاج النبيذ حيث فرص إنتاجه أكبر بكثير، بينما تنصرف إنكلترا إلى إنتاج الأقمشة فقط. يقوم البرتغاليون بمبادلة فائض النبيذ الذي ينتجونه بالفائض من الأقمشة البريطانية. تحصل البرتغال بمقتضى هذا الترتيب على أقمشة أكثر مما هي عليه الحال فيما لو قامت هي بإنتاجه بنفسها، بينما تحصل بريطانيا على نبيذٍ أرخص. لكن هذه النظرية أعطت نتائج كارثية عند تطبيقها من قبل إيرلندا. أدّى تخصّص إيرلندا في إنتاج اللحوم للسوق البريطانية إلى اعتمادها المفرط على البطاطا لإطعام القوة العاملة من المزارعين، الأمر الذي تسبّب بالتعرض الشديد للآفات الناتجة منها، والذي تمثّل بداء phytophthora infestans الذي ضرب البلاد في أواسط الأربعينيات من القرن التاسع عشر. التزمت الحكومة البريطانية بمبدأ ريكاردو، فامتنعت عن إرسال المواد الغذائية اللازمة للتخفيف من المجاعة. مات نحو مليون نسمة، الأمر الذي لم يبرر مبدأ ريكاردو فحسب، بل آراء توماس مالتوس، مؤلف كتاب مقالة حول مبدأ السكان (١٧٨٩)، وهو الكتاب الذي توقع كوارث كهذه. أما الإيرلنديون الذين نجوا من هذه المجاعة فقد قلّت أعدادهم كثيراً بسبب تفضيلهم الهجرة إلى أميركا.

في هولندا، وفرنسا وألمانيا[1]. رأى معاصرو تلك الحقبة أن حالة الأنظمة السياسية والقانونية البريطانية في تلك العقود الحاسمة من انطلاق الصناعة كانت معاكسة تماماً لتلك الصناعة الناشئة. وصف الناقد المتطرف وليام كوبيت طريقة تداخل أعمال البرلمان، والتاج، ومدينة لندن بأنها «فسادٌ متأصل». أما تشارلز ديكنز فقد رسم في روايته **الدار الكئيبة** (١٨٥٢- ١٨٥٣) صورة عن المحكمة العقارية Court of Chancery وقال إنها مكان كئيب وغير فعال وتشكل عقبة في طريق حل النزاعات المتعلقة بالملكية، بينما كان هدف سخريته في Little Dorrit (١٨٥٥- ١٨٥٧) Circumlocution Office، وهو دائرة حكومية مخصّصة لإعاقة التقدم الاقتصادي. أما الشركات المساهمة فقد بقيت غير قانونية حتى العام ١٨٢٠ حين تمّ إبطال قانون Bubble Act الذي صدر في العام ١٧٢٠، لكن سجون المدينين، مثل سجن **مارشال سي** – الذي صوّرته Little Dorrit بالتفصيل – فقد بقيت مفتوحة إلى حين إمرار قانون الإفلاس في العام ١٨٦٩. يجدر بنا أن نذكر في هذا المجال أن التشريعات التي صدرت عن المجالس البرلمانية الفيكتورية والمتعلقة بالأقمشة، كانت تهدف إلى تقييد الحرية الاقتصادية لمالكي المصانع، وعلى الخصوص بالنسبة إلى موضوع تشغيل الأطفال[2].

اختلف الوضع كثيراً في بريطانيا عما كانت عليه الحال في دول شمال غربي أوروبا الأخرى، وذلك بمزيتين تجعلان الثورة الصناعية أمراً مفهوماً. المزية الأولى هي أن اليد العاملة كانت أعلى أجراً بكثير مما كانت عليه الحال داخل القارة، أو في واقع الأمر أعلى من أي مكان آخر تتوافر فيه السجلات. كانت الأجور الفعلية للعامل الباريسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (بالنسبة إلى قيمة الفضة المعدلة بحسب الأسعار الاستهلاكية) أعلى من نصف قيمتها بقليل عن العامل في لندن. أما الأجور في الصين وجنوب الهند، فقد كانت أقل من ذلك، ولكن ليس

(١) Guinnane et al., 'Putting the Corporation in its Place'; Lamoreaux, 'Scylla or Charybdis?'.

(٢) Allen, British Industrial Revolution.

بسبب الإنتاجية الأعلى لزراعة الأرز الآسيوية بالنسبة إلى إنتاج القمح الأوروبي[١]. أما السبب الثاني فقد كان توافر الفحم في بريطانيا، وسهولة الوصول إليه، وهكذا فقد كان أرخص منالاً مما هو عليه في الجانب الآخر من القنال الإنكليزي. تضاعف الإنتاج السنوي لمناجم الفحم أربع مرات ما بين العشرينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، بينما انخفض سعر الطن الواحد بنسبة الربع. تفسّر هذه الفروق معاً سبب امتلاك المغامرين الرواد من الإنكليز حوافز للسعي وراء الابتكارات التقنية هي أكثر مما توافر لنظرائهم في القارة. كان استبدال العمال ذوي الأجور العالية بالآلات أكثر جدوى في بريطانيا مما كان عليه الأمر في أي مكانٍ آخر، وذلك نظراً إلى الفحم الرخيص الذي يشغّل تلك الآلات.

انتشرت الثورة الصناعية البريطانية عبر أوروبا مثل ما فعلت الثورة الفرنسية من قبلها، لكنها كانت فتحاً سلمياً[٢]. عجز المخترعون العظام عن حماية ما أصبحنا نسمّيه هذه الأيام حقوقهم الفكرية. استُنسخت، لهذا السبب، التقنيات الجديدة بسرعةٍ كبيرة، وهكذا ظهرت نسخ مقلّدة منها في القارة وعبر الأطلسي. شُيّد أول معمل قطنٍ حقيقي، ابتكره ريتشارد آركرايت، في كرومفورد في ديربي شاير في العام ١٧٧١. ظهرت نسخةٌ عن هذا المعمل في فرنسا في غضون سبع سنوات. لكن الفرنسيين استغرقوا ثلاث سنواتٍ فقط قبل أن ينجحوا في تقليد محرك وات البخاري الذي ظهر في العام ١٧٧٥. ظهرت في ألمانيا في العام ١٧٨٤ نسخ من هذين الاختراعين، ويعود معظم الفضل في ذلك إلى عمليات التجسّس الصناعي. تميّز الأميركيون بإنتاج قطنهم الخاص بهم، وكذلك بإمكانية استخراج الفحم الذي يريدونه، لكنهم كانوا أبطأ قليلاً. ظهر أول معملٍ للقطن عندهم في نهر باس، ماساشوستس في العام ١٧٨٨، أما أول محركٍ بخاري فقد ظهر في العام ١٨٠٣[٣].

(١) Parthasarathi, 'Rethinking Wages'.

(٢) Pollard, Peaceful Conquest.

(٣) See Fowler Mohanty, Labor and Laborers of the Loom, esp. p. 76. On the wider ramifications of cotton cultivation, see Dattel, Cotton and Race.

أما البلجيكيون، والهولنديون، والسويسريون فلم يتخلفوا كثيراً عن الركب. كان المشهد مألوفاً بعد أن بدأت أولى القاطرات البخارية بجرّ العربات في ستوكتون، وسكك حديد دارلينغتون في العام ١٨٢٥، بالرغم من أن ذلك الاختراع لم يستغرق أكثر من خمس سنوات ليعبر المحيط الأطلسي، وذلك مقارنة بالسنوات الاثنتي عشرة التي استغرقها للوصول إلى ألمانيا والسنوات الاثنتين والعشرين التي استغرقها للوصول إلى سويسرا(١). تحسّنت كثيراً في هذا الوقت فاعلية التكنولوجيا، وهكذا أصبحت المناطق ذات اليد العاملة الرخيصة أكثر جذباً من الناحية الاقتصادية حتى وإن كانت أفقر بالفحم. أما ما بين العامين ١٨٢٠ و١٩١٣ فقد تضاعف عدد معامل النسيج في العالم أربع مرات، أي بالسرعة ذاتها التي تضاعف فيها عدد السكان، لكن بلغت نسبة هذه الزيادة الضعفين في الخارج عما هي في المملكة المتحدة. كانت تلك بعض ثمار مكاسب الإنتاجية – وكذلك النمو في الطلب – إلى درجة أن الناتج الإجمالي لصناعة القطن في العالم ارتفع ثلاثة أضعاف سرعة إجمالي النسيج(٢). تمكنت ما بين العامين ١٨٢٠ و١٨٧٠، نتيجة ذلك، حفنة من دول شمال غربي أوروبا ودول شمال أميركا من اللحاق بنسب النمو البريطانية، لكن نسب النمو في بلجيكا والولايات المتحدة نمت بصورةٍ أسرع.

وصل التصنيع إلى ذروته بحلول أواخر القرن التاسع عشر في مجالين واسعين: امتد الأول عبر منطقة الشرق الشمالي الأميركية وكانت مدينتا لويل وماساشوستس في قلبها. أما المجال الثاني فقد امتد من غلاسكو إلى وارسو حتى وصل إلى موسكو. كانت سبع مدن من أصل أكبر عشر مدن في العالم آسيوية، وذلك في العام ١٨٠٠، كما أن بيجينغ فاقت لندن في الحجم. أما بحلول العام ١٩٠٠، ونتيجة الثورة الصناعية، فإن مدينة واحدة فقط كانت آسيوية، أما المدن الباقية فكانت أوروبية أو أميركية.

(١) Clark, Farewell to Alms, p. 267.

(٢) Farnie, 'Role of Merchants', pp. 20ff.

شعر عدد من المراقبين بالارتياح لشيوع نموذج المدينة الصناعية على الطراز البريطاني في أنحاء العالم، لكنه أثار إحباط بعضهم الآخر. كان تشارلز داروين من بين أولئك الذين شعروا بالارتياح، وهذا ما اعترف به في كتابه **أصل الأنواع** (١٨٥٩)، وهو الذي كان «مستعداً لخوض الصراع من أجل البقاء»، وذلك عن طريق العيش في خلال الثورة الصناعية. يمكننا تطبيق قسم كبير مما قاله داروين عن الانتقاء الطبيعي على اقتصادات تجارة الأقمشة التي كانتً سائدة في أواسط القرن التاسع عشر:

إن كل الكائنات العضوية معرضةٌ للمنافسة الشديدة... ولأن عدداً من الأفراد يظهر للحياة هو أكبر مما يمكنه البقاء، لذلك يجب أن يكون الجميع في حالة صراع على البقاء، إما صراع الفرد ضد آخر من النوع نفسه، وإما صراع الأفراد من أنواعٍ مختلفة، أو مع الظروف المادية للحياة. إن كل مخلوقٍ عضوي... يجب عليه أن يصارع من أجل حياته... ولأن الانتقاء الطبيعي يعمل حصراً عن طريق تجميع تنويعات صغيرة، ومتتابعة، ومؤاتية، لذلك يعجز عن إظهار تعديلٍ كبيرٍ أو مفاجئ...[١]

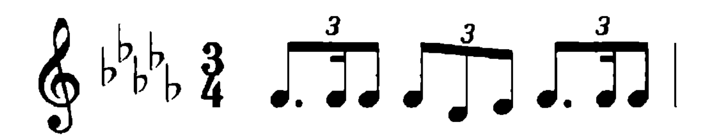
وبذلك المعنى، ربما يتمكن المؤرخون من التحدث عن **النشوء** الصناعي، بالمعنى الذي أراده داروين للكلمة. لاحظ عالِما الاقتصاد ثورشتاين فيبلين، وجوزف شومبيتر فيما بعد، أن رأسمالية القرن التاسع عشر كانت نظاماً داروينياً بامتياز، يتميّز بتغيّراتٍ عشوائية في الظاهر، وبنشوء أنواعٍ جديدة بين حين وآخر، وبالبقاء المتفاوت، أو «التدمير البنّاء» إذا أردنا استخدامَ عبارة شومبيتر الشهيرة[٢].

نلاحظ مع ذلك أن تقلّبات الأسواق المتحرّرة [من الضوابط] بدرجة أو بأخرى، والتي نتجت من الثورة الصناعية تسبّبت بالذعر في الأسواق العالمية الأخرى. كانت نسبة الوفيات في المدن الصناعية أسوأ بكثير مما هي في الأرياف، وذلك حتى الاختراعات التي حدثت في مجال الصحة العامة التي تحدثنا عنها في الفصل السابق.

(١) Darwin, Origin, chs. 3, 4 and 14.

(٢) Ferguson, 'Evolutionary Approach'.

يُضاف إلى ذلك قدوم «دورة تجارة» جديدة، هي أبعد ما تكون عن التنظيم، مع ما رافقها من أزمات دورية في الإنتاج الصناعي الفائض عن الحاجة، ومن ذعرٍ مالي، وهي الأمور التي كانت تترك، بطبيعة الحال، انطباعاً أقوى لدى الناس مما يتركه معدل النمو في الاقتصاد. صحيحٌ أن الثورة الصناعية حسّنت كثيراً من مستوى الحياة على المدى الطويل، إلا أنها على المدى القصير بدت وكأنها تساهم في جعل الأمور أسوأ. كان أحد الرسوم الكئيبة التي رسمها وليام بلايك ووضعه في مقدمته التي خصّصها لـ **ميلتون**، يمثّل شخصاً ذا بشرةٍ دكناء يحمل لفافة قطن مغمسة بالدم (*). أما بالنسبة إلى المؤلف الموسيقي ريتشارد فاغنر، فقد كانت لندن هي بمنزلة «تحقّق حلم **أولبريتش** [ملك الأقزام في الأساطير الألمانية]، والأقزام، والهيمنة على العالم، والنشاط، والعمل، وسط جوٍ طاغٍ من البخار والضباب». كانت الصور الجهنمية للمصنع البريطاني هي التي ألهمت خيالاته عن مملكة الأقزام السفلية في Das Rheingold، وكذلك في صوره المتكررة في دورة Ring، والإيقاع المستمر والمتقطع السريع لمطارق متعددة:



كان الفيلسوف **توماس كارليل**، الذي أثّر كثيراً في الفلسفة والأدب الألمانيين، أول من حدّد ما بدا أنه عيبٌ مميت في الاقتصاد الصناعي. قلّص هذا الاقتصاد كل العلاقات الاجتماعية إلى ما وصفه في مقالته **الماضي والحاضر** على أنه «رابطة النقد»:

انشغل العالم في سباقٍ متسارعٍ ومحموم للعمل، وإنجاز المزيد من الأعمال

(*) ربما تكون «المصانع الشيطانية الكئيبة» في هذا النص إشارة إلى مطاحن ألبيون التي شيّدها بولتون ووات في لندن في العام ١٧٦٩، ودمرت في حريق العام ١٧٩١.

بحيث أنه لم يكن لديه وقت للتفكير في تقسيم الأجور، كما أن الناس تنافسوا بحسب قانون الأقوى، وقانون العرض والطلب، وبحسب مبدأ اللاقانون في الصناعة، وذلك بالإضافة إلى قوانين خاملة، واللاقوانين الأخرى. إننا نسمّي ذلك مجتمعاً، كما أننا نمضي صراحة في إعلان الانفصال والعزلة التامين. إن حياتنا لا ترتكز على المساعدة المتبادلة، لكنها تحتجب، بدلاً من ذلك، خلف قوانين الحرب المستحقة، التي نسمّيها «المنافسة العادلة» وهكذا دواليك، لكنها في الواقع عدائية متبادلة. نسينا بشكلٍ كبير كل الأمكنة التي لا يُعد فيها **الدفع نقداً** العلاقة الوحيدة بين البشر... إنها ليست الرابطة الوحيدة التي تربط الإنسان بالإنسان. هناك قوانين، والتزامات مقدسة مثل حياة الإنسان ذاتها[1] وهي بعيدة جداً عن تلك العلاقة! كما أنها عميقة جداً، وأعمق من قانون العرض والطلب.

إن تلك العبارة – الدفع نقداً – هي التي أدخلت السرور إلى قلب ابن أحد المحامين اليهود المنشقّين من راينلاند، وذلك إلى جانب زميله وارث مالك مصنع قطن وبيرتال، ووضع يده عليه إثر «بيانٍ مريعٍ» نشراه عشية ثورات العام ١٨٤٨.

كان مؤسّسا الشيوعية، كارل ماركس وفردريك إنجلز، اثنين فقط من بين عدة نقادٍ متطرفين للمجتمع الصناعي، لكنهما أنجزا أول مسودة متماسكة لنظام اجتماعي بديل. لكن بسبب كون هذا البيان بداية لانشقاقٍ داخل الحضارة الغربيةً الذي قدّر له الاستمرار لمدة قرنٍ ونصفٍ قرن تقريباً، لذلك من المفيد التوقف قليلاً والتأمل في جذور نظريتهما. إنها مزيج من فلسفة هيجل التي تفسّر العملية التاريخية على أنها جدلية، ومن الاقتصاد السياسي لريكاردو، الذي افترض عوائد متناقصة للرأسمال، ومن القانون «الحديدي» للأجور المنخفضة، وهكذا استمدت الماركسية اشمئزاز كارليل من المجتمع الصناعي، واستبدلت الحنين بالطوباوية.

أما ماركس ذاته فقد كان فرداً مثيراً للاشمئزاز، ومتطفلاً لا يهتم بهندامه، ومناقشاً

(١) Carlyle, Past and Present, Book I, chs. 1–4, Book IV, chs. 4, 8.

محترفاً وعنيفاً، كما أحب التفاخر بأن زوجته هي «البارونة فون ويستفالين»، لكنه لم يتورع عن إنجاب ولد غير شرعي من خادمتهما. أما في المرة الوحيدة التي تقدّم فيها لوظيفة (بصفة كاتب في السكة الحديد) فقد رُفض بسبب رداءة خطه. سعى ماركس كذلك إلى الاشتغال في سوق الأسهم، لكنه فشل فيها. يعني ذلك أنه اعتمد في معظم حياته على مساعداتٍ تلقاها من إنجلز، الذي عد الاشتراكية بمنزلة هواية يمارسها في المساء بالإضافة إلى صيد الثعالب، وملاحقة النساء. أما وظيفته النهارية فقد كانت إدارة أحد مصانع القطن التي يمتلكها والده في مانشستر (كانت العلامة التي عُرفت بها منتجاته هي «الخيط الماسي»). لم يعرف التاريخ شخصاً أنكر اليد التي أطعمته بحماسة أكبر من تلك التي أظهرها ماركس تجاه **ملك القطن**.

يتلخص جوهر الماركسية في أن الاقتصاد الصناعي محكومٌ عليه بإنتاج مجتمع غير متساوٍ إلى حدّ لا يُحتمل، وهو مجتمع مقسم ما بين البورجوازية، وهم أصحابُ الرساميل، والبروليتاريا الذين لا يمتلكون شيئاً. تتطلب الرأسمالية، بقوة، تركيز الرأسمال في أيدي عددٍ قليلٍ من الناس، وكذلك تحويل الباقين جميعاً إلى عبيد يعتمدون على الأجر، مما يعني تقاضيهم أجراً عن «ذلك القدر من الوسائل الذي بالكاد يبقيهم على قيد الحياة كي يظلوا عمالاً». توقّع ماركس المصير المحتوم، وذلك في الفصل ٣٢ من المجلّد الأول من كتاب **رأس المال** (١٨٦٧)، الذي بالكاد يُقرأ:

مع التقلص المستمر في أعداد أقطاب الرأسمالية، وهم الذين يغتصبون ويحتكرون مزايا عملية التحوّل، و[المسؤولون] عن تزايد البؤس الجماعي، والاضطهاد، والعبودية، والذل والاستغلال، تنمو ثورة الطبقة العاملة...

إن مركزية وسائل الإنتاج و socialization القوى العاملة ستصل إلى نقطة تصعب عندها المواءمة بينهما، وبين الغلاف integument الرأسمالي الذي يحيط بها. سينفجر هذا الغلاف أجزاء متناثرة. إن أجراس نهاية الملكية الخاصة الرأسمالية تقرع. سيتحوّل المستغِلون إلى مستغَلين.

ليس من قبيل المصادفة أن يتميّز هذا المقطع بمزية فاغنرية، وببعض من Gotterdammerung، وببعض من Parsifal. لكن في زمن نشر هذا الكتاب كان ذلك المؤلف الموسيقي العظيم قد ترك خلفه روح العام ١٩٤٨. تحوّلت أغنية يوجين بوتييه «The Internationale» إلى نشيد الماركسية بدلاً من ذلك. وضع بيير دي غايتير لحن هذه الأغنية التي تحث «الجماهير المستعبَدة» على وضع «خرافاتها» الدينية وولاءاتها القومية جانباً كي تشنّ الحرب على «اللصوص» وشركائهم، والطغاة، والجنرالات، والأمراء والنبلاء.

لكن قبل تحديد أوجه الخطأ في كل تلك المقولات علينا الاعتراف بالأمور التي كان ماركس وأتباعه على حقٍ فيها. زادت اللامساواة نتيجة الثورة الصناعية. زادت إنتاجية العامل ما بين العامين ١٧٨٠ و١٨٣٠ في المملكة المتحدة إلى ما يزيد على ٢٥ بالمئة، لكن الأجور لم تزد على ٥ بالمئة. أما نسبة الدخل القومي التي كانت تذهب إلى الشريحة العليا من السكان فقد ارتفعت من ٢٥ بالمئة في العام ١٨٠١ إلى ٣٥ بالمئة في العام ١٨٤٨. أما في باريس في العام ١٨٢٠، فإن نحو ٩ بالمئة من السكان كانت مصنفة على أنها «من الملاكين وأصحاب مداخيل (أي إنهم يعيشون من استثماراتهم) كما أنهم كانوا يمتلكون ٤١ بالمئة من الثروة المسجلة. أما بحلول العام ١٩١١ فإن حصتهم هذه ارتفعت إلى ٥٢ بالمئة. أما في بروسيا، فإن حصة المداخيل الذاهبة إلى شريحة ٥ بالمئة العليا من السكان ارتفعت من ٢١ بالمئة في العام ١٨٥٤ إلى ٢٧ بالمئة في العام ١٨٩٦، ثم إلى ٤٣ بالمئة في العام ١٩١٣[١]. بدا جلياً في تلك الفترة أن المجتمعات الصناعية زادت من عدم مساواتها في أثناء القرن التاسع عشر. ترتّب على هذا الوضع نتائج متوقعة. سجّل وباء الكوليرا الذي اجتاح هامبورغ في العام ١٨٩٢، على سبيل المثال، نسبة وفيات بين الأفراد الذين تبلغ مداخيلهم أقل من ٨٠٠ مارك في السنة، ثلاثة عشر ضعفاً أكثر من الأفراد الذين

(١) Kaelble, Industrialization and Social Inequality.

يكسبون فوق ٥٠,٠٠٠ مارك[١]. لم يكن مطلوباً من المرء أن يكون ماركسياً ليشعر بالرعب إزاء اللامساواة التي تميّز المجتمع الصناعي. تصوّر روبرت أوين ـ وهو من أصلٍ إيرلندي ومالك أحد المصانع، وكذلك هو الذي صاغ لفظة «الاشتراكية» في العام ١٨١٧ - نموذجاً اقتصادياً بديلاً يستند إلى الإنتاج التعاوني والقرى الطوباوية، مثل تلك التي أسّسها في أوربيستون في أسكتلندا ونيو هارموني، إنديانا[٢]. اعترف الإيرلندي المحب للجمال والمرح أوسكار وايلد بأساس المعاناة الاجتماعية التي يستند إليها العالم الراقي:

هؤلاء هم الفقراء الذين لا وجود للتصنّع في سلوكياتهم، أو لحلاوة الحديث بينهم، أو للمجتمع الراقي... تكسب الإنسانية الكثير من ازدهارها المادي نتيجة جهودها الجماعية. لكنها تكسب النتيجة المادية منهم فقط، أما الرجل الفقير فلا أهمّية له في ذاته. إنه مجرد ذرةٍ متناهية في الصغر ضمن قوة تسحقه بدلاً من أن تحترمه: إنها تفضّل، في واقع الأمر، أن تراه مسحوقاً لأنه في تلك الحالة يكون أكثر إطاعةً بكثير... أما المناضلون فهم مجموعة من الأشخاص المعترضين، والمتطفلين، الذين يدخلون بين طبقة قانعة تماماً من المجتمع، ويغرسون بذور السخط بين صفوفها. هذا هو السبب الذي يجعل المناضلين ضروريين تماماً، لأنه من دونهم لا نستطيع، في وضعنا غير التام هذا، التقدم نحو الحضارة... [لكن] الواقع هو أن الحضارة تتطلب وجود العبيد. كان اليونانيون محقّين تماماً من هذه الناحية، لأنه إذا لم يوجد العبيد للقيام بالأعمال البشعة، والمريعة، التي لا تثير اهتمام أحد، فإن الثقافة والتأمل يصبحان مستحيلين تقريباً. إن عبودية البشر خاطئة، وغير آمنة، ومثيرة للإحباط. يعتمد مستقبل العالم على العبودية الميكانيكية، وعلى عبودية الآلة[٣].

لكن الثورة التي خشيها وايلد، وتوقعها ماركس بكل لهفة، لم تحدث قط،

(١) Evans, Death in Hamburg.

(٢) Grayling, Light of Liberty, pp. 189–93.

(٣) Wilde, De Profundis, pp. 21, 23, 33.

وأقله حيث يُفترض أن تحدث. أما الاحتجاجات التي حدثت في العامين ١٨٣٠ و١٨٤٨، فقد كانت نتيجة الزيادات المفاجئة والبسيطة في أسعار المواد الغذائية والأزمات المالية أكثر مما كانت نتيجة الاستقطاب الاجتماعي[١]. لكن مع تحسّن الإنتاجية الزراعية في أوروبا، ومع زيادة التوظيف في قطاع الصناعة، ومع تناقص amplitude في الدورة التجارية، فإن مخاطر الثورة تناقصت. وبدلاً من التجمع في كتلة فقيرة واحدة انقسمت الطبقة العاملة إلى «أرستقراطيات عاملة» تمتلك مهارات معينة، وكذلك إلى طبقة عاملة قانعة ومتميزة بمساوئ محددة. أما الفئة الأولى فقد فضّلت الإضرابات، والمساومة على الثورة، وهكذا ضمنت لنفسها أجوراً أعلى بكثير. أما الفئة الثانية فقد فضّلت اللجوء إلى الشراب. امتلكت الطبقة العاملة المحترمة اتحاداتها النقابية ونوادي العمال[٢]. أما العمّال الذين فضّلوا اللجوء إلى العنف ـ keelies بلغة غلاسكو – فقد لجأوا إلى قاعات الموسيقى وعراك الشوارع.

لم تكن الوصفات الجاهزة التي وردت في **البيان الشيوعي** منفرة على الصعيد الفردي بالنسبة إلى العمال الصناعيين الذين توجه البيان إليهم. دعا ماركس وإنجلز إلى إلغاء الملكية الخاصة، وإلغاء الوراثة، وإلى مركزية الإقراض والاتصالات، وإلى تملّك الدولة لكل المصانع وأدوات الإنتاج، وكذلك إلى تشكيل «جيش صناعي للزراعة»، وإلى إلغاء التمييز بين المدينة والريف، وإلى إلغاء الأسرة، وإلى «التشارك في النساء» (تبادل الزوجات)، وإلى إلغاء كل أشكال القوميات. أراد متحررو أواسط القرن التاسع عشر، في المقابل، إرساء الحكم الدستوري، وحريات التعبير، والصحافة، والتجمّع، والتمثيل السياسي الأوسع، من خلال إصلاح نظام الانتخابات، وحرية التجارة، وتقرير المصير للقوميات التي تفتقد هذا الحق (الحكم الذاتي). حصل المتحرّرون في نصف القرن الذي تلا اضطرابات العام ١٨٤٨ على معظم تلك الأمور، وكانت كافية على أي حال لجعل الإصلاحات اليائسة التي طالب بها ماركس

(١) Berger and Spoerer, 'Economic Crises'.

(٢) See e.g. Fowler, Lancashire Cotton Operatives.

وإنجلز تبدو متطرفة ولا لزوم لها. كان حق الانتخاب محصوراً في العام ١٨٥٠ بفرنسا واليونان وسويسرا، وكانت نسبة من يحق لهم التصويت تعادل خُمس السكان. أما في العام ١٩٠٠ فقد تزايد العدد إلى عشرة بلدان، ولم تكن بريطانيا والسويد بعيدتين كثيراً عن هذا الحق. أدى التوسع في التمثيل الانتخابي إلى تشريعاتٍ أفادت منها مجموعات ذوي الدخل المنخفض، كما أن التجارة الحرة في بريطانيا كانت تعني أسعاراً أرخص للخبز، والخبز الرخيص بالإضافة إلى الارتفاع الاسمي للأجور الذي حصل بفضل ضغوط النقابات العمالية التي كانت تعني مكاسب هامة فعلية بالنسبة إلى العمال. تضاعفت كذلك الأجور اليومية الفعلية لعمال البناء في لندن ما بين العامين ١٨٤٨ و١٩١٣. أدى التمثيل الأوسع كذلك إلى نظام ضريبي أكثر تقدمية، كما أن بريطانيا هي التي قادت الطريق في العام ١٨٤٢، وذلك عندما أدخل السير روبرت بيل ضريبة الدخل في أوقات السلم. وصل معدل الضريبة في العام ١٩١٣ إلى ١٤ بنساً لكل جنيه (ما يعادل ٦ سنتات). أما في الفترة التي سبقت العام ١٨٤٢ فإن كل المدخول [الحكومي] البريطاني كان من الضرائب غير المباشرة التي فُرضت على الاستهلاك، وذلك عبر الجمارك والرسوم المفروضة على السلع، وكذلك الضرائب [الرجعية] التصاعدية regressive التي تأخذ قيمة صغيرة بشكلٍ متناسب مع المدخول كلما زاد ثراء المرء. أما بحلول العام ١٩١٣ فإن ثلث المدخول كان يأتي من الضرائب المباشرة المفروضة على الأغنياء نسبياً. لم تكن الحكومة المركزية في العام ١٨٤٢ تنفق أي شيء تقريباً على التعليم والفنون والعلوم. أما في العام ١٩١٣، فشكلت هذه البنود ١٠ بالمئة من الإنفاق. حذت بريطانيا في هذه الفترة حذو ألمانيا في إعطاء تقاعد من الدولة للمسنّين من مواطنيها.

أخطأ ماركس وإنجلز في نقطتين. أولاهما، كانت قانونهما الحديدي للأجور بلا معنى. تركزت الثروة بالفعل كثيراً في عهد الرأسمالية، وبقيت كذلك حتى الربع الثاني من القرن العشرين. لكن الفروق في المداخيل بدأت بالضيق، لأن الأجور الفعلية زادت، كما أن الضرائب أصبحت أقل رجعية regressive. فهم الرأسماليون

أن ماركس ارتكب خطأً: أن العمال هم مستهلكون بدورهم. لم يعد منطقياً، والحالة هذه، محاولة سحق أجورهم وخفضها إلى مستويات الكفاف. لكن، على النقيض من ذلك، وكما أوضحت حالة الولايات المتحدة، فلم تكن هناك سوقٌ مفترضة أكبر لمعظم الشركات الرأسمالية من موظفيها. لم تسفر عملية مكننة إنتاج الأقمشة عن «إفقار» الناس، بل هيأت فرصاً متزايدة للتوظيف أمام عمال الغرب - وذلك بالرغم من تكلفة آلات الحياكة والغزل الهندية، ومن هبوط أسعار القطن والسلع الأخرى، الأمر الذي مكّنهم من شراء المزيد من السلع بأجورهم الأسبوعية. لكن تأثيرها [المكننة] يتضح أكثر لدى ملاحظة الفروق الهائلة عند مقارنة الأجور ومستويات المعيشة ما بين الدول الغربية وغير الغربية في هذه الفترة. توسّعت الهوة كثيراً ما بين الطليعة الصناعية والريف المتخلّف. لم تكن الأجرة الفعلية للعمال غير المهرة (المعدلة بحسب كلفة المعيشة) في لندن في مطلع القرن السابع عشر تختلف كثيراً عن الأجرة التي يحصل عليها نظراؤهم في ميلانو. أما منذ الستينيات من القرن الثامن عشر وحتى الخمسينيات من القرن التاسع عشر فقد تمكّن عمال لندن من التقدم كثيراً. أما في ذروة الفروق الكبيرة التي ظهرت داخل أوروبا، فكانت الأجور الفعلية في لندن ستة أضعاف ما هي عليه في ميلانو. أما مع التصنيع الذي حدث في شمال إيطاليا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فبدأت تلك الفجوة بالضيق بحيث أنها كانت أقرب إلى نسبة ٣ إلى ١ عشية الحرب العالمية الأولى. لكن العمال الألمان والهولنديين استفادوا بدورهم من التصنيع بالرغم من أنهم كانوا متخلفين عن نظرائهم الإنكليز حتى في العام ١٩١٣[١]. أما العمال الصينيون، في المقابل، فلم يتمكّنوا من اللحاق [بركب نظرائهم في أوروبا]. كانت الأجور أعلى في المدن الكبيرة مثل بيجينغ وكانتون حيث كان عمال البناء يتلقون ما يعادل نحو ٣ غرامات من الفضة يومياً، لكن هذه الأجور لم تشهد حركة تصاعدية في القرن الثامن عشر،

(١) Allen, 'Great Divergence in European Wages'. I am grateful to Robert Allen for sharing his wage data with me.

بالرغم من أنها تحسّنت قليلاً في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين (حين ارتفعت إلى نحو ٥ – ٦ غرامات). سجّل بعض التحسّن كذلك في كانتون بعد العام ١٩٠٠ بالرغم من أنه كان تحسّناً ضئيلاً في حين بقي عمال سيشوان في فقرٍ مدقع. شهد عمال لندن في هذا الوقت القيمة التي تعادل أجورهم من الفضة وهي ترتفع من نحو ١٨ غراماً في الفترة ما بين العامين ١٨٠٠ و١٨٧٠ إلى ٧٠ غراماً ما بين العامين ١٩٠٠ و١٩١٣. أما إذا احتسبنا كلفة إعالة الأسرة التي تقع على عاتق العامل الصيني العادي فسوف يمكننا القول إن مستوى معيشته قد انخفض في خلال القرن التاسع عشر، وحدث الهبوط الحاد في هذا المستوى في خلال ثورة تايبينغ (أنظر الفصل السادس). صحيح أن المعيشة كانت أرخص في الصين عما كانت عليه في شمال غربي أوروبا، لكن يجب علينا أن نتذكّر أن سكان لندن وبرلين تمتعوا في ذلك الوقت بوجبات غذائية أكثر تنوعاً مؤلفة من الخبز، ومنتجات الحليب، واللحوم، كما كانوا يتناولون كميات كبيرة من الشراب [الكحول]، في حين أن معظم سكان شرق آسيا كانوا يعتمدون على الأرز المطحون والحبوب الصغيرة الأخرى. بدا واضحاً مع ذلك، وبحلول العقد الثاني من القرن العشرين أن الفجوة في مستوى المعيشة ما بين لندن وبيجينغ كانت نحو ستة إلى واحد، وذلك مقارنة باثنين إلى واحد في القرن الثامن عشر[١].

كان الخطأ الذي ارتكبه ماركس وإنجلز هو إساءة تقدير المزية التكيّفية للدولة في القرن التاسع عشر – وعلى الخصوص عندما تتمكن من شرعنة نفسها بوصفها دولة – أمة.

أطلق ماركس في كتابه **مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل** وصفه الشهير للدِين بأنه «أفيون الجماهير [الشعوب]». يمكننا القول، إذا كانت الحال كذلك، إن القومية كانت كوكايين الطبقات المتوسطة. كان Teatro La Fenice في البندقية مسرحاً للعرض الأول لأوبرا جديدة كتبها المؤلف الموسيقي الإيطالي الشهير غوسيب

(١) Allen et al., 'Wages, Prices, and Living Standards'.

فيردي، وذلك في ١٧ آذار من العام ١٨٤٦. وُلد فيردي، من الناحية التقنية، فرنسياً في واقع الأمر، وذلك لأن اسمه عند ولادته كان «جوزف فورتونين فرانسوا فيردي». يعود ذلك إلى أن القرية التي وُلد فيها كانت حينئذٍ تحت الحكم النابوليوني بعد أن ضُمّت إلى فرنسا مع بقية دوقية بارما وبياسينزا. وقعت البندقية بدورها تحت قبضة الاحتلال الفرنسي، لكنها سُلّمت لاحقاً إلى النمسا في العام ١٨١٤. تفسّر لا شعبية جيش آل هابسبورغ وبيروقراطيتهم الحماسة المفرطة التي استجاب لها الجمهور الذي كان معظمه إيطالياً للسطور الآتية من الأوبرا:

Tardo per gli anni, e tremulo

;E il regnator d Oriente

Siede un imbelle giovine

;Sul trono d'Occidente

Tutto sara disperse

...Quand'io mi unisca a te

,Avrai tu l'universo

,Resti l'universo

.Resti l'Italia a me

(طاعن في السن وواهن/ هو حاكم الأمبراطورية الشرقية؛/ لكن شاباً أحمق يجلس على عرش الأمبراطورية الغربية؛/ سيتبعثر كل شيء/ إذا توحدنا أنا وأنت.../ **يمكنك أخذ الكون/** لكن دع لي إيطاليا).

كانت كلمات هذه الأغنية التي أدّاها موفد روماني يدعى إيزيو أمام آتيلا، وذلك بعد نهب روما، بمنزلة استثارةٍ مغلفة للمشاعر القومية. تصوّر هذه الكلمات إلى حدّ مثالي التفوق الدائم للقومية على الاشتراكية وذلك لأنها تمتلك سحرها الخاص.

يمكننا التأكيد أن القومية تمتلك بياناتها الخاصة بها. كان شخصٌ آخر يدعى

غوسيب، وهو **مازيني**، أقرب ما يكون إلى المنظّر الذي أنتجته القومية. لاحظ مازيني بفطنته في العام ١٨٥٢، أن الثورة «اتخذت شكلين: المسألة التي اتفق الجميع على تسميتها اجتماعية، ومسألة القوميات». أما قوميو ريزرجيمنتو الإيطاليون فقد:

ناضلوا... مثل ما جرى في بولندا، وألمانيا، وهنغاريا، من أجل البلاد والحرية؛ ومن أجل كلمة كُتبت على لافتة، وهي تُعلن للعالم أنهم يعيشون، ويفكرون، ويحبون، ويعملون لمنفعة الجميع. إنهم يتكلمون اللغة ذاتها، وهم يحملون الملامح ذاتها، وهم يجثون إلى جانب المقابر ذاتها، ويفتخرون بالتقاليد ذاتها؛ وهم يطالبون بالتشارك بحرية، ومن دون عقبات، ومن دون السيطرة الأجنبية...[١]

كان الأمر بسيطاً بالنسبة إلى مازيني: «يجب إعادة رسم خريطة أوروبا». رأى كذلك أن [القارة] في المستقبل سوف تنتظم في إحدى عشرة دولة ـ أمة. إن القول أسهل من الفعل في هذا الصدد، ولعل ذلك يفسّر كيف أن الأنماط المفضلة للقومية كانت فنية أو رياضية بدلاً من أن تكون منهجية. ظهرت القومية في أفضل حالاتها في الشعر الشعبي لكتابٍ مثل اليوناني ريغاس فيرايوس، («من الأفضل للإنسان أن يمضي ساعة كرجلٍ حر من أن يمضي أربعين سنة في العبودية والسجن»)؛ وكذلك في أغنيات الأخويات الطلابية الألمانية، («يقف الحارس فوق الراين صلباً وحقيقياً»)؛ أو حتى في الملاعب الرياضية، حيث لعبت أسكتلندا ضد إنكلترا يوم عيد سانت أندروز، وذلك في خلال أول مباراة دولية لكرة القدم جرت في العام ١٨٧٢، وهي التي انتهت بنتيجة صفر ـ صفر. لكن الأمور كانت تتعقّد أكثر عندما تصل إلى الحدود السياسية، والحدود اللغوية، والحدود الدينية، التي لم تتطابق قط. يتضح الأمر أكثر في مثلث الأراضي المميت الذي يحيط بالبلطيق، والبلقان، والبحر الأسود. تمكنت ثماني دولٍ جديدة من الوصول إما إلى الاستقلال وإما إلى الوحدة، وذلك في الفترة ما بين ١٨٣٠ و١٩٠٥، وهي: اليونان (١٨٣٠)، وبلجيكا (١٨٣٠-١٨٣٩)، ورومانيا (١٨٥٦)، وإيطاليا (١٨٥٦-١٨٧١)، وألمانيا (١٨٦٤-١٨٧١)،

(١) Mazzini, 'To the Italians'.

وبلغاريا (١٨٧٨)، وصربيا (١٨٦٧-١٨٧٨) والنروج (١٩٠٥). لكن الجنوبيين في أميركا فشلوا في مساعيهم لنيل الاستقلال، وذلك ما حدث مع الأرمن، والكروات، والتشيك، والإيرلنديين، والبولنديين، والسلوفاك، والسلوفينيين والأوكرانيين. أما الهنغاريون، فهم مثلهم مثل الأسكتلنديين قد اضطروا إلى قبول دور الشريك الأصغر في أمبراطوريات مزدوجة ساعدوا على إدارتها. أما بالنسبة إلى الشعوب المتمايزة لغوياً وعرقياً مثل شعوب روما، وسينتي، والكاشوب Kashubes، والسورب Sorbs، والويندين، والفلاك Vlachs، وSzekelys، وCarpatho-Rusyns وLadin، فهي لم تأخذ مسألة استقلالها السياسي بصورةٍ جدية.

يتعلق النجاح أو الفشل في لعبة بناء الأمم بالسياسة العملية. وجد كاميلو بينسو، وهو كونت كافور، أنه من المناسب تحويل بقية أنحاء إيطاليا إلى ملحقة استعمارية لبيدمونت – سردينيا. كانت الحال كذلك مع أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك، وهو كونت منطقة بسمارك ـ شونهاوزن، الذي وجد أنه من المناسب المحافظة على امتيازات العائلة الملكية البروسية، وذلك عن طريق جعلها المؤسسة الأقوى في الرايخ الألماني الاتحادي. كتب بسمارك في مذكراته:

لم أشك قط في أن أهمّ عنصر في السياسة الألمانية كان بيد الأمراء والسلالات الحاكمة، وليس بيد أولئك الباحثين عن الشهرة، سواء في البرلمان والصحافة، أو وراء المتاريس... أما تلك العقدة المستعصية في الوضع الألماني... فلا يمكن حلّها إلا بحدّ السيف: الأهم في الموضوع هو ضرورة كسب ملك بروسيا، سواء عن وعي أو من دون وعي، ومعه الجيش البروسي، وذلك من أجل القضية القومية، وسواء أكان ذلك من وجهة نظر «بروسية Borussian» أو من وجهة نظرٍ قومية تعني أن توحيد ألمانيا هو الغاية الرئيسة: كانت الغايتان شاملتين co-extensive ... فالسلالات الحاكمة كانت أقوى على الدوام من الصحافة والبرلمان... تحتاج الوطنية الألمانية إذا أرادت أن تكون ناشطة وفاعلة إلى أن تتعلق بسلالة حاكمة... يتعلق الأمر بسلالة بروسية، أو بآل هانوفر، أو فرتمبيرغ، أو بسلالة بافارية، أو الهيس، أكثر من سلالة ألمانية، [لكن الألمانية] هي المؤهلة لإعطاء البرهان القاطع على الوطنية[1].

(١) Bismarck, Reminiscences, Vol. I, ch. 13.

كان التحوّل من Bund ألمانية مؤلفة من تسع وثلاثين دولة تهيمن عليها النمسا إلى الرايخ المؤلف من خمس وعشرين دولة، تهيمن عليه بروسيا، هو ضربة المعلم التي أقدم عليها بسمارك. لكن ما حدث هو أن الهزيمة التي ألحقتها بروسيا بالنمسا والدول الأعضاء الأخرى في الكونفيدرالية الألمانية في العام ١٨٦٦ يجب ألاّ تعدّ حرباً من أجل التوحيد، بل هي في حقيقتها نصرٌ أحرزه الشمال على الجنوب في حرب أهلية ألمانية، وذلك لسببٍ بسيط وهو أن عدداً كبيراً من الناطقين بالألمانية قد استُبعدوا من ألمانيا الجديدة. لكن النصر الذي أحرزه بسمارك لم يصبح كاملاً إلى أن تفوق بمناوراته على خصومه الليبراليين داخل البلاد، وهو ما حصل أولاً عندما أدخل التصويت الشامل، الذي كلّفهم خسارة مقاعد كثيرة في مجلس الدايت الجديد (الرايشتاغ)، وبعد ذلك عندما شتّت صفوفهم حول مسألة التجارة الحرة في العام ١٨٧٨. كان ثمن ذلك إعطاء الألمان الجنوبيين وضعين حاسمين: الدور المحوري لحزب الوسط الكاثوليكي في مجلس العموم (الرايشتاغ)، وحق الفيتو الجماعي لجمهوريات جنوب ألمانيا في المجلس الأعلى (البوندسرات).

Se vogliamo che tutto rimanga come e, bisogna che tutto cambi - «إذا أردنا أن يظل كل شيء على حاله، فينبغي تغيير كل شيء». كان ذلك هو أشهر أسطر الرواية التاريخية **النمر** (١٩٥٨)، التي كتبها غوسيب توماسي دي لامبيدوزا، وهو قولٌ يكثر الاستشهاد به من أجل تلخيص السمة المحافظة المحجوبة للوحدة الإيطالية. لكن تأسيس هذه الدول – الأمم الجديدة لم يتعلّق فقط بالمحافظة على الامتيازات الموروثة لنخبة ملاك الأراضي المهدّدين في أوروبا. كانت الكيانات المماثلة لإيطاليا أو ألمانيا تتألف من عدة دويلاتٍ صغيرة، أعطت مواطنيها مجموعةً من المنافع: تخفيض كلفة الإنتاج، امتياز الشبكات network externalities، وكلفة معاملاتٍ أقل، وكذلك التقديم الأكثر فاعلية للحاجات العامة الأساسية مثل القانون والنظام، والبنى التحتية، والصحة. كان بإمكان الدول الجديدة أن تكون مدن أوروبا الصناعية الكبيرة، والبيئة التي تفرخ الكوليرا والثورة، لكنها أصبحت آمنة في نهاية

المطاف. أزيلت الأحياء الفقيرة، وأصبحت الطرقات عريضةً جداً بحيث لا تسمح بإقامة المتاريس، كما أصبحت الكنائس أوسع، والمتنزهات خضراء، وأقيمت الملاعب الرياضية. أما الأهمّ من كل شيء فقد كان وجود المزيد من رجال الشرطة – وهي كلها أمور حوّلت عواصم أوروبا، وليس أقلّها باريس، التي غيّرها البارون جورج هاوسمان تماماً من أجل نابليون الثالث. امتلكت جميع الدول الجديدة هذه واجهات مبانٍ رائعة، حتى أن النمسا المهزومة لم تضيّع وقتاً طويلاً قبل إعادة تجديد نفسها أمبراطورية – ملكية تحت اسم النمسا – هنغاريا، وهي التي أقامت هويتها المعمارية بالأحجار التي أحاطت بـ [سور] Ringstrasse فيينا[1]. كانت هناك قيمة حقيقية وراء تلك الواجهات، فالمدارس شُيّدت فكانت أفضل وسيلة لغرس اللغات القومية الموحدة في رؤوس الصغار. أُقيمت الثكنات كذلك، فكانت أفضل الأماكن لتدريب طلبة المدارس الثانوية على الدفاع عن أرض أجدادهم. أنشئت كذلك السكك الحديد حيث بدت ربحيتها مشكوكاً فيها، لكنها كانت الوسيلة المثالية لنقل الجنود إلى الحدود كلما دعت الحاجة. تحوّل الفلاحون إلى فرنسيين، أو ألمان، أو إيطاليين، أو إلى صربٍ، وذلك تبعاً للمنطقة التي ولدوا فيها.

أما المفارقة هنا فهي تزامن عصر القوميات هذا مع توحيد أنماط الملابس. استمرت الأزياء العسكرية بالتمايز قومياً إلى درجة أمكن معها، تحت وطأة المعارك، تمييز الجندي الفرنسي من الجندي الألماني، أو من [الروس] rosbif، حتى من ظلال أولئك الجنود. لكن الابتكارات العسكرية التي شهدها القرن التاسع عشر حسّنت كثيراً دقة تصويب المدفعية وقوتها، وذلك بالإضافة إلى استخدام البارود الذي لا يترك دخاناً، وهي كلها أمور استدعت تغيير المعاطف اللامعة التي كانت سائدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى معاطف أكثر دكنة. تبنى البريطانيون الأزياء الكاكية بعد حرب العام ١٨٧٩ التي نشبت بين الإنكليز والزولو، وهو مثال

(١) Schorske, Fin-de-Siècle Vienna.

حذا حذوه الأميركيون واليابانيون بعد ذلك. اختار الروس اللون الكاكي كذلك، وإن كان أقرب إلى الدكنة أكثر، وذلك في العام ١٩٠٨. أما الإيطاليون فاختاروا اللون الأخضر المائل إلى الرمادي في حين أن الألمان والنمسويين فضّلوا اللون الرمادي وpike grey. لكن مع توسع حجم الجيوش كان لا بد من تبسيط الاقتصاد، وكذلك أصبحت المعارك أكثر وضوحاً.

أظهر المدنيون الذكور نفوراً من الأزياء المبهرجة التي كانت تفضلها الأجيال السابقة. أما البذلة التي ابتكرها بيو بروميل في حقبة الوصاية على العرش، فقد كانت تبسيطاً بدورها بالنسبة إلى الأزياء التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر. مالت الأذواق بشدة بعد ذلك نحو رزانة ملابس المجتمع البورجوازي. أما معطف «نيوماركت» الذي كان يصل إلى الركبة وذا زر واحد، وهو الذي يشبه طائر البطريق، والذي لا نراه الآن إلا في حفلات الزفاف المبالغ فيها، فقد حل مكانه معطف بروميل، والمعطف مزدوج الصدر الذي كان مفضّلاً لدى الأمير آلبرت. أما ألوان السترات فراوحت ما بين ألوان الحرير الصيني، وألوان الصوف الأسود أو الرمادي. أما السراويل القصيرة فقد اختفت أمام السراويل الطويلة، وكذلك الجوارب الطويلة التي اختفت أمام الجوارب السوداء القاتمة. أما القمصان فقد كانت بيضاء غالباً. بدا أن حجم الياقات أخذ بالتقلص إلى حين لم يبقَ منها سوى ما يشبه جناحَي دجاجة صغيرين، وكانت ربطة عنق تشدهما معاً، وهي غالباً ما كانت سوداء اللون. أما القبعات فتقلص حجمها كذلك، ولم يبق منها إلا ما يغطي الرأس. كان لون القبعات هو اللون الأسود. بدا الأمر وكأن المجتمع برمّته يتجه نحو الوعي.

لسنا بحاجة إلى التأكيد أن ملابس النساء كانت أكثر تعقيداً وتنوعاً في العصر الفيكتوري، كما ظهر نوعٌ من الوحدة بين العمال الذين يرتدون زي العمل، والفقراء الذين غالباً ما ارتدوا ثياباً متغضنة. لكن توحيد الأزياء في الفترة الفيكتورية – وهو الأمر الذي امتد في طول أوروبا وعرضها، ووصل حتى الحوض الشرقي للولايات المتحدة – فقد ظل واقعاً ولغزاً في وقتٍ كانت القوميات في مرحلة صعود. بدا

«النشيد الاشتراكي» حاضراً، لكن على مستوى أزياء الملابس فقط. أما تفسير ذلك فقد كان آلياً mechanical، كما يمكن للمرء أن يتوقع في العصر الصناعي.

ظهرت آلة [ماكنة] خياطة سنجر في العام ١٨٥٠، أي عندما انتقل إسحق ميريت سنجر إلى بوسطن في ماساشوستس، ورأى عيوب الآلة التي كانت تُصنع في ورشة أورسون سي. فيلبس. لاحظ ضرورة أن تكون الإبرة مستقيمة غير مقوسة. أما المكوك فكان يجب أن يكون مستعرضاً. لاحظ كذلك أن الجهاز برمته يجب أن يشغّل بالقدمين، وليس باليدين. لم يكن **سنجر** رجلاً لطيفاً، أي مثل ما كان عليه ماركس. كان للرجل أربعة وعشرون ولداً من خمس نساء مختلفات، رفعت إحداهن عليه قضية بتهم تعدد الزوجات، الأمر الذي أجبره على الفرار من الولايات المتحدة. كان **سنجر** من أصلٍ يهودي مثل ماركس، وعدد كبير من رجال الأعمال في القرنين التاسع عشر والعشرين، الذين كانوا يعملون خصوصاً في مجال الأقمشة وأدوات التجميل (*). تمكّن سنجر، مثل ماركس، من تغيير العالم، وإن كان نحو الأفضل، أي بخلاف ما فعله ماركس.

تمكن آي. أم. سنجر وشركاه، وهي الشركة التي أصبحت فيما بعد **شركة سنجر للإنتاج**، من إكمال عملية مكننة إنتاج الأقمشة التي بدأها جايمس هارغريف قبل أقل من قرنٍ من الزمن. يعني ذلك أنه أصبح ممكناً أن تقوم الآلة بخياطة قطع القماش وجمعها معاً. لا نستغرب في هذه الحالة أن لا يلاحظ الجيل الذي لم يسبق له أن خاط أكثر من بضعة أزرار، الطبيعة الثورية لهذا الاختراع. كان ميل سنجر إلى النساء شديد الوضوح، لكن هل قدّم أي رجلٍ آخر قدراً مما قدّمه لهن؟ تقلصت ساعات العمل المضنية، التي كانت ضرورية لخياطة حاشية فستان، إلى دقائق قليلة، وإلى

(*) تُفصح الأسماء الآتية عن نفسها في هذا المجال: دونا كاران، كالفين كلاين، إيستي لاودر، رالف لورين، وهيلينا روبنشتاين، وليفي شتراوس. يصدق الأمر ذاته على المتاجر الكبيرة الآتية: آبراهام وشتراوس، بيرغدورف غودمان، بلومينغدايل، ماسي، نيمان ماركوس، ساكس وسيرز، وذلك من دون أن ننسى متاجر الألبسة التي تبيع بالمفرّق ماركس وسبنسر.

ثوانٍ بعدها، وذلك بفضل سنجر. يلخّص تاريخ ماكنة خياطة سنجر الطبيعة التطورية للثورة الصناعية، وذلك مع ظهور طريقةً فعالة في إثر أخرى. تتالت التغيّرات المستمرة [في هذه الماكنة] بعد ظهور أول إنجازٍ كبير: نموذج ظهر السلحفاة (١٨٥٦) الذي تبعه نموذج الجندب Grasshopper (١٨٥٨)، ونموذج الأسرة الجديدة (١٨٥٦)، والنموذج الكهربائي K ٩٩ (١٨٨٠). أما بحلول العام ١٩٠٠ فقد كان ما لا يقل عن أربعين نموذجاً مختلفاً قيد الإنتاج. تزايد هذا العدد بحلول العام ١٩٢٩ إلى ٣,٠٠٠.

شهدت هذه الماكنة انتقالاً سريعاً إلى بقية مناطق العالم قلّ نظيره بين الاختراعات التي ظهرت في القرن التاسع عشر. انتشرت سنجر من مقرها العام في ٤٥٨ (١٤٩ بعد ذلك) برودواي، نيويورك لتصبح واحدةً من الماركات العالمية بالفعل. امتلكت مصانع في البرازيل، وكندا، وألمانيا، وروسيا، وأسكتلاندا. أما في أوج ازدهار هذه الشركة فقد كان مصنع كيلبووي في كلايدبانك يغطي مساحة مليون قدم مربعة، ويوظّف ١٢,٠٠٠ عامل. تجاوزت المبيعات العالمية لهذه الشركة في العامٍ ١٩٠٤ الرقم ١,٣ مليون ماكنة سنوياً، لكن هذا الرقم تضاعف أكثر بحلول العام ١٩١٤. أما شعار الماركة - حرف S الملفوف حول امرأةٍ خيّاطة - فقد انتشر في كل أصقاع الأرض، وكان يشاهد حتى على قمة جبل إيفرست، وذلك بحسب ما قاله مسؤولو الإعلان عن تلك الماركة. قدم المهاتما غاندي تنازلاً نادراً أمام الحداثة، وذلك عندما اعترف بأن ذلك الاختراع كان «أحد الأشياء النافعة القليلة التي تم اختراعها على الإطلاق». كان ذلك ثناءً فعلياً جاء من الرجل الذي عبّر عن استيائه حتى من الطب الحديث[١].

وضع سنجر مثالاً للتفوّق الأميركي. لم يقتصر الأمر على اجتذاب الولايات المتّحدة المغامرين بطبيعتهم من رواد التجارة، أي كما فعلت ذلك دائماً، لكن تجمّع ما يكفي منهم لتكوين سوقٍ داخلية لا نظير لها. تجاوزت الولايات المتحدة المملكة المتحدة في الفترة ما بين ١٨٧٠ و١٩١٣. كان عدد سكان المملكة المتحدة

(١) H. C. Martin, 'Singer Memories': http://www.singermemories.com/index. html.

يبلغ ضعفي عدد سكان الولايات المتحدة في العام ١٨٢٠، لكن الآية انعكست بحلول العام ١٩١٣. زادت نسبة النمو الأميركي بين العامين ١٨٧٠ و١٩١٣ حتى ٨٠ بالمئة[١]. أما في العام ١٩٠٠ فقد كانت حصة الولايات المتّحدة من الإنتاج العالمي هي الأعلى: ٢٤ بالمئة مقابل ١٨ بالمئة حصة بريطانيا[٢]. احتل الاقتصاد الأميركي في العام ١٩١٣ المرتبة الأولى بين الاقتصادات الصناعية في العالم بالنسبة إلى الفرد[٣]. لكن الأكثر أهمّية هو أن الإنتاجية الأميركية ربما هدّدت بتجاوز الإنتاجية في بريطانيا (إلا أنها لم تفعل ذلك إلا في العشرينيات من القرن العشرين)[٤]. كان القطن والأقمشة في قلب «العصر الذهبي» الأميركي، أي مثل ما كان الأمر عليه مع عصر التصنيع البريطاني. أما في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى فقد كان القطن الخام الآتي من الجنوب ما زال يشكل ٢٥ بالمئة من الصادرات الأميركية[٥]. كان معظم الإنتاج الأميركي من القطن، مع ذلك، يُنتج للاستهلاك المحلي. أما صادرات بريطانيا الصافية من المنتوجات القطنية في العام ١٩١٠ فكانت تساوي ٤٥٣ مليون دولار، بينما بلغت صادرات الولايات المتحدة منها في ذلك العام ٨/٥ ملايين دولار فقط. لكن الأكثر إدهاشاً هو أن ثاني أكبر مصدرٍ للمنتوجات القطنية في ذلك الوقت ربما لم يكن بلداً غربياً، بل كان أول بلدٍ من بقية أنحاء العالم عرف كيف ينافس الغرب بنجاح. ذلك البلد كان اليابان.

التغريب

شهد العالم في العام ١٩١٠ تكاملاً اقتصادياً بطريقةٍ لم يشهدها من قبل. كانت الروابط المختلفة التي ربطت ذلك العالم معاً – السكك الحديد، خطوط السفن

(١) Maddison, World Economy, tables B-10, B-21.

(٢) Kennedy, Rise and Fall, p. 190.

(٣) Bairoch, 'International Industrialization Levels'.

(٤) Broadberry, 'Total Factor Productivity'.

(٥) Fordham, ' «Revisionism» Reconsidered'.

العاملة على البخار، والتلغراف – مخترعات غربية في الغالب، ومملوكة من قبل شركات غربية. تمكّن الغرب من تقليص [المسافات التي تفصل بين] العالم. أما إذا جُمعت كل خطوط السكة الحديد في الولايات المتّحدة من أولها إلى آخرها فسوف يماثل طولها ثلاثة عشر ضعفاً محيط الأرض. تمكّن الإنسان في تلك الفترة من السفر من فرساي إلى فيلاديفوستوك بالقطار. يُضاف إلى ذلك أن التحسينات المستمرة التي شهدتها السفن البخارية ـ بدءاً بمراوح الدفع اللولبية، والهياكل الحديدية، والمحركات المركّبة، والمكثفات السطحية – جعلت عبور المحيطات أسرع وأرخص من السفر براً. بلغ إجمالي حمولة سفينة **موريتانيا** (١٩٠٧) أربعة وستين ضعفاً حمولة **سيريوس** (١٨٣٨)[١]، لكن قوة دفع محركاتها كانت أكبر بـ ٢١٩ حصاناً، وهكذا كانت أسرع منها بثلاث مرات. يعني ذلك أنها كانت تتمكن من عبور الأطلسي بحمولة أكبر بكثير في خلال تسعة أيامٍ ونصف يوم بدلاً من ستة عشر يوماً[٢]. هبطت في تلك الفترة كلفة الشحن البحري بما يزيد على الثلث في الفترة ما بين العامين ١٨٧٠ و١٩١٠. كانت كلفة إرسال طن من المنتوجات القطنية بالسكك الحديد من مانشستر إلى ليفربول تبلغ ٨ شلنات، وهي المسافة التي لا تزيد على ٣٠ ميلاً، لكن كلفة إرسال هذه البضاعة ذاتها لم تزد على ٣٠ شلناً عند إرسالها هي ذاتها إلى بومباي التي تبعد ٧,٢٥٠ ميلاً. بلغت كلفة شحن الملابس في تلك الفترة أقل من ١ بالمئة من كلفة البضاعة الإجمالية. أدى فتح قنال السويس (١٨٦٩)، وقنال باناما (١٩١٤) إلى تقليص مسافات العالم أكثر فأكثر. أما الأولى فقد قلّصت المسافة ما بين لندن وبومباي بما يزيد على الخُمْسَين، أما الثانية فقد خفضت كلفة الشحن من شرق الولايات المتّحدة إلى غربها بنسبة الثلث[٣]. أمكن في أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر، وبفضل استخدام طريقة التغليف المطاطي، مدّ أسلاك تحت

(١) Clark and Feenstra, 'Technology in the Great Divergence', table 8.

(٢) Dyos and Aldcroft, British Transport, table 4.

(٣) Maurer and Yu, Big Ditch, p. 145.

سطح البحر، وإرسال البرقيات من لندن إلى بومباي، أو إلى هاليفاكس[١]. استغرقت أخبار التمرد الهندي ستة وأربعين يوماً للوصول إلى لندن في العام ١٨٥٧، أي إنها كانت تنتقل بسرعة بلغت ٣,٨ أميال بالساعة. أما أخبار زلزال نوبي الذي حدث في اليابان في العام ١٨٩١ فقد استغرقت يوماً واحداً، أي إنها كانت تنتقل ٢٤٦ ميلاً في الساعة، وهذا يعني أنها كانت أسرع بخمس وستين مرة[٢].

انتقلت الأيدي العاملة عبر الحدود بشكلٍ لم يسبق له مثيل. هاجر في الفترة ما بين ١٨٤٠ و١٩٤٠ نحو ٥٨ مليون شخصٍ أوروبي إلى الأميركيتين، و٥١ مليوناً من الروس إلى سيبيريا، وآسيا الوسطى، ومنشوريا، وهاجر ٥٢ مليوناً من الهنود والصينيين إلى جنوب شرقي آسيا، وأستراليا الآسيوية، أو منطقة حوض المحيط الهندي[٣]. سافر كذلك نحو ٢,٥ مليون مهاجر من جنوب آسيا وشرقها إلى الأميركيتين. أما في العام ١٩١٠ فكان واحد من أصل سبعة أشخاص من سكان الولايات المتحدة مولوداً خارج البلاد، وهي نسبة قياسية لم تُكسر حتى الآن[٤]. تنقلت الرساميل بدورها حول الكرة الأرضية. أدت بريطانيا دور مصرف العالم، وصدّرت كميات ضخمة من الرساميل إلى بقية أنحاء العالم. ربما كان الأجدى بالمعاصرين الثناء على «وفرة المدخرات» بدلاً من التذمّر من الإمبريالية. أما في سنوات ذروة الاستثمارات الخارجية – ١٨٧٢، ١٨٨٧، و١٩١٣ – فقد تجاوز فائض الحسابات الجارية البريطانية نسبة ٧ بالمئة من الناتج الإجمالي المحلي[٥]. جهزت الشركات البريطانية نفسها لتصدير ليس القطن فحسب، بل المكائن اللازمة لصناعة القطن، والرأسمال الضروري لشرائها كذلك.

ربما يكون كل ذلك المظهر المدهش هو لأول عملية عولمة. اكتسح نمط

(١) Clark and Feenstra, 'Technology in the Great Divergence'.

(٢) Clark, Farewell to Alms, table 15.3.

(٣) McKeown, 'Global Migration', p. 156.

(٤) Carter et al. (eds.), Historical Statistics of the United States, tables Ad354–443.

(٥) Mitchell, Abstract of British Historical Statistics, pp. 333f.

الملابس الغربي أنحاء العالم كافة بسرعة هائلة، وهكذا انتقلت الملابس التقليدية إلى سلة مهملات التاريخ. لكن المؤكد أن ذلك لم يكن هو الغاية المعلنة لشركة سنجر للإنتاج. استخدمت شركة سنجر في معرض «كولومبس الكبير» الذي أقيم في شيكاغو في العام ١٨٩٢ لمناسبة مرور ٤٠٠ سنة على اكتشاف العالم الجديد، مجموعةً من ست وثلاثين لوحةً دعائية سمّتها «أزياء العالم»، تمثّل أشخاصاً من مختلف الألوان والأصقاع يرتدون أزياءهم التقليدية ويظهر السرور على محيّاهم وهم يستخدمون مكائن سنجر. ظهرت السترة الهنغارية والكيمونو الياباني (*)، وأي زيٍ في العالم يُمكنه الإفادة من الدرز تحت ذراع ماكنة سنجر. أما البوسنيون والبورميون فقد استفادوا من عبقرية إسحق ميريت؛ وكذلك الأشخاص بدءاً من الجزائر إلى بلاد الزولو. لم يعد بمستغرب أن تكون ماكنة سنجر هي الهدية المفضلة للملوك الأجانب مثل ملك سيام، وملك البرازيل دوم بدرو الثاني، وهيروهيتو أمبراطور اليابان. لكن هنا تكمن المفارقة في القصة. لم يعمد الذين تسلموا مكائن سنجر إلى استخدامها في خياطة ملابسهم التقليدية بل عمدوا تحديداً، وبكل سرور، إلى استخدامها لغرضٍ مختلفٍ تماماً، وهو تقليد الملابس الأوروبية. تشكّلت هذه الملابس الجديدة للرجال من المعاطف، والقمصان ذات الياقات الجامدة، والقبعة الصوفية، والحذاء الجلدي الثقيل. أما بالنسبة إلى النساء فظهرت الفساتين المخصّرة، والملابس الداخلية والفساتين التي تصل إلى الكاحل.

وقف في العام ١٩٢١ وليّا عهدين ملكيين – ولي العهد هيروهيتو من اليابان، الذي أصبح أمبراطور Showa فيما بعد، وإدوارد، أمير وايلز، الذي أصبح إدوارد الثامن فيما بعد – جنباً إلى جنب أمام أحد المصورين. كان العرشان اللذان ينتظرانهما متباعدين كثيراً جغرافياً. لكنهما وجدا هناك فوق درج **هنري بوول وشركاه**، وهي شركة خياطة

(*) لا يتطلب الكيمونو في الواقع أي درزٍ يستدعي استخدام ماكنة خياطة.

تعمل في سافيل رو(*)، وكانت ملابسهما متماثلة تقريباً. كان الأمير الياباني في لندن في جولة تسوقٍ سبقت زفافه. سبق لأحد موظفي هنري بوول أن أبحر إلى جبل طارق لأخذ مقاييسه، التي أُرسلت برقياً على الفور إلى لندن. تُظهر سجلات هنري بوول العائدة إلى تلك السنة طلباتٍ كثيرة باسم هيروهيتو: أزياء عسكرية، ومعاطف مطرزة، وسترات مخصصة لحفلات العشاء، ومعاطف للفترة الصباحية. تردد سطر في تلك القائمة: «بذلة كشمير رائعة، بذلة من القماش الأزرق، وبذلة فانيلا مخططة»[1]. لم يكن هيروهيتو الوحيد بين الأعيان الأجانب الذين يجوبون السوق للحصول على بذلة إنكليزية مفصلة بعناية شديدة. تحتفظ مستودعات هنري بوول بآلاف تصاميم البذلات المصممة لزبائن راوحوا ما بين هيلاسيلاسي، آخر أمبراطور في إثيوبيا ونيقولا الثاني، آخر قياصرة روسيا. أما أكثر زبائن بوول إخلاصاً فكان جيتيندرا نارايان، وهو مهراجا كوش بيهار الذي تجاوز عدد البذلات التي اشتراها في حياته الألف. كان الهدف هو ذاته على أي حال: التأنق عل طريقة الجنتلمان [الرجل المحترم] الإنكليزي من دون الاكتراث لمصير «أزياء العالم». إن ما يلفت النظر أكثر هو أن الكلمة اليابانية المرادفة لبذلة هي **سيبيرو** أي «سافيل رو»، وحتى في هذه الأيام فإن أكثر البذلات أناقة في طوكيو هي إنكليزية في تصميمها. يفسّر هذا شهرة ماركة **إيكوكويا**، التي تعني حرفياً «المتجر الإنكليزي». يُذكر أيضاً أن نخبة اليابانيين المحبين لكل ما هو إنكليزي والذين يسكنون في جينزا، وهو الحي في طوكيو الذي يماثل حي وست إند [في لندن]، ما زالوا يقصدون إيشيبانكان، وهو المتجر الذي تعلّم صاحبه أسرار المهنة في سافيل رو.

(*) بدأ جايمس بوول، وهو والد هنري بوول، عمله في لندن بوصفه «خياطاً» في مطلع القرن التاسع عشر، واختار مكان عمله في ٤ أولد بيرلنغتون ستريت، حيث اختار مدخلاً إضافياً في ٣٢ سافيل ستريت، وذلك في العام ١٨٢٨. بدأ الرجل أولاً بخياطة الأزياء العسكرية. أما الانقلاب الذي قام به ولده فقد كان ابتكار أزياء مدنية مقبولة في بلاطات الملوك.

(١) I am grateful to Simon Cundey of Henry Poole for giving me sight of the firm's old order books and other useful documents.

تعود الثورة اليابانية في الأزياء بتاريخها إلى السبعينيات من القرن التاسع عشر. عمدت النخبة الأمبراطورية في حقبة المايجي إلى ترك أزياء الساموراي والكيمونو لمصلحة البذلات والفساتين الأوروبية المماثلة، وهم فعلوا ذلك تحت عنوان bunmei kaika (الحضارة والتنوير) و fukoku kyohei (بلاد ثرية، جيشٌ قوي). أما الدافع وراء هذا التغيير فأتى في إثر جولةٍ استمرت عامين إلى الولايات المتّحدة وأوروبا قام بها وفدٌ برئاسة وزير المايجي أيواكورا تومومي، الذي اضطر إلى الاعتراف، بعد مرور قرونٍ على العزلة المفروضة ذاتياً، «إن حضارتنا هي، من وجوه عديدة، دون مستوى حضارتهم»[1]. جهد اليابانيون ليفهموا السبب الذي جعل الغرب أثرى وأقوى من بقية أنحاء العالم، وذلك منذ العامين ١٨٥٣ - ١٨٥٤، أي منذ أن أُجبروا على إعادة فتح اقتصادهم بعد تهديد «السفن السوداء» التي كانت بقيادة العميد البحري الأميركي ماثيو سي. بيري. أُثيرت أسئلة إضافية نتيجة الجولات في الغرب - وهي ممارسة شاعت إلى درجة أنها أوحت إدخال لعبة **الطاولة** والشطرنج. هل يعود السبب إلى نظامهم السياسي؟ أم إلى مناهجهم التعليمية؟ أم إلى ثقافتهم؟ أم إلى طريقة ارتدائهم لملابسهم؟ فضّل اليابانيون عدم المجازفة لأنهم لم يكونوا على يقين من السبب، لذلك قاموا بنسخ كل شيء. أُعيد صوغ النُظُم اليابانية وفق النماذج الغربية، بدءاً بالدستور على الطريقة البروسية لعام ١٨٨٩، إلى تبني قاعدة معيار الذهب البريطانية في العام ١٨٩٧. تدرّب الجيش الياباني مثل الجيش الألماني، أما الأسطول البحري فكان يُبحر على غرار الأسطول البريطاني. أُدخلت كذلك مناهج التعليم الأميركية إلى المدارس الحكومية الابتدائية والمتوسطة. بدأ اليابانيون كذلك بأكل لحم الأبقار، الأمر الذي كان محظوراً حتى ذلك الحين. وصل الأمر مع بعض الإصلاحيين إلى حد اقتراح التخلي عن اللغة اليابانية لمصلحة اللغة الإنكليزية.

أما أكبر التغييرات وضوحاً للعيان فكانت في مظاهر اليابانيين. بدأ الأمر في العام ١٨٧٠ بحظرٍ رسمي لتسويد أسنانهم وحلق حواجبهم في البلاط. بدأ الوزراء

(١) Beasley, Japan Encounters the Barbarian.

في هذا الوقت بحلق رؤوسهم على الطريقة الغربية، كما صدر مرسوم أمبراطوري في العام ١٨٧١ يأمر كبار المسؤولين بارتداء **اليوفوكو**، وهو معطفٌ أوروبي، فوق قميص أبيض عالي الياقة، أما في العام ١٨٨٧ فقد تحوّل ذلك إلى لباسٍ تقليدي لسائر موظفي الحكومة(١). ظهر أمبراطور المايجي بعد سنة من الزمن – وبناء على نصيحة من مستشاريه المحبين للإصلاح، وبعد أن كان يقيم في عزلة عن الشعب ـ مرتدياً (بحسب السفير النمسوي) «زياً أوروبياً غريباً، أي نصف ثياب البحارة ونصف ثياب السفراء»، ومعطفاً طويلاً مع قدرٍ كبير من الضفائر الذهبية(٢). طُلِب إلى القوات المسلّحة كذلك تبني الأزياء الأوروبية. أما الزي الرسمي لجنود البحرية فقد كان بحسب أزياء البحرية الملكية، لكن الجيش كان متأثراً بالفرنسيين، وذلك بالرغم من تحوّله لاحقاً إلى المظهر البروسي(٣). أما نساء الطبقة الراقية اليابانية فقد بدأن بارتداء الفستان الغربي في العام ١٨٨٤، في أثناء استقبالهن الضيوف الأجانب في مبنى **روكيوميكان** (*)، وذلك بالرغم من استمرارهن في ارتداء الكيمونو في منازلهن. تعرضت ملابس الأطفال بدورها إلى التغريب، وذلك مع تبنّي الأزياء البروسية للصبيان في المدارس الخاصة الراقية. لم تتأخر أزياء الفتيات عن اللحاق بالركب في العشرينيات من القرن العشرين (ولم تتغيّر كثيراً منذ ذلك الحين). لم يسبق أن تبنّى أي شخص المظاهر الغربية الجديدة بحماسة تفوق حماسة أوكوبو توشيميكي، أحد أبرز مهندسي التغيير في **المايجي**. سبق لأوكوبو أن جلس أمام عدسة المصوّر مرتدياً ثياب محارب ساموراي ومتقلداً سيفه، ومرتدياً عباءة فضفاضة

---

(١) See Hirano, State and Cultural Transformation, p. 124.

(٢) Keene, Emperor of Japan, p. 12. See the 1873 photograph of the Emperor by Uchida Kyuichi: http://ocw.mit.edu/ans7870/21f/21f.027j/throwing_off_asia_01/emperor_02.html.

(٣) Malony, 'Modernity, Gender and Empire'.

(*) أقدم في هذا المكان، أي في جناح **صرخة الغزال** الذي صمّمه الإنكليزي جوزاياه كوندر، نخبة اليابانيين على ارتداء أزيائهم الرسمية الطويلة ومعاطفهم التي تصل إلى الركبة، ورقصوا الكوادريل، والوالتز، والبولكا والمازوركا على أحدث الأنغام الأوروبية. اتفق، للمفارقة، هذا التبني بالجملة للعادات الغربية مع ميلٍ غربي للفنون اليابانية – وهي الفنون التي تبنّاها حتى فنسنت فان غوغ – بالرغم من أن ذلك التبني كان موقتاً.

واضعاً رجلاً فوق أخرى، لكنه عاد وجلس بصلابة فوق كرسي مرتدياً معطفاً رسمياً طويلاً بينما أمسك بقبعته بيديه. أما عندما وصل الوفد الذي ترأسه إلى إنكلترا في العام ١٨٧٢ ، ذكرت صحيفة **نيوكاسل دايلي كرونيكل** أن «السادة كانوا يرتدون أزياء الصباح العادية، ولولا ملامح وجوههم، وسيماؤهم الشرقية، لكان صعباً تمييزهم من مرافقيهم الإنكليز». مرّت سبع عشرة سنة على تبنّي الدستور الياباني الجديد قبل ارتداء الأمبراطور زي قائد أعلى أوروبي بينما ارتدت قرينته فستان سهرة جذاباً باللونين الأزرق والزهري، هذا في حين ارتدى الوزراء ستراتٍ عسكرية سوداء ذات ياقات مذهبة عالية[١].

كان ثمة أشخاص قاوموا ذلك التقليد للأزياء الغربية، كما أن الأمر وصل مع بعض رسامي الكاريكاتير الغربيين إلى رسم اليابانيين على هيئة قرود[٢]. يُضاف إلى ذلك أن اليابانيين التقليديين قد انزعجوا من ظاهرة إنكار الذات هذه. أقدم سبعة من الساموراي على مهاجمة أوكوبو واغتياله بكل وحشية، في ١٤ أيار من العام ١٨٧٨ ، وذلك بينما كان في طريقه لحضور اجتماع لمجلس الدولة الذي كان سيُعقد في قصر آلاسكا في طوكيو. تلقى أوكوبو الضربة القاضية في رقبته وكانت قوية إلى درجة أن السيف بقي عالقاً في الأرض[٣]. أما أومورا ماسوجيرو الذي أدت إصلاحاته إلى تحديث الجيش الياباني فقد كان ضحية أخرى في حقبة **المايجي** لفريق الاغتيال التقليدي، وهم الذين مثلوا تهديداً متكرراً للوزراء الموالين للغرب طوال الثلاثينيات من القرن العشرين. لم تكن هناك، مع ذلك، طريقة للتراجع. بقي اليابانيون متعلقين بقوانين **بوشيدو** للساموراي، لكن معظمهم تقبّل حجة **أوكوبو** بأن الاتجاه نحو التغريب هو أمرٌ ضروري إذا أرادت اليابان الوقوف على قدم المساواة مع الأمبراطوريات الأوروبية والأميركية. ظهر ذلك في بداية التعامل على قدم المساواة

(١) See Illustration of the Ceremony Promulgating the Constitution, unknown artist (1890).

(٢) Penn State University, Making Japanese online resource, http://www. east-asian-history.net/textbooks/MJ/ch3.htm.

(٣) Keene, Emperor of Japan, p. 295.

في الاتفاقيات التجارية والقانون الدولي بشكلٍ عام[١]. قال أحد المراقبين الغربيين الذين عرفوا البلاد جيداً إن دوافع اليابانيين كانت منطقية تماماً:

كان أقصى طموحهم هو أن يُعاملوا كرجال، وكأندادٍ للغربيين. كانوا يعلمون أنهم لن يؤخذوا، هم وبلدهم، بجدية إذا استمروا في ارتداء أزيائهم التقليدية. شهدنا بسرعة تغييراً في أنماط الثياب، ليس بين الجنود والساموراي فحسب، لكن [كذلك] بين جميع الموظفين الحكوميين، حتى في أوساط الميكادو [الأمبراطور] ذاته... ساعدت هذه الثورة كثيراً على اعتراف العالم بأجمعه بالبلاد بوصفها طرفاً مساوياً في أخويات الأمم[٢].

فهِمَ اليابانيون العامل القوي الذي تتمتّع به الملابس الغربية في تطوير البلاد. لم يكن ذلك مجرد تغيير في المظاهر، بل كان جزءاً من اختراقٍ محوري في تاريخ العالم، وذلك عندما أصبحت اليابان أول مجتمعٍ غير غربي يتذوّق القوة التغييرية للثورة الصناعية.

تزامن انتشار الأزياء الجديدة مع النمو السريع لصناعة النسيج اليابانية. تضاعف عدد مصانع القطن في اليابان من ١١٨ حتى ٢٣٢، وذلك في الفترة ما بين ١٩٠٧ و١٩٢٤، وتضاعف عدد المغازل أكثر من ثلاث مرات، كما أن عدد الأنوال قد تضاعف سبع مرات[٣]. كانت مصانع النسيج توظّف بحلول العام ١٩٠٠ نحو ٦٣ بالمئة من جميع عمّال المصانع اليابانية[٤]. تحوّلت اليابان بعد مضي عشر سنوات إلى المصدّر الآسيوي الوحيد للخيطان، والصوف yarn، والأقمشة. أظهرت الإحصاءات أن صادراتها تجاوزت صادرات ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا. كما فاقت إنتاجية عمال المنسوجات اليابانيين إنتاجية العمال الآخرين في آسيا. يعني ذلك أن صناعة الأقمشة

(١) Gong, Standard of 'Civilization'.

(٢) Keene, Emperor of Japan, p. 194.

(٣) Japan Cotton Spinners' Association, Cotton Statistics of Japan: 1903–1924, table 1.

(٤) Wall, Japan's Century, p. 17.

القطنية اليابانية زادت إنتاج العامل الواحد بـ ٨٠٪، وذلك في الفترة ما بين العامين ١٩٠٧ و١٩٢٤، لكن بالرغم من هذه الحقيقة فإن لوحة آداكي جينكو في العام ١٨٨٧، التي رسمها بعنوان **سيدات الخياطة** أظهرت أن معظم القوة العاملة كانت من النساء، وأن معدل أعمارهن كان سبعة عشر عاماً فقط[١]. أما بالنسبة إلى شركات مثل **كانيغافوشي**، فإن السنوات التي سبقت الركود كانت سنوات ازدهار حيث فاقت نسبة الأرباح ٤٤ بالمئة من الرأسمال[٢]. لم تكتف اليابان بارتداء الملابس الغربية فقط، لكنها صنعتها، وهكذا أنهت احتكار الغرب للإنتاج الحديث.

تتالت الابتكارات في اليابان الواحد تلو الآخر، أي كما حدث في الغرب. يُضاف إلى ذلك أن أول سكة حديد يابانية بين طوكيو ويوكوهاما أنشئت في مطلع السبعينيات من القرن التاسع عشر، وكانت من تصميم بريطاني. بدأت كبرى مدن اليابان في امتلاك أسلاك التلغراف، ومصابيح الشوارع، والجسور الحديدية، والجدران الحجرية بدل الجدران الورقية. كانت البداية مع ضاحية **جينزا** في طوكيو. برزت في البلاد أربع شركاتٍ عملاقة zaibatsu، كانت هي الأبرز في الاقتصاد الياباني: ميتسوي، وميتسوبيشي، وسوميتومو، وياسودا. تحولت اليابان بسرعة، بتوجيهات بريطانية، من شراء القاطرات البخارية إلى صنعها[*]. أما في العام ١٩٢٩ فقد بدأت مصانع الأخوة **بلات** في أولدهام، التي كانت في معظم سنوات القرن أبرز منتجي مكائن النسيج، بدفع حقوق ملكية للمخترعين اليابانيين الذين ابتكروا نول تويودا[٣].

لم يحتضن أي بلدٍ آسيوي آخر طريقة الحياة الغربية بحماسة اليابانيين ذاتها.

(١) Kamisaka, Cotton Mills and Workers.

(٢) Moser, Cotton Textile Industry, p. 30.

(*) ساعد ريتشارد وفرنسيس ترفيثيك، وهما حفيدا ريتشارد تريفيثيك، اليابانيين على بناء أول قاطرة في كوبي في العام ١٨٩٣. كانت هذه الصناعة من بين الياتوي (الآلات الحية) التي استوعب اليابانيون خبراتها بشغف في حقبة المايجي.

(٣) Ibid.

سعى القوميون الهنود، بالمقارنة باليابان، وبعد تخلّص البلاد من الحكم البريطاني، إلى الإبقاء على الأزياء الهندية التقليدية، وذلك بدءاً برداء الوسط الذي كان يرتديه غاندي، إلى سترات **نهرو** الخالية من الياقات، وبعد ذلك الساري الذي كانت ترتديه إنديرا غاندي. كان ذلك الرفض الرمزي للعادات الغربية مفهوماً تماماً، وذلك لأن سياسة الحماية من المنافسة الأجنبية التي اتّبعتها بريطانيا ألحقت ضرراً كبيراً بمنتوجات الأقمشة الهندية التقليدية المصنوعة يدوياً. كان الهنود، بخلاف اليابانيين، أبطأ بكثير في تبنّي التقنية والثورة الصناعية واستغلالهما. يكمن هنا أحد ألغاز تاريخ القرن التاسع عشر العديدة. لم يسعَ البريطانيون إلى احتكار تقنيّتهم الجديدة، بل على العكس من ذلك، سعوا إلى نشرها في جميع أنحاء أمبراطوريتهم. تعرّف الهنود إلى آلات النسيج، والمحرّك البخاري، والسكك الحديد قبل اليابانيين بكثير. لم تكن مكائن النسيج في السنوات الأولى من القرن العشرين أكثر كلفةً في آسيا مما كانت عليه في قارة أوروبا. يصدق الأمر ذاته على الفحم، لكن أجور العمل مثّلت ١٦ بالمئة مما كانت عليه في إنكلترا. يُضاف إلى ذلك أن ساعات العمل لم تكن محدّدة في المصانع الآسيوية مثل ما كانت عليه ساعات العمل في المصانع بحسب القانون البريطاني. كان القطن الخام أقرب منالاً في الهند مما كان عليه في إنكلترا. لكن التنمية الصناعية، مع ذلك، فشلت في الانطلاق في الهند، أو في الصين (حيث كانت أجور اليد العاملة أقل مما هي عليه في الهند)[١]. يمكننا تفسير ذلك بأنه بالرغم من رخص اليد العاملة في الهند والصين فإن هذه المزية قد تلاشت نتيجة الإنتاجية المنخفضة المثيرة للإحباط. أما إنتاجية العامل الأميركي فقد كانت من ست إلى عشر مرات أعلى من العامل الهندي الذي يستخدم الآلات ذاتها[٢]. قدّم الخبراء البريطانيون والأميركيون تفسيرات متنوعة لهذا الواقع، راوحت ما بين الوضاعة العرقية الموروثة، وظاهرة التغيّب عن العمل المزمنة، والتكاسل. قال أحد الزائرين الأميركيين لمصنع

(١) Farnie, 'Role of Cotton Textiles'.

(٢) Clark and Feenstra, 'Technology in the Great Divergence'. On American productivity, see Copeland, 'Technical Development'.

منسوجاتٍ هندي متأسفاً: «بدا واضحاً، في كل مكان، قلة الإشراف على العمل وضعفه، والانعدام التام للانضباط. ظهرت المغازل والبكرات أو اللفائف الفارغة وهي تتدحرج تحت الأرجل، كما ظهرات عُلب النفايات والبكرات مكوّمة بعضها فوق بعض، بينما كان عمال النظافة، وبعض قدامى الموظفين في المصنع يتجمعون في مجموعات وهم يمضغون bhang و chunam. أما المشرفون، وغالبيتهم من منطقة المهاراشترا، فكانوا يجولون بتكاسلٍ في المكان»[1]. أما أحدث التفسيرات لهذا الوضع فربما تكون أوضاع العمل المريعة: التهوئة السيئة المعتادة، ساعات العمل الكثيرة، مع مرافقة كل ذلك من درجات حرارة وأمراض غير معروفة في لانكاشاير أو لويل[2]. أما الأمر الذي كان مستعصياً أكثر على التفسير فكان السبب الذي جعل من بلدٍ آسيوي – اليابان – يحرز مكاسب سريعة في الإنتاجية، وهي التي وصلت في ثلاثينيات القرن العشرين إلى حد إجبار ١٥ بالمئة من مجموع معامل النسيج في بومباي على إغلاق أبوابها نهائياً.

رافق الملابس الإنكليزية، بطبيعة الحال، ما هو أكثر من الحداثة الاقتصادية. كانت الفروق الطبقية الإنكليزية الدقيقة أكثر مثولاً في الملابس المفصّلة بعناية. كان يُمكن للمرء أن يعرف مركز الشخص الاجتماعي من طريقة تفصيل بذلته. لكن بالنسبة إلى هيروهيتو أو إلى اليابانيين عموماً، ويا للأسف، فقد كان ذلك عالماً يُعد فيه طبيعياً الحكم على قيمة الشخص من خلال لون بشرته وملامح وجهه.

عاد هيروهيتو إلى اليابان مع بذلاته الغربية المفصلة، كما عاد الرجل الذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد الثامن إلى حفلةٍ امتلأت بالثياب المبهرجة بصحبة صديقه الرائد إدوارد دودلي «فروتي» ميتكالف. ارتدى الرجلان أزياء عمالٍ يابانيين. بدت تلك الملابس عليهما سخيفة كاليابانيين في ملابس غربية. أشار إدوارد إلى هيروهيتو في سياق رسالةٍ كتبها إلى صديقته على أنه «قردٌ في الأسر»، كما لاحظ أن الشعب

(١) See e.g. Moser, Cotton Textile Industry, p. 102. See also Wolcott and Clark, 'Why Nations Fail'.

(٢) Upadhyay, Existence, Identity and Mobilization.

الياباني «يتوالد كالأرانب». كانت اليابان التي شبّ فيها هيروهيتو إلى أن وصل إلى سن المراهقة بلداً معجباً بالغرب بسبب حداثته، لكنه مستاءٌ منه بسبب غطرسته. كانت اليابان بحاجة إلى اكتساب الأداة الغربية الضرورية، أي أمبراطورية، إذا ما أرادت أن تُعامل معاملة الند للند. لم تتأخر اليابان في هذا المضمار. أنزلت البحرية اليابانية في العام ١٨٩٥، التي تعمل وفق الأساليب الغربية، هزيمة شاملة بأسطول **بي يانغ** الذي كان بإمرةٍ صينية، وذلك في **واي هاي وي**. ظهر المنتصرون في لوحات ذلك الزمان وكأنهم أوروبيون (حتى من ناحية وجوههم)، بينما ظهر الصينيون المهزومون بضفائر شعرهم وبثياب توحي وكأنها مخصّصة لتلقي الهزيمة، ومنها الأكمام الواسعة جداً[١]. لكن هذه كانت مجرد البداية. شعر اليابانيون بالإحباط لأنهم أُجبروا على قبول تعويضات مالية بدلاً من الأراضي كغنائم حرب، لذلك بدأوا يدركون أن أندادهم الأوروبيين قد يترددون في منحهم وضعاً إمبريالياً مساوياً لهم. عبّر وزير الخارجية إينو كاورو عن ذلك بصراحة في قوله:

علينا تأسيس أمبراطورية جديدة في البحر الشرقي بحيث تكون على النمط الأوروبي... إذ كيف يمكننا زرع روح الجرأة هذا في عقول ثمانية وثلاثين مليوناً من شعبنا، والميل نحو الاستقلال والحكم الذاتي؟ أما في رأيي فإن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو جعلهم يصطدمون بالأوروبيين، وذلك كي يشعروا بالانزعاج بشكلٍ شخصي، وكي يدركوا نقاط ضعفهم، ويستوعبوا قدراً من الوعي بالحيوية الغربية... إنني أعتقد أن طريقة الوصول إلى هذا الوضع هي تمهيد الطريق للتلاقح الحر الفعلي ما بين اليابانيين والأجانب... هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكّن أمبراطوريتنا من التوصل إلى وضع مساوٍ لوضع البلدان الغربية فيما يتعلق بالمعاهدات. هكذا تكون أمبراطوريتنا مستقلّة، ومزدهرة، وقوية[٢].

وقعت أولى المواجهات المتوقعة مع الغربيين في العام ١٩٠٤ من خلال الحرب

(١) A fine example is Mizono Toshikata's woodblock print in the Museum of Fine Arts, Boston.

(٢) Meech-Pekarik, World of the Meiji Print, p. 145.

الروسية - اليابانية بسبب منشوريا. بعث النصر الحازم الذي أحرزته اليابان في البحر وفي البر برسالة واضحة إلى العالم: لم تكن الهيمنة الغربية أمراً مقدّراً. لكن مع النُظُم والتقنية المناسبتين - هذا إذا لم نذكر شيئاً عن الملابس المناسبة - يُمكن لأمبراطورية آسيوية إلحاق الهزيمة بأمبراطورية أوروبية. توقّع أحد المحلّلين الاقتصاديين في العام ١٩١٠ أن تتمكّن اليابان من تجاوز بريطانيا ذاتها قبل نهاية القرن، وذلك ما حدث فعلاً. تجاوز الناتج الإجمالي المحلي للفرد الياباني في العام ١٩٨٠ الناتج الإجمالي المحلي للفرد البريطاني، وذلك للمرة الأولى. لكن الخطّ البياني لهذا الوضع من العام ١٩١٠ حتى العام ١٩٨٠ لم يكن مستقيماً قط.

من الراغتايم إلى الثراء

سبق لنا أن رأينا أن الحرب العالمية الأولى كانت صراعاً ما بين الأمبراطوريات التي توجهت أطماعها وأساليبها إلى ما وراء البحار. أدّت هذه الحرب إلى إطاحة أربع أسرٍ حاكمة، وإلى تشتيت أمبراطورياتها. سعى الرئيس الأميركي ودرو ويلسون، وهو الأول من بين أربعة رؤساء ديمقراطيين يزجّ بلاده في حرب رئيسة عبر البحار، إلى إعادة صوغ منطق الصراع ليكون حرباً من أجل تقرير مصير الشعوب القومي، وهي رؤية لم يكن لها حظ كبير من النجاح في أعين الأمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، اللتين تم إنقاذ مجهودهما الحربي الضعيف بفضل الأموال والجنود الأميركيين. لم يكن التشيكيون، والإستونيون، والجيورجيون، والهنغاريون، والليتوانيون، واللاتفيون، والبولنديون، والسلوفاك، والأوكرانيون هم وحدهم الذين اشتموا رائحة الحرية، لأن العرب والبنغاليين، هذا إذا لم نقل شيئاً عن الإيرلنديين الكاثوليك، حذوا حذوهم. لكن إذا وضعنا الإيرلنديين جانباً، فيمكننا القول إنه لم تتمكن أي واحدةٍ من الدول القومية من اكتساب استقلالٍ حقيقي حتى نهاية العام ١٩٣٩ (ما عدا هنغاريا على الأرجح). بدا أن الخريطة التي وضعها **مازيني** لأوروبا وكأنها تلاشت مثل وميض البرق.

أما الرؤية البديلة لفترة ما بعد الحرب فقد كانت رؤية فلاديمير إيليتش لينين لاتحادٍ مكوّنٍ من الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، وهي الجمهوريات التي يُمكن بها أن تتوسع عبر أوراسيا. اكتسبت هذه الرؤية ثقلها من الظروف الاقتصادية الاستثنائية التي نجمت عن الحرب. عمدت جميع الحكومات إلى تمويل معظم العمليات القتالية عن طريق إصدار سندات دينٍ قصيرة الأمد ومبادلتها بالسيولة النقدية في مصارفها المركزية، أي طبع النقود، مما أدى إلى استفحال التضخم في خلال الحرب. كان معظم الجنود تحت السلاح، وهذا ما ولّد نقصاً في اليد العاملة، ودفع العمّال في الجبهة الداخلية إلى المطالبة بأجورٍ أعلى. نفّذ مئات آلاف العمال في فرنسا، وألمانيا، وروسيا إضراباتٍ، وذلك بحلول العام ١٩١٧. لم تتأخر الحمّى [الاضطرابات] التي انتشرت في إسبانيا، وبعد ذلك بين البولشفيك الروس، عن اكتساح العالم. انهار النظام المُدُني [الحضري] كما حدث في العام ١٨٤٨، لكن العدوى وصلت هذه المرة إلى مناطق بعيدة مثل بوينس آيريس والبنغال، وسياتل، وشنغهاي. لكن ثورة البروليتاريا [طبقة العمال] فشلت في كل الأمكنة ما عدا الأمبراطورية الروسية، حيث تمكن البولشفيك من إعادة تنظيم صفوفهم بعد حربٍ أهلية وحشية. لم يُظهر القادة الاشتراكيون الآخرون قسوةً أكبر من تلك التي أظهرها لينين عندما تبنى «الديمقراطية المركزية» (وهي على النقيض من الديمقراطية)، ورفض الحياة البرلمانية وممارسة الإرهاب ضد الخصوم. بعض الممارسات التي أبداها البولشفيك (مثل تأميم البنوك، ومصادرة الأراضي) كانت مستمدة من تعاليم ماركس وإنجلز التي وردت في البيان [الشيوعي] **المانيفيستو**. لكن بعضاً مما فعلوه (أكبر قدرٍ من الشراسة وقسوة القمع... وبحارٍ من الدماء)[1] يعود معظمه إلى تعاليم روبسبيير. أما «دكتاتورية البروليتاريا» – التي تعني في حقيقة الأمر دكتاتورية قيادة البولشفيك – فقد كانت إحدى بنات أفكار لينين الرئيسة. كانت تلك الدكتاتورية أسوأ حتى من إعادة إحياء **بازاروف**، الثوري المتطرف في رواية إيفان تورغينيف آباء

(١) From Lenin, The State and Revolution (1918).

وأبناء (١٨٥٦). كان ذلك ذاته ما حذّر منه صديقه estranged فيودور دستيوتفسكي بالنسبة إلى روسيا، وذلك في ختام روايته **الجريمة والعقاب** (١٨٦٦)، أي في الكابوس الذي أصاب المجرم راسكولنيكوف الذي اشتمل على «طاعون رهيب، وغير مسبوق، ولا مثيل له» مصدره آسيا:

أما الذين أصيبوا فقد تأثروا على الفور بمس من الجنون. لكن الناس لم يعدوا أنفسهم أذكياء ومحقّين إلى هذه الدرجة، ومن دون تردد، مثل ما عد أولئك الذين أصيبوا. يُضاف إلى ذلك أنهم لم يعدوا إراداتهم، واستنتاجاتهم العلمية أكثر ثباتاً. أُصيبت مناطق سكنية، ومدن ودول بأسرها، بهذا الوباء وانتابها الجنون... عمد الناس إلى قتل بعضهم بعضاً بحقدٍ أعمى... اندفع الجنود بعضهم نحو بعض، وانقضوا بالطعن والتجريح بينما كانوا يلتهمون بعضهم بعضاً.

لم يتمكن شيء في الشرق من إيقاف ذلك الوباء البولشفي. أما في الغرب فقد عجز عن تجاوز [نهر] الفيستولا، ولا حتى جنوب القوقاز، وذلك بفضل ثلاثة من المغامرين السياسيين الذين ابتكروا توليفة من القومية والاشتراكية كانت التجسيد الحقيقي لـ Zeitgeist: جوزف بيلسودسكي في بولندا، وكمال أتاتورك في تركيا، وبينيتو موسوليني في إيطاليا. جاءت هزيمة الجيش الأحمر خارج وارسو (آب من العام ١٩٢٠)، وطرد الأناضوليين اليونان (أيلول ١٩٢٢)، والزحف الفاشي على روما (تشرين الأول ١٩٢٢)، علامة على بزوغ حقبةٍ جديدة – ومظهرٍ جديد.

كان كل الذين زحفوا على روما، ما عدا موسوليني الذي ارتدى بذلة من ثلاث قطع مع ياقة متحركة وأغطية حذاء، يرتدون أزياء مرتجلة تتألف من قمصانٍ سوداء، وسراويل وأحذية تصل حتى الركبة من تلك التي تصلح لركوب الخيل. كانت الفكرة تتلخص في نقل مزايا الحرب الكبرى الرجولية إلى زمن السلم، وذلك بدءاً بحربٍ أصغر جرت في الشوارع والحقول ضد اليسار. شاع الانسجام في المظهر، لكن كان ذلك انسجاماً في الملابس من دون الانضباط الممل السائد في الجيش الحقيقي. كان **الزحف** الشهير أقرب ما يكون إلى نزهة، وهو ما يظهر في عددٍ من صور الصحافة.

كان القومي الإيطالي **غيوسيب غاريبالدي** هو أول من استخدم القمصان الحمراء لتكون أساساً لحركة سياسية. كانت القبعات المصبوغة إجبارية من جهة اليمين في العشرينيات من القرن العشرين، أما الفاشيون الإيطاليون فقد فضّلوا اللون الأسود لفترة من الوقت، كما رأينا أن القوميين الاشتراكيين الألمان Sturmabteilung [المنظمة التي كان أفرادها بمنزلة الحرس الشخصي لهتلر] اتخذوا اللون البني colonial.

كان ممكناً أن تتلاشى حركات كهذه في غياهب النسيان لولا الكساد الكبير. أسفر التضخم الذي ظهر في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، والانكماش الاقتصادي الذي ظهر في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين عن إنزال ضربةٍ للرؤية الولسونية لأوروبا التي تستند إلى الهوية القومية والديمقراطية. أسفرت أزمة الرأسمالية الأميركية كذلك عن ركودٍ في سوق الأسهم بنسبة ٨٩ بالمئة، كما هبط الإنتاج بنسبة الثلث، أما الأسعار الاستهلاكية فقد هبطت بنسبة الربع، إضافة إلى أن نسبة البطالة تجاوزت ربع الأيدي العاملة. لم تتأثر كل الدول الأوروبية بالنسبة ذاتها، لكن لم تتمكن أي دولة من النجاة كلياً من تأثيراتها[١]. سارعت الحكومات إلى حماية صناعاتها عن طريق فرض رسوم أعلى [على الواردات] – وهكذا رفع **قانون جمارك سموت- هاولي** الأميركي الضريبة المعلنة على مصنّعي القطن المستورد إلى ٤٦ بالمئة. كان ذلك يعني عملياً انهيار العولمة. أما في الفترة ما بين العامين ١٩٢٩ و١٩٣٢ فقد شهدت التجارة العالمية تقلصاً بمقدار الثلثين. اعتمدت معظم البلدان مزيجاً من سياسات التخلّف عن سداد الدَّين، وتخفيض قيمة العملة، والجمارك الحمائية، وحصص الاستيراد وحظر بعضه، واحتكار الاستيراد وفرض الأولويات عليه. بدا أن فجر الدولة القومية – الاشتراكية قد انبلج نهائياً.

كان ذلك مجرد وهم، فبالرغم من أن وضع الاقتصاد الأميركي بدا متفجراً، إلا أن السبب الرئيس كان السياسة المالية الكارثية التي اتبعها مجلس الاحتياط الاتحادي، وهي السياسة التي خرّبت النظام المصرفي. أما الابتكارات، وهي أساس التقدم

(١) Cole et al., 'Deflation and the International Great Depression'.

الصناعي، فلم تتباطأ في الثلاثينيات من القرن العشرين. انتشرت سيارات جديدة، وأجهزة راديو، والسلع الاستهلاكية المتينة الأخرى. كانت شركات جديدة هي التي تطور هذه المنتجات، ومن بين هذه الشركات كانت دوبون (النايلون)، وريفلون (مساحيق التجميل)، بروكتر آند غامبل (مسحوق الغسيل)، آر. سي. آي (راديو وتلفزيون)، وآي. بي. أم (ماكنات الحسابات)، وهي شركات كانت تطور وتنشر أسلوباً متكاملاً من إدارة الأعمال. لم تظهر إبداعات الرأسمالية الرائعة في أي مكان آخر أكثر مما ظهرت في هوليوود، وهي مركز صناعة الأفلام السينمائية. أما في العام ١٩٣١، أي في العام الذي وقع فيه الاقتصاد الأميركي في قبضة أزمة عاتية، فقد قامت الإستديوهات الكبيرة بإطلاق أفلام مثل فيلم **أضواء المدينة** لشارلي شابلن، وفيلم **صفحة الغلاف** لهوارد هيوز، وفيلم **أنشطة مشتبه فيها** للأخوة ماركس. أثبتت تجربة حظر الكحول التي ميّزت العقد السابق من السنين أنها فشلٌ كارثي، وذلك لأنها أنتجت اقتصاداً كاملاً معتمداً على الجريمة المنظمة. لكن ذلك الواقع كان مصدر منفعة لصناعة السينما. توافد المشاهدون في العام ١٩٣١ لمشاهدة جايمس كاجني وإدوارد جي. روبنسون في أعظم فيلمَي العصابات: **عدو الناس**، **والقيصر الصغير**. ظهر إبداعٌ آخر لا يقل إدهاشاً عن صناعة السينما، وهو البثّ الحي والمسجّل للموسيقى، وذلك ما إن اكتشف الأميركيون البيض أن الأميركيين السود يمتلكون أفضل الألحان. بلغت موسيقى الجاز ذروتها مع فرقة **ديوك إلينغتون**، التي أطلقت ألحاناً ناجحة الواحد تلو الآخر، حتى بعد أن اضطرت خطوط إنتاج السيارات إلى التوقف: وهكذا ظهرت **مود إنديغو** (١٩٣٠)، **وكريول رابسودي** (١٩٣١)، و«**لا** يعني ذلك شيئاً إذا لم تنتهِ إلى الرقص» (١٩٣٢)، **والسيدة الأنيقة**، (١٩٣٣)، وعزلة (١٩٣٤). تمكّن إلينغتون، وهو حفيد أحد العبيد من أخذ آلات النفخ القصبية والنحاسية إلى آفاقٍ لم تصل إليها من قبل، كما قلّد كل شيء بدءاً بالموسيقى الروحانية، إلى مترو نيويورك. كانت إقامة الفرقة الطويلة في **نادي القطن** هي السبب الرئيس وراء نهضة هارلم. كان إلينغتون دائم التأنق في ملابسه، وذلك بحسب ما

يوحيه لقبه [دوق]، حيث كان يرتدي ملابس من صُنع أندرسون وشيبرد في سافيل رو[1].

يعني ذلك، بالمختصر، أن الرأسمالية لم ترافقها عيوب خطيرة، أي إنها لم تكن مميتة. يعني ذلك أيضاً أن الرأسمالية وقعت ضحية سوء الإدارة، والشكوك التي نتجت منها. أما أبرز علماء الاقتصاد في ذلك العصر، وهو جون مايناردكينز، فقد استهزأ بسوق الأسهم واصفاً إياها بنادي القمار، كما قارنها بقرارات المستثمرين مع مسابقات الجمال التي تقيمها الصحف. أما الرئيس فرنكلين دي. روزفلت، الذي انتُخب عند نهاية الكساد الاقتصادي، فقد ندّد بالصرّافين عديمي الضمير. أما المذنبون الحقيقيون فقد كانوا المسؤولين عن المصارف المركزية الذين ضخّموا فقاعة سوق الأسهم [البورصة] بسياساتٍ مالية مفرطة في التساهل، لكنهم مضوا بعد ذلك إلى تضييق سياساتهم بعد انفجار تلك الفقاعة. شهدت الفترة ما بين العامين ١٩٢٩ و١٩٣٣ إفلاس نحو ١٥,٠٠٠ مصرف، أي خُمْسَي المجموع. تقلّص بشدة، نتيجة لهذا الوضع، عرض supply السيولة النقدية. هبطت الأسعار بنسبة الثُلُث عما كانت عليه أي من الذروة إلى الحضيض، لكن نسب الفائدة الحقيقية ارتفعت في هذه الأثناء إلى ١٠ بالمئة، مما سحق كل الشركات والأسر المدينة. لخّص كينز العواقب السلبية للانكماش الاقتصادي بقوله:

تسير [أعمال] الشركات الحديثة بأموال مستقرضةٍ، ولهذا تتوقف أعمال هذه الشركات نتيجة لهذه العملية [في زمن الانكماش]. إن من مصلحة جميع المشتغلين التوقف عن أعمالهم في هذا الوقت. أما الأشخاص الذين يفكّرون في الإنفاق فمن الأفضل لهم تأجيل طلباتهم إلى أطول فترةٍ ممكنة. إن الرجل الحكيم هو ذلك الذي يحوّل كل أصوله إلى نقد، ويتجنب كل نشاطٍ تجاري، ويقبع منتظراً في منطقةٍ ريفية وقانعاً بما تجلبه عليه قيمة نقوده السائلة. إن النتائج المحتملة للانكماش الاقتصادي سيئة جداً[2].

(١) Friedman and Schwartz, Monetary History of the United States.

(٢) Keynes, Tract on Monetary Reform (1924).

كيف يتجنب المرء مصيدة الانكماش الاقتصادي؟ إن كينز على حق عندما ينصح، مع تردي التجارة وغياب الاستثمارات الأجنبية، أن تعمد الحكومة إلى الإنفاق على الأشغال العامة وتمويل هذا الإنفاق عن طريق الاستقراض. أما التخلي عن قاعدة الذهب التي تفرض نسباً تبادلية ثابتة مقابل الدولار، فيعد أمراً مساعداً على السماح للاستهلاك depreciation بتعزيز الصادرات (بالرغم من استمرار التجارة في المناطق الداخلية)، وكذلك السماح لنسب الفائدة بالهبوط. لكن الحكومات البرلمانية التي تبنّت هذه الإجراءات لم تحصد سوى تعافٍ ضئيل في اقتصاداتها. لكن عندما تبنّت الحكومات الاستبدادية خططاً للتوسع الصناعي ولإعادة التسلّح، انخفضت البطالة بصورةٍ أسرع. تبدو هنا «الاشتراكية في أحد البلدان (روسيا)، والقومية الاشتراكية» في بلدٍ آخر (في ألمانيا) وكأنهما تقدمان حلولاً متفوقة على أي شيء يتوافر في اقتصادَي بلدين يتكلمان الإنكليزية. تمكن الاتحاد السوفياتي، وحده، من تحقيق زيادة في الإنتاج الصناعي في الفترة ما بين العامين ١٩٢٩ و١٩٣٢ إلا أن قليلين تساءلوا عن عدد الذين ماتوا مقابل كل طنّ من الفولاذ تم إنتاجه في خلال حكم ستالين (الجواب هو تسعة عشر شخصاً). لم يتأخر هتلر كثيراً عن نفاد صبره مع الوقائع التي عرضها وزير الاقتصاد في وزارته يلمار شاخت. أقدم هتلر على وضع خطة على مدى أربع سنوات مقلداً بذلك خطط ستالين الخمسية، وذلك بدلاً من إبطاء وتيرة إعادة التسلّح في محاولة منه للتغلب على الصعوبات التي يمر بها ميزان المدفوعات (أي افتقاد مصرف الرايخ الذهب الضروري لدفع أثمان الواردات من فائض الصادرات). دخل النظامان في منافسة صارخة، وتدخلا في جهتين متصارعتين في الحرب الأهلية الإسبانية، كما أقاما جناحين متقابلين داخل معرض باريس الدولي في العام ١٩٣٧. أما التمحيص الدقيق لهذين العملاقين الجالسين على قمتي النظامين الاستبداديين القويين فلم يكشف إلا عن فرقين أساسيين فقط: كان الشيوعيون الخارقون للطبيعة superhumans زوجين يلبسان ثياب عملٍ متواضعة، بينما كان الآريون الخارقون للطبيعة ذكرين عاريين. أما الأمر الوحيد الذي هو أغرب

من احتشام الواقعية الاشتراكية فقد كان عدم الإثارة التي ميزت العري الآري. كان الجسد العاري جزءاً أساسياً من الفن الغربي منذ الإغريق القدماء، مما يذكّرنا بأن ما لا نرتديه عادة ليس مهماً كمثل ما نرتديه بالفعل. صوّر الفنانون الغربيون، منذ عصر النهضة، بشغف، النساء في حالات مختلفة من العري، وهكذا أنتجوا روائع فيها الكثير من الإثارة مثل لوحة إدوار مانيه Dejeuner sur l'herbe و**أوليمبيا** (١٨٦٣)، وكانت الأولى تحيةً للوحة **العاصفة** (نحو العام ١٥٠٦)، بينما كانت اللوحة الثانية تحيةً للوحة تيتان **فينوس آربينو** (١٥٣٨). لكن العراة النازيين أوحوا بالضمور، وأظهروا ميل الرجال المفرط تجاه العضلات الكبيرة، بينما لم تظهر لا صدور النساء ولا أردافهن بشكل بارز.

وعد ستالين وهتلر بتعزيز النمو وفرص العمل من خلال مزيج من القومية والاشتراكية. وفى القائدان بالوعود التي قطعاها. كان الناتج الاقتصادي الأميركي في العام ١٩٣٨ يزيد بقليل على ٦٪ أقل مما كان عليه في ذروة ما قبل الأزمة في العام ١٩٢٩، بينما كان الناتج الألماني أعلى بنسبة ٢٣ بالمئة، كما أن الناتج السوفياتي كان أعلى من ذلك، هذا إذا كان لنا أن نصدّق الإحصاءات الرسمية عن «الناتج المادي الصافي». انخفضت البطالة في ألمانيا إلى ما دون المليون شخص، وذلك مقارنة بالرقم ٦ ملايين قبل ذلك بأربع سنواتٍ فقط. أما في شهر نيسان من العام ١٩٣٩ فقد كان عدد العاطلين عن العمل أقلّ من ١٠٠,٠٠٠ شخص، وهو رقم مُرْضٍ كالتوظيف الكامل. تخفت الولايات المتحدة وراء هذه الأرقام، حتى ولو عدّلنا الأرقام الرسمية للبطالة باحتساب أولئك الذين يعتمدون على صندوق طوارئ المساعدات الاتحادي في عداد العاملين. أما التعريف الحديث لنسبة البطالة فيدل على أنها كانت لا تزال ١٢/٥ بالمئة في العام ١٩٣٨. تمثّلت المشكلة في أن النمو في النُظُم الاستبدادية لم يُترجم إلى مستويات معيشة عالية. لم يكن النموذج الاقتصادي كينزياً بالفعل، وذلك لأنه لم يستخدم الإنفاق على المشاريع العامة لإطلاق حركة الطلب عن طريق التأثير المضاعف للإنفاق الاستهلاكي. عمد الاقتصاد الموجّه [المخطط] إلى حشد

القوى العاملة كي تعمل في مجال الصناعات الثقيلة، والبنى التحتية، والأسلحة، كما أنها موّلت هذه العملية عن طريق الادخار. أصيب الاستهلاك، نتيجة لهذه السياسة، بالشلل. كان الناس يعملون ويأخذون أجورهم، لكن بسبب قلة السلع المعروضة للبيع في المتاجر، لم يكن أمامهم من كبير خيار غير وضع أموالهم في حسابات توفير حيث أعيد توجيهها لتمويل الحكومة. ركزت الدعاية النازية في هذه الأثناء على صور الأسر الكاملة [زوج وزوجة وأولاد] الميسورة، التي تتغذى جيداً، وتعرف كيف ترتدي ثياباً أنيقة، وتقود سيارات الفولزفاغن الصغيرة الجديدة عبر طرقات واسعة. لكن للإحصاءات رأياً آخر. ارتفع مجهود إعادة التسلّح عما كان عليه في العام ١٩٣٤، بينما بقي إنتاج المنسوجات على حاله، كما انخفضت الواردات. أما عدد المدنيين الذين امتلكوا سيارات فقد كان قليلاً جداً[1]. تزايدت سنة بعد سنة صعوبة الحصول على المواد الأساسية، التي كان الرايخ الثالث يستوردها من الخارج، مثل البن. أما إذا أراد الرجل الألماني أن يبدو أنيقاً في العام ١٩٣٨، فلم يكن أمامه من خيار غير ارتداء الزيّ الموحد. أما أناقة الزي العسكري فلقيت اهتماماً كبيراً، الأمر الذي لم يحصل في الاتحاد السوفياتي، وهكذا حظي رجال (Scutzstaffel SS) الذين كانوا يرتدون ثياباً سوداء بأكثر الأزياء أناقة، من تصميم كارل دابيتش، ووالتر هيك، ومن صنع هوغو بوس [*]. كانت تلك الأزياء ذروة الأناقة الفاشية.

كان الهدف الأساس من وراء فِرَق (SS)، والاشتراكية القومية ككل هو التدمير وليس الاستهلاك. كان نموذج هتلر الاقتصادي، كما أوضح في الوثيقة التي نعرفها اليوم باسم Hossbach Memorandum، يتطلب امتلاك «حيّز للعيش» – أي ضمّ الأراضي المجاورة – وهذا يكفل توفير المواد الخام لألمانيا التي لم يعد بوسعها الاستمرار في الاستيراد. يعني ذلك أن السعي الإجباري نحو التوظيف الكامل لليد

(١) Tooze, Wages of Destruction.

(*) تعرضت شركة بوس التي اتخذت ميتزينجين مقراً لها للإفلاس نتيجة الكساد الكبير في العام ١٩٣٠. لكن بعد انضمام صاحبها إلى الحزب النازي في السنة التالية، ما لبث أن تكرّس بوصفه أحد المزودين الرئيسيين لأزياء «حركة هتلر».

العاملة عن طريق إعادة التسلّح قد ساهم في مضاعفة احتمالات نشوب الحرب. كانت الحرب بحسب طراز أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، ومع تقدّم التكنولوجيا العسكرية، أمراً مدمراً. تبيّن جلياً في العام ١٩٣٧ مدى الخراب الذي يُمكن للقصف الجوي أن يتسبب به، ليس في غورنيكا حيث انقضّت الطائرات الألمانية والإيطالية على مواقع الإسبان الجمهوريين فحسب، لكن أيضاً في شانغهاي التي تضررت كثيراً بسبب الغارات الجوية اليابانية. كان سلاح الطيران سلاحاً رهيباً صُمّم لزرع الرعب بين الجنود والمدنيين. أما على الأرض فإن الدبابات وأنواع المدفعية المؤللة الأخرى قد تمكّنت من حل مشكلة عدم القدرة على الحركة التي ميّزت الحرب العالمية الأولى في الغرب، وهكذا كشفت فوائد حرب الخنادق. أما «الحرب الخاطفة» فقد كانت أكثر كلفةً بكثير بالنسبة إلى الحياة البشرية، ليس بالنسبة إلى المحاربين المكشوفين فحسب، لكن بالنسبة إلى المدنيين بصورة أكبر، وهم الذين شكّلوا النسبة الكبرى من ضحايا الحرب العالمية الثانية.

كانت الحرب العالمية الثانية، في الظاهر، صراعاً ما بين أربع صيغ من صيغ الحضارة الغربية: الاشتراكية القومية، الشيوعية السوفياتية، والإمبريالية الأوروبية (التي تبنّاها اليابانيون)، والرأسمالية الأميركية. اجتمعت في البداية قوى الاشتراكية القومية والشيوعية السوفياتية ضد الصيغة الثالثة، بينما بقيت الصيغة الرابعة على الحياد. لكن بعد سنة ١٩٤١ المحورية، أي عندما هاجم النازيون الاتحاد السوفياتي، وبعد الهجوم الياباني على الولايات المتحدة، انقسمت التحالفات ما بين دول المحور – ألمانيا، وإيطاليا، واليابان ـ إضافة إلى الأمبراطوريات التي قهروها على عجل بالإضافة إلى بعض الدول التابعة الأخرى، ضد الثلاثة الكبار – الاتحاد السوفياتي، والأمبراطورية البريطانية، والولايات المتحدة – بالإضافة إلى جميع الدول الأخرى (ومن هنا جاءت تسمية «الأمم المتحدة» كما أحب الحلفاء تسمية أنفسهم). لكن تقاطعاً حدث، في واقع الأمر، عندما وصلت صناعة التدمير إلى ذروتها المرعبة. طوّرت كل القوى المتحاربة الرئيسة أجهزة حكمٍ شديدة المركزية صُمّمت بغية توزيع الموارد – سواء

الموارد البشرية أو المعدات العسكرية – عن طريق آليات أخرى غير السوق، وذلك بحسب خطط بالغة التعقيد ومصمّمة سلفاً. سخّرت كل هذه الأجهزة الحريات الفردية في سبيل إحراز نصرٍ عسكري تام، والحصول على استسلام غير مشروط للعدو. وضعت كل تلك القوى نسبة عالية غير مسبوقة من الرجال القادرين تحت السلاح، كما أنها عاملت كل التجمعات المدنية على أنها أهداف عسكرية مشروعة. مارست كل تلك القوى تمييزاً ضد مجموعات مدنية مختارة في الأراضي التي سيطرت عليها، وذلك بالرغم من عدم توصل البريطانيين، أو الأميركيين، أو حتى الإيطاليين، ولو من بعيد، إلى الوحشية التي مارسها الألمان والروس تجاه الأقليات العرقية غير الموثوق بها. تتضاءل الجرائم التي اقترفها اليابانيون ضد المدنيين الصينيين، وأسرى الحرب من الحلفاء، أمام «الحلّ النهائي للمسألة اليهودية» الذي اعتمده هتلر، وأمام سياسة «تذويب طبقة ملاك الأراضي» التي سبق لستالين أن اعتمدها. كانت العمليتان اسماً ملطفاً للمجازر[١].

بدا أن الجميع فد تهيأوا للحرب، وما إن حلّ العام ١٩٤٤ حتى كان لدى ست دولٍ متحاربة كبيرة أكثر من ٤٣ مليون محارب يحمل سلاحاً، وكلهم تقريباً من الرجال. أما بالنسبة إلى كل الدول المحاربة فقد تعدى هذا العدد المئة مليون شخص. يمثل ذلك العدد ما بين خُمْس وربع عدد سكان العالم، لكن النسبة بقيت هي الأكبر في التاريخ الحديث وقبله وبعده[٢]. شارك في تلك الحرب أكثر من ٣٤ مليون رجلٍ من السوفيات، و١٧ مليون رجلٍ من الألمان، و١٣ مليون رجلٍ من الأميركيين، ونحو ٩ ملايين من رعايا الأمبراطورية البريطانية المخلصين، و٧,٥ ملايين رجلٍ ياباني. كانت نسبة الشبان المجندين GIs الذين لم يضطروا إلى ارتداء الزي العسكري ضئيلةً جداً. كانت نتيجة ذلك تخصيص جزء كبير من صناعة المنسوجات العالمية لصنع الأزياء العسكرية. تنوعت كثيراً الأعمال التي قام بها الذين ارتدوا تلك الأزياء،

(١) For further details, see Ferguson, War of the World.

(٢) Harrison, Economics of World War II.

كما انهمكت غالبية الألمان، واليابانيين، والروس بأعمالٍ عنفٍ منظمة من نوعٍ أو آخر. أما غالبية الأميركيين والبريطانيين فكانت في الخطوط الخلفية تاركة المعركة لأقلياتٍ غير محظوظة. تضافرت عوامل عديدة لربح الحرب ضد ألمانيا: القوة البشرية السوفياتية، والرأسمال الأميركي، والتفكيك البريطاني للشيفرة الألمانية، وقتل الروس للجنود الألمان، والتدمير الأميركي للمدن الألمانية. أما النصر الذي أُحرز على اليابان فقد أُنجز غالباً، وإن ليس كلياً، على يد الولايات المتحدة، التي أنتجت مشروع مانهاتن (الذي أخذ اسمه من **ضاحية مانهاتن الهندسية** حيث بدأ في العام ١٩٤٢) القنابل الذرية الثلاث التي أنهت الحرب وغيّرت وجه العالم، وهي القنابل التي تمت تجربتها في صحراء المكسيك، وأُسقطت فوق هيروشيما وناغازاكي في العام ١٩٤٥.

كانت القنابل الذرية إنجازاً غربياً، وقد جاءت فكرتها من التحذير الذي أرسله آلبرت آينشتين إلى روزفلت بأن الألمان قد يكونون أول من يطور سلاحاً كهذا، كما أن الفكرة تلقت دفعاً من اكتشاف البريطانيين الخصائص الانشطارية لليورانيوم -٢٣٥، التي كان الأميركيون بطيئين في فهمها. لكن العلماء الذين اخترعوا هذه القنبلة كانوا من جنسياتٍ متعددة: أستراليين، وبريطانيين، وكنديين، ودنماركيين، وألماناً، وهنغاريين، وإيطاليين، وسويسريين، وكذلك أميركيين. كان عدد منهم (وعلى الخصوص أوتو فريش وإدوارد تيلر) من اللاجئين اليهود القادمين من أوروبا، الأمر الذي لا يعكس الدور غير المتناسب [مع أعدادهم] الذي أداه اليهود في كل مجالٍ من مجالات الحياة المعرفية منذ الانعتاق الذي تلا الثورة الفرنسية فحسب (*)، لكن كذلك الكلفة التي ترتبت على المجهود الحربي الألماني نتيجة سياسة معاداة

(*) كان الدور الذي أداه اليهود في الحياة المعرفية [الفكرية] الغربية في خلال القرن العشرين – وخصوصاً في الولايات المتحدة – غير متناسب بالفعل، مما يوحي بامتلاكهم ميزةً وراثية وكذلك ثقافية. تبلغ نسبة اليهود نحو ٠,٢ من سكان العالم و٢ بالمئة من سكان الولايات المتحدة، لكنهم حصدوا ٢٢ بالمئة من جميع جوائز نوبل، و٢٠ بالمئة من جوائز فيلد ميدالز عن الرياضيات، و٦٧ بالمئة من جوائز جون كلارك بايتس عن علماء الاقتصاد الذين هم دون الأربعين من العمر. فاز اليهود كذلك بـ ٣٨ بالمئة من جوائز الأوسكار عن أفضل مخرج، و٢٠ بالمئة من جوائز بوليتزر عن المؤلفات غير القصصية، و١٣ بالمئة من جوائز غرامي لإنجازات العمر.

السامية التي اتبعها هتلر. كان اثنان من هؤلاء العلماء من الجواسيس السوفيات. ربما من المستغرب وصف القنبلة الذرية على أنها واحدة من أعظم ابتكارات الحضارة الغربية. كان من نتائج هذه القنبلة، بالرغم من أنها ضاعفت قدرة الإنسان على إنزال الموت بالآخرين، أنها قلّصت مدى الدمار الذي أنزلته الحرب، من خلال تجنّب الحاجة إلى اجتياحٍ برمائي دموي لليابان. لا نستطيع القول إن هذه القنبلة قد أزالت شبح الحرب التقليدية، لأنه بعد وقتٍ قصير على انتهاء الأربعينيات بدأ الإعداد لحرب طائرات ودبابات كبيرة ودموية أخرى في كوريا. لكن القنبلة الذرية، والقنبلة الأكثر تدميراً منها بكثير، الهيدروجينية التي اختُبرت في العام ١٩٥٢ (وسرعان ما اختبرها السوفيات بعد سنة من ذلك)، أدتا إلى وضع حدٍ للمدى الذي يُمكن أن تصل إليه تلك الحرب [الكورية] وكل المجابهات التالية، وذلك عن طريق منع المواجهة المباشرة ما بين الولايات المتحدة وروسيا. كانت كل الحروب التي شنّتها القوتان العظميان، على ما أصبحتا تُعرفان، حروباً محدودة، وهي التي جرى خوضها أحياناً عن طريق قوى تابعة لهما. لم تختفِ تماماً مخاطر الحرب النووية، لكن يمكننا الاستنتاج لدى استعراضنا الماضي أن عصر الحرب الشاملة قد انتهى مع استسلام اليابان.

يمكننا القول: لو تحوّلت الحرب الباردة إلى حربٍ ساخنة لكان من المحتمل جداً أن يفوز بها الاتحاد السوفياتي. امتلك ذلك الاتحاد نظاماً سياسياً مؤهلاً أكثر من غيره لاستيعاب خسائر حربٍ فادحة (كانت نسبة وفيات الحرب العالمية الثانية بالنسبة إلى عدد السكان لما قبل الحرب خمسين ضعفاً في ذلك البلد عما كانت عليه في الولايات المتحدة)، كما أن نظام الاتحاد السوفياتي الاقتصادي كان مثالياً لإنتاج كميات كبيرة من الأسلحة المعقدة. امتلك السوفيات في العام ١٩٧٤ مخزونات أسلحة كبيرة من قاذفات القنابل والصواريخ الباليستية. أما من الناحية العلمية فقد كانوا متخلفين قليلاً فقط [عن الولايات المتحدة]. تسلّح السوفيات كذلك بعقيدة أكثر جاذبية من بديلتها الأميركية في جميع أنحاء مجتمعات ما بعد الاستعمار، وهي

المجتمعات التي عُرفت باسم العالم الثالث، وحيث كانت طبقة الفلاحين تعاني حياة كادحة في ظل نُخبٍ فاسدة كانت تملك كل الأراضي وتتحكم في القوات المسلحة[١]. يمكننا المجادلة، في الواقع، بأن السوفيات قد ربحوا «الحرب العالمية الثالثة» بالفعل. يمكن للشيوعية أن تزدهر حيثما تتوافر حرب طبقية حقيقية[٢].

تبيّن لاحقاً أن الحرب الباردة كانت تدور حول قطف ثمار النصر أكثر من البنادق، وألعاب الكرة أكثر من القنابل. وجب على المجتمعات التي تعيش في خوف دائم من يوم القيامة أن تستمر في الحياة المدنية كذلك، لأن الجيوش الكبيرة في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين كانت أصغر بكثير من جيوش الأربعينيات. تدنت نسبة الجنود الأميركيين من ٨,٦ بالمئة من السكان في عام ١٩٤٥، حتى وصلت إلى أقل من ١ بالمئة في العام ١٩٤٨، ولم تزد عن ٢,٢ بالمئة منذ ذلك الحين، حتى في أوج التدخلات الأميركية في كوريا وفييتنام. بقي الاتحاد السوفياتي في هذه الأثناء أكثر عسكرة، لكن حصة العسكر من عدد السكان تدنت من ذروتها في أعقاب الحرب، بعد أن كانت ٧/٤ بالمئة في العام ١٩٤٥ وبقيت دون ٢ بالمئة منذ العام ١٩٥٧[٣]. أما المشكلة بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي فكانت بسيطة: قدّمت الولايات المتحدة صيغةً للحياة المدنية هي أكثر جاذبية بكثير من الصيغة التي يقدّمها السوفيات. لم يكن ذلك بسبب المزية المتأصلة التي تمنحها الموارد الطبيعية فحسب، بل لأن التخطيط الاقتصادي المركزي، وبالرغم من أنه ضروري للنجاح في سباق التسلّح النووي، لا يناسب أبداً رغبات المستهلكين. يُمكن للمخطِّط الاقتصادي استنباط أكثر الأسلحة فتكاً وتسليمها إلى زبون واحد، وهو الدولة. لكن المخطِّط ذاته لا يستطيع أن يأمل تلبية رغبات ملايين المستهلكين الذين تتغيّر أذواقهم على الدوام. كانت هذه النقطة واحدة من النقاط التي أثارت

(١) Westad, Global Cold War.

(٢) Ferguson, War of the World, pp. 606–17.

(٣) Data from Singer and Small, Correlates of War.

انتباه المنافس الرئيس لكينز، وهو عالِم الاقتصاد النمسوي فردريك فون هايك. حذّر هايك في كتابه **الطريق إلى العبودية** (١٩٤٥) أوروبا الغربية من أوهام تخطيط أوقات السلم to resist the chimera of peacetime planning. برهن نموذج السوق الأميركي على أنه لا يُضاهَى، وهو الذي يقضي بتلبية (وخلق) الطلب عند المستهلكين، وذلك بعد أن تلقى أكبر محفزٍ مالي ممكن في جميع الأزمنة. وكان محمياً بالجغرافيا من مخاطر الحروب.

يمكننا أخذ نموذج بسيط في هذا المجال لشرح هذه النقطة. كان الخيّاطون هم الذين يأخذون مقاييس معظم الملابس في فترة ما قبل الحرب، لكن الحاجة إلى إنتاج عشرات ملايين الملابس العسكرية شجّعت على تطوير حجوم معيارية لهذه الملابس. إن مدى حجوم البشر ليس واسعاً جداً في حقيقة الأمر، وذلك لأن طول الإنسان وعرضه يتفاوتان بطريقة متناسبة، مما يعني أن لدى معظم البشر حجماً وسطياً. شاركت ١٥,٠٠٠ امرأة من النساء الأميركيات في دراسة على الصعيد القومي المجلس القومي للاقتصادات المحلية التابع لوزارة الزراعة الأميركية، وذلك ما بين العامين ١٩٣٩ و١٩٤٠. كانت تلك أول دراسة علمية على نطاقٍ واسع لمقاييس النساء على الإطلاق. أُخذ ما مجموعه تسعة وخمسون مقياساً من كل امرأة متطوعة، ونُشرت النتائج في العدد رقم ٤٥٤ من نشرة وزارة الزراعة الأميركية للعام ١٩٤١، وذلك تحت عنوان **مقاييس النساء لتصاميم الثياب**. سمحت هذه الحجوم المعيارية بإنتاج ثياب المدنيين، والأزياء العسكرية بكميات كبيرة، وبأن تكون جاهزة للبيع مباشرة. لم تمضِ عقود قليلة حتى كانت ملابس الطبقة الراقية الثرية هي وحدها المفصّلة بحسب مقاييس الزبائن: بذلات الرجال من **سافيل رو**، وأحدث الأزياء النسائية من باريس وميلانو.

تحوّل المجتمع الاستهلاكي الأميركي في فترة ما قبل الحرب إلى ظاهرةٍ جماهيرية، وأدى بذلك إلى تقليص كبيرٍ في فروق اللباس بين الطبقات الاجتماعية المختلفة. كان ذلك جزءاً من المساواة التي تعمّمت بعد الحرب. كانت نسبة ١ بالمئة

من السكان الأثرياء في العام ١٩٢٨ تتلقى نحو ٢٠ بالمئة من مداخيل البلاد. لكن بدءاً من العام ١٩٥٢ وحتى العام ١٩٨٢ تراجعت هذه النسبة أقل من ٩ بالمئة على الدوام، وهي نسبة تقل عن حصة أثرياء الواحد بالمئة المماثلة في فرنسا[١]. رافق الفرص التعليمية الفضلى التي حظي بها الجنود العائدون [من الحرب] تحسّن ملحوظ في نوعية الحياة. كان آباء الأطفال الذين ولدوا عقب الحرب العالمية الثانية أول جيلٍ يحظى بفرصة الحصول على البطاقات الائتمانية. تمكّن هؤلاء من شراء منازلهم بواسطة القروض، وكذلك استعانوا بالقروض لشراء سياراتهم، وكل أدواتهم المنزلية، مثل الثلاجات [البرادات]، وأجهزة التلفزيون والغسّالات[٢]. أما في العام ١٩٣٠، أي في السنة التي حل فيها الكساد الاقتصادي، فقد تمتع نصف الأسر الأميركية بالكهرباء، وبالسيارة، وبثلاجة في المنزل. أما بحلول العام ١٩٦٠ فقد امتلك ٨٠ بالمئة من الأميركيين ليس كل تلك الأدوات فحسب، بل الخدمات الهاتفية كذلك. تسارعت هذه الوتيرة وازدادت مع ظهور سلع متينةٍ أخرى. كانت أجهزة غسل الثياب اختراعاً من فترة ما قبل الكساد عائداً إلىً العام ١٩٦٥. أما بحلول العام ١٩٦٥، أي بعد مرور تسعة وثلاثين عاماً، فقد كانت نصف الأسر الأميركية يمتلك غسالة ثياب. أما أجهزة تبريد الهواء فقد كان اختراعاً من العام ١٩٤٥، لكنها اجتازت عتبة النصف [من مجمل المنازل] في العام ١٩٧٤، أي بعد مرور تسعة وعشرين عاماً. ظهرت آلات تجفيف الثياب في العام ١٩٤٩، وقد اجتازت عتبة النصف في العام ١٩٧٢، أي بعد مرور ثلاثة وعشرين عاماً. (أما جهاز غسل الأطباق فقد اختُرع في العام ١٩٤٩ كذلك، لكنه كان أبطأ انتشاراً، أي إنه اجتاز عتبة النصف في العام ١٩٧٣). أما أجهزة التلفزيون الملوّن فقد حطمت كل الأرقام، وهي التي ظهرت في العام ١٩٥٩ لكنها توافرت في نصف منازل الأميركيين في العام ١٩٧٣، أي بعد مرور أربع عشرة سنة فقط. امتلك ثُلثا الأميركيين، أو أكثر، كل هذه الأدوات، ما عدا

(١) Piketty and Saez, 'Income Inequality', esp. figure 20.

(٢) Hyman, 'Debtor Nation'.

جهاز غسل الأطباق، وذلك بحلول العام ١٩٨٩، أي مع انتهاء الحرب الباردة فعلياً. امتلك الأميركيون كذلك أفران المايكرو وايف (التي اختُرعت في العام ١٩٧٢) وآلات تسجيل شرائط الفيديو (١٩٧٧). امتلك ١٥٪ منهم الحواسيب الشخصية (١٩٧٨). يُذكر أن مجموعة رائدة من الأميركيين امتلكت الهواتف المحمولة. أما عند انتهاء الألفية الثانية فقد توافرت هذه الأجهزة، وكذلك الإنترنت، في نصف المنازل الأميركية[١].

تضاءلت جاذبية الشيوعية السوفياتية بسرعة عند المجتمعات التي بدا لها أن هذا المسار هو في متناول اليد. أما أوروبا الغربية، التي استفادت كثيراً من عملية إعادة البناء بعد الحرب بفضل المساعدات الأميركية، فقد استعادت مسار نموها الذي كان سائداً في سنوات ما قبل الكساد (بالرغم من أن الدول التي تلقت أكبر حصة من البرنامج الذي سُمّيَ على اسم جورج مارشال لم تحقق تنمية بوتيرة أسرع من غيرها). أدّت السياسات الاستبدادية إلى إضعاف النقابات في معظم أنحاء أوروبا، وهكذا كانت علاقات العمل أقل سخونة مما كانت عليه قبل الحرب. كانت الإضرابات تدوم لفترة أقصر (بالرغم من ارتفاع نسبة المشاركة). أما بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا فهي البلدان الوحيدة التي تزايدت فيها وتيرة الأنشطة الصناعية. ظهرت في هذه الأثناء الأنشطة الجماعية للشركات الكبيرة، والتخطيط الاقتصادي، وإدارة الطلب الكينزية ودول الرفاه الاجتماعي، الأمر الذي رافق اعتماد دول أوروبا الغربية سياسات واقية ضد التهديد الشيوعي، كما اعتمدت الاندماج الاقتصادي عبر الحدود وذلك مع توقيع معاهدة روما في العام ١٩٥٧. لكن التهديد الآتي من موسكو كان قد تراجع كثيراً، في واقع الأمر، بحلول تلك السنة. ظهرت سياسة الفرض بالقوة التي اعتمدها السوفيات، والتركيز المستمر على الصناعة الثقيلة، والتنظيم الشمولي للزراعة، كما ظهر ما سماه ميلوفان دجيلاس «الطبقة الجديدة» من الأعضاء الحزبيين. أدت كل هذه الأمور إلى إطلاق شرارة الثورات في برلين (١٩٥٣) وبودابست (١٩٥٦). أما

(١) I am grateful to my colleague Diego Comin for these figures.

المعجزات الاقتصادية الحقيقية فهي التي حدثت في آسيا بعد فترة الحرب، وهي التي لم تظهر في اليابان فحسب، بل في هونغ كونغ، وإندونيسيا، وماليزيا، وسنغافورة، وكوريا الجنوبية، وتايوان، وتايلاند، وهي بلادٌ حققت نمواً مستمراً، ومتسارعاً في معظم الحالات. أما حصة آسيا من الناتج المحلي الإجمالي العالمي فقد ارتفعت من ١٤ بالمئة إلى ٣٤ بالمئة في الفترة ما بين العامين ١٩٥٠ و١٩٩٠. أما الأمر الأهمّ من ذلك فهو أن آسيا استمرت في النمو في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، وذلك في وقتٍ شهدت مناطق أخرى من العالم تباطؤاً، أو انكماشاً اقتصادياً كما هي الحال مع أفريقيا وأميركا اللاتينية. أما أداء كوريا الجنوبية فقد كان مدهشاً بشكل خاص. لقد أحرزت تلك البلاد التي كان فيها مدخول الفرد يقلّ عن مدخول الفرد في غانا في العام ١٩٦٠، ما يكفي من التقدم في العام ١٩٩٦ كي تنضم إلى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وهي التي تُعد نادي الدول الغنية. كانت كوريا أسرع اقتصادٍ نمواً في العالم في الفترة ما بين العامين ١٩٧٣ و١٩٩٠.

كانت معجزة دول شرق آسيا الاقتصادية هي مفتاح الحرب الباردة. أما لو كانت فيتنام هي القاعدة بدلاً من كوريا، وبكلمات أخرى لو كان معظم التدخلات الأميركية العسكرية فاشلاً، لكانت النتيجة أقل مدعاة للسرور. إذاً، ما الذي أحدث الفرق؟ أولاً، إن الولايات المتحدة وحلفاءها (وعلى الخصوص بريطانيا في ماليزيا)، كانت قادرة على تقديم ضمانات أمنية موثوقٍ بها إلى الحكومات بعد التدخلات العسكرية. ثانياً، أدت إصلاحات ما بعد الحرب إلى تكوين أسسٍ مؤسسة متينة سمحت بالنمو. أما أفضل مثالٍ على ذلك فهو الإصلاحات التي شملت الأراضي في اليابان في العام ١٩٤٦، وهي الإصلاحات التي جرفت ما تبقى من الإقطاعية، كما أنها حقّقت قدراً أكبر من المساواة في ملكية الأراضي (وهو أمرٌ أغفله إصلاحيو المايجي). ثالثاً، أفادت هذه الدول الآسيوية كثيراً من النظام الاقتصادي العالمي الذي تزايد في الانفتاح، وهو النظام الذي تمسّكت به الولايات المتحدة. أخيراً، استخدمت هذه الدول صيغاً متنوعة من توجيه الدولة، وذلك من أجل ضمان إمرار

أموال الادخار إلى صناعات التصدير، التي كانت المرحلة الأولى منها، وبطبيعة الحال، قطاع الأقمشة. لم يقدّم المجتمع الاستهلاكي نموذجاً لدول شرق آسيا، بل وفّر كذلك سوقاً للثياب الرخيصة التي تنتجها.

تجدر الملاحظة هنا إلى أن «النمور الآسيوية»، التي تبعت مثال اليابان، وصنّعت نفسها عن طريق تصدير مواد أولية مثل السلع القطنية، قد فعلت ذلك بمساعدة المؤسسات [النُظُم] الديمقراطية. مضت كوريا الجنوبية في ثورتها الصناعية عن طريق جنرالات من أمثال **بارك شونغ هي** (١٩٦٠-١٩٧٩)، **وشون دو هوان** (١٩٨٠-١٩٨٧)، بينما مارس **لي كوان يو** في سنغافورة وسوهارتو في إندونيسيا حكماً مطلقاً (لكن **دو هوان** كان متنوراً)، بينما تولت أحزاب السلطة الاحتكارية الحكم في تايوان واليابان. بقيت هونغ كونغ في هذه الأثناء مستعمرة بريطانية حتى العام ١٩٩٧. كان النجاح الاقتصادي في كل حالة متبوعاً بالممارسة الديمقراطية وإن كان ذلك قد تم بشكلٍ بطيء. يمكننا القول، بالمختصر، إن دول شرق آسيا قد أفلتت من حقل التأثير السوفياتي لأنها أصبحت شريكاً في المجتمع الاستهلاكي الأميركي. أما في الدول الأخرى فقد اختلف الأمر تماماً – إيران، وغواتيمالا، والكونغو، والبرازيل، وجمهورية الدومينيكان، وتشيلي ـ أي حيثما كانت التدخلات الأميركية محدودة. كان الوضع أسوأ في الدول الآتية: كوبا، وفييتنام، وأنغولا، وإثيوبيا، أي حيث كانت التدخلات، أو المساعدات، السوفياتية أكثر فاعلية.

يمكننا القول إننا نستطيع الربط ما بين الاستهلاك الكمّي، وكل المعايير الموحّدة التي رافقته، وبين الفردية المتفشّية بوصفها واحدة من أذكى الحيَل التي رافقت الحضارة الغربية. لكن إذا أردنا أن نفهم كيفية تحقيقها فلا نجد أمامنا سوى كلمة واحدة: غربي. ربما يجد الاتحاد السوفياتي عذراً لفشله في اختراع ونشر التلفزيون الملون أو فرن المايكرو وايف. لم تكن كل المنتجات الأساسية في المجتمع الاستهلاكي معقّدة تقنياً. كان أبسط هذه المنتجات سروال الرجل العامل الذي اختُرع في الساحل الغربي من الولايات المتحدة. ربما كان أعظم لغزٍ في فترة الحرب الباردة برمتها هو السبب الذي منع **جنة العمال** من إنتاج سروالٍ لائق.

جنّي الجينز

لقد ظهر مرة في **الغرب المقفر** ذلك الكساء العالمي. بدأ الجينز وجوده بوصفه سروالاً ملائماً لعمّال المناجم ورعاة البقر. تحوّلت هذه السلعة في السبعينيات من القرن العشرين إلى أكثر الثياب شعبية في العالم، بل تحوّلت إلى رمزٍ سياسي قوي لأوجه الخطأ في النظام الاقتصادي السوفياتي. لماذا؟ لماذا عجز السوفيات عن تقليد [سروال] **ليفي** ٥٠١ بالطريقة التي قلّدوا فيها القنبلة الذرية؟

ظهر اختراع سروال الجينز كما نعرفه هذه الأيام في العام ١٨٧٣، أي عندما تمكّن تاجر الملابس والأقمشة ليفي شتراوس البافاري المولد، وبالاشتراك مع خيّاط من **رينو** يدعى جاكوب دافيس، من تسجيل براءة اختراع استخدام مشابك نحاسية لتقوية جيوب أردية waist overalls عمال المناجم. كان القماش الذي استخدماه من الكتان السميك serge de Nimes، ولربما كانت كلمة جينز مشتقة من Genoa الذي كان يُصنع في معمل أموسكيج Amoskeag في مانشستر، نيوهمبشاير، مع استخدام القطن المصبوغ الذي يُزرع في مزارع أميركية، ويُصبغ بصباغٍ مستخرج من نبتة النيل. أما مصانع **ليفي** الأصلية فقد كانت في سان فرنسيسكو، وهناك استُخدمت العلامة الجلدية المألوفة لأول مرة في العام ١٨٨٦، وهي الرقعة التي تُظهر حصانين يعجزان عن فصل [تمزيق] سروال من الجينز؛ أما الرقعة المتحركة الحمراء فقد أُضيفت في العام ١٩٣٦. كانت تكاليف صنع الجينز الأزرق متدنية، أما تنظيف سروال الجينز فكان أمراً في منتهى السهولة، لكن الجينز كان في منتهى المتانة ومريحاً جداً. كانت أردية العمل التي يستخدمها العمال في بريطانيا مريحةً بدورها (وكان أشهرها ذلك الذي استخدمه تشرشل في أثناء الحرب)، وكذلك كانت أردية dungarees التي أخذت اسمها من قماشٍ مصنوعٍ في دونغري في الهند. لكن لماذا تمكّن الجينز المصنوع في كاليفورنيا – الذي كان يسلّم إلى المدنيين في عددٍ من السّجون الحكومية – من الهيمنة على عالم الموضة؟ يكمن الجواب في أنجح صناعتين عرفهما القرن العشرون: السينما والتسويق.

بدأ الأمر عندما استبدل جون واين الشاب الملابس الجلدية المزخرفة بشرائط متدلية التي كان يرتديها في أوائل أفلام رعاة البقر بسروال الجينز البسيط الذي ارتداه في فيلم العربة Stagecoach (١٩٣٩). ظهرت بعد ذلك ثياب الجينز والجِلْد التي ارتداها مارلون براندو في فيلم Wild One (١٩٥٣)، ثم جاء بعد ذلك **جايمس دين** بسترته الحمراء، وقميصه الأبيض، والجينز الأزرق في فيلم Jailhouse Rock (١٩٥٧). قدّم رجال التسويق دعماً إضافياً للمظهر الجديد مع الملابس المتغضّنة مع «رجل مارلبورو»، أي راعي البقر الذي يدخّن السجائر ويرتدي ثياب الجينز، وهي العناصر التي ابتكرها مدير الدعاية **ليو بيرنيت** في العام ١٩٥٤. أما مارلين مونرو فقد كانت من بين أوائل الذين تبنّوا الجينز؛ ولم تكن بذلة المسجونين التي ارتدتها في جلسات التصوير الأولى على قدرٍ من الإغراء. أما العامل الأساس منذ البداية فقد كان الجمع ما بين الجينز وسلوك الشباب المتهور. دان قائد **المورمون** بريام يونغ في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر السراويل المزوّدة فتحات أمامية وأزراراً لأنها «سراويل تساعد على الزنى». أما في العام ١٩٤٤، فقد تسببت مجلة **لايف** بعاصفة عندما نشرت صورة لفتاتين من **ولسلي كوليج** ترتديان سراويل الجينز[1]. أما عندما بدأ **لي** Lee، منافس ليفي بإدخال السحّاب فقد تكرّست سمعة الجينز بوصفه مثيراً من الناحية الجنسية. كان ذلك استنتاجاً غريباً نظراً إلى صعوبة ممارسة الجنس مع شخصٍ يرتدي الجينز الضيق. سجّلت ثياب الجينز حركةً تصاعدية، وهي التي بدأت في الباحات الخلفية مع عمال المزارع والمساجين، كما كانت إجبارية بالنسبة إلى عمّال الدفاع [المدني] في خلال الحرب، وما لبث أن وجدت طريقها مع عصابات سائقي الدراجات النارية في فترة سنوات ما بعد الحرب. تبنت منطقة الحوض الغربي هذا اللباس، وما لبث أن انتشر بين طلاب الجامعات الأميركية الراقية في منطقة الشمال الشرقي من الولايات المتّحدة، ثم انتقل إلى مؤلفي الموسيقى، والمغنّين الشعبيين وفرق الموسيقى الشعبية في الستينيات من القرن العشرين لينتهي

(١) Sullivan, Jeans, pp. 9, 77.

مع ارتداء جميع الرؤساء الذين أتوا بعد ريتشارد نيكسون له. كان نمو مبيعات **ليفي** مذهلاً. تمكنت الشركة من بيع أربعة ملايين سروالٍ من الجينز في العام ١٩٤٨، وما لبث هذا العدد أن ارتفع إلى ١٠ ملايين في العام ١٩٥٩. زادت مبيعات ليفي عشرة أضعاف ما بين العامين ١٩٦٤ و١٩٧٥ عندما تخطت الرقم ١٠ مليارات. وصلت هذه المبيعات إلى مليارَي سروال في العام ١٩٧٩. كانت ليفي واحدة فقط من الماركات المتنافسة والناجحة مثل **لي** ورانغلر.

تمتعت هذه الملابس الأميركية بجاذبية عند غير الأميركيين، الأمر الذي بدا بوضوح عندما أطلق **ليفي** حملة تصديرٍ في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي. رأى جيل الشباب أن الجينز يرمز إلى الثورة ضد تقاليد الملابس القديمة التي كانت سائدةً في فترة ما بعد الحرب. خرج جنّي الجينز من القمقم، وكان القمقم أكثر من تلك القارورة المقوسة بامتياز لشراب الكوكاكولا. بدا أنه لن يمرّ وقت طويل قبل أن تحقق شركة **ليفي شتراوس** طموحها المعلَن في «إكساء العالم». أعلنت مجلة **لايف** في العام ١٩٧٢ أن «العالم أصبح الآن بلاد الجينز الأزرق»[1]. انتزعت **ليفي** ورقة من سجلّ كوكا كولا. تمكّن هذا السائل البني الفوار، الذي **اختُرع** في العام ١٨٨٦ عندما أقدم **جون بمبرتون** على كربنة مزيج من الكوكايين المستخرج من أوراق الكوكا، والكافيين المستخرج من ثمرة الكولا. تمكّن هذا الشراب من التفوق حتى على **سنجر** بوصفه ماركة عالمية. تمكّنت كوكاكولا من تصنيف نفسها على أنها «الشراب العالمي» في فترة مبكرة، أي في العام ١٩٢٩ عندما كانت تُباع في ثمانية وسبعين بلداً مختلفاً بما فيها بورما، أي حيث يُمكن للمرء أن يرى ذلك الشعار السبنسري عند مدخل **باغودا شوي داغون** في رانغون، وإن بدا متعارضاً مع المكان[2]. تمكّنت كوكاكولا في أثناء الحرب العالمية الثانية من تشغيل أربعة وستين

(١) Ibid., pp. 214f.

(٢) 'Coca-Cola as Sold Throughout the World', Red Barrel, 8, 3 (March 1929).

معمل تعبئة في ستة مواقع مختلفة للحرب في العالم. تمكّنت الشركة كذلك من تأسيس معمل تعبئة في لاوس في العام ١٩٧٣ في أوج حرب فييتنام.

لم يكن أمام شركتَي ليفي وكوكاكولا من حاجزٍ أشدّ منعة من الستار الحديدي الذي أُسدل عبر أوروبا بفعل الحرب الباردة. رفض رئيس شركة **كوك**، روبرت دبليو وودروف، من ناحية المبدأ المشاركة في المعرض الأميركي القومي في موسكو، كما ألقى باللوم شخصياً على نائب الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون، وذلك عندما انسحبت شركة بيبسي من الجهود الهادفة إلى حمل القائد السوفياتي نيكيتا خروتشوف على تذوّق شرابها المنافس، بعد أن تناقش القائدان تلفزيونياً عند افتتاح المعرض الأميركي القومي في تموز من العام ١٩٥٩[١].

اتضحت في أدبيات الحرب الباردة، وعلى الدوام، هوية «الغرب» وهوية «الشرق». يبدأ الشرق من حيث يحدّد نهر إلبي Elbe نهاية جمهورية ألمانيا الاتحادية وبداية جمهورية ألمانيا الديمقراطية. تنتهي هذه الحدود عند الحدود الفاصلة ما بين جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية وجمهورية كوريا. لكن من وجهة نظر الشرق الحقيقي الإستراتيجي – أي من الشرق الأوسط حتى الشرق الأقصى – فإن العالم بدا، ببساطة، مقسّماً ما بين غربَين متنافسَين: جزء رأسمالي وجزء شيوعي. أما الأشخاص الذين يتربعون على سدة الحكم في المنطقتين فقد بدوا متشابهين تقريباً. يُذكر أن الاتحاد السوفياتي حاول، بطرائق متعددة، تقليد الولايات المتحدة، وصنع الأسلحة ذاتها – وكذلك السلع الاقتصادية ذاتها. أوضح خروتشوف في أثناء «نقاش المطبخ» الذي أجراه مع نيكسون، أن السوفيات يطمحون إلى الوقوف على قدم المساواة مع المنتجات الأميركية واحداً فواحداً. كانت الفروق ضئيلة في ملابس الرجلين. ارتدى نيكسون ثياباً بيضاء وسوداء، وكأنه يريد بذلك التقليل من أهمّية تقنية التلفزيون الملوّن التي كان ينبغي له تسويقها، وهكذا بدا مثل محامٍ من كاليفورنيا، وكان كذلك

(١) See Allen, Secret Formula, p. 325.

فعلاً. أما خروتشوف فقد ارتدى بذلةً ذات ألوان فاتحة واعتمر قبعةً، فبدا مثل نائبٍ ديمقراطي جنوبي ميّز نفسه من سياسات حزبه، وقد احتسى كمية كبيرة من شراب المارتيني في أثناء الغداء.

طالب المراهقون في الاتحاد السوفياتي والدول الدائرة في فلكه في أوروبا الشرقية بالحصول على الجينز. يُستغربُ، والحالة هذه، أن يفشل المنافس الرئيس للولايات المتحدة في عالم ما بعد الحرب تقليد هذا النوع من الملابس. ربما يعتقد المرء أن هوس الغرب بالدينيم Denim قد سهّل الحياة بالنسبة إلى السوفيات. كان مفترضاً أن يكون الاتحاد السوفياتي جنةً للطبقة العاملة، كما أن صناعة الجينز هي أسهل بكثير من صناعة سراويل ستاـ برست Sta- Prest (وهي ابتكارٌ آخر من **ليفي شتراوس** كان قد ظهر في العام ١٩٦٤). فشلت الكتلة السوفياتية، لسببٍ ما، في إدراك جاذبية قطعة ثياب كان ممكناً، كذلك، أن ترمز إلى مزايا العامل السوفياتي الذي يعمل بجد. وبدلاً من ذلك برز الجينز الأزرق، وموسيقى البوب الشعبية، اللذان ارتبطا بشكلٍ وثيق كرمزين مثاليين للتفوق الغربي. أُطلقت ملابس الجينز، بشكلٍ يختلف عن الرؤوس الحربية النووية، ضد السوفيات بالفعل: أقامت **ليفي** معرضين في موسكو في العام ١٩٥٩، ومرة أخرى في العام ١٩٦٧.

إذا كان المرء طالباً يعيش داخل الستار الحديدي في الستينيات، وفي برلين الشرقية على سبيل المثال، فكان مستبعداً أن يرغب في ارتداء ملابس الكشافة المبتدئين التي كان يرتديها المتطوعون الشباب Young Pioneer. كان الأمر الأقرب احتمالاً هو رغبته في ارتداء ملابس الشبان المتأنقين في الغرب. كان **ستيفان وول** طالباً من ألمانيا الشرقية في ذلك الوقت. يتذكر ستيفان تلك الأوقات:

بدايةً، لم يكن ممكناً [شراء الجينز في جمهورية ألمانيا الديمقراطية]. كان يُنظر إلى الجينز على أنه تجسيد للإمبريالية الثقافية الآنكلوـ ساكسونية. كان المرء يتلقى نظرات التأنيب إذا ما ارتداه، كما كان متعذراً شراؤه. [لكن] تمكّن بعض من لهم أقارب في الغرب من إقناعهم بجلبها إليهم... ارتدى هؤلاء ملابس الجينز، مما

استجلب عليهم غضب الأساتذة، والموظفين، ورجال الشرطة المنتشرين في الشوارع. سمح هذا الوضع بنشوء سوق سوداء للبضائع الغربية التي بدا وكأنها تهدِّد الدولة[١].

بلغت الرغبة في الحصول على هذه السلعة درجة دفعت المسؤولين السوفيات عن تطبيق القانون إلى صوغ عبارة «جرائم الجينز». تشير هذه العبارة إلى «خرق القوانين الناتج من الرغبة في استخدام أي وسيلةٍ للحصول على السلع المصنوعة من الدينيم». قال الفيلسوف اليساري الفرنسي ريجيس دوبريه، في العام ١٩٨٦، وهو الذي كان رفيق سلاح تشي غيفارا: «تمتلك موسيقى الروك، وأشرطة الفيديو، والجينز الأزرق، والمأكولات السريعة قوةً أكبر من الجيش الأحمر بأسره»[٢]. كانت هذه الفكرة سائدة إلى هذا الحد في أواسط الثمانينيات، لكنها لم تكن كذلك في العام ١٩٦٨.

كانت سنة ١٩٨٦ هي سنة الثورات بكل أنواعها بدءاً بباريس إلى براغ، ومن برلين إلى بيركلي، وحتى في بيجينغ[٣]. لكن القاسم المشترك في كل تلك الاضطرابات التي واجهها ثنائي الحرب الباردة كان الشباب. لم يسبق في الأزمنة الحديثة أن مثّل جيل الشباب الذين تراوح أعمارهم ما بين الخامسة عشرة والرابعة والعشرين نسبةً كبيرة من المجتمع مثل ما فعل في العقد الذي أعقب العام ١٩٦٨. انخفضت نسبة الشباب حتى وصلت إلى ١١ بالمئة من سكان أميركا في أواسط الخمسينيات من القرن الماضي، لكن هذه النسبة وصلت إلى ذروة ١٧ بالمئة في أواسط السبعينيات من القرن الماضي. جاء التوسع في التعليم العالي في الوقت ذاته، وعلى الخصوص في الولايات المتحدة ليعني أن نسبةً عالية من الشبان والشابات تلتحق بالجامعات. كان الطلبة الجامعيون يمثّلون في العام ١٩٦٨ أكثر من ٣ بالمئة من مجمل سكان أميركا، وذلك مقارنة بنسبة تقل عن ١ بالمئة في العام ١٩٢٨. حدث توسع مماثل في

(١) Interview with the author, 2009. See also Wolle, Traum von der Revolte, esp. pp. 56–61.

(٢) Debray, 'The Third World', http://www.digitalnpq.org/archive/1986_ spring/kalashnikov.html.

(٣) Suri, Power and Protest.

أوروبا، وإن كان أقل من نسبته في الولايات المتحدة. كانت تلك هي أجيال فترة ما بعد الحرب - شابة، وكثيرة العدد، ومثقفة، وثرية. امتلك هؤلاء كل أسباب الشعور بالفضل تجاه جيل آبائهم الذي حارب من أجل الحرية، وأتاح لهم فرص التعلّم، لكنهم ثاروا بدلاً من ذلك.

أقدم الطلاب الفرنسيون في ٢٢ آذار من العام ١٩٦٨ على احتلال ردهة الطبقة الثامنة المخصصة للأساتذة في جامعة باريس X نانتير - «نانتير المجنونة» كما كان يُطلق على الحرم الجامعي الإسمنتي البشع. وقعت بحلول شهر أيار اشتباكات بين عشرات آلاف الطلاب، بمن فيهم طلبة جامعة السوربون الراقية مع قوات الشرطة في شوارع باريس[١]. اكتسح إضراب عام البلاد بعد أن انتهزت النقابات العمالية الفرصة للضغط على الحكومة الضعيفة وطالبت برفع الأجور. ظهرت مشاهد مماثلة في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، والجامعة الحرة free في برلين، حتى في جامعة هارفرد حيث أقدم أفراد ينتمون إلى منظمة **طلبة من أجل مجتمع ديمقراطي** على دخول منزل الرئيس، بينما اكتسح أفراد من تحالف العمال والطلبة قاعة الجامعة **يونيفرسيتي هال** (وأعادوا تسميتها موقتاً قاعة تشي غيفارا)، وقاموا بطرد العمداء العاملين هناك.

كانت ثورة الحرم الجامعي هذه موجهةً، في الظاهر، ضد الحرب التي شنتها الولايات المتحدة للمحافظة على استقلال فيتنام الجنوبية، وهي الحرب التي كلفت بحلول العام ١٩٦٨ أرواح أكثر من ٣٠,٠٠٠ رجلٍ أميركي، وهكذا فقدت هذه الحرب شعبيتها بين السكان. وجّه ثوار العام ١٩٦٨ دعمهم لحركة الحقوق المدنية التي قام بها الأميركيون من أصولٍ أفريقية، وهي التي كانت عادة تحدياً متحرراً أمام آخر عوائق المساواة العرقية في الجنوب الأميركي. كانت معظم اللغة السائدة في العام ١٩٦٨ ماركسية، تعبّر عن كل الصراعات تقريباً بدءاً بإسرائيل حتى الهند الصينية بوصفها صراعاً معادياً للإمبريالية. كان الهدف بالنسبة إلى قادة الطلبة العقائديين من أمثال **دانيال** (داني الأحمر) **كوهن بينديت ورودي دوتشوك**

(١) Kurlansky, 1968.

هو إحداث «تمردٍ في مراكز الرأسمالية». أعلن هؤلاء القادة الغاضبون أنه «لن تكون الإنسانية سعيدة حتى يُشنق آخر رأسمالي مع أحشاء آخر بيروقراطي». أراد الانتهازيون Situationists الفوضويون إلغاء العمل ذاته، وحثّوا مسانديهم من الطلبة على عدم العمل Ne travaillez jamais[1]. كان ثمة مطلب عملي رافقه كلامٍ كثير عن أهداف الثورة الحقيقية، هو حرية وصول الذكور إلى مساكن الإناث – ومن هنا جاء الأمر بـ«إطلاق العنان لعقلك كلما فتحت مقدمة بنطالك». قال أحد الرسّامين: «كلما زادت رغبتي في ممارسة الحب زادت رغبتي في القيام بثورة، وكلما زادت رغبتي في القيام بثورة زادت رغبتي في ممارسة الحب»[٢]. تم تشجيع الطالبات على تجربة درجات من المظاهر كانت محظورة حتى ذلك الحين. كانت ثورة العام ١٩٦٨ ثورة ملابس، وذلك بدءاً بثياب نوم الحراس الحمر التابعين لماو غير الأنيقة، مروراً بسراويل الهيبيين الواسعة في قسمها الأسفل. تعلقت هذه الثورة الجنسية بالاستغناء عن بعض هذه الثياب، بدءاً بالتنانير القصيرة، ووصولاً إلى البيكيني. أعلنت الناشطة في حقوق المرأة جيرماين غريير الأسترالية المولد، التي أحبت الحفلات أكثر من محبتها للحزب: «على النساء أن يرفضن دور المستهلكات الرئيسات في الدولة الرأسمالية»[٣].

أما المفارقة هنا فهي أن المشاركين في ثورة العام ١٩٦٨ ـ الذين تعودوا التنديد بالإمبريالية الأميركية في فييتنام، وحطموا في تحركٍ رمزي نوافذ مكتب أميركان إكسبرس في باريس – حافظوا على إدمانهم المزمن التراث الشعبي الأميركي. بقي الجينز الأزرق، الذي أعيد تصميمه في هذا الوقت مع خصرٍ أكثر انخفاضاً في القسم الأسفل، الزيّ المفضّل عند شباب هذه الثورة. تابعت شركات الأسطوانات في هذا الوقت توزيع ألحان «رجل الشارع المحارب» (الذي أطلقته شركة ديكا في كانون

(١) Marshall, Demanding the Impossible, pp. 551ff.

(٢) For 1968 graffiti, see http://www.bopsecrets.org/CF/graffiti.htm.

(٣) Greer, Female Eunuch, p. 322.

الأول/ديسمبر من العام ١٩٦٨)، وكذلك أغنية البيتلز «الثورة» (التي أطلقتها شركة الفريق ذاته التي اتخذت التفاحة رمزاً لها قبل أربعة أشهر). عكست الأغنيتان تشككاً في جدوى الثورة. كانت سراويل الدينيم [الجينز] وأسطوانات الفينيل من بين أنجح منتجات الرأسمالية في أواخر القرن العشرين. وفّرت سياسة الحظر، التي شملت هذه المرة المخدّرات، على غرار ما حدث في العشرينيات من القرن العشرين، فرصةً لحقلٍ جديد نحو «الجريمة المنظمة». ربما يتمكّن الانتهازيون الفرنسيون من إلقاء اللوم على المجتمع الاستهلاكي، وثقافته المادية البذيئة وإعلاناته المنتشرة في كل الأمكنة (وهي التي أطلق عليها **غاي ديبورد** مستهجناً «مجتمع المباهاة» spectacle)، لكن أولئك الذين أثاروا الشغب ضد الرأسمالية في باريس فقد أساؤوا، وبشكلٍ كلي، تقدير الفوائد التي جنوها هم أنفسهم من النظام. يمكننا القول إنه بالرغم من هجمات رجال الشرطة المتشددين الذين ينتمون إلى عامة الشعب والمتسلحين بالعصي، وهم الذين كانوا يمقتون أصحاب الشعر الطويل الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى ذات الامتيازات، فإن السلطات في العالم الغربي سمحت للطلاب بحرية الاحتجاج. رضخت معظم الجامعات لمطالب الطلاب. تكمن مفارقة أخرى في أن حركة الشباب التي فضّلت المشاركة في «الحب وليس في الحرب» قد انتهت بالتورط في قدرٍ كبير من العنف: مشاغبات عرقية في المدن الأميركية، وتزايد في نسبة جرائم القتل والإرهاب في أوروبا الغربية والشرق الأوسط. بدأت حقبة جديدة في ٢٣ تموز من العام ١٩٦٣، وذلك مع قيام أفراد ينتمون إلى منظمة التحرير الفلسطينية PLO بخطف طائرة تابعة لشركة العال كانت متجهة من روما إلى تل أبيب. ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت الكوفية التي كان يفضّلها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات أنيقةً لدى الشباب مثل ما كانت قبعة تشي غيفارا.

كان المرء إذا تنقّل داخل دول الستار الحديدي في العام ١٩٦٨ يظن أنه ينظر في مرآةٍ عاكسة. وهكذا كان الزائر القادم من أوروبا الغربية يرى أنها مألوفة كثيرة. ارتكب المخططون المدنيون في نصفَي أوروبا الغلطة ذاتها عندما أقدموا على

إفراغ مناطق وسط المدن من السكان وحشرهم في أبنية سكنية رديئة منفرة بحسب أسلوب Bauhaus ذي التصميمات الوظيفية الحديثة التي فتحت مجالاً للمهندسين المعماريين في فترة ما بعد الحرب. لكن، قد تكون لبعض الأمور المألوفة معانٍ متعارضة تماماً. فضّل الشباب في براغ الشعر الطويل والجينز على موضة الحزب الشيوعي التقليدية التي تقضي بتقصير الشعر، وارتداء بذلات البوليستر وربطات العنق الحمراء. لكن الشبان فضلوا تلك الأمور لأنها تذكّرهم بالغرب الرأسمالي تحديداً. لقد سمّى التشيكيون الجينز تكساسكيز Texasskis، أي السروال التكساسي[1]. تردّد المخططون [الشيوعيون] في إنتاج ملابس كهذه، فلم يكن هناك من طريقة للحصول عليها سوى عن طريق التهريب. حصل مغني البوب بيتر جاندا، الذي كانت تطمح فرقته إلى أن تكون بيتلز تشيكيا[*]، على أول سروال ليفي ٥٠١s بهذه الطريقة. كان السروال قصيراً جداً، لكن أصدقاءه شعروا بالغيرة. تحولّت جامعات براغ، مثل جامعات باريس، إلى نقاطٍ ملتهبة لصدام الأجيال. زار الشاعر الرافض آلن غينسبيرغ جامعة تشارلز في ربيع العام ١٩٦٥، لكنه طُرد في مطلع شهر أيار بسبب طبيعة كتاباته المثيرة وغير الأخلاقية الخطرة. تجمّع في شهر تشرين الثاني من العام ١٩٦٧ الطلاب في جامعة تشارلز في خلال فترة انقطاع الكهرباء، وما لبثوا أن زحفوا إلى وسط براغ حاملين الشموع. كان إيفان توسكا أحد المحتجين، فكتب:

حدثت عدة فترات من انقطاع الكهرباء في ذلك الوقت – كما كانت الشموع رمزاً عملياً في خلال الاحتجاج الأول – امتلكنا الشموع لكننا أردنا الحصول على الكهرباء. اكتسبت عبارة «نريد النور» معنىً عاماً أوسع بكثير: «النور» ضد «الظلمة» أعلى جسم سياسي في ذلك الوقت – اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي[2].

(١) Sullivan, Jeans, p. 131.

(*) كانت كلمات أشهر أغنية لهم «Zelva» (سلحفاة) مستوحاة من أغنية جون لينون الراحل: «إذا لم تنتبه للسلاحف/ فسيتمكنون من خداعك./ يصعب الإمساك بالسلاحف/ عندما تكون في المياه».

(٢) مقابلة مع المؤلف، ٢٠٠٩.

أطلق ألكسندر دوبتشيك في نيسان من العام ١٩٦٨ «برنامج حركة» للتحرر الاقتصادي والسياسي. أما اللافت للنظر في هذا البرنامج فهو أن سياسته الاقتصادية قد تحوّلت من التركيز على الصناعات الثقيلة نحو السلع الاستهلاكية. لكن القيادة السياسية في موسكو رأت في ربيع براغ تهديداً غير مقبول. فأقدمت الدبابات السوفياتية في الساعة الرابعة من فجر يوم ٢١ آب من العام ١٩٦٨ على محاصرة المبنى الذي يضمّ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. فتحت الدبابات نيرانها نحو حشود غاضبة بعد أن رأت فيها تهديداً موجهاً ضدّها، مما أدى إلى مقتل أحد الشبان. اجتاح الجنود المبنى عند حوالى الساعة التاسعة من قبل ظهر ذلك اليوم. نُقل دوبتشيك جواً إلى الاتحاد السوفياتي، إلا أنه كان محظوظاً لأنه عاد منه حياً. كانت باحة ونسيلاس نقطة محورية للمقاومة حيث كان التشيكيون يتجمعون يومياً حول تمثال فارس ونسيلاس، وهو دوق بوهيميا في القرن العاشر حظي بقدرٍ كبيرٍ من التكريم. أما في باريس فقد أقدم عددٌ من الطلاب على إلقاء قنابل مولوتوف مشتعلة على شرطة مكافحة الشغب. أقدم طالب تشيكي في براغ، يُدعى جان بالاش على صب الكاز على ثيابه وأشعل النار في نفسه، وذلك في ١٩ كانون الثاني من العام ١٩٦٩. مات جان بعد مرور ثلاثة أيام. أما في الغرب فقد أقحم الطلاب أنفسهم في خطب ماركسية، لكن ما كان يسعون إليه بالفعل هو الحب المجاني. أما على الجانب الآخر من الستار الحديدي فإن المطلوب كان أكبر بكثير. كان المطلوب هو الحرية ذاتها.

طُلب إلى كل المشتغلين بموسيقى الروك بعد استعادة النظام الشيوعي في العام ١٩٦٨ الخضوع لامتحانٍ خطي عن الماركسية اللينينية. أقدمت فرقة غريبة وتجريبية تدعى **شعب البلاستيك الكوني**، تألفت بعد شهرٍ واحد فقط على الاجتياح السوفياتي، على الرد بأغانٍ مثل «١٠٠ نقطة» («إنهم يخافون الحرية/ إنهم يخافون الديمقراطية/ إنهم يخافون ميثاق حقوق الإنسان [الذي أعدته الأمم المتحدة]/ إنهم

يخافون الاشتراكية./ إذاً لماذا نخافهم بحق السماء؟»)[1]. اتضح الأمر أكثر بعد وقتٍ قصير. أُبطلت تراخيصهم المهنية كموسيقيين، ومُنع الفريق بعد سنتين من العزف في براغ، مما أجبرهم على العزف في الحفلات الخاصة في أرياف بوهيميا. ألقي القبض على جميع أفراد الفريق، بمن فيهم المغني الرئيس في الفريق بول ولسون الكندي الجنسية، وذلك بعد الانتهاء من العزف في إحدى هذه الحفلات التي أُقيمت تحت الأرض – وكانت من ضمن مهرجان الموسيقى الثاني Second Culture في **بوجانوفيس** الذي أُقيم في شهر شباط من العام ١٩٧٦. قُدّم اثنان منهم، وهما فراتيسلاف برابينيك وإيفان جيروس إلى المحاكمة بتهمة «السوقية [البذاءة] المفرطة... ومعاداة الاشتراكية... والجحود... والانحطاط»، وتلقى أحدهما حكماً بالسجن لمدة ثمانية عشر شهراً والآخر حكماً بالسجن ثمانية أشهر. كانت هذه المحاكمة هي التي أوحت إرساء **ميثاق ٧٧**، وهي المجموعة المنشقة التي تصدّرها فاكلاف هافل، الكاتب المسرحي الذي وصل إلى منصب رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا فيما بعد [توفي في العام ٢٠١١]. لم يسبق أن كانت موسيقى الروك أكثر أهمية سياسياً في تاريخ براغ مما كانت عليه في السبعينيات من القرن الماضي (*).

لكن، ما هو السبب الذي لم يسمح للطلاب التشيكوسلوفاكيين بالحصول على كل ثياب الجينز، وموسيقى الروك والرول التي يريدونها؟ تكمن الإجابة في أن المجتمع الاستهلاكي يمثّل تهديداً مميتاً للنظام السوفياتي ذاته. يستند المجتمع الاستهلاكي إلى نظام السوق، وهو يستجيب إلى الإشارات الآتية من المستهلكين أنفسهم – سواء أكانت بشكل تفضيلهم لسراويل الجينز على سراويل الأقمشة الأخرى، أم تفضيلهم ميك جاغر على بيرت باكاراتش Burt Bacharach. تطلب الأمر تخصيص قسمٍ متزايد

(١) Ramet, 'Rock Music in Czechoslovakia', pp. 59, 63.

(*) كان فرانك زابا ولاو ريد من بين أوائل الضيوف الرسميين الذين دعاهم هافل لزيارة براغ بعد تعيينه رئيساً في ٢٩ كانون الأول من العام ١٩٨٩.

من الموارد لإرضاء رغبات المستهلكين. لم يتمكن الاتحاد السوفياتي، ببساطة، من القيام بذلك. كان الحزب على علم بما يحتاج إليه الجميع – بذلات البوليستر البنّية – وقدّم تلك الطلبيات إلى المصانع التابعة للدولة. أما البديل فقد كان هدّاماً بطبيعته. لقد أقدمت سلطات ألمانيا الشرقية على إلقاء مسؤولية ثورة العمال في العام ١٩٥٣ على عاتق المحرّضين الغربيين «بسراويل رعاة البقر والقمصان التكساسية»[١]. ربما يكون خروتشوف قد تمنّى تقليد التلفزيون الملوّن، لكن المؤكد أنه لم يرغب في تقليد البيتلز. أعلن خروتشوف أن: «شبّان الاتحاد السوفياتي لا يحتاجون إلى هذه الأصوات الناشزة والتافهة. إنها خطوة صغيرة أخرى نحو الساكسفون [هكذا وردت في النص] ونحو السكاكين النباضة switchblades»[٢]. كان لزاماً على الاتحاد السوفياتي إذا أراد البقاء على قدم المساواة مع الأميركيين، الأكثر منهم ثراءً، إعطاء الأولوية للدبابات بدلاً من القمصان التي هي من دون أكمام، وتفضيل القاذفات الاستراتيجية على Stratocasters. لاحظ أحد المنتقدين السوفيات أن «كل أونصة من الطاقة التي تُصرف فوق أرضية المراقص هي طاقة يُمكن، ويجب، استثمارها في بناء محطة توليد كهرومائية [كهرباء بواسطة المياه]»[٣]. لم تسفر هذه الملاحظة عن توقف تهريب الجينز إلى روسيا ذاتها على يد تجار السوق السوداء الذين كانوا يُعرفون باسم fartsovshchiki، وهم الذين تخصّصوا بمقايضة الجينز بقبعات الفراء والكافيار، وهي التذكارات الوحيدة التي رغب زائرو موسكو الغربيون في شرائها. كان سروال الجينز في السوق السوداء يساوي ما بين ١٥٠ و٢٥٠ روبلاً، في وقت كان معدل الرواتب الشهرية دون ٢٠٠ روبل، وكان سعر السروال العادي الذي تنتجه معامل الدولة يُباع ما بين ١٠ و٢٠ روبلاً.

بدا النظام الشيوعي في أوروبا الشرقية منيعاً مع سحق ثورة ربيع براغ. أما في برلين

(١) Poiger, Jazz, Rock and Rebels, pp. 62ff.

(٢) Safanov, 'Revolution'.

(٣) Siefert, 'From Cold War to Wary Peace'.

المدينة التي فشل الإسبان في العثور عليها: ماشو بيكو، البيرو

بونيارد بيتش، كارولينا الجنوبية

Know all men that I Millicent How of London Spinster the day of the date hereof doe firmely by these p[rese]nts bind and oblige my selfe as a faithfull & obedient servt. in all things whatsoever to serve and dwell wth Capt. Joseph West of the sd Citty of London Merchant, in the Plantation, or province of Carolina, according to the lawes & Customes, and Orders for servts, wch are provided and setled in the said place; The said Joseph West providing for the sd Millicent his servant all such necessaryes in the time of her service and at the expiration of their terme as the lawes and Orders of the place doth like-wise provide and Oblige Masters to performe to their servts. Wittnesse my hand and seale this p[rese]nt twentyeth day of September 1669

Wittnesses hereunto

Stephen Bull

Signed p[er] sd Millicent H [her mark] How

entered Sept: 8th 1671

This is a true Copy of ye Originall
Examd this xiij th September 1671

p Jos Dalton Secr

قم أنت بالعمل... وثيقة عقد العمل الخاص بمليسينت هاو

Carolina

You are forthwith to admeasure and Lay out for Abraham Smith one of the freemen of this province one hundred Acres of Land in some place not yet Layd out or marked to be Layd out for any other person or use and if ye same happen upon a Navigable River or a River capable of being made Navigable you are to allow one fifth part of the depth thereof by the water side and a Certificate fully setting forth the scituation and bounds thereof you are to returne to us with all Convenient speed Given under our hands att Charles towne this 11th day of August 1671

Abraham Smyth 100 Acres

Joseph West
Rich Conant John Godfrey
Andrew Percivall

To Capt Maurice Mathews Surveyor

... وهكذا تحصلون على الأرض: هبة أراضٍ مقدمة من آبراهام سميث

الحلم الأميركي: قسم من تشارلستون

المستعمِر: جيرونيمو دي آلياجا



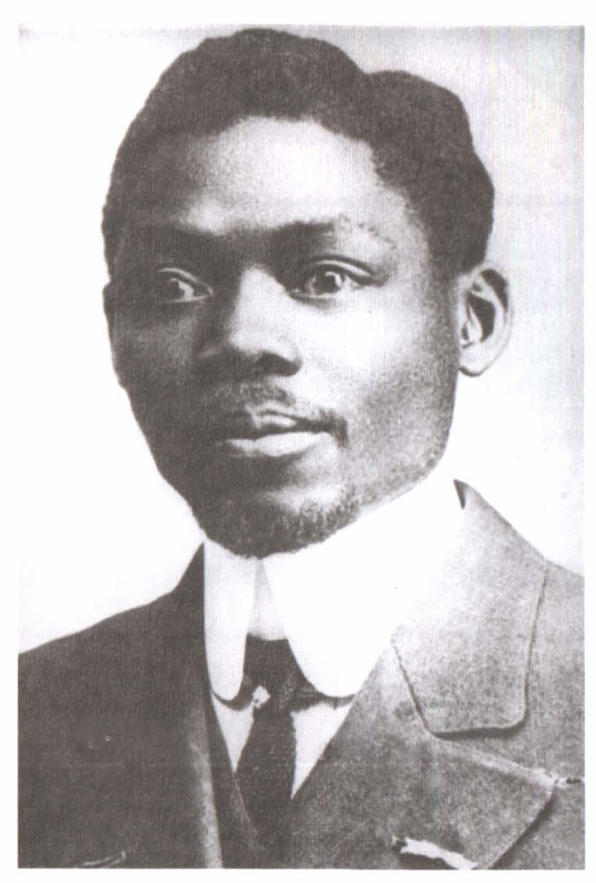
الرجل الذي لم يصبح واشنطن: سيمون بوليفار كما يشاهد في كاراكاس هذه الأيام



آثار التعذيب على ظهر عبدٍ في
الولايات المتحدة



وسيلة النقل من ورثة أمبراطورية: سان لويس، السنغال



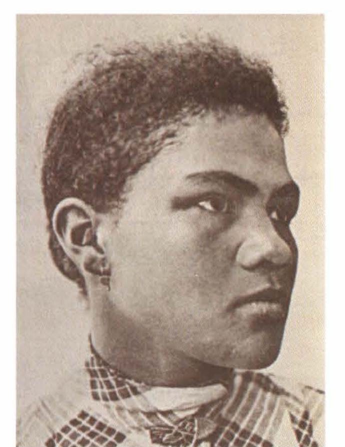
الحَمَل الأسود الذي هزم الحمل الأبيض: بلايز دیان، وهو أول نائبٍ أسود في الجمعية الوطنية الفرنسية

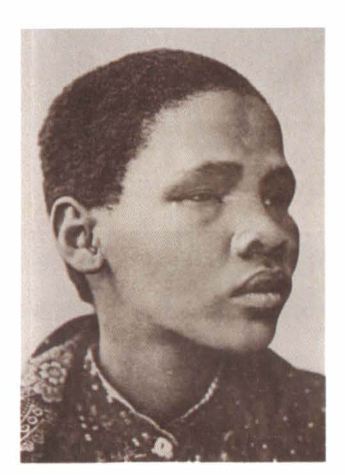


لويس فايدهيرب، حاكم السنغال متأملاً
مهمته الحضارية

مجندون سنغاليون يبرزون شهادات تسجيلهم

أطباء بلا حدود على الطريقة الإمبريالية: الأطباء الفرنسيون يجولون في المناطق الاستوائية





ثلاث صور لنساء «مختلطات الأعراق» جمعها المنظر العرقي الألماني يوجين فيشر في أثناء دراسته ريهوبوث باسترز



«لم أكن أعلم طبيعة الحرب في الواقع»: مجند سنغالي في الجبهة الغربية

لوديريتز، ناميبيا

فبدا أن تقسيم المدينة إلى شرقية وغربية هو واقعٌ دائم. لكن، بينما نجح الشيوعيون في سحق المعارضة السياسية، لكن مقاومتهم للمجتمع الاستهلاكي الغربي كانت أضعف بكثير. عجز الشيوعيون عن إبعاد تأثير عالم الأزياء الغربي، وعلى الخصوص عندما تمكّن الألمان الشرقيون من مشاهدة تلفزيون ألمانيا الغربية (بينما تمكّنوا من سماع محطات الإذاعة قبل ذلك بوقتٍ طويل). أما المصمّمون من أمثال آن كاترين هندل، فقد بدأوا بتصميم أزيائهم الخاصة بهم على الطريقة الغربية، كما بدأوا ببيعها من صناديق سياراتهم. وقد تمكّنت هندل من صنع سراويل الجينز بنفسها:

حاولنا خياطتها من أقمشة المشمعات، أو من أغطية الأسرّة، أو من أقمشة من غير الجينز. حاولنا كذلك أن نصبغها، لكن كان من الصعب وضع أيدينا في الصباغ... كانت هذه السراويل رائجةً إلى درجة أن الناس تخاطفوها من بين أيدينا[1].

أما النقطة الأهم هنا فهي أن النجاح الذي سجلته الصناعات الغربية الاستهلاكية قابله الأداء الزري لنظائرها السوفياتية. لم يقتصر الأمر على أن نسب النمو كانت ضئيلة جداً بعد العام ١٩٧٣ (ما دون ١ بالمئة)، بل إن عامل إجمالي الإنتاجية أخذ بالانحدار. بدأت في هذا الوقت بعض الشركات التابعة للدولة بتقليل قيمة المواد الأولية التي تنتجها. سبق لهايك أن حذّر بأن غياب الأسعار القيّمة [أو المناسبة] يعني سوء توزيع الموارد، كما أن المسؤولين الفاسدين قيّدوا الإنتاج بغية تعزيز مكاسبهم غير المشروعة، كما أن العمال تظاهروا بأنهم يعملون، وتظاهر المدراء في المقابل بأنهم يدفعون لهم. لم تتم المحافظة ليس على رصيد الرأسمال المادي فحسب، بل الرصيد البشري كذلك. تهاوت محطات توليد الكهرباء النووية، لكن تناول المشروبات الكحولية سجّل أرقاماً قياسية. لم يتمكّن الاتحاد السوفياتي من تحدي الولايات المتّحدة اقتصادياً كما سبق وهدد خروتشوف، بل إن استهلاك الفرد فيه وصل إلى ٢٤٪ من المستوى الأميركي، وهي نسبة تضاهي النسبة في تركيا

(١) Interview with author, 2009.

في أفضل الأحوال[1]. أدى التحوّل في علاقات القوى العظمى نحو الوفاق ونزع الأسلحة إلى جعل قدرة السوفيات على إنتاج الصواريخ بكمياتٍ كبيرة أقل قيمة بكثير. أما أسعار البترول المرتفعة التي سجّلتها السبعينيات من القرن الماضي فقد كانت بمنزلة حبل المشنقة بالنسبة إلى النظام، وما إن بدأت أسعار النفط بالانخفاض في الثمانينيات من القرن الماضي حتى وجدت الكتلة السوفياتية نفسها مع ديون كثيرة بالعملة الصعبة، وكانت تلك هي الأموال التي استقرضتها من النظام ذاته الذي وعد خروتشوف «بدفنه». شعر ميخائيل غورباتشوف، الذي عيّنه الحزب الشيوعي السوفياتي أميناً عاماً له في آذار من العام ١٩٨٥، بأنه لم يبقَ لديه أي خيار غير تنفيذ إصلاحاتٍ في النظامين الاقتصادي والسياسي، بما في ذلك الأمبراطورية السوفياتية في أوروبا الشرقية. ساد شعارا **البيروسترويكا والغلاسنوست** موسكو، وهكذا شعر المتشدّدون في برلين الشرقية بالخذلان، فاضطروا إلى تشديد المراقبة على المنشورات والتقارير الآتية ليس من الغرب فحسب بل من الاتحاد السوفياتي كذلك.

انتشرت الثورات في العام ١٩٨٩ وكأنها الوباء، أي كما حدث في العامين ١٨٤٨ و١٩١٨. وافقت حكومة وارسو في شهر شباط من العام ١٩٨٩، على إجراء حوارٍ مع تضامن، النقابة العمالية الحرة، ولم يمضِ وقتٌ طويل حتى استعدت البلاد لإجراء انتخاباتٍ حرة. أما في بودابست فقد قرر الشيوعيون الهنغاريون فتح الحدود مع النمسا. ظهر الصدأ جلياً على الستار الحديدي. لم يطل الأمر حتى خرج نحو ١٥,٠٠٠ مواطن من ألمانيا الشرقية عبر تشيكوسلوفاكيا لقضاء «إجازة» في هنغاريا، لكن هذه الإجازة كانت في حقيقتها رحلة ذهاب فقط إلى الغرب. فازت تضامن في الانتخابات البولندية في شهر حزيران، وبدأت بتشكيل حكومة ديمقراطية. أما في شهر أيلول فقد حذا الشيوعيون الهنغاريون حذو بولندا عندما وافقوا على إجراء انتخاباتٍ حرة. أما في الشهر التالي، وبينما كان إريك هونيكر يشحذ خططه

(١) Bergson, 'How Big was the Soviet GDP?' See in general Cox (ed.), Rethinking the Soviet Collapse.

للاحتفال بالذكرى الأربعين لتأسيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية، توافدت مئات، ثم آلافٌ، وبعد ذلك عشرات الآلاف، ثم مئات الآلاف من الناس إلى شوارع ليبزغ. رددت الجماهير في البداية «نحن الشعب»، وما لبث أن عدّلت هذا الشعار ليصبح (نحن شعب واحد). بقي الجنود هذه المرة في ثكناتهم، على عكس ما حدث في بودابست في العام ١٩٥٦، وبراغ في العام ١٩٦٨، وهذا من دون أن ننسى ما حدث في غدانسك في كانون الأول من العام ١٩٨١، وفي بيجينغ في حزيران من العام ١٩٨٩. أما داخل الحزب في ألمانيا الشرقية، وحيث بدأ إفلاس جمهورية ألمانيا الديمقراطية بالظهور، فقد أُزيح هونيكر جانباً على يد «إصلاحيين» أصغر سناً. لكن الوقت كان قد تأخر كثيراً على الإصلاح. أظهر شيوعيون آخرون، وعلى الخصوص في رومانيا، فطنةً أكبر عندما سارعوا إلى تبديل ولاءاتهم في سعي منهم إلى الحصول على الفوائد الناجمة عن إصلاح السوق.

أُعلم رجال الصحافة المبتهجون في برلين الشرقية، يوم ٩ تشرين الثاني ١٩٨٩ بأن «القرار قد أُخذ بالسماح لكل المواطنين بمغادرة البلاد عن طريق نقاط العبور الرسمية على الحدود... على أن يُطبّق هذا القرار على الفور». أدت هذه الأنباء إلى تدفق أعداد كبيرة من سكان برلين الشرقية إلى نقاط العبور الحدودية. فضّل الحراس عدم المقاومة بعد أن أُخذوا على حين غرة. اضطرت كل النقاط الحدودية إلى فتح أبوابها بحلول منتصف الليل، وعندئذ جرت واحدة من أعظم الحفلات التي شهدها ذلك القرن، وما لبث أن ظهرت بعدها واحدة من أكبر نوبات التسوّق. انتهت الحرب الباردة مع سقوط جدار برلين، لكن دول البلطيق، أي أوكرانيا وروسيا البيضاء، إلى جانب جمهوريات القوقاز الثلاث الكبيرة، والجمهوريات الخمس التي ينتهي اسمها بـ«بستان» في آسيا الوسطى، كان عليها أن تنتظر حصول الانقلاب الفاشل في موسكو في آب من العام ١٩٩١، وحلّ الاتحاد السوفياتي الذي تبعه بعد ذلك، قبل حصولها على الاستقلال.

توقع عدد قليل من الناس ما حدث بالفعل[*]. رأى بعضهم أن ما حدث هو «نهاية التاريخ»، والنصر النهائي لنموذج الرأسمالية الليبرالية[1]. أما آخرون فرأوا أن ما جرى هو «انتصار الغرب»، وهو الإنجاز السياسي لثلاثة قادة كبار: رونالد ريغان، والبابا يوحنا بولس الثاني، ومارغريت ثاتشر[2]. برز رأي ثالث أعطى الفضل كله إلى القومية. لكن المحلّل الذي كان أقرب إلى الصواب فقد كان كبير مصممي الأزياء الإيطالي الذي بدأ بتسويق «جينز البريسترويكا» الضيّق والملتصق بالجسم. كان فشل الاتحاد السوفياتي والجمهوريات التابعة له كمجتمعات استهلاكية هو أهم فشلٍ له. لم يكن من المصادفة كذلك أن تأخذ الاحتجاجات الشعبية ضد الحكم الاستبدادي العنيد في روسيا البيضاء مظهر ارتداء الجينز، وذلك بالرغم من أن مينسك لا تزال تنتظر ثورة الدينيم الخاصة بها[3].

ثياب النوم والحجاب

تحولت الصين في عقب الثورة الشيوعية التي قادها ماو تسي تونغ في العام ١٩٤٩ إلى أكثر المجتمعات إظلاماً فوق هذه الأرض. اختفت في الصين آخر آثار حقبة حرير سلالة جينغ. كما اختفت في ذلك المجتمع الأزياء الغربية التي كانت مفضلة لدى الوطنيين في فترة ما بين الحربين. سعى النظام إلى فرض مساواةٍ صارمة بين الجميع،

(*) أما أدق التوقعات التي صدرت بهذا الخصوص فهي تلك التي صدرت عن الصحفي الأميركي جايمس بي. أودونيل، التي أوردها في مقالة له عنوانها «قطار أشباح برلين»، والتي نُشرت في النسخة الألمانية الغربية Das Best من مجلة ريدرز دايجست في عددها الصادر في شهر كانون الثاني من العام ١٩٧٩. توقع أودونيل تدمير الجدار الأمر الذي تحقق بعد عشر سنوات، حتى أنه توقع بيع قطع الجدار كتذكارات. لكن ما يؤسف له هو أن تكون مكاسب هذه التوقعات ضئيلة – أي كما هي الغرامات التي كان يجب أن تُفرض على جيلٍ من الآكاديميين «المختصين بالشؤون السوفياتية» الذين غفلوا [عن تلك التطورات]. تبقى مهنة التوقعات السياسية سوقاً غير فعالة إطلاقاً في هذه الأيام.

(١) Fukuyama, End of History.

(٢) Gaddis, Cold War.

(٣) Charlotte Sector, 'Belarusians Wear Jeans in Silent Protest', ABC News, 13 January 2006.

وهكذا تسلّم كل شخص ثياباً تشبه كثيراً ثياب النوم. كان لون تلك الثياب رمادياً. لكننا نرى اليوم، وعند عبورنا أحد الشوارع الصينية النموذجية، تشكيلةً واسعة من الثياب التي هي على الطراز الغربي. أما اللوحات الإعلانية المنتشرة في جميع المدن الكبرى فتتغنى بمزايا الماركات الغربية، بدءاً من آرماني، إلى إرمينجيلدو زيغنا. بقيت إلى عهدٍ قريب المعامل التي تصنع الثياب في المناطق الاقتصادية الخاصة تصدّر معظم إنتاجها إلى الغرب. أما الآن، ومع انكماش الاقتصادات الغربية، فإن التحدي الرئيس الذي يواجه واضعي السياسات في بيجينغ هو كيفية إقناع العامل الصيني بادخار مبلغ أقلّ من المال ومضاعفة استهلاكه، يعني ذلك حمله على شراء المزيد من الملابس. بدا الأمر وكأن النصر الذي حقّقه المجتمع الاستهلاكي في الغرب يقترب من أن يكون كاملاً. أم هل هو كاملٌ بالفعل؟

تُعدّ إسطنبول مدينة عالمية [جامعة]، وهي التي ألفت شوارعها كل أنواع بهارج الحضارة الغربية منذ وقتٍ طويل. ويكفي المرء أن يجول في طريق السوق الرئيسة، أي في شارع الاستقلال حتى يرى كل ما هو مألوف في عالم البحر المتوسط. لكن إذا جال المرء في مناطق أخرى في المدينة ذاتها ـ أي في منطقة الفاتح قرب السلطان أحمد، على سبيل المثال ـ فسوف تبدو الأمور مختلفةً تماماً. يعد المؤمنون [المتشددون] من الإسلاميين الأزياء النسائية السائدة في الغرب غير مقبولة أبداً بالنسبة إليهم، وذلك لأنها تكشف من جسم المرأة أكثر مما يسمح به دينهم [*]. يفسّر هذا سبب عودة الأزياء الإسلامية مثل وشاح الرأس، والنقاب أو الخِمار، والعباءة السوداء التي تغطي الجسم كله.

يمثّل ذلك تغيّراً رئيساً في الاتجاه الذي تسير إليه تركيا. سبق لنا أن لاحظنا في الفصل الثاني أن مؤسس الجمهورية التركية، أي كمال أتاتورك، هو الذي قرر

(*) جاء مبدأ تغطية المرأة لرأسها (الحجاب) ولجسدها (الجلباب) من القرآن الذي يأمر النساء في سورة النور الآية ٣١. أما الحديث الذي يروي سيرة محمد فيذهب أبعد من ذلك حين يطلب تغطية الرقبة، والكواحل، والمعاصم. يروج المسلمون المتعصبون لارتداء البرقع، وهي لفظة عادة ما تشير إلى النقاب أو العباءة.

الأزياء الغربية للأتراك، ومنع ارتداء الملابس الدينية في كل مؤسسات الدولة. أما الحكومة العسكرية العلمانية التي وصلت إلى الحكم في العام ١٩٨٢ فقد أعادت إحياء تلك السياسة ومنعت الطالبات من ارتداء الحجاب في الجامعات. لم يطبّق هذا الحظر بحزم إلا بعد العام ١٩٩٧، أي عندما أعلنت المحكمة الدستورية أن ارتداء الحجاب في الأماكن التعليمية – بما في ذلك المدارس والجامعات – يخالف المادة ٢ من الدستور الذي يقدس السمة العلمانية للجمهورية. (أعلنت المحكمة كذلك أن اللحى الطويلة تخالف الدستور بدورها). لكن عندما استدعت سلطات الجامعات والمدارس شرطة مكافحة الشغب لتطبيق هذا الحكم غرقت البلاد في أزمة. تجمّع نحو ١٤٠,٠٠٠ شخص في تشرين الأول من العام ١٩٩٨ للاحتجاج على الحظر، وعمدوا إلى شبك أيديهم بعضها ببعض مكونين بذلك سلسلةً بشرية في أكثر من خمس عشرة محافظة. أما في إسطنبول فقد فضّلت آلاف الفتيات عدم حضور صفوفهن بدلاً من نزع حجبهن، كما أن بعضهن أقام سهراتٍ ليلية خارج بوابات مدارسهن. شهدت التظاهرة التي جرت في **جامعة إينونو** في شرق الأناضول بعض العنف الذي أدى إلى إلقاء القبض على ٢٠٠ من المحتجات. أقدمت بعض الشابات في مدينة كارز على الانتحار بسبب هذه القضية (*)، هذا في حين أن القاضي الذي أقرّ قرار الحظر قُتل في المحكمة في شهر أيار من العام ٢٠٠٦. أقدمت حكومة رجب طيّب أردوغان الإسلامية، التي تسلمت الحكم منذ العام ٢٠٠٣، على تعديل الدستور بغية السماح للفتيات المحجبات بدخول الجامعات، وذلك في العام ٢٠٠٨، لكن المحكمة الدستورية ألغت قرار الحكومة. أما المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان فقد أقرت حظر ارتداء الحجاب.

تُظهر هذه القضية، مجدداً، كيف أن مظاهر الزينة الخارجية يُمكن أن تكتسب

(*) دفعت هذه الأحداث بالكاتب أورهان باموك إلى كتابة الرواية المؤثرة ثلج (٢٠٠٢). يجب على أي شخص يرغب في فهم الأسباب النفسية الكامنة وراء الإرهاب الإسلامي قراءة آخر حوار خيالي دار بين مدير التعليم في كارز وقاتله.

أهمية كبيرة. هل الحجاب، أو النقاب، هو مجرد تعبيرٍ عن الإيمان الشخصي، وهل هو بالتالي أمرٌ يوجب على كل مجتمع مغرّب [يعتمد الطرائق الغربية] أن يتساهل مع مبدأ حرية التعبير؟ أم أنه رمز تقليدي لعدم المساواة بين الجنسين التي يفرضها الإسلام، يوجب على المجتمعات العلمانية حظره؟ أقدم بعض النشطاء الإسلاميين مثل الصحفية نهال بينجيسو كاراتشا Nihal Bengisu Karaca على النظر إلى هذه القضية على أنها مسألة حرية شخصية وحقوق إنسان:

إننا نريد أن نُعامَل مثل النساء اللواتي لا يرتدين الحجاب. إننا متساوون، ولا شيء يميزنا، ونريد أن نتلقى المعاملة ذاتها. لنا أن نمتلك كل الحقوق التي لهن... إننا نريد تحقيق الديمقراطية بين السيدات المتحجبات وغير المتحجبات[١].

كانت حجة الإسلاميين أن تغطية الرأس ليست إلا خياراً بريئاً. قالوا كذلك إن النقاب هو شكلٌ آخر من أشكال ثياب النساء، وهو متوافر في متاجر إسطنبول من كل الألوان والتصاميم، وكذلك يتوافر مع أشكال من الزينة للواتي يفضلنها. أما الواقع، بطبيعة الحال، فهو أن ترويج رداء الرأس كان جزءاً من برنامجٍ أوسع لتقييد حقوق النساء عن طريق تطبيق قانون الشريعة في تركيا، والوصول تدريجاً إلى الوضع الذي تحقق في إيران فجأةً بعد ثورة العام ١٩٧٩ – أي الارتداد ضد تغريب إيران، الأمر الذي حوّله إلى ثورةٍ صارمة مضادة للجنس[٢]. يستطيع المرء أن يرى البراقع في شوارع إسطنبول وهي تغطي من يلبسنها باللون الأسود من الرأس إلى القدمين، ولا تترك لهن سوى فتحتين صغيرتين تسمحان لهن برؤية طريقهن – ما يخفي هوياتهن تماماً إلى درجةٍ دفعت الجمعية الوطنية الفرنسية في العام ٢٠١٠ إلى التصويت إلى جانب حظر هذه الملابس كلياً. رافق هذا التحوّل في الأزياء تغيير في السياسة الخارجية التركية. كانت تركيا ذات مرة إحدى ركائز الناتو المناصرة للولايات المتحدة، كما كانت مرشحة لعضوية الاتحاد الأوروبي، لكنها الآن أخذت بالاتجاه نحو الشرق

(١) Interview with author, 2009.

(٢) Ferdows, 'Women and the Islamic Revolution'; Nashat, 'Women in the Islamic Republic'.

أكثر فأكثر، وهي تتنافس بذلك مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية في زعامة العالم الإسلامي، وهكذا أعادت إحياء ذكريات أيام السلطنة العثمانية.

يعني ذلك بالمختصر (أو بالتفصيل إذا شاء القارئ) أن الملابس التي يرتديها الناس هي مهمة جداً. إن القفزتين الاقتصاديتين اللتين حققهما الغرب – أي الثورة الصناعية والمجتمع الاستهلاكي – تعلقتا بالملابس إلى حدٍ كبير: أولاً بصنع تلك الملابس بطريقة فعالةٍ أكثر، وثانياً، ارتداء تلك الملابس بطريقة تكشف مساحة أكبر من الجسم. لا يمكننا، والحالة هذه، فصل الطريقة الغربية لارتداء الملابس عن انتشار طريقة الحياة الغربية، أي مثل ما كانت الردة ضد الألبسة الغربية في العالم الإسلامي علامةً على عودة الحياة إلى الإسلام العالمي [الشمولي]. انتقد الثوريون الإيرانيون دعاة التغريب وعددهم fokoli (ربطات عنق)، كما أن الرجال في طهران هذه الأيام يتجنبون ربطات العنق[1]. لم يعد منظر النساء المتحجبات في شوارع لندن مستغرباً، مثل ما هي لافتات فريق مانشستر يونايتد في شوارع شانغهاي، وذلك مع تنامي الجاليات الإسلامية في أوروبا الغربية. أيجدر ببريطانيا أن تحذو حذو فرنسا في حظر البرقع؟ أم هل اكتسب مجتمع الغرب الاستهلاكي مناعة ضد الحجاب تكون بمثل ما كان عليه الجينز الأزرق مقارنةً بثياب النوم الماوية؟

ربما تكون هذه الأسئلة، بعد التمحيص، في غير محلّها، وذلك لأنها تعني أن كل إنجازات الحضارة الغربية – أي الرأسمالية، والعلم، وحكم القانون، والديمقراطية – قد تحجمت إلى ما لا يتجاوز بقعة تسوّق. يعني ذلك أن اعتماد البيع بالمفرق قد لا يكون حلاً لكل مشاكلنا. يُحتمل كذلك أن لا يأتي أعظم تهديد للغرب من الإسلام المتطرف، أو من أي مصدرٍ خارجي آخر، لكن من عجزنا عن فهم تراثنا الثقافي الخاص بنا أو الإيمان به.

(١) Ebadi, Iran Awakening, pp. 41f.

الفصل السادس

العمل

المسيحية ستتلاشى. ستختفي وتنكمش. لست بحاجة إلى الجدال بشأن هذه النقطة. إنني على صواب، وسوف يتبيّن أنني على حق. إننا أكثر شعبية من يسوع هذه الأيام؛ لكنني لا أعلم مَن سيختفي أولاً – موسيقى الروك والرول أم المسيحية. لا بأس بيسوع لكن أتباعه كانوا بسطاء وعاديين. إن تشويههم [للمسيحية] هو الذي يفسدها بالنسبة إلي.

جون لينون

أدركنا في السنوات العشرين المنصرمة أن جوهر معرفتكم هو دينكم: المسيحية. يفسّر هذا سبب كون الغرب قوياً إلى هذه الدرجة. إن الأساس الأخلاقي المسيحي للحياة الاجتماعية والثقافية هو الذي سمح بظهور الرأسمالية، وسمح بعد ذلك بالتحوّل الناجح إلى السياسات الديمقراطية. ليس لدينا شكوك في هذا الأمر.

زميل مجهول للأكاديمية الصينية
للعلوم الاجتماعية

أخلاقيات العمل وأخلاقيات الكلمة

سبق لنا أن رأينا أن الحضارة الغربية تمكنت خلال ما يقرب من ٥٠٠ سنة من الوصول إلى مركز هيمنة استثنائية على العالم. تحوّلت هيكليات النُظُم الغربية مثل الشركات الكبيرة، والسوق، والدولة – الأمة إلى معايير عالمية للاقتصادات والسياسات المتنافسة – أي إنها أصبحت نماذج تقلّدها بقية أنحاء العالم. تمكّن العلم الغربي من تغيير النماذج، وهكذا يجب على الآخرين اتباعها أو التخلّف عنها. تمكّنت الأنظمة الغربية سواء في القانون أو النماذج السياسية المستمدة منها، بما في ذلك الديمقراطية، من الحلول مكان البدائل غير الغربية، أو إلحاق الهزيمة بها. تمكّن الطب الغربي في هذه الفترة من تهميش دور الأطباء السحرة والمعالجين الآخرين الذين يعتمدون على الإيمان. أما الأهم من كل ذلك فهو أن النموذج الغربي للإنتاج الصناعي والاستهلاك بكميات كبيرة قد سدّد ضربةً لكل نماذج النُظم الاقتصادية البديلة. كان الغرب، حتى في أواخر التسعينيات من القرن العشرين هو الحضارة البارزة في العالم. تمثّل القوى الغربية الخمس البارزة – الولايات المتحدة، ألمانيا، المملكة المتحدة، وفرنسا وكندا – ٤٤ بالمئة من الإنتاج العالمي. أما عالم العلم فقد سيطرت عليه الجامعات الغربية التي حصد العاملون فيها حصة الأسد من جوائز نوبل، والجوائز الرفيعة الأخرى. اكتسحت موجة الديمقراطية العالم بأسره، وعلى الخصوص عقب الثورات التي حدثت في العام ١٩٨٩. أما الماركات الاستهلاكية الغربية مثل **ليفي وكوكا كولا** فقد انتشرت في كل مكانٍ تقريباً، كما أن العلامات الناجحة الأخرى مثل **ماكدونالد** فرضت نفسها في كل المدن الرئيسة في العالم. لم يقتصر الأمر على انهيار الاتحاد السوفياتي، بل إن اليابان التي توقّع بعض المحلّلين أنها سوف تتجاوز الولايات المتحدة أصابها التعثّر بدورها، وانزلقت لفترة عقدٍ من الزمن إلى نسبة نمو تقرب من الصفر، بالإضافة إلى الانكماش الاقتصادي. جهد محلّلو العلاقات الدولية في العثور على كلمات تكون ذات مغزى بحيث تكفي لوصف صعود الولايات المتحدة التي هي أبرز قوى العالم الغربي: هل كانت أمبراطورية؟ هل كانت مهيمنة؟ أم هل كانت مفرطة القوة؟

تبقى المسألة عند تأليف هذا الكتاب ـ عقب فقاعتين ماليتين منفجرتين، وحربين تميزتا بصعوبة غير متوقعة، وركود اقتصادي كبير، وفوق كل ذلك صعود الصين المدهش لتحل مكان اليابان بوصفها ثاني أكبر اقتصاد عالمي – هي ما إذا كانت فترة نصف الألفية من الهيمنة الغربية تقترب، أخيراً، من نهايتها أم لا.

هل نعيش الآن في فترة انحدار الغرب؟ هل الأمر سيكون شبيهاً بما حدث في المرة الأولى. سأورد الآن ما كتبه **إدوارد غيبون** في معرض وصفه عملية تدمير روما ونهبها على يد القوط في شهر آب من العام ٤١٠ ق.م:

في ساعة الانفلات الوحشي، وعندما تأججت كل العواطف وأُزيلت كل الضوابط... حدثت مجزرة قاسية بحق الرومان، كما أن... شوارع المدينة امتلأت بجثث الموتى، التي بقيت من دون دفن في أثناء فترة الذعر التي سيطرت على الجميع... أما في الأماكن التي قوبل فيها البرابرة بالمقاومة فقد حدثت مجازر عشوائية بحق الضعفاء، والأبرياء، والعاجزين... تعرضت سيدات روما وعذاراها إلى اعتداءاتٍ على عذريتهن هي أشد هولاً من الموت ذاته... أشبع الجنود قساة القلوب غرائزهم الحسّية من دون الأخذ في الحسبان لا رغبات الإناث من الأسرى ولا واجباتهن... فضّل الجنود في أثناء عملية نهب روما الذهب والمجوهرات... لكن، وبعد أن تمكّن السارقون المحترفون من أخذ هذه الثروات المنقولة، عمد آخرون إلى نهب كل المفروشات الفاخرة والغالية التي كانت موجودة في قصور روما...

لم ينفع امتلاك هذه الثروات سوى في إثارة قدرٍ أكبر من الجشع في صفوف البرابرة الذين لا يشبعون، فمضوا بالتهديد وبالضرب والتعذيب من أجل إجبار أسراهم على الاعتراف بأمكنة الكنوز المخبأة... لم يكن سهلاً إحصاء أعداد الذين خسروا مراكزهم الرفيعة أو فقدوا ثرواتٍ كبيرة وتحولوا إلى أسرى بائسين ومنفيين... أدّت الكوارث التي حلّت بروما... إلى تشتيت السكان في أماكن بعيدة جداً وملاجئ منعزلة وآمنة[1].

---

(١) Gibbon, Decline and Fall, ch. 31, Parts III and IV.

يروي كتاب **تاريخ انحدار الأمبراطورية الرومانية وسقوطها** الذي صدر في ستة أجزاء ما بين العامين ١٧٧٦ و ١٧٨٨ قصة آخر مرة انهار فيها الغرب. أما هذه الأيام فإن كثيرين في الغرب يخشون احتمال العيش نوعاً من التتمة لتلك القصة. أما عندما يتأمل المرء في أسباب سقوط روما القديمة فإن مخاوف كهذه لا تبدو خيالية تماماً، ومن بين هذه الأسباب الأزمة المالية، والأوبئة التي أهلكت السكان، والمهاجرون الذين يجتاحون حدود الأمبراطورية، وصعود أمبراطورية منافسة – **فارس** – في الشرق، والإرهاب الذي مارسه قوط **آلاريك**، وهون **آتيلا**. **أيُعقل** أننا نواجه، **بعد** عدة قرونٍ من التربّع في المركز الأول في العالم، منعطفاً مماثلاً؟ يواجه الغرب ركوداً اقتصادياً عقب أسوأ أزمة مالية منذ الركود الكبير، هذا في حين تشهد دولٌ عديدة في بقية أنحاء العالم [غير الغربي] نسَب نموٍ غير مسبوقة. يُضاف إلى ذلك أننا نعيش في خوفٍ دائم من الأوبئة ومن التغيّرات المناخية في العالم التي تسبّب بها الإنسان. **برزت كذلك دلائل مقلقة بأن بعض تجمعات المهاجرين داخل مجتمعاتنا أصبحت** أرضاً خصبةً للعقيدة الإسلامية والشبكات الإرهابية. إن هجوماً نووياً إرهابياً سيُحدث دماراً في لندن أو نيويورك هو أكبر من ذلك الذي أحدثه **القوط** في روما. تستمر في هذه الأثناء أمبراطورية أخرى بالصعود في الشرق: الصين، التي يحتمل أن تصبح أكبر اقتصادٍ في العالم في غضون العقدين القادمين.

أما أكثر أفكار **غيبون** إثارة في كتاب **انحدار الأمبراطورية الرومانية وسقوطها** فهي أن المسيحية كانت أحد العوامل المؤثّرة التي ساهمت في إذابة الصيغة الأولى من صيَغ الحضارة الغربية. تُعدّ الأديان التوحيدية، بتركيزها على عالم ما بعد الموت، على نقيض الوثنية المتنوعة التي كانت سائدة في الأمبراطورية في ذروة أمجادها. لكن صيغة محدّدة جداً من المسيحية – الصيغة المغايرة التي ظهرت في أوروبا الغربية في القرن السادس عشر – هي التي أعطت الصيغة الحديثة للحضارة الغربية ركنها السادس من الأسس التي أعطتها تفوقاً على بقية مناطق العالم: البروتستانتية – أو الأحرى الأخلاقيات المحدّدة للعمل الشاق والتوفير وهما مزيتان ارتبطتا بها.

أعتقد أن الوقت قد حان لفهم دور الله في نهوض الغرب، وكذلك لتفسير السبب الذي دفع عدداً كبيراً من الغربيين كي يتجاهلوه في أواخر القرن العشرين.

إذا كان المرء صناعياً ثرياً يعيش في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر فإن فرص كونه بروتستانياً ستكون كبيرة جداً. حدث منذ عهد الإصلاح، الذي دفع عدداً كبيراً من الدول الأوروبية إلى الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تحوّلٌ كبير للقوة الاقتصادية بعيداً عن الدول الكاثوليكية مثل النمسا، وفرنسا، وإيطاليا، والبرتغال، وإسبانيا واتجه التحوّل بهذه القوة نحو دولٍ بروتستانتية مثل إنكلترا، وهولندا، وبروسيا، وساكسونيا، وأسكتلندا. بدا الأمر وكأن صيَغ الأديان ترافق، بطريقة ما، ثروات الناس الاقتصادية. كانت المسألة على النحو الآتي: ما الذي يميّز البروتستانتية؟ وما هو الأمر المميز في تعاليم **لوثر** وخلفائه الذي شجّع الناس ليس على العمل الجاد فحسب، بل على مراكمة الرأسمال أيضاً؟ إن الرجل الذي أتى بأكثر الإجابات تأثيراً عن هذه التساؤلات كان أستاذاً ألمانياً كئيباً يدعى **ماكس ويبر** – مؤسّس علم الاجتماع الحديث، والمؤلف الذي صاغ عبارة «الأخلاقيات ethics البروتستانتية».

كان **ويبر** شاباً مبكر النضج، نشأ في إيرفورت، أحد معاقل الإصلاح في ألمانيا. أهدى هذا الشاب الذي كان في الثالثة عشرة من عمره مقالة إلى والديه في عيد الميلاد عنوانها «حول مسار التاريخ الألماني مع إشارة خاصة إلى مركزَي الأمبراطور والبابا». أما في الرابعة عشرة فقد انهمك بكتابة رسائل حفلت بإشارات كثيرة إلى كتابٍ كلاسيكيين من أمثال شيشرون وصولاً إلى فرجيل، كما امتلك في ذلك الحين معرفةً شاملة بفلسفات كثيرين، من أمثال كانط وسبينوزا. سجّلت حياته المهنية نجاحاً تلو آخر: كان محامياً كفوءاً في الحادية والعشرين، كما نال في غضون ثلاث سنوات درجة دكتوراه عن أطروحةٍ عنوانها «تاريخ المؤسسات التجارية في القرون الوسطى». كتب **ويبر** في السابعة والعشرين من عمره Habilitation موضوعها «تاريخ الزراعة الرومانية وأهمّيتها بالنسبة إلى القانون الخاص» وهو الكتاب الذي ضمن له

منصب محاضر في جامعة برلين. عيّن بعد ذلك أستاذاً لمادة الاقتصاد في **فرايبورغ**، وكان آنئذٍ في الثلاثين من عمره، كما ذاع صيته عند إلقائه محاضرته الأولى التي دعا فيها إلى أمبريالية ألمانية أكثر طموحاً.

قُطع هذا المسار الأكاديمي الصاعد في العام ١٨٩٧، وذلك عندما انتاب **ويبر** انهيارٍ عصبي سبب له الشلل، وما لبث أن أُتبع ذلك بموت والده بعد مشاجرة عنيفة جرت بينهما. شعر **ويبر** في العام ١٨٩٩ بأنه مضطر إلى التخلي عن منصبه الأكاديمي. أمضى الرجل بعد ذلك ثلاث سنوات في استعادة عافيته، لكنه انشغل في هذه الفترة، بشكلٍ متزايد بالدِّين وعلاقته بالحياة الاقتصادية. كان والدا **ويبر** من البروتستانت في الواقع، كما أن جدّه لأمه كان كالفينياً مخلصاً، بينما كان جدّه الآخر تاجراً ناجحاً في عمله بالأقمشة الكتانية. كانت والدته كالفينية حقيقية في زهدها، أما والده فهو، في المقابل، رجل يحب الترف ويعيش الحياة حتى ثمالتها بفضل ثروته الموروثة. كان الرابط ما بين الحياة الدينية والحياة الاقتصادية في قلب وجود ويبر، وهكذا تساءل في سرّه عن أي من والديه يتلقى الموقف الصحيح من الثروة الدنيوية؟

كان يُنظر إلى الإيمان الديني المسيحي، حتى عصر الإصلاح، على أنه أمرٌ متميز من المسائل المادية لهذا العالم. كان إقراض المال مع الفائدة يعد خطيئة، كما أن حظوظ الأثرياء في دخول مملكة [ملكوت] السماء أقل من حظوظ الفقراء. أما مكافأة عيش حياة دينية فكانت في العالم الآخر. تغيّر كل ذلك بعد العشرينيات من القرن السادس عشر، أقله في البلدان التي تبنّت الإصلاح. تأمل **ويبر** في تجربته الخاصة، وراح يفكّر في الأمور الكامنة في الإصلاح التي جعلت شمال أوروبا أكثر وداً [تقبلاً] للرأسمالية من جنوبها. تطلب الأمر القيام برحلة عبر الأطلسي من أجل الحصول على الإجابة.

سافر **ويبر** في العام ١٩٠٤ إلى سانت لويس، ميسوري، وذلك من أجل حضور

مؤتمر الفنون والعلوم في المعرض الدولي[1]. غطت مساحة المعرض الدولي ما يزيد على ٢٠٠ آكر، وغصّت هذه المساحة بكل شيء تمكّنت الرأسمالية الأميركية من تقديمه. دُهش ويبر بالأضواء المتلألئة في قصر الكهرباء. كان ملك التيار المتناوب ذاته، أي توماس إديسون حاضراً في ذلك المعرض، وهو الذي كان تجسيداً كاملاً للريادة الأميركية. فاضت سانت لويس بعجائب التقنية الحديثة بدءاً بالهواتف حتى الأفلام السينمائية. ما هو الأمر الذي يفسّر حيوية [دينامية] هذا المجتمع، التي جعلت حتى ألمانيا الصناعية تبدو هادئة وبطيئة الحركة؟ سارع ويبر، بحماسة، إلى التجوال في أنحاء الولايات المتّحدة بحثاً عن إجابة. جسّد ويبر شخصية الأستاذ الألماني شارد الذهن، لكنه ترك انطباعاً قوياً عند قريبتيه الأميركيتين، لولا وماجي فالنشتين اللتين دُهشتا بملابسه الغريبة، وبذلته البنية المخطّطة بمربعات، وسرواله الواسع في قسمه الأسفل، وجوربيه البنيين اللذين يصلان إلى الركبة. لكن كل ذلك لم يكن شيئاً بالمقارنة بالانطباع الذي تركته أميركا عند ويبر. سافر ويبر بالقطار من سانت لويس إلى أوكلاهوما، ومرّ عبر مدن ميسوري مثل بوربون وكوبا، وقد أدرك الأمر أخيراً:

هذا المكان مذهلٌ حقاً: معسكرات العمال، وخصوصاً العمال المختصين ببناء السكك الحديد العديدة قيد الإنشاء، و«شوارع» بحالتها الطبيعية التي عادةً ما يجري رشّها بالبترول من أجل تجنب الغبار فتفوح منها رائحته، والكنائس الخشبية التي تعود إلى أربع أو خمس طوائف... أضِف إلى ذلك أسلاك الهاتف والتلغراف المتشابكة، وخطوط القطارات الكهربائية التي هي قيد البناء، وذلك لأن «المدينة» تمتد لمسافات لا حدّ لها[2].

تُعد مدينة سانت جايمس الصغيرة التي تبعد نحو ١٠٠ ميل إلى الغرب من سانت لويس، نموذجاً لآلاف المستوطنات الجديدة التي نبتت بمحاذاة السكك الحديد في أثناء امتدادها غرباً عبر أميركا. دُهش ويبر عندما مرّ عبرها قبل مئة سنة،

(١) Scaff, 'Remnants of Romanticism'.

(٢) Weber, Max Weber, p. 292.

ورأى العدد الكبير من الكنائس وأماكن الصلاة المنتشرة في أنحاء المدينة. كانت صور روائع العالم الصناعي التي رآها في المعرض الدولي لا تزال ماثلةً في ذهنه، وذلك عندما بدأ بملاحظة نوع من أنواع التحالف المقدّس ما بين النجاح المادي الذي حققته أميركا، وحياتها الدينية الناشطة.

كتب **ويبر** لدى عودته إلى مكتبه في هيدلبيرغ الجزء الثاني من مقالته الشهيرة المؤلفة من قسمين، التي كان عنوانها «الأخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية». احتوت المقالة على أكثر الحجج [الآراء] تأثيراً عن الحضارة الغربية: كانت الحيوية الاقتصادية نتيجة غير مقصودة لحركة الإصلاح البروتستانتية. رأى البروتستانت في الصناعة والتوفير تعبيراً عن نوعٍ جديد من التقوى الناتجة من العمل الجاد، أما الأديان الأخرى فقد ربطت ما بين القداسة [الأمور المقدسة]، والتخلي عن الأمور الدنيوية، وهكذا بقي الرهبان في الأديرة، والنساك في الكهوف. كان «نداء» الرأسمالية، بكلمات أخرى، دينياً في الأصل: «من أجل التوصل... إلى الثقة بالنفس [في انتماء المرء إلى النخبة] فإن الأنشطة الدنيوية الكثيفة هي أمرٌ ينصح به... [ولذلك] فإن الزهد المسيحي... تطور إلى سوقٍ تضجّ بالحياة»[1]. قال **ويبر** إن «عدم التعب من العمل» هو العلامة الأكيدة على انتماء المرء إلى النخبة، وهي تلك المجموعة من الناس التي كتب الله عليها الإنقاذ. رأى ويبر أن البروتستانتية «تمتلك القدرة على تحرير **تملّك الثروة** من قيود الأخلاقيات التقليدية، وهي تكسر القيود المفروضة على السعي وراء المكاسب، ليس عن طريق تشريعها فحسب، بل... بوصفها إرادة مباشرة من الله». يُضاف إلى ذلك أن الأخلاقيات البروتستانتية زوّدت الرأسمالي عمالاً «جادّين، وواعين، وذوي قدرات استثنائية، وهم مخلصون للعمل بوصفه هدف هذه الحياة كما أراده الله»[2]. عمل الناس في معظم فترات التاريخ كي يعيشوا، لكن البروتستانتيين عاشوا كي يعملوا. رأى **ويبر** أن أخلاقية العمل هذه هي

(١) Weber, Protestant Ethic, pp. 112, 154.

(٢) Ibid., p. 119.

التي أنتجت الرأسمالية الحديثة، التي عرّفها بأنها رأسمالية جادة وبورجوازية وذات تنظيم عقلاني للعمل الحر[١].

لا تخلو نظرية ويبر من المشاكل. إذ رأى أن «السلوك العقلاني هو أساس فكرة الدعوة» بوصفها «أحد العناصر الأساسية لروحية الرأسمالية الحديثة»[٢]. لكنه اعترف في مكانٍ آخر بالسمة غير العقلانية «للزهد والمسيحي»: «إن النوعية المثالية للمغامر [التجاري] الرأسمالي... لا تبقي له شيئاً من ثروته لنفسه، ما عدا ذلك الإحساس اللاعقلاني بأن المرء قد قام بوظيفته بشكلٍ جيد». إنه «موجود من أجل عمله بدلاً من أن يكون العكس هو الصحيح»، وهو «من وجهة نظر السعادة الشخصية» كان مرةً أخرى أمراً «لاعقلانياً»[٣]. أما ما هو مدعاة للمشاكل أكثر فنظرته القاسية إلى اليهود، إذ إن هذه النقطة تمثّل الاستثناء الأبرز لحججه[*]. يرى ويبر أن «اليهود يقفون على هامش on the side الرأسمالية السياسية المغامِرة والمستندة إلى المضاربة؛ أما أخلاقياتهم فكانت... أخلاقيات الرأسمالية المنبوذة. كانت البيوريتانية [التطهرية] هي التي حملت لوحدها أخلاقيات التنظيم العقلاني للرأسمال واليد العاملة»[٤]. تجاهل ويبر، لسببٍ ما، نجاح المغامرين [التجاريين] الكاثوليك في فرنسا، وبلجيكا، وفي أمكنة أخرى. يُلاحظ هنا أن معالجة ويبر مع الأدلة هي أحد عيوب مقالته الفاضحة. أما كلمات مارتن لوثر واعتراف وستمنستر، فيوجدان بصعوبة إلى جانب مقتطفات من أقوال بنيامين فرنكلين وبعض المعطيات،

---

(١) Ibid., p. 24. For a modern restatement, see Koch and Smith, Suicide of the West, pp. 184f.

(٢) Weber, Protestant Ethic, p. 180.

(٣) Ibid., pp. 70f.

(*) تفوّق اليهود، في الواقع، على البروتستانت في الولايات المتحدة على مدى القرن الماضي، كما حققوا مداخيل أعلى، ونسباً أكبر من التوظيف الذاتي. أظهرت إحصاءات مجلة فورتشن أن من بين أكبر ١٠٠ شركة في العام ٢٠٠٣ كانت ١٠ بالمئة منها على الأقل يهودية، كما أن ما لا يقل عن ٢٣ بالمئة من المدراء التنفيذيين للشركات الواردة في فوربس ٤٠٠ كانوا من اليهود كذلك. لا يقتصر الأمر على نجاح اليهود الذي لا يتناسب مع أعدادهم في إطلاق الشركات المالية، بل كانوا مؤسسين وشركاء مؤسسين لبعض أكبر شركات التقنية مثل ديل، ، وإنتيل، وأوراكل.

(٤) Ibid., p. 166. See Chiswick, 'Economic Progress'.

التي يبدو أنها غير مرضية، آتية من ولاية بادن الألمانية حول الفروق في التحصيل العلمي [الثقافي] والمداخيل بين البروتستانت والكاثوليك. أما الباحثون الذين أتوا بعد ويبر، وعلى الخصوص المؤرخ الاقتصادي الفابي آر. آيتش. تاوني، فقد كانوا أكثر ميلاً إلى إسدال ظلال الشك على حججه الأساسية القائلة إن اتجاه السببية يجري من المعتقد الديني نحو السلوك الاقتصادي[١]. نلاحظ، على النقيض من ذلك، أن الخطوات الأولى نحو روح الرأسمالية حدثت قبل عصر الإصلاح، وذلك في مدينتَي لومباردي وفلاندرز، هذا في حين عبّر عدد من الإصلاحيين البارزين عن آراءٍ معادية للرأسمالية بشكلٍ واضح. لاحظت دراسة تجريبية رئيسة واحدة على الأقل، شملت ٢٧٦ مدينة ألمانية ما بين العامين ١٣٠٠ و١٩٠٠ «عدم وجود أي تأثيرات للبروتستانتية في النمو الاقتصادي»، وأقله إذا ما كان المقياس هو نمو حجم المدينة[٢]. توصلت دراسات أخرى أجريت في البلاد إلى استنتاجاتٍ مشابهة[٣].

ثمة أسباب، مع ذلك، تدعو إلى التفكير بأن ويبر كان على حق في شيء ما، حتى ولو كان مصيباً لأسبابٍ غير صحيحة. كان هناك بالفعل ميلٌ بعد عصر الإصلاح، كما افترض هو، بين البلدان البروتستانتية في أوروبا إلى النمو بشكلٍ أسرع من البلدان الكاثوليكية، وهكذا تجاوزت البلدان البروتستانتية في العام ١٧٠٠ الدول الكاثوليكية في مدخول الفرد. أما في العام ١٩٤٠ فكانت أوضاع الناس في البلدان الكاثوليكية أسوأ بنسبة ٤٠ بالمئة عما كانت عليه الحال في البلدان البروتستانتية[٤]. يُلاحظ كذلك أن مستعمرات البلدان البروتستانتية السابقة كانت أوضاعها أفضل من الناحية الاقتصادية مما كانت عليه مستعمرات البلدان الكاثوليكية السابقة منذ الخمسينيات من القرن الماضي، حتى وإن كان الدِّين لا يُعد تفسيراً كافياً لذلك الفرق[٥]. لكن،

(١) Tawney, Religion and the Rise of Capitalism.

(٢) Cantoni, 'Economic Effects'.

(٣) Delacroix and Nielsen, 'Beloved Myth'. See also Iannaccone, 'Introduction'.

(٤) Young, 'Religion and Economic Growth'.

(٥) Grier, 'Effect of Religion on Economic Development'.

نظراً إلى أن الأهمية المركزية في فكر لوثر هي القراءة الشخصية للإنجيل، شجعت البروتستانتية على تعلّم القراءة، هذا إذا لم نقل الطباعة، وهذان الأمران شجعا من دون شك التنمية الاقتصادية (مراكمة «الرأسمال البشري») بالإضافة إلى الدراسات العلمية[1]. تبقى هذه الفرضية صالحة ليس بالنسبة إلى بلدان مثل أسكتلندا فحسب، حيث يُعد الإنفاق على التعليم والالتحاق بالمدارس، ومعرفة القراءة والكتابة، عالياً بصورة استثنائية، لكن بالنسبة إلى البلدان البروتستانتية ككل. شجع المرسَلون البروتستانت على التعلم أين ما حلّوا، الأمر الذي أعطى تلك المجتمعات التي سعوا إلى تعليمها فوائد جمّة على المدى البعيد. لكن لا يمكننا قول الأمر ذاته عن المرسلين الكاثوليك بدءاً من الفترة التي تبدأ بالحركة المضادة للإصلاح حتى إصلاحات مجمع الفاتيكان الثاني (١٩٦٢- ١٩٦٥)[2]. كان المرسلون البروتستانت هم سبب ارتفاع نسبة الالتحاق بالمدارس في المستعمرات البريطانية، وهي النسبة التي كانت أعلى بأربع أو خمس مرات مما كانت عليه في مستعمرات البلدان الأخرى. أما في العام ١٩٤١ فإن ما يزيد على نسبة ٥٥٪ من الناس الذين كانوا يعيشون في ما هو الآن إقليم **كيرالا** كانوا متعلمين، وهي نسبة أعلى مما هي عليه الحال في أي إقليم آخر في الهند، أي إن النسبة كانت أعلى بأربع مرات من المعدل السائد في الهند، كما يمكن مقارنتها بالنسب الموجودة في البلدان الأوروبية الأكثر فقراً مثل البرتغال. يعود سبب ذلك إلى أن المرسلين البروتستانت كانوا أكثر نشاطاً في كيرالا، أي بين سكان الإقليم الذين اعتنقوا المسيحية منذ زمنٍ طويل، مما كانوا عليه في أي مكانٍ آخر في الهند. أما في المناطق التي لا يوجد فيها المرسلون البروتستانت (مثلاً، في الأقاليم الإسلامية أو في محميات مثل بهوتان، ونيبال، وسيكيم)، فإن شعوب المستعمرات البريطانية لم تكن متعلمة بشكلٍ أفضل بكثير[3]. تبيّن أن مستوى نشاطات المرسلين البروتستانت هو مؤشر جيد إلى الأداء الاقتصادي في مرحلة ما

(١) Becker and Wssmann, 'Was Weber Wrong?'.

(٢) Trevor-Roper, 'Religion, the Reformation and Social Change'.

(٣) Woodberry, 'Shadow of Empire'.

بعد الاستقلال، وإلى الإستقرار السياسي. يُضاف إلى ذلك أن الاستطلاعات الحديثة أظهرت أن للبروتستانت مستويات أعلى عادة من الثقة المتبادلة، واستعداداً هاماً أكبر لإنشاء شبكات الإقراض الفعالة[1]. يبدو كذلك أن الإيمان الديني (بشكلٍ عام، وعلى عكس ما يبدو في الظاهر)، ومن أي نوعٍ كان يرافق النمو الاقتصادي، وعلى الخصوص حيث تقدم مفاهيم الجنة والنار حوافز للسلوك الحسن في هذا العالم. لا يعني ذلك العمل الشاق والثقة المتبادلة وحدهما لكن الازدهار، والنزاهة، والثقة والانفتاح تجاه الأجانب كذلك، وكل سمات المنافع الاقتصادية[2].

إن الأديان مهمة جداً. سبق لنا أن رأينا في فصولٍ سابقة كيف أن «أخلاقيات الثبات» أدت دوراً في فشل الصين الأمبراطورية في تطوير ذلك النوع من الهيكلية [النُظُم] المؤسسية التي عززت الابتكار في أوروبا الغربية – بالرغم من أن الصين هي أبعد ما تكون عن المجتمع الساكن وغير المتغيّر الذي تحدث عنه ويبر في الخاتمة التي وضعها في «أخلاقيات البروتستانتية»، وذلك في كتابه **الكونفوشيوسية والطاوية** (١٩١٦). سبق لنا أن رأينا كيف أن سلطة الأئمة ورجال الدين قد أحبطت كل فرص الثورة الإسلامية في العالم الإسلامي. كما سبق لنا أن رأينا كذلك كيف أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية قد عملت بمنزلة كابح التنمية الاقتصادية في جنوب أميركا. ربما تكون كذلك أكبر مساهمة للدِّين في تاريخ الحضارة الغربية هي أن البروتستانتية لم تجعل الغرب ينجح فحسب، لكنها جعلته ينتقد ويقرأ كذلك. كانت الثورة الصناعية، بالفعل، نتيجة للابتكارات التقنية والاستهلاك. لكنها تطلبت كذلك زيادة في كثافة العمل ومدته، وذلك بالإضافة إلى مراكمة الرأسمال عن طريق التوفير والاستثمار. لكن الثورة الصناعية اعتمدت، قبل كل شيء، على مراكمة الرأسمال البشري. كانت المعرفة التي روّجتها البروتستانتية عاملاً حيوياً في كل تلك الأمور. أعتقد أننا سنفهم الأمر أكثر إذا ما تحدثنا عن أخلاقيات البروتستانت بالنسبة إلى **الكلمة** word.

(١) Guiso et al., 'People's Opium?'.

(٢) Barro and McCleary, 'Religion and Economic Growth'.

أما السؤال فهو: هل الغرب هذه الأيام – أو أقله القسم الهام منه – قد خسر الدِّين والأخلاقيات التي ترافقه؟

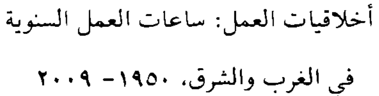
احصل على تسليتك

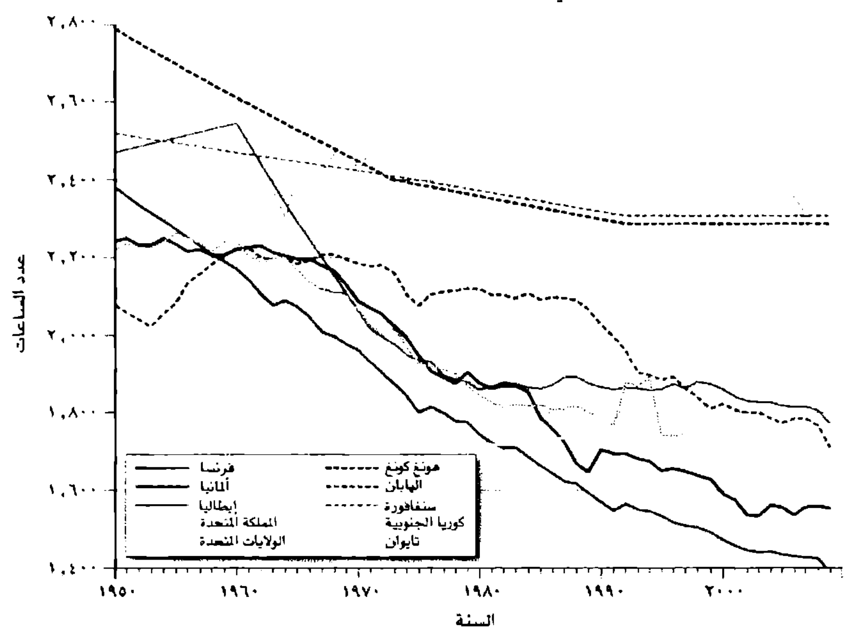
يُعدّ الأوروبيون هذه الأيام كسالى العالم. إنهم يعملون، في المعدّل، ساعات أقل من الأميركيين، وأقل بكثير من الآسيويين. وبفضل برامج التعليم المطولة والتقاعد المبكر فإن نسبة أقل من الأوروبيين توجد فعلياً في أمكنة العمل. وعلى سبيل المثال فإن ٥٤ بالمئة من البلجيكيين واليونانيين من الذين تتجاوز أعمارهم ١٥ سنة يشاركون في القوى العاملة، وذلك مقارنة بـ ٦٥ بالمئة من الأميركيين، و٧٤ بالمئة من الصينيين[1]. كانت نسبة أعلى في أوروبا من بين تلك القوى العاملة عاطلة عن العمل في السنوات ما بين ١٩٨٠ و٢٠١٠. يُضاف إلى ذلك أن الأوروبيين هم على استعدادٍ أكبر للإضراب عن العمل[*]. أما الأهمّ من ذلك كله فهو أن الأوروبيين يعملون ساعاتٍ أقل بفضل أيام العمل الأقصر، وأيام الإجازات الأطول[2]. عمل الأميركي الموظف العادي ساعات تقل عن ١,٧١١ ساعة في السنة وذلك في الفترة ما بين العامين ٢٠٠٠ و٢٠٠٩ (وهو رقم تسببت الأزمة المالية في إنقاصه، حيث عمل عدد كبير من العمال لساعاتٍ أقل). أما الألماني العادي فقد عمل ١,٤٣٧ ساعة فقط – أي ١٦ بالمئة أقل. يعود سبب ذلك إلى فترة التفاوت المطولة. كانت الفروق ما بين

(١) World Bank, World Development Indicators online.

(*) إن هذه الفروق عبر الأطلسي هي أصغر مما كانت عليه سابقاً. ارتفعت نسبة البطالة كثيراً في الولايات المتحدة عما هي عليه في معظم دول الاتحاد الأوروبي نتيجة الأزمة المالية. أما داخل دول منظمة التجارة والتعاون الاقتصادي OECD، وفي وقت تأليف هذا الكتاب فإن هنغاريا وإيرلندا، والبرتغال، وسلوفاكيا، وإسبانيا تعاني نسبة بطالة أعلى مما هي عليه في الولايات المتحدة. تُعد الدنمارك، وإسبانيا، وإيرلندا، وإيطاليا، وفرنسا أكثر عرضة للإضرابات من الولايات المتحدة وذلك في فترة السنوات الخمس الممتدة ما بين ١٩٩٦ و٢٠٠٠ قياساً على عدد أيام الامتناع عن العمل بسبب الإضرابات لكل ١,٠٠٠ موظف، لكن الدول الأعضاء الأخرى في الاتحاد الأوروبي هي أقل تعرضاً للإضرابات.

(٢) Ferguson, 'Economics, Religion and the Decline of Europe'.



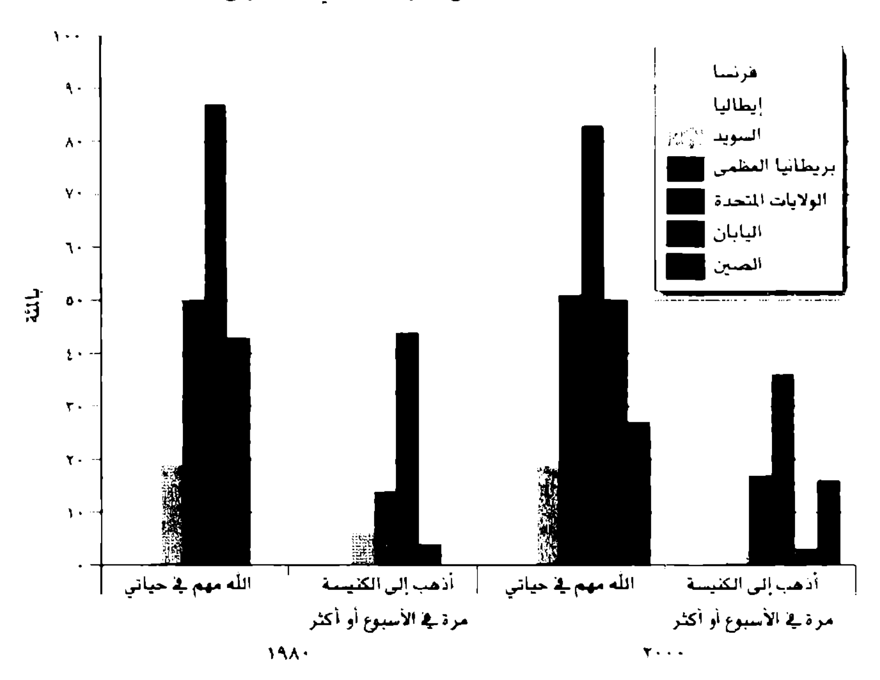


ساعات العمل الأميركية والأوروبية في العام ١٩٧٩ ضئيلة. أما هذه الأيام فإن العامل الإسباني المتوسط يعمل ساعات أكثر من ساعات الأميركي العادي [في المتوسط]. لكن ساعات العمل الأوروبية تدنت منذ ذلك الحين، إلا أن الياباني العادي ما زال يعمل لساعاتٍ تماثل ساعات عمل الأميركي العادي، بينما يعمل الكوري العادي ساعات هي أكثر بنسبة ٣٩ بالمئة. أما السكان في هونغ كونغ وسنغافورة فيعملون ساعات هي أكثر من نسبة الثلث مما يعمله الأميركيون[١].

أما الأمر الأكثر إدهاشاً فهو أن ذلك الفرق في أنماط العمل على جانبي الأطلسي قد تطابق تماماً مع فارقٍ مماثل في الإيمان الديني. لا يقتصر الأمر على أن الأوروبيين يعملون ساعاتٍ أقل، لكنهم يصلّون أقل كذلك – ويؤمنون بدرجةٍ أقل. مرّ زمن كانت

(١) Data from the Conference Board Total Economy Database, September 2010, http://www.conference-board.org/data/economydatabase/. See also OECD.Stat and various OECD publications.

الإيمان الديني والالتزام، ما بين أوائل الثمانينيات من القرن العشرين وأواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين



فيه أوروبا أكثر انسجاماً عندما تشير إلى نفسها على أنها «المسيحية». شيّد الأوروبيون في الماضي أروع أماكن عباداتهم، كما اختلفوا بمرارة حول التمييز ما بين الاستحالة الجوهرية transubstantiation والإمكانية الجوهرية consubstantiation. أبحر الأوروبيون بوصفهم حجاجاً، ومرسلين، وفاتحين إلى أطراف الأرض الأربعة، وكانوا مصمّمين على هداية غير المؤمنين إلى الدِّين الصحيح. أما الآن فإن الأوروبيين هم الذين أصبحوا غير مؤمنين. تورد أحدث الاستطلاعات التي أجريت ما بين العامين ٢٠٠٥ – ٢٠٠٨، أي **استطلاع القيَم العالمية**، أن ٤ بالمئة من النرويجيين والسويديين، و٨ بالمئة من الفرنسيين والألمان يحضرون الصلوات في الكنائس أقله مرة واحدة في الأسبوع، وذلك مقارنة بـ٣٦ بالمئة من الأميركيين، و٤٤ بالمئة من الهنود، و٤٨ بالمئة من البرازيليين، و٧٨ بالمئة من من سكان جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى.

ثمة أرقام أعلى من هذه بالنسبة إلى عدد من البلدان ذات الأغلبية الكاثوليكية مثل إيطاليا (٣٢ بالمئة) وإسبانيا (١٦ بالمئة). أما البلدان الوحيدة التي ينخفض فيها التقيد بالواجبات الدينية عن البلدان البروتستانتية فهي روسيا واليابان. أما عبارة الله «مهم جداً» فترد على لسان واحد من أصل عشرة ألمان وهولنديين، أما النسبة في فرنسا فهي أعلى بقليل. أما بالمقارنة فإننا نجد أن ٥٨ بالمئة من الأميركيين يقولون إن الله مهم جداً في حياتهم. يُذكر أن أهمّية الله هي أعلى في أميركا اللاتينية ودول أفريقيا الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، أما النسبة العليا على الإطلاق فتوجد في جميع البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط. أما في الصين فإن الله يمثل أهمية بالنسبة إلى الناس هي أقل مما عليه في أوروبا (أقل من ٥ بالمئة). يُذكر أيضاً أن أقل من ثلث الأميركيين يرون أن السياسيين الذين لا يؤمنون بالله لا يستأهلون تقلّد المناصب العامة، وذلك بالمقارنة بنسبة ٤ بالمئة من النرويجيين والسويديين، و٩ بالمئة من الفنلنديين، و١١ بالمئة من الألمان والإسبان، و١٢ بالمئة من الإيطاليين. إن نصف الهنود والبرازيليين هم على استعداد لقبول سياسي ملحد في المناصب العامة[١]. أما اليابان فهي التي تعير أهمية إلى الإيمان الديني في السياسة هي أقل مما عليه الحال في أوروبا الغربية.

أما حالة بريطانيا فلها أهمّية خاصة، وذلك نظراً إلى إرادة نشر عقيدتها الدينية في القرن التاسع عشر. أما اليوم وبحسب **استطلاع القيم العالمية** World Values Survey، فإن ١٧ بالمئة من البريطانيين يدّعون أنهم يمارسون الشعائر الدينية، أقله لمرة واحدة في الأسبوع – وهي نسبة أعلى مما هي عليه في قارة أوروبا، لكنها لا تزال أقل من نصف الرقم الأميركي. تقول نسبة تقل عن ربع البريطانيين إن الله مهم جداً في حياتها، وهي، مجدداً، أقل من نصف الرقم الأميركي. صحيحٌ أن الأرقام البريطانية قد ارتفعت قليلاً منذ العام ١٩٨١ (عندما قال ١٤ بالمئة إنهم يذهبون إلى الكنيسة مرة في الأسبوع، وعندما قال أقل من خُمسهم إن الله مهم

(١) World Values Survey Association, World Values Survey.

بالنسبة إليهم). لكن الاستطلاعات لا تفرّق بين الأديان، وهكذا فهي تقلّل من حقيقة تراجع المسيحية البريطانية. أوردت دراسة أُجريت في العام ٢٠٠٤ أن في الأسبوع المتوسط [العادي] ثمة عدداً من المسلمين يذهب إلى المساجد هو أكبر من عدد الإنجيليكانيين الذين يقصدون الكنائس. أما الزيادة التي سجّلت حديثاً في الحضور إلى الكنائس فيمكن تفسيرها بزيادة أعداد رعايا الكنائس من غير البيض، وعلى الخصوص رعايا الكنائس الإنجيلية والمؤمنين بالروح القدس Pentecostal. أما عندما أجرت البحوث المسيحية Christian Research إحصاءً شمل ١٨,٧٢٠ كنيسة يوم الأحد في ٨ أيار من العام ٢٠٠٥، فقد تبيّن أن ٦,٣ بالمئة من عدد السكان يداومون على الحضور، وهو رقم يقلّ بنسبة ١٥ بالمئة عن الرقم منذ العام ١٩٩٨. تبدو بريطانيا، بعد تمحيصٍ دقيق، أنها تعطي مثالاً على انهيار الالتزام والإيمان في أوروبا الغربية.

تُعد عملية نزع المسيحية من بريطانيا ظاهرةً حديثةً نسبياً. قال جي. كاي. شسترتون في كتابه موجز تاريخ إنكلترا (١٩١٧) إن قولنا بأن المسيحية هي صنو الحضارة أمر لا يحتاج إلى دليل:

إذا رغب أي شخص في معرفة ما نعنيه عندما نقول بأن المسيحية كانت، ولا تزال، ثقافة واحدة، أو حضارةً واحدة، فليس أمامنا إلا طريقة واحدة للتعبير عن ذلك. يمكننا أن نسأل ما هو الشيء المشترك أكثر من غيره... في استخدامات كلمة «مسيحي»... لطالما اتخذت هذه الكلمة معنى واحداً في أحاديث الناس العاديين، وهي تعني الثقافة أو الحضارة. لم يقل بن غون في رواية جزيرة الكنز لجيم هوكنز، «أشعر بأنني منقطع عن الاتصال بنوعٍ محدد من الحضارة»، لكنه قال له، «لم أذق الطعام المسيحي»[1].

لم يكن البريطانيون البروتستانت شديدي الالتزام في الحقيقة (وذلك مقارنة

(١) Chesterton, Short History, p. 104.

بالإيرلنديين الكاثوليك على سبيل المثال). لكن العضوية في الكنائس، هذا إذا لم نقل الحضور إليها، كان مرتفعاً نسبياً وثابتاً حتى أواخر الخمسينيات من القرن الماضي. كان أقل من خُمس سكان المملكة المتحدة أعضاء في كنائسها حتى في العام ١٩٦٠. أما بحلول العام ٢٠٠٠ فإن هذه النسبة انخفضت إلى العُشر[1]. كانت معظم الزيجات في إنكلترا وويلز قبل العام ١٩٦٠ تتم في الكنيسة، وما لبثت هذه النسبة أن بدأت بالهبوط إلى ما دون ٤٠ بالمئة في أواخر التسعينيات من القرن الماضي. كان عدد الذين يتناولون العشاء الرباني في يوم عيد الفصح في الكنائس الإنجليكانية يمثل نحو ٥ أو ٦ بالمئة من الشعب البريطاني. لكن بعد العام ١٩٦٠ هبطت هذه النسبة إلى ٢ بالمئة. تُظهر أرقام كنيسة أسكتلندا اتجاهاً مشابهاً، إذ إنها كانت مستقرة حتى العام ١٩٦٠ وما لبثت أن هبطت بعد ذلك بمقدار النصف تقريباً. أما الأرقام الأكثر إثارة للدهشة فهي الهبوط الملحوظ في أرقام تثبيت العمادة. كانت هناك ٢٢٧,١٣٥ من هذه التثبيتات في إنكلترا في العام ١٩١٠، في حين هبط الرقم إلى ٢٧,٩٠٠ فقط في العام ٢٠٠٧، كما أن هذا الرقم يقلّ بنسبة ١٦ بالمئة عما كان عليه قبل خمس سنوات فقط. أما في الفترة ما بين العامين ١٩٦٠ و١٩٧٩ فإن نسبة تثبيت العمادة بين من هم في أعمار تراوح ما بين ١٢ و٢٠ سنة هبطت بنسبة تزيد على النصف، واستمرت بالهبوط منذ ذلك الحين. أما عدد الذين ثبتوا عمادتهم من بين أولئك الذين تعمدوا فتصل نسبتهم إلى أقل من الخُمس[2]. أما بالنسبة إلى كنيسة أسكتلندا فإن هذا الهبوط كان أكثر حدة[3]. يمتنع هذه الأيام كل سكان لندن أو إدنبرة عن استخدام كلمة «مسيحي» بالمعنى الذي استخدمه بن غون.

يبدو مؤكداً أن هذه الاتجاهات سوف تستمر على ما هي عليه الآن، كما أن المسيحيين الملتزمين أصبحوا من كبار السن: ٣٨ بالمئة من الميثوديين [المنجيين]

(١) Bruce, God is Dead, p. 67.

(٢) Data from http://www.cofe.anglican.org/news/pr2009.html.

(٣) See Brown, Death of Christian Britain, esp. p. 191. See also the essays in McLeod and Ustorf (eds.), Decline of Christendom.

وأعضاء الكنيسة الإصلاحية المتحدة كانوا في الخامسة والستين أو أكثر في العام ١٩٩٩، على سبيل المثال، وذلك مقارنة بـ١٦ بالمئة من السكان ككل[١]. أما البريطانيون الأصغر سناً فتقل عندهم احتمالات الإيمان بالله أو بالجنة[٢]. تُعد بريطانيا، لكل هذه الأسباب، من أبرز المجتمعات في العالم التي لا تؤمن بالله، وذلك مع وجود نسبة ٥٦ بالمئة من الشعب لا تقصد الكنائس أبداً، وهي أعلى نسبة في أوروبا الغربية[٣]. أظهرت الدراسة التي أجرتها **«روح بريطانيا»** في العام ٢٠٠٠ لمصلحة مسلسل مايكل بيرك التلفزيوني درجة مذهلة من التراجع الديني. قال ٩ بالمئة فقط من الذين شملتهم الدراسة بأنهم يعتقدون أن الدِّين المسيحي هو أفضل طريقٍ نحو الله، كما قال ٣٢ بالمئة منهم أن كل الأديان هي جيدة على السواء. وبالرغم من أن ٨ بالمئة فقط عرّفوا عن أنفسهم بأنهم ملحدون إلا أن ١٢ بالمئة اعترفوا بأنهم لا يعرفون بماذا يؤمنون. قال أكثر من ثُلُثي الذين شملهم الاستطلاع إنهم لا يمتلكون إرشادات أخلاقية محددة، كما قال الأمر ذاته ٨٥ بالمئة من بين أولئك الذي هم ما دون الرابعة والعشرين من العمر. (من المدهش حقاً أن يقول ٤٥ بالمئة من الذين شملهم الاستطلاع إن هذا الهبوط في الالتزام الديني هو الذي جعل البلاد مكاناً أسوأ).

توقع أحد أفضل الكتّاب البريطانيين في القرن العشرين وقوع أزمة في الإيمان. كتب الأستاذ في جامعة أكسفورد سي. أس. لويس (الذي يشتهر هذه الأيام بقصص الأطفال الخرافية) **رسائل سكروتايب** (١٩٤٢) على أمل أن تبقيه سخريته من الشيطان على شاطئ الأمان. أدرك إيفلين واغ، كما كتب في ثلاثيته الحربية **سيف الشرف** (١٩٥٢- ١٩٦١)، أنه يكتب مرثية للصيغة القديمة للكاثوليكية الرومانية البريطانية. أحسّ الرجلان بأن الحرب العالمية الثانية تمثّل تهديداً خطيراً للإيمان المسيحي.

(١) Bruce, God is Dead, p. 65.

(٢) Davie, Religion in Britain, pp. 119, 121.

(٣) Davie, Europe: The Exceptional Case, pp. 6f.

لكن هواجسهما لم تتحقق قبل الستينيات من القرن الماضي. لماذا، والحالة هذه، خسر البريطانيون إيمانهم التاريخي؟ تبدو الإجابة عن هذا السؤال سهلة للوهلة الأولى، مثل عددٍ كبيرٍ من الأسئلة الصعبة. لكن قبل أن نضع اللوم على «الستينيات» – البيتلز، وحبوب منع الحمل، والتنانير القصيرة – أي مثل ما فعل الشاعر فيليب لاركين، يجب علينا تذكير أنفسنا بأن الولايات المتّحدة تمتعت بكل هذه الملذات الحسّية بدورها، لكن من دون أن تتوقف عن كونها دولة مسيحية. أما إذا سألنا عدداً من الأوروبيين هذه الأيام عن هذا الموضوع فإنهم سوف يجيبون بأن الإيمان الديني هو مجرد شيء من الماضي، وأثرٌ من آثار خرافات القرون الوسطى، كما أنهم سوف يستغربون تلك الحماسة الدينية التي يمتلكها البروتستانتيون الأميركيون المتشددون، لكنهم لا يدركون أن افتقادهم [الأوروبيين] للإيمان هو الأمر الشاذ.

مَن هو الشخص الذي قضى على المسيحية في أوروبا إذا لم يكن جون لينون؟[١] هل الأمر كان كما توقع ويبر بأنه مقدّرٌ على روح الرأسمالية تدمير أبيها البروتستانتي، وذلك لأن المادية أفسدت زهد التقاة (فرضية العلمنة)؟[٢] كانت تلك النظرية قريبة جداً من رأي روائي، ورجل روحاني (بعد أن تقدّم به السن) وهو **ليو تولستوي** الذي رأى تناقضاً أساسياً بين تعاليم المسيح و«أوضاع الحياة المألوفة التي ندعوها حضارة، وثقافة، وفناً، وعلوماً»[٣]. وإذا كان الأمر كذلك فأي جزء من التنمية الاقتصادية يناقض تحديداً المعتقدات الدينية؟ هل يعود الأمر إلى تغيّر دور النساء وانحطاط الأسرة التقليدية التي تضم الأولاد – وهو الأمر الذي يبدو بأنه يفسّر تراجع حجم العائلة والتراجع الديموغرافي [السكاني] للغرب؟ هل الأمر يعود إلى المعرفة العلمية – أي ما سمّاه ويبر «حلّ ألغاز العالم»، وعلى الخصوص نظرية داروين المتعلقة بالنشوء [التطور] وهي التي قلبت قصة الإنجيل المتعلقة بالخلق

(١) The celebrated interview quoted in the first epigraph was by Maureen Cleave, 'How Does a Beatle Live? John Lennon Lives Like This', Evening Standard, 4 March 1966.

(٢) See Barro and McCleary, 'Religion and Political Economy'.

(٣) Tolstoy, Kingdom of God, p. 301.

الإلهي؟ أم هل يعود ذلك إلى تحسين توقعات الأعمار، الأمر الذي جعل الحياة في العالم الآخر تبدو مصيراً وشيكاً يثير قدراً أقل من القلق؟ أم أن السبب يعود إلى دولة الرفاه، وإلى راعٍ [حاكم] علماني يرعانا من المهد إلى اللحد؟ أيُمكن أن تكون المسيحية الأوروبية لاقت مصيرها على يد الهوس المزمن بالثقافة المعاصرة؟ ألم يكن سيغموند فرويد هو وحده قاتل أخلاقيات العمل البروتستانتية في أوروبا؟

انطلق سيغموند فرويد، الإنجيلي البروتستانتي المولد وأبو التحليل النفسي، في كتابه **مستقبل وهم** (١٩٢٨) في تفنيد أفكار ويبر. رأى فرويد، وهو يهودي منشق، أن الدِّين لا يُمكن أن يكون قوةً دافعة وراء الحضارة الغربية، وذلك لأنه «وهمٌ بالضرورة»، و«اضطراب عصبي شامل» وهو الذي صُمّم بغية منع الناس من الانصياع لغرائزهم الأساسية – وعلى الخصوص لرغباتهم الجنسية ودوافعهم العنيفة والتدميرية. سيغرق العالم بالفوضى من دون الدِّين:

إذا تخيّل المرء أن محرّماته قد أُزيلت، فسيتمكن من اختيار أي امرأةٍ نالت إعجابه لتكون غرضه الجنسي، كما سيتمكن من قتل خصمه من دون تردد، أو أي شخص يتدخل معه، كما سيتمكّن من أخذ ما يريده من سلع رجلٍ آخر من دون أخذ إذنه[1].

لم يكتفِ الدِّين بمنع الاختلاط الجنسي غير الأخلاقي والعنف. بل دفع الرجال إلى الرضا «بقسوة القدر، وعلى الخصوص بالنسبة إلى الموت» وكذلك بالنسبة إلى «المعاناة والحرمان» اللذين تتسم بهما الحياة اليومية[2]. أما عندما أقدمت الأديان التوحيدية على جمع الآلهة في كيانٍ واحد، فإن «علاقات الناس به يمكن أن تستعيد حميمية وقوة علاقة الولد بوالده. وإذا قدّم الإنسان الكثير لوالده فمن المؤكد أنه سيُكافأ – وأقله سيكون الابن الوحيد والمحبوب، والشعب المختار»[3].

(١) Freud, Future of an Illusion, p. 25.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٤.

امتلك فرويد قدراً قليلاً من الأمل بقدرة الجنس البشري، وعلى الخصوص في أوروبا، على تحرير نفسه من الدِّين. كتب فرويد:

إذا أردنا إلغاء الدِّين من حضارتنا الأوروبية فإن السبيل الوحيد لفعل ذلك هو إيجاد نظام معتقداتٍ آخر. إن نظاماً كهذا من شأنه، منذ البداية، تجاوز كل الخصائص النفسية للدِّين – القداسة ذاتها، والصلابة وعدم التسامح، ومحظورات الفكر ذاتها من أجل الدفاع عن نفسه[1].

بدا هذا الكلام معقولاً بالتأكيد في الثلاثينيات من القرن العشرين، أي عندما قدّم ستالين وهتلر طائفتيهما البشعتين. فشل هذان النظامان السياسيان الشموليان في كلتا الحالين في الإمساك بزمام الأمور من خلال الغرائز الأساسية التي تضمّنتها نظرية فرويد عن الدِّين. ألفت أوروبا نفسها منهكة في العام ١٩٤٥ نتيجة عربدة عنف الحرب فيها – تضمّن ذلك عنفاً جنسياً مذهلاً أخذ شكل عمليات اغتصاب جماعي – وهو أمرٌ لم يشهد له العالم مثيلاً منذ أيام تيمورلنك. أما ردّ الفعل الأولي في بلادٍ عديدة، وعلى الخصوص بلدان (مثل الاتحاد السوفياتي) عانت أشدّ ما يكون الجرائم الجماعية، فكان العودة إلى الدِّين الحقيقي، واستخدام العزاء الذي قدّمه الدين على مدى الأزمان من أجل التعبير عن الحزن على الأموات.

سعت أجيالٌ في الستينيات، كانت حديثة السن إلى درجة أنها لم تتذكر سنوات الحرب الشاملة والمجازر، إلى إيجاد مخرجٍ جديد لرغباتها المكبوتة في فترة ما بعد المسيحية. أدت نظريات فرويد ورأيها في الكبح، وكذلك تعاطفها الصريح مع الأهواء الجنسية، دوراً في دفع الأوروبيين إلى الخروج من الكنائس ودخول أماكن الجنس. جادل فرويد في كتابه **الحضارة وتعاساتها** (١٩٢٩ - ١٩٣٠ لكنه لم يُنشر في الولايات المتحدة إلا في العام ١٩٦١) أن يمة «نقيضاً» أساسياً بين الحضارة كما وجدت آنذاك وحاجات الإنسان الأساسية:

(١) المرجع نفسه، ص٨٤.

إن وجود هذا الميل إلى العدوان، وهو الميل الذي يمكننا كشفه في أنفسنا، كما يحق لنا افتراض وجوده عند الآخرين، هو العامل الذي يشوّش علاقاتنا مع جارنا مما يدفع الحضارة إلى الإسراف في الإنفاق [للطاقة]. يجد المجتمع المتحضّر نفسه مهدداً على الدوام بالتفكّك، وذلك نتيجةً للعدوانية الغريزية التي يعيشها البشر فيما بينهم. إن مصلحة العمل المشترك لن تكفل تماسك ذلك المجتمع، وذلك لأن العواطف الغريزية هي أقوى من المصالح المعقولة. يجب على الحضارة استخدام أقصى جهودها من أجل وضع حدود لميول الإنسان الغريزية، ووضع حدٍ لتجسدات هذه الغرائز فيه عن طريق آلية دفاعية روحانية. تأتي من هنا... القيود الموضوعة على الحياة الجنسية، ومن هنا أيضاً... وصية أن يحب المرء جاره مثل ما يحب نفسه – وهي وصيةٌ مبررة بالفعل بحقيقة أن لا شيء آخر يجري بصورة مخالفة لطبيعة الإنسان الأصلية... إن الحضارة هي عملية في خدمة إيروس، وغايتها هي جمع الأفراد الوحيدين من البشر، والعائلات بعد ذلك، ثم الأعراق، والشعوب والدول في وحدةٍ عظيمة وهي وحدة الجنس البشري. أما لماذا يجب على هذا الشيء أن يحدث فإننا لا نعلم. إن عمل إيروس هو هذا بالتحديد... ينبغي للبشر أن يرتبطوا حسياً بعضهم ببعض... لكن غريزة الإنسان الطبيعية العدوانية، وعدوانية كل شخص تجاه الجميع وعدوانية الجميع ضد كل شخص، تناقض برنامج الحضارة هذا. إن هذه الغريزة العدوانية هي نتيجة غريزة الموت والممثلة الرئيسة له، وهو ما وجدناه إلى جانب إيروس ويقاسمه الهيمنة على العالم. أعتقد الآن أن تطور [نشوء] الحضارة لم يعد غامضاً بالنسبة إلينا. يجب على هذا التطور أن يمثّل الصراع بين إيروس والموت، وبين غريزة الحياة وغريزة التدمير، أي كما يظهر في الجنس البشري. إن هذا الصراع هو ما تشتمل عليه الحياة في الأساس[1].

يتمكن المرء بعد قراءته هذه الآراء من إدراك ما عناه الكاتب الساحر في فيينا عندما قال إن التحليل النفسي «مرض ما يدعي أنه علاجه»[2]. لكن هذه هي الرسالة

(١) Freud, Civilization, pp. 55, 59, 69.

(٢) Szasz, Anti-Freud: Karl Kraus's Criticism of Psychoanalysis and Psychiatry.

التي عدها البيتلز الوصية الجديدة: Let it all hang out. هذا ما حدث فعلاً، وكذلك كانت أغنية ذي هومبرز Let it All Hang Out (١٩٦٧) إحدى أناشيد الستينيات الأقل انتشاراً، لكن مقدمتها – «ستتلقون موعظة يا أصدقائي الأعزاء / حول جون بارلي كورن، والنيكوتين، وإغراءات حواء» – تلخص بشكلٍ كافٍ ما كان معروضاً في تلك الأيام(*). أما بالنسبة إلى أشد نقاد الغرب أهمّية (وليس أقلهم المتطرفين الإسلاميين)، فإن الستينيات فتحت الباب أمام مرحلة مضادة للحضارة في ما بعد الفرويدية متميزة بالاحتفاء بلذات الذات، ورفض العقيدة الدينية لمصلحة الخلاعة، ورفض أمير السلام لمصلحة أفلام العنف القبيحة وألعاب الفيديو التي أفضل ما توصف بأنها «خلاعة حربية».

أما المشكلة مع كل هذه النظريات المتعلقة بموت البروتستانتية في أوروبا فهي أنها بغض النظر عن التفسيرات التي تقدمها عن نزع المسيحية من أوروبا، لا تقدم أي تفسيرٍ عن استمرارية الإيمان المسيحي في أميركا. مرّ الأميركيون، بدرجةٍ أو بأخرى، بالتغيّرات الاجتماعية والثقافية ذاتها التي عرفها الأوروبيون. زاد ثراء الأميركيين، كما أن معرفتهم بالعلوم قد زادت. يخضع الأميركيون كذلك للتحليل النفسي، ويتعرضون للأفلام الإباحية أكثر من الأوروبيين. لكن البروتستانتية في أميركا لم تعانِ أي شيء يماثل الانحدار الذي شهدته في أوروبا، بل على العكس من ذلك، فإن أهمّية الله بقيت كبيرة، بطرائق متعددة، في أميركا هذه الأيام بمثل ما كانت عليه قبل أربعين سنة[1]. إن أفضل دليل على هذا الواقع هو في توافد عشرات الملايين من المؤمنين إلى الكنائس في كل يوم أحد.

(*) أعاد المغني، ومنتج الأسطوانات، والمتهم بالشذوذ الجنسي، جوناثان كينغ (شارتر هاوس، وترينيتي، وكامبريدج) إحياء هذه الأغـنية، كما أنه لفت الأنظار عندما أنتج «إقفز إلى الأعلى وإلى الأسفل (لوّح بملابسك الداخلية في الهواء)» وكذلك الألبوم المنبوذ الذي يحمل اسم The Rocky Horror Show

(١) Attendance is down from 25–55 per cent in the 1970s to 18-22 per cent today, but religion is clearly consumed in myriad ways (television and internet evangelists) undreamt of forty years ago: Putnam and Campbell, American Grace, pp. 74, 105.

تكمن المفارقة هنا في توحّد ثلاثية الستينيات الجديدة المتمثلة بالجنس، والمخدرات، والروك والرول، في الولايات المتحدة مع ازدهار البروتستانتية الإنجيلية. تنافس القس بيلي غراهام مع البيتلز في قدرة حشد أكبر عدد من الشبان في المدرجات. لم يكن ذلك ردّ فعل بقدر ما كان تقليداً. حثّ غراهام الحضور عندما تحدث أمامه في مهرجان ميامي روك في العام ١٩٦٩ على «الاستماع إلى الله... والالتفات إلى قدرته»[1]. نظمت إحد الفرق الجامعية التي تُدعى حملة جامعية Campus Crusade في العام ١٩٧٢، مؤتمراً إنجيلياً في دالاس، وأطلقت عليه اسم وودستوك المسيحي (أما مهرجان الروك الذي أقيم في العام ١٩٦٩ فقد كان تعبيراً عن روح الهيبية المضادة للثقافة) [*]. أما عندما أقدمت سينثيا «بلاستر كاستر»، وهي مراهقة كاثوليكية من شيكاغو على صنع تماثيل من الجبس للأعضاء الجنسية المنتصبة لجيمي هندريكس، وروبرت بلانت، وكيث ريتشارد (وبالتأكيد ليس كليف ريتشارد)، فقد نفذّت رؤية فرويد عن انتصار إيروس على ثاناتوس. كان الله هو الحب، وأقله كان ذلك هو الشعار الذي أوردته بعض الملصقات. وُلدت أميركا مجدّداً وفي الوقت ذاته غرقت في الإباحية مجدداً.

كيف لنا أن نفسّر حقيقة أن الحضارة الغربية بدت منقسمة إلى قسمين: في الشرق أوروبا ملحدة، وفي الغرب أميركا التي تخشى الله. وكيف لنا أن نفسّر استمرار المسيحية في أميركا في وقت انحدارها في أوروبا؟ أما الإجابة الفضلى فيمكننا العثور عليها في سبرينغفيلد، ميسوري، وهي مدينة يُطلقون عليها اسم «ملكة الأوزارك» والمكان الذي انطلق منه الطريق السريع الحربي الذي يربط بين شيكاغو وكاليفورنيا، وهو الطريق الذي خلّدته في العام ١٩٤٦ أغنية بوبي تروب «Get your Kicks on الطريق ٦٦». أما إذا كان ماكس ويبر أُعجب بتنوّع الطوائف البروتستانتية

(١) Sheehan, 'Liberation and Redemption', p. 301.

(*) حتى في وودستوك الحقيقي، فإن فريق Who قدّم أجزاءً من Tommy، وهي أوبرا روك بيتي تاونسند تتحدث عن مسيحٍ أصم، وأخرس، وأعمى.

في أثناء مروره عبر هذه المنطقة قبل قرنٍ من الزمن، فلا بد أنه كان سيُدهش لو مرّ عبرها هذه الأيام. تمتلك سبرينغفيلد كنيسة واحدة لكل ألف مواطن. توجد في هذه المنطقة ١٢٢ كنيسة معمدانية، وستة وثلاثون مكاناً للصلاة للكنيسة الميثودية [المنهجية]، وخمسة وعشرون **لكنيسة المسيح**، وخمس عشرة **كنيسة الله** - أي إن عدد أماكن العبادة المسيحية بلغ نحو ٤٠٠. يعني ذلك أنه بدلاً من أن يحمل المرء شرابه في الطريق ٦٦ عليه أن يحمل صليبه.

أما الأمر الهام هنا فهو أن كل تلك الكنائس تتنافس بشدة فيما بينها بحثاً عن أتباع لها. لاحظ ويبر أن أعضاء الكنيسة المعمدانية الأميركية والكنيسة الميثودية وآخرين يتنافسون فيما بينهم للبرهنة عن أي الكنيستين أقرب إلى الله في الحقيقة. لكن المنافسة في سبرينغفيلد تدور هذه الأيام ما بين الكنائس، كما أنها تشبه بحدتها المنافسة القائمة ما بين وكالات السيارات، أو الأماكن التي تقدم المأكولات السريعة. يجب على الكنائس أن تتمتع بعقلية تجارية كي تجتذب المؤمنين وتحتفظ بهم. أما الرابح على هذا الأساس فهو جماعة جايمس ريفر. أما بالنسبة إلى الأعين الأوروبية فإن الأمر يتطلب ما هو أكثر مما يشبه مركز تسوّق كبيراً، أو تجمّع شركات، لكنه يكمن في وجود أكبر كنيسة في سبرينغفيلد - وهي بالحقيقة الأكبر في الولايات المتحدة برمّتها. أما القس المسؤول عن هذه الكنيسة، أي جون ليندل، فهو واعظ موهوب ذو شخصية جذابة يمكنه أن يجمع ما بين التعاليم الإنجيلية القديمة، ويستخدم نوعاً من الموهبة فوق خشبة المسرح التي عادة ما يجمعها مع الروك والرول. يبدو هذا القس في بعض الأحيان وكأنه الوارث الطبيعي **لثورة المسيح** التي تحدثت عنها مجلة تايم في العام ١٩٧١، وعرّفتها بأنها حركة شبابية مسيحية تستوحي موسيقى الروك، التي أكثر ما ظهرت في روحية أوبرا الروك البريطانية **يسوع المسيح سوبر ستار** (١٩٧٠). توافرت مع ذلك نوعية رشيقة ومتلهفة من الشباب عندما خاطب الله («يا الله، أنت رائعٌ جداً») وذلك لأنه يبدو أقل شبهاً بإيان جيلان (مغني فريق Deep Purple أشعث الشعر الذي أدى دور يسوع في ألبوم **سوبرستار** الأصلي) وأكثر

شبهاً بستيف جوبس [الذي توفي في العام ٢٠١١] وهو يقدم أحدث جهازٍ محمول من شركة آبل: iGod لربما. يرى ليندل أن الأخلاقيات البروتستانتية لا تزال بحالة جيدة وهي حية في سبرينغفيلد. ليس لدى الرجل أي شك بأن الإيمان يجعل أعضاء رعيته يعملون بجدٍ أكبر من المعتاد، كما أنه عاملٌ جاد بدوره فهو يقيم ثلاث صلوات عامة استثنائية يوم الأحد، وذلك أمرٌ ليس بالسهل بتاتاً. بدا أن الروح القدس توحّد مع روح الرأسمالية، وذلك عندما تدور سلال التبرّعات على المصلّين – لكن ذلك لا يحدث، لحسن الحظ، على طريقة **ماك هاموند** الوقحة في مركز الكلمة المسيحية الحيّة في مينابوليس، الذي يعد بأن «مبادئ الإنجيل ستعزّز نمو الإنسان الروحي، وسوف تساعد على النجاح في العمل، والنجاح في العلاقات، والنجاح في الميادين المالية»[١].

تكشف زيارة واحدة إلى **جايمس ريفر** الفرق الرئيس ما بين البروتستانتية الأوروبية والأميركية. أما الإصلاح فقد تلوّن بالقومية في أوروبا، وذلك مع تأسيس كنائس ناجحة مثل كنيسة إنكلترا أو كيرك أسكتلندا، أما في الولايات المتحدة فكان ثمة دائماً فصلٌ صارم ما بين الدين والدولة، مما سمح بظهور منافسة مفتوحة ما بين الطوائف البروتستانتية المتعدّدة. ربما يكون ذلك أفضل تفسيرٍ لذلك الموت الغريب للدِّين في أوروبا وحيويته المستمرّة في الولايات المتحدة. تُعدّ احتكارات الدولة غير فعالة سواء أكان ذلك في مجال الدِّين، أم في مجال الأعمال – حتى أن وجود دينٍ للدولة في بعض الحالات يزيد كثيراً من المساهمة الدينية فيها (حيث تقدم الحكومات مساعداتٍ سخية، وتمارس أقل قدرٍ من التعيينات في أوساط رجال الدّين)[٢]. أما الأمر الأكثر شيوعاً فهو أن المنافسة بين الطوائف في السوق الدينية الحرة تشجع الابتكارات المصمّمة لإحداث التزامٍ أكبر في تجربة العبادة وعضوية

(١) Putnam and Campbell, American Grace, p. 326.

(٢) Barro and McCleary, 'Which Countries Have State Religions?'.

الكنائس. هذا هو ما جعل الدّين حياً في أميركا[١]. (هذه الفكرة ليست جديدة تماماً. قدّم آدم سميث حجةً مشابهة في كتابه **ثروة الأمم**، الذي قابل فيه ما بين البلدان والكنائس الناجحة التي تسمح بحدوث منافسة فيما بينها)[٢].

هناك مع ذلك شيء ما يتعلق بالإنجيليين في أميركا كان سيلفت نظر ويبر، إن لم يكن سميث، على أنه السبب. ثمة نوع من التوجّه لدى بعض أنجح الطوائف، يساهم في ازدهارها بالتحديد هذه الأيام، وذلك لأنها طورت نوعاً من المسيحية الاستهلاكية التي تقارب عبادة **وال مارت**[٣]. لا يقتصر الأمر على سهولة الوصول إليها بالسيارة وعلى أن مشاهدتها ممتعة - وهي لا تختلف كثيراً عن رحلةٍ إلى مجمعات السينما التي تقدّم المشروبات الغازية فيها، وذلك لأنها لا تتطلب الكثير من المؤمنين المنتسبين إليها، بل على العكس من ذلك، فالمؤمنون هم الذين يقدّمون طلبات إلى الله[٤]، وهكذا تشتمل الصلاة في جايمس ريفر على سلسلةٍ واسعة من الطلبات المقدمة إلى الله بغية حلّ المشاكل الشخصية. إن الله هو الأب، والابن والروح القُدُس قد استُبدل **بالله المحلّل، وعم المعاناة، والمدرّب الشخصي**. يبدو أن أكثر من خُمسَي الأميركيين البيض يبدلان أديانهم في مرحلة معينة في حياتهم، وهكذا أصبح الإيمان متقلباً على نحو لافت[٥].

أما المشكلة الوحيدة في تحويل الدِّين إلى نوعٍ من أنواع وسائل التسلية، فهي أن ذلك يعني أن الأميركيين قد انجرفوا بعيداً جداً عن رؤية ماكس ويبر التي وضعها عن الأخلاقيات البروتستانتية حيث الرجاء المؤجل كان من بديهيات تجميع الرأسمال:

يعمل الزهد البروتستانتي بكل قوته ضد الاستمتاع غير المقيّد بالممتلكات،

(١) Iannaconne, 'Introduction'; Davie, Europe: The Exceptional Case, pp. 43ff. For a popular account, see Micklethwait and Wooldridge, God is Back, esp. p. 175.

(٢) Smith, Wealth of Nations, Book V, ch. I.

(٣) Micklethwait and Wooldridge, God is Back, p. 175.

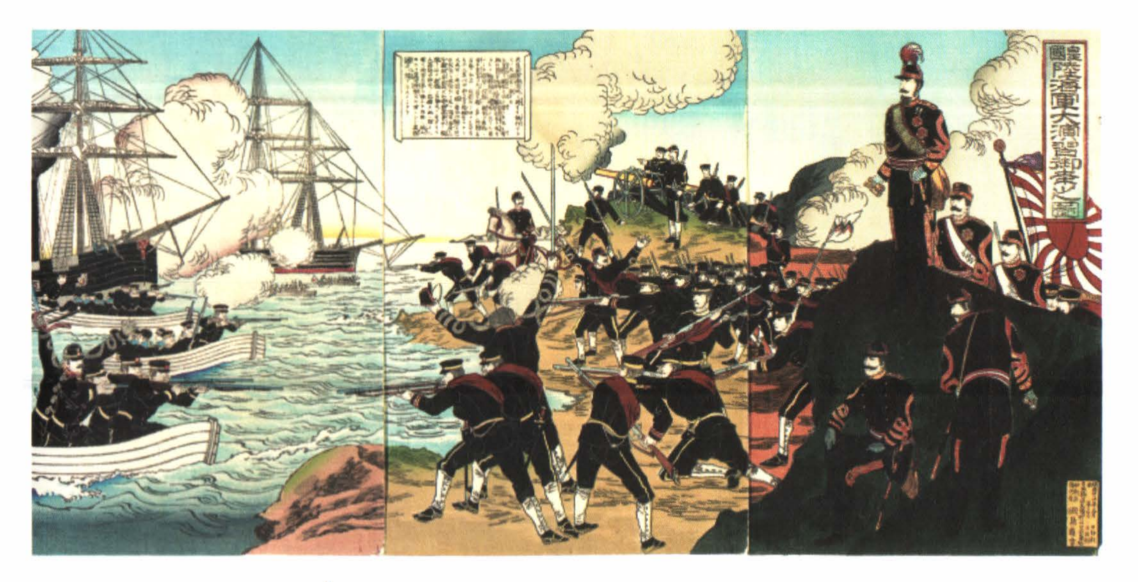
(٤) Zakaria, Future of Freedom, pp. 199ff.

(٥) Putnam and Campbell, American Grace, p. 137.

عالم الأزياء الذي خسرناه: امرأة شابة على ظهر حصان، يورغا [أولان باتور]، منغوليا، ١٩١٣. التقطت هذه الصورة بعدسة ستيفان باسيت لـ«أرشيف الكوكب» الذي جمعه آلبرت خان



أميران في سافيل رو: هيروهيتو وإدوارد



التغيير في مايجي، ١: مراقبة المناورات المشتركة لقوات جيش جلالة الأمبراطور وبحريته، ١٨٩٠

التغيير في مايجي، ٢: سيدات أثناء الخياطة، آداشي جينكو، ١٨٨٧



جايمس دين يطلق جني الجينز
من قمقمه في فيلم العملاق



المتجر الرئيس لشركة
ليفي في لندن في
١٧٤-١٧٦ ريجنت
ستريت

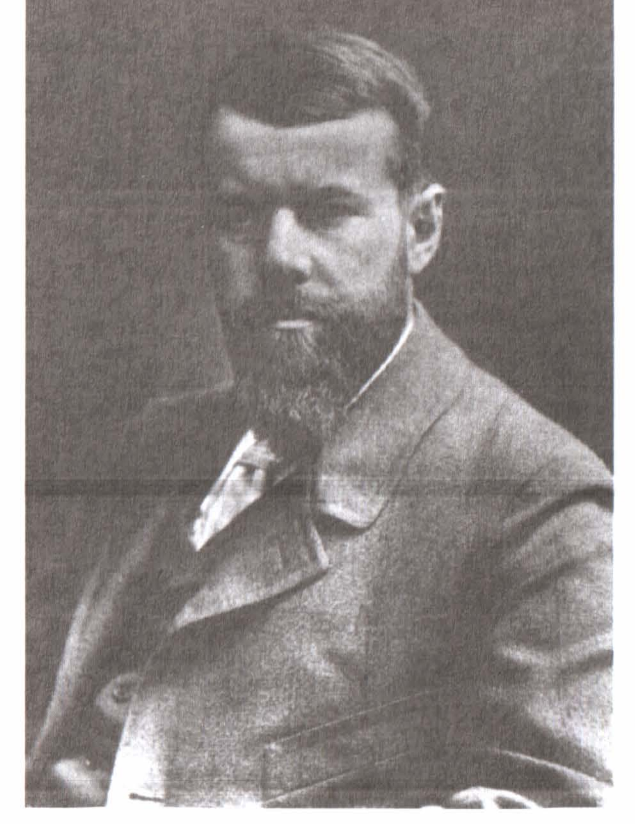
THE PLASTIC PEOPLE . . . PRAGUE .

. EGON BONDY'S HAPPY HEARTS CLUB BANNED .

«إنهم خائفون من الحرية./ إنهم خائفون من الديمقراطية... لماذا إذاً نخاف منهم بحق السماء؟»
بلاستيك بيبول أوف ذي يونيفرس [شعوب العالم البلاستيكية] تهزّ عرش الشيوعية السوفياتية



حجب الرأس على الدمى في إسطنبول



بحثاً عن الأخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية: ماكس ويبر في أميركا

الكورنوكوبيا الأميركية: المعرض العالمي في سانت لويس، ١٩٠٤

وأتت الكلمة The Word [البشارة] إلى وين زهاو: طلاب إرسالية داخل الصين مع أستاذهم، حوالى العام ١٩٠٠

خريطة الخلاص: خريطة الإرسالية الأميركية لجنوب شرقي الصين

مشهد الموت والدمار الناتجين من ثورة تايبينغ



طبع الكتاب المقدس بكمياتٍ كبيرة: شركة نانجينغ لطبع الإنجيل

الثورة الصناعية: الصين هذه الأيام

نهاية الهيمنة الغربية: الرئيس باراك أوباما ينحني أمام رئيس الوزراء الصيني وين جياوباو، تشرين الثاني من العام ٢٠٠٩

كما أنه لا يشجّع على الاستهلاك... أما إذا اجتمع كبح الاستهلاك مع حرية السعي نحو تحقيق الربح فإن النتيجة ستكون في نهاية الأمر تكوين رأسمال عن طريق الزهد الملتزم بالتوفير[1].

لكننا عشنا، في المقابل هذه التجربة: الرأسمالية من دون التوفير. انخفضت نسبة التوفير العائلي في الولايات المتّحدة إلى ما تحت الصفر في ذروة فقاعة المساكن، وذلك لأن العائلات لم تستهلك مداخيلها فحسب، لكنها استخدمت قيَم منازلها. تحوّل الهبوط الملحوظ في التوفير إلى وصفةٍ للأزمة المالية. أما عندما بدأت أسعار المنازل بالهبوط في العام ٢٠٠٦، فلم يتأخر التفاعل التسلسلي عن الانطلاق: توقف أولئك الذين اقترضوا أكثر من قيمة منازلهم عن دفع فوائد رهونهم، أما أولئك الذين استثمروا سندات مالية معتمدة على رهون فقد كابدوا خسائر فادحة؛ فالمصارف التي استدانت مبالغ كبيرة كي تستثمرها في السندات المالية قد عانت في البداية نقصاً في السيولة، والإفلاس بعد ذلك. أرادت الحكومات تجنيب المصارف الإفلاس الجماعي للمصارف لذلك تدخلت بخططٍ إنقاذية. تحولت بعد ذلك أزمة الدُّيون الخاصة إلى أزمة في الدَّين العام. يبلغ مجموع أعباء الدَّين العام والخاص في الولايات المتحدة في هذه الأيام ثلاث مراتٍ ونصف مرة مقدار حجم الناتج الإجمالي المحلي[2].

لم تقتصر هذه الظاهرة على الولايات المتحدة فحسب. بل ترددت هي ذاتها وإن بتنويعاتٍ مختلفة في بلدانٍ أخرى ناطقة بالإنكليزية: إيرلندا، والمملكة المتحدة، وبدرجةٍ أقل أستراليا وكندا. كانت ترددات هندسية لعصر الاستدانة [غير المقيدة]، وذلك مع تكرار المشكلة ذاتها بحجوم متنوعة. حدثت فقاعات أكبر في مجال العقارات في معظم البلدان الأوروبية - بمعنى أن أسعار المنازل قد ارتفعت كثيراً بما يتعدى قدرة المداخيل وأكثر عما هي عليه في الولايات المتحدة. كانت مشكلة الدَّين العام أسوأ بكثير في البرتغال، وإيرلندا، واليونان، وهي الدول التي ارتكبت

(١) Weber, Protestant Ethic, pp. 115, 117.

(٢) For an historically informed account of the crisis, see Ferguson, Ascent of Money.

خطأ الوقوع في عجزٍ مالي كبير في أثناء وجودها في اتحادٍ مالي مع ألمانيا. لكن الأزمة المالية التي حدثت ما بين العامين ٢٠٠٧ و٢٠٠٩، وبالرغم من عالميتها من حيث تأثيراتها، لم تكن عالمية في مصادرها. كانت تلك **أزمة نشأت في العالم الغربي نتيجة الإفراط في الاستهلاك، والإفراط في تسهيل استقراض الأموال.** أما في أماكن أخرى، وعلى الخصوص في آسيا – فكانت الصورة مختلفة تماماً.

يعلم الجميع أن نسب التوفير هي أعلى بكثير في الشرق مما عليه في الغرب: كانت أعباء الديون الخاصة أقلّ بكثير، فالمنازل كانت تُشترى مباشرة في العادة، أو مع رهون صغيرة نسبياً. أدت الصيغ الأخرى للإقراض الاستهلاكي دوراً أصغر بكثير. سبق لنا أن رأينا أن الآسيويين يعملون ساعاتٍ أكثر بكثير في السنة من نظرائهم الغربيين، ويراوح معدل ساعات عملهم ما بين ٢,١٢٠ في تايوان، و٢,٢٤٣ في كوريا الجنوبية. أما الأمر الأكثر غموضاً فهو أن زيادة نسب التوفير والتصنيع في آسيا قد رافقت جنباً إلى جنب أشد النتائج الفرعية للتغريب إدهاشاً: صعود المسيحية في الصين أكثر من أي مكانٍ آخر.

القدس الصينية

يعرف الجميع قصة صعود روح الرأسمالية في الصين. لكن، ماذا بشأن صعود الأخلاقيات البروتستانتية؟ تورد استطلاعات مستقلة أجراها China Partner وEast China Normal University in Shanghai وجود نحو ٤٠ مليون مسيحي بروتستانتي في الصين، وذلك مقارنة بأقلّ من نصف مليون في العام ١٩٤٩. ترفع بعض التقديرات الحدّ الأقصى لهذا العدد حتى ٧٥ أو ١١٠ ملايين[١]. أما إذا أضفنا ٢٠ مليون كاثوليكي، فسوف يرتفع عدد المسيحيين في الصين حتى ١٣٠ مليوناً. ربما يكون عدد الملتزمين من المسيحيين في الصين أكثر من عددهم في أوروبا[٢]. يُذكر

(١) Different estimates in Aikman, Beijing Factor, pp. 7f.

(٢) Bays, 'Chinese Protestant Christianity', p. 182.

كذلك أن سرعة بناء الكنائس في الصين هي أعلى مما هي في أي مكانٍ آخر في العالم، كما تُطبع هناك نسخٌ من الإنجيل هي أكثر مما يُطبع في أي بلدٍ آخر. تُعد شركة نانجينغ آميتي للطباعة أكبر منتجٍ للأناجيل في العالم. أخرجت مطابع هذه الشركة منذ تأسيسها في العام ١٩٨٦ أكثر من ٧٠ مليون نسخة، ويشمل هذا الرقم ٥٠ مليون نسخة بلغة الماندرين واللغات الصينية الأخرى[١]. وربما في غضون ثلاثة عقودٍ من الزمن كذلك سوف يمثل المسيحيون ما بين ٢٠ و٣٠ بالمئة من الصينيين[٢]. تُعد هذه المعلومات مدهشة عندما نتذكّر المقاومة التي لقيها انتشار المسيحية عبر التاريخ الصيني.

إن فشل البروتستانتية في الترسخ في الصين في وقتٍ أبكر أمرٌ يُعد لغزاً بالفعل. وجد المسيحيون النسطوريون في الصين عندما كانت تحت حكم سلالة تانغ في القرن السابع الميلادي. أما أول كنيسة رومانية كاثوليكية فقد شيدت في العام ١٢٩٩ على يد جيوفاني دا مونتيكورفينو، وذلك بعد تعيينه من قِبل رئيس الأساقفة خانباليك في العام ١٣٠٧. أما مع نهاية القرن الرابع عشر فقد اختفت هذه المراكز المسيحية المتقدمة بسبب العدائية التي أظهرتها أسرة مينغ. أتت دفعة ثانية من المرسلين في مطلع القرن السابع عشر، أي عندما مُنح اليسوعي ماتيو ريشي الإذن بالسكن في بيجينغ. ربما يكون عدد المسيحيين في الصين في خلال القرن الثامن عشر قد وصل إلى ٣٠٠,٠٠٠ شخص. شهد العام ١٧٢٤ قمعاً آخر مع ولع الأمبراطور يونغ جينغ بالطرد والمصادرة[٣].

أما الموجة المسيحية الثالثة فتألفت من الإرساليات البروتستانتية في القرن التاسع عشر. يُذكر أن مؤسسات مثل جمعيات الإرساليات البريطانية أقدمت على إرسال مئات الإنجيليين الذين تطوعوا لنقل الأخبار الطيبة إلى أكثر البلدان اكتظاظاً

(١) Aikman, Beijing Factor, pp. 141f.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ص٢٠-٣٤.

بالسكان على وجه الأرض. كان أول الواصلين رجلٌ إنكليزي في الخامسة والعشرين من عمره يُدعى روبرت موريسون، وكان منتمياً إلى جمعية إرساليات لندن وقد وصل إلى كانتون (جوانغزهو) في العام ١٨٠٧. كانت خطوته الأولى، حتى قبل وصوله، هي البدء بتعلّم لغة الماندرين وترجمة الإنجيل إلى الأحرف الصينية. ما إن وصل الرجل إلى كانتون حتى بدأ بوضع معجم لاتيني – صيني. أنهى موريسون في العام ١٨١٤ ترجماته لأعمال الرسل (١٨١٠) وذلك بعد أن أصبح موظفاً في شركة الهند الشرقية، كما أنهى ترجمة إنجيل لوقا في العام ١٨١١، والعهد الجديد في العام ١٨١٣، وسفر التكوين في العام ١٨١٤، وذلك بالإضافة إلى **ملخص مذهب الخلاص الإلهي** (١٨١١)، **وشروحات تعاليم المسيح** (١٨١٢). كان كل ذلك كافياً لإقناع شركة الهند الشرقية بالسماح باستيراد مطبعة مع الميكانيكي لتشغيلها[1]. أما عندما استغنت الشركة في وقتٍ لاحق عن خدماته، وذلك خوفاً من التعرّض لغضب السلطات الصينية، فتابع موريسون مهماته بكل جرأة فانتقل إلى **ملقة** من أجل تأسيس كلية إنكليزية ـ صينية بغية نشر الآداب والعلوم الأوروبية والصينية، لكن السبب الأساس كان نشر المسيحية في أنحاء الأرخبيل الشرقية، كما أنهى ترجماته للإنجيل بمجهود مشترك مع **وليام ميلني** (نُشرت في العام ١٨٢٣)، كما أتم كتاب قواعد الإنكليزية للطلاب الصينيين، وكذلك قاموساً إنكليزياً – صينياً كاملاً. أما في الوقت الذي لحق موريسون بزوجته وولده إلى القبر في كانتون في العام ١٨٣٤، فكان قد أضاف إلى مجموعته كتاب Vocabulary of the Canton Dialect (١٨٢٨). أنجزت أخلاقيات الكلمة البروتستانتية وعدها.

لكن الجهود التي بذلها المرسلون البريطانيون الأوائل فقد رافقتها نتائج غير مقصودة. سعت الحكومة الأمبراطورية إلى حظر المسيحية – تحت طائلة الموت ـ التحويل على أساس أنه يشجع المشاعر الشعبية «إلى درجة قريبة جداً من التسبب بالثورة [هكذا وردت في النص]»:

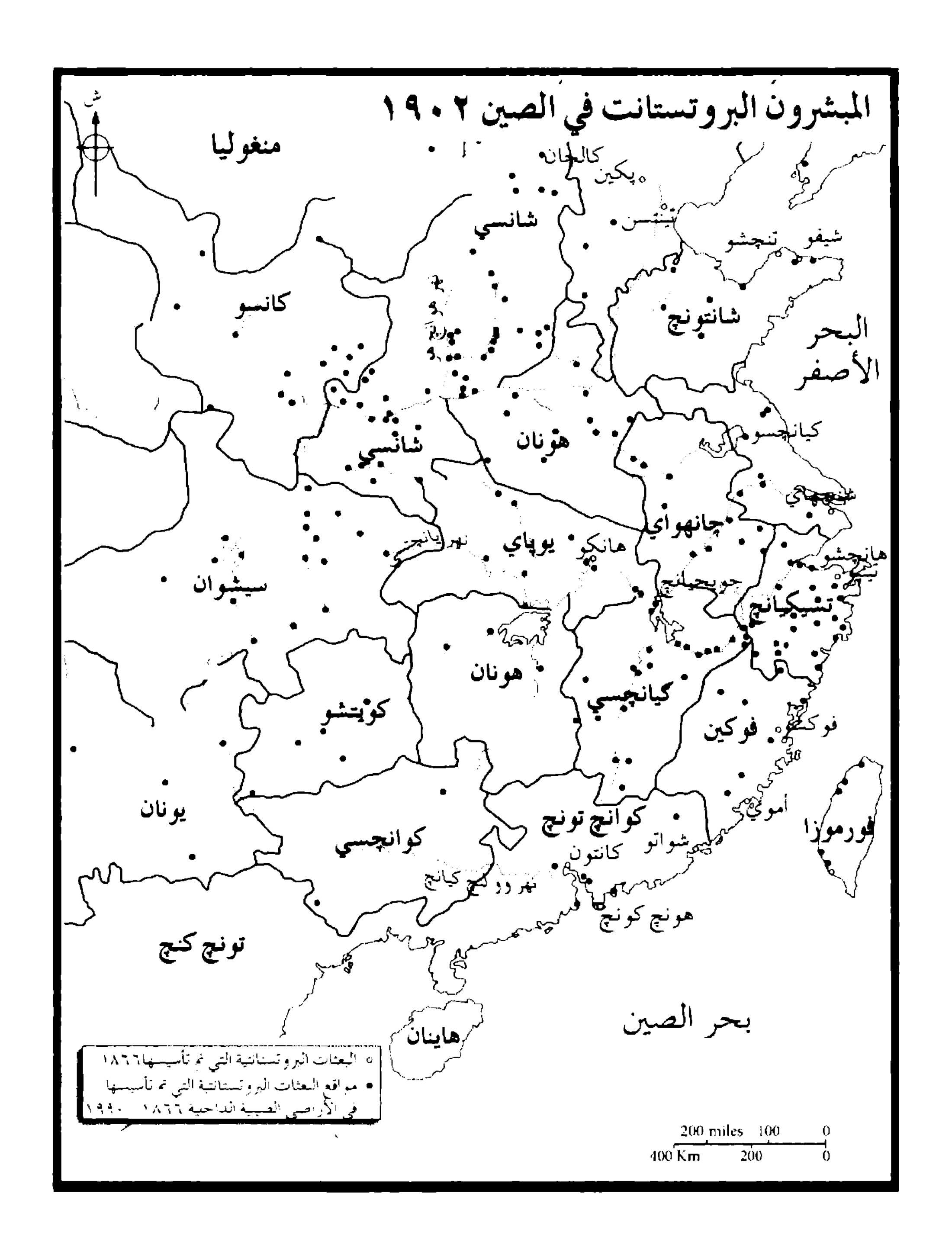
---

(١) Morrison, Memoirs, pp. 77f., 288f.

لا يُمسك الدِّين المعني الناس في حالة من التبجيل، ولا يعطي الأجداد التقدير، والواضح أن هذا الأمر يجري في خطٍ معاكسٍ للمعتقد الصحيح. لكن ما هو الأمر الذي يميّز الناس العاديين الذين يتبعون هذه الأوهام ويأتلفون معها، من المتمردين من عامة الشعب؟[1]

كان ذلك النص توقعياً إلى حدّ كبير. استجاب رجلٌ بالتحديد لهذه الهداية المسيحية بأقصى درجةٍ من التطرف يُمكن للإنسان أن يتخيّلها. أمل هونغ كسياو كوان أن يتبع الطريق التقليدي الذي يوصله إلى وظيفة مدنية في البلاط الأمبراطوري، كما خضع لامتحانات شاقة كانت ستحدد أهلية الرجل للوظائف العامة. لم يلبث هذا الفشل أن تحوّل إلى انهيارٍ تام. التقى هونغ في العام ١٨٣٣ وليام ميلني، الرجل الذي شارك روبرت موريسون في كتابة أول إنجيلٍ صيني. تزامن تأثير ميلني فيه مع خروجه من كآبة نتجت من آخر امتحانٍ خضع له. لم ينتبه هونغ إلى قلق **ميلني** عندما أعلن أنه الشقيق الأصغر ليسوع المسيح. أعلن كذلك أن الله قد أرسله لتخليص الصين من الكونفوشيوسية – تلك الفلسفة التي تدخل أعماق النفس والتي ترى في المنافسة، والتجارة، والتصنيع مجرد مستوردات أجنبية خبيثة. أسّس **هونغ** جمعية عبّاد الله شبه المسيحية، وهي الجمعية التي اجتذبت مساندة عشرات ملايين الصينيين وكانت غالبيتهم من الطبقات الفقيرة، وما لبث أن نصّب نفسه رئيس **مملكة السلام العظيم السماوية**. كان لقبه باللغة الصينية **تايبينغ تيانغو** ومن هنا جاء اسم الثورة التي قادها – ثورة تايبينغ. تحرّك المتمرّدون من جوانكزي نحو نانجينغ، التي جعلها الملك السماوي الذي نصّب نفسه عاصمة له. تمكّن أتباعه في العام ١٨٥٣ – الذين ميّزوا أنفسهم بستراتهم الحمراء، وشعورهم الطويلة، وبإصرارهم على الفصل الصارم بين الجنسين – من السيطرة على وادي يانغ تسي برمته. ووجدت لافتة في غرفة العرش حملت الكلمات الآتية: «جاء الأمر من الله بقتل العدو، وتوحيد كل الجبال والأنهر في مملكة واحدة».

(١) Ibid., pp. 335ff.



المبشرون البروتستانت في الصين ١٩٠٢
ش
منغوليا
كالجان
بكين
شانسي
تينتسن
شيفو
تنجشو
كانسو
شانتونج
البحر
الأصفر
شانسي
هونان
كيانجسو
شنغهاي
تشانهواي
يوباي
هانكو
نهر يانجتز
هانجشو
سيشوان
تشيكيانج
هونان
كيانجسي
كويتشو
فوكين
فوكشو
يونان
أموي
كوانج تونج
فورموزا
كوانجسي
شواتو
كانتون
نهر وو كيانج
هونج كونج
تونج كنج
بحر الصين
هاينان
البعثات البروتستانتية التي تم تأسيسها ١٨٦٦
مواقع البعثات البروتستانتية التي تم تأسيسها
200 miles 100 0
400 Km 200 0

بدا في مرحلةٍ ما أن تايبينغ سوف يتمكّن بالفعل من قلب إمبراطورية جينغ Qing تماماً. لكن المتمرّدين لم يتمكنوا من السيطرة على بيجينغ أو شانغهاي. بدأت الظروف تتحوّل ضدهم ببطء. أقدم جيش جينغ في العام ١٨٦٤ على محاصرة نانجينغ، لكن هونغ سقط ميتاً نتيجة التسمّم الغذائي في وقت سقوط المدينة. أراد جنود جينغ التحقق من موته، فاستخرجوا بقاياه المحروقة، وأطلقوها من خلال فوهة مدفع. لكن سحق آخر الجيوش التابع لتايبينغ تأخر حتى العام ١٨٧١. كانت الكلفة من حيث الأرواح البشرية عالية جداً: أي إنها تجاوزت ضعفي خسائر جميع الدول في الحرب العالمية الأولى. سقط ما بين العامين ١٨٥٠ و١٨٦٤ ما يقدّر بعشرين مليون شخص في مناطق الصين الوسطى والجنوبية في أوج اشتعال الثورة، كما تبعتها المجاعة والأوبئة. استنتج عدد كبير من الصينيين في نهاية القرن التاسع عشر بأن المرسَلين الغربيين يمارسون نفوذاً أجنبياً معرقلاً على بلادهم يشبه تأثير تجار الأفيون الغربيين. عاد المرسَلون البريطانيون إلى الصين بعد ثورة تايبينغ لكنهم واجهوا عدائية مكثفة ضد الأجانب[1].

لكن تلك العدائية لم تثبط عزائمهم. كان جايمس هدسون تايلور في الثانية والعشرين من عمره عندما قام بزيارته الأولى إلى الصين نيابةً عن الجمعية الإنجيلية الصينية. قال تايلور إنه عجز عن تحمّل رؤية تجمعات تضم ألفاً أو ما يزيد على ذلك وهم يحتفلون داخل «مكانهم الآمن [في برايتون] بينما يتعطش الملايين الآخرون إلى المعرفة» وراء البحار. أسّس تايلور إرسالية داخل الصين في العام ١٨٦٥. كانت استراتيجيته المفضلة هي أن يرتدي المرسلون التابعون لإرسالية داخل الصين الأزياء الصينية ويعتمدوا ضفيرة الشعر التي كانت شائعة في حقبة جينغ. حذا تايلور حذو دافيد ليفينغستون في أفريقيا، وقدّم المعتقدات المسيحية والطب الحديث في مركزه الذي أقامه في هانغ زهاو (هانغ شاو)[2]. كان جورج سكوت صياد رجال [باحثاً

(١) Cohen, China and Christianity.

(٢) Taylor, Hudson Taylor, pp. 144f.

عن المؤمنين] تابعاً لإرسالية داخل الصين، وهو الذي وُلد في أبردين، وقد وصل إلى الصين بساقٍ واحدة. كانت إحدى أولى الخطوات التي اتخذها هي فتح متجرٍ لبيع الكتب [مكتبة] مع مكان صلاة مجاور، وهناك كان ينتقد حشداً صاخباً، وكان يستجلب فضولاً يتعدى مجرد التعطش إلى الخلاص. افتتحت زوجته مدرسة داخلية للفتيات[١]. سعى الزوجان مع آخرين إلى كسب المهتدين عن طريق استخدام بدعةٍ إنجيلية جديدة: الكتاب الذي يخلو من الكلمات Wordless Book، وهو كتاب ابتكره تشارلز هادون سبيرجيون وأدخل فيه الألوان الرئيسة لعلم الفلك الصيني الملوّن والتقليدي. تضمنت إحدى النسخ التي ابتكرها الأميركي دوايت ليمان مودي والتي لقيت انتشاراً واسعاً في العام ١٨٧٥، صفحة سوداء تمثّل الخطيئة، وصفحة حمراء تمثّل دماء يسوع، وصفحةً بيضاء تمثّل القداسة، أما الصفحة الذهبية أو الصفراء فتمثلان السماء [الجنة][٢].

أما الخطوة التالية فقد كانت مختلفة تماماً وهي التي أخذها تيموثي ريتشارد، وهو أحد المبشّرين المعمدانيين الذي كان يعمل تحت إشراف الجمعية الإرسالية المعمدانية. رأى ريتشارد أن «الصين تحتاج إلى تعاليم الإنجيل الداعية إلى المحبة والتسامح، كما أنها تحتاج إلى تعاليم الإنجيل من أجل تحقيق التقدم المادي والمعرفة العلمية»[٣]. توجّه ريتشارد بكلامه إلى النخبة الصينية بدلاً من الجموع الفقيرة، وما لبث أن أصبح أميناً لجمعية المعرفة العامة والمسيحية بين الصينيين، وذلك في العام ١٨٩١، كما كان عاملاً مؤثراً وهاماً في حركة كانغ يو وي لتقوية الذات، وكذلك مستشاراً للأمبراطور ذاته. كان ريتشارد هو الذي سعى إلى إنشاء أول جامعة على الطراز الغربي، وذلك في شانغ زي (أو شان سي)، وهي التي فتحت أبوابها في العام ١٩٠٢.

(١) Stott, Twenty-six Years, pp. 26–54.

(٢) Austin, China's Millions, pp. 4–10, 86–90, 167–9.

(٣) Ng, 'Timothy Richard', p. 78.

وجدت في العام ١٨٧٧ ثماني عشرة إرسالية مسيحية مختلفة ناشطة في الصين، وذلك بالإضافة إلى ثلاث جمعيات إنجيلية. نجح تايلور المميز بشكل خاص في كسب مبشّرين جدد، واشتمل ذلك على عددٍ كبيرٍ من النساء العازبات ليس من بريطانيا فحسب لكن من الولايات المتحدة وأستراليا[1]. تنافست الإرساليات البروتستانتية بشراسة وخاضت إرساليتا CIM و BMS حرب نفوذٍ شرسة الواحدة ضد الأخرى في شانغ زي. أما في العام ١٩٠٠، فقد تفجرت مجدداً موجة خوف من الأجانب بلغت ذروتها في ثورة **بوكسر** [الجمعية الصينية السريّة]، وذلك عندما سعت طائفة غريبة تدعى Righteous and Harmonious Fist (yihe quan) إلى طرد كل «الشياطين الأجانب» من البلاد – لكنها رافقت هذه المرة الموافقة الصريحة للأمبراطورة دواجر، لكن لم يتأخر تدخُّل قوى متعدّدة الجنسيات، وقمع حركة البوكسر. قُتل نتيجة لهذا التدخل ثمانية وخمسون مبشّراً تابعاً لجمعية CIM، بالإضافة إلى واحد وعشرين من أبنائهم.

تمكّن المبشّرون [المرسَلون] من غرس بذور عديدة، لكن الظروف العدائية والفوضوية التي فرضت نفسها والتي ظهرت بعد قلب سلالة جينغ في نهاية الأمر، أدت بهذه البذور إلى التبرعم والجفاف. كان مؤسّس أول جمهورية صينية، وهو سون يات سين، مسيحياً من جواندونغ، لكنه مات في العام ١٩٢٤ بينما كانت الصين على شفير حربٍ أهلية. لكن قائد الصينيين الوطنيين شيانغ كاي تشيك وزوجته – وهما مسيحيان ـ [*] خسرا الحرب ضد الشيوعيين في الحرب الأهلية الصينية الطويلة، ولم يجدا أمامهما أي خيارٍ سوى الهرب. قدّم زهاو إينلاي **ووايْ. تي. وو** «إعلاناً مسيحياً» هدف إلى تقليص أوضاع المرسَلين لأسبابٍ عقائدية ووطنية[2]. أما في

(١) Austin, China's Millions, p. 192. See also Steer, J. Hudson Taylor.

(*) تحوّل شيانغ إلى المسيحية في العام ١٩٣٠، بينما كانت زوجته ابنة مليونير ميثودي اسمه تشارلي سوونغ. استخدمت هنا صيغةً أكثر شيوعاً وهي صيغة وايد غايلز لاسمه، وكذلك صيغة سون يات – سين وكذلك لاسم سون يات سين (أما صيغة Pinyin، الأحرف الرومانية للأحرف الصينية فهي جيانغ جيشي وسون يكسيان).

(٢) See in general Kuang-sheng, Antiforeignism.

الفترة ما بين العامين ١٩٥٠ و١٩٥٢ فقد اختارت إرسالية داخل الصين CIM إخلاء العاملين فيها من الجمهورية الشعبية[1]. أُقفلت معظم الكنائس، أو حُوّلت إلى مصانع. بقيت هذه الكنائس مقفلة للسنوات الثلاثين التالية. أما المسيحيون من أمثال **وانغ مينغ داو**، وآلين يوان وموسى زي، الذين رفضوا الانضمام إلى حركة **الذوات الثلاث الوطنية البروتستانتية** التي يسيطر عليها الحزب، فقد تلقوا أحكاماً بالسجن لعشرين سنة أو أكثر[2]. أما الأعوام المؤسفة التي سميّت خطأً **القفزة العظيمة إلى الأمام** (١٩٥٨- ١٩٦٢) – التي كانت في الواقع مجاعةً من صنع الإنسان والتي كلّفت أرواح ٤٥ مليون نسمة[3] – فقد شهدت موجةً جديدة من إقفال الكنائس. كان ذلك ثورة كاملة حدثت في فترة الثورة الثقافية (١٩٦٦- ١٩٧٦) ضد الرموز الدينية. أدّت الثورة كذلك إلى تدمير عدد كبير من المعابد البوذية القديمة. تحوّل **ماو** ذاته، وهو «مسيح الشعب العامل» الذي أصبح محوراً لعبادة الشخص بطريقة لاعقلانية أكثر مما كانت عليه الحال مع هتلر وستالين[4]. أما زوجته اليسارية **جيانغ جينغ** فأعلنت أن المسيحية في الصين أُودعت المتاحف[5].

أما ماكس ويبر وعدد آخر من الخبراء في شؤون الغرب في القرن العشرين، فلم يكن من المفاجئ بالنسبة إليهم أن يلاحظوا أن تحويل الصين إلى البروتستانتية، واستتباعاً عملية التصنيع فيها، هما عملية ضئيلة جداً، وهما بمثل ضآلة احتمال اقتلاع المسيحية من أوروبا. بدا أن الخيار بالنسبة إلى الصين هو خيارٌ صارخٌ ما بين السكون الكونفوشيوسي والفوضى. لكن كل ذلك يجعل التغييرات التي تحدث في وقتنا هذا أكثر إدهاشاً.

(١) Thompson, Reluctant Exodus, esp. pp. 45–50.

(٢) Aikman, Beijing Factor, pp. 53f.

(٣) Diktter, Mao's Great Famine.

(٤) Zuo, 'Political Religion', p. 101.

(٥) Aikman, Beijing Factor, pp. 159, 162, 215.

تقع مدينة **وين زهاو** في مقاطعة **جي جيانغ** في جنوب الصين، وهي مدينة صناعية مثالية. يبلغ عدد سكان هذه المدينة ثمانية ملايين نسمة، وهم يزدادون عدداً، كما أنها تمتلك السمعة الطيبة لكونها أكثر المدن ميلاً إلى المغامرة [في حقل التجارة] في الصين – وهي مكان تتحكّم فيه قواعد السوق، أما دور الدولة فهو في حدّه الأدنى. يُمكن للمواطن الفيكتوري أن يرى مواقع معامل النسيج وأكوام الفحم، وهي التي تُعدّ مانشستر آسيا. أما أخلاقيات العمل فهي تناسب كل الأشخاص بدءاً بأكثر المغامرين [التجاريين] ثراءً إلى أصغر عاملٍ في المصانع. لا يعمل سكان **وين زهاو** ساعاتٍ أكثر من الأميركيين فقط، بل إنهم يوفرون نسبة أكبر من مداخيلهم كذلك. أما في الفترة ما بين ٢٠٠١ و٢٠٠٧، أي في الفترة التي انهارت فيها حسابات الادخار الأميركية، فقد ارتفعت حسابات الادخار الصينية بنسبة تفوق ٤٠ بالمئة من الدخل القومي الإجمالي. توفّر الأسرة الصينية أكثر من خُمس المداخيل التي تجنيها، أما الشركات فهي توفّر نسبةً أكبر من هذه على صورة مداخيل مجمدة.

أما الأمر المدهش فعلياً هنا فهو أن سكان **وين زهاو** استوردوا من الغرب أكثر من مجرد أخلاقيات العمل، وذلك لأنهم استوردوا البروتستانتية كذلك. بدا أن البذور التي زرعها المرسلون البريطانيون قبل ١٥٠ عاماً قد أينعت، وإن بعد وقتٍ متأخر وذلك بأكثر الطرائق غرابة. وصل عدد الكنائس في تلك المدينة إلى ٤٨٠ قبل الثورة الثقافية، لكن عددها وصل هذه الأيام إلى **١,٣٣٩** كنيسة علماً أن هذا العدد يمثّل الكنائس التي وافقت عليها الحكومة فقط. أما الكنيسة التي بناها جورج سكوت قبل ١٠٠ سنة فهي تغصّ بالرواد كل نهار أحد. توجد كنيسة أخرى أسّستها إرسالية إنلاند [داخل البلاد] في العام ١٨٧٧ لكنها أقفلت أبوابها في خلال الثورة الثقافية، ولم يُعد افتتاحها إلا في العام ١٩٨٢، تبلغ رعيتها ١,٢٠٠ شخص. توجد الآن كنائس جديدة وعادة ما تزدان بصلبان مضاءة بالنيون الأحمر. لا يُستغرب، والحالة هذه، أن يُطلق سكان **وين زهاو** عليها اسم القدس الصينية. بلغ عدد المسيحيين من مجمل سكان **وين زهاو** في العام ٢٠٠٢ حوالى ١٤ بالمئة، لكن المؤكد أن نسبتهم ازدادت

كثيراً هذه الأيام. إنها المدينة ذاتها التي أعلنها **ماو** «خالية من الدّين» في العام ١٩٥٨. أما في العام ١٩٩٧ فقد شنّ المسؤولون هناك حملةً من أجل «نزع الصلبان» منها. يبدو في هذه الأيام أن المسؤولين قد كفّوا عن هذه الحملة. أما في الأرياف المحيطة بمدينة وين زهاو، فإن القرى تتنافس في أي برجٍ منها سيكون أعلى من غيره.

إن المسيحية في الصين هذه الأيام هي أبعد ما تكون عن كونها أفيون الشعوب[١]. يوجد من بين أشدّ المؤمنين إخلاصاً في **وين زهاو** أشخاص مغامرون [تجارياً] يسمون أنفسهم **مسيحيي بوس**. تضمّ هذه المجموعة أشخاصاً من أمثال **هانبينج جانغ**، وهو رئيس **آي هاو** (الحرف الصيني الذي يُمكن أن يعني «الحب»، «الطيبة»، أو «الهواية»)، وهو أكبر ثلاثة من صانعي الأقلام في العالم. يُعدّ جانغ مسيحياً ملتزماً، وتجسيداً حياً للرابط ما بين روح المسيحية والأخلاقيات البروتستانتية، الأمر الذي فهمه **ماكس ويبر** جيداً. كان الرجل مزارعاً في البداية قبل أن يفتتح شركةً للبلاستيكيات في العام ١٩٧٩، وما لبث بعد ثماني سنوات أن افتتح أول مصنعٍ للأقلام. يوظّف الرجل هذه الأيام نحو ٥,٠٠٠ عامل ينتجون نحو ٥٠٠ مليون قلمٍ سنوياً. يرى جانغ أن المسيحية ازدهرت في الصين لأنها تقدم هيكلية أخلاقية للأشخاص الذين يكافحون في مرحلة تحوّل اجتماعي سريع من الشيوعية إلى الرأسمالية بشكلٍ مذهل. أخبرني جانغ أن الصين تعاني هذه الأيام نقصاً كبيراً في الثقة، فالمسؤولون الحكوميون عادة ما يكونون فاسدين، كما أن التجار يغشّون بعضهم بعضاً. أما العمال فيسرقون من أرباب عملهم، بينما تعمد الشابات إلى الزواج ليختفين بعد ذلك مع مهورهن المكلفة. يعرف الجميع أن طعام الأطفال يُنتج مع مكوناتٍ مسمّمة. لكن جانغ يشعر بأنه يستطيع أن يثق برفاقه المسيحيين، لأنه يعرف

(١) See Chen and Huang, 'Emergence', pp. 189, 196; Bays, 'Chinese Protestant Christianity', pp. 194–6.

أنهم يعملون بجدٍ وإخلاص[1]. يشبه الأمر ما حدث في أوروبا وأميركا البروتستانتيتين في الأيام الأولى للثورة الصناعية، أي عندما كانت الجماعات الدينية تحمل قِيَماً مضاعفة بوصفها شبكات إقراض، وسلاسل تزويد تتألف من مؤمنين وزملاء أهلاً للثقة والإقراض.

كانت السلطات الصينية في الماضي تشكك كثيراً في المسيحية، ولا يعود ذلك فقط إلى أنها تتذكر الفوضى التي تسببت بها ثورة تايبينغ. أدى الطلاب الجامعيون دوراً هاماً في حركة ساحة تيان آن مين المساندة للديمقراطية. كان اثنان من بين أكبر قادة الطلاب المطلوبين لدى السلطات في صيف العام ١٩٨٩، شخصين تحولا في النهاية إلى رجلي دينٍ مسيحيين. برزت عشية تلك الأزمة حملة أخرى ضد الكنائس غير الرسمية[2]. أما المفارقة هنا فهي أن طوباوية الماوية كوّنت هذه الأيام شهية لا تتمكن سوى المسيحية من إشباعها[3]، وذلك مع وجود قيادةٍ حزبية هي تكنوقراطية أكثر مما هي دينية messianic في توجهاتها. وكما سبق أن حدث في زمن ثورة تايبينغ، فإن بعض الصينيين العصريين يستلهمون المسيحية بغية تبني طوائف غريبة بالتأكيد. أما أعضاء حركة **البرق** lightening الشرقية، التي تنشط في مقاطعات **هينان وهايلونغ جيانغ**، فيعتقدون أن المسيح قد عاد بشخص امرأة. يخوض هؤلاء معارك دامية مع ألدّ خصومهم Three Grades of Servants[4]. ظهرت كذلك حركة شبه مسيحية هي حركة الولادة الثانية [بالإيمان] التي قادها **بيتر كسو**، وهي الحركة التي تُعرف كذلك باسم Total Scope Church، أو الصارخين Shouters وقد اكتسبوا هذه التسمية بسبب طريقة عبادتهم الصاخبة التي تتضمن البكاء الإجباري. رأت السلطات أن هذه الطوائف xiejiao، هي طوائف شرّيرة بالمطلق، أي إنها بمثل وضع

---

(١) Interview with the author, 2010. See also Fenggang, 'Lost in the Market', p. 425.

(٢) Jianbo and Fenggang, 'The Cross Faces the Loudspeakers'.

(٣) Jiwei, Dialectic of the Chinese Revolution, pp. 150ff.

(٤) Simon Elegant, 'The War for China's Soul', Time, 20 August 2006. See also Bays, 'Chinese Protestant Christianity'.

حركة فالون جينغ ممارسة التنفس[1]. لا يصعب على المرء أن يلاحظ سبب تفضيل الحزب إعادة تنشيط الكونفوشيوسية مع تركيزها على احترام الأجيال الأكبر سناً، والتوازن التقليدي الذي يميّز «المجتمع المنسجم»[2]. يُضاف إلى ذلك أن تصاعد ظاهرة ملاحقة المسيحيين في خلال الألعاب الأولمبية للعام ٢٠٠٨، لم يعد مفاجئاً نظراً إلى العدد الكبير الذي تدفق على عاصمة البلاد، وتأثيرهم فيها[3].

وافقت السلطات، حتى عندما كانت البلاد تحت حكم ماو، على وجود نوع من أنواع البروتستانتية الرسمية التي تمثلت بحركة الوطنية ذات الأوجه الثلاثة، وهي الحركة التي ترتكز على مبادئ الحكم الذاتي، والدعم الذاتي، والدفع الذاتي، أي إن هذه الحركة تستبعد أي نفوذٍ أجنبي[4]. أما هذه الأيام فتُعد كنيسة سان بول نموذجاً لكنائس الأوجه الثلاثة الرسمية. تزايدت في تلك الكنيسة رعية القس كان رينبينغ من بضع مئاتٍ عندما تسلّمها في العام ١٩٩٤، لتضم الآن نحو ٥,٠٠٠ من المؤمنين المواظبين. يُضاف إلى ذلك أن المنتمين الجدد يشاهدون الشعائر الدينية في أربعة أماكن عبادة مجاورة عن طريق محطة إرسال دائرة مقفلة. يلاحظ كذلك أنه منذ إصدار الحزب لوثيقته التي حملت الرقم ١٩ في العام ١٩٨٢، مارست السلطات قدراً أكبر من التسامح تجاه حركة «الكنائس البيتية»، وإزاء التجمعات التي تلتئم بنوعٍ من السرّية في المنازل، والتي عادةً ما تتبنى طرائق العبادة الأميركية[5]. أما في

(١) Aikman, Beijing Factor, pp. 73–89.

(٢) Fenggang, 'Cultural Dynamics', p. 49. See also Sheila Melvin, 'Modern Gloss on China's Golden Age', New York Times, 3 September 2007; Timothy Garton Ash, 'Confucius Can Speak to Us Still And Not Just about China', Guardian, 9 April 2009.

(٣) Christian Solidarity Worldwide, China: Persecution of Protestant Christians in the Approach to the Beijing 2008 Olympic Games (June 2008); Bureau of Democracy, Human Rights and Labor, International Religious Freedom Report, 2007 (2007).

(٤) Hunter and Chan, Protestantism in Contemporary China, p. 23. See also Yihua, 'Patriotic Protestants'.

(٥) Simon Elegant, 'The War for China's Soul', Time, 20 August 2006. See also Potter, 'Belief in Control'.

بيجينغ ذاتها فإن المؤمنين يتوافدون إلى كنيسة صهيون التابعة للقس **جين مينجري**، وهي كنيسة غير رسمية تضمّ نحو ٣٥٠ عضواً غالبيتهم من طبقة المهنيين والمغامرين [التجاريين]، ومعظمهم دون الأربعين من العمر. تحوّلت المسيحية إلى موضةٍ دارجة في الصين. يُذكر أن حارس المرمى في مباريات كرة القدم الأوليمبية السابقة، جاو هونغ، هو رجل مسيحي. يُذكر كذلك أن الممثلة التلفزيونية **لو ليبينغ**، ومغني البوب جينغ جون، هما مسيحيان كذلك[١]. أما الآكاديميون الصينيون من أمثال تانج يي، فيتوقعون أن يتمكن «الدّين المسيحي من التغلب أخيراً على الصين، وأن يحوّل الثقافة الصينية إلى ثقافة مسيحية» – وذلك بالرغم من اعتقادهم بوجود احتمالٍ أكبر بأن تستوعب «الثقافة الصينية المسيحية، أي مثل ما جرى مع البوذية... وبأن تصبح ديناً بريئاً يعبّر عن الروح الصيني بحيث يستقر ليكون ديناً شبه ثقافي للأقلية»[٢].

يظهر بعض الزعماء الصينيين الشيوعيين، بعد قدرٍ كبير من التردد، اعترافاً بالمسيحية على أنها أحد أعظم مصادر القوة عند الغرب[٣]. يقول أحد الباحثين من الآكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية:

طُلب إلينا تفحّص الأسباب التي وقفت وراء... بروز الغرب في كل أنحاء العالم... اعتقدنا في البداية أن السبب يعود إلى أنكم تمتلكون مدافع أقوى بكثير من تلك التي نمتلكها نحن. اعتقدنا بعد ذلك أن السبب يعود إلى أنكم تمتلكون أفضل النُظُم السياسية. ركّزنا بعد ذلك على نظامكم الاقتصادي. لكننا أدركنا في خلال السنوات العشرين الماضية أن دينكم، أي المسيحية، هو في قلب ثقافتكم. هذا هو السبب الذي جعل الغرب قوياً إلى هذه الدرجة. إن الأساس الأخلاقي المسيحي للحياة الاجتماعية والثقافية هو الأمر الذي سمح بظهور الرأسمالية، ثم جاء بعد ذلك التحوّل الناجح إلى السياسات الديمقراطية. ليس لدينا أي شك في هذا الأمر[٤].

---

(١) Evan Osnos, 'Jesus in China: Christianity's Rapid Rise', Chicago Tribune, 22 June 2008.

(٢) Hunter and Chan, Protestantism in Contemporary China, p. 6.

(٣) Peng, 'Unreconciled Differences', pp. 162f.; Zhao, 'Recent Progress of Christian Studies'.

(٤) Aikman, Beijing Factor, p. 5.

حدّد آكاديمي آخر، وهو **زهاو كسين بينغ** «الفهم المسيحي للتفوق» على أنه هو الذي أدى «دوراً حاسماً جداً في قبول الناس التعددية في المجتمع والسياسة في الغرب المعاصر»:

إننا لا نستطيع فهم المعنى الحقيقي لمفاهيم مثل الحرية، وحقوق الإنسان، والتحمّل، والمساواة، والعدالة، والديمقراطية، وحكم القانون، والعالمية، وحماية البيئة إلا عندما نتقبل هذا الفهم للتفوق كمعيارٍ لنا[١].

يوافق **يوان جي مينغ**، وهو منتج أفلام شهير على هذا عندما يقول: «إن أهم شيء هو جوهر الحضارة الغربية... هو المسيحيّة»[٢]. يقول الأستاذ الجامعي **زهاو كسياو**، وهو معتنق جديد للمسيحية، إن المسيحية تقدّم للصين «أساساً أخلاقياً مشتركاً» قادراً على تقليص الفساد وتقليص الهوة ما بين الأغنياء والفقراء، وعلى تشجيع أعمال الإحسان، وحتى الحدّ من التلوّث[٣]. وصل الأمر إلى حد أن قال **جيانغ زيمين** أمام حشدٍ من كبار مسؤولي الحزب[٤]، قبل وقتٍ قصير من تنحيه عن منصبَي رئيس الصين والحزب الشيوعي، إنه لو تُرك له إصدار مرسوم واحد يعرف بأنه سوف يُطاع في الصين لكان ذلك المرسوم هو «جعل المسيحية الدِّين الرسمي للصين»[٥]. أما في العام ٢٠٠٧ فإن خليفته **هو جينتاو** عقد «حلقة دراسية» غير مسبوقة للجنة المركزية للحزب الشيوعي عن الدِّين. أبلغ **جينتاو** أقوى خمسة وعشرين زعيماً سياسياً في تلك الحلقة أن «معرفة الأشخاص المتدينين وقوتهم يجب أن تُحشدا من أجل تكوين مجتمع مزدهر». قُدّم تقرير أمام اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني حدّد ثلاثة مطالب ضرورية للنمو الاقتصادي المستمر: حقوق الملكية كأساس، والقانون الضامن، والأخلاقية كسند.

(١) Zhuo, 'Significance of Christianity', p. 258.

(٢) Aikman, Beijing Factor, pp. 245ff.

(٣) Evan Osnos, 'Jesus in China: Christianity's Rapid Rise', Chicago Tribune, 22 June 2008.

(٤) Bao, 'Intellectual Influence of Christianity', p. 274.

(٥) Aikman, Beijing Factor, p. 17.

بلاد اللا إيمان

يجدر أن يبدو هذا الكلام مألوفاً. سبق لنا أن رأينا كيف أنها كانت من بين الركائز الأساسية للحضارة الغربية. أما في السنوات الأخيرة فيبدو أننا فقدنا، نحن في الغرب، إيماننا بها. لا يقتصر الأمر على أن كنائس أوروبا خالية، بل إننا بدأنا التشكيك في قيمة الكثير مما تحقّق في أوروبا بعد عصر الإصلاح. تعرضّت المنافسة الرأسمالية إلى التشكيك بعد أحدث أزمةٍ مالية تعرضت لها، وبعد الجشع المتفشّي لرجال المصارف. أما العلوم فإنها تُدرس على يد عدد قليلٍ جداً من أولادنا في المدارس والجامعات. يُضاف إلى ذلك أن حقوق الملكية تُخرق تكراراً على يد حكومات يبدو أنها مصابة بشهية لا تشبع لفرض ضرائب على مداخيلنا وثرواتنا، وعلى هدر جزءٍ كبير من إيراداتنا. تحولت الأمبراطورية إلى كلمةٍ وسخة، وذلك بالرغم من الفوائد التي أعطاها الإمبرياليون الأوروبيون إلى بقية أنحاء العالم. لكننا نتعرض إلى خطر أن نُترك بين أيدي مجتمع استهلاكي يخلو من المعنى وبين يدي ثقافة النسبية – وهي نهجٌ يقول إن أي نظريةٍ أو وجهة نظر، بغض النظر عن غرابتها، هي صحيحة بقدر ما نؤمن بها.

لم يقل شسترتون، بعكس الاعتقاد الشائع: «إن المشكلة في الإلحاد هي أنه عندما يتوقف الناس عن الاعتقاد بالله فهم لن يؤمنوا بلا شيء. يعني ذلك أنهم سوف يؤمنون بأي شيء». لكن الأب براون يقول شيئاً مشابهاً لهذا في **«المعجزة في القمر الهلال»** ما يلي:

أقسمتم جميعكم على أنكم ماديون متصلبون، أما الواقع فهو أنكم تقفون على شفير معتقد – الاعتقاد بأي شيء تقريباً. يقف ألوف من الناس على هذه الحافة هذه الأيام، لكن الحافة حادة جداً وغير مريحة للبقاء فيها. إنكم لن تستريحوا قبل أن تؤمنوا بشيء[1].

(١) Chesterton, 'Miracle of Moon Crescent', p. 116.

إذا أردنا أن نفهم الفرق ما بين الإيمان والشك فيكفي أن نتأمل في هذه المحادثة التي جرت ما بين **مختار سعيد ابراهيم**، وهو مسلم اكتُشفت خطته لتفجير شبكة النقل في لندن في العام ٢٠٠٥، وبين جارةٍ سابقةٍ له في **ستانمور**، وهي إحدى الضواحي الشمالية لمدينة لندن. وُلد إبراهيم في إرتريا، لكنه هاجر إلى بريطانيا في الرابعة عشرة من عمره. تسلّم مختار جنسية المملكة المتحدة بالرغم من صدور حكم عليه، وسجنه بسبب تورطه في سرقةٍ مسلحة. تقول سارة سكوت: «سألني إن كنت كاثوليكية لأنني من عائلة آيرلندية. قلت له بأنني لا أؤمن بأي شيء، لكنه أجابني بأنه يجدر بي أن أؤمن بشيء ما. قال لي بأنه سوف يحوز كل هؤلاء العذارى عندما ينتقل إلى الجنة إذا ما مجّد الله. قال لي كذلك بأنه إذا صلّى المرء إلى الله، وإذا أخلص له، فإنه سوف يحصل على ثمانين من العذارى، أو على شيء من هذا القبيل». يسهل علينا كثيراً الاستهزاء بهذا المفهوم الذي أصبح شائعاً بين الجهاديين، أي إن هذا هو ما سيحصل عليه المرء إذا ما فجّر الكافرين. لكن أليس الأغرب من هذه الفكرة أن لا نؤمن بشيء على الإطلاق، وذلك على ما قالته سارة سكوت؟ تُعد هذه المحادثة التي أجرتها مع إبراهيم مثيرة لأنها تضيئ بالتحديد على الهوة الحاصلة الآن في أوروبا الغربية ما بين قلة من المتعصبين وغالبية من الملحدين. قالت سكوت بعد إلقاء القبض على جارها السابق: «قال إن الناس يخافون الدِّين في حين أنه يجدر بهم أن لا يخافوا»[١].

إن ما كان يخشاه **شسترتون** هو أنه إذا تراجعت المسيحية في بريطانيا فإن «الخرافات» سوف تُغرق كل عقلانيتكم وتشكيككم القديمين. يغرق الغرب الآن في عقائد ما بعد الحداثة، بدءاً بالعلاج بالأعشاب العطرية، **والزن** [التنوّر من خلال التأمل]، **وفن صون الدراجات النارية**، لكن أياً منها لا يقدم أي شيء، ولو كان ضئيلاً، يعزّز الاقتصاد أو التماسك الاجتماعي مثل ما فعلت الأخلاقيات البروتستانتية.

(١) Craig Whitlock, '2 British Suspects Came from Africa', Washington Post, 27 July 2005.

أما الأسوأ من ذلك فإن هذا الخواء الروحي يترك مجتمعات غرب أوروبا عرضةً لطموحات مؤذية عند قلةٍ من الناس الذين يمتلكون الإيمان الديني – بالإضافة إلى الطموح السياسي بتوسيع قوة ونفوذ دينهم في البلاد التي تبنّوها. يوجد الكثير وراء تصوير الصراع ما بين الإسلام المتطرف والحضارة الغربية على أنه «الجهاد مقابل عالم **ماك** [دونالد]»[1]. أما في الواقع فإن القيم الأساسية للحضارة الغربية مهدّدة بتلك الصيغة من الإسلام التي يعتنقها إرهابيون مثل مختار سعيد إبراهيم، وهي المشتقة من تعاليم الوهابي سيّد جمال الدين التي انتشرت في القرن التاسع عشر، وكذلك على يد قادة الإخوان المسلمين من أمثال حسن البنا وسيد قطب[2]. أما الفصل ما بين الكنيسة والدولة، والنهج العلمي، وحكم القانون، وفكرة المجتمع الحر في ذاتها – بما في ذلك تلك المبادئ الغربية الحديثة نسبياً – مثل المساواة بين الجنسين ومشروعية قوانين الشاذين جنسياً – فهي كلها أمور يرفضها الإسلاميون بكل صراحة.

تتفاوت كثيراً تقديرات أعداد السكان المسلمين في دول غرب أوروبا. يقول أحد التقديرات إن مجموع السكان المسلمين قد ارتفع من نحو ١٠ ملايين شخص في العام ١٩٩٠ إلى ١٧ مليوناً في العام ٢٠١٠[3]. تراوح حجوم الجاليات الإسلامية من أصل مجمل السكان ما بين ٩,٨ بالمئة في فرنسا، وحدّها الأدنى ٠,٢ بالمئة في البرتغال[4]. يبدو أن هذه الأرقام تناقض تحذيرات بعض الباحثين بشأن «أورابيا Eurabia» مستقبلية – وهي القارة التي سوف تتأسلم [تتحوّل إلى الإسلام] في نهاية القرن الواحد والعشرين. استمرت الجالية الإسلامية في المملكة المتحدة في الارتفاع بنسبة سنوية تبلغ ٦/٧ بالمئة (كما كانت الحال بين العامين ٢٠٠٤ و٢٠٠٨)، لكن حصة هذه الجالية من مجمل عدد السكان سترتفع مما دون ٤ بالمئة بقليل في العام

(١) Barber, Jihad vs. McWorld.

(٢) Cox and Marks, The West, Islam and Islamism.

(٣) Pew Forum, Muslim Networks, p. 6.

(٤) Tony Barber, 'Tensions Unveiled', Financial Times, 16 November 2010, p. 9.

٢٠٠٨، إلى ٨ بالمئة في العام ٢٠٢٠، وإلى ١٥ بالمئة في العام ٢٠٣٠، ثم إلى ٢٨ بالمئة في العام ٢٠٤٠، إلى أن تتجاوز في النهاية ٥٠ بالمئة في العام ٢٠٥٠[١].

لا تُعد الهجرة الجماعية [بأعداد كبيرة] خطراً على الحضارة، هذا إذا تبنى المهاجرون، أو إذا شُجّعوا على تبني، قيَم الحضارة التي يهاجرون إليها. لكن في الحالات التي لا تنجح فيها مجتمعات المهاجرين في الذوبان فإنها تصبح معرضة للعقائد المتطرفة، وستكون العواقب مثيرة للاضطراب بشكلٍ واسع[٢]. أما الأمر الهام هنا، فليس الأعداد بحد ذاتها بمثل ما هو المدى الذي نجحت فيه بعض التنظيمات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين العرب، والجماعة الإسلامية الباكستانية، وجامعة العالم الإسلامي التي تمولها السعودية، والمجلس العالمي للشباب المسلم، في اختراق المجتمعات الإسلامية. أما إذا أخذنا بريطانيا كأبرز مثالٍ مثيرٍ للقلق، فإننا سنجد فرعاً ناشطاً للإخوان المسلمين يدعى الاتحاد الإسلامي لبريطانيا، وفرعين للجامعة الإسلامية، والجمعية الإسلامية في بريطانيا وجناحها الشبابي، والشباب المسلم في المملكة المتحدة، وسنجد كذلك منظمة تُدعى حزب التحرير. لا يخفي حزب التحرير نيّته جعل بريطانيا «دولة إسلامية بحلول العام ٢٠٢٠!»[٣] تشتهر منظمة أخرى بتجنيد الإرهابيين وهي القاعدة، والمنظمة التي تمثل خطراً مماثلاً، أي حركة المجاهدين. لا تقتصر هذه الاختراقات على المملكة المتحدة وحدها [*].

توضح لنا قضية **شاه زاد تنوير** المدى الذي وصل إليه خبث عملية التطرف. كان **تنوير** واحداً من الانتحاريين الذين أحدثوا دماراً شديداً في لندن يوم ٧ تموز من

(١) Calculated from figures in the UK Labour Force Survey and the United Nations Population Prospects middle projection. See also 'Muslim Population «Rising 10 Times Faster than Rest of Society» ', The Times, 30 January 2009.

(٢) Caldwell, Reflections.

(٣) Pew Forum, Muslim Networks, pp. 20-56.

(*) تشتمل المنظمات المماثلة في الولايات المتحدة على الجمعية الإسلامية في شمال أميركا ISNA، ومجلس العلاقات الأميركية- الإسلامية CAIR، والجمعية الإسلامية الأميركية MAS. توجد كذلك فروعٌ لجامعة العالم الإسلامي وللمجلس العالمي للشباب المسلم.

العام ٢٠٠٥، عندما فجّر قنبلة في قطار أنفاق **سيركل لاين**، وذلك في مكانٍ ما بين **آلدغايت وليفربول ستريت**. أسفر التفجير عن مقتله مع ستة ركابٍ آخرين. وُلد تنوير في يوركشاير في العام ١٩٨٣، وهو لم يكن فقيراً. كان والده مهاجراً من باكستان، تمكّن من تأسيس شركة طعام جاهز ناجحة، وباع السمك ورقائق البطاطا، كما امتلك سيارة مرسيدس. لم يكن الرّجل جاهلاً، هذا إذا اعتبرنا أن شهادةً في علوم الرياضة من جامعة متروبوليتان ليدز هي دليلٌ على الثقافة. تدلنا هذه الحالة على أن أي قدرٍ من الفرص الاقتصادية، أو التعليمية، أو الترفيهية، يعجز عن منع ابن مهاجرٍ مسلم من التحوّل إلى متعصبٍ أو إرهابي إذا تمكن أناسٌ متعصبون من الوصول إليه. تؤدي الجامعات والمراكز الإسلامية في الأماكن الأخرى دوراً أساسياً في هذا المجال، وهي التي تحوّل بعضها إلى وكالات تجنيد للجهاد. تؤدي هذه المراكز في أحيان كثيرة دور بوابات دخولٍ إلى معسكرات التدريب في بلادٍ مثل باكستان، حيث يتوافد المجندون من بلاد الكفر (اللا إيمان) حيث يُرسل هؤلاء من أجل تعريفهم بصيغٍ أخرى من التعاليم. أما في الفترة ما بين العامين ١٩٩٩ و٢٠٠٩ فإن ما مجموعه ١١٩ شخصاً دينوا بأعمال إرهابية تتعلق بحركاتٍ إسلامية في المملكة المتحدة، وأكثر من ثُلُثي هؤلاء يحملون الجنسية البريطانية. سبق لثُلث هؤلاء المدنيين الالتحاق بمعاهد التعليم العالي، كما أن نسبةً مماثلةً التحقت بمعسكرات تدريب الإرهابيين[1]. ساعد الحظ والإجراءات الفعالة المضادة للإرهاب على إحباط هجمات أخرى كان يعتزم إرهابيون آخرون تنفيذها، وعلى الخصوص تلك الخطة التي أعدتها مجموعة من الشباب المسلم البريطانيين لتفجير قنابل يدوية الصنع في طائرات تطير فوق المحيط الأطلسي، وكذلك محاولة ذلك الرجل النيجيري المولد، والمتخرج في كلية لندن الجامعية، تفجير شحنة تفجيرٍ بلاستيكية كان أخفاها في ملابسه الداخلية في أثناء الرحلة التي قام بها من أمستردام وبعد وقتٍ قصير من اقتراب الطائرة من مطار ديترويت، وذلك يوم عيد الميلاد في العام ٢٠٠٩.

(١) Simcox et al., Islamist Terrorism.

هل وصلنا إلى نهاية العالم؟

تناول غيبون في كتابه **انحطاط وسقوط** Decline and Fall، ما يزيد على ١,٤٠٠ سنة من التاريخ، أي من العام ١٨٠ حتى العام ١٥٩٠. كان ذلك تاريخاً على المدى الطويل، راوحت فيه أسباب الانحطاط ما بين اضطرابات الشخصية للأباطرة أنفسهم وسلطة الحرس البريتوري Praetorian Guard وصعود ظاهرة التوحيد. اندلعت بعد موت **ماركوس أورليوس** في العام ١٨٠، حربٌ أهلية تحولت بعد ذلك إلى مشكلة متكررة الحدوث وذلك مع تنافس الأباطرة الطموحين في المكاسب التي تتيحها القوة المطلقة. تكررت ظاهرة الغزوات أو الهجرات البربرية بحلول القرن الرابع، لكنها لم تتكثف إلا عندما تحركت قبائل الهون غرباً. تزايدت في هذا الوقت التحديات من جانب مملكة فارس الساسانية ضد الأمبراطورية الرومانية الشرقية. يقول غيبون إن المرة الأولى التي انهارت فيها الحضارة الغربية كانت احتراقاً بطيئاً جداً.

لكن، ماذا لو كانت النزاعات السياسية، وهجرات البرابرة، والتنافس داخل الأمبراطورية مكوّنات أساسية لعصرٍ قديم – أي إنها كانت إشارات طبيعية، وبدلاً من أن تكون نُذُراً تدلّ على مصيرٍ بعيد؟ يبدو سقوط روما من هذا المنظار فجائياً ومثيراً. أما الانهيار النهائي للأمبراطورية الرومانية الغربية فقد بدأ في العام ٤٠٦، أي عندما تدفق الغزاة الجرمانيون عبر الراين نحو بلاد الغال [فرنسا] ونحو إيطاليا بعد ذلك. أما روما ذاتها فقد استباحها القوط في العام ٤١٠. استفاد القوط من وجود أمبراطورٍ ضعيف، فحاربوا الفندال من أجل السيطرة على إسبانيا، لكن ذلك أفلح في تحويل المشكلة نحو الجنوب. عمد Genseric إلى مساعدة الفندال على إحراز نصر بعد آخر في شمال أفريقيا، وذلك في الفترة ما بين العامين ٤٢٩ و٤٣٩، وهو الوضع الذي انتهى بسقوط قرطاجة. خسرت روما الإقليم الذي تأخذ منه قمحها في جنوب المتوسط، وخسرت معه مصدراً ضخماً للضرائب. تمكّن الجنود الرومان من إلحاق الهزيمة بقبائل الهون التي تدفقت غرباً من البلقان، وهي التي كانت

تحت قيادة أتيلا، ولكنهم فعلوا ذلك بصعوبة بالغة. خسرت الأمبراطورية الرومانية الغربية كل بريطانيا بحلول العام ٤٥٢، كما خسرت معظم مساحة إسبانيا، وأغنى المقاطعات في شمال أفريقيا، وكذلك جنوب غرب، وجنوب شرق الغال. لم يبقَ من الأمبراطورية الكثير غير إيطاليا. حاول باسيليكوس، وهو صهر الأمبراطور ليو الأول استعادة قرطاجة في العام ٤٦٨، لكنه فشل في ذلك. استمرت بيزنطة مع ذلك، لكن الأمبراطورية الرومانية الغربية انتهت. تحولت روما بحلول العام ٤٦٧ إلى مقاطعة تابعة لملك سكيري Odoacer[١].

أما الأمر الأكثر إدهاشاً في هذه القراءة الأحدث للتاريخ فهو سرعة انهيار الأمبراطورية الرومانية. هبط عدد سكان روما ذاتها بنسبة ثلاثة أرباع. تشير دلائل آثار أواخر القرن الخامس ـ منازل دون المستوى، ومصنوعات فخارية بدائية جداً، وعدد أقل من القطع النقدية، وماشية أصغر حجماً – إلى أن نفوذ روما تضاءل بسرعة في بقية أنحاء أوروبا الغربية. حدث ما دعاه أحد المؤرخين «نهاية الحضارة» في غضون جيلٍ واحد[٢].

أيُحتمل أن تتعرض نسختنا من الحضارة الغربية إلى الانهيار بفجائية مماثلة؟ لا ننكر أن هذا هو خوفٌ قديم بدأ بإقلاق المثقفين البريطانيين بدءاً من شسترتون إلى شو، وذلك منذ أكثر من قرنٍ من الزمن[٣]. أما هذه الأيام فإن ذلك القلق قد اكتسب أساساً أقوى. يتشارك عدد كبير من العلماء في الرأي القائل إن الإنسانية تمر بخطر تغيّرٍ مناخي كارثي، وعلى الخصوص بعد أن تمكّنت الصين وبلدان آسيوية كبيرة، وكذلك دول في جنوب أميركا، من تضييق الفجوة الاقتصادية القائمة ما بين الغرب وبقية أنحاء العالم. حدثت، بالتأكيد، زيادة غير مسبوقة في كمية ثاني أكسيد الكربون في الغلاف الجوي للأرض. يُضاف إلى ذلك وجود دليل على أن هذا الأمر

(١) See Goldsworthy, How Rome Fell; Heather, Fall of the Roman Empire.

(٢) Ward-Perkins, Fall of Rome.

(٣) Chesterton, 'Patriotic Idea', p. 618; Shaw, Back to Methuselah, pp. xv–xvi.

سبّب ارتفاعاً في معدلات درجات الحرارة. لكن الأمر الأقل وضوحاً فهو: كيف يؤثر استمرار هذه الظواهر في طقس الأرض. إن احتمال استمرار عمليات ذوبان مزيد من جليد القطبين أمرٌ لا يُعد خيالياً تماماً، وهو ما سيؤدي إلى تغييراتٍ في اتجاه تيارات المحيطات، أو إلى فيضانات في المناطق الساحلية المنخفضة، أو حتى تصحّر المزيد من المساحات التي بقيت إلى الآن قابلةً للإنتاج الزراعي. يخشى بعض علماء البيئة كذلك، بعيداً عن التغيّر المناخي، أن تمثل الأعداد المتزايدة لسكان البلدان الآسيوية التي تتبع المسار الذي سلكه الغرب للخروج من الفقر ضغطاً لا يُحتمل على الإمدادات العالمية من الطاقة، والغذاء، والمياه العذبة. يجدر بالمتشككين في مخاطر التغيّر المناخي أن يقضوا بعض الوقت في الصين حيث تتسبب أكبر وأسرع ثورة صناعية في التاريخ بأضرارٍ بيئية كبيرة لا يُمكن لأحدٍ إغفالها.

إن معظم الأشخاص الذين يناقشون هذه القضايا، وأنا من بينهم، هم غير مؤهلين من الناحية العلمية للحكم على الأدلة. لكن ما يحملنا على الاعتقاد بفكرة حدوث كارثةٍ بيئية لا يتعلق بالمعطيات بقدر ما يتعلّق بكون هذا التوقع مألوفاً. دُهش الإنسان منذ ظهور أقدم الأساطير والخرافات المدونة بفكرة النهاية المروّعة للعالم، وذلك بدءاً من ملحمة **نايبلنغ** «فجر الآلهة» [الألمانية] وصولاً إلى الكتاب الهام لعلم الآخرة المسيحي، أي **سفر الرؤيا**، وهو الكتاب الذي ألّفه الإنجيلي حنا من Patmos. تورد هذه الصيغة من نهاية العالم أن المسيح، أو الحَمَل الذي أرسله الله، سيعود إلى الأرض ويهزم كل أعداء المسيح في معركة هيرمجدون، وهي المعركة التي ستنتهي بتقييد الشيطان في حفرةٍ لا قعر لها لمدة ألف سنة. أما ذروة هذه الملحمة فتأتي عندما يعود الشيطان من الهاوية ويجمع شعوب هاجوج وماجوج. ستكون هذه إشارة «للأصوات، والرعود، والبروق، و... هزةٍ أرضية كبيرة، لم يشهدها العالم منذ أن كان الإنسان على سطح هذه الأرض» (سفر الرؤيا ١٦: ١٨). أما شهود يهوه والسبتيون [عودة المسيح في اليوم السابع] فيشتركون في ترجمة حرفية لهذه النبوءة، لكنهم ليسوا وحدهم في هذا. يقول عدد كبير من المسيحيين الإنجيليين في الولايات

المتحدة بأنهم يشاركون في الاعتقاد بأننا نقترب من **نهاية العالم**. لكن السؤال الوحيد الذي يطرحه عدد كبير من الناس فهو مَن سيبقى عندما يحين موعد الحصاد. يقول بعضهم إن مرحلة المحنة قد بدأت فعلاً. يُقال أن البوق الأول قد نُفخ فيه يوم ١٤ كانون الأول من العام ٢٠٠٨ وذلك مع بلوغ الأزمة المالية أوجها. أما عندما يُنفخ في الأبواق الثاني والثالث والرابع فإن الولايات المتحدة سوف تنهار كقوة عظمى. أما عندما يُنفخ البوق الخامس فإن الحرب العالمية الثالثة سوف تنطلق من عقالها، وهي التي سوف تقتل مليارات الناس. سيعود يسوع المسيح في آخر يوم من أيام المحنة كي يخلّص نفوس المؤمنين الحقيقيين الأمر الذي توقعه سفر الرؤيا. لم أُفاجأ في أثناء زيارة قمت بها لتلة **مجدو** الجرداء، وهي الموقع المفترض لمعركة هيرمجدون الآتية، عندما التقيت جماعة من الأميركيين اجتمعوا هناك نتيجة إيمانهم بنهاية العالم في الألفية الثانية. إنهم يشبهون في معتقدهم هذا الماركسيين المتعصبين الذين يستمرون في التوق إلى رؤية نهاية الرأسمالية، وهم بذلك يرون أن كل أزمة مالية جديدة هي بداية النهاية، أي إن أولئك الأميركيين يشعرون بإثارة بأن النهاية سوف تأتي في أثناء وجودهم هناك.

إن هذه الفكرة القائلة بأننا محكومون بهذه النهاية – وبأن الهبوط والسقوط هما أمران حتميان، وبأن الأمور لا بد إلا أن تسير نحو الأسوأ فقط – هي فكرة ترتبط بعمق بإحساسنا بالفناء. لكن، بسبب أن الأفراد محكومون بالفناء، لذلك نشعر، غريزياً، بأن الأمر ذاته سيحدث للحضارات التي نعيش فيها. تتحول أجسامنا إلى أعشاب، وبالطريقة ذاتها فإن كل التماثيل المتفاخرة سوف تنتهي إلى الدمار. أما الريح فتمر من خلال كل البقايا الحزينة لإنجازاتنا السابقة.

لكن الأمر الذي نجهد في تقريره فهو كيفية تمكّن عملية الهبوط والسقوط هذه من التكشّف في عالم يحفل بالبنى الاجتماعية والسياسية. هل ستنهار الحضارات بعد صرخةٍ مدوية في ميدان معركة هيرمجدون، أم أنها ستنهار مع نشيج يطول عهده؟ أما الطريقة الوحيدة للإجابة عن هذه السؤال المصيري فهي بالعودةً إلى المبادئ الأولى لتفسير التاريخ ذاته.

خاتمة: المتنافسون

حسناً يا سير [سيّد] أنطوني، وبما أنك تريد هذا، فإننا لن نتطلع نحو الماضي! انتبهوا أيها الشباب. إن تفكيرنا سيتجه نحو المستقبل.

شيريدان

شعر بأنه في وزارة الطاقة الكهربائية في المناطق الملتهبة، وينبغي أن توجد مشواة خاصة تكون مخصصة للإنسان الذي اخترع هذه العروض [عروض الهواة] التي تتعارض مع روح الحضارة الحقيقي.

جاي. بي. ودهاوس

لا توجد صورة أفضل لدورة حياة الحضارات من تلك التي تقدمها لوحات **مسار أمبراطورية**، وهي سلسلة من خمس لوحات رسمها **توماس كول**، وهي معلقةٌ في معرض نيويورك للمجتمع التاريخي. كان كول مؤسساً لمدرسة هدسون ريفر، وواحداً من رواد رسّامي القرن التاسع عشر للمناظر الطبيعية. تمكن كول بطريقة جمالية، من استيعاب، نظرية ما زالت تأسر أذهان معظم الناس حتى يومنا هذا: نظرية دورة الحضارة.

يصور كل مشهد من هذه المناظر الخيالية فوهة نهرٍ عظيم تقبع تحت نتوء

صخري. تصوّر اللوحة الأولى التي أُعطيت عنوان **الحالة المتوحشة** برية خضراء ملأى بمجموعة من الصيادين وجامعي الثمار وهم يتحركون بجهد في وجود بدائي قبل فجرٍ عاصف. أما اللوحة الثانية التي حملت عنوان **الحالة الأركادية** أو **الرعوية**، فتمثل لوحةً زراعية: قطع السكان الأشجار، وزرعوا الحقول، كما شيدوا هيكلاً يونانياً رائعاً. أما اللوحة الثالثة، وهي الأكبر من بين تلك الرسوم، فتحمل عنوان **إتمام أمبراطورية.** أما الآن فإن هذه اللوحة محفوظة داخل مخزنٍ رخامي كبير، بينما استُبدل الفلاسفة – المزارعون المغتبطون الذين تمثّلهم اللوحة السابقة، بحشدٍ من التجار الذين يرتدون ملابس أنيقة، وبحكام وبمواطنين مستهلكين. تمثل هذه اللوحة منتصف نهار دورة الحياة. تأتي بعد ذلك لوحة **الدمار.** تُظهر هذه اللوحة مدينة مغطاة بألسنة اللهب بينما يفرّ المواطنون الهاربون من أمام حشدٍ من الغزاة الذين يرتكبون أعمال الاغتصاب والنهب تحت سماء المساء الكئيبة. يطلع القمر أخيراً فوق لوحة **الخراب. لا** يظهر أي إنسانٍ حي في هذه اللوحة، لكننا نرى بضعة أعمدة، وصفوفاً من الأعمدة وقد علتها الورود الجبلية وشجيرات اللبلاب.

رُسمت تلك اللوحات في منتصف الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. تحمل اللوحات الخمس تلك رسالةً واضحة: إن كل الحضارات، مهما بلغت من العظمة، محكوم عليها بالهبوط والسقوط. أما الإيحاء الواضح هنا فهو أنه من الأفضل لتلك الجمهورية الوليدة في عصر كول أن تلتزم مبادئها الريفية الأولى، وأن تقاوم مغريات التجارة، والفتوحات والاستعمار.

ظل المؤرخون، والمنظّرون السياسيون، وعلماء الأجناس البشرية، والجماهير بشكلٍ عام يفضلون على مدى قرونٍ عديدة التفكير بشأن صعود الحضارات وهبوطها بأشكالٍ دورية وتدريجية. يورد الجزء السادس من الكتاب الذي ألّفه بوليبوس وعنوانه **تواريخ**، وهو الكتاب الذي يروي قصة صعود روما أن عملية الدورة cyclosis السياسية تجري على النحو الآتي:

١- حكم العائلة المالكة

٢- حكم الملك الواحد

٣- الاستبداد

٤- الأرستقراطية

٥- حكم الأقلية

٦- الديمقراطية

٧- حكم الرعاع

عادت هذه الفكرة للظهور في عصر النهضة، أي عند إعادة اكتشاف بوليبوس، كما تضمّنتها كتابات مكيافيلي واستمرت حتى مونتسيكيو[١]. لكن هذه النظرة الدورية ظهرت بشكلٍ منفصلٍ في كتابات المؤرّخ العربي ابن خلدون في القرن الرابع عشر، وكذلك في عهد أسرة مينج الكونفوشيوسية الحديثة[٢]. وصف الفيلسوف الإيطالي جيامباتيستا فيكو في كتابه **العلم الحديث** (١٧٢٥)، جميع الحضارات على أنها تمرّ بدورة ذات مراحل ثلاث: المقدسة، والبطولية، والإنسانية أو العقلانية، وهي المرحلة التي تعود بها إلى المرحلة المقدسة عبر ما سماه فيكو «بربرية الانعكاس». كتب الفيلسوف السياسي الإنكليزي هنري سانت جون، وكان فيكونت بولينغ بروك، في العام ١٩٣٨: «إن أفضل الحكومات الدستورية، مثلها مثل أفضل الأجسام الحيوانية تحمل فيها بذور خرابها: وبالرغم من أنها تنمو وتتحسّن بمرور الوقت إلا أنها سرعان ما تُظهر ميلاً إلى فنائها. إن كل ساعةٍ تعيشها هي ساعة تنقص من عمرها»[٣]. قال آدم سميث في كتابه **ثروة الأمم** الذي كتبه عن التقدم الاقتصادي إن «الوفرة» ستتلاشى أمام «حالة السكون».

(١) Hexter, 'Seyssel, Machiavelli, and Polybius'.

(٢) Goldstone, 'Cultural Orthodoxy', pp. 129f.; Goldstone, Revolution and Rebellion, p. 354.

(٣) Bolingbroke, Patriot King, p. 273.

يتفق المثاليون والماديون على أمرٍ واحد. يعتقد كلّ من هيغل وماركس على السواء أن الديالكتيك [الجدلية] هو الذي أعطى التاريخ نبضه الواضح. كان التاريخ دورياً بالنسبة إلى أوزوالد سبنغلر، وهو مؤرّخ ألماني ألّف كتاب **انحطاط الغرب** (١٩١٨- ١٩٢٢) أورد فيه أن القرن التاسع عشر كان «شتاء الغرب، وانتصار المادية والشك، والاشتراكية، والبرلمانية، والمال». أما كتاب المؤرّخ البريطاني آرنولد توينبي الذي يضمّ اثني عشر جزءاً، **دراسة التاريخ** (١٩٣٦- ١٩٥٤) فقد تحدث عن دورة من التحدي، وردٍ من «الأقليات الخلاقة»، ثم الهبوط – انتحار الحضارات – وذلك عندما يتوقف القادة عن الاستجابة بإبداعٍ كافٍ للتحديات التي يواجهونها. ظهرت نظرية عظيمة أخرى قدّمها عالم الاجتماعٍ الروسي المهاجر بيتريم سوروكين، الذي رأى أن كل الحضارات الهامة مرّت بثلاث مراحل: «تكوين الأفكار» (حيث يكون الواقع روحياً)؛ «حسيّة» (حيث يكون الواقع مادياً)؛ و«مثالية» (وهي مزيج من الحالتين السابقتين)[1]. أما المؤرّخ الأميركي كارول كويغلي فقد علّم طلابه في معهد جورجتاون للخدمات الخارجية (وكان من بينهم شاب أصبح فيما بعد الرئيس بيل كلينتون) أن الحضارات، مثل الإنسان، لها سبعة أعمار: المزج mixture، التطور gestation، التوسع expansion، الصراع، الأمبراطورية العالمية [الشاملة]، الانحطاط، والاجتياح. شرح كويغلي نظرية دورة الحياة بمقطعٍ تقليدي:

إنها عملية تطور... إن كل حضارة تولد... و... تدخل فترة من التوسّع الحيوي، وتزداد في الحجم والسلطة... حتى تظهر، تدريجاً، أزمة في التنظيم. أما عندما تمر الأزمة ويُعاد تنظيم الحضارة... فتضعف إذّاك حيويتها ومعنوياتها. تدخل تلك الحضارة مرحلة الاستقرار والركود. تظهر الأزمات الداخلية بعد عصرٍ ذهبي من السلام والازدهار. يبرز هذه المرة، وللمرة الأولى، ضعفٌ أخلاقي ومادي، الأمر الذي يثير... أسئلة عن قدرة الحضارة على الدفاع عن نفسها ضد أعدائها الخارجيين...

(١) Sorokin, Social and Cultural Dynamics.

يزداد ضعف الحضارة باستمرار إلى أن يُغرقها أعداؤها الخارجيون وتختفي في نهاية الأمر»[١].

يختلف كل نموذج من هذه النماذج عن غيره، لكنها كلها تتشارك في فرضية أن للتاريخ إيقاعه الخاص به.

لكن، بالرغم من قلة مَن يقرأون سبنغلر، وتوينبي، أو سوروكين، هذه الأيام، إلا أن منظِّري المؤامرة ما زالوا يقرأونه بشغف[*] ـ إلا أن خطوطاً مشابهة من هذه الأفكار تظهر بوضوح في أعمال كتابٍ أكثر حداثة. يُعد كتاب بول كينيدي **صعود القوى العظمى وهبوطها** (١٩٨٧) عملاً آخر يتحدث عن التاريخ الدوري، الذي تصعد فيه القوى العظمى وتهبط بحسب نسب النمو لقواعدها الصناعية وكلفة التزاماتها الإمبريالية [الاستعمارية] نسبةً إلى اقتصاداتها. يحمل كل توسّع استعماري بذور الانحطاط في المستقبل، الأمر الذي تحدّث عنه في كتابه **مسار أمبراطورية**. كتب كينيدي في كتابه: «إذا أقدمت دولة ما على توسيع حدودها استراتيجياً... فإنها تخاطر بأن تزيد نفقاتها الكبيرة على المنافع المحتملة الناتجة من توسّعها الخارجي»[٢]. رأى كينيدي كذلك أن ظاهرة «التوسّع الإمبريالي» مشتركة بين كل القوى العظمى. شعر عدد كبير من الناس في الولايات المتّحدة عند نشر الكتاب بخوفٍ مماثل من خضوع بلادهم للمرض ذاته.

تمكّن عالِم الإنسانيات يارد دياموند منذ وقتٍ قريب من الاستحواذ على

(١) Quigley, Tragedy and Hope, pp. 3f. See also Quigley, Evolution of Civilizations.

(*) نسبَ كويغلي في كتابه المأساة والأمل (١٩٦٦) إلى «جمعية سرية» آنكلو ـ أميركية يُزعم بأنها أُسِّست على يد سيسيل رودس، وألفريد ميلنر، والصحفي وليام. تي. ستيد، وهي جمعية التزمت «بتوسيع الأمبراطورية البريطانية»، وتحويلها إلى فيدرالية. زعم كويغلي أن «جماعة رودس ـ ميلنر» وحلفاءها من أعضاء طاولتها المستديرة، هي المسؤولة عن حرب البوير، وإضعاف معاهدة فرساي، وعن استرضاء ألمانيا النازية. أما بعد موت ميلنر في العام ١٩٢٥، فإن هذه الجماعة استمرت في ممارسة نفوذٍ خبيثٍ عن طريق رودس ترست، والمعهد الملكي للقضايا الدولية (كاثهام هاوس) ومجلس العلاقات الخارجية في نيويورك. بالغَ كويغلي بمقدار سرية نشاطات ميلنر ونجاحاته.

(٢) Kennedy, Rise and Fall, p. xvi.

خيال الناس بنظريته العظيمة عن الصعود والهبوط. كان كتابه **الانهيار: كيف تختار المجتمعات الفشل أو النجاح** (٢٠٠٥)، تاريخاً دورياً للعصر الأخضر: قصص المجتمعات بدءاً من جزيرة إيستر في القرن السابع عشر، إلى الصين في القرن الواحد والعشرين، وهي المجتمعات التي غامرت، أو أنها تغامر الآن، بتدمير نفسها عندما دمرت بيئاتها الطبيعية. اقتبس دياموند من كلام جون لويد ستيفنس، وهو مستكشف وعالم آثار أميركي هاوٍ اكتشف مدن المايا المكسيكية القابعة في الخراب: «تقبع هنا بقايا أناسٍ متحضّرين ولطفاء وفريدين في نوعهم، وهم الذين مرّوا بكل المراحل التي سبقت صعود الأمم وهبوطها، ووصلت إلى عصرها الذهبي ثم هلكت»[1]. يقول دياموند إن شعب المايا وقع في مصيدة مالتوسية كلاسيكية، وذلك عندما تزايدت أعداد الناس بشكل يفوق قدرة نظامهم الزراعي الهش وغير الكافي على إطعامهم. دفع وجود أناسٍ أكثر إلى توسيع الزراعة، لكن التوسع في الزراعة استلزم قطع أشجار الغابات، وتفتيت الصخور، والجفاف، وإنهاك التربة. أدت كل هذه العوامل إلى الحرب الأهلية والصراع على الموارد المتقلصة، وإلى الانهيار في آخر الأمر.

أما قصد دياموند الحقيقي فهو أن العالم يسير هذه الأيام على طريق المايا[2]. لكن النقطة الأساسية هنا فهي أن الانتحار البيئي هو عملية بطيئة تستغرق وقتاً طويلاً. لكن مما يؤسف له هو أن القادة السياسيين في أي مجتمع تقريباً – سواء أكان بدائياً أم متطوراً – لا يشعرون بحافزٍ كافٍ لمواجهة المشاكل التي يُستبعد ظهورها حتى بعد مئة سنة أو أكثر. أوضح مؤتمر الأمم المتحدة حول التغيّر المناخي الذي عُقد في كوبنهاغن في العام ٢٠٠٩ أن الالتماسات البلاغية «للإبقاء على الكوكب» من أجل الأجيال المقبلة، لم تكن كافية للتغلب على النزاعات الناشبة حول التوزيع الاقتصادي ما بين البلدان الغنّية والفقيرة، وهي الصراعات التي تنشب بين حينٍ وآخر. إننا نحب أحفادنا لكن يصعب علينا تصوّر علاقتنا مع أحفاد أحفادنا.

(١) Diamond, Collapse, p. 158.

(٢) For an interesting critique, see Joseph A. Tainter's review in Current Anthropology, 46 (December 2005).

بالرغم من كل ذلك، ربما تكون هذه البنية المفاهيمية خاطئة في واقع الحال. ربما تكون كذلك رسوم **كول** الفنية لدورة الحضارات العظمى من الولادة إلى النمو ثم إلى الموت الحتمي تصويراً خاطئاً للعملية التاريخية. ماذا لو لم يكن التاريخ دورياً [أي سائراً بحسب دورات] وبطيء الحركة، لكنه ليس إيقاعياً – حتى أنه يكون في بعض الأحيان ساكناً، وقادراً مع ذلك على التسارع العنيف؟ وماذا لو كان الزمن التاريخي لا يشبه إلا قليلاً التغيّر البطيء والقابل لتوقع الفصول، وأكثر شبهاً بالزمن **المطاطي** لأحلامنا؟ أما الأهمّ من ذلك كله فهو ماذا سيحدث إذا كانت عملية الانهيار لا تستغرق قروناً من الزمن، لكنه يضرب الحضارة على حين غرة، أي مثلما يأتي اللص في الليل؟

إن الحضارات، كما جهدت في إظهاره في هذا الكتاب، هي أنظمة معقّدة، تتألف من عددٍ كبيرٍ جداً من المكونات المنظمة المتفاعلة غير المتماثلة، وهي بذلك تشبه كثيراً بتكوينها مستعمرات النمل الأبيض النامبيبة أكثر من شبهها الأهرام المصرية. تعمل الحضارات بطريقةٍ وسط ما بين النظام واللا نظام – أي «على حافة الفوضى»، وذلك حسبما قاله عالِم الكمبيوتر كريستوفر لانغتون. تبدو أنظمة كهذه وكأنها تعمل بثباتٍ تام لبعض الوقت، وبتوازنٍ تام في الظاهر، لكنها في الحقيقة لا تكف عن التكيّف. لكن تمر لحظة عندما تصبح أوضاعها «حرجة». لكن قدراً من الاضطراب يكفي لإطلاق «تحوّلٍ مرحلي» من التوازن البريء إلى الأزمة – تتمكن ذرةٌ واحدة من الرمال من زعزعة قلعة الرمال المنيعة في الظاهر، وذلك قبل أن تنهار متكومة على نفسها.

أما إذا أردنا أن نفهم هذا التعقيد فربما سيكون من المفيد أن نتفحّص كيفية استخدام العلماء الطبيعين لذلك المفهوم[١]. يمكننا التفكير في التنظيم الذاتي العفوي الذي يستخدمه نصف مليون نملة بيضاء، الأمر الذي يسمح لها بإنشاء رابيةٍ معقدة، أو التفكير في هندسة الأنماط المتكررة لرقائق الثلج التي تشكلها جزيئات المياه، والتي تتصف بتنويعاتٍ غريبة للتماثل السداسي. أما الذكاء الإنساني ذاته

(١) For an introduction see Mitchell, Complexity.

فهو نظام معقد، وهو نتاج تفاعل مليارات الخلايا العصبية داخل الجهاز العصبي المركزي – وهو ما سمّاه عالِم الأعصاب تشارلز شيرينغتون «المنوال الفاتن». إن جهازنا المناعي هو جهازٌ معقدٌ بدوره حيث تقوم الأجسام المضادة بحشد نفسها من أجل شن حربٍ دفاعية ضد المستضدات الغريبة. تتشارك كل الأنظمة المعقدة في العالم الطبيعي في خصائص معينة. يُمكن لأي مُدخَلٍ صغير إلى نظام كهذا التسبب بتغيّرات كبيرة وعادة ما تكون غير متوقعة، وهي التي يُطلق عليها العلماء «التأثير المضخّم»[1]. أما العلاقات السطحية فعادةً ما تكون لا خطية، ما يعني أن طرائق التعميم التقليدية من المشاهدات (مثل تحليل اتجاهات الرأي وأخذ النماذج) لا تفيد كثيراً. يعمد بعض المنظرين في واقع الأمر إلى الذهاب أبعد من ذلك ليقولوا إن بعض الأنظمة المعقّدة غير قابلة للتوقع بالمرة، أي إنه من شبه المستحيل استخلاص توقعات حول سلوكها المستقبلي استناداً إلى معطياتٍ سابقة. لا يوجد ما يدعى حريق الغابة النموذجي أو الوسطي، على سبيل المثال. أما إذا أردنا استخدام لغة الفيزياء [الطبيعيات] الحديثة فيمكننا القول إن الغابة المعرّضة للنيران هي في حالة «الحرج المنظمة ذاتياً»؛ أي إنها تترجح على شفير الانهيار، لكن حجم الانهيار يبقى غير معروف، وذلك لأن توزيع حرائق الغابات بحسب الحجم لا يتبع قوساً جرسياً مألوفاً، وذلك مع تجمّع معظم النيران حول قيمةٍ وسطية، أي بالطريقة ذاتها التي تتجمع فيها معظم مقاسات الطول عند الرجال حول خمس أقدام وتسع بوصات. أما إذا رسمنا حجم النيران مقابل تكرارية حدوثها فإننا سوف نحصل على خطٍ مستقيم. هل سيكون الحريق التالي صغيراً أم ضخماً، أي مجرد نارٍ مشتعلة أم حريقاً كبيراً؟ إن أقصى ما نستطيع قوله هو أن حريق الغابة الذي هو ضعف الحريق الذي شبّ في السنة الماضية تقلّ احتمالات نشوبه هذه السنة بأربع (أو ست، أو ثماني) مرات، ويعتمد ذلك على الغابة. إن نمطاً من هذا النوع – وهو ما يُعرف باسم توزيع power law – أمرٌ شائعٌ تماماً في العالم الطبيعي. يُمكن لنا مشاهدة هذا النمط ليس

(١) Ibid., p. 5. See also Holland, Emergence.

عند حرائق الغابات فحسب، لكننا نراه كذلك عند الهزّات الأرضية والأوبئة، إلا أن شدة انحدار الخط هي التي تتغيّر[١].

تتشارك البُنى السياسية والاقتصادية التي يصنعها الإنسان في سمات الأنظمة المعقّدة. دأب الاقتصاديون الابتداعيون، من أمثال دبليو بريان آرثر، في الجدال بشأن هذه المواضيع منذ عقودٍ من الزمن، حتى أنهم تجاوزوا مفهوم آدم سميث الذي يتحدث عن «يدٍ غير منظورة»، يبدو أنها توجّه الأفراد الذين يحبون تكديس الأرباح وتعزيزها؛ أو حتى نقد فردريك فون هايك بشأن التخطيط الاقتصادي وإدارة الطلب[٢]. يرى آرثر أن الاقتصاد المعقّد يتميّز بالتفاعل ما بين عوامل مبعثرة، وكذلك افتقاد أي تحكم مركزي فيه، وتعدد مستويات التنظيم، والتكيّف المستمر، والتكوين المستمر لمنافذ أسواقٍ جديدة، وذلك من دون وجود توازنٍ عام. إن زيادة العوائد أمرٌ ممكن جداً في الاقتصاد المعقد، أي على عكس ما يجري مع التوقعات الأساسية للاقتصادات الكلاسيكية. يمكننا، على هذا الأساس، النظر إلى وادي سيليكون بوصفه اقتصاد معقداً من حيث حركته، ويصدق الأمر ذاته على الإنترنت. أما الأزمة المالية التي بدأت في العام ٢٠٠٧، فيمكننا تفسيرها بعباراتٍ مشابهة. قال نسيم طالب إن الاقتصاداً العالمي وصل في ربيع العام ٢٠٠٧ إلى حالة شبيهة بشبكة كهربائية فائقة التعقيد. إن تلك الاندفاعة الصغيرة نسبياً التي مثّلتها عمليات التخلف عن الدفع للرهون شبه الممتازة subprime في الولايات المتحدة، كانت كافية لدفع الاقتصاد العالمي برمّته إلى ما يشبه «انقطاع التيار» الاقتصادي، مما هدّد بإحداث انهيارٍ تام في التجارة العالمية[٣]. أما الباحثون في معهد سانتا في فيبحثون حالياً عن كيفية تطبيق هذه المعطيات على الأوجه الأخرى للأنشطة البشرية الجماعية، بما في ذلك «ما بعد التاريخ»[٤].

(١) Buchanan, Ubiquity.

(٢) Waldrop, Complexity.

(٣) Taleb, 'Fourth Quadrant'.

(٤) Krakauer et al. (eds.), History, Big History and Metahistory. Cf. Holland, Hidden Order.

إن كل هذا هو أقلّ باطنية مما يبدو عليه، وذلك لأن الحروب أقل توزعاً حتى من الأزمات المالية. عمد عالِم الطبيعيات والأرصاد الجوية لويس فراي ريتشاردسون(*) إلى تجميع «النزاعات المميتة» بدءاً بالجرائم حتى الحروب الجماعية، وذلك بحسب حجومها مستخدماً في ذلك **لوغاريثم الأساس ١٠** لمجمل أعداد الوفيات. يأخذ العمل الإرهابي الذي يقتل ١٠٠ شخص، من هذا المنطلق، مقدار ٢، بينما تأخذ الحرب التي تقضي على مليون ضحية مقدار نزاع ٦. (لاحِظ هنا أن الحرب التي هي بمقدار ٦ ± ٠,٥ (أي ٥,٥ إلى ٦,٥) يُمكن أن تتسبب بموت عدد يراوح ما بين ٣١٦,٢٢٨ و٣,١٦٢,٢٧٨ نسمة). أما إذا أخذنا الفترة ما بين ١٨١٥ و١٩٤٥، فإن ريتشاردسون جَمع ما يزيد على ٣٠٠ نزاع من مقدار ٢,٥ أو أكثر (يعني ذلك أن هذه الحروب كانت مسؤولة عن أكثر من ٣٠٠ قتيل). تسببت الحروب من مقدار ٧ (الحربان العالميتان) بمقتل ما لا يقل عن ٣٦ مليون نسمة (٦٠ بالمئة من المجموع)، لكن مع استبعاد ضحايا المجاعات أو الأوبئة التي لها علاقة بالحروب، وكذلك مع استبعاد ملايين حوادث القتل من مقدار (التي نتج منها ضحية أو اثنان أو ثلاث) وهي التي قتلت ٩,٧ ملايين نسمة (١٦ بالمئة). تبدو هذه المعطيات للوهلة الأولى عشوائية تماماً لكنها تتبع، بدورها، power law[(١)].

إذا لم تكن الحروب قابلة للتوقع مثل ما هي إمكانية حدوث حرائق الغابات، فإن عواقب أي نظرية تتعلق بصعود الحضارات وهبوطها ستكون كبيرةً جداً، هذا بالنظر إلى الدور العفوي الواضح الذي تؤديه الحروب في صعود المؤسسات الاجتماعية

(*) وُلد ريتشاردسون في يوركشاير، وكان من جماعة الكويكرز [الأصدقاء]، كما كان معارضاً ناشطاً في خلال الحرب العالمية الأولى (بالرغم من أنه قاد سيارات إسعاف في الجبهة الغربية) وكان مدافعاً عن لغة الإسبيرانتو. شعر ريتشاردسون بإحباط عندما لم يجد دليلاً على أي ميل تجاه خوض حروب أقل، كما أنه لم يجد أي مؤشر إحصائي قوي نحو مكان وقوع الحرب التالية أو متى، وذلك ما عدا علاقتين ضعيفتين نسبياً: تشيع الحروب أكثر بين الدول المتجاورة، وكذلك هي أكثر احتمالاً بين الدول التي تتبع أدياناً مختلفة.

(١) Richardson, Statistics of Deadly Quarrels. For a modern review, see Hayes, 'Statistics of Deadly Quarrels' and the discussion in Pinker, Better Angels.

المعقدة وهبوطها. نلاحظ كذلك أنه مهما كان دور السلطة المركزية ضئيلاً فإنه يُعدّ، عملياً، شبكةً متكيفة للعلاقات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية الحيوية. ليس مفاجئاً، والحالة هذه أن تظهر الحضارات من كل الأشكال والحجوم عدداً كبيراً من سمات الأنظمة المعقّدة في العالم الطبيعي - بما في ذلك النزعة للتحرك فجأة من الاستقرار إلى عدم الاستقرار.

سبق لنا أن رأينا في الفصل الأخير أن الحضارة الغربية في ظهورها الأول - الأمبراطورية الرومانية - لم تصعد وتهبط بشكلٍ هادئ. انهارت هذه الحضارة في غضون جيلٍ واحد، ووقفت على شفير الفوضى على يد الغزاة البرابرة في مطلع القرن الخامس. تحدث هذا الكتاب عن انهيارات سريعة مماثلة. كان الآنكا في العام ١٥٣٠ متحصنين بقوة في مدنهم المنعزلة في جبال الأنديز. لكن الغزاة الأجانب تمكّنوا في غضون أقل من عقدٍ من الزمن، وبمساعدة خيولهم، والبارود، والأمراض القاتلة، من اقتحام أمبراطوريتهم وتشتيتها. أما حكم سلالة مينج في الصين فقد تلاشى هو الآخر بسرعة مذهلة في منتصف القرن السابع عشر. حدث الانتقال من حالة التوازن إلى حالة الفوضى في فترة تزيد قليلاً على عقدٍ من الزمن. مرت أسرة بوربون المالكة في فرنسا، بطريقة مشابهةٍ جداً، من حالة النصر إلى حالة الإرهاب بسرعةٍ مذهلة. أما التدخل الفرنسي إلى جانب المتمردين ضد الحكم البريطاني الاستعماري في أميركا الشمالية في السبعينيات من القرن الثامن عشر فقد بدا فكرة جيدة في ذلك الوقت، لكن الأمر أسفر عن إحداث ضغطٍ خطيرٍ على المالية الفرنسية ووضعها في موقفٍ حرج. لكن استدعاء Estate General في شهر أيار من العام ١٧٨٩ قد أطلق سلسلة تفاعلية سياسية، وأدى إلى انهيار الشرعية الملكية بسرعة شديدة بعد أربع سنوات من قطع رأس الملك بالمقصلة، وهي جهاز ابتُكر في العام ١٧٩١. أما في زمن حركة **الشباب الأتراك**، التي تسلّمت السلطة في العام ١٩٠٨، فقد بقيت الأمبراطورية العثمانية قادرة على إصلاح نفسها. لكن هذه الأمبراطورية اختفت بحلول العام ١٩٢٢، أي عند مغادرة آخر سلاطين الأمبراطورية العثمانية على

متن سفينة حربية بريطانية. أما أمبراطورية اليابان فقد وصلت إلى أوج توسعها في العام ١٩٤٢، وذلك بعد بيرل هاربور، لكنها اختفت بدورها في العام ١٩٤٥.

غربت الشمس عن الأمبراطورية البريطانية غروباً فجائياً مماثلاً. احتلّ رئيس الوزراء ونستون تشرشل مسرح العالم في شهر شباط من العام ١٩٤٥، وذلك بوصفه واحداً من «الثلاثة الكبار» الذين قرّروا مصائر الأمم في يالطا، وذلك بالاشتراك مع الرئيس الأميركي فرنكلين روزفلت والزعيم السوفياتي جوزف ستالين. لكن ما إن انتهت الحرب حتى خسر منصبه. أعطت المملكة المتحدة في خلال اثني عشر عاماً الاستقلال إلى بورما، ومصر، وغانا، والهند، وإسرائيل، والأردن، والملايو، وباكستان، وسيلان، والسودان. أما أزمة السويس التي حدثت في العام ١٩٥٦ فقد برهنت أن المملكة المتحدة لا تستطيع التصرف بشكل مغاير لموقف الولايات المتّحدة في الشرق الأوسط، مما أسدل الستار الأخير على الأمبراطورية. وبالرغم من انتظار هارولد ماكميلان حتى الستينيات من القرن العشرين كي يُطلق «رياح التغيير» التي سحبته من مناطق جنوب الصحراء الأفريقية، ومما تبقى من مناطقه الاستعمارية شرق قناة السويس، إلا أن عصر سيطرة المملكة المتحدة قد انتهى فعلياً في غضون أقل من اثنتي عشرة سنة بعد انتصاراتها على ألمانيا واليابان.

أما أحدث مثال مألوفٍ على الانحدار الشديد فهو، بطبيعة الحال، انهيار الاتحاد السوفياتي. استفاد المؤرّخون من تجارب الماضي، وتتبعوا كل أنواع الفساد داخل النظام السوفياتي منذ عهد بريجينيف وما قبله. تقول إحدى الروايات التي صدرت حديثاً إن شيئاً لم يمنع حدوث هيرمجدون سوى أسعار البترول المرتفعة في السبعينيات من القرن الماضي[١]. لم يكن كل هذا واضحاً في ذلك الوقت. أما في شهر آذار من العام ١٩٨٥، أي عندما أصبح غورباتشيف الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي، فقد أقدمت وكالة الاستخبارات المركزية (خطأ) على تقدير حجم الاقتصاد السوفياتي بنسبة ٦٠ بالمئة من الاقتصاد الأميركي. كانت مخزونات

(١) Kotkin, Armageddon Averted.

الأسلحة النووية السوفياتية أكبر بكثير من المخزونات الأميركية من الأسلحة المماثلة. أما حكومات ما كان يسمّى العالم الثالث، بدءاً بفييتنام حتى نيكاراغوا فقد تحولت إلى جانب السوفيات معظم فترة السنوات العشرين المنصرمة. لكن بعد أقل من خمس سنوات على تولي غورباتشيف السلطة اختفت السيطرة السوفياتية في أوروبا الوسطى والشرقية، وما لبث أن تبع ذلك سقوط الاتحاد السوفياتي نفسه في العام ١٩٩١. وإذا كان لنا أن نعثر على أمبراطورية سقطت عن مرتفع صخري عالٍ بدلاً من سقوطها بهدوء فلن نجد مثالاً أفضل من الأمبراطورية التي أسّسها لينين.

إذا كانت الحضارات أنظمة معقدة ما تلبث، عاجلاً أم آجلاً، أن تسقط نتيجة نواحي التقصير الكارثية، وذلك بدلاً من تتبع حلقة الصعود والهبوط بدءاً بأركاديا، إلى أبوجي، ثم إلى هيرمجدون، فما هي عواقب ذلك على الحضارة الغربية هذه الأيام؟ أولاً، إننا نحتاج إلى تذكير أنفسنا بالأسباب التي دفعت الغرب إلى الهيمنة على بقية أنحاء العالم بعد العام ١٥٠٠.

دحضت الأبحاث الحديثة الرؤية السائدة والقائلة إن الصين كانت تسير اقتصادياً جنباً إلى جنب مع الغرب حتى عهدٍ قريب، أي إلى العام ١٨٠٠. كان الناتج المحلي الإجمالي للفرد راكداً تماماً في حقبة مينج، وكان أقل بكثير من الناتج المحلي الإجمالي للفرد في بريطانيا ما قبل التصنيع. أما السبب الرئيس وراء هذا الوضع فكان أن الصين ظلّت اقتصاداً زراعياً بشكلٍ كبير، كما أن الزراعة ذات الإنتاجية المنخفضة ساهمت بنسبة ٩٠ بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي، وهي حصة أعلى بكثير مما كانت عليه في بريطانيا في بداية عصرها الحديث. يُضاف إلى ذلك أنه بعد مرور قرنٍ على العام ١٥٢٠ ظلّت الادخارات القومية الصينية سلبية. لم تحدث هناك مراكمة للرأسمال في آخر أيام حكم سلالة مينج للصين، بل إن العكس كان صحيحاً[١]. نستنتج من ذلك أن قصة ما سمّاه **كينيث بوميرانز «الفرق العظيم»** ما بين الشرق والغرب قد بدأت أبكر بكثير مما افترضه. ربما كذلك كان الراحل

(١) Guan and Li, 'GDP and Economic Structure'.

آنغوس ماديسون مفرطاً في التفاؤل عندما رأى في العام ١٧٠٠ أن المواطن العادي في الصين كان أفضل حالاً بقليل من المواطن العادي الذي عاش في البلاد التي أصبحت الولايات المتحدة فيما بعد. لكن ماديسون كان أقرب إلى الصواب عندما قدّر أن الناتج الإجمالي المحلي للفرد في بريطانيا في العام ١٦٠٠ كان أعلى بنسبة ٦٠ بالمئة مما كان عليه عند الصينيين[١].

أما ما حدث بعد ذلك فهو أن ناتج الصين وعدد سكانها تزايدا بنسبٍ متماثلة، مما تسبب بركود الدخل الفردي. أما في دول العالم الناطقة بالإنكليزية فقد ارتفع هذا الدخل كثيراً متبعةً بذلك مثال منطقة شمال غربي أوروبا. أما في الولايات المتحدة فإن الناتج الإجمالي المحلي للفرد كان في العام ١٨٢٠ ضعف ما كانت عليه الحال في الصين، وما لبث في العام ١٨٧٠ أن أصبح أعلى بخمس مرات تقريباً، لكن بحلول العام ١٩١٣ أصبحت النسبة عشرة إلى واحد. لكن بالرغم من الانقطاع المؤلم الذي سبّبه الركود الكبير، فإن الولايات المتحدة لم تعانِ أمراً كارثياً أكثر دماراً من الأمور العصيبة التي تعرّضت لها الصين التعيسة في القرن العشرين من ثورة، وحرب أهلية، واجتياح ياباني، وثورةٍ أخرى، ومجاعة تسببت بها يد الإنسان، وثورة [«ثقافية»] أخرى. كان الفرد الأميركي في العام ١٩٦٨ أغنى بثلاث وثلاثين مرة من المواطن الصيني العادي، وذلك مع استخدام الأرقام المحتسبة على أساس القدرة الشرائية التعادلية (مع الأخذ في الحسبان كلفة المعيشة المختلفة في البلدين). أما إذا احتسبنا هذه الأرقام بحسب قيمة الدولار الحالية فإن ذروة الفرق ستقترب من سبعين إلى واحد.

برز ذلك الفرق العظيم بطرائق متعددة. كانت أكبر عشر مدن في العالم تقع كلها في الشرق في العام ١٥٠٠، وكانت بيجينغ هي الأكبر بكثير (كانت أكبر بعشر مرات من لندن الصغيرة والتعيسة). أما في العام ١٩٠٠ فكانت أكبر المدن تقع كلها في

(١) Maddison, World Economy.

الشرق تقريباً، حيث بلغ حجم لندن ما يزيد على أربعة أضعاف حجم طوكيو، التي كانت أكبر تجمّع سكني في آسيا. يكتسب هذا الفرق بعداً جيو- سياسياً [جغرافياً - سياسياً] كذلك. سبق لنا أن رأينا أنه في العام ١٥٠٠، كانت مساحة الممالك الأوروبية العشر، التي أصبحت فيما بعد الأمبراطوريات العالمية في العصر الحديث، تبلغ عُشر مساحة العالم، في حين بلغ عدد سكانها ١٦ بالمئة من سكان العالم، وأكثر بقليل من خُمسَي ناتجه. لكن بقدوم العام ١٩١٣ فإن هذه الدول ذاتها، مع إضافة الولايات المتحدة إليها، تمكنت من التحكم في نسبة ٥٨ بالمئة من مساحة يابسة العالم، وفي نسبة ٧٩ بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي، لكن نسبة ١٨ بالمئة فقط من ذلك الناتج كانت تذهب إلى المستعمرات التابعة لها. تميّز العالم في ذلك الوقت بفجوة واسعة ما بين الغرب وبقية أنحاء العالم، الأمر الذي تجسد في ظهور فرضيات عن تفوق الجنس الأبيض، والعقبات الرسمية وغير الرسمية العديدة التي تقف في طريق تقدّم غير البيض. كان ذلك قمة اللا توازن العالمي.

بدأت هذا الكتاب بسؤال **رسيلاس**: كيف تمكّن الأوروبيون... من أن يصبحوا أقوياء بهذا الشكل؟ أو لماذا، علماً أنه كان يسهل عليهم زيارة آسيا وأفريقيا للتجارة أو القهر، لا يستطيع الآسيويون والأفريقيون غزو سواحلهم، وزرع المستعمرات في موانئهم، وفرض القوانين على أمرائهم؟ أما الإجابة التي قدّمها **إملاك** فكانت أن المعرفة هي قوة. لكنه لم يعرف لماذا كانت المعارف الأوروبية متفوقة على معارف الآخرين. أما الآن فيسهل علينا تقديم إجابة أفضل إلى رسيلاس. لماذا سيطر الغرب على بقية أنحاء العالم، وليس العكس؟ وضعت هذا السؤال على بساط البحث لأن الغرب طوّر ستة استخدامات استثنائية افتقدتها بقية أنحاء العالم. أما هذه الاستخدامات فكانت:

١- **المنافسة**، التي برزت في أوروبا ذاتها التي كانت مجزأةً سياسياً، وتلك التي ظهرت في كل مملكة أو جمهورية حيث ظهرت شركات متنافسة.

٢- **الثورة العلمية**، التي ظهرت في كل الاختراقات الكبيرة التي قدّمتها أوروبا

الغربية في القرن السادس عشر في ميادين الرياضيات، وعلم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، وعلم الأحياء.

٣- **حكم القانون** والحكومة التمثيلية، الأمر الذي تجسّد في العالم الناطق بالإنكليزية بشكل نظام اجتماعي وسياسي مثالي يستند إلى حقوق الملكية الخاصة، وإلى تمثيل مالكي العقارات في مجالس تشريعية منتخبة.

٤- **الطب الحديث،** الذي ظهر في معظم مجالات الاكتشافات الرئيسة التي ظهرت في القرنين التاسع عشر والعشرين، وعلى الخصوص في ميادين العناية الصحية، بما في ذلك السيطرة على الأمراض الاستوائية، وهي الاكتشافات التي ظهرت على يد الأوروبيين الغربيين والأميركيين الشماليين.

٥- **المجتمع الاستهلاكي،** من حيث حدوث الثورة الصناعية في المكان الذي توافر فيه عرض التكنولوجيات التي تعزز الإنتاجية، وكذلك طلب المزيد من السلع الأفضل والأرخص، وذلك بدءاً بالملابس القطنية.

٦- **أخلاقيات العمل،** من حيث كون الغربيين أول شعبٍ في العالم يمزج ما بين العمل الشامل والمكثّف ونسب ادّخار أعلى، مما يسمح بمراكمة مستمرة للرأسمال.

كانت هذه الاستخدامات الاستثنائية الستة هي مفتاح الصعود الغربي. أما قصة زماننا هذا فيمكننا إرجاعها، في الواقع، إلى حكم سلالة الأمبراطور مايجي في اليابان (١٨٦٧- ١٩١٢)، وهي تتلخص في أن **بقية أنحاء العالم** بدأت أخيراً بنسخ هذه الاستخدامات. لم تكن تلك بالعملية السهلة على الإطلاق. لم يعرف اليابانيون أي عناصر الثقافة والنُظُم الغربية هي الأهم، وهكذا قرروا نسخ كل شيء بدءاً بالملابس، وتسريحات الشعر الغربية، ومروراً بتقليد ممارسات الأوروبيين في استعمار الشعوب الأخرى. لكن مما يؤسف له هو أنهم بدأوا بناء أمبراطوريتهم في الوقت الذي بدأت كلفة الاستعمار تفوق منافعه. أما القوى الآسيوية الأخرى – وعلى الخصوص الهندية منها – فقد أضاعت عقوداً من الزمن عندما افترضت، خطأً،

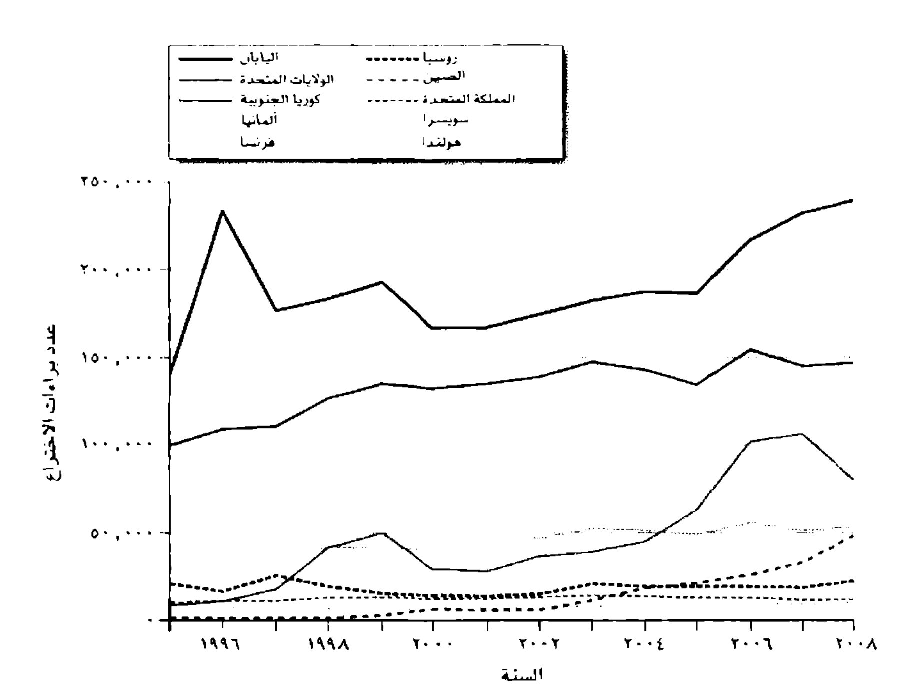
أن السياسات والنُظُم التي طُبقت لأول مرة في الاتحاد السوفياتي هي أفضل من المؤسسات والنُظُم الموجودة في الولايات المتحدة والتي تستند إلى السوق. لكن عدداً متزايداً من دول شرق آسيا بدأ منذ الخمسينيات من القرن الماضي بالسير على طريق اليابان في تقليد النموذج الصناعي الغربي بدءاً بالمنسوجات والفولاذ والتحرك نحو سلسلة القيَم انطلاقاً منها. تحوّلت عملية نسخ التطبيقات الغربية إلى عملية أكثر انتقائية. أما التنافس الداخلي والحكومات التمثيلية فقد كانت مظاهر أقل أهمية في عملية تطور آسيا، لأن العلوم، والطب، والمجتمع الاستهلاكي، وأخلاقيات العمل (بمقدارٍ أقل من البروتستانتية مما توقعه ماكس ويبر) كانت أكثر أهمية. تقف سنغافورة الآن الثالثة في المنتدى الاقتصادي العالمي فيما يتعلق بترتيب القدرة التنافسية (التنافس مع الدول الأخرى). تحتل هونغ كونغ المركز الحادي عشر، وتليها تايوان (المرتبة الثالثة عشرة)، وكوريا الجنوبية (الثانية والعشرون) والصين (السابعة والعشرون)[١]. كان ذلك هو الترتيب ذاته تقريباً الذي اتبعته تلك الدول في تغريب اقتصاداتها [جعلها غربية].

أما اليوم فإن الناتج الإجمالي المحلي للفرد في الصين يبلغ ١٩ بالمئة مما هو عليه في الولايات المتحدة، وذلك مقارنة بنسبة ٤ بالمئة التي كانت عند بدء الإصلاح الاقتصادي قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً تقريباً. أما هونغ كونغ، واليابان، وسنغافورة فقد بلغت النسبة ذاتها في العام ١٩٥٠، لكن تايوان بلغتها في العام ١٩٧٠، في حين أن كوريا الجنوبية بلغتها في العام ١٩٧٥. بلغ الناتج المحلي الإجمالي حالياً للفرد في سنغافورة، وبحسب لجنة المؤتمر، ٢١ بالمئة أعلى مما هو في الولايات المتحدة، وهي النسبة ذاتها في هونغ كونغ، أما في اليابان وتايوان فهي أقل بنحو ٢٥ بالمئة، كما أن النسبة في كوريا الجنوبية هي أقل بنسبة ٣٦ بالمئة[٢]. كان من الجرأة بمكان أن يراهن المرء على أن الصين سوف تتبع المسار ذاته في العقود التالية. تُعدّ الثورة

(١) http://gcr.weforum.org/gcr2010/.

(٢) http://www.conference-board.org/data/economydatabase/.

براءات الاختراع الممنوحة في بلد منشأ مقدّم الطلب، ١٩٩٥- ٢٠٠٨



الصناعية في الصين أكبر وأسرع ثورة صناعية في العالم. زاد ناتجها القومي المحلي في غضون ست وعشرين سنة بمضاعفٍ factor يبلغ عشرة. استغرقت المملكة المتحدة سبعين سنة بعد العام ١٨٣٠ لتنمو بمضاعف يبلغ أربعة. يقول صندوق النقد الدولي إن حصة الصين من الناتج الإجمالي المحلي العالمي (محتسباً بالأسعار الحالية) سوف تتعدى علامة ١٠ بالمئة في العام ٢٠١٣. توقع اقتصاديون في غولدمان ساكس قبل الأزمة المالية أن الصين سوف تتجاوز الولايات المتّحدة في مجال الناتج القومي المحلي في العام ٢٠٢٧[١]. لكن الأزمة المالية قلّصت النمو في الولايات المتحدة أكثر من نسبة النمو الصينية. أما إذا استمرت النسَب الحالية على ما هي عليه فإن الاقتصاد الصيني يُمكن أن يتجاوز الاقتصاد الأميركي في العام ٢٠١٤ فيما يتعلق

(١) I am grateful to Jim O'Neill at Goldman Sachs for providing me with the relevant dataset.

بالقوة الشرائية؛ وفي سنة ٢٠٢٠ إذا احتسبنا قوة الدولار الحالية[١]. يمكننا القول إن القرن [العصر] الآسيوي قد بدأ بالفعل. إن الصين هي الآن على وشك أن تتجاوز حصة أميركا من الإنتاج العالمي، وذلك بعد أن تجاوزت ألمانيا واليابان منذ بداية القرن الجديد. أما أكبر مدينةٍ في الصين، أي شانغهاي، فهي منذ الآن أكبر بكثير من أي مدينة أميركية، كما أنها تتربع على عرش اللائحة الجديدة لأكبر مدن العالم غير الغربية. أما من حيث الأرقام فلطالما كانت آسيا هي أكثر منطقةٍ مأهولة في العالم. لكن النمو السريع في أعداد سكان أفريقيا جعل من تدهور الغرب أمراً شبه مؤكد. كان الغرب في العام ١٩٥٠، وبحسب تعريف صموئيل هنتنغتون - أي أوروبا الغربية، وأميركا الشمالية وأسترالآسيا [أستراليا ونيوزيلندا، وغينيا الجديدة] يقطنه ٢٠ بالمئة من سكان العالم. أما في العام ٢٠٥٠، وبحسب الأمم المتحدة، فإن هذا الرقم سوف يكون ١٠ بالمئة[٢]. تشير معطيات هنتنغتون الخاصة به إلى انحدار الغرب في عدة مجالات مختلفة: اللغة (انخفضت حصة الغرب بثلاث نقاطٍ مئوية ما بين العامين ١٩٥٨ و١٩٩٢)؛ والدِّين (انخفاضٍ يقلّ قليلاً عن نقطة مئوية واحدة ما بين العامين ١٩٧٠ و٢٠٠٠)؛ والمساحة المسيطَر عليها (انخفضت قليلاً ما بين العامين ١٩٧١ و١٩٩٣)؛ والسكان (انخفاض بنسبة ثلاث نقطٍ مئوية منذ العام ١٩٧١)؛ والناتج الإجمالي المحلي (انخفاض بما يزيد على ٤ نقاطٍ مئوية ما بين العامين ١٩٧٠ و١٩٩٢) (*)، وفي مجال أعداد الجنود في الجيوش (انخفاض بنحو ٦ نقاطٍ مئوية ما

(١) Martin Wolf, 'Will China's Rise Be Peaceful?', Financial Times, 16 November 2010.

(٢) Population Division of the Department of Economic and Social Affairs of the United Nations Secretariat, World Population Prospects: The 2008 Revision, http://esa.un.org/unpp, 27 November 2010.

(*) تدل الوقائع على أن الناتج المحلي الإجمالي بالدولارات الحقيقية في كل الدول التي عرّفها هنتنغتون على أنها غربية بقي ثابتاً بصورةٍ ملحوظة، أي ما بين ٦١ و٦٩ بالمئة من المجموع العالمي منذ العام ١٩٦٠.

بين العامين١٩٧٠ و١٩٩١). كان هذا الانحدار أشد حدةً نسبياً في معظم الحالات إذا احتُسب بدءاً بالعام ١٩١٣ أو ١٩٣٨[١].

يجب علينا، والحالة هذه، أن نفهم أن الأزمة المالية التي بدأت في صيف العام ٢٠٠٧ على أنها عاملٌ مسرّع لاتجاه فرض نفسه مسبقاً للانحدار الغربي. تشبه هذه الأزمة الركود الاقتصادي الكبير شبهاً كبيراً. أما أسباب عدّ هذه الأزمة ركوداً اقتصادياً ضئيلاً فهي ثلاثة. **أولاً**، إن التوسع الكبير الذي سجّلته الصين في مجال الإقراض المصرفي، هو الذي خفّف من مفعول انخفاض الصادرات إلى الغرب. **ثانياً**، التوسّع الكبير في القاعدة النقدية الأميركية التي فرضها **بن برنانكه**، رئيس الاحتياطي الفدرالي. **ثالثاً**، العجز المالي الضخم الذي عانته جميع الدول المتقدمة تقريباً وعلى رأسها الولايات المتحدة التي سجّلت عجزاً يفوق ٩ بالمئة من الناتج الإجمالي المحلي على مدى عامين متتاليين. أدّت هذه السياسات - التي كانت معاكسة تماماً للإجراءات التي تمّ اتخاذها في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي - إلى إنقاذ الاقتصاد العالمي من حالة الذعر بدءاً من شهر حزيران ٢٠٠٩ وما بعده. لكن العالم المتقدّم يمرّ الآن في مرحلة ما بعد الأزمة التي تتبع كل أنوا ع المحفزات المفرطة. فقدتْ، السياسات المالية للدول الأوروبية الثلاث، اليونان، وإيرلندا، والبرتغال لأسبابٍ مختلفة، مصداقيتها في عيون المستثمرين الخارجيين [المتعاملين بالسندات]، وهكذا رفعوا كلفة قروضهم، مما عمّق الصعوبات المالية لهذه الدول. أما إذا تأملنا الاتجاه طويل المدى للدّين العام في هذه الدول، الأمر الذي قام به مصرف التسويات الدولية Bank for International Settlements في مطلع العام ٢٠١٠، فلا يصعب على المرء معرفة السبب[٢]. جاءت الأزمة المالية في ذروة مشكلة بنيوية خطيرة لتراكم الدَّين. يصدق هذا الأمر كذلك على المملكة المتّحدة والولايات المتحدة. لكن في وقت تأليف هذا الكتاب كانت المملكة المتحدة وحدها هي التي اتخذت خطوات لمعالجة تلك المشكلة.

(١) Huntington, Clash of Civilizations, tables 3.1, 3.2, 3.3, 4.3, 4.5, 4.6.

(٢) Cecchetti et al., 'Future of Public Debt'.

لكن من الأهمّية بمكان أن نتذكر أن معظم حالات انهيار الحضارات كانت مترابطة مع أزماتٍ مالية، وكذلك الحروب. إن كل أمثلة الانهيارات التي عالجناها آنفاً كانت مسبوقة بعدم توازنٍ حاد ما بين المداخيل والنفقات، وكانت مرافقة كذلك صعوباتٍ في تمويل الدّين العام. يُمكن للمرء أن يتذكر إسبانيا في القرن السادس عشر: كان ثُلُثا المداخيل العادية في العام ١٥٤٣ يذهبان لدفع فائدة على juros، وهي القروض التي كانت بواسطتها أسرة هابسبورغ تموّل نفسها. أما في العام ١٥٥٩ فإن مجموع دفعات الفوائد على القروض تعدّى مجموع المداخيل الإسبانية العادية؛ لكن الوضع تحسّن قليلاً في العام ١٥٨٤ أي عندما كانت تذهب ما نسبته ٨٤ بالمئة من المداخيل العادية إلى الفوائد. أما بحلول العام ١٥٩٨ فإن الفوائد عادت إلى نسبة ١٠٠ بالمئة. يمكننا كذلك التفكير في فرنسا في القرن الثامن عشر: أي ما بين العامين ١٧٥١ و١٧٨٨، أي عشية الثورة عندما ارتفعت الفوائد والأقساط من أكثر من ربع مداخيل الضرائب بقليل إلى ٦٢ بالمئة. يمكننا أن نأخذ أخيراً حالة تركيا العثمانية في القرن التاسع عشر: ارتفعت خدمة الدَّين من ١٧ بالمئة من المداخيل في العام ١٨٦٨ إلى ٣٢ بالمئة في العام ١٨٧١، لتقفز بعد ذلك إلى ٥٠ بالمئة في العام ١٨٧٧، وذلك بعد عامين على التخلف الهائل عن الدخل الذي امتد حتى تفكك الأمبراطورية العثمانية في البلقان. يمكننا أخيراً التفكير في حالة بريطانيا في القرن العشرين. التهمت كلفة الدَّين في منتصف العشرينيات من القرن الماضي ٤٤ بالمئة من الإنفاق الحكومي، أي إنها تجاوزت الإنفاق الدفاعي في كل سنة حتى العام ١٩٣٧، بعد دخول عملية إعادة التسلّح مرحلتها الجدية. لكن، علينا أن نتذكر أن مشاكل بريطانيا الحقيقية جاءت بعد العام ١٩٤٥، أي عندما أصبحت نسبة كبيرة من عبء الدّين الهائل في أيدٍ أجنبية. كان نحو ٣,٤ مليارات جنيه إسترليني، من أصل ٢١ مليار جنيه إسترليني هي قيمة الدين القومي بنهاية الحرب، يعود إلى مقرضين أجانب – وهو مبلغ يساوي نحو ثُلث الناتج المحلي الإجمالي[1].

(١) All details from Ferguson, Cash Nexus.

تضاعفت قيمة الدَّين الاتحادي الذي يمتلكه الجمهور كحصة من الناتج الإجمالي المحلي في غضون عشر سنوات فقط بين ٢٠٠١ عندما كانت ٣٢ بالمئة، و٢٠١١ حيث تبلغ النسبة المتوقعة ٦٦ بالمئة. تورد توقّعات مكتب الميزانية في الكونغرس للعام ٢٠١٠ (مع استخدام سيناريو مالي بديل يعده مكتب الميزانية في الكونغرس أكثر احتمالاً من الناحية السياسية من «سيناريو المقياس الموسّع»)، أن الدَّين يُمكن أن يرتفع إلى ما فوق ٩٠ بالمئة من إجمالي الناتج المحلي في العام ٢٠٢١ وربما يصل إلى ١٥٠ بالمئة بحلول العام ٢٠٣١، وإلى ٣٠٠ بالمئة في العام ٢٠٤٧[١]. يجب أن نلاحظ أن هذه الأرقام لا تأخذ بالحسبان مبلغ ١٠٠ تريليون دولار من المستحقات غير الممولة لأنظمة ميديكاير والضمان الاجتماعي. كما أن تلك الأرقام لا تشتمل على العجوزات المتصاعدة بسرعة في ميزانيات الولايات، ولا المستحقات المتصاعدة بسرعة لبرامج تقاعد موظفي القطاع العام. كان الوضع المالي للولايات المتحدة في العام ٢٠٠٩، على ذلك الأساس، أسوأ من وضع اليونان. لقد كان وضعها كارثياً بوضوح لأن نسبة الدَّين إلى المداخيل كانت ٣١٢ بالمئة. أما حسابات مورغان ستانلي فتشير إلى أن نسبة الدَّين إلى المداخيل في الولايات المتحدة كانت ٣٥٨ بالمئة[٢].

إن هذه الأرقام هي أرقامٌ سيئة، لكن في عالم الاستقرار المالي فإن دور الفهم هو أكثر أهمية بطرائق متعددة. أما في هذه الأيام فإن العالم ما زال يتوقع من الولايات المتّحدة أن تتمكن من شق طريقها لتستطيع أخيراً القيام بالأمور الصائبة، وذلك عندما تُستنفد كل الاحتمالات الأخرى، بحسب ما يُنسب إلى تشرشل. تبيّن أن بعض التحذيرات السابقة بشأن العجوزات المالية في الثمانينيات من القرن الماضي كان مبالغاً فيها، كما أن الحكومة الاتحادية حقّقت فوائض جارية في أواخر التسعينيات.

(١) Congressional Budget Office, 'Supplemental Data for the Congressional Budget Office's Long-Term Budget Outlook' (June 2010).

(٢) Marès, 'Sovereign Subjects', Exhibit 2.

إذاً، لماذا القلق؟ يُمكن لهذا الارتياح أن يستمر لوقتٍ أطول من المتوقع – وأطول من اللون الأحمر الذي بدأت به المؤشرات الإحصائية. ستظهر في يوم من الأيام أنباءٌ سيئة قد تبدو عشوائية – وربما كانت على نحو تقرير سلبي آتٍ من وكالة تصنيف – بحيث يحتل عناوين الأخبار الرئيسة في أثناء دورةٍ من الأخبار المطمئنة. سيبدو، بشكلٍ مفاجئ، أن الأمر لا يقتصر على عددٍ قليل من الأخصائيين الذين يقلقون بشأن استمرارية السياسة المالية للولايات المتحدة فحسب، بل الشعب بأسره، هذا إذا لم نذكر شيئاً عن المستثمرين في الخارج. هذا هو التغيير الضروري لأن النظام المعقّد المتكيّف سيكون في ورطةٍ كبيرة عندما يفقد عدد كبير من المنضوين إلى لوائه الثقة بقدرته على النجاح. تحوّل النظام المعقّد للاقتصاد العالمي من الازدهار إلى الانهيار [الإفلاس] بسبب احتمال التغيّر الفجائي لتوقعات المستثمرين بشأن التخلف عن إيفاء الديون شبه الأساسية subprime، وذلك بدءاً من صيف العام ٢٠٠٧، مما أحدث ثغرات كبيرة في نماذج أعمال آلاف مؤسسات الإقراض المالية الكبيرة highly leveraged. أما المرحلة التالية من الأزمة الحالية فقد تبدأ عندما يُقدم المستثمرون إياهم على إعادة تقويم أهلية الحكومة الأميركية ذاتها لإيفاء القروض. ستعجز الفوائد التي تبلغ صفراً، والمحفزات المالية، عن تحقيق تعافٍ قابلٍ للاستمرار إذا قرّر شعب الولايات المتحدة والشعوب الأخرى في الخارج، وفي وقتٍ واحد، أن إجراءاتٍ كهذه سوف تؤدي إلى نسب تضخم أعلى، أو إلى إفلاس فوري. بيّن الاقتصادي توماس سارجنت قبل عقدين من الزمن أن هذه القرارات ستؤدّي إلى نتائج متوقعة، وذلك لأن الذي يحدد التضخم ليس عرض النقود الأساسية base money بل سرعة تداولها، وهي السرعة التي تعتمد على التوقعات[1]. يمكننا القول، بالطريقة نفسها إن نسبة الدَّين إلى الناتج الإجمالي المحلي لا تحدد مدى السيولة التي تتمتّع بها الحكومة، بل نسبة الفائدة التي يطلبها المستثمرون. يُمكن لعوائد السندات أن ترتفع كثيراً إذا تغيّرت التوقعات بشأن السيولة التي تتمتع بها الحكومة

(١) Sargent, 'Ends of Four Big Inflations'.

أو استقرار العملة، الأمر الذي يزيد من سوء أزمة مالية سيئة بالأصل وذلك عن طريق التسبب برفع كلفة دفعات الفائدة على الديون الجديدة. أما النتيجة فهي نوع من أنواع التهاوي المميت للثقة، وكذلك رفع العائدات ورفع العجوزات المالية. هذه هو بالضبط ما حدث مع اليونان، وإيرلندا، والبرتغال في العام ٢٠١٠.

لكن، من الصحيح بطبيعة الحال أن اليابان تمكّنت من زيادة دينها العام إلى مستوياتٍ أعلى بالنسبة إلى الناتج الإجمالي المحلي، لكن من دون التسبب بخلق أزمة ثقة. لكننا نعرف مع ذلك أن كل الدَّين الياباني تقريباً هو في أيدي المستثمرين اليابانيين والمؤسسات اليابانية، هذا في حين أن نصف الدَّين الاتحادي الأميركي هو في أيدي دائنين أجانب، علماً أن خُمس هذا النصف تحمله السلطات المالية لجمهورية الصين الشعبية. لكن الذي يعطي الولايات المتحدة متنفساً أكبر هو ذلك الامتياز الاستثنائي الذي تتمتع به، والذي يخوّلها طبع عملة الاحتياط الأولى في العالم[١]. يتعرّض هذا الامتياز ذاته إلى هجومٍ متزايد من قِبل الحكومة الصينية. أعلن وزير التجارة الصيني شين ديمينغ في شهر تشرين الأول من العام ٢٠١٠: «لأن إصدار الولايات المتحدة للدولارات لا يخضع للضوابط، ولأن أسعار السلع الدولية تستمر في الارتفاع، لذلك تتعرض الصين إلى تضخمٍ مستورد»[٢]. يقول كسيا بين، وهو مستشارٌ اقتصادي في **مصرف الصين** إن الولايات المتحدة تنشغل في طبع أموالٍ بصورة «غير منضبطة» و«غير مسؤولة»: «مادام العالم لا يضع أي قيودٍ على إصدار العملات العالمية مثل الدولار... فإن ذلك يعني أن حدوث أزمة أخرى أمر لا مفر منه»[٣]. أما سو جينغ زيانغ، وهو باحث معهد الصين للعلاقات الدولية المعاصرة، فقد أعلن أن **التسهيل الكمي** Quantitative easing (شراء **الاحتياطي الاتحادي**

(١) Eichengreen, Exorbitant Privilege.

(٢) http://english.peopledaily.com.cn/90001/90776/90883/7179010.html.

(٣) http://www.reuters.com/article/idUSTOE6A301Q20101104.

لسندات الخزينة) هو نوع من أنواع «الحمائية المالية»(١). أما في شهر تشرين الثاني من العام ٢٠١٠ فقد أقدمت وكالة داجونغ للتصنيف الائتماني على تخفيض مرتبة الولايات المتحدة إلى A+ بدلاً من AA، ومع توقع سلبي.

يسهل علينا تفهم نقاط القلق الصينية. ارتفعت أسعار جميع السلع، ما عدا عدداً قليلاً منها، منذ ذروة الأزمة(*). كما أنه ليس مفاجئاً أن ما تمتلكه الصين رسمياً من سندات الخزينة الأميركية قد انخفض بنحو ١٠ بالمئة في الفترة ما بين تموز ٢٠٠٩ وحزيران ٢٠١٠(٢). بدأ الصينيون في العام ٢٠١٠ بشراء الذهب، الذي هو الملجأ الحصين على مرّ الزمن ضد التضخم، حتى بعد أن وصلت الأونصة إلى سعرٍ غير مسبوق وهو ١,٤٠٠$. أما الأسعار فترتفع بحسب أدنى نسبة منذ الخمسينيات من القرن الماضي، أي عندما تم إنشاء مؤشر السلع الاستهلاكية. لكن بالرغم من الجهود التي يبذلها الاحتياطي الاتحادي Federal Reserve فإن الأموال المتداولة مضافاً إليها أموال حسابات الادخار broad Money، أو M2 لا تزال تتقلص وما زال الإقراض يرفض النمو. لكن حتى إذا ما بقيت عائدات السندات الاسمية لعشر سنوات منخفضة، فإن ذلك يعني أن النسب الفعلية للفوائد الطويلة المدى ستظل قابلة للبقاء إيجابية في المستقبل المنظور، مما يعني عدم وجود مخرج تضخمي من عبء الدَّين الهائل الذي يضغط على الأسَر، والمصارف، والحكومات على السواء. إنني أتكلم عن ذلك النوع من المخارج الذي حققته عدة دول في العشرينيات، والسبعينيات من القرن الماضي. سيبقى النمو بطيئاً، مما يعني كذلك أن الحكومة الاتحادية سوف تستمر في معاناتها للعجوزات المالية، وإن كانت بقيمٍ أصغر.

(١) http://www.businessweek.com/news/2010-11-09/china-researcher-says-us-s-qe2-is-financial-protectionism.html.

(*) إن السلع الوحيدة الواردة في قاعدة بيانات صندوق النقد الدولي، التي لم ترتفع أسعارها منذ شباط العام ٢٠٠٩ هي: الغاز الطبيعي، الخشب، زيت الزيتون، والروبيان والدجاج – وهي أخبار طيبة بالنسبة إلى الذين يخططون لتناول وجبة تتألف أساساً من اللحم المشوي.

(٢) http://www.ustreas.gov/tic/mfh.txt.

يعني ذلك أيضاً ارتفاع فاتورة الفوائد. أورد مكتب الميزانية في الكونغرس مشهداً [سيناريو] مالياً بديلاً يقول إن مدفوعات الفائدة على الدَّين الاتحادي سوف ترتفع من ٩ بالمئة من مداخيل الضرائب الاتحادية إلى ٢٠ بالمئة في العام ٢٠٢٠، و٣٦ بالمئة في العام ٢٠٣٠، لتصل أخيراً إلى ٥٨ بالمئة في العام ٢٠٤٠[١].

توحي تلك الأرقام، من بين أمورٍ أخرى، بالتقليص السريع للالتزامات العسكرية الأميركية في الخارج. يتوقع مكتب الميزانية في الكونغرس أنه بالإمكان التوصل إلى ادخارات إذا ما قُلّص عدد الجنود الأميركيين المنتشرين في الخارج إلى ٣٠,٠٠٠ بحلول العام ٢٠١٣[٢]. إن هذا هو ما سنتوقعه بالضبط بينما تتجاوز حصة مدفوعات الفوائد حصة الإنفاق العسكري من المداخيل الاتحادية، الأمر الذي سوف يحدث في فترة قريبة.

هل يستتبع تحوّل مركز الجذب في العالم من الشرق إلى الغرب صراعاً في المستقبل؟ توقع صموئيل هنتنغتون في مقالة مؤثرة أن القرن الواحد والعشرين سيتميز «بصراع الحضارات». سيواجه الغرب في هذا القرن شرقاً «صينياً، وشرق أوسط كبير إسلامياً، وربما حضارة الأمبراطورية الروسية السابقة الأرثوذكسية»[٣]. كتب هنتنغتون: «ستحدث الصراعات الرئيسة في السياسة العالمية بين أممٍ ومجموعاتٍ تنتمي إلى حضارات مختلفة. سيهيمن صدام الحضارات على السياسة الدولية، كما أن خطوط الصدام بين تلك الحضارات هي التي ستكوّن خطوط القتال في المستقبل»[٤]. ظهرت اعتراضات عديدة على هذا التوقع عقب نشره[٥]. لكنه يبقى،

(١) Author's calculations from CBO data.

(٢) Congressional Budget Office, 'The Budget and Economic Outlook: An Update' (August 2010), table 1.7.

(٣) Huntington, Clash of Civilizations.

(٤) Huntington, 'Clash of Civilizations', p. 22.

(٥) Sen, Identity and Violence; Berman, Terror and Liberalism. See also Edward Said, 'The Clash of Ignorance', Nation, 22 October 2001.

مع ذلك، وصفاً لعالم ما بعد الحرب الباردة هو أفضل من النظريات المنافسة التي استبعدها هنتنغتون، وهي التي تقول إن «عالماً واحداً» سيظهر تحت قيادةٍ أميركية في فترة ما بعد التاريخ post historical (أو neo-vonservative)، أو حتى عالماً مفتوحاً للجميع بين ٢٠٠ دولة ـ أمة، أو حتى عالماً تنعدم فيه الأقطاب يوصف بالفوضوي.

يبقى مع ذلك عيب رئيس في نموذج هنتنغتون. فشل نموذجه في التحقق من حيث كونه نبوءة [أو توقعاً]، أقله حتى الآن. ادّعى هنتنغتون أن النزاعات بين مجموعات في حضارات مختلفة ستكون أكثر حدوثاً، وأكثر استمرارية، وأكثر عنفاً من النزاعات الموجودة داخل الحضارة الواحدة. لكن واقع الحال لم يكن كذلك. لم تحدث حروب بين الحضارات منذ نهاية الحرب الباردة. لم يُلاحظ كذلك أن الحروب بين أطرافٍ ينتمون إلى حضارات مختلفة تستمر فترةً أطول من النزاعات الأخرى[1]. كانت معظم الحروب التي جرت في العقدين الماضيين حروباً أهلية، لكن عدداً صغيراً منها تطابق مع نموذج هنتنغتون. حدثت الحروب في اللانظام العالمي الجديد ما بين مجموعاتٍ إثنية داخل إحدى حضارات هنتنغتون. أما إذا أردت أن أكون دقيقاً أكثر فأقول إنه من بين ثلاثين نزاعاً مسلحاً رئيساً، كان ما زال محتدماً، أو انتهى حديثاً بحلول العام ٢٠٠٥ – أي بعد اثني عشر عاماً على نشر مقالة هنتنغتون الأصلية – تسعة منها فقط يُعد نزاعاً بين الحضارات بمعنى ما، أي بمعنى أنه بين جهة معظمها مسلمون، وأخرى معظمها غير مسلمين. كان تسعة عشر نزاعاً من بينها نزاعات عرقية أساساً، أما أسوأها فهي الحروب التي لا تزال تُربك أفريقيا الوسطى، وتأتي بعدها مباشرة الحروب في الشرق الأوسط الكبير، حيث غالبية الضحايا هي من المسلمين الذين قُتلوا على يد مسلمين آخرين[2]. يُضاف إلى ذلك أن عدداً من تلك النزاعات التي تتخذ بعداً دينياً هو نزاعات عرقية كذلك،

(١) Tusicisny, 'Civilizational Conflicts'.

(٢) Marshall and Gurr, Peace and Conflict, appendix, table 11.1.

وهكذا كانت التحالفات الدينية تعود إلى النجاحات المحلية التي حقّقها المبشّرون في السنوات الحديثة نسبياً أكثر مما تعود إلى الحضارة المسيحية أو الإسلامية. يبدو المستقبل من هذا المنطلق وكأنه سيجلب معه حروباً محلية متعددة – معظمها حروب عرقية في أفريقيا، وجنوب آسيا، والشرق الأوسط – أكثر مما سيجلب معه صداماتٍ عالمية بين الحضارات. يُحتمل، في واقع الأمر، أن تنتهي هذه النزاعات الطاردة بتمزيق الحضارات ذاتها التي عرّفها هنتنغتون. يمكننا أن نختصر ونقول «**انهيار الحضارات**» بدلاً من «**صدام الحضارات**».

يستطيع لاعبو لعبة الكمبيوتر الناجحة **حضارة** Civilization التي صمّمها **سيد ماير** في العام ١٩٩١، والتي هي الآن في نسختها الخامسة، الاختيار ما بين ست عشرة حضارة متنافسة بدءاً بالأميركية وحتى حضارة الزولو. كان التحدي هو «بناء أمبراطورية تصمد على مر الزمن» في أثناء تنافسها مع حضارتين أو ست حضاراتٍ أخرى. ثمة طريقة من بين ثلاث طرائق للفوز في هذه اللعبة: الوصول إلى نهاية الحقبة الحديثة مع تسجيل أعلى الأهداف، والفوز في سباق الفضاء عن طريق الوصول إلى النظام النجمي ألفا سنتوري – أو عن طريق تدمير كل الحضارات الأخرى. لكن هل تسير العملية التاريخية هكذا بالفعل؟ سبق لنا أن رأينا كيف أن الحضارة الغربية، على غرار ممالك وجمهوريات أوروبا الغربية، قد نجحت بالفعل في تدمير أو إخضاع معظم حضارات بقية أنحاء العالم بعد نحو العام ١٥٠٠. لكن كل ذلك تحقق بأقل قدرٍ ممكن من الصراع المباشر، أقله إذا قورن ذلك بعدد الحروب التي خاضتها تلك القوى فيما بينها وحجومها[١]. لم يكن الركود الاقتصادي والتهميش الجيوسياسي اللذان عرفتهما الصين نتيجة من نتائج حرب الأفيون، بل نتيجة الجمود الموروث في نظام الشرق الأقصى الزراعي، وفي نظام الحكم الأمبراطوري. أما انسحاب الأمبراطورية العثمانية من القارة الأوروبية، وانحدارها فيما بعد من قوةٍ عظمى إلى «الرجل المريض»، فكان سببهما الهزائم العسكرية في الظاهر فقط؛ أما

(١) See e.g. Luard, War in International Society.

الهزائم في ذاتها فقد كان سببها الفشل المزمن في المشاركة في الثورة العلمية. لم يحدث كذلك صدام كبير بين حضارتي أميركا الشمالية والجنوبية؛ فالأولى كانت متفوقة بنُظُمها على الحضارة الأخرى، وما لبث أن اكتسبت الوسائل التي تمكّنها من التدخل على الفور في شؤون القارة الجنوبية. يصدق الأمر ذاته على الحروب التي خاضتها الأمبراطوريات الغربية في أفريقيا والتي كانت صغيرة جداً مقارنة بالحروب التي خاضتها فيما بينها في عقر دارها، أي في أوروبا. كان إخضاع أفريقيا إنجازاً حققته المدرسة التبشيرية، ومكتب التلغراف، والمختبرات بمثل ما كان إنجازاً لبندقية مكسيم. أما الثورة الصناعية والمجتمع الاستهلاكي فلم يكن هناك من ضرورةٍ لفرضهما على البلدان غير الغربية، وذلك لأنها ستبادر إلى تبنيهما من تلقاء نفسها إذا ما تمتعت بالذكاء اللازم، أي مثل ما فعل اليابانيون. أما بالنسبة إلى أخلاقيات العمل فلم تنتشر شرقاً بحد السيف، وذلك لأنها فعلت ذلك عن طريق التحسينات الكبيرة في مجالات الصحة العامة والتعليم الرسمي التي تحققت منذ منتصف القرن العشرين وما بعده.

يجدر بنا فهم صعود الصين في أيامنا هذه انطلاقاً من ذلك الأساس. فبالرغم من تفضيل الصينيين «للصعود الهادئ» كما يقولون على الدوام، إلا أن بعض المعلقين بدأوا بملاحظة بعض أولى الإشارات عن صدام الحضارات الذي تحدّث عنه هنتنغتون. بدا أن عملية إعادة العمل بالتسهيل الكمّي quantitative easing (شراء الاحتياطي الاتحادي لسندات الخزينة) في أواخر العام ٢٠١٠، ستؤدّي إلى إطلاق حرب عملات ما بين الولايات المتحدة والصين. أعلن الرئيس أوباما في نيويورك في شهر أيلول من ذلك العام: «إذا لم يتخذ الصينيون إجراءات» تهدف إلى وقف احتكار عملتهم، «فإن لدينا وسائل أخرى لحماية مصالح الولايات المتحدة»[1]. أما رئيس الوزراء الصيني **وين جياوباو** فلم يتأخر قط في الرد: «لا تعملوا على

(١) David E. Sanger, 'With Warning, Obama Presses China on Currency', New York Times, 23 September 2010.

الضغط علينا فيما يتعلق بقيمة **الرنمنبي** [العملة الصينية التي تساوي اليوان]... ستضطر بعض شركاتنا إلى إغلاق أبوابها، وسيضطر العمال المهاجرون إلى العودة إلى قراهم. أما إذا شهدت الصين اضطرابات اجتماعية وسياسية فسيكون ذلك بمنزلة كارثة على العالم»[١]. لكن هذه التصريحات لم تفند أقوال هنتنغتون، وكذلك الحال مع الحوادث البحرية التي تقع ما بين الصينيين والأميركيين، أو تلك المصادمات الدبلوماسية حول تايوان أو كوريا الشمالية. كان كل ذلك أشبه ما يكون بمسرح ظل الدمى الصيني التقليدي في حرب العملات. أما حرب العملات الحقيقية فقد كانت ما بين صيميركا Chimerica – الاقتصادان المجتمعان للصين وأميركا – وبقية أنحاء العالم. يعني ذلك أنه إذا استمرت الولايات المتّحدة في طبع العملة، وحافظت الصين على ربط عملتها بالدولار فإن الفريقين سيستفيدان من ذلك. أما الخاسرون فهم بلدان مثل إندونيسيا والبرازيل، اللتين زادت نسب تبادلهما التجاري الفعلي ما بين كانون الثاني ٢٠٠٨ وتشرين الثاني من العام ٢٠١٠ ما بين ١٨ بالمئة و١٧ بالمئة على التوالي.

تجاوزت **صيميركا** ذروة شبابها من دون شك، وعلى الخصوص كتزاوج اقتصادي ما بين بلاد إسراف وبلاد ادخار، وهكذا فهي تُظهر علامات المرور بصعوباتٍ كبيرة[٢]. بلغ ناتج الصين في منتصف العام ٢٠١٠ ما نسبته ٢٠ بالمئة فوق مستواه ما قبل الأزمة، بينما بلغ ناتج الولايات المتحدة ٢ بالمئة دون مستوى ما قبل الأزمة، وهكذا يبدو واضحاً أن هذه العلاقة أصبحت أكثر نفعاً للدائن منها إلى المدين. أما واضعو السياسات في الولايات المتحدة فيرددون تعويذتهم المفضّلة «إنهم يحتاجون إلينا بقدر ما نحتاج إليهم»، ثم يستشهدون بعبارةٍ شهيرة قالها لورنس سمرز حول «التدمير المالي المضمون والمتبادل». لكن لم يعرف واضعو السياسات أن

(١) Alan Beattie, Joshua Chaffin and Kevin Brown, 'Wen Warns against Renminbi Pressure', Financial Times, 6 October 2010.

(٢) Ferguson and Schularick, 'End of Chimerica'.

القادة الصينيين وضعوا خطة جاهزة لإنهاء **صيميركا** وتقليص اعتمادهم على مراكمة الدولارات الاحتياطية ودعم الصادرات. لا تُعدّ هذه خطةً للهيمنة على العالم بحسب نموذج الإمبريالية الغربية، بقدر ما هي استراتيجية تهدف إلى إعادة تأسيس الصين بوصفها مملكة وسطى – أبرز دولة تابعة في منطقة آسيا – المحيط الهادئ[1]. أما إذا كان على المرء تلخيص استراتيجية الصين الجديدة العظيمة، فإن أفضل طريقة لذلك قد تكون على طريقة ماو: «»الأكثر» الأربعة»:

١- استهلاك أكثر،

٢- استيراد أكثر،

٣- استثمار خارجي أكثر،

٤- إبداع أكثر.

يُذكر أن تغيير الاستراتيجية الاقتصادية في كل حالة يعدُ بعائد جيوسياسي سخي.

تتمكن الصين إذا استهلكت أكثر من تقليص فائضها التجاري، وهي ستفعل ذلك، كما أنها بهذه العملية تحبب إليها شركاءها التجاريين الرئيسيين. تمكّنت الصين من تجاوز الولايات المتحدة بوصفها أكبر سوق سيارات في العالم (من ١٤ مليون [سيارة] سنوياً إلى ١١ مليون [سيارة]) كما يتوقع أن يزيد الطلب عشرة أضعاف في السنوات المقبلة. أما في العام ٢٠٣٥، وبحسب وكالة الطاقة الدولية، فإن الصين سوف تستخدم خُمس الطاقة العالمية، وهي نسبة تمثّل ٧٥ بالمئة زيادةً عن العام ٢٠٠٨[2]. استهلكت الصين كذلك نحو ٤٦ بالمئة من الفحم في العالم في العام ٢٠٠٩، وذلك بحسب تقديرات **معهد الفحم العالمي**، كما أنها تستهلك حصة مماثلة من إنتاج العالم من الألمينيوم، والنحاس، والنيكل، والزنك. تُترجم هذه الأرقام إلى مكاسب رئيسة بالنسبة إلى مصدّري هذه السلع وغيرها. تُعدّ الصين أكبر

(١) Jacques, When China Rules the World.

(٢) International Energy Agency, World Energy Outlook 2010 (London, 2010).

سوقٍ تصديرية بالنسبة إلى أستراليا، وهي مثّلت ٢٢ بالمئة من الصادرات الأسترالية في العام ٢٠٠٩. تشتري الصين كذلك ١٢ بالمئة من صادرات البرازيل، و١٠ بالمئة من صادرات جنوب أفريقيا. تحولت الصين كذلك إلى أكبر مشترٍ لمنتوجات عالية القيمة بدءاً باليابان وألمانيا. كانت الصين ذات مرة المصدّر الرئيس للمنتوجات الرخيصة. أما الآن فإنها تمثّل خُمس النمو العالمي بالكامل، كما أنها أصبحت أكثر الأسواق الجديدة حيوية للشعوب الأخرى. تكسب الصين أصدقاء كثُراً نتيجة وضعها هذا.

يُمكن للمرء أن يتفهم سبب قلق الصينيين حيال تقلبات أسعار السلع في الأسواق العالمية، وكيف لهم أن لا يقلقوا بعد تلك التقلبات الكبيرة في الفترة ما بين العامين ٢٠٠٤ – ٢٠١٠؟ يبدو من المعقول، والحالة هذه، أن يستثمروا أموالهم في الخارج وذلك كي يمتلكوا الأصول المنتجة للسلع، بدءاً من حقول النفط في أنغولا إلى مناجم النحاس في زامبيا. حصل الصينيون في شهرٍ واحد (كانون الثاني ٢٠١٠) على استثمارات مباشرة بقيمة ٢/٤ مليار دولار في ٤٢٠ شركة في الخارج موزعة على خمسة وسبعين بلداً ومنطقة. كانت غالبية هذه الاستثمارات في آسيا (٤٥ بالمئة) وأفريقيا (٤٢ بالمئة). أما أكبر قطاعات الاستثمارات فقد كانت التعدين، والبتروكيميائيات، والبنى التحتية للاتصالات[١]. يُضاف إلى ذلك أن طريقة العمل الصينية انتشرت في جميع أنحاء أفريقيا. تكاثرت عقود الأعمال بسرعة مع استثمارات البُنى التحتية واستئجار المناجم، أو استثمارات في الأراضي الزراعية، لكن لا تُطرح إلا أسئلة قليلة عن خروقات حقوق الإنسان، أو الفساد السياسي[٢]. قال نائب وزير الخارجية الصيني رداً على سؤال عن علاقات الصين الاقتصادية مع السودان، وذلك في ذروة المجازر التي حدثت في دارفور: «الأعمال [التجارة]

(١) http://en.china.cn/content/d732706,cd7c6d,1912_6577.html.

(٢) Collier, Plundered Planet.

هي الأعمال [التجارة]»[1]. أما في تموز من العام ٢٠٠٨ فقد أعاد الموفد الصيني الخاص **ليو جيويجين** تحديد سياسة الصين بالنسبة إلى المساعدات المقدمة إلى أفريقيا: «إننا لا نفرض شروطاً سياسية. علينا إدراك أن البيئات السياسية والاقتصادية [في أفريقيا] ليست مثالية. لكن لا يُشترط أن يكون كل شيء مرضياً، أو أن تكون حقوق الإنسان مثالية»[2].

لا تبدو الاستثمارات الخارجية في الموارد الطبيعية معقولةً فقط باعتبارها استراتيجية تنويع تهدف إلى تقليص مخاطر الصين بالنسبة إلى تخفيض قيمة الدولار، لكنها تسمح للصين كذلك بزيادة قوتها المالية، وليس أقلها صندوق الثروة المستقل والقوي **شركة استثمارات الصين**، وهي الشركة التي تمتلك موجودات بقيمة نحو ٢٠٠ مليار دولار. تبرّر الاستثمارات الخارجية خطط الصين الطموحة للتوسّع البحري. قال الأميرال جانج هواشين، وهو نائب قائد أسطول البحر الشرقي: «مع توسّع مصالح البلاد الاقتصادية فإن البحرية تريد حماية طرق النقل في البلاد، وتأمين طرقنا البحرية الرئيسة»[3]. يعدّ بحر الصين «مصلحة قومية أساسية»، كما تعتزم البحرية إقامة موانئ بعيدة في باكستان – في غوادار، الجيب العماني السابق – وكذلك في بورما وسريلانكا. يعد هذا نموذجاً بحرياً مختلفاً جداً عن نموذج الأميرال **جينغ هي** (أنظر الفصل الأول). يذكّر هذا النموذج بمخططات البحرية الملكية الفيكتورية.

أخيراً، وبشكلٍ يعاكس الرأي القائل إن الصين محكومة بأن تبقى خط إنتاج للمنتجات «المصمّمة في كاليفورنيا»، فإن الصين تبتكر أكثر، وهي تهدف إلى أن تصبح (مثلاً) رائدة العالم في توربينات الهواء واللوحات الضوئية. تمكّنت الصين في العام ٢٠٠٧ من تجاوز ألمانيا فيما يتعلق بتطبيقات براءات الاختراع الجديدة،

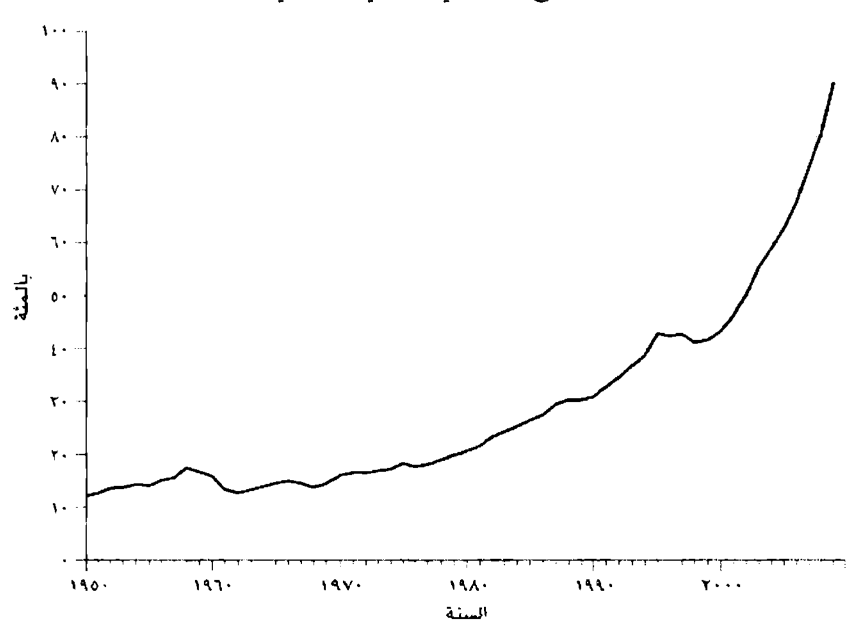
(١) Raine, China's African Challenges, p. 97.

(٢) Ibid., p. 164.

(٣) Economy, 'Game Changer', p. 149.

ولم يطل الوقت حتى تحقّق الأمر ذاته بالنسبة إلى براءات الاختراع الممنوحة، وذلك بعد أن تجاوزت بريطانيا في العام ٢٠٠٤، وروسيا في العام ٢٠٠٥، وفرنسا في العام ٢٠٠٦. زاد عدد البراءات الممنوحة إلى مخترعين صينيين منذ سنة ١٩٩٥ بمضاعفٍ يبلغ تسعة وعشرين[1]. يعد هذا جزءاً فقط من قصةٍ أكبر عن صعود الشرق. زادت الصين إنفاقها في العقد الماضي على الأبحاث والتنمية بمضاعفٍ يبلغ ستة، كما أنها ضاعفت عدد علمائها، وهي الآن تحتل المركز الثاني بعد الولايات المتحدة من حيث عدد الدراسات العلمية الصادرة عنها، ومن حيث قدراتها الحاسوبية الفائقة.

الناتج الإجمالي المحلي للصين الكبرى (الجمهورية الشعبية مع هونغ كونغ، سنغافورة وتايوان) كنسبة مئوية من الناتج الإجمالي المحلي الأميركي، ١٩٥٠-٢٠٠٩



(١) World Intellectual Property Organization, World Intellectual Property Indicators 2010 (Geneva, 2010): http://www.wipo.int/ipstats/en/statistics/ patents/.

معدّل علامات الرياضيات للصف الثامن للطلاب (١٤ عاماً)، في العام ٢٠٠٧

(المعدل العالمي = ٥٠٠)



لكن تبقى هناك فجوة هامة فيما يتعلق بعدد الاقتباسات citations الدولية للأبحاث الصينية، كما يبقى سبب وجيه يدفعنا إلى توقّع ضيّق هذه الفجوة[1]. ربما يكون الدليل الأكثر أهمية على التحوّل من الغرب إلى الشرق هو حقيقة واقعة في مجال التعليم. أظهرت النتائج الآكاديمية للأشخاص الذين تراوح أعمارهم ما بين الخامسة والعشرين والرابعة والثلاثين، وفق دراسة أجرتها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD في العام ٢٠٠٥، فرقاً مذهلاً بين الدول التي تتربع على القمة، أي كوريا الجنوبية، واليابان، وبين الدول التي تأتي في المؤخرة، أي بريطانيا وإيطاليا[2]. تظهر

(١) Mu Rongping, 'China', in UNESCO Science Report 2010, pp. 379-98.

(٢) Organization for Economic Co-operation and Development, Economic Survey of the UK (October 2005).

الفجوة ذاتها في الاختبارات المعيارية في الكفاءة في الرياضيات بين مَن هم في الرابعة عشرة من أعمارهم، كما أظهر طلاب من سنغافورة أداءً أفضل بكثير من أداء الطلاب في أسكتلندا. حقّق طلاب سنغافورة نتائج هي أعلى بنسبة ١٩ بالمئة من المعدل العالمي، بينما حقّق طلاب أسكتلندا نتائج هي أدنى بنسبة ٣ بالمئة من ذلك المعدل[١].

ما هي الأمور التي قد تسير على عكس ما يشتهي التنين الصيني؟ ثمة أربع فرضياتٍ على الأقل قدّمها أولئك الذين يتوقعون التعثّر لذلك التنين. الفرضية الأولى هي أن توقعات مشابهة قد ظهرت في السابق بالنسبة إلى الصعود المذهل لليابان. كان المفترض أن تتجاوز اليابان الولايات المتحدة، وتصبح القوة الاقتصادية العظمى الرقم واحد في العالم. تمضي الفرضية في القول إن الصين يُمكن أن تلقى في يوم من الأيام مصير اليابان بعد العام ١٩٨٩. يعود ذلك إلى أن النظام الاقتصادي في البلدين ليس تنافسياً في واقع الأمر، لذلك يُمكن لفقاعة العقارات أو سوق الأسهم [البورصة] أن تملأ البلاد بمصارف وهمية Zombie، ونمو أفقي وركود اقتصادي – وهي المحن التي عانتها اليابان معظم فترة عقدين من السنين حتى الآن. أما الحجة المضادة فهي أن مجموعة الجزر الواقعة شرق ساحل أوراسيا لم تكن مؤهلة قط لمجاراة قوة قارية مثل الولايات المتّحدة. كان من غير المعقول قبل قرنٍ من الزمن أن يتوقع المرء إمكانية لحاق اليابان بالمملكة المتحدة، وهي نظيرتها الغربية – وذلك ما تحقّق فعلاً – دعك من إمكانية تجاوز الولايات المتحدة نفسها. يُضاف إلى ذلك أن هزيمة اليابان في العام ١٩٤٥ أدت إلى أن يكون صعودها الاقتصادي معتمداً على الأمن الذي وفرته لها الولايات المتحدة، ولهذا عليها الخضوع إلى تسعيرٍ أعلى لعملتها، وذلك بصورةٍ إجبارية إلى حدٍ ما، أي مثل ما جرى في اتفاقية بلازا في العام ١٩٨٥.

ثمة احتمال ثانٍ يفترض أن الصين قد تتعرض للاضطرابات الاجتماعية، أي كما

(١) Institution of Education Sciences, Trends in International Mathematics and Science Study (2007).

حدث مراراً في ماضيها. تبقى الصين، بعد كل شيء، بلداً فقيراً، وهي تحتل المرتبة الثامنة والستين في العالم من حيث دخل الفرد، علماً أن ١٥٠ مليوناً من مواطنيها – أي تقريباً واحد من أصل عشرة – يعيش بدخلٍ يساوي ١,٥$ يومياً أو حتى أقل من ذلك. ارتفعت حدة اللامساواة كذلك منذ إدخال الإصلاحات الاقتصادية بحيث تشابه توزيع الدخل فيها مع ذلك الموجود في الولايات المتحدة (لكن بشكل مغاير لما هي عليه الحال في البرازيل). تقول التقديرات إن ٠,٤ بالمئة من العائلات الصينية تمتلك نحو ٧٠ بالمئة من ثروة البلاد. يُضاف إلى هذا الواقع الاقتصادي مشاكل مزمنة من تلوث الهواء، والمياه، والأرض. لا يعود مفاجئاً، والحالة هذه، أن تشهد المناطق الريفية الداخلية الأفقر في الصين بعض الاحتجاجات بين الحين والآخر. يصعب على المرء، بالرغم من كل ذلك أن يتوقع مشهداً ثورياً بناءً على هذه المعطيات الضئيلة. ربما جعل النمو الاقتصادي الصين مجتمعاً يتميز بمساواة أقلّ، لكن النظام الرأسمالي – الشيوعي يتمتع بمستوياتٍ عالية جداً من الشرعية في عيون مواطنيه[١]. توحي معطيات الاستطلاعات أن الشعب الصيني الآن هو أكثر التزاماً بفكرة السوق الحرة من الأميركيين. إن التحدي الاجتماعي الحقيقي الذي يواجه استقرار الصين هو تحدٍ ديموغرافي. ستكون للصين في العام ٢٠٣٠، نتيجة لسياسة الطفل الواحد التي أُدخلت في العام ١٩٧٩، نسبة من الأشخاص المسنّين هي أكبر بكثير من جارتها الكبيرة الهند. ستكون نسبة السكان الذين هم في الخامسة والستين وما فوق ١٦ بالمئة، وذلك مقارنة بنسبة ٥ بالمئة في العام ١٩٨٠. أما عدم التوازن بين الجنسين في مقاطعاتٍ مثل آن هوي، وهاينان، وجوانغ دونغ، وجيان كسي، فقد بات من دون مثيل له في المجتمع الحديث، وذلك مع وجود نسبة ما بين ٣٠ و٣٨ بالمئة من الذكور أكثر من الإناث[٢]. أما الثورة الصينية المقبلة، إن حدثت، فسوف

(١) Pew Global Attitudes Project, 'The Chinese Celebrate their Roaring Economy, as They Struggle with its Costs', 22 July 2008: http://pewglobal. org/2008/07/22/.

(٢) Nicholas Eberstadt, 'China's Family Planning Policy Goes Awry', American Enterprise Institute for Public Policy Research, 23 November 2010: http://www.aei.org/article/101389.

تكون بقيادة عُزاب محبَطين. لكن التاريخ يوحي أن الشبان العزاب هم أقل احتمالاً لتبني القومية المتطرفة كثورة.

ثمة مشهد ثالث أكثر إقناعاً، وهو أن الطبقة الوسطى الصاعدة تستطيع المطالبة بنفوذٍ سياسي أكبر مما تمتلكه حالياً، أي كما حدث مراراً في التاريخ الغربي. كانت الصين مجتمعاً زراعياً ذات مرة، أي عندما كان ثلاثة من أصل أربعة مواطنين يعيشون في الريف في العام ١٩٩٠. أما الآن فإن ٤٥ بالمئة من الشعب هم من سكان المدن، كما أن هذه النسبة مرشحة للارتفاع إلى ٧٠ بالمئة في العام ٢٠٣٠. لا يقتصر الأمر على أن الطبقة الوسطى تنمو بسرعة في مناطق الصين الحضرية، بل إن انتشار وسائل الهواتف المحمولة والإنترنت مكّن هذه الطبقة من تكوين شبكاتها الأفقية العفوية الخاصة بها، بشكلٍ لم يسبق له مثيل من قبل. أما التحدي الذي يبرزه هذا الوضع فلا يتمثّل بالمنشق السجين **ليو كسياوبو** الذي نال في العام ٢٠١٠ جائزة نوبل للسلام، والذي ينتمي إلى جيل سابقٍ من النشطاء فحسب، بل كذلك بالفنان البدين والملتحي **آي ويوي**، الذي استغل شهرته بإثارة الاهتمام بالنيابة عن ضحايا زلزال سيشوان الذي حدث في العام ٢٠٠٨. أما الحجة المضادة هنا فتأتي من منتجةٍ تلفزيونيةٍ شابة تسكن في بيجينغ، تعرّفت إليها بعد أن بدأت تحضير أبحاثي لهذا الكتاب. قالت لي ذات ليلة: «يشعر جيلي بأنه جيل محظوظ. حقّق أجدادنا **القفزة العظيمة إلى الأمام**، أما آباؤنا فقد حققوا **الثورة الثقافية**. أما نحن فعلينا أن ندرس، وأن نسافر، وأن نكسب الأموال. أفترض، لهذا السبب، أننا لم نفكر بالقدر الكافي في Square thing». لم أفهم في البداية ماذا كانت تعني بذلك، ثم أدركت أنها تعني ما حدث في باحة **تيان آن مين** – وهي الاحتجاجات التي سبقت الديمقراطية والتي سحقتها القوة العسكرية في العام ١٩٨٩.

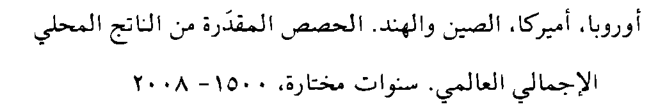
أما المأزق الرابع والأخير فهو احتمال أن تبدأ الصين بمعاداة جيرانها إلى درجة تدفعهم إلى التوجّه نحو تحالفٍ موازٍ بقيادة الولايات المتحدة التي تُظهر واقعية أكثر. نلاحظ وجود قدرٍ من الامتعاض في بقية أنحاء آسيا بشأن طريقة إلقاء

الصين بثقلها هذه الأيام. يخطّط الصينيون لتحويل موارد المياه في هضبة كينغ ثاي التيبيتية، الأمر الذي يحمل عواقب مقلقة بالنسبة إلى بنغلادش، والهند، وكازخستان. يُضاف إلى ذلك أن صبر هانوي بدأ بالنفاد نتيجة سياسة توظيف مواطنيها في مناجم البوكسيت الفييتنامية. أما العلاقات مع اليابان فقد أخذت منحى نحو الأسوأ، وذلك بشأن جزر سينكاكو/ دياويو الصغيرة، كما وصل الأمر إلى حد فرض الصين حظراً على تصدير العناصر النادرة rare-earth، وذلك رداً على إلقاء القبض على صيادين صينين تائهين[1]. لكن هذه الاحتكاكات لا تمثّل أساساً كافياً لأكبر تحولٍ في سياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ أن أعاد ريتشارد نيكسون وهنري كسينجر فتح الاتصالات الدبلوماسية مع الصين في العام ١٩٧٢. أما الرئيس الرابع والأربعون، الذي يشغل البيت الأبيض، فيبدو أنه بعيد أشدّ البعد عن التقاليد الواقعية التي رافقت السياسة الخارجية الأميركية، وذلك بالرغم من الانطباع الذي تركته زياراته إلى الهند وإندونيسيا في أواخر العام ٢٠١٠.

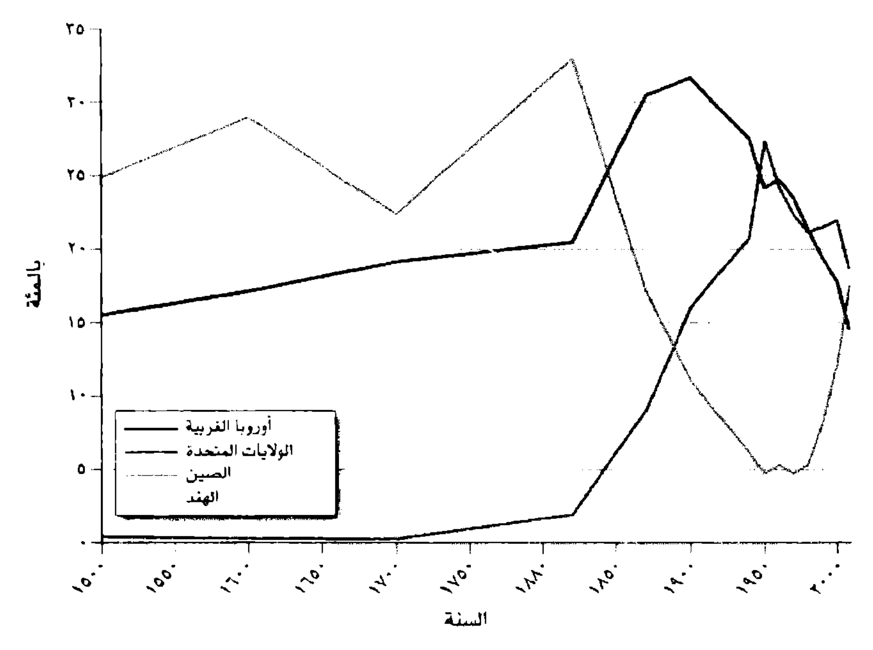
لكن المأزق الماثل أمام القوة «الذاهبة»، الذي تفرضه القوة «القادمة» فهو مقلقٌ على الدوام. كانت كلفة مقاومة صعود ألمانيا ثقيلاً بالفعل بالنسبة إلى بريطانيا؛ وكان من الأسهل بكثير الانزلاق إلى دور الشريك الأصغر للولايات المتحدة. أيُفترض بأميركا احتواء الصين؟ أم أيُفترض بها استرضاء الصين؟ توحي استطلاعات الرأي أن الأميركيين العاديين حائرون في كيفية الاستجابة لهذا الوضع، مثلهم في ذلك مثل رئيسهم. أظهرت دراسة أجراها حديثاً مركز بيو للأبحاث أن ٤٩ بالمئة من الذين شملهم الاستطلاع قالوا بأنهم لا يتوقعون أن تتمكّن الصين من «تجاوز الولايات المتحدة بوصفها القوة العظمى الرئيسة في العالم»، لكن ٤٦ بالمئة منهم أبدوا رأياً معاكساً[2]. كان التوافق مع نظام عالمي جديد أمراً شديد الصعوبة بعد انهيار الاتحاد

(١) Economy, 'Game Changer'.

(٢) Pew Research Center for People and the Press, 'Public Sees a Future Full of Promise and Peril', 22 June 2010: http://people-press.org/report/?.



أوروبا، أميركا، الصين والهند. الحصص المقدَرة من الناتج المحلي الإجمالي العالمي. سنوات مختارة، ١٥٠٠- ٢٠٠٨



السوفياتي، الأمر الذي شغل عدداً كبيراً من المعلّقين. لكن الحرب الباردة استمرت أكثر من أربعة عقود بقليل ولم يتمكّن الاتحاد السوفياتي في خلالها من الاقتراب من تجاوز اقتصاد الولايات المتحدة. إننا نعيش الآن في مرحلة نهاية ٥٠٠ سنة من الهيمنة الغربية. إن المتحدي الشرقي هذه المرة هو حقيقي بما فيه الكفاية، سواء أكان اقتصادياً أم جيوسياسياً. لكن ما زال مبكراً جداً بالنسبة إلى الصينيين الادعاء «أننا الأسياد الآن»، إلا أن الواضح تماماً أنهم لم يعودوا مجرد متمرّنين. يبقى، بالرغم من كل ذلك، صراع الحضارات الذي قال به هنتنغتون احتمالاً بعيداً. سنشهد على الأرجح نوعاً من التحوّل الذي كان لمصلحة الغرب في معظم فترة الـ٥٠٠ سنة الماضية. تزداد إحدى الحضارات ضعفاً، بينما حضارة أخرى تقوى أكثر فأكثر. لا يتمثّل السؤال الهام هنا فيما إذا كانت الحضارتان ستصطدمان، بل ما إذا كانت الحضارة الأضعف ستقفز من حالة الضعف إلى حالة الانهيار التام.

لطالما كان الانسحاب من جبال هندوكوش، أو من سهول بلاد ما بين الرافدين نذيراً بالانحدار والسقوط. كان من اللافت أن ينسحب الاتحاد السوفياتي من أفغانستان في تلك السنة الهامة ١٩٨٩، وأن يُمحى من الوجود في العام ١٩٩١. يشبه ما حدث عندئذٍ تلك الأحداث التي وقعت في القرن الخامس البعيد، كما أنها تذكّر بأن الحضارات، في واقع الأمر، لا تظهر، وتنهض، وتحكم، وتنحدر، وتسقط، بحسب دورة حياة متكررة ومتوقعة. يقوم المؤرّخون، بطريقة استرجاعية، بتصوير عملية التفكك وكأنها عملية بطيئة ترافقها أسباب تقرر مصيرها. تتصرف الحضارات، بدلاً من ذلك، مثل أنظمة متكيّفة معقدة. تعمل هذه الحضارات بتوازنٍ ظاهر لفترة غير معلومة. تنهار الحضارات بعد ذلك بشكلٍ فجائي تماماً. لكن، بالعودة إلى مصطلحات توماس كول الذي رسم **مسار أمبراطورية**، فإن التحوّل من الكمال إلى الدمار وبعد ذلك إلى الخراب، ليس بتلك العملية الدورية. إنها عملية فجائية. أعتقد أن الرسم المرئي الذي يمثّل طريقة انهيار الأنظمة المعقدة هو ذلك الملصق الذي كان ذات يوم شائعاً جداً في آلاف غرف الطلاب الجامعيين، وهو الملصق الذي يُظهر قطاراً بخارياً خارجاً عن سكته مصطدماً بجدار إحدى محطات فيكتوريا، صدم بدوره الشارع من تحته. ربما كان سبب الاصطدام كابحاً معطلاً أو سائقاً استسلم للنوم، وهو سبب كان كافياً لوضع القطار على حافة الفوضى.

أيمكننا أن نفعل أي شيء لحماية الحضارة الغربية من كارثةٍ كهذه؟ أولاً، علينا أن لا نكون قدريين بشكلٍ مفرط. صحيحٌ أن الأمور التي ميّزت الغرب ذات مرة من بقية أنحاء العالم لم تعد حكراً علينا. امتلك الصينيون الرأسمالية، وامتلك الإيرانيون العلوم، كما أن الروس حازوا الديمقراطية. توصّل الأفريقيون إلى الطب الحديث، وإن ببطء، كما أن الأتراك امتلكوا المجتمع الاستهلاكي. يعني كل هذا الكلام أن أنماط العمل الغربية ليست في طور الانحدار، وذلك لأنها تزدهر في كل مكانٍ تقريباً، لكن مع وجود جيوب مقاومة قليلة. يقوم عدد متزايد من غير الغربيين بالنوم، والاستحمام، وارتداء الثياب، والعمل، واللهو، وتناول الطعام، والشرب، والسفر مثل

الغربيين تماماً[١]. يضاف إلى ذلك، كما سبق لنا أن رأينا، أن الحضارة الغربية هي أكثر من أمرٍ واحدٍ فقط. إنها مجموعة متكاملة، وهي تتعلق بالتعددية السياسية (دول متعددة وسلطات متعددة) بمثل ما هي الرأسمالية. إنها تتعلق بحرية الفكر بمثل ما تتعلق بالنهج العلمي؛ وهي تتعلق بحكم القانون، وحقوق الملكية بمثل ما تتعلق بالديمقراطية. يتمتع الغرب، حتى هذه الأيام بهذه النُظُم المؤسسية بقدر أكبر مما يمتلكه غير الغربيين. لا يلتزم الصينيون المنافسة السياسية، كما أن الإيرانيين يفتقدون حرية الضمير. توصّل الروس إلى حق الانتخاب، لكن حكم القانون هناك ما زال سطحياً. يُضاف إلى ذلك أنه لا توجد في كل تلك البلدان صحافة حرة. ربما تفسّر هذه الفروق على سبيل المثال، سبب تخلّف تلك البلدان الثلاثة عن البلدان الغربية في مؤشرات النوعية التي تقيس «التطور الإبداعي القومي»، و«القدرة الإبداعية القومية»[٢].

لا تخلو الحضارة الغربية، بطبيعة الحال، من العيوب. استنفدت هذه الحضارة حصتها من الآثام التاريخية، بدءاً بوحشية الاستعمار إلى ابتذال المجتمع الاستهلاكي. يُضاف إلى ذلك أن إغراقها في المادية أدى إلى كل أنواع العواقب الوخيمة، وليس أقلها تلك الرغبات discontents التي شجعنا فرويد على الانغماس فيها، إضافة إلى أنها فقدت كل مظاهر التوفير التي عدها ويبر مثيرة للإعجاب في الأخلاقيات البروتستانتية.

تستمرّ هذه الرزمة الغربية المتكاملة، مع ذلك، في تقديم أفضل مجموعة متوافرة من النُظُم الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية – وهي المجموعة التي لها الحظ الأوفر في إطلاق الإبداع الإنساني الفردي والقادر على حل المشاكل التي سوف يواجهها العالم في القرن الواحد والعشرين. لم يسبق لحضارة في نصف الألفية المنصرم أن قامت بمهمةٍ أفضل في البحث عن العباقرة وتعليمهم، وهم الذين يقبعون

(١) Zakaria, Post-American World.

(٢) Rongping, 'China', p. 395.

في الجانب الأيمن من توزيع المواهب في أي مجتمع بشري. أما السؤال الكبير هنا فهو ما إذا كنا ما زلنا قادرين على الاعتراف بتفوق تلكَ الرزمة. إن ما يجعل الحضارة حقيقية بالنسبة إلى سكانها في نهاية الأمر، ليس فخامة الصروح الموجودة في مركزها فحسب، ولا حتى سهولة عمل المؤسسات التي تشتمل عليها. إن الحضارة هي في جوهرها المناهج التي تلقّن في مدارسها، والتي يتعلمها طلابها، والتي يتذكّرونها في أيام الشدائد. بُنيَت حضارة الصين ذات مرة على تعاليم كونفوشيوس. أما حضارة الإسلام – دين الطاعة – فما زالت راسخة في القرآن. لكن ما هي النصوص الأساسية للحضارة الغربية التي بإمكانها تعزيز إيماننا بالقوة التي لا حدود لها تقريباً للإنسان الفرد والحر؟ (*) وما هو نجاحنا في مناهجنا التعليمية، بالنظر إلى تجنب المنظّرين التعليميين عندنا المعرفة الرسمية والتعليم التلقيني؟ قد لا يكون الخطر الحقيقي هو ما يمثله صعود الصين، أو الإسلام، أو انبعاثات ثاني أكسيد الكربون، لكنه ذلك الناتج من فقداننا الإيمان بالحضارة التي ورثناها عن أجدادنا.

إن حضارتنا هي أكثر من مجرد عكس تلك المهازل المسرحية للهواة (أنظر الكتابات المنقوشة أعلاه). ربما يكون تشرشل قد أفلح في فهم نقطة جوهرية عندما عرّف «المبدأ الرئيس للحضارة [الغربية]» على أنه «خضوع الطبقة الحاكمة للعادات [التقاليد] المتفق عليها بين الناس ولإرادتهم كما يعبّر عنها الدستور»:

[سأل تشرشل] لماذا لا تربط الأمم نفسها معاً في نظام أكبر وترسّخ حكم القانون لمصلحة الجميع؟ إن ذلك هو، بالتأكيد، الأمل الأسمى الذي يجب أن نسير جميعاً على هديه...

لكن من العبث أن نتصور أن مجرد... إعلان المبادئ الصحيحة... سيحمل معه

(*) أقترح هنا هذه النصوص: إنجيل الملك جايمس، كتاب برنسيبيا لإسحق نيوتن، وكتاب جون لوك محاضرتان في الحكم Two Treaties of Government، وكتاب آدم سميث ثروة الأمم، وكتاب إدموند بيرك تأملات في الثورة في فرنسا، وكتاب تشارلز داروين أصل الأنواع. علينا مع ذلك إضافة مسرحيات وليم شكسبير، وأحاديث مختارة لأبراهام لينكولن وونستون تشرشل. أما إذا كان عليّ اختيار كتاب واحد ليكون بمنزلة قرآني [مرجعي] فإنني أختار أعمال شكسبير الكاملة.

أي قيمة إلا إذا دُعمت بخصائص مثل الفضائل المدنية والشجاعة الرجولية – نعم، وكذلك بالأدوات ووسائل القوة والعلم [ـ] التي يجب في نهاية المطاف أن تدافع عن الحق والمنطق.

الحضارة لن تدوم، والحرية لن تبقى، والسلام لن يخيّم، إلا إذا اتحدت غالبية كبيرة جداً من البشر من أجل حمايتها، وإلا إذا أظهرت هذه الغالبية أنها تمتلك سلطة حفظ الأمن، وهي السلطة التي يجب أن تخيف القوى البربرية والغرائزية(١).

ظهرت تلك القوى البربرية والمتخلفة في العام ١٩٣٨ في الخارج وعلى الخصوص في ألمانيا. لكن، كما سبق لنا أن رأينا، كانت تلك نتاج الحضارة الغربية بمثل ما كانت عليه قيَم الحرية والحكومات الشرعية التي كانت عزيزة على قلب تشرشل. أما في هذه الأيام، وكما كانت الحال في ذلك الوقت، فإن أكبر تهديد يواجه الحضارة الغربية ليس ذلك الصادر عن الحضارات الأخرى، بل هو ذلك الجبن الذي يسيطر علينا – وكذلك جهلنا التاريخي الذي يغذيه.

(١) Churchill, 'Civilization', pp. 45f.

Bibliography

Introduction: Rasselas's Question

Acemoglu, Johnson and Robinson, 'Reversal of Fortune: Geography and Institutions in the Making of the Modern World Income Distribution', *Quarterly Journal of Economics*, 117 (2002), 1231–94.

Bagby, Philip, *Culture and History: Prolegomena to the Comparative Study of Civilizations* (Berkeley/Los Angeles, 1959).

Bayly, C. A., *The Birth of the Modern World, 1780–1914* (Blackwell, 2004.

Bockstette, Valerie, Areendam Chanda and Louis Putterman, 'States andMarkets: The Advantage of an Early Start', *Journal of Economic Growth* (2002), 347–69.

Bozeman, Adda B., *Politics and Culture in International History: From the Ancient Near East to the Opening of the Modern Age* (New York, 1994 [1960]).

Braudel, Fernand, *A History of Civilizations*, trans. Richard Mayne (New York, 1993).

Brownworth, Lars, *Lost to the West: The Forgotten Byzantine Empire that* Rescued Western Civilization (New York, 2009).

Cahill, Thomas, How *the Irish Saved Civilization* (New York, 1995).

Chandler, T., *Four Thousand Years of Urban Growth: A Historical Census* (Lewiston/ Queenstown, 1987).

Chaudhary, Latika, Aldo Musacchio, Steven Nafziger and Se Yan, 'Big BRICs, Weak Foundations: The Beginning of Public Elementary Education in Brazil, Russia, India, and China, 1880–1930', draft working paper (2010).

Clark, Gregory, *A Farewell to Alms: A Brief Economic History of the World* (Princeton, 2007).

Clark, Kenneth, *Civilisation: A Personal View* (London, 2005 [1969]) Coulborn, Rushton, The Origin of Civilized Societies (Princeton, 1959).

Darwin, John, *After Tamerlane: The Rise and Fall of Global Empires* (London, 2007).

Dawson, Christopher, *The Making of Europe: An Introduction to the History of European Unity* (London, 1932).

Diamond, Jared, Guns, Germs and Steel: A Short History of Everybody for the Last 13,000 Years (London, 1998).

———, 'How to Get Rich: A Talk', *Edge*, 56, June 7, 1999.

Eisenstadt, S. N., *Comparative Civilizations and Multiple Modernities* (Leiden, 2003).

Elias, Norbert, *The Civilizing Process*, 2 vols. (Oxford, 1969, 1982 [1939]).

Elvin, Mark, *The Pattern of the Chinese Past* (London, 1973).

Fernández-Armesto, Felipe, *Civilizations: Culture, Ambition and the Transformation of Nature* (New York / London / Toronto/Sydney/Singapore, 2001).

———, *Millennium: A History of our Last Thousand Years* (London, 1997).

Findlay, Ronald and Kevin H. O'Rourke, Power and Plenty: Trade, War, and the World Economy in the Second Millennium (Princeton, 2007).

Fogel, Robert W., The Escape from Hunger and Premature Death, 1700– 2100: Europe, America, and the Third World (Cambridge, 2003).

Goody, Jack, Capitalism and Modernity (Cambridge/Malden, MA, 2004) ———, The Eurasian Miracle (Cambridge/Malden, MA, 2009).

Guyver, Robert, 'England and the Battle for the Centre Ground: The History Working Group and the First History War (1988–1991) as an Archetype for Subsequent Wars', in Tony Taylor and Robert Guyver (eds.), History Wars in the Classroom: Global Perspectives (forthcoming).

Hibbs, Douglas A. Jr. and Ola Olsson, 'Geography, Biogeography, and Why Some

Countries are Rich and Others are Poor', Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States, 101, 10 (2004), 3715–20.

Huntington, Samuel, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (New York/London/Toronto/Sydney, 1996).

Johnson, Samuel, The History of Rasselas, Prince of Abissinia (Boston, 1811 [1759]).

Jones, Eric, The European Miracle: Environments, Economies and Geopolitics in the History of Europe and Asia (Cambridge, 2003).

Kagan, Robert, Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order (New York, 2003).

Kennedy, Paul, The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 (New York, 1989).

Landes, David S., The Wealth and Poverty of Nations: Why Some are So Rich and Some So Poor (New York, 1998).

Laue, Theodore H. von, 'The World Revolution of Westernization', HistoryTeacher, 20, 2 (1987), 263–79.

MacGregor, Neil, A History of the World in 100 Objects (London, 2010) McNeill, William H., The Pursuit of Power: Technology, Armed Force and Society since AD 1000 (Chicago, 1982) , The Rise of the West: A History of the Human Community (Chicago 1991 [1963]).

Maddison, Angus, The World Economy: A Millennial Perspective (Paris, 2001).

Melko, Matthew, The Nature of Civilizations (Boston, 1969).

Matthews, Derek, 'The Strange Death of History Teaching (Fully Explained in Seven Easy-to-Follow Lessons', unpublished pamphlet (January 2009).

Morris, Ian,Why the West Rules – For Now: The Patterns of History, and What They Reveal About the Future (New York, 2010).

Mumford, Lewis, The City in History (New York, 1961).

Murray, Charles A., Human Accomplishment: The Pursuit of Excellence in the Arts and Sciences, 800 B.C. to 1950 (New York, 2003).

North, Douglass C., Understanding the Process of Economic Change (Princeton,

2005) ———, John Joseph Wallis and Barry R. Weingast,Violence and Social Orders: A Conceptual Framework for Interpreting Recorded Human History (Cambridge, 2009).

Osborne, Roger, Civilization: A New History of the Western World (New York, 2008)

Pomeranz, Kenneth, The Great Divergence: China, Europe and the Making of the Modern World Economy (Princeton, 2000).

Putterman, L. and David N. Weil, 'Post-1500 Population Flows and the Long Run Determinants of Economic Growth and Inequality', working paper (September 2008).

Quigley, Carroll, The Evolution of Civilizations (New York, 1961).

Rajan, Raghuram G. and Luigi Zingales, 'The Persistence of Underdevelopment: Institutions, Human Capital, or Constituencies?', NBER working paper no. 12093 (February 2006)

Roberts, John, The Triumph of the West (London, 1985).

Schuker, Stephen A., 'A Sea Change in the Atlantic Economy? How the West Pulled Ahead of the Rest and Why It May Cease to Do So', in William Anthony Hay and Harvey Sicherman (eds.), Is There Still a West? The Future of the Atlantic Alliance (Columbia, MO, 2007), 89–124.

Scruton, Roger, The West and the Rest: Globalization and the Terrorist Threat (London/ New York, 2002).

Wallerstein, Immanuel, The Modern World-System (New York, 1974, 1980 and 1989).

Wong, R. Bin, China Transformed: Historical Change and the Limits of European Experience (Ithaca/London, 2000).

Woods, Thomas E. Jr., How the Catholic Church Built Western Civilization (Washington, DC, 2001).

Chapter 1: Competition

Barmé, G. R., The Forbidden City (London, 2008)

Barrow, Sir John, Some Account of the Public Life, and a Selection from the Unpublished Writings, of the Earl of Macartney, 2 vols. (London, 1807)

Birch, W., The Historical Charters and Constitutional Documents of the City of London (Charleston, SC, 2009)

Bishop, K., China's Imperial Way (Hong Kong, 1997)

Brook, Timothy, The Confusions of Pleasure: Commerce and Culture in Ming China (Berkeley, 1999)

Burrage, M. C. and Corry, D., 'At Sixes and Sevens: Occupational Status in the City of London from the Fourteenth to the Seventeenth Century', American Sociological Review, 46, 1 (1981), 375–93

Castor, Helen, Blood and Roses: The Paston Family and the War of the Roses (London, 2004)

Catto, Jeremy, 'Written English: The Making of the Language, 1370–1400', Past & Present, 179 (2003), 24–59

Chirot, Daniel, 'The Rise of the West', American Sociological Review, 50, 2 (1985), 181–95

Clark, Gregory, A Farewell to Alms: A Brief Economic History of the World (Princeton, 2007)

Cipolla, Carlo M.,Guns and Sails in the Early Phase of European Expansion, 1400–1700 (London, 1965)

Cotterell, A., The Imperial Capitals of China: An Inside View of the Celestial Empire (London, 2008)

Dardess, J. W., 'A Ming Landscape: Settlement, Land Use, Labor and Estheticism in T'ai-Ho County, Kiangsi', Harvard Journal of Asiatic Studies, 49, 2 (1989), 295–364

Dreyer, E. L., Zheng-He: China and the Oceans in the Early Ming Dynasty, 1405–33 (London, 2006)

Duyvendak, J. J. L., 'The True Dates of the Chinese Maritime Expeditions in the Early Fifteenth Century', T'oung Pao, 34, 5, Second Series (1939), 378–9

Ebrey, Patricia Buckley, The Cambridge Illustrated History of China (Cambridge, 1996)

FernJndez-Armesto, Felipe, Millennium: A History of our Last Thousand Years (London, 1997)

———, Pathfinders: A Global History of Exploration (Oxford, 2007)

Finlay, Robert, 'Portuguese and Chinese Maritime Imperialism: Camoes's Lusiads and Luo Maodeng's Voyage of the San Bao Eunuch', Comparative Studies in Society and History, 34, 2 (1992), 232–41

Flynn, Dennis O. and Arturo Giraldez, 'Arbitrage, China, and World Trade in the Early Modern Period', Journal of the Economic and Social History of the Orient, 38, 4 (1995), 429–48

———, 'Born with a "Silver Spoon": The Origin of World Trade in 1571', Journal of World History, 6, 2 (1995), 201–21

Fogel, Robert W., The Escape from Hunger and Premature Death, 1700– 2100: Europe, America, and the Third World (Cambridge, 2003)

Goody, Jack, Capitalism and Modernity (Cambridge/Malden, MA, 2004)

Guan Hanhui and Li Daokui, 'The GDP and Economic Structure of the Ming Dynasty' (forthcoming)

Higman, B. W., 'The Sugar Revolution', Economic History Review, 53, 2 (2000), 213–36

Hobson, John, The Eastern Origins of Western Civilisation (Cambridge, 2004)

Hoffman, Philip T., 'Prices, the Military Revolution, and Western Europe's Comparative Advantage in Violence', Economic History Review (forthcoming)

Huang, Ray, 1587: A Year of No Significance: The Ming Dynasty in Decline (New Haven, 1977)

Inwood, S., A History of London (London, 1998)

Jones, Eric, The European Miracle: Environments, Economies and Geopolitics in the History of Europe and Asia (Cambridge, 2003)

Keay, John, China: A History (London, 2009)

Landes, David S., Revolution in Time: Clocks and the Making of the Modern World, 2nd edn (New York, 2000)

———, The Wealth and Poverty of Nations: Why Some are So Rich and Some So Poor (New York, 1998)

Levathes, Louise,When China Ruled the Seas: The Treasure Fleet of the Dragon Throne, 1405–1433 (Oxford, 1994)

Menzies, Gavin, 1421: The Year China Discovered the World (London, 2002)

Mintz, Sidney W., Sweetness and Power: The Place of Sugar in Modern History (London, 1985)

Mokyr, Joel, Lever of Riches (Oxford, 1990)

Montesquieu, Charles de Secondat, baron de, The Spirit of the Laws, trans. Thomas Nugent and J. V. Prichard (London, 1914 [1748])

Needham, Joseph (ed.), Science and Civilization in China, 7 vols. (Cambridge, 1954–)

Newman, R., 'Opium Smoking in Late Imperial China: A Reconsideration', *Modern Asian Studies, 29* (1995), 765–94

Pelzer, John and Linda, 'The Coffee Houses of Augustan London', *History Today*, 32, (1982) 40–44

Pinker, Steven, *The Better Angels of our Nature: The Decline of Violence and its Psychological Roots* (forthcoming)

Ray, Haraprasad, 'An Analysis of the Chinese Maritime Voyages into the Indian Ocean during Early Ming Dynasty, and their Raison d'Etre', *China Report*, 23, 1 (1987), 65–87

Smith, Adam, *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations* (London, 1904, [1776])

Tsai, Shih-shan Henry, *Perpetual Happiness: The Ming Emperor Yongle* (Seattle/ London, 2002)

Wong, R. Bin, *China Transformed: Historical Change and the Limits of European Experience* (Ithaca/London, 2000)

Chapter 2: Science

Agoston, G., 'Early Modern Ottoman and European Gunpowder Technology', in E. Ihsanoglu, K. Chatzis and E. Nicolaidis, Multicultural Science in the Ottoman Empire (Turnhout, 2003), 13–27

Aksan, V. H., An Ottoman Statesman in War and Peace: Ahmed Resmî Efendi, 1700–1783 (New York, 1995)

Aldington, Richard (ed.), Letters of Voltaire and Frederick the Great (New York, 1927)

Allen, J. S., The 1715 and Other Newcomen Engines at Whitehaven, Cumberland (London, 1972)

———, The Steam Engine of Thomas Newcomen (New York, 1977)

Araci, Emre, 'Giuseppe Donizetti at the Ottoman Court: A Levantine Life', Musical Times, 143, 1880 (Autumn 2002), 49–56

Bailey, Jonathan, Field Artillery and Firepower (Oxford, 1989)

Bakar, O., Tawhid and Science: Essays on the History and Philosophy of Islamic Science (Kuala Lumpur, 1991)

Barkey, K., Empire of Difference: The Ottomans in Comparative Perspective (Cambridge, 2008)

Basalla, George, 'The Spread of Western Science', Science, 156, 3775 (5 May 1967), 611–22

Blanning, T. C. W., The Culture of Power and the Power of Culture (Oxford, 2002)

Bohnstedt, John W., 'The Infidel Scourge of God: The Turkish Menace as Seen by German Pamphleteers of the Reformation Era', Transactions of the American Philosophical Society, New Series 58, 9 (1968), 1–58

Chakrabongse, C. [Prince of Siam], The Education of the Enlightened Despots (London, 1948)

Cizacka, M., 'Price History and the Bursa Silk Industry: A Study in Ottoman Industrial Decline, 1550–1650', Journal of Economic History, 40, 3 (1960), 533–50

Clark, Carol Lea, 'Aristotle and Averroes: The Influences of Aristotle's Arabic Commentator upon Western European and Arabic Rhetoric', Review of Communication, 7, 4 (October 2007), 369–87

Clark, Christopher, Iron Kingdom: The Rise and Downfall of Prussia 1600– 1947 (London, 2006)

Clark, Harry, 'The Publication of the Koran in Latin: A Reformation Dilemma', The Sixteenth Century Journal, 15, 1 (Spring 1984), 3–12

Clarke, E. C., 'The Ottoman Industrial Revolution', International Journal of Middle East Studies, 5, 1 (1974), 65–76

Coles, Paul, The Ottoman Impact on Europe (London, 1968)

Crofts, Richard A., 'Printing, Reform and Catholic Reformation in Germany (1521–1545)', Sixteenth Century Journal, 16, 3 (Autumn 1985), 369–81

Darnton, Robert, The Literary Underground of the Old Regime (Cambridge, MA/ London, 1982)

Davison, Roderic H., Essays in Ottoman and Turkish History, 1774–1923: The Impact of the West (Austin, TX, 2001)

Deen, S. M., Science under Islam: Rise, Decline and Revival (Keele, 2007)

Dittmar, Jeremiah, 'Ideas, Technology, and Economic Change: The Impact of the Printing Press', American University working paper (September 2009)

Duffy, C., Frederick the Great: A Military Life (London, 1988)

Eisenstein, Elizabeth L., The Printing Revolution in Early Modern Europe, 2nd edn (Cambridge, 2005)

Farley, James L., Turkey (London, 1866)

Faroqhi, Suraiya, Subjects of the Sultan: Culture and Daily Life in the Ottoman Empire (London, 2005)

Ferguson, Niall, High Financier: The Lives and Time of Siegmund Warburg (London, 2010)

FernJndez-Armesto, Felipe, Pathfinders: A Global History of Exploration (Oxford, 2007)

Findley, C. V., 'An Ottoman Occidentalist in Europe: Ahmed Midhat Meets Madame Gülnar, 1889', American Historical Review, 103, 1 (1998), 15–49 Forster, C. T.

and F. H. B. Daniel (eds.), The Life and Letters of Ogier Ghiselin de Busbecq (London, 1881)

Fraser, David, Frederick the Great (London, 2000)

Frederick the Great, Anti-Machiavel, ed. Werner Bahner and Helga Bergmann, Les Oeuvres complètes de Voltaire, vol. XIX (Oxford, 1996)

Freely, J., Aladdin's Lamp: How Greek Science Came to Europe through the Islamic World (New York, 2009)

———, The Emergence of Modern Science, East and West (Istanbul, 2004)

Gerber, H., 'Jews and Money-Lending in the Ottoman Empire', Jewish Quarterly Review, 72, 2 (1981), 100–118

———, 'The Monetary System of the Ottoman Empire', Journal of Economic and Social History of the Orient, 25, 3 (1982), 308–24

Goffman, D., The Ottoman Empire and Early Modern Europe (Cambridge, 2002)

Goldstone, Jack A., Revolution and Rebellion in the Early Modern World (Berkeley/ Los Angeles/Oxford, 1991)

Goodwin, Jason, Lords of the Horizons: A History of the Ottoman Empire (London, 1999)

Grant, J.,'Rethinking the Ottoman "Decline": Military Technology Diffusion in the Ottoman Empire, Fifteenth to Eighteenth Centuries', Journal of World History, 10, 1 (1999), 179–201

Gribbin, J., The Fellowship: The Story of a Revolution (London, 2005)

Haffner, Sebastian, The Rise and Fall of Prussia (London, 1998)

Hall, A. R., 'Intellectual Tendencies: Science', in The New Cambridge Modern History, vol. II: The Reformation, 1520–59 (Cambridge, 1962), 422–52

———, Philosophers at War (Cambridge 1980)

Hamdani, A., 'The Ottoman Response to the Discovery of America and the New Route to India', Journal of the American Oriental Society, 101, 3 (1981) 323–30

Henry, John, The Scientific Revolution and the Origins of Modern Science (Basingstoke, 1997)

Hess, A. C., 'The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of the

Oceanic Discoveries, 1453–1525', American Historical Review, 75, 7 (1970), 1892–1919

Holborn, Louise W., 'Printing and the Growth of a Protestant Movement in Germany from 1517 to 1524', Church History, 11, 2 (June 1942), 122–37

Huff, Toby E., The Rise of Early Modern Science (Cambridge, 1995)

I˙hsanog˘lu, E., Science, Technology and Learning in the Ottoman Empire (Aldershot, 2004)

I˙ nalcik, H. and D. Quataert (eds.), An Economic and Social History of the Ottoman Empire, vol. II, 1600–1914 (Cambridge, 1994)

Kant, Immanuel, 'Answer to the Question: "What is Enlightenment?" ' (Knigsberg, 1784): philosophy.eserver.org/kant/what-is-enlightenment.txt

Kinard, J., Weapons and Warfare: Artillery (Santa Barbara, 2007)

Kinross, Patrick, Atatürk: The Rebirth of a Nation (London, 2001)

Kuhn, Thomas, The Structure of Scientific Revolutions, 2nd edn (Chicago, 1970)

Levack, Brian, The Witch-Hunt in Early Modern Europe, 2nd edn (London, 1995)

Levy, A., 'Military Reform and the Problem of Centralization in the Ottoman Empire in the Eighteenth Century', Journal of Middle Eastern Studies, 18, 3 (July, 1982), 227–49

Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey (New York/Oxford, 2001)

———, The Middle East: Two Thousand Years of History from the Rise of Christianity to the Present Day (London, 2001)

———, What Went Wrong? The Clash between Islam and Modernity in the Middle East (London, 2002)

Lyons, Jonathan, The House of Wisdom: How the Arabs Transformed Western Civilization (London, 2010)

McCarthy, J., The Ottoman Turks: An Introductory History to 1923 (London, 1997)

Mango, Andrew, Atatürk (London, 1999)

Mansel, Philip, Constantinople: City of the World's Desire, 1453–1924 (London, 2006)

Montesquieu, Persian Letters, transl. Margaret Mauldon (Oxford, 2008 [1721])

Morgan, Michael Hamilton, Lost History: The Enduring Legacy of Muslim Scientists, Thinkers and Artists (New York, 2008)

Murray, Charles A., Human Accomplishment: The Pursuit of Excellence in the Arts and Sciences, 800 B.C. to 1950 (New York, 2003)

ضzmucur, S. and S. Pamuk, 'Real Wages and Standards of Living in the Ottoman Empire, 1489–1914', Journal of Economic History, 62, 2 (2002), 292–321

Palmer, R. R., 'Frederick the Great, Guibert, Bülow: From Dynastic to National War', in Peter Paret (ed.), Makers of Modern Strategy: From Machiavelli to the Nuclear Age (Oxford, 1986), 91–123

Pamuk, S., 'From Bimetallism to the "Limping Gold Standard": The Ottoman Monetary System in the Nineteenth Century', in Philip L. Cottrell (ed.), East Meets West: Banking, Commerce and Investment in the Ottoman Empire (Aldershot, 2008), 11–24

———, 'Institutional Change and the Longevity of the Ottoman Empire, 1500–1800', Journal of Interdisciplinary History, 35, 2 (2004), 225–47

———, The Ottoman Empire and European Capitalism, 1820–1913: Trade, Investment and Production (Cambridge, 1987)

———, 'Prices in the Ottoman Empire, 1469–1914', International Journal of Middle East Studies, 36 (2004), 451–68

Panaite, V., The Ottoman Law of War and Peace: The Ottoman Empire and Tribute Payers (Boulder, CO/New York, 2000)

Quataert, D., Manufacturing and Technology Transfer in the Ottoman Empire, 1800–1914 (Istanbul, 1992)

———, Ottoman Manufacturing in the Age of the Industrial Revolution (Cambridge, 1993)

Rafeq, Abdul-Karim, 'Making a Living or Making a Fortune', in Nelly Hanna (ed.), Money, Land and Trade: An Economic History of the Muslim Mediterranean (London and New York, 2002), 101–23

Reid, James J., Crisis of the Ottoman Empire: Prelude to Collapse, 1839– 1878 (Stuttgart, 2000)

Senor, Dan and Saul Singer, Start-Up Nation: The Story of Israel's Economic Miracle (New York, 2009)

Shank, J. B., The Newton Wars and the Beginning of the French Enlightenment (Chicago/London, 2008)

Shaw, Stanford J., History of the Ottoman Empire and Modern Turkey (Cambridge, 1976)

Smith, W. G. C., 'Science and Technology in Early Modern Islam, c. 1450–c. 1850', London School of Economics working paper (n.d.)

Sprat, T., The History of the Royal Society of London, for the Improving of Natural Knowledge, 2nd edn (London, 1702)

Steele, B. D., 'Muskets and Pendulums: Benjamin Robins, Leonhard Euler, and the Ballistics Revolution', Technology and Culture Journal, 35, 2 (1994), 348–82

Steinberg, S. H., Five Hundred Years of Printing (London, 1959)

Stewart, L. The Rise of Public Science: Rhetoric, Technology and Natural Philosophy in Newtonian Britain, 1660–1750 (Cambridge, 1992)

Stoye, John, The Siege of Vienna (Edinburgh, 2006)

Sturdy, D. J., Fractured Europe 1600–1721 (Oxford, 2002)

Terrall, M., The Man Who Flattened the Earth: Maupertuis and the Sciences in the Enlightenment (Chicago, 2002)

Thomas, Keith, Religion and the Decline of Magic (London, 1971)

Vlahakis, George N. et al., Imperialism and Science: Social Impact and Interaction (Santa Barbara, 2006)

Walsham, Alexandra, 'Unclasping the Book? Post-Reformation English Catholicism and the Vernacular Bible,' Journal of British Studies, 42, 2 (2003), 141–66

Weiker, Walter F., 'The Ottoman Bureaucracy: Modernization and Reform', Administrative Science Quarterly, 13, 3 (1968), 451–70

Chapter 3: Property

Acemoglu, Daron, Simon Johnson and James A. Robinson, 'Reversal of Fortune: Geography and Institutions in the Making of the Modern World Income Distribution', Quarterly Journal of Economics, 117, 4 (2002), 1231–94

———, 'The Rise of Europe: Atlantic Trade, Institutional Change and Economic Growth', American Economic Review, 95, 3 (2005), pp. 546–79

Adamson, J. A. A., 'England without Cromwell: What if Charles I Had Avoided the Civil War?', in Niall Ferguson (ed.), Virtual History: Alternatives and Counterfactuals (London, 1993), 91–125

Arneil, Barbara, John Locke and America: The Defence of English Colonialism (Oxford, 1996)

Barrera-Osorio, A., Experiencing Nature: The Spanish American Empire and the Early Scientific Revolution (Austin, TX, 2006)

Bedoya, Gabriel et al., 'Admixture Dynamics in Hispanics: A Shift in the Nuclear Genetic Ancestry of a South American Population Isolate', PNAS, 103, 19 (9 May 2006), 7234–9

Bingham, H., Lost City of the Incas (London, 2003)

Bolيvar, Simn, Selected Writings of Bolيvar, ed. Harold A. Bierck Jr, transl. Lewis Bertrand, compiled by Vicente Lecuna, 2 vols. (New York, 1951)

Brown, Matthew, Adventuring through Spanish Colonies: Simon Bolivar, Foreign Mercenaries and the Birth of New Nations (Liverpool, 2006)

Burkholder, M. A., Colonial Latin America, 2nd edn (Oxford, 1994)

Carvajal-Carmona, Luis G. et al., 'Strong Amerind/White Sex Bias and a Possible Sephardic Contribution among the Founders of a Population in Northwest Colombia', American Journal of Human Genetics, 67 (2000), 1287–95

Churchill, Winston S., 'Civilization', in Randolph S. Churchill (ed.), Blood, Sweat and Tears, (Whitefish, MT, 2007 [1940]), 45–9

Clark, Gregory, A Farewell to Alms: A Brief Economic History of the World (Princeton, 2007)

Clark, J. C. D., 'British America: What If There Had Been No American Revolution?' in Niall Ferguson (ed.), Virtual History: Alternatives and Counterfactuals (London, 1993), 125–75

———, The Language of Liberty, 1660–1832: Political Discourse and Social Dynamics in the Anglo-American World (Cambridge, 1993)

Cordeiro, Jose Luis, 'Constitutions around the World: A View from Latin America', Institute of Developing Economies Discussion Paper, 164 (2008)

Creel, Margaret Washington, A Peculiar People: Slave Religion and Community-Culture among the Gullahs (New York, 1988)

Curtin, Philip, The Rise and Fall of the Plantation Complex: Essays in Atlantic History (Cambridge, 1998)

Davis, David Brion, 'Slavery', in C. Van Woodward (ed.), The Comparative Approach to American History: Slavery (New Jersey, 1969), pp. 121–35

Egnal, M., New World Economies: The Growth of the Thirteen Colonies and Early Canada (New York/Oxford, 1998)

Elkins, Stanley, Slavery: A Problem in American Institutional and Intellectual Life (Chicago, 1968)

Elliott, J. H., Empires of the Atlantic World (New Haven, 2006)

Eltis, David, 'The Volume and Structure of the Transatlantic Slave Trade: A Reassessment', William and Mary Quarterly, 58, 1 (January 2001), 17–46

Emmer, P. C. (ed.), Colonialism and Migration: Indentured Labour before and after Slavery (Dordrecht, 1986)

Engerman, Stanley L. and Kenneth L. Sokoloff, 'Once upon a Time in the Americas: Land and Immigration Policies in the New World', working paper (2008)

Fage, J. D., 'Slavery and the Slave Trade in the Context of West African History', Journal of African History, 10, 3 (1969), 393–404

Ferguson, Niall, The War of the World: History's Age of Hatred (London, 2006) Fern

Jndez-Armesto, Felipe, The Americas: A History of Two Continents (London, 2003)

Findlay, Ronald and Kevin H. O'Rourke, Power and Plenty: Trade, War, and the World Economy in the Second Millennium (Princeton, 2007)

Gabai, Rafael Varn, Francisco Pizarro and his Brothers: The Illusion of Power in Sixteenth-Century Peru (Norman, 1997)

Graham, R., Patronage and Politics in Nineteenth-Century Brazil (Stanford, 1990)

Haber, Stephen, 'Development Strategy or Endogenous Process? The Industrialization of Latin America', Stanford University working paper (2005)

Hamnett, Brian R., 'The Counter Revolution of Morillo and the Insurgent Clerics of New Granada, 1815–1820', Americas, 32, 4 (April 1976), 597–617

Hemming, J., The Conquest of the Incas (London, 1993)

Hobbes, Thomas, Leviathan or the Matter, Forme, and Power of a Common Wealth, Ecclesiasticall and Civil (London, 1651)

Jasanoff, Maya, Liberty's Exiles: American Loyalists in the Revolutionary World (forthcoming)

King, James F., 'A Royalist View of Colored Castes in the Venezuelan War of Independence', Hispanic American Historical Review, 33, 4 (1953), 526–37

Klein, Herbert F. and Francisco Vidal Luna, Slavery in Brazil (Cambridge, 2010)

Langley, Lester D., The Americas in the Age of Revolution, 1750–1850 (New Haven/London, 1998)

Lanning, John Tate, Academic Culture in the Spanish Colonies (Port Washington, NY/London, 1969)

Locke, John, Two Treatises of Government: In the former, The false Principles and Foundation of Sir Robert Filmer, And his Followers, are Detected and Overthrown. The latter is an Essay concerning The True Original, Extent, and End of Civil Government (London, 1690)

Lynch, J., 'Bolي‍var and the Caudillos', Hispanic American Historical Review, 63, 1 (1983), 3–35

———, Simn Bolي‍var: A Life (London, 2006)

Markham, Clements R. (ed.), Reports on the Discovery of Peru (London, 1872)

North, Douglass C., John Joseph Wallis and Barry R. Weingast, Violence and Social Orders: A Conceptual Framework for Interpreting Recorded Human History (Cambridge, 2009)

North, Douglass C. and Barry R. Weingast, 'Constitutions and Commitment: The Evolution of Institutions Governing Public Choice in Seventeenth- Century England', Journal of Economic History, 44, 4 (1989), 803–32

O'Brien, Patrick K.,'Inseparable Connections: Trade, Economy, Fiscal State, and the Expansion of Empire, 1688–1815', in P. J. Marshall (ed.), The Oxford History of the British Empire, vol. II: The Eighteenth Century (Oxford/New York, 1998), 53–77

Ortega, F. A., 'Earthquakes during the Colonial Period', ReVista: Harvard Review of Latin America (2007): http://www.drclas.harvard.edu/revista/ articles/view/907

Pomeranz, Kenneth, The Great Divergence: China, Europe and the Making of the Modern World Economy (Princeton, 2000)

Poppino, Rollie E., Brazil: The Land and the People (Oxford, 1968)

Prado, C., The Colonial Background of Modern Brazil (Berkeley/Los Angeles/ London, 1969)

Reid, James J., Crisis of the Ottoman Empire: Prelude to Collapse, 1839– 1878 (Stuttgart, 2000)

Rostworowski, Marي‍a, Dőa Francisca Pizarro (Lima, 1989)

Sato, A., Legal Aspects of Landownership in Colonial Spanish America (Tokyo, 1976)

Schaefer, Christina, Genealogical Encyclopaedia of the Colonial Americas (Baltimore, 1998)

Schwartz, Stuart B., 'The Colonial Past: Conceptualizing Post-Dependentista Brazil', in Jeremy Adelman (ed.), Colonial Legacies: The Problem of Persistence in Latin American History (New York/London, 1999), 175–92

———, Slaves, Peasants, and Rebels: Reconsidering Brazilian Slavery (Champaign, IL, 1995)

Thomas, Hugh, The History of the Atlantic Slave Trade 1440–1870 (London, 1997)

Thornton John and Linda Heywood, Central Africans, Atlantic Creoles, and the Foundation of the Americas, 1585 (Cambridge, 2007)

Tomlins, C., 'Indentured Servitude in Perspective: European Migration into North America and the Composition of the Early American Labour Force, 1600–1775', in Cathy Matson (ed.), The Economy of Early America: Historical Perspectives and New Directions (Philadelphia, 2007), 146–82

Ullrick, Laura F., 'Morillo's Attempt to Pacify Venezuela', Hispanic American Historical Review, 3, 4 (1920), 535–65

Walvin, J., Black Ivory: Slavery in the British Empire (Oxford/Malden, MA, 2001)

Wang S., N. Ray, W. Rojas, M. V. Parra, G. Bedoya et al., 'Geographic Patterns of Genome Admixture in Latin American Mestizos', PLoS Genet, 4, 3 (2008), 1–9

Washington, George and William Crawford, The Washington–Crawford Letters. Being the Correspondence between George Washington and William Crawford, from 1767 to 1781, Concerning Western Lands. With an Appendix, Containing Later Letters of Washington on the Same Subject; and Letters from Valentine Crawford to Washington, written in 1774 and 1775, Chronologically Arranged and Carefully Annotated (Cincinnati, 1877)

Williams, Eric, Capitalism and Slavery (London, 1964)

Williamson, E., The Penguin History of Latin America (London, 1992)

Wood, Michael, Conquistadors (London, 2001)

Woodward, Margaret L., 'The Spanish Army and the Loss of America, 1810– 1824', Hispanic American Historical Review, 48, 4 (1968) 586–607

Chapter 4: Medicine

Acemoglu, Daron, Davide Cantoni, Simon Johnson and James A. Robinson, 'The Consequences of Radical Reform: The French Revolution', National Bureau of Economic Research working paper 14831 (April 2009)

Acemoglu, Daron, Simon Johnson and James Robinson, 'Disease and Developmen in Historical Perspective', Journal of the European Economic Association, 1, 2–3 (2003), 397-405

Anon., Die Rheinische Mission und Der Herero-Aufstand: Erelebnisse und Beobachtungen rheinischer Missionare (Barmen, 1904)

Asiwaju, A. I.,West African Transformations: Comparative Impact of French and British Colonialism (Niger, 1991)

Bayer, Hauptmann M., Mit dem Hauptquartier in Südwestafrika (Berlin, 1909)

Beck, Ann, 'Medicine and Society in Tanganyika, 1890–1930: A Historical Inquiry', Transactions of the American Philosophical Society, 67, 3 (1977), 1–59

Beckett, I. and K. Simpson (eds.), A Nation in Arms: A Social Study of the British Army in the First World War (Manchester, 1985)

Berenson, E., Heroes of Empire: Five Charismatic Men and the Conquest of Africa (Berkeley/Los Angeles/London, 2011)

Betts, Raymond F., Assimilation and Association in French Colonial Theory, 1890–1914 (New York/London, 1961)

———, 'The Establishment of the Medina in Dakar', Africa: Journal of the International African Institute, 41, 2 (April 1971), 143–52

Blanton, Robert, T. David Mason and Brian Athow, 'Colonial Style and Post-Colonial Ethnic Conflict in Africa', Journal of Peace Research, 38, 4 (2001), 473–91

Brunschwig, H., French Colonialism 1871–1914: Myths and Realities (London, 1966)

———, 'French Exploration and Conquest in Tropical Africa from 1865 to 1898',

in L. H. Gann and P. Duignan (eds.), Colonialism in Africa, 1870– 1960, vol. I (Cambridge, 1969), 132–64

Buell, R. L., The Native Problem in Africa (London, 1965)

Burke, Edmund, Reflections on the Revolutions in France: A Critical Edition, ed. J. C. D. Clark (Cambridge, 2001)

Carter, Susan B., Scott Sigmund Gartner, Michael R. Haines, Alan L. Olmstead, Richard Sutch and Gavin Wright (eds.), Historical Statistics of the United States: Millennial Edition Online (Cambridge, 2006)

Centre d'Informations Documentaires, The Work of France in the Cameroons (Paris, 1939)

Clausewitz, Carl von, On War, ed. Michael Howard and Peter Paret (Princeton, 1976)

Cohen, William, Rulers of Empire: The French Colonial Service in Africa (Stanford, 1971)

Collier, Paul, The Bottom Billion: Why the Poorest Countries are Failing and What Can Be Done about It (Oxford, 2007)

Conklin, Alice L., A Mission to Civilise: The Republican Idea of Empire in France and West Africa, 1895–1930 (Stanford, 1998)

Crowder, Michael, Senegal: A Study of French Assimilation Policy (Oxford, 1962)

Cruise O'Brien, Rita, White Society in Black Africa: The French of Senegal (London, 1972)

Daly, M. W., 'Omdurman and Fashoda, 1898: Edited and Annotated Letters of F. R. Wingate', Bulletin of the British Society for Middle Eastern Studies, 10, 1 (1983), 21–37

Deutsch, Jan-Georg, Emancipation without Abolition in German East Africa c. 1884-1914 (Oxford, 2006)

Drechsler, Horst, Südwestafrika unter deutscher Kolonialherrschaft: Der Kampf der Herero und Nama gegen den deutschen Imperialismus (1884– 1915) (Berlin, 1966)

Easterly, William, The White Man's Burden: Why the West's Efforts to Aid the Rest Have Done So Much Ill and So Little Good (London, 2007)

Echenberg, Myron, Black Death, White Medicine: Bubonic Plague and the Politics of Public Health in Senegal, 1914–1945 (Portsmouth, NH Oxford, 2002)

———, Colonial Conscripts: The Tirailleurs Senegalais in French West Africa, 1857–1960 (London, 1990)

———, 'Medical Science in Colonial Senegal: The Pasteur Institute of Dakar and the Quest for a Yellow Fever Vaccine, 1925–1925', McGill University paper (n.d.)

Eichacker, Captain Rheinhold, 'The Blacks Attack!', New York Times Current History, 9 (April–June 1917), 110–12

Eiermann, Martin, 'The Good, the Bad, and the Ugly: Colonial Violence, Domestic Discourses, and the Production of Truths in Imperial Germany, 1904 to 1908', (Harvard University senior thesis, 2010)

Evans, Andrew D., 'Anthropology at War: Racial Studies of Prisoners of War during World War I', in H. Penny and M. Bunzl (eds.), Worldly Provincialism: German Anthropology in the Age of Empire (Ann Arbor, MI, 2003), 198–230

Ferguson, Niall, The Ascent of Money: A Financial History of the World (London, 2008)

Fieldhouse, D. K., Black Africa 1945–80: Economic Decolonization and Arrested Development (London, 1986)

Fischer, Eugen, Die Rehobother Bastards und das Bastardierungsproblem beim Menschen: Anthropologische und ethnographische Studien am Rehebother Bastardvolk in Deutsch-Südwest-Afrika (Jena, 1913)

Fonge, Fuabeh P., Modernization without Development in Africa: Patterns of Change and Continuity in Post-Industrial Cameroonian Public Service (Trenton, NJ/Asmara, Eritrea, 1997)

Gandhi, Mahatma, The Collected Works of Mahatma Gandhi (electronic book) (New Delhi, 1999)

———, Hind Swaraj, ed. Jitendra T. Desai (Ahmedabad, 1938)

Gardiner, David E., 'The French Impact on Education in Africa, 1817–1960', in G. Wesley Johnson (ed.), Double Impact: France and Africa in the Age of Imperialism (Westport, CT/London, 1985), 333–44

Gewald, Jan-Bart, 'The Great General of the Kaiser', in Botswana Notes and Records, 26 (1994), 67–76

———, Herero Heroes: A Socio-Political History of the Herero of Namibia, 1890–1923 (Oxford/Cape Town/Athens, 1999)

Gide, André, Travels in the Congo (Berkeley/Los Angeles, 1929)

Gifford, P. and Louis Wm Roger, France and Britain in Africa: Imperial Rivalry and Colonial Rule (New Haven/London, 1971)

Hochschild, A., King Leopold's Ghost: A Story of Greed, Terror and Heroism in Colonial Africa (New York, 1999)

Iliffe, J., Africans: The History of a Continent (Cambridge, 2007 [1995]) Joireman, Sandra F., 'Inherited Legal Systems and Effective Rule of Law: Africa and the Colonial Legacy', Journal of Modern African Studies, 39, 4 (2001), 57196

Kipling, Rudyard, 'France at War: On the Frontier of Civilization', in The Collected Works of Rudyard Kipling, vol. II (Charleston, SC, 2008)

Klein, Martin A., Islam and Imperialism in Senegal: Sine-Saloum, 1847–1914 (Stanford, 1968)

Kuhlmann, A., Auf Adlers Flügeln (Barmen, 1911)

Labrousse, Ernest, '1789–1830–1848: How Revolutions are Born', in François Crouzet, William Henry Chaloner and Fritz Stern (eds.), Essays in European Economic History, 1789–1914 (London, 1969), 1–14

Lenin, Vladimir Ilyich, Imperialism, the Highest Stage of Capitalism (Moscow, 1963 [1917])

Leutwein, Theodor, Elf Jahre Gouverneur in Deutsch-Südwestafrika (Berlin, 1906)

Levine, Alison Murray, 'Film and Colonial Memory: La Croisière noire, 1924–2004', in Alec G. Hargreaves (ed.) Memory, Empire and Post-colonialism: Legacies of French Colonialism (Lanham, MD/Oxford, 2005), 81–97

Lieven, Dominic, Russia against Napoleon: The True Story of the Campaigns of War and Peace (New York, 2010)

Lunn, Joe, Memoirs of the Maelstrom: A Senegalese Oral History of the First World War (London, 1999)

McCullum, Jack E., Military Medicine: From Ancient Times to the 21st Century (Santa Barbara, 2008)

MacLeod, Roy and M. Lewis (eds.), Disease, Medicine and Empire: Perspectives on Western Medicine and the Experience of European Expansion (London /New York, 1988)

McLynn, Frank, Napoleon: A Biography (London, 2002)

Madley, Benjamin, 'From Africa to Auschwitz: How German South West Africa Incubated Ideas and Methods Adopted and Developed by the Nazis in Eastern Europe', European History Quarterly, 35, 3 (2005), 429–64

———, 'Patterns of Frontier Genocide 1803–1910: The Aboriginal Tasmanians, the Yuki of California, and the Herero of Namibia', Journal of Genocide Research, 6, 2 (2004), 167–92

Marcovich, A., French Colonial Medicine and Colonial Rule: Perspectives on Western Medicine and the Experience of European Expansion (London/ New York, 1988)

Marr, D. G.,Vietnamese Anticolonialism, 1885–1925 (Berkeley/Los Angeles, 1971)

Mazower, Mark, Dark Continent: Europe's Twentieth Century (London, 2008)

———, Hitler's Empire: Nazi Rule in Occupied Europe (London, 2008)

Moyo, Dambisa, Dead Aid: Why Aid is Not Working and How There is Another Way for Africa (London, 2010)

Ngalamulume, K., 'Keeping the City Totally Clean: Yellow Fever and the Politics of Prevention in Colonial Saint-Louis-de-Sénégal', Journal of African History, 45 (2004), 183–202

Olusoga, David and Casper W. Erichsen, The Kaiser's Holocaust: German Forgotten Genocide and the Colonial Roots of Nazis (London, 2010)

Riley, James C., 'The Timing and Pace of Health Transitions around the World', Population and Development Review, 31, 4 (Dec. 2005), 741–64

Robiquet, Paul (ed.), Discours et opinions de Jules Ferry (Paris, 1897)

Rohrbach, Paul, Aus Südwest-Afrikas schweren Tagen: Blätter von Arbeit und Abschied (Berlin, 1909)

———, Deutsche Kolonialwirtschaft, vol. I: Südwest-Afrika (Berlin, 1907) Rousseau, Jean-Jacques, The Social Contract (London, 1968)

Rust, Conrad, Krieg und Frieden im Hereroland: Aufzeichnungen aus dem Kriegsjahre 1904 (Berlin, 1905)

Sabatier, Peggy R., '"Elite" Education in French West Africa: The Era of Limits, 1903–1945', International Journal of African Historical Studies, 11, 2 (1978), 247–66

Saxe, Jo W., 'The Changing Economic Structure of French West Africa', Annals of the American Academy of Political and Social Science, 298 (1955), 52–61

Schama, Simon, Citizens: A Chronicle of the French Revolution (London, 1990)

Schneider, W. H., 'Smallpox in Africa during Colonial Rule', Medical History Journal, 53, 2 (April 2009), 193–227

Seiner, Franz, Bergtouren und Steppenfahrten im Hereroland (Berlin, 1904)

Shaw, George Bernard, 'Preface on Doctors', in The Doctor's Dilemma, Getting Married, and the Shewing-Up of Blanco Posnet (Rockville, MD, 2003 [1911])

Singer, B. and Langdon, J., Cultured Force: Makers and Defenders of the French Colonial Empire (Madison, WI, 2004)

Smith, Leonard V., Stéphane Audoin-Rouzeau and Annette Becker, France and the Great War, 1914–1918 (Cambridge, 2003)

Smith, R.,Vietnam and the West (London, 1968)

Steer, G. L., Judgment on German Africa (London, 1939)

Strachan, Hew, The First World War, vol. I: To Arms (Oxford, 2001)

———, The First World War in Africa (Oxford, 2004)

Tai, Hue-Tam Ho, 'The Politics of Compromise: The Constitutionalist Party and the Electoral Reforms of 1922 in French Cochinchina', Modern Asian Studies Journal, 18, 3 (1984), 371–91

Taithe, B., The Killer Trail: A Colonial Scandal in the Heart of Africa (Oxford, 2009)

Taylor, Miles, 'The 1848 Revolutions and the British Empire', Past & Present, 166 (Feb. 2000), 146–80

Tocqueville, Alexis de, Democracy in America, ed. Bruce Frohnan (London, 2002)

Twain, Mark, Following the Equator: A Journey around the World, vol. II (New York, 1897)

Van Beusekom, Monica M., Negotiating Development: African Farmers and Colonial Experts at the Office du Niger, 1920–1960 (London, 2002)

Weindling, Paul, Health, Race and German Politics between National Unification and Nazism, 1870–1945 (Cambridge, 1989)

Winter, J. M., The Great War and the British People (London, 1985)

Wolpert, Stanley, Gandhi's Passion: The Life and Legacy of Mahatma Gandhi (Oxford, 2002)

Wright, P., Conflict on the Nile: The Fashoda Incident of 1898 (London, 1972)

Yansané, A. Y., 'The Impact of France on Education in West Africa', in G. Wesley Johnson (ed.), Double Impact: France and Africa in the Age of Imperialism (Westport, CT/London, 1985), 345–62

Zimmerer, 'The First Genocide of the Twentieth Century: The German War

of Destruction in South-West Africa (1904–1908) and the Global History of Genocide', in Doris L. Bergen (ed.), Lessons and Legacies: From Generation to Generation (Evanston, IL, 2008), 34–51

Chapter 5: Consumption

Allen, Frederick, Secret Formula: How Brilliant Marketing and Relentless Salesmanship Made Coca-Cola the Best-Known Product in the World (New York, 1995)

Allen, Robert C., The British Industrial Revolution in Global Perspective (Cambridge, 2009)

———, 'The Great Divergence in European Wages and Prices from the Middle Ages to the First World War', Explorations in Economic History, 38 (2001), 411–47

Allen, Robert C., Jean-Pascal Bassino, Debin Ma, Christine Moll-Murata and Jan Luiten van Zanden, 'Wages, Prices, and Living Standards in China, Japan, and Europe, 1738–1925', working paper (2005)

Bairoch, Paul, 'International Industrialization Levels from 1750 to 1980', Journal of Economic History, 11 (1982), 269–333

Beasley, W. G., Japan Encounters the Barbarian: Japanese Travellers in America and Europe (New Haven, 1995)

Berg, Maxine, 'From Imitation to Invention: Creating Commodities in Eighteenth-Century Britain', Economic History Review, New Series, 55, 1 (2002), 1–30

———, 'In Pursuit of Luxury: Global History and British Consumer Goods in the Eighteenth Century', Past & Present, 182 (2004), 85–142

Berger, Helge and Mark Spoerer, 'Economic Crises and the European Revolutions of 1848', Journal of Economic History, 61, 2 (2001), 293–326

Bergson, Abram, 'How Big was the Soviet GDP?', Comparative Economic Studies (1997), 1–14

Bismarck, Count Otto von, Reflections and Reminiscences (London, 1899)

Broadberry, Stephen N., 'How did the United States and Germany Overtake Britain? A Sectoral Analysis of Comparative Productivity Levels, 1870– 1990', Journal of Economic History, 58, 2 (1998), 375–407

Buruma, Ian, Inventing Japan: From Empire to Economic Miracle, 1853- 1964 (London, 2003)

Carlyle, Thomas, Past and Present (London, 1843)

Clark, Gregory, A Farewell to Alms: A Brief Economic History of the World (Princeton, 2007)

Clark, Gregory and Robert C. Feenstra, 'Technology in the Great Divergence',

in Michael D. Bordo, Alan M. Taylor and Jeffrey G. Williamson (eds.), Globalization in Historical Perspective (Chicago/London, 2003), 277–322

Cole, Harold L., Lee O. Ohanian and Ron Leung, 'Deflation and the International Great Depression: A Productivity Puzzle', Federal Reserve Bank of Minneapolis Research Department staff report, 356 (February 2005)

Copeland, Melvin T., 'Technical Development in Cotton Manufacturing since 1860', Quarterly Journal of Economics, 24, 1 (1909), 109–59

Cox, Mick (ed.), Rethinking the Soviet Collapse: Sovietology, the Death of Communism and the New Russia (London, 1999)

Crafts, N. F. R., 'British Economic Growth, 1700–1831: A Review of the Evidence, Economic History Review, 36, 2 (1983), 177–99

Darwin, Charles, On the Origin of Species (Oxford, 2008 [1859])

Dattel, Gene, Cotton and Race in the Making of America: The Human Costs of Economic Power (New York, 2009)

Debray, Jules Régis, 'The Third World: From Kalashnikovs to God and Computers' Interview with Nathan Gardels, New Perspectives Quarterly, 3, 1 (1986), 25–8

Dyos, H. J. and D. H. Aldcroft, British Transport: An Economic Survey from the 17th Century to the 20th (Leicester, 1969)

Ebadi, S., Iran Awakening (London, 2006)

Esteban, Javier Cuenca, 'Factory Costs, Market Prices, and Indian Calicos: Cotton Textile Prices Revisited, 1779–1831', Economic History Review, 52, 4 (1999), 749–55

Evans, Richard J., Death in Hamburg: Society and Politics in the Cholera Years, 1830–1910 (Oxford, 1987)

Farnie, Douglas A., 'The Role of Cotton Textiles in the Economic Development of India, 1600–1990', in Douglas A. Farnie and David J. Jeremy (eds.), The Fiber that Changed the World: The Cotton Industry in International Perspective, 1600–1990s (Oxford, 2004), 395–430

———, 'The Role of Merchants as Prime Movers in the Expansion of the Cotton Industry, 1760–1990', in Douglas A. Farnie and David J. Jeremy (eds.), The Fiber that Changed the World: The Cotton Industry in International Perspective, 1600–1990s (Oxford, 2004), 15–55

Ferdows, A. K., 'Women and the Islamic Revolution', International Journal of Middle East Studies, 15, 2 (1983), 283–98

Ferguson, Niall, 'An Evolutionary Approach to Financial History', Cold Spring Harbor Symposia on Quantitative Biology, 74 (2009), 449–54

———, The War of the World: History's Age of Hatred (London, 2006) Findlay, Ronald and Kevin H. O'Rourke, Power and Plenty: Trade, War, and the World Economy in the Second Millennium (Princeton, 2007)

Fordham, Benjamin O.,'"Revisionism" Reconsidered: Exports and American Intervention in the First World War', unpublished paper, Department of Political Science, Binghamton University (SUNY) (2004)

Fowler, Alan, Lancashire Cotton Operatives and Work, 1900–1950: A Social History of Lancashire Cotton Operatives in the Twentieth Century (Farnham, 2003)

Fowler Mohanty, G., Labor and Laborers of the Loom: Mechanization and Handloom Weavers, 1780–1840 (New York/London, 2006)

Friedman, Milton and Anna J. Schwartz, A Monetary History of the United States, 1867–1960 (Princeton, 1963)

Fukuyama, Francis, The End of History and the Last Man (New York, 1992) Gaddis, John, The Cold War: A New History (London, 2006)

Galeano, Eduardo, Open Veins of Latin America: Five Centuries of the Pillage of a Continent (London, 2009)

Gildea, Robert, Barricades and Borders: Europe, 1815–1914 (Oxford, 1996)

Gong, Gerrit W., The Standard of 'Civilization' in International Society (Oxford, 1984)

Grayling, A. C., Toward the Light of Liberty: The Struggles for Freedom and Rights that Made the Modern Western World (New York, 2007)

Greer, Germaine, The Female Eunuch (New York, 1980 [1970])

Guinnane, Timothy, Ron Harris, Naomi R. Lamoreaux and Jean-Laurent Rosenthal, 'Putting the Corporation in its Place', NBER working paper 13109 (May 2007)

Harrison, Mark (ed.), The Economics of World War II: Six Great Powers in International Comparison (Cambridge, 1998)

Hirano Ken'ichiro (ed.), The State and Cultural Transformation: Perspectives from East Asia (Tokyo, 1993)

Howarth, S., Henry Poole, Founders of Savile Row (Honiton, 2003)

Hunt, Tristan, The Frock-Coated Communist: The Revolutionary Life of Friedrich Engels (London, 2009)

Hyman, Louis, 'Debtor Nation: How Consumer Credit Built Postwar America', Enterprise and Society, 9, 4 (2008), 614–18

Jones, Peter M., 'Living the Enlightenment and the French Revolution: James Watt, Matthew Boulton, and their Sons', Historical Journal, 42, 1 (1999), 157–82

Kaelble, Hartmut, Industrialization and Social Inequality in 19th-Century Europe, trans. Bruce Little (Leamington Spa/Heidelberg, 1986)

Kamisaka, S., Cotton Mills and Workers in Modern Japan (Osaka, 1919)

Keene, Donald, Emperor of Japan: Meiji and his World, 1852–1912 (New York, 2005)

Kurlansky, Mark, 1968: The Year that Rocked the World (New York, 2005)

Lamoreaux, Naomi, 'Scylla or Charybdis? Some Historical Reflections on the Two Basic Problems of Corporate Governance', unpublished paper (2009)

La Porta, Rafael, Florencio Lopez-de-Silanes and Andrei Shleifer, 'The Economic Consequences of Legal Origins', Journal of Economic Literature, 46, 2 (2008), 285–332

La Porta, Rafael, Florencio Lopez-de-Silanes, Andrei Shleifer and Robert Vishny, 'Investor Protection and Corporate Governance', Journal of Financial Economics, 58, 1 (2000), 1–25

———, 'Law and Finance', Journal of Political Economy, 106, 6 (1998), 1113–55

Leggewie, Claus, '1968: A Defining Year in World Politics: A Return from Cultural Nostalgia to Political Analysis', Goethe Institute Online: http:// www.goethe.de/ges/pok/dos/dos/wdp/en3045262.htm

Leunig, T., 'A British Industrial Success: Productivity in the Lancashire and New England Cotton Spinning Industries a Century Ago', Economic History Review 56, 1 (2003), 90–117

McKendrick, Neil, John Brewer and J. H. Plumb, The Birth of a Consumer Society: The Commercialization of Eighteenth-Century England (London, 1982)

McKeown, Adam, 'Global Migration, 1846–1940', Journal of World History, 15 (2004), 185–9

Maddison, Angus, The World Economy: A Millennial Perspective (Paris, 2001)

Malony, B., 'Modernity, Gender and the Empire: Gender, Citizenship and Dress in Modernizing Japan', International Institute for Asian Studies Newsletter, 46 (2008): www.iias.nl/nl/46/IIAS_NL46_0809.pdf

Marshall, Peter, Demanding the Impossible: A History of Anarchism (Oakland, 2010)

Maurer, Noel, and Carlos Yu, The Big Ditch: How America Took, Built, Ran and Ultimately Gave Away the Panama Canal (Princeton, 2011)

Mazzini, Giuseppe, 'To the Italians', in The Duties of Man and Other Essays, trans. Thomas Jones (Charleston, 2010)

Meech-Pekarik, J., The World of the Meiji Print: Impressions of a New Civilization (New York, 1986)

Mitchell, B. R., Abstract of British Historical Statistics (Cambridge, 1962)

Mokyr, Joel, The Economics of the Industrial Revolution (London, 1985)

Morris, Ian,Why the West Rules – For Now: The Patterns of History, and What They Reveal about the Future (New York, 2010)

Moser, Charles K., The Cotton Textile Industry of Far Eastern Countries (Boston, MA, 1930)

Nashat, G., 'Women in the Islamic Republic of Iran', Iranian Studies Journal, 13, 1–4 (1980), 165–94

O'Brien, P. K., T. Griffiths and P. Hunt, 'Political Components of the Industrial Revolution: Parliament and the English Cotton Textile Industry, 1660–1774', Economic History Review, 44, 3 (1991), 395–423

Okuefuna, David, The Wonderful World of Albert Kahn: Colour Photographs from a Lost Age (London, 2008)

Parthasarathi, Prasannan, 'Rethinking Wages and Competitiveness in the Eighteenth Century: Britain and South India', Past & Present, 158 (1998), 79–109

Piketty, Thomas and Emmanuel Saez, 'Income Inequality in the United States, 1913–1998', NBER working paper no. 8467 (2001)

Poiger, Uta G., Jazz, Rock and Rebels: Cold War Politics and American Culture in a Divided Germany (Berkeley/Los Angeles, 2000)

Pollard, Sidney, Peaceful Conquest: The Industrialization of Europe, 1780– 1914 (Oxford, 1981)

Ramet, Sabrina Petra, 'Rock Music in Czechoslovakia', in Sabrina Petra Ramet (ed.), Rocking the State: Rock Music and Politics in Eastern Europe and Russia (Boulder/San Francisco/Oxford, 1994) 55–72

Safanov, Mikhail, 'You Say You Want a Revolution', History Today (Aug. 2003): http://www.historytoday.com

Schorske, Carl E., Fin-de-Siècle Vienna: Politics and Culture (New York, 1979)

Siefert, Marsha, 'From Cold War to Wary Peace: American Culture in the USSR and

Russia', in Alexander Stephan (ed.), The Americanization of Europe: Culture, Diplomacy and Anti-Americanism after 1945 (Oxford, 2006), 185–217

Singer, J. David and Melvin Small, Correlates of War Database, University of Michigan, www.umich.edu/~cowproj

Sullivan, James, Jeans: A Cultural History of an American Icon (New York, 2006)

Suri, Jeremi, Power and Protest: Global Revolution and the Rise of Détente (Cambridge, MA, 2003)

Tooze, Adam J., The Wages of Destruction: The Making and Breaking of the Nazi Economy (London, 2006)

Upadhyay, S. B., Existence, Identity and Mobilization: The Cotton Millworkers of Bombay, 1890–1919 (New Delhi, 2004)

Vries, Jan De, 'Between Purchasing Power and the World of Goods: Understanding the Household Economy in Early Modem Europe', in J. Brewer and R. Porter (eds.), Consumption and the World of Goods (London, 1993), 85–132

Wall, Rachel F., Japan's Century: An Interpretation of Japan's History Since the Eighteen-Fifties (London, 1964)

Westad, Odd Arne, The Global Cold War: Third World Interventions and the Making of our Times (New York, 2005)

Wheen, Francis, Karl Marx (London, 2002)

Wilde, Oscar, De Profundis and Other Writings, ed. Hesketh Pearson (London, 1986 [1905])

Wolcott, S. and Clark,G., 'Why Nations Fail: Managerial Decisions and Performance in Indian Cotton Textiles, 1890–1938', Journal of Economic History, 59, 2 (1999), 397–423

Wolle, Stefan, Der Traum von der Revolte: Die DDR 1968 (Berlin, 2008)

Chapter 6: Work

Aikman, D., The Beijing Factor: How Christianity is Transforming China and Changing the Global Balance of Power (Oxford/Grand Rapids, MI, 2003)

Austin, Alvyn, China's Millions: The China Inland Mission and Late Qing Society, 1832–1905 (Grand Rapids, MI/Cambridge, 2007)

Bao, Limin, 'The Intellectual Influence of Christianity in a Modern China Society', in H. Yang and Daniel H. N. Yeung (eds.), Sino-Christian Studies in China (Newcastle, 2006), 265–79

Barber, Benjamin R., Jihad vs. McWorld: Terrorism's Challenge to Democracy (London, 2003)

Barro, Robert J. and Rachel M. McCleary, 'Religion and Economic Growth across Countries', American Sociological Review (2003), 760–81

———, 'Religion and Political Economy in an International Panel', Harvard University working paper (Nov. 2003)

———, 'Which Countries Have State Religions?', Harvard University working paper (Feb. 2005)

Bays, D., 'Chinese Protestant Christianity Today', in D. L. Overmyer (ed.), Religion in China Today (Cambridge, 2003), 182–99

Becker, Sascha O. and Ludger Wssmann,'Was Weber Wrong? A Human Capital Theory of Protestant Economic History', Quarterly Journal of Economics, 124, 2 (2009), 531–96

Brown, Callum G., The Death of Christian Britain: Understanding Secularization, 1800–2000 (London, 2001)

Bruce, S., God is Dead: Secularization in the West (Malden, MA/Oxford, 2002)

Caldwell, Christopher, Reflections on the Revolution in Europe: Immigration, Islam and the West (New York, 2009)

Cantoni, David, 'The Economic Effects of the Protestant Reformation: Testing the Weber Hypothesis in the German Lands', Harvard University working paper (September 2009)

Chen Cunfu and Huang Tianhai, 'The Emergence of a New Type of Christians in China Today', Review of Religious Research, 46, 2 (2004), 183–200

Chesterton, G. K., A Short History of England (Charleston, SC, 2009 [1917])

———, 'The Miracle of Moon Crescent', in The Collected Works of G. K. Chesterton, vol. XIII (San Francisco, 2005), 94–117

———, 'The Patriotic Idea: England – A Nation', in James V. Schall (ed.), The Collected Works of G. K. Chesterton, vol. XX (San Francisco, 2001), 595–623

Chiswick, Barry, 'The Economic Progress of American Jewry: From 18th Century Merchants to 21st Century Professionals', University of Illinois working paper (Nov. 2009)

Cohen, Paul A., China and Christianity: The Missionary Movement and the Growth of Chinese Antiforeignism, 1860–1870 (Cambridge, MA, 1963)

Cox, Caroline and John Marks, The West, Islam and Islamism: Is Ideological Islam Compatible with Liberal Democracy?, 2nd edn (London, 2006)

Davie, G., Europe: The Exceptional Case: Parameters of Faith in the Modern World (London, 2002)

———, Religion in Britain since 1945 (Malden, MA/Oxford, 1994)

Delacroix, Jacques and François Nielsen, 'The Beloved Myth: Protestantism and the Rise of Industrial Capitalism in Nineteenth-Century Europe', Social Forces, 80, 2 (2001), 509–53

Dickson, Tony and Hugh V. McLachlan, 'In Search of "The Spirit of Capitalism": Weber's Misinterpretation of Franklin', Sociology, 23, 1 (1989), 81–9

Diktter, Frank, Mao's Great Famine: The History of China's Most Devastating Catastrophe (London, 2010)

Fenggang Yang, 'Cultural Dynamics in China: Today and in 2020', Asia Policy, 4 (2007), 41–52

———, 'Lost in the Market, Saved at McDonald's: Conversion to Christianity in Urban China', Journal for the Scientific Study of Religion, 44, 4 (2005), 423–41

Ferguson, Niall, The Ascent of Money: A Financial History of the World (London, 2008)

———, 'Economics, Religion and the Decline of Europe', Economic Affairs (2004), 37–40

Freud, Sigmund, Civilization and its Discontents, trans. James Strachey (New York, 1961 [1929–30])

———, The Future of an Illusion, trans. W. D. Robson-Scott (New York, 1928)

Gibbon, Edward, History of the Decline and Fall of the Roman Empire, ed. David Womersley (London, 1996)

Giddens, Anthony, Capitalism and Modern Social Theory: An Analysis of the Writings of Marx, Durkheim, and Max Weber (Cambridge, 1971)

Goldsworthy, Adrian, How Rome Fell: Death of a Superpower (New Haven, 2009)

Green, Robert W., Protestantism and Capitalism: The Weber Thesis and its Critics (Boston, 1959)

Grier, Robin, 'The Effect of Religion on Economic Development: A Cross National Study of 63 Former Colonies', Kyklos, 50, 1 (1997), 47–62

Guiso, Luigi, Paola Sapienza and Luigi Zingales, 'People's Opium? Religion and Economic Attitudes', Journal of Monetary Economics, 50 (2003), 225–82

Heather, Peter, The Fall of the Roman Empire: A New History (London, 2006)

Hunter, Alan and Kim-Kwong Chan, Protestantism in Contemporary China (Cambridge, 1993)

Iannaccone, Laurence R., 'Introduction to the Economics of Religion', Journal of Economic Literature, 36, 3 (1998), 1465–96

Jianbo Huang and Fenggang Yang, 'The Cross Faces the Loudspeakers: A Village Church Perseveres under State Power', in Fenggang Yang and Joseph B. Tamney (ed.), State, Market and Religions in Chinese Societies (Leiden/Boston, 2005), 41–62

Jiwei Ci, Dialectic of the Chinese Revolution (Stanford, 1994)

Kitch, M. J., Capitalism and the Reformation (London, 1967)

Koch, R. and C. Smith, Suicide of the West (London/New York, 2006)

Kuang-sheng Liao, Antiforeignism and Modernization in China, 1860–1980: Linkage between Domestic Politics and Foreign Policy (Hong Kong, 1984)

Lehmann, Hartmut and Guenther Roth, Weber's Protestant Ethic (Cambridge, 1993)

McLeod, Hugh and Werner Ustorf (eds.), The Decline of Christendom in Western Europe, 1750–2000 (Cambridge, 2003)

Marshall, Gordon, In Search of the Spirit of Capitalism (New York, 1982)

Micklethwait, John and Adrian Wooldridge, God is Back (London, 2009)

Morrison, Eliza A., Mrs Robert, Memoirs of the Life and Labours of Robert

Morrison, vol. I (London, 1839)

Ng, Peter Tze Ming, 'Timothy Richard: Christian Attitudes towards Other Religions and Cultures', Studies in World Christianity, 14, 1 (2008), 73–92

Peng Liu, 'Unreconciled Differences: The Staying Power of Religion', in Jason Kindopp and Carol Lee Hamrin (eds.), God and Caesar in China: Policy Implications of Church–State Tensions (Washington, DC, 2004), 149–64

Pew Forum on Religion and Public Life, Muslim Networks and Movements in Western Europe (Washington, DC, 2010)

Potter, P. B., 'Belief in Control: Regulation of Religion in China', in D. L. Overmyer (ed.), Religion in China Today (Cambridge, 2003), 11–32

Putnam, Robert D. and David E. Campbell, American Grace: How Religion Divides and Unites Us (New York/London, 2010)

Roth, Guenther and Wolfgang Schluchter, Max Weber's Vision of History (Berkeley, 1979)

Scaff, Lawrence A., 'Remnants of Romanticism: Max Weber in Oklahoma and Indian Territory', Journal of Classical Sociology, 5, 53 (2005), 53–72

Shaw, George Bernard, Back to Methuselah: A Metabiological Pentateuch (Charleston, 2009 [1921])

Sheehan, Rebecca, 'Liberation and Redemption in 1970s Rock Music', in Niall

Ferguson, Charles S. Maier, Erez Manela and Daniel Sargent (eds.), The Shock of the Global: The 1970s in Perspective (Cambridge, MA/London), 294–305

Simcox, Robin, Hannah Stuart and Houriya Ahmed, Islamist Terrorism: The British Connections (London, 2010)

Smith, Adam, An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations (London, 1904, [1776])

Sprenkel, Otto B. van der, 'Max Weber on China', History and Theory, 3, 3 (1964), 348–70

Steer, R., J. Hudson Taylor: A Man in Christ, 5th edn (London, 2009)

Stott, Grace, Twenty-six Years of Missionary Work in China (London, 1904)

Szasz, Thomas Stephen, Anti-Freud: Karl Kraus's Criticism of Psychoanalysis and Psychiatry (Syracuse, 1990)

Tawney, R. H., Religion and the Rise of Capitalism: A Historical Study (New York, 1926)

Taylor, James Hudson, Hudson Taylor: The Autobiography of a Man Who Brought the Gospel to China (Minneapolis, 1987)

Thompson, Phyllis, China: The Reluctant Exodus (Sevenoaks, 1979)

Tolstoy, Leo Nikolayevich, The Kingdom of God is within You (Charleston, SC, 2008 [1894])

Trevor-Roper, Hugh, 'Religion, the Reformation and Social Change', in Hugh Trevor-Roper, Religion, the Reformation and Social Change (London, 1967), 1–46

Viner, Jacob, Religious Thought and Economic Society (Durham, 1978)

Ward-Perkins, Bryan, The Fall of Rome and the End of Civilization (Oxford, 2005)

Weber, Marianne, Max Weber: A Biography (New Brunswick, 1988)

Weber, Max, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, trans. P. Baehr and G. C. Wells (London 2002 [1905])

Woodberry, Robert D., 'The Shadow of Empire: Christian Missions, Colonial Policy,

and Democracy in Postcolonial Societies', unpublished PhD thesis, University of North Carolina (2004)

World Values Survey Association (www.worldvaluessurvey.org), World Values Survey 1981–2008 Official Aggregate v.20090901 (2009), Aggregate File Producer: ASEP/JDS, Madrid

Yihua Xi, 'Patriotic Protestants: The Making of an Official Church', in Jason Kindopp and Carol Lee Hamrin (eds.), God and Caesar in China: Policy Implications of Church–State Tensions (Washington, DC, 2004), 107–21

Young, Cristobal, 'Religion and Economic Growth in Western Europe: 1500–2000', working paper (Princeton, 2009)

Zakaria, Fareed, The Future of Freedom: Illiberal Democracy at Home and Abroad (New York, 2003)

Zhao Dunhua, 'Recent Progress of Christian Studies Made by Chinese Academics in the Last Twenty Years', in H. Yang and Daniel H. N. Yeung (eds.), Sino-Christian Studies in China (Newcastle, 2006), 246–51

Zhuo Xinping, 'The Significance of Christianity for the Modernization of Chinese Society', in H. Yang and Daniel H. N. Yeung (eds.), Sino-Christian Studies in China (Newcastle, 2006), 252–64

Zuo Jiping, 'Political Religion: The Case of the Cultural Revolution in China', Sociological Analysis, 52, 1 (1991), 99–110

Conclusion: The Rivals

Berman, Paul, Terror and Liberalism (New York, 2004)

Bolingbroke, Viscount Henry St John, 'The Idea of a Patriot King', in The Works of Lord Bolingbroke, with a Life, vol. II (Philadelphia, 1841), 372–429

Buchanan, Mark, Ubiquity: The Science of History... Or Why the World is Simpler Than We Think (London, 2005)

Cecchetti, Stephen G., M. S. Mohanty and Fabrizio Zampolli, 'The Future of Public Debt: Prospects and Implications', BIS working papers no. 300 (March 2010)

Churchill, Winston S., 'Civilization', in Randolph S. Churchill (ed.), Blood, Sweat and Tears, (Whitefish, MT, 2007 [1940]), 45–9

Collier, Paul, The Plundered Planet: Why We Must – and How We Can – Manage Nature for Global Prosperity (Oxford, 2010)

Diamond, Jared, Collapse: How Societies Choose to Fail or Succeed (New York, 2005)

Economy, Elizabeth, 'The Game Changer: Coping with China's Foreign Policy Revolution', Foreign Affairs (Nov./Dec. 2010), 142–52

Eichengreen, Barry, Exorbitant Privilege: The Decline of the Dollar and the Future of the International Monetary System (Oxford, 2011)

Ferguson, Niall, The Cash Nexus: Money and Power in the Modern World (London, 2001)

Ferguson, Niall and Moritz Schularick, 'The End of Chimerica', International Finance (forthcoming)

Goldstone, Jack A., 'Cultural Orthodoxy, Risk and Innovation: The Divergence of East and West in the Early Modern World', Sociological Theory, 5, 2 (1987), 119–35

———, Revolution and Rebellion in the Early Modern World (Berkeley/Los Angeles/Oxford, 1991)

Guan Hanhui and Li Daokui, 'The GDP and Economic Structure of the Ming Dynasty' (forthcoming)

Hayes, Brian, 'Statistics of Deadly Quarrels', American Scientist (Jan.–Feb. 2002)

Hexter, J. H., 'Seyssel, Machiavelli, and Polybius VI: The Mystery of the Missing Translation', Studies in the Renaissance, 3 (1956), 75–96

Holland, John H., Emergence: From Chaos to Order (New York, 1998)

———, Hidden Order: How Adaptation Builds Complexity (New York, 1995)

Huntington, Samuel, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (New York/London/Toronto/Sydney, 1996)

———, 'The Clash of Civilizations', Foreign Affairs (Summer 1993), 22–49

Jacques, Martin, When China Rules the World: The Rise of the Middle Kingdom and the End of the Western World (London, 2009)

Kauffman, Stuart, At Home in the Universe: The Search for the Laws of Self-Organization and Complexity (New York, 1995)

Kennedy, Paul, The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000 (New York, 1989)

Kotkin, Stephen, Armageddon Averted: The Soviet Collapse, 1970–2000 (Oxford, 2001)

Krakauer, David, John Gaddis, and Kenneth Pomeranz (eds.), History, Big History and Metahistory (forthcoming)

Luard, Evan, War in International Society: A Study in International Sociology (New Haven/London, 1987)

Maddison, Angus, The World Economy: A Millennial Perspective (Paris, 2001)

Marès, Arnaud, 'Sovereign Subjects: Ask Not Whether Governments Will Default, But How', Morgan Stanley Research (August 2010)

Marshall, Monty G. and Ted Robert Gurr, Peace and Conflict 2005: A Global Survey of Armed Conflicts, Self-Determination Movements, and Democracy (College Park, MD, 2005)

Mitchell, Melanie, Complexity: A Guided Tour (New York, 2009)

Pinker, Steven, The Better Angels of our Nature: The Decline of Violence and its Psychological Roots (forthcoming)

Quigley, Carroll, Tragedy and Hope: A History of the World in our Time (New York/ London, 1966)

Raine, Sarah, China's African Challenges (Abingdon, 2009)

Richardson, Lewis F., Statistics of Deadly Quarrels (Pacific Grove, CA, 1960)

Sargent, Thomas J., 'The Ends of Four Big Inflations', in Thomas J. Sargent, Rational Expectations and Inflation (New York, 1993), 43–116

Sen, Amartya, Identity and Violence: The Illusion of Destiny (New York, 2006)

Sorokin, Pitrim, Social and Cultural Dynamics: A Study of Change in Major Systems of Art, Truth, Ethics, Law and Social Relationships (Boston, 1970 [1957])

Taleb, Nassim Nicholas, 'The Fourth Quadrant: A Map of the Limits of Statistics', Edge (15 Sept. 2008)

Tusicisny, Andrej, 'Civilizational Conflicts: More Frequent, Longer, and Bloodier?', Journal of Peace Research, 41, 4, (2004), 485–98

Waldrop, M. Mitchell, Complexity: The Emerging Science at the Edge of Chaos (New York, 1992)

Zakaria, Fareed, The Post-American World (New York, 2008)

«نيال فرغسون هو أحد أهمّ العلماء في العالم»
جامعة لندن - كليّة الاقتصاد والعلوم السياسية

عن الكاتب

واحد من أشهر المؤرّخين البريطانيين، يشغل منصب أستاذ التاريخ في جامعة هارفرد، وأستاذ في معهد وليام زيغلر في معهد هارفرد لإدارة الأعمال، ويُعَدّ من كبار الباحثين في جامعة أكسفورد، وفي معهد هوفر التابع لجامعة ستانفورد. كتب وقدّم خمسة مسلسلات تلفزيونية وثائقية لاقت نجاحاً هائلاً وصدر له عدد كبير من المؤلفات.

الحضارة

ليس في الأمر سرّ ولا وصفة سحريّة..

باستراتيجيات ست بين منافسة وعلم وديموقراطية وطب ومجتمع استهلاكي وأخلاقيات عمل، ألحقت حضارة أوروبا الغربية الهزيمة بإمبراطوريات الشرق المتفوّقة..

وتحوّلت من ممالك متخلّفة أنهكتها الحروب والأوبئة إلى حضارة تهيمن على العالم قاطبةً، بما فيها حضارات الشرق. وحدث، منذ ذاك الوقت، انقلاب كبير في موازين القوى العظمى..

كيف تمكّن الغرب من تحقيق هذه الاستراتيجيات «القاتلة»؟ ما هي البنية السياسية التي اتّبعتها البلدان فتقدّمت؟ كيف تفوّقت النزعة التجارية الهولندية مثلاً على إمبراطورية الصين العظيمة، أو كيف تمّ تحدّي الإمبريالية في الهند وجامايكا وجنوب إفريقيا؟

كتابٌ يحلّل ويوثّق كل ذلك عبر رحلة تاريخية استثنائية بجدارة عبر القنال الكبير في نانجينغ، وقصر توبكابي في اسطنبول، وماشو بيكو في الآنديز، وجزيرة القرمز في ناميبيا، وأبراج براغ والكنائس السرية في وينزهاوز.

كتاب يستفزّ منذ البداية، ويرضي طموح مُحبّي التاريخ بأدلّته ودقّة ملاحظاته وصدقية رؤيته وروايته للأحداث. تمكّن مؤلفه من التوجّه فيه إلى جميع الفئات العمريّة، عبر اعتماده أسلوباً سلساً، بسيطاً وواضحاً، دون أن يخلو من العمق البحثي.

ISBN 978-9953-88-737-1
9 789953 887371

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ -١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١١ ٩٦١+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر